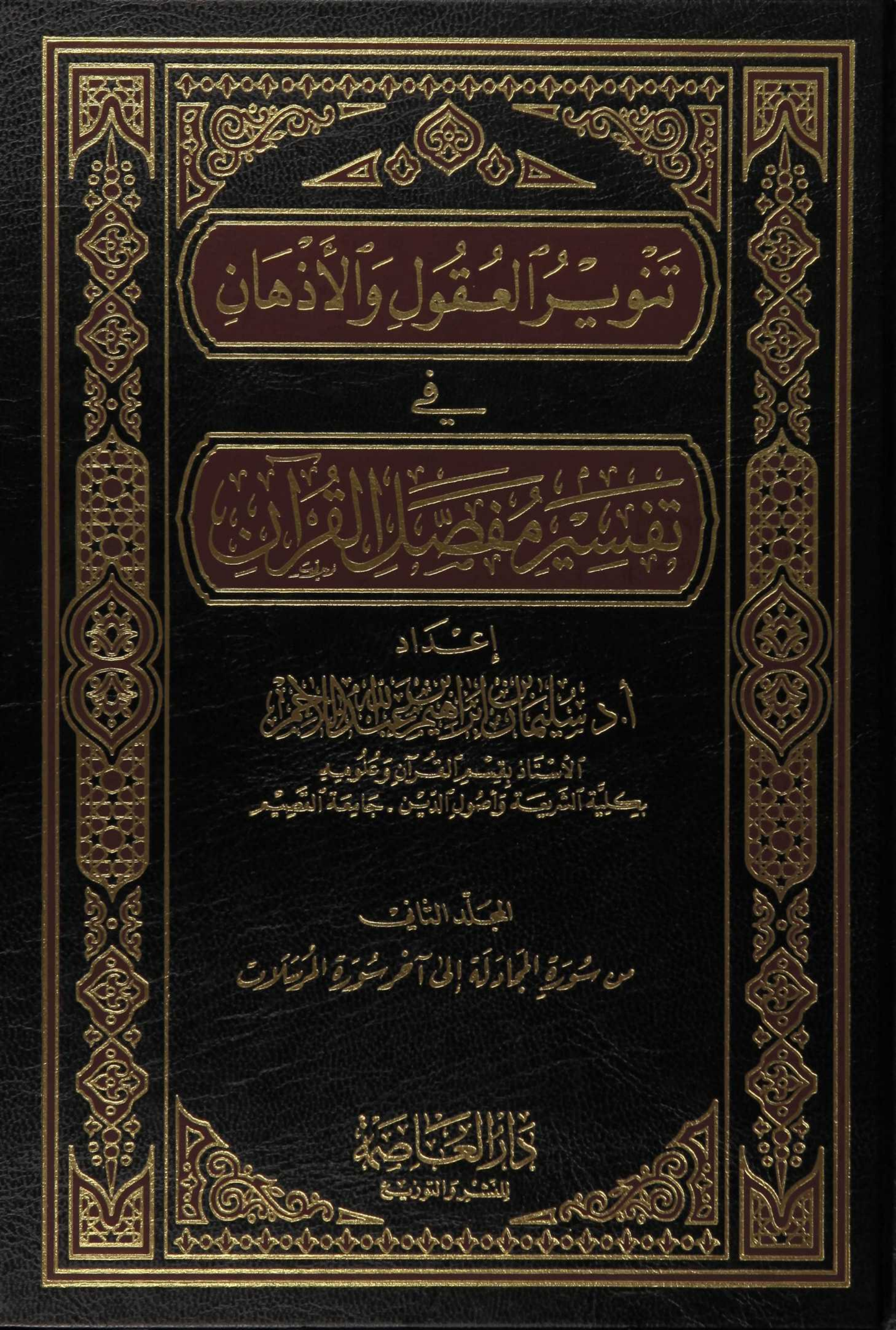
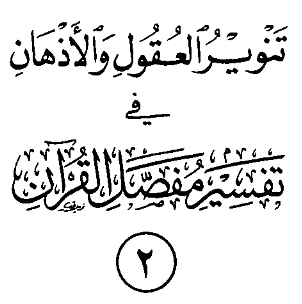

تنوير العقول والأذهان
في
تفسير مفصل القرآن
إعداد
أ.د. سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم
الأستاذ بتفسير القرآن وعلومه
بكلية الشريعة وأصول الدين - جامعة القصيم
المجلد الثاني
من سورة المجادلة إلى آخر سورة المرسلات
دار العاصمة
للنشر والتوزيع


تَنْوِيرُ العُقُولِ وَالأَذْهَانِ
فِي
تَفْسِيرِ مُفَصَّلِ القُرْآنِ
٢

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله
تنوير العقول والأذهان في تفسير مفصل القرآن. /
سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم - الرياض ، ١٤٢٨هـ
٣مج
ردمك ٨-٣٨-٦٩٢-٩٩٦٠ (مجموعة)
x-٤٠-٦٩٢-٩٩٦٠ (ج٢)
١- القرآن - تفسير أ- العنوان
ديوي ٢٢٧،٦ ١٤٢٨/٤٢٣٢

رقم الإيداع: ١٤٢٨/٤٢٣٢
ردمك: ٨-٣٨-٦٩٢-٩٩٦٠ (مجموعة)
x-٤٠-٦٩٢-٩٩٦٠ (ج٢)

الطَّبْعَةُ الأولى
١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م

دار العاصمة
المملكة العربية السعودية
الرياض - ص.ب ٤٢٥٠٧ - الرمز البريدي ١١٥٥١
هاتف ٤٩١٥١٥٤ - ٤٩٣٣٣١٨ - فاكس ٤٩١٥١٥٤

تنوير العقول والأذهان

في

تفسير مفصل القرآن

إعداد

أ.د سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم

الأستاذ بقسم القرآن وعلومه

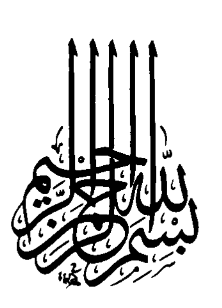
بكلية الشريعة وأصول الدين - جامعة القصيم

المجلد الثاني

من سورة المجادلة إلى آخر سورة المرسلات

دار العاصمة

للنشر والتوزيع



تفسير سورة المجادلة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

سبب النزول:

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادِلة إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت، ما أسمع ما تقول، فأنزل الله ـ عز وجل ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ إلى آخر الآية»[(١)].

وفي رواية عنها أنها قالت: «تبارك الذي أوعى سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة، ويخفى عليّ بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ ـ وهي تقول: يا رسول الله أكل شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبرت سني، وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، قالت فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ وزوجها أوس بن الصامت»[(٢)].

وعن خولة بنت ثعلبة رضي الله عنها قالت: «فيَّ ـ والله ـ وفي أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة، قالت: كنت عنده وكان شيخًا كبيرًا قد ساء خلقه، قالت:

---

(١) أخرجه البخاري ـ معلقًا ـ في كتاب التوحيد ـ باب (وكان الله سميعًا بصيرًا) «فتح الباري» ١٣/ ٣٧٢، وأخرجه موصولاً النسائي في الطلاق ٣٤٦٠، وابن ماجه في المقدمة ـ باب فيما أنكرت الجهمية ١٨٨، وأحمد ٦/ ٤٦، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٥٤-٤٥٥، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٤٢، والواحدي في «أسباب النزول» ص٢٧٣.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٥٤، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٤٢، والواحدي في «أسباب النزول» ص٢٧٣.

فدخل عليّ يومًا فراجعته بشيء فغضب فقال: أنتِ عليَّ كظهر أمي، قالت: ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة، ثم دخل عليَّ فإذا هو يريدني عن نفسي، قالت: قلت: كلا، والذي نفس خويلة بيده لا تخلص إليّ وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه قالت: فواثبني وامتنعت منه، فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف، فألقيته عني، قالت: ثم خرجت إلى بعض جاراتي فاستعرت منها ثوبًا، ثم خرجت حتى جئت رسول الله ﷺ فجلست بين يديه، فذكرت له ما لقيت منه، وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه قالت: فجعل رسول الله ﷺ يقول: «**يا خويلة، ابن عمك شيخ كبير، فاتقي الله فيه**». قالت: فوالله ما برحت حتى نزل فيَّ القرآن فتغشى رسول الله ـ ﷺ ـ ما كان يتغشاه، ثم سُرِّي عنه، فقال لي: «**يا خويلة، قد أنزل الله فيك وفي صاحبك، ثم قرأ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾** إلى قوله ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾». قالت: فقال رسول الله ـ ﷺ ـ «**مريه فليعتق رقبه**». قالت: فقلت يا رسول الله ما عنده ما يعتق، قال: «**فليصم شهرين متتابعين**» فقلت: والله إنه شيخ كبير، ما به من صيام قال: «**فليطعم ستين مسكينًا، وسقًا من تمر**» قالت: قلت: يا رسول الله، ما ذاك عنده. قالت: فقال رسول الله ـ ﷺ ـ «**فإنا سنعينه بعَرقٍ[1] من تمر**» قالت: فقلت: يا رسول الله، وأنا سأعينه بِعَرَقٍ آخر، قال: «**قد أصبت وأحسنت، فاذهبي فتصدقي به عنه، ثم استوصي بابن عمك خيرًا**» قالت: ففعلت»[2].

قال ابن كثير[3]: «هذا هو الصحيح في سبب نزول صدر هذه السورة فأما حديث سلمة بن صخر، فليس فيه أنه كان سبب النزول، ولكن أمر بما أنزل الله في هذه السورة، من العتق أو الصيام، أو الإطعام».

ثم ذكر حديث سلمة بن صخر رضي الله عنه ـ من رواية الإمام أحمد[4]، وفيه: أنه ظاهر

---

(١) العَرَق: بفتح العين والراء: الزنبيل أو المكتل المنسوج من الخوص انظر: «النهاية»، «لسان العرب» مادة «عرق».
(٢) أخرجه أبو داود في الطلاق ـ باب في الظهار ٢٢١٤، وأحمد ٦/ ٤١٠-٤١١، والواحدي في «أسباب النزول» ص ٢٧٤.
(٣) في «تفسيره» ٨/ ٦٢.
(٤) أخرجه أحمد ٤/ ٣٧، وأبو داود في الطلاق ـ باب في الظهار ٢٢١٣، والترمذي في التفسير ٣٢٩٩، وابن ماجه في الطلاق ـ باب الظهار ٢٠٦٢.
وقال الترمذي: «حديث حسن، محمد بن يسار ـ يعني راوي الحديث عن سلمة بن صخر ـ قال: لم يسمع عندي من سلمة بن صخر».

من زوجته لما دخل رمضان حتى ينسلخ خوفًا أن يقع عليها في نهار رمضان فوقع عليها ذات ليلة فأخبر النبي ﷺ بذلك وأمره بالتكفير عن ذلك بما ذكر الله عز وجل في هذه السورة.

وأيضًا فإن الثابت في الصحيحين وغيرهما في قصة سلمة بن صخر كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه ـ قال: «بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ إذ جاءه رجل، فقال: يا رسول الله هلكت قال: «مالك»؟ قال: وقعت على امرأتي وأنا صائم. فقال رسول الله ﷺ: «هل تجد رقبة تعتقها»؟ قال: لا. قال: «فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين»؟ قال: لا. قال: «فهل تجد إطعام ستين مسكينًا»؟ قال: لا. قال: فمكث النبي ﷺ فبينا نحن على ذلك أُتي النبي ﷺ بعَرَق فيه تمر ـ والعَرَق: المكتل ـ قال: «أين السائل»؟. فقال: أنا. قال: «خذ هذا فتصدق به». فقال الرجل: أعلى أفقر مني يا رسول الله، فوالله ما بين لابتيها ـ يريد الحرتين ـ أهل بيت أفقر من أهل بيتي، فضحك النبي ﷺ حتى بدت أنيابه، ثم قال: «أطعمه أهلك»[1].

فهذا هو الثابت المتفق عليه في قصة سلمة بن صخر، وهو أنه جامع في نهار رمضان، وليس فيه شيء عن سبب نزول الآيات في الظهار ـ وإن كان قد أعطي حكم الجامع في نهار رمضان حكم المظاهر من زوجته.

قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾.

(قد) حرف تحقيق، تفيد تحقيق سماعه عز وجل قولها وشكواها كما قال عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾.

﴿ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ أي: تحاجك وتخاصمك، وهي خولة[2] بنت ثعلبة، أو بنت مالك بن ثعلبة رضي الله عنها (في زوجها) أوس بن الصامت ـ رضي الله عنه، كما جاء في سبب النزول.

وقد رُوِيَ: «أن امرأة لقيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو يسير مع الناس، فاستوقفته، فوقف لها، ودنا منها، وأصغى لها، ووضع يديه على منكبيها حتى قضت حاجتها وانصرفت، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين حبست رجالات قريش على هذه

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٣٦، ومسلم في الصيام ١١١١، وأبو داود في الصوم ٢٣٩٠، والترمذي في الصوم ٧٢٤، وابن ماجه في الصيام ١٦٧١.

(٢) يقال: خولة، ويقال خويلة: انظر «جامع البيان» ٢٢/ ٤٤٦.

العجوز؟! قال: ويحك! وتدري من هذه؟ قال: لا، قال: هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سموات هذه خولة بنت ثعلبة، والله لو لم تنصرف عني إلى الليل ما انصرفت حتى تقضي حاجتها إلا أن تحضر صلاة فأصليها، ثم أرجع إليها حتى تقضي حاجتها»[١].

والمعنى: قد سمع الله قول خولة بنت ثعلبة التي جاءتك تحاجك وتخاصمك في شأن زوجها، وما حصل منه معها.

والمراد: أنها جاءت تطلب حكم الله ورسوله فيما حصل من زوجها كما قالت في قصة سبب النزول: «والذي نفس خويلة بيده لا تخلص إليَّ وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه».

﴿وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: وترفع إلى الله ضراعتها وفاقتها وحالها وحال صبيتها، وتسأله الفرج، كما في قولها: «يا رسول الله أكل شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبرت سني، وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك»[٢].

وفي رواية أنها قالت: «أشكو إلى الله فاقتي»[٣].

ورُوي أنها قالت: «إن لي صبية صغارًا إن ضمهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليّ جاعوا»[٤].

فجادلت الرسول الله ﷺ وحاجَّته وخاصمته ليبين لها حكم الله ورسوله فيما حصل من زوجها. ويؤخذ من هذا وجوب التحاكم إلى الله ورسوله ﷺ.

وشكت إلى الله عز وجل وحده الذي إليه الشكوى فلم تشك حالها إلى النبي ﷺ لعلمها أنه ﷺ بشر لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا كما قال فيما حكاه الله عز وجل عنه: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وشكت حالها إلى الله عز وجل مع فعل السبب وهو البحث عن مخرج لها ولزوجها مما حصل منه، وذلك بمجيئها إلى رسول الله ﷺ لبيان الحكم في ذلك، ولهذا سارعت -

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٤٢ - عن ابن زيد.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الطلاق - باب الظهار ٢٠٦٣، والحاكم ٢/ ٤٨١، ومعنى «نثرت له بطني» أي: أنها ولدت له أولادًا كثيرين، وهي شابة.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٤٧ - عن أبي العالية.

(٤) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٩٦.

رضي الله عنها ـ إلى مساعدة زوجها بعرق من تمر للتكفير عما حصل منه.

ويؤخذ من الآية وجوب رفع الشكوى إلى المولى عز وجل الذي يكشف الضر ويرفع البلوى م،ع بذل الأسباب، كما هو مقتضى الإيمان بالله عز وجل أن يعتمد المسلم على الله عز وجل ويأخذ بالأسباب، كما قال عز وجل ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود:١٢٣].

وقال عز وجل: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾ [النساء:٣٢]

وقال ﷺ: «**احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز**»[(١)].

فهو عز وجل مالك الملك وإليه المشتكى كما قيل:

.... لمن يشتكي المملوك إلا لمولاه[(٢)]

ولقد كان من أعظم أسباب ضعف الأمة على مستوى الأفراد والجماعات والدول ضعف الاعتماد على الله، والتقصير في الأخذ بالأسباب، أو الاعتماد عليها فقط، فكم نشكو أحوالنا إلى الناس، وكم نقصر في الأخذ بالأسباب الكونية، وكم نعتمد في طلب جلب النفع ودفع الضر على الأسباب المادية فقط.

فإذا كان للإنسان حاجة كأن يريد تحقيق أمر من الأمور، أو أصابته مصيبة من فقر أو مرض أو تسلط عدو، ونحو ذلك أنزل حاجته ومصيبته بالآخرين، مع الغفلة عن مسبب الأسباب وهو الله عز وجل الذي بيده حقًا جلب النفع ودفع الضر كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [الأنعام: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته، ومن أنزلها بالله أوشك الله له بالغنى، إما بموت عاجل، أو غنى عاجل**»[(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم في القدر ٢٦٦٤، وابن ماجه في المقدمة ٧٩ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) هذا شطر بيت من قصيدة تنسب للأديب أبي بكر محمد بن محمد بن رشد البغدادي في دعاء عرفة والبيت بتمامه:

إليّ فإني ربهم ومليكهم لمن يشتكي المملوك إلا لمولاه

(٣) أخرجه أبو داود في الزكاة ١٦٤٥، والترمذي في الزهد ٢٣٢٦، وقال: «حديث حسن صحيح غريب» ومن العجيب والواقع فعلا أن بعضًا من الإخوة كانوا في مراجعة لإحدى الوزارات فمروا على أحد الموظفين ليساعدهم لإنهاء معاملتهم في الوزارة، وكان رجلاً صالحًا، فقال لهم: هذا المسجد صلوا فيه ركعتين واسألوا الله التيسير وسوف يتيسر =

ولقد أحسن القائل:

وإذا شكوت إلى الأنام فإنما تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

وقال الآخر:

لا تشكونّ لمخلوق فتورثه شكوى الجريح إلى الغربان والرخم

ولكن ينبغي عدم الخلط بين شكوى الحال إلى الغير، وبين ما كان من باب المشورة والاستئناس برأي صديق محب، وناصح عاقل لبيب فيما قد يعرض للإنسان في حياته من أمور يحتاج فيها إلى ذلك، فإن المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه، فهذا ليس من الشكوى المنهي عنها، ومن هذا قول الشافعي رحمه الله.

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي

وقال اعلم بأن العلم نور ونور الله لا يؤتاه عاصي

ولهذا قال الآخر:

ولابد من شكوى إلى ذي مروءة يواسيك أو يسليك أو يتوجع

وكلنا يعرف قصة سلمان الفارسي مع أخيه أبي الدرداء رضي الله عنهما وزوجته رضي الله عنها كما في حديث أبي جحيفة عن أبيه رضي الله عنه قال: «آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء متبذلة، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا. فجاء أبو الدرداء فصنع له طعامًا، فقال: كل قال: فإني صائم قال: ما أنا بآكل حتى تأكل قال: فأكل فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم قال: نم، فنام ثم ذهب يقوم، فقال: نم، فلما كان من آخر الليل قال سلمان: قم الآن. فصليا فقال له سلمان: «إن لربك عليك حقًا، ولنفسك عليك حقًا، ولأهلك عليك حقًا، فأعط كل ذي حق حقه. فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له فقال النبي ﷺ: «**صدق سلمان**»[1].

=

أمركم بإذن الله عز وجل؟ ولك أن تتصور ماذا كان جوابهم لقد كان جوابهم أن قالوا: موضوعنا صعب، ما هي المسألة مسألة ركعتين ـ وهذه القصة واقعة فعلاً. وهذا لسان حال كثير من المسلمين اليوم، إن لم يكن لسان المقال عند بعضهم وأترك لك أخي القارئ تفسير هذا !!.

(١) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٦٨، والترمذي في الزهد ٢٤١٣.

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: دخلت عليّ خويلة بنت حكـيم بـن أميـة بـن حارثـة بـن الأوقص السلمية، وكانت عند عثمان بن مظعون، قالت: فرأى رسول الله ﷺ ـ بـذاذة هيئتهـا، فقـال لي: يا عائشة ما أبذ هيئة خويلة. قالت: فقلت يا رسول الله امـرأة لا زوج لهـا، يصـوم النهـار ويقـوم الليل، فهي كمن لا زوج لها، فتركت نفسها وأضاعتها. قالت: فبعـث رسـول الله ﷺ إلى عثمـان بـن مظعون، فجاءه. فقال: يا عثمـان أرغبـت عـن سـنتي؟ فقـال: لا والله يـا رسـول الله، ولكـن سـنتك أطلب. قال: فإني أنام وأصلي، وأصوم، وأفطر، وأنكح النساء، فاتق الله يا عثمان فإن لأهلك عليـك حقا، وإن لضيفك عليك حقا، وإن لنفسك عليك حقا، فصم وأفطر، وصل ونم»[١].

وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «دخل رسول الله ﷺ ذات يوم المسجد فإذا هو برجل من الأنصار يقال له أبو أمامة فقال: يا أبا أمامة ما لي أراك جالسًا في المسجد في غير وقت الصلاة؟ قال: هموم لزمتني وديون يا رسول الله قال: أفلا أعلمك كلامًا إذا أنت قلته أذهب الله عز وجل همك وقضى عنك دينك قال: قلت: بلى يا رسول الله قال: «قل إذا أصبحت، وإذا أمسيت: اللهم أني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال» قال: ففعلت ذلك فأذهب الله عز وجل همي وقضى عني ديني»[٢].

والإنسان في هذه الحياة معرض لأنواع من المصائب والابتلاء في نفسه وأهله وولده وماله وغير ذلك، وقد تحيط به ظروف نفسية أو مرضية أو مالية أو اجتماعية ونحو ذلك يضيق بها ذرعًا وربما لو أحسن التعامل معها بتوفيق الله ثم بمشورة من يثق به من إخوانه لوجد بإذن الله عز وجل وعونه منها مخرجًا بدلاً من أن ينغلق المرء على نفسه وتحيط به الوساوس والهموم، وتحتوشه الشياطين، فمن ألمت به ملمة فلا بأس بعد اللجوء إلى الله عز وجل وسؤاله المخرج منها أن يستعين بمن يثق بهم من إخوانه من أهل الخبرة والتجربة والرأي السديد والنصح، وقد يكون الكثير منهم مر عليه مثل هذه المشكلة أو على غيره ممن يعرفهم وعرف أحوال الناس في هذا فيهوّن على أخيه مصابه ويقوي ثقته بربه، وأن الله سيجعل له فرجًا ومخرجًا مما هو فيه، كما قال عز وجل ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٥-٦]، ويوجهه إلى فعل السبب المناسب بعد التوكل على الله عز وجل.

(١) أخرجه أحمد ٦/٢٦٨.
(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة ١٥٥٥.

ولقد أحسن من قال:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن ... برأي نصيح أو نصيحة حازم

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... فإن الخوافي قوة للقوادم

ولقد ابتليت في أول عملي في التدريس ـ وقبل أن أجرب الناس ـ بزميل حصل منه بعض الأذى لي ـ عفا الله عني وعنه ـ فضقت ذرعًا بذلك، لأني لا أرى سببًا لذلك، وفكرت في الانتقال من ذلك العمل لأجل ذلك، فشرحت لأحد الإخوة من ذوي التجربة السبب الذي دعاني للتفكير في موضوع النقل، فقال لي هوّن عليك هذا من تنافس الأقران فعرفت من حينها أن هذا الأمر ـ وإن كان لا يجوز ـ قد مر على غيري، وعرفت أن كل ذي نعمة محسود، فصبرت على ذلك وحمدت العاقبة بفضل الله وتوفيقه.

وذكر أحد الثقات أن أحد الإخوة تنكرت له زوجته بعد عشرة طيبة طويلة فشق ذلك عليه، واستشار أحد الإخوة المحبين من ذوي الخبرة والتجربة، فقال له هذا الأخ الخبير المجرب كيف أنت معها في أمر النساء «يعني الجماع»؟ فقال: لقد ركبتني ديون وهموم حتى أصبحت لا أهنأ بنوم، فكيف بأمر النساء، أي: ليس لي فيه عهد منذ زمن طويل، فقال له هذا الأخ المجرب: هذا هو السبب فيما حصل من زوجتك، فعاد الزوج معها في هذا الأمر بما تيسر له من أسباب فعادت العشرة الطيبة بينهما وكما قيل:

فإن تسألوني بالنساء فإنني ... خبير بأدواء النساء طبيب

إذا شاب رأس المرء أو قل ماله ... فليس له من ودهن نصيب

يردن ثراء المال حيث وجدنه ... وشرخ الشبابْ عندهن عجيب

وهذا أمر جبلت عليه المرأة، وكذا الرجل هو الآخر يريد منها مثل ما تريد منه، فكل منهما مطالب بأداء حق الآخر، وكل فتور من أحدهما في حق الآخر، بل وفي الظهور أمامه بالمظهر الحسن هو سبب لبرود العلاقة بينهما، ولهذا قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما: «إني أحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لي، لأن الله تعالى ذكره قال: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾»[1].

والأخبار في مثل هذا كثيرة مستفيضة، فكم من إنسان انغلق أمامه ـ بحسب تصوره ـ باب الرزق، أو الزواج أو زوال ما يعانيه من مشكلات مرضية أو نفسية أو اجتماعية، أو غير

---

(١) اخرجه الطبري في «جامع البيان» ٤/ ١٢٠، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٢/ ٤١٧.

ذلك، فزال ذلك بتوفيق الله عز وجل وتيسيره بعد استشارة من يثق بهم من إخوانه من أهل النصح والمعرفة والتجربة وبالمقابل فكم من زوجين افترقا، وكم من والد وأولاده وإخوة وأقارب وجيران وأصحاب ساءت علاقاتهم وتنغصت حياتهم وتفاقم الخلاف بينهم وربما وصل الأمر بينهم إلى الهجران والتقاطع بسبب اختلاف لا يكاد يذكر وما أكثر هذا[١].

﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ أي: والله يسمع ما جرى بينكما من حوار وضمير المثنى يعود إلى النبي ﷺ وإلى خولة بنت ثعلبة ـ رضي الله عنها ـ وفي هذا إثبات سماع الله عز وجل ـ لكلامهما معًا، كما أن في أول الآية إثبات سماع الله لكلامها هي.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ «إن» حرف توكيد ونصب، و«السميع» و «البصير» اسمان من أسماء الله عز وجل، كل منهما على وزن «فعيل، يدل «السميع» على إثبات صفة السمع لله عز وجل على ما يليق بجلاله وعظمته، وأنه عز وجل يسمع جميع الأقوال والأصوات، السر، والجهر عنده سواء كما قال عز وجل: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه:٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الملك:١٣]، وقال عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام:٣]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ [الأعلى:٧].

قال ابن القيم[٢] في كلامه عن قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾: «فلا يشك صحيح الفهم البته في هذا الخطاب أنه نص صريح لا يحتمل التأويل بوجه في إثبات صفة السمع للرب ـ تعالى حقيقية، وأنه بنفسه سمع».

وقال أيضًا في «النونية» [٣]:

---

(١) والسبب في هذا كله أن كثيراً من المسلمين ـ وإن ولدوا في الإسلام وشبوا فيه وربما شابوا لم يربوا على ما جاء في القرآن الكريم من التوجيهات الإلهية، ولا على ما جاء في السنة المطهرة من التعاليم النبوية تجاه مشاكل الحياة وكيفية التعامل معها، فأصبح كل صاحب يريد الكمال من صاحبه والكمال في البشر نادر عزيز.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٣٩٥.

(٣) ص١٤٦.

وهو السميع يرى ويسمع كل ما ... في الكون من سر ومن إعلان
ولكل صوت منه سمع حاضر ... فالسر والإعلان مستويان
والسمع منه واسع الأصوات لا ... يخفى عليه بعيدها والداني

ويدل «البصير» على إثبات صفة البصر لله عز وجل على ما يليق بجلاله وعظمته، وأنه عز وجل يبصر ويرى جميع المخلوقات لا تخفى عليه خافية منها ومن أعمال الخلق وأحوالهم وأقوالهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] فهو عز وجل ـ يسمع ويرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء.

قال ابن القيم[١]:

وهو البصير يرى دبيب النملة السوداء ... تحت الصخر والصوان
ويرى مجاري القوت في أعضائها ... ويرى بياض عروقها بعيان
ويرى خيانات العيون بلحظها ... ويرى كذاك تقلب الأجفان

فهو ـ سبحانه وتعالى يسمع جميع الأقوال والأصوات، ويبصر ويرى جميع الكائنات والمخلوقات.

قال الشاعر:

يا من يرى مدَّ البعوض جناحها ... في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى مناط عروقها في نحرها ... والمخ من بين العظام النُّحَّل
امنن عليَّ بتوبة تمحو بها ... ما كان مني في الزمان الأول

قال السعدي[٢] في كلامه على الآية: «وهذا إخبار عن كمال سمعه وبصره، وإحاطتهما بالأمور الدقيقة والجليلة، وفي ضمن ذلك الإشارة بأن الله سيزيل شكواها وبلواها».

﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ «الذين» اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ، و «يظاهرون» صلة الموصول، وخبره (ما هن أمهاتهم).

قرأ عاصم (يُظاهرون) بضم الياء وتخفيف الظاء والهاء وألف بينهما في الموضعين،

---

(١) في «النونية»، ص١٤٦

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/٣٠٨.

وقرأ أبو جعفر وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف بفتح الياء وتشديد الظاء وألف بعدها وتخفيف الهاء وفتحها «يَظّاهرون» وقرأ الباقون كذلك إلا أنه بتشديد الهاء من غير ألف قبلها «يَظّهّرون».

ومعنى (يظاهرون من نسائهم) أي: يقول أحدهم لزوجته: أنت عليّ كظهر أمي، أي: كما أنه يحرم عليَّ أن أركب ظهر أمي، وأن أطأها فكذلك أنت أيتها الزوجة يحرم عليَّ أن أركبك وأن أطأك. وسُمي ظهارًا اشتقاقًا من الظهر، وقد كان هذا في الجاهلية يعد طلاقًا يحرم المرأة مطلقًا.

عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان الرجل إذا قال لامرأته في الجاهلية أنت عليَّ كظهر أمي حرمت عليه، فكان أول من ظاهر في الإسلام أوس، وكانت تحته ابنة عم له يقال لها «خويلة» بنت ثعلبة فظاهر منها، فأسقط في يديه، وقال: ما أراك إلا قد حرمتِ عليّ وقالت له مثل ذلك، قال: فانطلقي إلى رسول الله ﷺ فأتت رسول الله ﷺ فوجدت عنده ما شطة تمشط رأسه ـ فقال: «يا خويلة ما أمرنا في أمرك بشيء» فأنزل الله على رسوله ـ ﷺ ـ فقال: «يا خويلة أبشري» قالت: خيرًا فقرأ عليها: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ إلى قوله ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ قالت: وأي رقبة لنا؟ والله ما يجد رقبة غيري قال: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ قالت: والله لولا أنه يشرب في اليوم ثلاث مرات لذهب بصره! قال: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ قالت: من أين؟ ما هي إلا أكلة إلى مثلها! قال: «فدعا بشطر وسق» ـ ثلاثين صاعًا، والوسق: ستون صاعًا ـ فقال: «ليطعم ستين مسكينًا وليراجعك»[1].

وفي رواية عن مجاهد عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «أول من ظاهر من امرأته أوس بن الصامت أخو عبادة بن الصامت، وامرأته خولة بنت ثعلبة بن مالك، فلما ظاهر منها حسبت أن يكون ذلك طلاقًا فأتت رسول الله ﷺ ـ فقالت: يا رسول الله، إن أوسًا ظاهر مني، إن افترقنا هلكنا، وقد نثرت بطني منه، وقدمت صحبته، وهي تشكو ذلك وتبكي، ولم يكن جاء في ذلك شيء، فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٤٨-٤٤٩. وقال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٦٤: «إسناد جيد قوي، وسياق غريب».

زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى قوله ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فدعاه رسول الله ﷺ - فقال: «أتقدر على رقبة تعتقها»؟ قال: لا والله يا رسول الله ما أقدر عليها. قال: فجمع له رسول الله ﷺ حتى أعتق عنه، ثم راجع أهله»[1].

والخطاب في قوله (منكم) للمؤمنين أمة الإجابة.

والمراد بـ (نسائهم) زوجاتهم.

﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾ «ما» نافية عاملة عمل «ليس»، و «هن» اسمها مبني على الفتح في محل رفع، و «أمهات» خبرها منصوب بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم، وضمير «هم» مضاف إليه، أي: ليست أزواجهم أمهاتهم، ولا يمكن أن تكون أزواجهم أمهاتهم بمجرد هذا القول ونحوه، فنفى ما أثبتوه، وهذا تكذيب لهم. والأمهات: جمع أم، أو جمع أمهة، وهي التي ولدت، ويدخل فيها الجدات وإن علون، من أي جهة كن، كما تدخل فيها الأمهات من الرضاع لقوله تعالى ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾ [النساء:٢٣]، ولقوله ﷺ «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب»[2].

﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ «إن»حرف نفي بمعنى «ما» أي: ما أمهاتهم.

﴿إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ﴾ إلا أداة حصر، أي: ما أمهاتهم حقيقة إلا اللائي ولدنهم، أو إنما أمهاتهم حقيقة اللائي ولدنهم.

فأبطل الله عز وجل أن تكون الزوجة أمّاً بمجرد الظهار، وبيَّن أن أم الشخص حقيقة هي التي ولدته، ثم بين نكارة هذا القول وكذبه وشده حرمته فقال:

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾ الواو عاطفة، و «إن» حرف توكيد ونصب والضمير «هم» اسمها مبني على السكون في محل نصب، وجملة (ليقولون) خبرها في محل رفع، واللام فيه للتوكيد.

(منكرًا) صفة لمصدر محذوف، أي: ليقولون قولاً منكرًا، أو مفعول ليقولون.

والمنكر: ما أنكره الشرع، وعُرْفُ المسلمين قولاً كان أو فعلاً.

وقدّم وصف القول بكونه منكرًا على الموصوف وهو القول إشارة إلى عظم نكارته وشدتها.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٥٥. وأخرجه الواحدي في «أسباب النزول» ص٢٧٤، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الشهادات ٢٦٤٥، ومسلم في الرضاع ١٤٤٧، والنسائي في النكاح ٣٣٠٥، وابن ماجه في النكاح ١٩٣٨ ـ من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما.

(وزورا) أي: وكذبا باطلاً، مزوّرا مخالفًا للحق، والزور من أكبر الكبائر، ولهذا قال ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، ثم قال: ألا وشهادة الزور، ألا وقول الزور، قال الصحابة ـ رضي لله عنهم ـ فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت»[1].

فبين الله ـ عز وجل ـ أن الظهار كذب في ثلاثة مواضع الأول: في قوله ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَـٰتِهِمْ﴾ فنفى ما أثبتوه وهذا حقيقة التكذيب.

الثاني: في قوله ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ والمنكر ما خالف الشرع والحق.

الثالث: في قوله ﴿وَزُورًا﴾ والزور الكذب.

وإذا كان الظهار منكراً من القول وزوراً وكذباً، فهو محرم غاية التحريم ومرتكبه آثم إثما عظيماً.

قال ابن القيم[2]: «الظهار حرام لا يجوز الإقدام عليه، لأنه كما أخبر الله عنه منكر من القول وزور، وكلاهما حرام، والفرق بين جهة كونه منكرًا وجهة كونه زورًا أن قوله: أنت عليَّ كظهر أمي يتضمن إخباره عنها بذلك، وإنشاءه تحريمها، فهو يتضمن إخبارًا وإنشاءً، فهو خبّر زورٌ وإنشاءٌ منكرٌ، فإن الزور هو الباطل خلاف الحق الثابت».

وقال أيضًا[3] بعد ما ذكر الاختلاف في قول المظاهر: أنت عليَّ كظهر أمي، هل هو إنشاء أو إخبار قال: «وفصل الخطاب أن قوله : أنت عليَّ كظهر أمي يتضمن إنشاءً وإخبارًا، فهو إنشاء من حيث قصد التحريم، وإخبار من حيث تشبيهها بظهر أمه، ولهذا جعله الله منكرًا من القول وزورًا، فهو منكر باعتبار الإنشاء، وزور باعتبار الإخبار».

وإنما كان الظهار قولاً منكرًا، فاحشًا شرعًا وعرفًا، وزوراً وكذبًا وباطلاً ومحرمًا غاية التحريم؛ لأن الزوجة لا تكون أمًّا بمجرد الظهار، ولا تطلق بمجرد الظهار، ولا تحرم على زوجها بمجرد ذلك، ولأن أمر التحليل والتحريم إلى الله عز وجل ولا يجوز للمسلم أن يحرم على نفسه شيئًا مما أباحه الله له، ولو حرم ذلك لم يكن حرامًا.

فقد قال عز وجل لنبيه ـ ﷺ ـ لما حرم على نفسه ﷺ العسل أو مارية القبطية[4]

---

(١) أخرجه البخاري في الشهادات ٢٦٥٤، ومسلم في الإيمان ٨٧، والترمذي في البر والصلة ١٩٠١ـ من حديث أبي بكرة ـ رضي الله عنه.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٩٩.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٤١٨-٤١٩.

(٤) كما جاء في سبب نزول الآيات، مطلع سورة التحريم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَۚ﴾ إلى قوله: ﴿ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْۚ﴾ [التحريم: ١، ٢].

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾

الواو: عاطفة و «إن» حرف توكيد ونصب، ولفظ الجلالة اسمها، (عفو) خبرها، واللام للتوكيد، و(غفور) خبر ثان لـ «إن».

و «العفو» اسم من أسماء الله ـ عز وجل ـ على وزن «فعول» يدل على إثبات صفة العفو الواسع لله عز وجل ومعنى «العفو» المتجاوز عن ذنوب عباده، فيمحوها، ولا يعاقبهم عليها.

قال ابن القيم[1]:

وهو العفو بعفوه وسع الورى لولاه غار الأرض بالسكان

بل إنه عز وجل يبدل سيئات التائبين حسنات إذا صدقت توبتهم كما قال عز وجل: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان:٧٠].

وعفوه عز وجل عفو كامل مع القدرة على العقوبة، بخلاف عفو المخلوق فقد يكون عن ضعف وعدم قدرة ولهذا قرن الله ـ عز وجل ـ عفوه بالقدرة، فقال عز وجل: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ [النساء:١٤٩].

و«الغفور» اسم من أسماء الله ـ عز وجل على وزن «فعول» يدل على إثبات صفة المغفرة الواسعة لله ـ عز وجل.

وهو مأخوذ من المغفرة، وهي: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة ـ كما جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما ـ في المناجاة [2]. ومنه سمي «المغفر» البيضة التي توضع على الرأس في القتال، تستره وتقيه السهام.

وحيث اجتمع في هذه الآية «العفو» و «الغفور» فالأولى حمل «الغفور» هنا على معنى الستر، أو يحمل «العفو» على العفو عن ترك الواجب، و«الغفور» عن ارتكاب المحرم ـ لئلا يقال بالترادف، ولأن التأسيس أولى من التوكيد.

---

(١) في «النونية» ص ١٤٨.

(٢) سبق تخريجه.

وفي ختم الآية بقوله ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ إشعار بأن المظاهر قد عرَّض نفسه للإثم والعقوبة لولا عفو الله ـ عز وجل ـ ومغفرته، وبيان أن الله ـ عز وجل ـ عفوٌّ غفور لمن تاب إليه من هذا القول المنكر والزور وغيره، وعما خرج عن سبق اللسان من غير قصد ونحو ذلك.

قال ابن كثير[1]: «﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ أي: عما كان منكم في حال الجاهلية وهكذا أيضًا عما خرج من سبق اللسان، ولم يقصد إليه المتكلم كما روى أبو داود أن رسول الله ـ ﷺ ـ سمع رجلاً يقول لامرأته: يا أختي فقال: «أختك هي»؟ قال ابن كثير: فهذا إنكار، ولكن لم يحرمها عليه بمجرد ذلك، لأنه لم يقصده، ولو قصده لحرمت عليه، لأنه لا فرق على الصحيح بين الأم وبين غيرها من سائر المحارم من أخت وعمة وخالة، وما أشبه ذلك».

﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾

بعد أن نفى الله ـ عز وجل ـ أن تكون الزوجات المظاهَر منهن أمهات لمن ظاهروا منهن، وبيَّن أن أمهاتهم حقيقة هن اللاتي ولدنهم، وأن الظهار منكر من القول وزور وباطل بيَّن ما يلزم على الظهار من الكفارة لمن أراد العود إلى جماع زوجته.

قوله ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟﴾ أي: ثم يعودون ويرجعون للذي قالوه، أي: يعودون لجماع زوجاتهم، أو يعزمون على ذلك، وهذا يدل على أن الظهار لا يحرم الزوجة على زوجها، ولا يكون طلاقًا، إنما يحرم جماعها حتى يكفِّر.

عن سعيد بن جبير ـ رضي الله عنه قال: «كان الإيلاء والظهار طلاق الجاهلية، فوقَّت الله الإيلاء في أربعة أشهر، وجعل في الظهار الكفارة»[2].

وقيل: ثم يعودون إلى الظهار بعد تحريمه.

والصحيح القول الأول، وعليه جمهور السلف وأهل العلم، فالكفارة لا تجب بنفس الظهار وإنما تجب بالعود إلى الجماع، والعزم عليه.

﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ خبر المبتدأ «والذين» ودخلت عليه الفاء لمشابهة المبتدأ للشرط، أي: فعليهم تحرير رقبة.

وتحرير الرقبة: تخليصها من الرق، بحيث تكون منافع الشخص الرقيق مملوكة له بعد

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٦٥.

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٦٤.

أن كانت مملوكة لسيده، قال تعالى عن مريم عليها السلام أنها قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ [آل عمران: ٣٥] أي: مخلصاً لعبادة الله ولخدمة بيت المقدس.

والمراد بالرقبة النفس المملوكة، ذكرًا كانت أو أنثى، ويشترط أن تكون الرقبة في كفارة الظهار مؤمنة لقوله تعالى في كفارة القتل: ﴿ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء:٩٢].

ولحديث معاوية بن الحكم السلمي ـ رضي الله عنه ـ لما جاء إلى النبي ﷺ بتلك الجارية السوداء فسألها ﷺ ـ «أين الله»؟ قالت: في السماء. قال: «من أنا؟» قالت: أنت رسول الله. قال ﷺ: «أعتقها فإنها مؤمنة»(١).

كما يشترط في الرقبة أن تكون سليمة من العيوب التي تجعلها معدومة المنافع، لأن التحرير معناه تمليك الرقيق منافع نفسه.

﴿مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ المس: يطلق في القرآن الكريم على الجماع قال تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦].

وقال تعالى: ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ [الأحزاب: ٤٩].

فقوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ أي: من قبل الجماع.

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن رجلاً قال: «يا رسول الله، إني ظاهرت من امرأتي فوقعت عليها قبل أن أكفّر فقال: «ما حملك على ذلك يرحمك الله»؟ قال: رأيت خلخالها في ضوء القمر قال: « فلا تقربها حتى تفعل ما أمرك الله عز وجل»(٢).

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «أتى رسول الله ﷺ رجل، فقال: إني تظاهرت من امرأتي ثم وقعت عليها قبل أن أكفّر فقال رسول الله ـ ﷺ ـ «ألم يقل الله

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد ٥٣٧، وأبو داود في الصلاة ٩٣٠، والنسائي في السهو ١٢١٨، وأحمد ٥/٤٤٧.

(٢) أخرجه أبو داود في الطلاق ٢٢٢١، والنسائي في الطلاق ٣٤٥٧، والترمذي في الطلاق واللعان ١١٩٩ وقال: «حديث حسن غريب صحيح».

(من قبل أن يتماسا)» قال: أعجبتني، قال: «أمسك حتى تكفّر»[١].

﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ الإشارة إلى ما سبق من أحكام الظهار، والتشديد فيه والميم للجماعة، والموعظة: هي ذكر الأحكام مقرونة بالترغيب والترهيب، والحث على فعل الطاعات، والزجر عن المعاصي[٢].

وهنا ذكر الله عز وجل حكم الظهار، وأنه منكر وزور، وفي هذا تحذير وترهيب، ودلالة على شدة تحريمه، كما ذكر ما يلزم المظاهر من زوجته من الكفارة إذا أراد العود إلى جماعها، وفي هذا وما قبله دلالة على أن الظهار لا يحرم الزوجة، وإنما يحرم جماعها حتى يكفّر.

وختم الله عز وجل ـ الآية السابقة بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ وفي هذا بعد ذكر الأحكام فيها في الظهار ترغيب لمن امتثل أمر الله وتاب وأناب إليه مما وقع منه من الظهار وغيره من الذنوب فإن الله عز وجل ـ يتجاوز عن عقوبتها ويسترها عن الخلق.

وقد دلت الآيات على تحريم الظهار، بل على شدة تحريمه من وجوه خمسة **الأول:** وصفه بالمنكر، **والثاني:** وصفه بالزور، **والثالث:** إيجاب الكفارة فيه، **الرابع:** الوعظ من الوقوع فيه **الخامس:** قوله ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ وهذا إنما يكون عن الذنب.

كما ختم الله عز وجل هذه الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ وفي هذا وعد ووعيد وترغيب وترهيب.

و «ما» في قوله ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ موصولة أو مصدرية، أي: والله بالذي تعملون، أو بعملكم خبير.

والخبير اسم من أسماء الله ـ عز وجل ـ على وزن «فعيل»، يدل على سعة خبرته ـ عز وجل.

ومعنى «الخبير» المطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها، وإذا كان ـ عز وجل ـ مطلعًا على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها فاطلاعه على ظواهر الأمور وجلائلها

---

(١) أخرجه البزار وقال: «لا يروى عن ابن عباس بأحسن من هذا» هكذا ذكره ابن كثير عنه في «تفسيره» ٨/ ٦٦.

(٢) من عجيب ما مرّ عليّ أني لما أرسلت بحوث الترقية لدرجة أستاذ، وكانت تفسيراً لبعض السور على غرار هذا المنهج، كتب أحد الفاحصين ضمن ملحوظاته ـ عفا الله عني وعنه «أن هذه البحوث مجرد تفسير وعظي» فيا سبحان الله، ما أدري ما هو التفسير، وما قيمته إذا لم نلحظ فيه الوعظ، والله عز وجل يقول: (ذلكم توعظون به) ويقول سبحانه وتعالى: (إن الله نعمّا يعظكم به) [النساء: ٥٨]، وكان التفسير في نظر البعض حشو من الأقوال التي لا دليل عليها، ومن القراءات والأعاريب الشاذة، والتي تحول دون فهم القرآن فهماً صحيحاً، وأخذ العظة والعبرة منه ـ اللهم غفراً.

وجلياتها من باب أولى.

وفي هذا وعد ووعيد، وعد لمن اتقى الله وامتثل أمره، ووعيد لمن عصى الله وخالف أمره، لأن مقتضى خبرته بأعمال عباده أن يحاسبهم ويجازيهم عليها، فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ولا يظلم ربك أحدًا.

كما أن فيه إشارة إلى خبرته عز وجل التامة بأحوال العباد وما يصلحهم، ولهذا شرع لهم ما شرع من الأحكام التي فيها صلاحهم في الحال والمآل.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ الفاء: استئنافية، و «من» اسم شرط جازم و «لم» حرف نفي وجزم وقلب و «يجد» فعل الشرط، أي: فمن لم يجد الرقبة، أو قيمتها.

(فصيام) الفاء: رابطة لجواب الشرط، أي: فعليه صيام شهرين متتابعين، والجملة في محل جزم جواب الشرط، واقترن بالفاء لأنه جملة اسمية.

(شهرين) مثنى «شهر» والسنة اثنا عشر شهرًا، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [التوبة: ٣٦].

والشهر ثلاثون يومًا، أو تسعة وعشرون يومًا، كما قال ﷺ في حديث ابن عمر رضي الله عنهما ـ أنه سمع رجلاً يقول: الليلة ليلة النصف فقال له: ما يدريك أن الليلة النصف سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الشهر هكذا وهكذا، وأشار بأصابعه العشر مرتين، وهكذا في الثالثة، وأشار بأصابعه كلها، وحبس، أو خنسَ إبهامه»[١].

وفي حديث جابر ـ رضي الله عنه ـ «فاعتزل النبي ﷺ نساءه شهرًا، تسعة وعشرين يومًا»[٢].

(متتابعين) أي: متصلين لم يفصل بينهما إفطار يوم أو أكثر لغير عذر من مرض أو سفر أو أيام يحرم صومها كيومي العيدين وأيام التشريق وأيام الحيض والنفاس عند المرأة، وكذا لو فصل بينهما بصيام رمضان ـ فهذا كله لا يقطع التتابع.

فإن ابتدأ الصيام من أول الشهر كفاه إكمال شهرين حسب رؤية هلال كل واحد منهما، سواء كمل كل منهما، أو كان كل منهما تسعة وعشرين يومًا، أو كمل أحدهما ونقص الآخر. فالمعتبر كمال الشهرين دخولاً وخروجًا ولا يلزم كون ذلك ستين يومًا.

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٠٨، ومسلم في الصيام ١٠٨٠، وأبو داود في الصوم ٢٣١٩، والنسائي في الصيام ٢١٤٠

(٢) أخرجه مسلم في الصيام ١٠٨٤.

وإن ابتدأ الصيام في أثناء الشهر لزمه إكمال ستين يومًا.

﴿مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ أي: من قبل الجماع، وكرر هذا لتوكيد وجوب التكفير عن الظهار قبل العودة إلى جماع الزوجة المظاهر منها ودواعيه من المباشرة ونحو ذلك، وذلك أدعى لإخراج الكفارة، بل وإلى المبادرة في إخراجها.

فإن عجز عن العتق وانتقل إلى الصيام حرم عليه وطؤها طيلة الشهرين، فإن وطئها فيهما انقطع التتابع، وقيل: لا ينقطع. والصحيح الأول.

﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ أي: فمن لم يستطع صيام شهرين متتابعين فعليه إطعام ستين مسكينًا لكل مسكين نصف صاع من الطعام لقوله ﷺ لكعب بن عجرة في كفارة فدية الأذى: «هل عندك نسك؟» قال: ما أقدر عليه فأمره أن يصوم ثلاثة أيام، أو يطعم ستة مساكين، لكل مسكينين صاع»[1].

واستحسن بعض أهل العلم أن يكون مع الطعام إدام، ولو غداهم أو عشاهم كفى.

والمسكين: هو الذي لا يجد كفايته أو لا يجد شيئًا، مأخوذ من السكون، وهو عدم الحركة لأن الفقر أسكنه وأذله ـ نسأل الله العافية ـ ولا بد من استيفاء عدد «ستين مسكينًا» فإن لم يجد الستين أطعم من وجد بقدر إطعام ستين مسكينًا.

ولم يقل هنا ﴿مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ كما ذكره مع العتق والصيام، اكتفاء بذلك، وعلى هذا فلا يجوز الجماع قبل التكفير مطلقًا. وقيل: إذا كان التكفير بالإطعام جاز الجماع قبله لأنه لم يقل مع الإطعام ﴿مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ والصحيح الأول.

واختلف أهل العلم فيما إذا عجز عن الكفارة هل تسقط عنه أولا على قولين: فمن أهل العلم من قال: لا تسقط بالعجز عنها، بل تبقى في ذمته، واستدلوا على هذا بأن النبي ﷺ أعان أوس بن الصامت بعَرَق من تمر، وأعانته زوجته بمثله حتى كفّر، كما استدلوا بأن النبي ﷺ أعطى سلمة بن صخر لما جامع في نهار رمضان وعجز عن الكفارة عرَقاً من التمر من الصدقة، فلو كانت الكفارة تسقط بالعجز عنها لما تصدق عليهما ليخرجاها من الصدقة.

وذهب طائفة من أهل العلم إلى أن الكفارة تسقط بالعجز عنها، كما تسقط الواجبات بالعجز عنها وعن أبدالها، واستدلوا على هذا بأن النبي ﷺ لما أمر سلمة بن صخر ـ

---

(١) أخرجه البخاري في الحج ١٨١٤، ومسلم في الحج ١٢٠١، وأبو داود في المناسك ١٨٥٦، والنسائي في مناسك الحج ٢٨٥١، والترمذي في الحج ٩٥٣، وابن ماجه في المناسك ٣٠٧٩ من حديث كعب بن عجرة ـ رضي الله عنه.

رضي الله عنه ـ بالتصدق ـ بعَرَق التمر، قال له: «أعلى أفقر مني؟ والله ما بين لابتيها أهل بيت أفقر من أهل بيتي » فقال له النبي ﷺ «**أطعمه أهلك**»[(١)].

قالوا: فهذا يدل على سقوطها بالعجز، ولو لم تسقط عنه لما أمره بإطعامها لأهله، لأن الرجل لا يكون مصرفًا لكفارته، كما لا يكون مصرفًا لزكاته.

وأجاب بعض أهل العلم عن هذا بأنه إذا عجز عن الكفارة وكفر عنه غيره جاز أن يأكل منها هو وأهله لقصة سلمة بن صخر وغيره.

وذهب بعض أهل العلم إلى أن سقوط الكفارة بالعجز خاص بكفارة الجماع في نهار رمضان لقصة سلمة بن صخر رضي الله عنه أما غيرها من الكفارات فلا تسقط بالعجز واختاره أبو البركات ابن تيمية رحمه الله[(٢)].

﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الإشارة لما شرع الله عز وجل من أحكام الظهار في الآيات السابقة، وما شرع فيها من الكفارة، واللام في قوله (لتؤمنوا) لام التعليل، أي: لأجل أن تؤمنوا بالله ورسوله.

والإيمان بالله هو الإيمان بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وشرعه، وضده الكفر.

والإيمان بالرسول ﷺ شهادة أنه محمد رسول الله، وذلك بطاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع.

وعطف وصف الرسول ﷺ على اسم الله ـ عز وجل ـ بقوله ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ بالواو التي تقتضي التشريك في الحكم لأن الإيمان بالرسول ﷺ من الإيمان بالله وطاعته، كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] بخلاف باب المشيئة فلا يجوز فيه ذلك لإنكاره ﷺ على من قال: «ما شاء الله وشئت» بقوله ﷺ: «أجعلتني والله عدلاً، بل ما شاء الله وحده»[(٣)].

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ الإشارة إلى ما ذكر الله عز وجل ـ من أحكام الظهار في الآيات السابقة وإلى غير ذلك مما أنزل الله عز وجل من أحكام.

و«حدود» جمع حد، والحد: هو الشيء الفاصل بين شيئين، ومنه حدود الأرض وهي

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) انظر: « بدائع التفسير» ٤/ ٤٠٧-٤٠٨.
(٣) أخرجه أحمد ١/ ٢١٤، ٢٢٤، وابن ماجه في الكفارات ٢١١٧ - من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما.

مراسيمها التي تفصل بعضها عن بعض.

وحدود الله تنقسم إلى قسمين: حدود أوامر وواجبات يجب فعلها فلا يجوز تركها ولا تعديها، كما قال عز وجل: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة:٢٢٩].

والقسم الثاني: حدود نواهٍ ومحرمات يجب تركها وعدم الاقتراب منها، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة:١٨٧].

والمشار إليه في قوله ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ القسمان، ففيه النهي عن الظهار، والأمر بالكفارة قبل المسيس.

﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ الواو: عاطفة، (للكافرين) جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم و(عذاب) مبتدأ مؤخر و(أليم) صفة له وفي تقديم الخبر إفادة قصر العذاب الأليم على الكافرين وحصره فيهم لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر.

و«الكافرين»: الذين كفروا بالله فجحدوا وجوده وربوبيته وألوهيته، وأسماءه وصفاته وشرعه، أو شيئاً من ذلك. والكفر: ضد الإيمان، و«العذاب» هو النكال والعقوبة.

و«أليم» على وزن «فعيل» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، يدل على شدة ألم عذابهم، وهو «فعيل» بمعنى «مفعل» أي مؤلم موجع حسًا ومعنى مؤلم حسًا للأجساد، ومؤلم معنى للقلوب.

الفوائد والعبر:

١ ـ إثبات صفة السمع الواسع لله ـ عز وجل ـ وأنه عز وجل سمع قول المجادلة في زوجها وتحاورهما هي والرسول ﷺ ويسمع ـ عز وجل ـ جميع الأصوات والأقوال.

٢ ـ أن المشتكى إلى الله ـ عز وجل ـ في جميع الأحوال فهو الذي ترفع إليه الشكوى ويكشف الضر ويرفع البلوى.

٣ ـ ينبغي لمن أشكل عليه شيء من أمر دينه أن يسأل أهل العلم.

٤ ـ إثبات اسم الله ـ عز وجل ـ «السميع» وما يدل عليه من إثبات صفة السمع الواسع لله ـ عز وجل.

٥ ـ إثبات اسم الله ـ عز وجل ـ «البصير» وما يدل عليه من بصره ـ عز وجل ـ ورؤيته واطلاعه على كل شيء.

٦ ـ أن الظهار من الزوجات لا يحرمهن ولا يجعلهن بحكم أمهات الأزواج وإنما أمهاتهم اللاتي ولدنهم.

٧ ـ أن الظهار منكر شديد من القول وزور من أكبر الكبائر، ومحرم غاية التحريم.

٨ ـ إثبات اسمين من أسماء الله ـ عز وجل ـ وهما «العفوّ» و «الغفور» وصفة العفو التام والمغفرة الواسعة له ـ عز وجل.

٩ ـ يلزم من عاد إلى جماع زوجته التي ظاهر منها وعزم على ذلك إخراج كفارة الظهار قبل الجماع، وهي عتق رقبة، فإن لم يجد الرقبة أو ثمنها فعليه صيام شهرين متتابعين، فإن لم يستطع الصيام أطعم ستين

مسكيناً لكل مسكين نصف صاع من الطعام.

١٠ ـ يشترط في تحرير الرقبة أن تكون الرقبة سليمة من العيوب المؤثرة على منافعها، لأن معنى تحريرها تمليكها منافعها كما يشترط أن تكون مؤمنة قياساً على كفارة قتل الخطأ.

١١ ـ حرص الإسلام على تحرير الرقيق وتخليصه من الرق، لهذا أوجب تحرير رقبة في كفارة الظهار، كما أوجبها في كفارة القتل، والجماع في نهار رمضان، وخيرّ بينها وبين الإطعام والكسوة في كفارة اليمين.

١٢ ـ وعظ الله ـ عز وجل ـ للمؤمنين بما أنزل من أحكام الظهار والتشديد فيه.

١٣ ـ إثبات اسم الله ـ عز وجل ـ «الخبير» وما يدل عليه من إثبات سعة علمه ـ عز وجل ـ وخبرته واطلاعه على أعمال العباد وفي هذا وعد لمن أحسن، ووعيد لمن أساء.

١٤ ـ من لم يجد الرقبة أو لم يجد قيمتها فعليه صيام شهرين متصلين لا يفصل بينهما إفطار يوم أو أكثر لغير عذر من مرض أو سفر أو أيام يحرم صومها كيومي العيدين وأيام التشريق وأيام الحيض والنفاس عند المرأة، وكذا لو تخللها صيام شهر رمضان فلا يقطع التتابع.

١٥ ـ إذا لم يستطع المظاهر صيام شهرين متتابعين فعليه إطعام ستين مسكيناً لكل مسكين نصف صاع من الطعام.

١٦ ـ عناية الإسلام بالمساكين وحرصه على سد حاجتهم، لهذا أوجب في كفارة الظهار إطعام ستين مسكيناً على من لم يستطع التحرير والصيام.

١٧ ـ يسر الإسلام وسماحة أحكامه حيث تدرج بمن لم يستطع التحرير إلى الصيام، وبمن لم يستطعهما إلى الإطعام.

١٨ ـ أن الله ـ عز وجل ـ شرع أحكام الظهار، وما يترتب عليه من الكفارة وغير ذلك لأجل الإيمان به ورسوله واتباع شرعه والوقوف عند حدوده فعلاً للواجبات واجتنابا للمنهيات.

١٩ ـ جواز عطف وصف الرسول ﷺ على لفظ الجلالة بالواو في باب الإيمان والطاعة بخلاف باب المشيئة.

٢٠ ـ الوعيد والتهديد للكافرين بالعذاب الأليم عذاب حسي للأبدان، وعذاب معنوي للقلوب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

قوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾ في هذه الآية والتي بعدها وعيد شديد وتهديد أكيد لمن حادّ الله ورسوله وكفر بآياته.

والمحادة: المشاقة والمخالفة والمعاندة، مأخوذة من الحد لأن المشاق والمخالف المعاند يأخذ حدًا غير حد الآخر ويكون بالحد المقابل والمخالف.

فمعنى ﴿يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: يشاقون ويخالفون ويعاندون الله ورسوله، وذلك بمخالفة أمر الله ورسوله، وارتكاب ما نهى الله عنه ورسوله.

وعطف وصف الرسول ﷺ على اسمه عز وجل «الله» بالواو لأن محادة الرسول ﷺ من محادة الله عز وجل، كما أن طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ﴾ [النساء:٨٠].

﴿كُبِتُوا۟﴾ خبر «إن» في محل رفع، أي: أهينوا وأذلوا وأخزوا وأغيظوا وأهلكوا.

﴿كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾ الكاف بمعنى «مثل» وهي صفة لمصدر محذوف، أي: كبتًا مثل كبت الذين من قبلهم، أي: كما أهين وأذل وأهلك الذين من قبلهم من أشباههم من المحادين لله ورسله، وفي هذا توكيد لقوله (كبتوا) وبيان أن هذه سنة الله ـ عز وجل ـ في المحادين له ولرسله، وإشارة إلى كمال قدرته عز وجل على ذلك فالذي أهان وأذل المحادين السابقين هو أقدر على إهانة المحادين اللاحقين من باب أولى، كما قال عز وجل في البعث ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ﴾ [الروم:٢٧]، وقال عز وجل: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥]،

وهذه الآية كقوله: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ﴾ [سبأ: ٥٤]، وقوله تعالى ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [محمد: ١٠].

فقد أكد الله ـ عز وجل ـ هذا الوعيد والتهديد للمحادين له ولرسوله بمؤكدات ثلاثة الأول: «إن»، والثاني: كون الجملة اسمية ـ وهذان لفظيان، والثالث: قوله ﴿كَمَا كُبِتَ

﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ وهذا مؤكد معنوي.

﴿وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾ توعد الله عز وجل المحادين له ولرسوله ﷺ بالكبت والإهانة والإذلال ثم بين في قوله ﴿وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾ بأنه عز وجل قد أقام الحجة عليهم بإنزال الآيات، فلا حجة ولا عذر لهم في محادة الله ورسوله، والمخالفة والاستكبار والعناد.

والواو في قوله (وقد) حالية، و(قد) للتحقيق أي: والحال أنا قد أنزلنا آيات بينات.

و «آيات» جمع آية، والآية لغة: العلامة والدلالة.

وآيات الله تنقسم إلى قسمين: آيات كونية، وآيات شرعية، والمراد بها هنا الآيات الشرعية وهي القرآن الكريم.

ويؤخذ من قوله (وقد أنزلنا آيات) إثبات علو الله عز وجل على خلقه لأن الإنزال يكون من علو إلى أسفل، فله عز وجل كمال العلو علو الذات، وعلو الصفات، كما يؤخذ من ذلك أن القرآن الكريم منزل من عند الله عز وجل غير مخلوق.

﴿بَيِّنَٰتٖ﴾ صفة لـ(آيات) أي: آيات واضحات مفصلات، كما قال عز وجل: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:٩٧].

﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ﴾ سبق الكلام عليه.

وقوله ﴿مُّهِينٞ﴾ صفة لـ«عذاب» ومعنى «مهين» أي: يهينهم ويخزيهم ويذلهم لاستكبارهم عن الإيمان بالله واتباع شرعه والانقياد والخضوع له وهوان أمر الله عليهم، فجوزوا بالعذاب المهين لهوانهم على الله، والجزاء من جنس العمل.

فيجمع للكافرين بين العذاب الحسي والعذاب المعنوي، العذاب الحسي كما قال الله تعالى في الآية السابقة ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهو ما يقاسونه من آلام العذاب في أجسامهم بإدخالهم النار وإصلائهم فيها، كما قال تعالى: ﴿جَهَنَّمُ يَصۡلَوۡنَهَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [المجادلة:٨].

والعذاب المعنوي القلبي النفسي ما يلاقونه من الهوان والخزي والذل وتحطم المعنويات، كما قال تعالى: ﴿كَلَّاۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ﴾ [الهمزة: ٤-٧].

فهي تحطم كل شيء فيها تحطيمًا حسيًا، وتحطم القلوب تحطيمًا معنويًا، وتطلع عليها فتذلها وتهينها وصدق الله العظيم ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ﴾ [الحج: ١٨].

﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا﴾ « يوم» ظرف زمان منصوب، متعلق بـ « مهين».

أي: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ فكأنه قيل متى ذلك، فقال: ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا﴾.

وذلك يوم القيامة يوم يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، كما قال عز وجل ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الدخان: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩].

﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ الإنباء: الإخبار بأمر عظيم، وما أعظم هذا الخبر، الذي يترتب عليه الشقاء الأبدي في نار جهنم ـ نسأل الله السلامة.

و «ما» موصولة أو مصدرية، أي:، فيخبرهم بالذي عملوه، أو بعملهم من خير وشر قولاً كان أو فعلاً.

﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ﴾ أي: عده وكتبه، وضبطه وحفظه عليهم، وأحاط به كماً وكيفا، وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩)﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ [النبأ: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

﴿وَنَسُوهُ﴾ الواو: عاطفة، أي: وهم قد نسوا ما عملوه في غمرة اللهو والسهو والغفلة، أشبه بحال من يستدين فما درى حتى أثقلته الديون وعجز عن الوفاء. وقد قال الله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [الكهف: ٥٧].

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ قدم المتعلّق وهو قوله (على كل شيء) على المتعلّق به وهو قوله (شهيد) لتأكيد شهادته عز وجل على كل شيء.

أي: والله على كل شيء من الأشياء كبيراً كان أو صغيراً خفياً كان أو جليًا، دقيقًا كان أو جليلاً.

(شهيد) أي: مطلع شاهد رقيب حاضر، لا يغيب عنه شيء، ولا يخفى عليه شيء ولا ينسى شيئاً كما قال عز وجل: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الأنعام: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

و«الشهيد» اسم من أسماء الله عز وجل على وزن «فعيل » يدل على سعة اطلاعه

عز وجل ورقابته.

وفي قوله ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ توكيد لقوله قبله ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ أي: فينبئهم بأعمالهم التي أحصاها عليهم لأنه عز وجل على كل شيء شهيد مطلع رقيب.

ثم أكد عز وجل اطلاعه وشهادته على كل شيء بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ الآية.

والاستفهام في قوله ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ للتقرير، أي: قد رأيت، والخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له. والرؤية هنا رؤية علمية أي: ألم تعلم بما أوحى الله إليك.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ « ما» موصولة تفيد العموم، أي: أن الله يعلم كل الذي في السموات والذي في الأرض وكرر « ما» في قوله ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ دون أن يقول «يعلم ما في السموات والأرض » لتأكيد شمول علمه عز وجل كل ما في السموات وما في الأرض.

﴿مَا يَكُونُ﴾ « ما» نافية. قرأ أبو جعفر بالتاء على التأنيث (ما تكون) وقرأ الباقون بالياء على التذكير (ما يكون).

﴿مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ النجوى: السر والتناجي بينهم، أي: ما يكون من سر وتناج بين ثلاثة ﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾.

ويحتمل أن المراد بقوله (نجوى) نفس المتناجين، فتكون (نجوى) صفة لموصوف محذوف تقديره: أناس نجوى و «إلا» في المواضع الثلاثة للحصر.

﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ﴾ قرأ يعقوب «أكثرُ» بالرفع، وقرأ الباقون بالنصب «أكثرَ» أي: ولا أقل من ذلك العدد ولا أكثر منه ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ بعلمه وإحاطته ﴿أَيْنَ مَا كَانُواْ﴾ أي: في أي مكان كانوا فهو معهم يرى مكانهم ويعلم أحوالهم ويسمع سرهم ونجواهم، كما قال عز وجل: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٨].

وأيضا فإن رسله الكرام الكاتبين يكتبون عليهم ذلك، كما قال عز وجل: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

قال ابن كثير[١]: « حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية معية علم الله تعالى، ولا شك في إرادة ذلك، ولكن سمعه أيضا مع علمه محيط بهم وبصره نافذ فيهم، فهو سبحانه مطلع على خلقه، لا يغيب عنه من أمورهم شيء».

وهذا مما يوجب على العباد مراقبة الله ـ عز وجل ـ في السر والعلن؛ لأنه ـ عز وجل ـ معهم بعلمه وسمعه وبصره، يرى مكانهم، ويبصر أفعالهم، ويسمع أقوالهم، والمصيبة أن أهل الضلال والابتداع نصيبهم من هذا: هو القول بالحلول والاتحاد ـ تعالى الله عن ذلك.

﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ ثم «عاطفة، أي: ثم يخبرهم الله بالذي عملوه، أو بعملهم، من المناجاة بينهم وغير ذلك يوم القيامة، ويحاسبهم ويجازيهم على ذلك.

وسُمي يوم القيامة بهذا الاسم لقيام الناس فيه من قبورهم، كما قال عز وجل: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]، ولقيام الأشهاد فيه من الرسل والمؤمنين وغيرهم، كما قال عز وجل ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر: ٥١]، ولقيام الروح والملائكة فيه صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨] ولقيام الحساب والعدل الحقيقي في ذلك اليوم، كما قال عز وجل: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: إن الله عز وجل محيط علماً بجميع الأشياء كبيرها وصغيرها، دقيقها وجليلها، خفيها وجليها، وقد أكد عز وجل شمول علمه وإحاطته بكل شيء في هذه الآية بثلاثة مؤكدات هي: « إن»، وتقديم المتعلقين، وهو قوله (بكل شيء)، وكون الجملة اسمية.

و«عليم» اسم من أسماء الله عز وجل على وزن «فعيل»، يدل على إثبات العلم التام الواسع لله عز وجل المحيط بالأشياء كلها في أطوارها الثلاثة: قبل الوجود وبعد الوجود وبعد العدم، يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون قال موسى عليه السلام ـ لما سئل عن القرون الأولى ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

---

(١) في « تفسيره» ٨/ ٦٧.

أي: لا يعتري علمه جهل سابق، ولا نسيان لاحق، بخلاف علم المخلوق الضعيف.

وقد افتتح الله ـ عز وجل ـ هذه الآية بالعلم بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ إلى قوله ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ ثم ختمها بالعلم بقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وفي هذا توكيد سعة علم الله عز وجل وشموله وعمومه.

الفوائد والعبر:

١ ـ إذلال الله ـ عز وجل ـ وإهانته للمحادين له ولرسوله المخالفين لشرعه، كما أذل وأهان المكذبين قبلهم، سنة الله في المكذبين ولن تجد لسنة الله تبديلا.

٢ـ أن المحادة لله محادة لرسوله، كما أن محادة الرسول ﷺ محادة لله ـ عز وجل . وأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين.

٣ ـ إقامة الله ـ عز وجل ـ الحجة على الخلق بما أنزل من الآيات الشرعية البينة الواضحة.

٤ ـ إثبات علو الله على خلقه، فله ـ عز وجل ـ علو الذات وعلو الصفات.

٥ ـ إثبات أن القرآن منزل من عند الله ـ عز وجل ـ غير مخلوق.

٦ ـ الوعيد الشديد والتهديد الأكيد للكافرين بالعذاب الذي يهينهم ويذلهم يوم القيامة، عذاب حسي ينصب على الأجساد، وعذاب معنوي ينصب على القلوب.

٧ ـ إثبات المعاد، وبعث الله للخلائق جميعاً يوم القيامة.

٨ ـ إخبار الله ـ عز وجل ـ الكافرين، يوم القيامة بأعمالهم ومحاسبتهم ومجازاتهم عليها.

٩ ـ إحصاء الله ـ عز وجل ـ لجميع أعمال العباد وضبطه لها وإن نسوها.

١٠ ـ إثبات اسم الله ـ عز وجل ـ «الشهيد» وشهادته عز وجل واطلاعه على كل شيء، مما يوجب مراقبته ـ عز وجل.

١١ ـ إثبات علم الله ـ عز وجل ـ التام وإحاطته بما في السموات وما في الأرض، وأنه عز وجل مع الخلق كلهم بعلمه وإحاطته وسمعه وبصره أينما كانوا. وهذه هي المعية العامة.

١٢ ـ إثبات اسم الله ـ عز وجل ـ «العليم» وشمول علمه لكل شيء.

١٣ ـ إثبات الحساب والجزاء على الأعمال والوعد لمن أحسن العمل، والوعيد لمن أساء.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (٨) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩) إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ (١٠)﴾.

رُويَ عن مجاهد[1] وغيره أن هذه الآية ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ نزلت في اليهود نُهوا عن النجوى فلم ينتهوا وعادوا إليها.

وقال الواحدي:[2] «قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: نزلت في اليهود والمنافقين؛ وذلك أنهم كانوا يتناجون فيما بينهم دون المؤمنين وينظرون إلى المؤمنين ويتغامزون بأعينهم، فإذا رأى المؤمنون نجواهم قالوا: ما نراهم إلا قد بلغهم عن أقربائنا وإخواننا الذين خرجوا في السرايا قتل أو موت أو مصيبة أو هزيمة، فيقع ذلك في قلوبهم ويحزنهم، فلا يزالون كذلك، حتى يقدم أصحابهم وأقرباؤهم، فلما طال ذلك وكثر شكوا إلى رسول الله ﷺ فنهاهم أن يتناجوا دون المسلمين فلم ينتهوا عن ذلك وعادوا إلى مناجاتهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية».

قوله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ الاستفهام في قوله (ألم تر) للتقرير، بمعنى: قد رأيت، وفيه معنى التعجب. والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له.

والمعنى: ألم تشاهد وتنظر إلى الذين نهوا عن النجوى. أي: إلى الذين نهاهم الله ورسوله عن النجوى، وتعلم حالهم، من اليهود والمنافقين وغيرهم.

وقال: «نهوا» ولم يقل: «نهاهم الله، أو نهاهم الله ورسوله» لتعظيم هذا النهي فكأن كلاً نهاهم عن ذلك.

و«النجوى» هي المسارَّة بين اثنين فأكثر، وهي مصدر بمنزلة المناجاة، قال تعالى ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾ [النساء: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ [المجادلة: ٩].

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٦٩-٤٧٠.
(٢) في «أسباب النزول» ص٢٧٥.

وقال ﷺ: «إذا كانوا ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث»[1].

أي: لا يتسار اثنان دون الثالث.

وتطلق النجوى على جماعة المتناجين، فتكون مصدرا بمعنى الجمع، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٤٧] أي: وإذ هم جماعة نجوى، أو متناجون، وكقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧].

أي: ما يكون من متناجين ثلاثة إلا وهو رابعهم.

﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ أي: ثم يعودون ويرجعون للذي نهوا عنه وهو النجوى.

﴿وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ الواو: عاطفة قرأ حمزة (وينتجون) بنون ساكنة بعد الياء وضم الجيم من غير ألف، وقرأ الباقون بتاء ونون مفتوحتين وبعدهما ألف وفتح الجيم (ويتناجون). أي: ويتحدثون إما سرًا فيما بينهم، وإما جهراً، حسب الأحوال والمناسبات والظروف.

(بالإثم) أي: بالذنب، وما يوجب تأثمهم بأنفسهم.

(والعدوان) أي: والعدوان على الآخرين والإضرار بهم والتعدي عليهم.

(ومعصية الرسول) أي: ومخالفة الرسول ﷺ في أمره ونهيه. و «ال» في الرسول للعهد الذهني، أي الرسول المعهود في الأذهان محمد ﷺ، ومعصية الرسول ﷺ من الإثم والعدوان، كما أن الإثم والعدوان من معصية الرسول ﷺ وفي هذا التفصيل بيان أنهم أضروا بأنفسهم حيث أوقعوها في الإثم، وأضروا بالآخرين واعتدوا عليهم، وعصوا الرسول ﷺ وخالفوا أمره في ذلك كله، ولم ينتهوا عما نهوا عنه بل أصروا على ذلك.

﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾.

عن عائشة رضي الله عنها ـ قالت: دخل على رسول الله ﷺ ـ يهود، فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم فقالت عائشة: وعليكم السام. قالت: فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة، إن الله لا يحب الفحش ولا التفحش» قلت: ألا تسمعهم يقولون: السام عليك؟ فقال رسول الله ﷺ: «ألا تريني قلت: وعليكم»؟ فأنزل الله: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾. وفي رواية أنها قالت: عليكم السام والذام واللعنة، وأن رسول الله ﷺ

---

(١) سيأتي تخريجه.

قال: « إنه يستجاب لنا فيهم، ولا يستجاب لهم فينا»[١].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله ﷺ سام عليك، ثم يقولون في أنفسهم: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾»[٢].

فاليهود عليهم غضب الله إذا جاؤوا إلى الرسول ﷺ حيّوه بما لم يحيه به الله. فبدل أن يحيوه بتحية الإسلام: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يحيونه بقولهم: السام عليك، أو السام عليكم. ويقصدون بالسام الموت، فهم يدعون عليه ﷺ بالموت. بدل أن يدعوا له بالبقاء والسلامة الذي هو المعنى الحقيقي للتحية في الإسلام.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ «أن المنافقين كانوا يقولون لرسول الله ﷺ إذا حيوه: سام عليك فنزلت» يعني الآية[٣].

﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

أي: معتقدين هذا القول في قلوبهم، وداخل أنفسهم.

﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾

«لولا» حرف تحضيض، والباء في قوله (بما) للسببية و « ما» موصولة، أو مصدرية، أي: بالذي نقول، أو بقولنا

أي: لو كان هذا نبياً حقاً (لعذبنا الله) أي: لعاجلنا الله بالعذاب والعقوبة في الدنيا (بما نقول) أي: بسبب الذي نقوله له في الباطن من التحية بما لم يحيه به الله، بقولنا: السام عليك، بدل السلام عليكم، لأن الله يعلم ما نسره، فرد الله عليهم بقوله:

﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

وفي فحوى هذا الرد من الله عز وجل عليهم إرغام أنوفهم من جهتين:

---

(١) اخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٩٣٥، وفي الأدب ٦٠٢٤، ومسلم في السلام- النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم ٢١٦٥، والترمذي في الاستئذان ٢٧٠١، وابن ماجه في الأدب ٣٦٩٨، وأحمد ٦/ ٣٧، ٢٢٩، والواحدي في «أسباب النزول» ص ٢٧٥.

(٢) اخرجه أحمد ٢/ ١٧٠. قال الهيثمي في « مجمع الزوائد» : «إسناده جيد» وقال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٦٩: « إسناد حسن ولم يخرجوه».

(٣) اخرجه ابن أبي حاتم في « تفسيره» ١٠/ ٣٣٤٣.

الأولى: الإشارة إلى حقيقة نبوته ﷺ، لأن الله ـ عز وجل ـ تولى الدفاع عنه.

والثانية: الوعيد والتهديد لهم، وأن الله يمهل ولا يهمل، فالعذاب ينتظرهم يوم القيامة، وهو أكبر وأشد وأبقى من عذاب الدنيا.

ومعنى (حسبهم جهنم) تكفيهم جهنم، فهي مردهم ومآلهم وفيها أعظم العذاب لهم وأشده. و « جهنم» اسم من أسماء النار سميت به لجهمتها وظلمتها وبُعد قعرها وشدة حرها أعاذنا الله وجميع المسلمين منها.

(يصلونها) أي: يغمرون فيها ويقاسون حرها (فبئس المصير) «بئس» بمعنى: ساء وقبح، و « المصير» المرجع والمآل والمنقلب. والمخصوص بالذم محذوف، والتقدير: فبئس المصير النار.

والمعنى: تكفيهم جهنم عذاباً يدخلون فيها، ويغمرون في دركاتها ويقاسون حرها، فبئس المرجع والمآل النار.

ثم حذر الله ـ عز وجل ـ المؤمنين ونهاهم عن مسلك اليهود والمنافقين ومن شابههم فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ۝٩﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ سبق الكلام عليه، وقد قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إذا سمعت الله يقول (يا أيها الذين آمنوا) فأرعها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه»[١].

﴿إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ﴾ أي: إذا حصل بينكم مناجاة أو أردتم التناجي بينكم سراً، أو جهراً.

﴿فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي: فلا تتناجوا بالإثم وهو الذنب الذي يؤثمكم بأنفسكم و (العدوان) على غيركم (ومعصية الرسول) أي: ومخالفة الرسول ﷺ في أمره ونهيه. قال ابن كثير[٢] : « كما يتناجى به الجهلة من كفرة أهل الكتاب، ومن مالأهم على ضلالهم من المنافقين».

﴿وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ أي: وتحدثوا فيما بينكم سواء كان ذلك سراً أو جهراً بالبر والتقوى.

و « البر» في الأصل كلمة جامعة لكل خصال الخير الظاهرة والباطنة قال تعالى: ﴿۞لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾

---

(١) سبق تخريجه في مطلع سورة الحجرات.

(٢) في « تفسيره» ٨/ ٦٩.

الآية [البقرة: ١٧٧].

وقال ﷺ « البر حُسن الخلق»[١]، « البر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب»[٢].

والتقوى أن يجعل الإنسان بينه وبين عذاب الله وقاية بفعل ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه.

والمراد بالبر في هذه الآية فعل ما أمر الله به من الواجبات والمستحبات من أنواع الطاعات، والمراد بالتقوى: ترك واجتناب ما نهى الله عنه من أنواع المعاصي.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «البر ما أُمرتَ به، والتقوى: ما نُهيتَ عنه»[٣].

وذلك لأن البر والتقوى من الكلمات التي إذا اجتمعت افترقت وإذا افترقت اجتمعت كالإسلام والإيمان، والفقير والمسكين، ونحو ذلك، فإذا جاءت كلمة « البر» وحدها حملت على فعل المأمورات وترك المنهيات.

وكذلك إذا جاءت كلمة « التقوى» وحدها حملت على فعل المأمورات وترك المنهيات كما في قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ٨].

ويؤيد التداخل بين البر والتقوى قول الله عز وجل في سورة البقرة ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [الآية: ١٨٩].

فنهى الله ـ عز وجل ـ المؤمنين عن التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وحرم ذلك عليهم، وأمرهم بالتناجي بالبر والتقوى، وما ينفعهم في دينهم ودنياهم.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ هذا أشبه بعطف العام على الخاص، أي: واتقوا الله في جميع أموركم من المناجاة وغيرها بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

﴿ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: الذي إليه حشركم وجمعكم، فيحاسبكم على أعمالكم وأقوالكم ويجازيكم عليها.

وفي الأمر بتقوى الله ـ عز وجل ـ مع قرن ذلك بتذكير العباد بأنهم إليه يحشرون ما يوجب المسارعة إلى تقوى الله ـ عز وجل ـ حيث إليه المرد والحشر والمآل، وهو للجميع بالمرصاد.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة ٢٥٥٣، والترمذي في الزهد ٢٣٨٩- من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ١٩٤، والدارمي في الأضاحي ٢٥٣٣- من حديث أبي ثعلبة الخشني- رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان»٨/ ٥٢-٥٣. وانظر « جامع العلوم والحكم» صـ ٣٠٦.

ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾

نهى الله عز وجل في الآية السابقة المؤمنين عن التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، وأمرهم بالتناجي بالبر والتقوى، ثم بين عز وجل أن النجوى المنهي عنها من الشيطان ليحزن الذين آمنوا، وبيَّن أن ذلك ليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله عز وجل، وأمرهم بالتوكل عليه سبحانه.

قوله ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ﴾ «إنما» أداة حصر، وهي كافة ومكفوفة والمراد بـ (النجوى) المسارة.

﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: من عمله وتسويله ووساوسه وهمزاته وتزيينه ذلك للمتناجين من المنافقين وغيرهم.

﴿لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن يحزن الذين آمنوا، أو لكي يحزن الذين آمنوا، أي: يصيبهم بالحزن ويسوءهم حيث يتوهم من يرى المتناجين أنهم يقصدونه بسوء، ففيها أذية للآخرين لحزنهم بذلك، وحملهم على سوء الظن بالمتناجين، ووضع المتناجين أنفسهم موضع الريبة والاتهام.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث إلا بإذنه، فإن ذلك يحزنه» وفي رواية « دون صاحبهما، فإن ذلك يحزنه»[1].

﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا﴾ أي: وليس بضارهم التناجي شيئاً، و«شيئاً» نكرة في سياق النفي فتعم نفي كل شيء كبيراً كان أو صغيراً، كثيراً كان أو قليلاً.

﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ « إلا» أداة استثناء.

و«إذن الله» ينقسم إلى قسمين: إذن كوني، وهو المراد هنا ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٦]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥].

وإذن شرعي، ومنه قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ [الحج: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

أي: وليس بضارهم التناجي بين المنافقين وغيرهم (شيئاً) مهما كان إلا بإذن الله -

---

(١) أخرجه البخاري في الاستئذان ٦٢٨٨، ومسلم في السلام ٢١٨٣، وأبو داود في الأدب ٤٨٥١، وابن ماجه في الأدب ٣٧٧٦

عز وجل ـ وتقديره الكوني، كما قال عز وجل: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١]، وقال عز وجل: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

وهذا مما يقوي قلب المؤمن وثقته بربه ـ عز وجل ـ، ولهذا قال بعده: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

والتوكل على الله: هو صدق الاعتماد على الله عز وجل في جلب النفع ودفع الضر ـ مع تمام الثقة بالله، وسكون القلب إليه وحده دون غيره.

وقدم المتعلق وهو قوله (على الله) لبيان أن التوكل والاعتماد يجب أن يكون على الله وحده دون سواه.

فتأمل أخي الكريم سمو مبادئ الإسلام ورفعتها واحذر من مسلك النجوى والمسارة في الكلام أمام الآخرين، واعلم أنه من عمل الشيطان لما يسببه ذلك من إدخال الحزن في قلوبهم، ووقوعهم في إساءة الظن فيك، ووضعك نفسك موضع الشك والريبة والاتهام، وفي الأثر «رحم الله امرأً كف الغيبة عن نفسه»، أي: فلم يضعها موضع الاتهام، فما أحلى وأحرى أن يبتعد المرء عن كل ما من شأنه أن يجعله موضع الريبة والشك، وهذا من حق نفسه وواجبها عليه، وقد قيل:

يهون علينا أن تصاب جسومنا   وتسلم أعراض لنا وعقول

وإن رأيت أخي الكريم من يسلك هذا المسلك فذكره بأن هذا من عمل الشيطان، ولا يحزنك ذلك في نفسك، واعلم أنه لن يصيبك إلا ما كتب الله عليك وفوِّض أمرك إلى الله واعتمد عليه يكفك من كل سوء.

الفوائد والعبر:

١ ـ النهي عن النجوى والمسارة بين اثنين أو بين فريقين دون الثالث مما يجعل الثالث يسيء الظن بالمتناجين ويظن أنه المقصود.

٢ ـ التعجب من حال الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون إليها من اليهود والمنافقين وغيرهم.

٣ ـ تناجي اليهود والمنافقين وغيرهم من الكفار بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ﷺ كيداً منهم للرسول ﷺ ولدعوته وللمؤمنين.

٤ ـ مخادعة المنافقين واليهود ـ لعنهم الله ـ للرسول ﷺ وتحيتهم له بما لم يحيه به الله، بل بالدعاء عليه بالموت.

٥ ـ انخداع اليهود ـ المغضوب عليهم والمنافقين ـ بعدم معاجلتهم بالعقوبة بسبب تحيتهم للرسول ﷺ بالدعاء عليه في الباطن.

٦ ـ دفاع الله ـ عز وجل ـ عن نبيه ﷺ، والوعيد الشديد لليهود والمنافقين بأن في جهنم كفاية لهم في العذاب وبئس المصير لهم، وأن الله عز وجل يمهل ولا يهمل.

٧ ـ تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام.

٨ ـ نداء المؤمنين بوصف الإيمان تكريماً وتشريفاً لهم وحضاً على الاتصاف بهذا الوصف وأن امتثال ما بعده يعد من مقتضيات الإيمان وعدم امتثاله يعد نقصاً في الإيمان.

٩ ـ نهي المؤمنين عن التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، وأمرهم بالتناجي بالبر والتقوى.

١٠ ـ وجوب تقوى الله ـ عز وجل ـ والحذر من التشبه باليهود والمنافقين.

١١ ـ إثبات المعاد وحشر العباد إلى الله والحساب والجزاء.

١٢ ـ التحذير من النجوى وأنها من عمل الشيطان وتزيينه لأجل أن يحزن الذين آمنوا.

١٣ ـ ينبغي للمؤمنين عدم الاكتراث بالمتناجين من المنافقين واليهود وغيرهم فإنه لن يصيبهم إلا ما أذن الله به كونا وقدره عليهم.

١٤ ـ وجوب الاعتماد على الله والثقة به والتوكل عليه، وأن ذلك من شرط الإيمان.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

رُوي عن قتادة وابن زيد ومقاتل وغيرهم أن الصحابة رضي الله عنهم ـ إذا كانوا عند رسول الله ﷺ ضنوا بمجالسهم عنده ﷺ فأنزل الله تعالى هذه الآية، وأمرهم أن يفسح بعضهم لبعض[١].

قوله ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾.

« إذا» ظرفية شرطية غير عاملة «قيل» فعل الشرط (فافسحوا) جواب الشرط، وقرن بالفاء لأنه جملة طلبية.

(تفسحوا) أي: توسعوا.

(في المجالس) قرأ عاصم (في المجالس) على الجمع وقرأ الباقون (في المجلس) على الإفراد.

(فافسحوا) أي: فتوسعوا.

والمعنى: إذا قيل لكم توسعوا في المجالس فتوسعوا فيها ليجد القادم مكاناً للجلوس، وهو شامل لمجلس الرسول ﷺ وغيره من مجالس العلم والقتال وغيرها.

وهو أدب رفيع من آداب الإسلام يؤلف بين القلوب ويجلب المحبة ويحقق معنى الأخوة.

ولك أن تتصور مدى غبطة من فسح له إخوانه للجلوس بينهم ومدى محبته لهم يود أن يفتح لهم صدره. وفي المقابل لك أن تتصور من جاء ليجلس فقوبل بالأنانية وحب الذات ولم يفسح له، ما مدى كراهته لهم.

وفي قوله (إذا قيل لكم) بهذه الصيغة دلالة على أنه ينبغي امتثال ما جاء في الآية من الأمر بالتفسح أياً كان القائل، فلا يلزم أن يكون القائل ذا مكانة، بل يجب التفسح لكل من طلب ذلك، ولكل من يريد الجلوس، ما أمكن ذلك.

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه فيجلس فيه، ولكن تفسحوا وتوسعوا »[٢].

---

(١) اخرجه عن قتادة وابن زيد الطبري في « جامع البيان» ٢٢/ ٤٧٧-٤٧٨، وأخرجه عن مقاتل ابن أبي حاتم مطولاً في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٤٣ ـ ٣٣٤٤.

(٢) أخرجه مسلم في السلام – تحريم إقامة المسلم من موضعه المباح الذي سبق إليه ٢١٧٧.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: « لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه، ثم يجلس فيه، ولكن افسحوا يفسح الله لكم»[١].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « لا يقيمن أحدكم أخاه يوم الجمعة، ولكن ليقل: افسحوا»[٢].

وعن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: « لا يحل لرجل أن يفرق بين اثنين إلا بإذنهما»[٣].

﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: يوسع الله لكم، وهذا يدل على أن الجزاء من جنس العمل، كما قال ـ عز وجل ـ ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠] ولم يقل: «يفسح الله لكم في المجالس» ليشمل هذا الوعد من الله ـ عز وجل ـ الفسحة والتوسعة في كل شيء من أمور دينهم ودنياهم وآخرتهم، في أعمالهم وأعمارهم وأولادهم وأهليهم وأرزاقهم وأموالهم وصدورهم، وفي منازلهم في الجنة؛ وفي كل شيء، فلله الفضل والمنة ـ يعطي الجزيل على القليل.

﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾ قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر وحفص عن عاصم بضم الشين في الموضعين. وقرأ الباقون بكسرها.

والنشوز لغة الارتفاع، ومنه يقال للأرض المرتفعة: نشز، ونشاز، ومنه يقال للمرأة المرتفعة على زوجها المتعالية عليه: « ناشز» وكذلك يقال للرجل إذا تعالى وارتفع على زوجته، قال تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ [النساء: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ [النساء: ١٢٨].

والمعنى: وإذا قيل ارتفعوا وانهضوا من مجالسكم فارتفعوا وانهضوا منها سواء كان النهوض لقتال عدو، أو لصلاة، أو لأي عمل خيري ، أو لانتهاء المجلس، أو ليجلس من جاءت نوبته في المجلس إذ قد يكون المجلس صغيراً، والمصلحة تستدعي جلوس القادمين ونهوض الجالسين وارتفاعهم فيكون الجلوس فيه بالتناوب ليحصل كل على نوبته ويأخذ حاجته، بل إن هذا التناوب ينبغي أن يكون في المسجد إذا كان صغيراً لا يتسع أن يصلي فيه

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ٣٣٨، ٤٣٨، ٥٢٣.
(٢) أخرجه الشافعي في « الأم» ١/ ١٨١، ، وفي مسنده انظر: مسند الشافعي على الأم ٦/ ١٠٣.
(٣) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٨٤٥، والترمذي في الأدب ٢٧٥٢.

الناس جماعة واحدة، بحيث يصلي فيه جماعة، ثم يخرجون ثم يصلي من بعدهم وهكذا.

وليس معنى ذلك أن يقام الإنسان من مجلسه ويجلس فيه، فهذا لا يجوز قال ﷺ: «لا يقيمن الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه»[1]. بل قال ﷺ: «إذا قام أحدكم من المجلس ثم رجع إليه فهو أحق به»[2].

وكان ابن عمر رضي الله عنهما لا يجلس في المكان الذي يقوم له صاحبه عنه[3].

قال ابن كثير[4]: «وفي الحديث المروي في السنن: أن رسول الله ﷺ ـ كان يجلس حيث انتهى به المجلس. ولكن حيث يجلس يكون صدر ذلك المجلس، وكان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ يجلسون منه على مراتبهم، فالصديق يجلسه عن يمينه، وعمر عن يساره، وبين يديه ـ غالباً ـ عثمان وعلي، لأنهما كانا ممن يكتب الوحي، وكان يأمرهم بذلك. كما في حديث أبي مسعود ـ رضي الله عنه أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يقول: «ليلني منكم أولو الأحلام والنهى ثم الذين يلونهم ـ ثلاثاً، وإياكم وهيشات الأسواق»[5].

وما ذاك إلا ليعقلوا عنه ما يقوله ـ صلوات الله وسلامه عليه. وإذا كان هذا أمره لهم في الصلاة أن يليه العقلاء ثم العلماء، فبطريق الأولى أن يكون ذلك في غير الصلاة».

أما القيام للقادم فقد اختلف فيه أهل العلم، فمنهم من أجازه محتجاً بقوله ﷺ للمسلمين لما أقبل سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه في قصة حكمه في بني قريظة: «قوموا إلى سيدكم»[6].

ومن أهل العلم من قال لا يجوز ذلك لقوله ﷺ: «من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار»[7].

ومن أهل العلم من فصَّل في ذلك فقال: يجوز عند القدوم من سفر، وللحاكم في محل ولايته، كما دلت عليه قصة سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ فإنه لما استقدمه النبي ﷺ حاكماً في بني قريظة، فرآه مقبلاً أمر المسلمين بالقيام له، ليكون أنفذ لحكمه ـ والله أعلم.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم في السلام ـ إذا قام من مجلسه ثم عاد ٢١٧٩ ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(٣) انظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ٧٣.

(٤) في «تفسيره» ٨/ ٧٢ ـ ٧٣.

(٥) أخرجه مسلم في الصلاة- تسوية الصفوف وإقامتها ٤٣٢، وأبو داود في الصلاة ٦٧٤، والترمذي في الصلاة ٢٢٨.

(٦) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٣٠٤٣، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٦٨، وأبو داود في الأدب ٥٢١٥- من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٧) أخرجه أبو داود في الأدب ٥٢٢٩، والترمذي في الأدب ٢٧٥٥- من حديث معاوية رضي الله عنه.

قالوا: وأما اتخاذ ذلك ديدناً فإنه من شعار العجم. وقد جاء في السنن: «أنه لم يكن شخص أحب إليهم ـ يعني الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ من رسول الله ﷺ ـ وكانوا إذا جاء لا يقومون له، لما يعلمون من كراهيته لذلك»[١].

ويظهر ـ والله أعلم ـ أن المنع من ذلك إذا اتخذ ذلك عادة على سبيل التعظيم ـ أما إذا كان القيام لأجل الترحيب بالقادم والسلام عليه ومصافحته ومعانقته، فلا إشكال في هذا؛ لأن هذا مما يدخل المحبة والسرور والألفة بين المسلمين، وهذا أمر مطلوب شرعاً، إذ لا يجوز البرود والتبلد حينما يلتقي المسلمون بعضهم ببعض، بل ينبغي إشعار كل منهما الآخر بحرارة اللقاء وبخالص الود والمحبة، وقطع الطريق أمام منافذ الشيطان الذي يسعى جاهداً لبث أسباب الفرقة والجفاء بين المسلمين، ولهذا شرع الإسلام السلام تحية الإسلام، وشرع المصافحة، وأمر بالهدية، والإحسان ونحو ذلك كل ذلك لترسيخ مبادئ الأخوة الإيمانية بين المسلمين.

﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾. كسرت العين من الفعل «يرفع» لالتقاء الساكنين.

أي: يرفع الله ويعلي مكانة الذين آمنوا منكم وأهل العلم درجات، أي: منازل ومراتب حسب قوة إيمانهم، وحسب علمهم وعملهم بما علموا.

والمناسبة واضحة بين مكانة أهل الإيمان والعلم، وبين الأمر بالتفسح في المجالس والارتفاع منها وآداب المجالس من وجوه عدة:

الأول: الإشارة والتنبيه إلى أن من أهم المجالس إن لم يكن أهمها مجالس الإيمان والعلم، كما كان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ يقول أحدهم للآخر: «اجلس بنا نؤمن ساعة».

وهي رياض الجنة، كما قال ـ ﷺ ـ: «**إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا**» قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: «**حِلَق الذكر**»[٢].

وقال ﷺ: «**ما جلس قوم قط في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم إلا أنزل الله عليهم السكينة، وحفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، وذكرهم الله فيمن عنده**»[٣].

---

(١) أخرجه الترمذي في الأدب ٢٧٥٤ ـ من حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ وقال: «حديث حسن صحيح».
(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٥٠٩ ـ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ٢٦٩٩، وأبو داود وفي الصلاة ١٤٥٥، والترمذي في القراءات ٢٩٤٥، وابن ماجه في المقدمة ٢٢٥ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ومر ثلاثة نفر بمجلس النبي ﷺ فوجد أحدهم فرجة فجلس، وجلس أحدهم خلف المجلس، وأعرض الثالث: فقال النبي ﷺ: «ألا أخبركم بخبر النفر الثلاثة، أما أحدهم فآوى فآواه الله، وأما الثاني فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الثالث فأعرض فأعرض الله عنه»[1].

الوجه الثاني من أوجه المناسبة بين أول الآية وآخرها أن التأدب بآداب المجالس من التفسح والارتفاع عند الحاجة، وغير ذلك إنما هو من صفات أهل الإيمان والعلم الذين وفقهم الله للعلم النافع والعمل الصالح، والذين يعلمون فضل هذه الآداب، وأنهم يؤجرون عليها.

الوجه الثالث: الإشارة إلى تقديم أهل الإيمان والعلم في المجالس لفضلهم ومكانتهم بحيث تطيب أنفس الجالسين بالتفسح لهم وتقديمهم لإيمانهم وعلمهم وقد قال ﷺ : «أنزلوا الناس منازلهم»[2].

لكن لا ينبغي أن يقام من سبق من مجلسه ليجلس فيه غيره.

قوله: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ الخطاب للمؤمنين، أي: يرفع الله الذين صدّقوا بقلوبهم وألسنتهم وانقادوا بجوارحهم ظاهرًا وباطنًا.

والمعنى: أن الله عز وجل يعلي منازلهم، ويرفع قدرهم في الدنيا بين الناس، وفي الآخرة بالجنة، فهم أكرم الناس وأعزهم عند الله عز وجل ـ وعند خلقه، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك:٢٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ [الرعد:١٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ [فاطر: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وفي قوله ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ دلالة على أن المؤمن في حاجة دائماً وفي كل حال إلى

---

(١) أخرجه البخاري في العلم ٦٦، ومسلم في السلام ٢١٧٦، والترمذي في الاستئذان ٢٧٢٤ ـ من حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٨٤٢ – من حديث عائشة رضي الله عنها

الإيمان؛ توفيقاً من الله له، وزيادة منه، وثباتاً عليه، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦]، وكما في قول المؤمنين المصلين: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ معطوف على قوله ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي: ويرفع الله الذين جمعوا بين الإيمان والعلم، فيعلي منازلهم، ويرفع قدرهم، ويعلي شأنهم في الدنيا بين الناس، وفي الآخرة بالجنات و﴿دَرَجَٰتٍ﴾ أي: منازل ومراتب، ونكرت للتعظيم والتفخيم، أي: منازل ومراتب عظيمة لا يقدر قدرها ولا يعلمها إلا الله عز وجل الذي منحها لهم.

قال ابن القيم [١]: «واللام في العلم ليست للاستغراق، وإنما هي للعهد، أي: العلم الذي بعث الله به نبيه ﷺ، وإذا كانوا قد أوتوا هذا العلم كان اتباعهم واجباً».

عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ أنه قال: «تفسير هذه الآية: يرفع الله الذين آمنوا منكم وأوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم درجات» [٢].

فيرفع الله عز وجل الذين آمنوا منازل ومراتب عالية، ويرفع الذين جمعوا بين الإيمان والعلم منازل ومراتب أعلى من ذلك قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

وقال ﷺ: «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله له به طريقاً من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورّثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر» [٣].

وعن أبي الطفيل عامر بن واثلة: أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بن الخطاب بعسفان، وكان عمر استعمله على مكة، فقال له عمر: من استخلفت على أهل الوادي؟

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٢٠.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٤٤.
(٣) أخرجه أبو داود في العلم ٣٦٤١، والترمذي في العلم ٢٦٨٢، وابن ماجه في المقدمة ٢٢٣- من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

قال: استخلفت عليهم ابن أبزى. قال: وما ابن أبزى؟ فقال: رجل من موالينا، فقال عمر: استخلفت عليهم مولى؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إنه قارئ لكتاب الله، عالم بالفرائض، قاض، فقال عمر رضي الله عنه: أما إن نبيكم ﷺ قد قال: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين»[1].

وعن مطرف بن عبد الله قال: « إنك لتلقى الرجلين: أحدهما أكثر صوماً وصلاة وصدقة، والآخر أفضل منه بوناً بعيداً. قيل له: وكيف ذاك؟ فقال: هو أشدهما ورعاً لله عن محارمه»[2].

قال علي ـ رضي الله عنه:

ما الفضل إلا لأهل العلم إنهُمُ ... على الهدى لمن استهدى أدلاء
فعش بعلم ولا تطلب به بدلاً ... فالناس موتى وأهل العلم أحياء

وقال الآخر:

العلم يرفع بيتاً لا عماد له ... والجهل يهدم بيت العز والشرف

وقال الشافعي[3] رحمه الله:

تعلم فليس المرء يولد عالماً ... وليس أخو علم كمن هو جاهل
وإن كبير القوم لاعلم عنده ... صغير إذا التفت عليه الجحافل
وإن صغير القوم إن كان عالماً ... كبير إذا ردت إليه المحافل

وقال الشافعي أيضاً[4]:

رأيت العلم صاحبه كريم ... ولو ولدته آباء لئام
وليس يزال يرفعه إلى أن ... يُعظِّم أمره القوم الكرام
ويتَّبعونه في كل حال ... كراعي الضأن تتبعه السَّوام
فلولا العلم ما سعدت رجال ... ولا عرف الحلال ولا الحرام

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين ـ فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه ٨١٧، وابن ماجه في المقدمة ٢١٨، وأحمد ١/ ٣٥.
(٢) أخرجه احمد في الزهد ص ٢٤٠.
(٣) انظر «ديوانه» ص٩٩.
(٤) انظر «ديوانه» ص١٠٥.

وقال أيضاً [١] :

ومن لم يذق ذل التعلم ساعة	تجرع ذل الجهل طول حياته
ومن فاته التعليم وقت شبابه	فكبر عليه أربعاً لو فاته
وذات الفتى والله بالعلم والتقى	إذا لم يكونا لا اعتبار لذاته

قال ابن تيمية[٢] في كلامه على قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾: «خص سبحانه رفعه بالأقدار والدرجات الذين أوتوا العلم والإيمان، وهم الذين استشهد الله بهم في قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨].

وأخبر أنهم هم الذين يرون ما أنزل إلى الرسول هو الحق بقوله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ: ٦].

فدل على أن تعلم الحجة والقيام بها يرفع درجات من يرفعها، كما قال تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [يوسف: ٧٦] قال زيد بن أسلم: «بالعلم».

قال ابن تيمية: فرفع الدرجات والأقدار على قدر معاملة القلوب بالعلم والإيمان، فكم ممن يختم القرآن في اليوم مرة أو مرتين، وآخر لا يفطر، وغيرهم أقل عبادة منهم، وأرفع قدراً في قلوب الأمة، فهذا كرز بن وبرة، وكهمس، وابن طارق، يختمون القرآن في الشهر تسعين مرة، وحال ابن المسيب وابن سيرين والحسن وغيرهم في القلوب أرفع، وكذلك ترى كثيراً ممن يلبس الصوف ويهجر الشهوات، ويتقشف، وغيره ممن لا يدانيه في ذلك من أهل العلم والإيمان أعظم في القلوب، وأحلى عند النفوس.. وإنما نالوا ذلك بقوة يقينهم بما جاء به الرسول ﷺ، وكمال تصديقه في قلوبهم ووده ومحبته، وأن يكون الدين كله لله، فإن أرفع درجات القلوب فرحها التام بما جاء به الرسول ﷺ وابتهاجها وسرورها، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس: ٥٨] ففضل الله ورحمته القرآن والإيمان، من فرح به فرح بأعظم مفروح به، ومن فرح بغيره فقد ظلم

---

(١) انظر «ديوانه» ص٣٨.

(٢) انظر: «دقائق التفسير» ٥/ ٥-٧.

نفسه، ووضع الفرح في غير موضعه، فإذا استقر في القلب، وتمكن فيه العلم بكفايته لعبده ورحمته له وحلمه عنده، وبره به، وإحسانه إليه على الدوام، أوجب له الفرح والسرور أعظم من فرح كل محب بكل محبوب سواه، فلا يزال ـ مترقياً في درجات العلو والارتفاع بحسب رقيه في هذه المعارف ـ هذا في باب معرفة الأسماء والصفات.

وأما في «باب فهم القرآن» فهو دائم التفكير في معانيه، والتدبر لألفاظه، واستغنائه بمعاني القرآن وحكمه عن غيره من كلام الناس، وإذا سمع شيئاً من كلام الناس وعلومهم عرضه على القرآن، فإن شهد له بالتزكية قبله وإلا رده، وإن لم يشهد له بقبول ولا رد وقفه، وهمته عاكفة على مراد ربه من كلامه، ولا يجعل همته فيما حجب به أكثر الناس من العلوم عن حقائق القرآن، إما بالوسوسة في خروج حروفه، وترقيقها، وتفخيمها، وإمالتها، والنطق بالمد الطويل، والقصير، والمتوسط، وغير ذلك فإن هذا حائل للقلوب قاطع لها عن فهم مراد الرب من كلامه، وكذلك شغل بـ « أأنذرتهم» وضم الميم من « عليهم» ووصلها بالواو، وكسر الهاء أو ضمها ونحو ذلك، وكذلك مراعاة النغم، وتحسين الصوت. وكذلك تتبع وجوه الإعراب، واستخراج التأويلات المستكرهة التي هي بالألغاز والأحاجي أشبه منها بالبيان.

وكذلك صرف الذهن إلى حكاية أقوال الناس، ونتائج أفكارهم. وكذلك تأويل القرآن على قول من قلد دينه أو مذهبه، فهو يتعسف بكل طريق، حتى يجعل القرآن تبعاً لمذهبه وتقوية لقول إمامه، وكل هؤلاء محجوبون بما لديهم عن فهم مراد الله من كلامه في كثير من ذلك أو أكثره، وكذلك يظن من لم يقدر القرآن حق قدره أنه غير كاف في معرفة التوحيد والأسماء والصفات، وما يجب لله وينزه عنه، بل الكافي في ذلك عقول الحيارى والمتهوكين الذين كل منهم قد خالف صريح القرآن مخالفة ظاهرة، وهؤلاء أغلظ الناس حجاباً عن فهم كتاب الله تعالى».

قوله ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ أي: والله ـ عز وجل ـ بعملكم، أو بالذي تعملونه ذو خبرة تامة واطلاع وعلم، لا تخفى عليه خافية وسيجازي كلاً بعمله.

الفوائد والعبر :

١- تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام، ونداؤهم بوصف الإيمان لتكريمهم وتشريفهم والحث على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما

ذكر بعد هذا النداء من مقتضيات الإيمان وعدم امتثاله نقص في الإيمان.

٢- الحث على التفسح والتوسع في المجالس، ويتأكد أو يجب إذا طلب ذلك من الجالسين.

٣- أن الجزاء من جنس العمل، فمن تفسحوا وتوسعوا ليجلس إخوانهم القادمون فسح الله لهم في دينهم ودنياهم وآخرتهم، في أعمالهم وأعمارهم وأرزاقهم وصدروهم ومنازلهم في الجنة وغير ذلك.

٤- الحث على الارتفاع والقيام من المجالس إذا طلب ذلك، ويتأكد ذلك أو يجب حسب الحاجة.

٥- سمو آداب الإسلام وحرصه على ما يؤلف القلوب ويحفظها من الضغائن والأنانية.

٦- علو منازل المؤمنين ورفعة درجاتهم وقدرهم في الدنيا والآخرة.

٧- فضل أهل العلم وعلو مراتبهم وقدرهم على غيرهم في الدنيا والآخرة.

٨- إثبات اسم الله - عز وجل - «الخبير» وخبرته واطلاعه وعلمه بأعمال العباد وغيرها، وفيه وعد للمحسنين ووعيد للمسيئين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٢ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٣﴾.

توقيراً واحتراماً وتعظيماً للرسول ﷺ وتخفيفا عليه، وحفاظاً على وقته وتوفيراً له الذي هو للأمة كلها أمر الله عز وجل بتقديم الصدقة بين يدي مناجاته ـ ﷺ ـ

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله ﴿فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾: «وذلك أن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله ﷺ حتى شقوا عليه، فأراد الله أن يخفف عن نبيه عليه السلام..»[1].

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ﴾.

أي: إذا أراد أحدكم أن يناجي الرسول ﷺ، أي: يسارَّه فيما بينه وبينه.

﴿فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾ أي: فادفعوا أمام وقبيل نجواكم صدقة تتصدقون بها على المساكين والفقراء، فمعنى بين يدي الشيء: أمامه وقُبيله وقدامه.

﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ﴾ الإشارة للمصدر المأخوذ من قوله (فقدموا) أي: تقديم الصدقة بين يدي مناجاة الرسول ﷺ (خير لكم وأطهر) من عدمه.

ومعنى ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ﴾ أي: أن فيه الخير لكم في الدنيا والآخرة، والطهارة والتزكية لقلوبكم وأعمالكم من الإثم، ومن ذلك أن تكون المناجاة عند الحاجة.

قال ابن كثير[2]: « أن يقدم بين يدي ذلك صدقة تطهره وتزكيه وتؤهله لأن يصلح لهذا المقام».

عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: « لما نزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾ قال لي النبي ﷺ: « ما ترى دينار»؟ قلت: لا يطيقونه. قال: « نصف دينار»؟ قلت: لا يطيقونه. قال: «ما ترى»؟ قلت: شعيرة. فقال النبي ﷺ: «إنك زهيد» قال علي: فبي خفف عن هذه الأمة»[3].

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) في « تفسيره» ٨/ ٧٥.

(٣) أخرجه الترمذي في تفسير سورة المجادلة ٣٣٠٠، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٨٢-٤٨٤-، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» ٣/ ٥٤- الأثر ٨٦٤، وابن الجوزي في «نواسخ القرآن» ص ٤٧٨. وقال الترمذي: «حسن غريب».

قال الترمذي: «قوله: شعيرة» يعني وزن شعيرة من ذهب».

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ﴾ أي: فإن لم تجدوا ما تتصدقون به وعجزتم عن ذلك.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ «الغفور» و «الرحيم» من أسماء الله عز وجل ـ يدل «الغفور» على إثبات صفة المغفرة الواسعة لله عز وجل، وهي ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة. ويدل «الرحيم» على إثبات صفة الرحمة الواسعة لله عز وجل، رحمة ذاتية ثابتة لله عز وجل، ورحمة فعلية، رحمة عامة، ورحمة خاصة.

والمعنى: فإن الله غفور رحيم لمن لم يجد الصدقة فيغفر له ويتجاوز عنه برحمته بحيث يجوز له مناجاة الرسول بدون الصدقة، لأن الله عز وجل ـ لا يكلف نفساً إلا وسعها.

﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ﴾.

الهمزة للاستفهام التقريري، أي: أخفتم وخشيتم الفاقة والفقر من تقديم الصدقة بين يدي المناجاة، وثقل عليكم ذلك، وخفتم من استمرار هذا الحكم عليكم من وجوب تقديم الصدقة بين يدي مناجاة الرسول ﷺ.

﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ الفاء: استئنافية، أي: فإذ لم تفعلوا ما أمركم الله به من تقديم الصدقة بين يدي مناجاة الرسول ﷺ ـ وامتنعتم من المناجاة خوف الصدقة، أو ناجيتموه ولم تقدموا الصدقة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «قوله ﴿فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ وذلك أن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله ـ ﷺ ـ حتى شقوا عليه، فأراد الله أن يخفف عن نبيه ـ عليه السلام ـ فلما قال ذلك صبر كثير من الناس وكفوا عن المسألة، فأنزل الله بعد هذا ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فوسع الله عليهم»[١].

وعن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: «آية في كتاب الله ـ عز وجل ـ لم يعمل بها أحد قبلي، ولا يعمل بها أحد بعدي، كان عندي دينار فصرفته بعشرة دراهم، فكنت إذا ناجيت رسول الله ـ ﷺ ـ تصدقت بدرهم، فنسخت ولم يعمل بها أحد قبلي، ولا يعمل بها أحد بعدي، ثم تلا هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٨٤، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٤٤.

﴿يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ الآية»[١].

وعن مجاهد قال: «نهوا عن مناجاة النبي ـ ﷺ ـ حتى يتصدقوا، فلم يناجه إلا علي ابن أبي طالب، قدم ديناراً صدقة تصدق به، ثم ناجى النبي ﷺ، فسأله عن عشر خصال، ثم أنزلت الرخصة»[٢].

وعن سلمة بن كُهيل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ قال: « أول من عمل بها علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ ثم نسخت»[٣].

﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ التوبة من الله ـ عز وجل ـ على عباده معناها: توفيقهم للتوبة، وقبولها منهم، كما قال عز وجل: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التوبة: ١١٨] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: ٢٥].

ومعنى قوله ﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: وتاب الله عليكم في عدم تقديمكم الصدقة بين يدي مناجاته ﷺ ـ وإشفاقكم من ذلك فتاب عليكم وعفا عنكم ونسخ ذلك ورفعه عنكم.

فنسخ الله عز وجل وجوب تقديم الصدقة بين يدي مناجاة الرسول ﷺ لمّا أشفقوا منها، ولم يفعلوها برفع وجوب ذلك، فأباح لهم مناجاته ـ ﷺ ـ بدون تقديم الصدقة توبة من الله عز وجل ـ عليهم.

وتعد هذه الواقعة من أوضح وقائع النسخ في القرآن الكريم وأصحها.والنسخ فيها إلى غير بدل.

﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، أي: فأقيموا الصلاة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها، لتكون صلاة تامة كاملة، وهذا هو السر في التعبير بالأمر بإقامة الصلاة، دون أن يقول: « صلوا» والصلاة: لغة الدعاء، وشرعاً: التعبد لله عز وجل بأقوال وأفعال معلومة مفتتحة بالتكبير مختمة بالتسليم، والمراد بالصلاة هنا الصلوات الخمس وغيرها من النوافل.

(وآتوا الزكاة) معطوف على ما قبله، أي: وأعطوا الزكاة وادفعوها لمستحقيها.

وقدم الصلاة لأنها عمود الإسلام وأعظم العبادات البدنية بعد الشهادتين، وعطف عليها الزكاة لأنها أعظم العبادات المالية، وهما القرينتان في القرآن الكريم في نحو اثنين

---

(١) أخرجه الطبري في « جامع البيان» ٢٢/ ٤٨٣.
(٢) أخرجه الطبري في « جامع البيان» ٢٢/ ٤٨٢-٤٨٣.
(٣) أخرجه النحاس في « الناسخ والمنسوخ» ٣/ ٥٤- الأثر ٨٦٣.

وثمانين موضعاً، فخصهما بالذكر لعظم مكانتهما في الإسلام.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ هذا من عطف العام على الخاص، فأمر أولاً بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ثم عطف عليهما بالأمر بطاعة الله ورسوله، وذلك لبيان عظم منزلة الصلاة والزكاة، وهما من طاعة الله ورسوله.

والطاعة: فعل المأمور واجتناب المحظور، أي: أطيعوا الله ورسوله في فعل ما أمر الله به ورسوله، واجتناب ما نهى الله عنه ورسوله.

وعطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسم الله عز وجل ـ بالواو التي تقتضي التشريك، لأن طاعة الرسول ـ ﷺ ـ من طاعة الله، كما قال عز وجل ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وفي الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله بعد توبة الله عليهم في إحجامهم عن تقديم الصدقة بين يدي المناجاة إشعار بوجوب الإكثار من العمل الصالح بعد التوبة عليهم شكراً لله على ذلك التخفيف، وأن المطلوب من العبد الاستمرار على طاعة الله عز وجل حتى يلقى الله تعالى ، كما قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ «الخبير» اسم من أسماء الله عز وجل على وزن «فعيل»، يدل على سعة خبرته عز وجل و «الخبير» هو المطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها فاطلاعه على ظواهرها وجلائلها وجلياتها من باب أولى.

(بما تعملون) أي: بالذي تعملون، أو بعملكم، وفي هذا وعد ووعيد، وعد لمن أقام الصلاة وآتى الزكاة وأطاع الله ورسوله، ووعيد لمن خالف ذلك لأن مقتضى خبرته عز وجل أن يحاسب الخلائق، ويجازي كلاً بعمله.

الفوائد والعبر:

١ ـ تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام وتشريف المؤمنين وتكريمهم بندائهم بوصف الإيمان، والحث على الاتصاف به، وعلى امتثال ما ذكر بعد النداء بهذا الوصف.

٢ ـ إيجاب تقديم الصدقة قبل مناجاة الرسول ﷺ ومسارته تخفيفاً عليه ﷺ وحفاظاً على وقته ومشاغله في الدعوة وفي الأمة. وهكذا ينبغي تقدير أوقات ذوي

المسؤوليات الكبيرة في الأمة.

٣ ـ في إيجاب الصدقة بين يدي مناجاة الرسول ﷺ خير للمؤمنين وتزكية لقلوبهم وأعمالهم بحيث تكون مناجاتهم عند الحاجة.

٤ ـ أن إيجاب الصدقة بين يدي مناجاة الرسول ﷺ على الواجد أما من لم يجد فلا شيء عليه ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، ولهذا قال ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٥ ـ إثبات اسمين من أسماء الله عز وجل، وهما «الغفور» و «الرحيم» وصفة المغفرة والرحمة الواسعتين، لهذا رحم وغفر لمن لم يجد الصدقة وأباح له مناجاة الرسول ﷺ بدونها.

٦ ـ إشفاق المؤمنين وخشيتهم من تقديم الصدقة بين يدي المناجاة وثقلها عليهم.

٧ ـ توبة الله ـ عز وجل ـ على المؤمنين ومغفرته ورحمته لهم ونسخ وجوب تقديم الصدقة عليهم بين يدي مناجاة الرسول ﷺ لما شق عليهم ذلك ولم يناجوه خشية تقديم الصدقة.

٨ ـ وجوب إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله ففي ذلك تكفير السيئات، ورفعة الدرجات.

٩ ـ عظم مكانة الصلاة والزكاة بين الطاعات لهذا خصهما بالذكر.

١٠ ـ إثبات اسم الله ـ عز وجل «الخبير» وخبرته ـ عز وجل ـ التامة، وعلمه الواسع، وإحاطته بأعمال العباد، وفي هذا وعد للمؤمنين ووعيد للمكذبين.

﴿۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَـٰنِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي - ﷺ - كان في ظل حجرة من حجره، وعنده نفر من المسلمين قد كاد يقلص عنهم الظل، قال: «إنه سيأتيكم إنسان ينظر بعيني شيطان، فإذا أتاكم فلا تكلموه » فجاء رجل أزرق، فدعاه رسول الله - ﷺ - فكلمه، فقال: « علام تشتمني أنت وفلان وفلان»؟ نفر دعاهم بأسمائهم - قال: فانطلق الرجل فدعاهم، فحلفوا له واعتذروا إليه، قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾ وفي رواية له: «فنزلت هذه الآية التي في المجادلة ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾»[1].

هذه الآيات في فضح المنافقين والإنكار عليهم في موالاتهم اليهود والمشركين في الباطن، وهم في حقيقة الأمر لا معهم ولا مع المؤمنين.

قوله ﴿۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ الاستفهام للإنكار والتعجب والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له.

﴿ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟﴾ يعني المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر.

﴿قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ يعني اليهود، فهم المغضوب عليهم كما قال تعالى ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١]، [آل عمران: ١١٢]، وقال تعالى: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ [البقرة: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّـٰغُوتَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٢٤٠، ٢٦٧، ٣٥٠، والطبري في « جامع البيان» ٢٢/ ٤٨٩ والواحدي في « أسباب النزول» ص٢٧٧، والحاكم ٢/ ٤٨٢- وقال: « صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» وقال ابن كثير في «تفسيره »٨/ ٧٨ : «إسناد جيد ولم يخرجوه».

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ [الممتحنة: ١٣].

ومعنى: ﴿تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ أي: جعلوهم أولياء يوالونهم ويمالئونهم في الباطن قال الطبري[1]: « ألم تنظر بعين قلبك يا محمد، فترى إلى القوم الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم، وهم المنافقون، تولوا اليهود وناصحوهم».

﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ أي: أن هؤلاء المنافقين في الحقيقة ليسوا منكم أيها المؤمنون، ولا منهم، أي: ولا من اليهود والمشركين، بل هم كما قال الله عنهم: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: ١٤٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ﴾ أي: ويحلف هؤلاء المنافقون، (على الكذب) أي: كذباً، وعلى أمور كاذبة.

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ الواو: حالية، أي: والحال أنهم يعلمون أنهم كاذبون في حلفهم.

قال ابن كثير[2]: «يعني المنافقين يحلفون على الكذب وهم عالمون بأنهم كاذبون فيما حلفوا، وهي اليمين الغموس، ولاسيما في مثل حالهم اللعين، عياذًا بالله منه، فإنهم كانوا إذا لقوا الذين آمنوا، وإذا جاءوا الرسول حلفوا بالله أنهم مؤمنون، وهم في ذلك يعلمون أنهم يكذبون فيما حلفوا به، لأنهم لا يعتقدون صدق ما قالوه، وإن كان في نفس الأمر مطابقاً، ولهذا شهد الله بكذبهم في أيمانهم وشهادتهم لذلك».

وهذا ديدن المنافقين الحلف وهم كاذبون، كما قال عز وجل في سورة المنافقين ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الآية: ١].

وقال تعالى ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [التوبة: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ

---

(١) في « جامع البيان» ٢٢/ ٤٨٧.

(٢) في « تفسيره» ٨/ ٧٧.

﴿٥٦﴾ [التوبة: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤].

وقال تعالى: ﴿۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ [النور: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٣].

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾.

(أَعَدَّ): هيأ وجهز وأرصد (لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا) أي: عذاباً شديداً من حيث كيفيته وكميته حسيا ومعنوياً، لا يعلم مدى شدته إلا من وصفه بهذا، وهو الله عز وجل شديد العقاب، وذلك بسبب نفاقهم وموالاتهم الكافرين، عذاباً عاجلاً في الدنيا من القلق والحيرة والتذبذب والشقاء النفسي، كما قال عز وجل: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤].

فهم دائماً في خوف وقلق بسبب نفاقهم وكونهم لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، مع ما يصيبهم من المصائب في الأنفس والأموال وغير ذلك.

وأعد لهم عذابا شديداً في الآخرة في النار فهم أشد أهل النار عذاباً كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ هذه الجملة كالتعليل لما قبلها، و « ساء» بمعنى قبح، و«ما» مصدرية أو موصولة، أي: ساء عملهم، أو ساء الذي كانوا يعملون.

والمعنى: أن الله عز وجل ـ أعد لهم العذاب الشديد لسوء أعمالهم وقبحها، أو بسبب أعمالهم السيئة القبيحة وهي نفاقهم وموالاتهم اليهود والمشركين ونصحهم لهم، ومعاداتهم المؤمنين وغشهم لهم، فليس هناك عمل وضيع أسوأ من عمل المنافقين وصنيعهم ـ عياذا بالله من ذلك.

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هذا كقوله في سورة المنافقين ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الآية: ٢]

أي: جعلوا حلفهم وقاية وستراً لأنفسهم وأموالهم وذراريهم،فأظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر،وأقسموا الأيمان المغلظة الكاذبة أنهم مع المؤمنين، وكلما افتضح شيء من أمرهم اتقوا بالأيمان الكاذبة، كما قال عز وجل عنهم ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ﴾ [التوبة: ٩٥]، وقال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦].

﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: أعرضوا عن سبيل الله وطريقه وهو الإيمان بالله ظاهراً وباطناً، واكتفوا بدعوى الإيمان ظاهراً، وتوكيد ذلك بالأيمان الكاذبة.

وصدوا غيرهم عن سبيل الله حيث اغتر بهم من لا يعرف حقيقتهم، فصدقهم وقلدهم واطمأن إليهم فصدوه عن الحق.

﴿فَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ أي: فلهم بسبب جعلهم الأيمان الكاذبة وقاية لهم وصدهم عن سبيل الله بأنفسهم ولغيرهم (عذاب مهين) أي: يهينهم ويذلهم، فهو عذاب شديد للأجسام، وعذاب مهين للقلوب بالذل والهوان والتبكيت والتوبيخ، كما قال عز وجل ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]، وقال تعالى مخاطباً أهل النار: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

فالعذابان الحسي والمعنوي متلازمان، والعذاب المعنوي لا يقل عن العذاب الحسي.

﴿لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم﴾ أي: لن تنفعهم ولن تدفع عنهم أموالهم ولو كثرت فيفتدوا بها، ولا أولادهم وإن كثروا لينتصروا بهم (من الله شيئاً) أي: من عذاب الله عز وجل ـ وعقابه شيئاً إذا نزل بهم.

و«شيئاً» نكرة في سياق النفي تعم أي: لن تنفعهم ولن تدفع عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً، مهما قل أو صغر.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ أي: أولئك المنافقون الذين يتولون اليهود ويحلفون الأيمان الكاذبة ويصدون بها عن سبيل الله وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيراً لهم ولمصيرهم.

﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ أي: أهل النار وملازموها ملازمة الصاحب لصاحبه والغريم لغريمه.

﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: هم في النار مقيمون فيها إقامة أبدية لا تحول ولا تزول، ولهذا أكد خلودهم فيها بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وذلك لكفرهم، ولأن النار لا تفنى، ولا يفنى عذابها وأهلها، كما دل الكتاب والسنة على ذلك.

﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا﴾ «يوم» ظرف زمان بمعنى « حين» متعلق بفعل مقدر، أي: اذكر يوم، أي: يوم القيامة حين يبعثهم الله جميعاً، أي: يخرجهم من قبورهم جميعاً، بعد أن يعيد الحياة فيهم، ويحشرهم جميعاً في موقف الحساب.

﴿فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ﴾ أي: فيحلفون ويقسمون له أنهم على الحق والإيمان والاستقامة.

﴿كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡۖ﴾ أي: كما كانوا في الدنيا يحلفون لكم أيها المؤمنون أنهم معكم، وتُجرون عليهم الأحكام الظاهرة.

فحيث اتخذوا الأيمان الكاذبة مطية لهم في الدنيا ووقاية لدمائهم وأموالهم وأعراضهم صار هذا سجية لهم وديدنا وعادة حتى بعد بعثهم بعد الموت أمام من لا تخفى عليه خافية. قال ابن كثير[1]: «لأن من عاش على شيء مات وبعث عليه».

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أي: يظنون أنهم بهذا الحلف له عز وجل على شيء من الأمر، وأن هذا الحلف سينفعهم أمام من لا تخفى عليه خافية، كما كانوا في الدنيا يتخذون الأيمان وقاية لهم، ولا شك أن هذا من عمى البصائر وإلا فكيف يحلفون للخالق سبحانه العليم بذات الصدور، الذي يعلم السر وأخفى، وهم كاذبون ويظنون أن ذلك ينفعهم.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ «ألا» أداة تنبيه، أي: ألا إنهم هم الكاذبون في حسبانهم وظنهم أنهم على شيء، وهم الكاذبون في أيمانهم.

وقد أكد كذبهم في حسبانهم وأيمانهم بعدة مؤكدات وهي: « ألا» التي هي للتنبيه و«إنّ»، وضمير الفصل « هم»، وكون الجملة اسمية معرفة الطرفين

أي: ألا إنهم هم الذين بلغوا الغاية في الكذب.

وحال هؤلاء، كما أخبر تعالى عن المشركين في قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٣ ، ٢٤].

﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ استحوذ: غلب وسيطر واستولى على قلوبهم وأعمالهم.

والشيطان: إبليس لعنه الله وجنوده، مشتق من « شطن» بمعنى بعد عن رحمة الله وعن كل خير. وكل متمرد عات خارج عن طاعة الله تعالى فهو شيطان، من الجن والإنس والحيوان قال تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وقال ﷺ «الكلب الأسود شيطان»[2].

﴿فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ أي: جعلهم بسبب استحواذه عليهم ينسون ذكر الله ـ عز وجل ـ الذي فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة من الإيمان بالله عز وجل ـ حقاً إخلاصاً له عز وجل، ومتابعة لرسوله ﷺ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٧٨.

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة ٥١٠، وأبو داود في الصلاة ٧٠٢، والنسائي في القبلة ٧٥٠، والترمذي في الصلاة ٣٣٨، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٩٥٢- من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

الحرام، وقراءة القرآن والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير ودعاء الله إلى غير ذلك.

عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « ما من ثلاثة في قرية ولا بدو، لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان فعليك بالجماعة فإنما يأكل الذئب القاصية»[1].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِۚ﴾ أي: أنصاره وأتباعه وجنده وأعوانه على الشر.

﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ «ألا» أداة تنبيه و«الخاسرون» جمع خاسر، والخسر، والخسران: ضياع رأس المال مع الربح، وقد أكد عز وجل خسرانهم في هذه الجملة بعدة مؤكدات وهي «ألا» التي للتنبيه، و«إنّ» وضمير الفصل «هم» وكون الجملة اسمية معرفة الطرفين.

أي: المغبونون في صفقتهم، الذين بلغوا الغاية في الخسران، فخسروا أغلى ما لديهم، خسروا أنفسهم وأهليهم، خسروا الدنيا والآخرة.

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

الفوائد والعبر:

١ ـ الإنكار على المنافقين والتعجيب منهم في موالاتهم اليهود المغضوب عليهم.

٢ ـ تذبذب المنافقين فليسوا من المؤمنين ولا من اليهود، وحلفهم على الكذب وهم يعلمون كذبهم.

٣ ـ اتخاذ المنافقين أيمانهم الكاذبة وقاية لأنفسهم وأموالهم وصدهم عن سبيل الله بأنفسهم ولغيرهم.

٤ ـ الوعيد الشديد للمنافقين بالعذاب الشديد، عذاباً حسياً في الدرك الأسفل من النار وملازمتها والخلود فيها، وعذاباً معنوياً يهينهم ويذلهم لسوء عملهم وشدة كفرهم، وأن أموالهم وأولادهم لن تنفعهم ولن تدفع عنهم من عذاب الله شيئاً.

٥ ـ بعث الله ـ عز وجل ـ الناس جميعاً من قبورهم للحساب والجزاء.

٦ ـ عمى بصائر المنافقين وأن من مات على شيء بعث عليه فحيث كانوا في الدنيا يتخذون أيمانهم الكاذبة وقاية لهم ولأموالهم صار ذلك سجية لهم ففي عرصات القيامة يحلفون لله كما كانوا يحلفون في الدنيا ظناً منهم أن ذلك ينفعهم أمام من لا تخفى عليه خافية، وتأكيد كذبهم في حلفهم وحسبانهم.

٧ ـ غلبة الشيطان على المنافقين وإنساؤه لهم ذكر الله وكونهم من أنصاره وجنده الخاسرين المغبونين.

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة ـ التشديد في ترك الجماعة ٥٤٧، والنسائي في الإمامة ٨٤٧.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ٢٠ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢١ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٢٢﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة حال المنافقين في موالاتهم اليهود والمشركين واتخاذهم الأيمان وقاية لهم، وغلبة الشيطان عليهم، وما أعد لهم من العذاب الشديد المهين، وما ينتهون إليه من الخسران المبين، ثم أتبع ذلك بالوعيد بالإذلال لجميع الكافرين المحادين لله ورسوله من المنافقين واليهود والمشركين وغيرهم، وفي هذا توكيد لوعيدهم في أول السورة.

قوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ﴾.

أي: إن الذين يكونون في حد وجانب وشق مناوئ ومضاد ومخالف لله ورسوله ويشاقون ويعادون الله ورسوله.

قال ابن كثير[1]: «يعني الذين هم في حد والشرع في حد، أي: مجانبون للحق مشاقون له، هم في ناحية والهدى في ناحية».

﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ﴾ أي: أولئك المحادون لله ورسوله (في الأذلين) أي: في عداد المهانين الأشقياء المغلوبين المبعدين الذين قضي عليهم بالذل والهوان في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى في أول السورة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ [الآية: ٥].

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾ أي: قضى الله ـ عز وجل ـ وحكم وكتب في كتابه الأول في الأزل في اللوح المحفوظ فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله يقول: «أول ما خلق الله القلم فقال اكتب. فقال: ما أكتب؟ قال اكتب القدر، ما كان وما هو كائن إلى الأبد»[2].

﴿لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ أي: لتكونن الغلبة لي أنا ورسلي، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٧٩.

(٢) أخرجه الترمذي في القدر ٢١٥٥. وقال «حديث غريب».

وقال ﷺ: «وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري»[(١)] قال الحسن: «أبى الله إلا أن تكون الذلة والصغار على من خالف أمره».

قال ابن كثير[(٢)]: «أي: قد حكم وكتب في كتابه الأول وقدره الذي لا يخالف ولا يمانع، ولا يبدل بأن النصرة له ولكتابه ورسله وعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة، وأن العاقبة للمتقين... وهذا قدر محكم وأمر مبرم أن العاقبة والنصرة للمؤمنين في الدنيا والآخرة».

وقال ابن القيم[(٣)]: « وقوله ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ عقيب قوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ دليل على أن المحادة مغالبة ومعاداة حتى يكون أحد المحادين غالبًا ـ وذلك ـ إنما يكون بين أهل الحرب لا أهل السلم، فعلم أن المحاد ليس بمسالم فلا يكون له أمان مع المحادة».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر «أن» بفتح الهمـزة، وقـرأ البـاقون بكسرها، وهذا كالتعليل لما قبله، أي: إن الله كتب الغلبة له ولرسله لأنه القوي العزيز.

و«القوي» اسم من أسماء الله عز وجل على وزن «فعيل» يدل على أنه سبحانه ذو القوة التامة، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٥٢].

و«العزيز» اسم من أسماء الله ـ عز وجل ـ على وزن «فعيل»، مشتق من العزة، يدل على أن الله ـ عز وجل ـ ذو العزة التامة بجميع معانيها، كما قال عز وجل ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩]، وقال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠] ، فلـه ـ عز وجل ـ العـزة بمعانيها الثلاثة: عـزة الامتناع فهو ـ عز وجل ـ ممتنـع عـن كل نقص وعيب، ومـن ذلك يقال للأرض الصلبة «عـزاز» لقوتها وامتناعها ممن أراد حفرها إلا بمشقة. والثاني: عـزة القهر والغلبة، كما قال عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨، ٦١]، وقال عز وجل ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعـد: ١٦]، وقـال تعـالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١]،

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، ما قيل في الرماح بلفظ: ويذكر عن ابن عمر عن النبي ﷺ: «جعل رزقي تحت ظل رمحي وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري» انظر «فتح الباري» ٦/ ٩٨. وأخرجه أحمد عن ابن عمر موصـولا ٢/ ٥٠، ٩٢.

(٢) في « تفسيره» ٨/ ٧٩.

(٣) انظر: « بدائع التفسير» ٤/ ٤١٩.

وقال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١].

الثالث: عزة القوة.

قال ابن القيم[١]:

وهـو العزيـز فـلا يـرام جنابـه	أنـى يـرام جنـاب ذي السـلطان
وهـو العزيـز القـاهر الغـلاب لم	يغلبـه شـيء هـذه صـفتان
وهـو العزيـز بقـوة هـي وصـفه	فـالعز حينئـذ ثـلاث معـان
وهـي الـتي كملـت لـه سـبحانه	مـن كـل وجـه عـادم النقصـان

ويحسن في مثل هذا الموضع أن يحمل العزيز على عزة الامتناع، وعزة القهر والغلبة، لذكر اسمه ـ عز وجل ـ «القوي» قبله.

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

صلة الآية بما قبلها:

بعد ما ذكر الله عز وجل موالاة المنافقين لليهود، وما أعد لهم من العذاب الشديد والمهين والخسران المبين، وأنه عز وجل قضى بالذل والهوان على الذين يحادونه ورسوله، وكتب الغلبة له ولرسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ أتبع ذلك ببيان أنه لا يجتمع الإيمان بالله واليوم الآخر مع موادة من حاد الله ورسوله من اليهود والمشركين وغيرهم، ولا يتصور وجود هذا، لأن الإنسان إما مواد لله ورسوله ومعاد لمن حاد الله ورسوله، وهذا هو المؤمن، وإما مواد لمن حاد الله ورسوله معاد لله رسوله والمؤمنين وهذا هو الكافر والمنافق.

سبب النزول: رُوي عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: «أنزلت هذه الآية: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ﴾ إلى آخرها في أبي عبيدة عامر ابن عبد الله بن الجراح حين قَتَل أباه يوم بدر».

---

(١) انظر «النونية» ص ١٤٧.

وقيل: نزل قوله (ولو كانوا آباءهم) في أبي عبيدة قتل أباه يوم بدر، ونزل قوله (أو أبناءهم) في الصديق همَّ يومئذٍ بقتل ابنه عبد الرحمن، ونزل قوله (أو إخوانهم) في مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يومئذ ونزل (أو عشيرتهم) في عمر قتل قريباً له يومئذ أيضا، وفي حمزة بن الحارث وعلي وعبيدة بن الحارث قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة[١].

قال ابن كثير[٢]: «وقلت: ومن هذا القبيل حين استشار رسول الله ﷺ المسلمين في أسارى بدر، فأشار الصديق بأن يفادوا، فيكون ما يؤخذ منهم قوة للمسلمين، وهو بنو العم والعشيرة، ولعل الله أن يهديهم. وقال عمر: لا أرى ما رأى يا رسول الله، هل تمكني من فلان ـ قريب لعمر ـ فأقتله، وتمكن علياً من عقيل، وتمكن فلاناً من فلان، ليعلم الله أنه ليست في قلوبنا هوادة للمشركين.. القصة بكمالها».

قوله ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾.

«لا» نافية والقوم: الجماعة من الناس رجالاً ونساء، (يؤمنون بالله) أي: يصدقون بوجود الله عز وجل ـ وربوبيته، وألوهيته وأسمائه وصفاته، وينقادون لشرعه ظاهراً و باطناً.

(واليوم الآخر) أي: ويؤمنون باليوم الآخر، وهو يوم القيامة، وسُمي باليوم الآخر لأنه آخر الأيام فآخر ليلة من الدنيا صبيحتها يوم القيامة وهو آخر مراحل الإنسان الأربع فمرحلة في بطن أمه، ثم مرحلة في الدنيا، ثم مرحلة في البرزخ، ثم مرحلة يوم القيامة.

وكثيراً ما يقرن ـ عز وجل ـ الإيمان باليوم الآخر بالإيمان به عز وجل، لأن الإيمان باليوم الآخر أعظم حافز على العمل، لأن في هذا اليوم يكون الحساب والجزاء على الأعمال وفيه الأهوال العظام، ولهذا رُويَ أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: «لولا الإيمان باليوم الآخر لرأيت من الناس غير ما ترى»

يعني لتكالب الناس على المعاصي والشرور وربما أكل بعضهم بعضًا.

﴿يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ المودة: المحبة، أي: يحبون من حاد الله ورسوله.

أي: من عادى الله ورسوله وشاقهما وخالف أمر الله ورسوله من اليهود والمشركين.

والمعنى: لا يمكن أن يوجد ولا يتصور اجتماع الإيمان بالله واليوم الآخر مع موادة من حاد الله ورسوله، فهذان أمران متناقضان متنافيان، فالجمع بينهما ضرب من

---

(١) ذكره الواحدي في « أسباب النزول» صـ ٢٧٨، وانظر « تفسير ابن كثير» ٨/ ٧٩.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٨٠.

المستحيل، كما قال ابن القيم[1] في كلامه على قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ [الآية: ٤]: «فأنت تجد في هذه اللفظة أن القلب ليس له إلا وجهة واحدة إذا مال بها إلى جهة لم يمل إلى غيرها، وليس للعبد قلبان، يطيع ويتبع أمره ويتوكل عليه بأحدهما والآخر لغيره، بل ليس له إلا قلب واحد، فإن لم يفرد بالتوكل والمحبة والتقوى لربه، وإلا انصرف ذلك إلى غيره».

فلا يمكن أن يوجد قوم يؤمنون بالله واليوم الآخر – حقاً ـ ومع ذلك يوادون من حاد الله ورسوله لأن موادة من حاد الله ورسوله تنفي صدق الإيمان بالله واليوم الآخر.

شتان بين الحالتين فإن ترد جمعاً فما الضدان يجتمعان[2]

فالإيمان بالله واليوم الآخر يمنع صاحبه من موادة الكافرين، لأن من مقتضى الإيمان بالله واليوم الآخر محبة الله ورسوله والمؤمنين، وبغض من حاد الله ورسوله من المنافقين واليهود والكافرين ونحوهم.

قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤٤].

وقال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٨١].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١].

﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ أي: ولو كان أولئك المحادون لله ورسوله ﴿ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ فإنهم لا

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٤١٩.

(٢) البيت لابن القيم انظر «النونية» ص ١١.

يوادونهم لمحادتهم الله ورسوله وكفرهم، كما قال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣].

والآباء هم الأب القريب والأجداد وإن علوا من أي جهة كانوا والأبناء: هم أبناء الرجل وأبناء أولاده وإن نزلوا، والإخوان: إخوة الرجل أشقاء أو لأب أو لأم، و«العشيرة» القبيلة من العصبة من الأعمام وأبنائهم وأبناء أبناءهم، وإن نزلوا، ونحوهم.

وهذا محك عظيم فكم من مدع الإيمان بالله واليوم الآخر، وكم من مدع محبة الله ـ عز وجل ـ ورسوله ـ لكنه إذا جاء شأن القرابة والعشيرة ترك العدل والإنصاف محاباة للقريب وانتصاراً له، حتى ولو كان ظالماً عاصياً محاداً لله ورسوله. وقد قال ﷺ « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» قيل: يا رسول الله أنصره مظلوماً فكيف إذا كان ظالماً؟ قال: «تمنعه من الظلم، فإن ذلك نصره»(١).

فالواجب على المؤمن حقاً بغض من حاد الله ورسوله ومعاداتهم، ولو كانوا أقرب الأقربين إليه، ومحبة الله ورسوله والمؤمنين وموالاتهم. وهذه حقيقة الإيمان بالله واليوم الآخر، وهنا يجد المرء حلاوة الإيمان، قال ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»(٢).

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «من أحب في الله، وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك. وقد كانت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا وذلك لا يجدي على أهله شيئاً»(٣).

وقال عز وجل: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

---

(١) أخرجه البخاري في الإكراه ٦٩٢٥، والترمذي في الفتن ٢٢٥٥- من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان ١٦، ومسلم في الإيمان ٤٣، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٤٩٨٧، والترمذي في الإيمان ٢٦٢٤، وابن ماجه في الفتن ٤٠٣٣- من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) ذكره شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في كتاب التوحيد ونسبه لابن جرير انظر: « تيسير العزيز الحميد» ص٤٧٩.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾.

الإشارة (أولئك) للذين آمنوا بالله واليوم الآخر الذين لا يوادون من حاد الله ورسوله ولو كان من أقرب الناس إليهم.

وأشار إليهم بإشارة البعيد (أولئك) تعظيما ورفعة لشأنهم.

﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ أي: أدخله في قلوبهم وثبته فيها.

﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ أي: وأمدهم وقواهم بروح منه، أي: بوحيه ونوره ومدده.

قال الطبري[(١)]: « وقواهم ببرهان منه ونور وهدى».

وقال السعدي[(٢)]: «وهم الذين قواهم الله بروح منه، أي: بوحيه ومعرفته ومدده الإلهي وإحسانه الرباني»،

فاستمروا على الإيمان باطنا، وظهرت آثاره على جوارحهم وأعمالهم الظاهرة لأن الله أمدهم بروح منه، فهم يسيرون في هذه الحياة على نور من الله عز وجل قال عز وجل: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ﴾ [الأنعام: ١٢٢]. وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ [الزمر: ٢٢].

ولهذا كان ﷺ يقول: «اللهم اجعل في قلبي نوراً وفي سمعي نوراً وفي بصري نورًا ومن فوقي نورًا، ومن تحتي نوراً وعن يميني نوراً وعن شمالي نوراً واجعل لي نوراً»[(٣)].

فمن وفقه الله عز وجل وجعل الإيمان في قلبه وثبته عليه وأمده وقواه بروح منه، ونوَّر بصيرته فهو محفوظ بحفظ الله عز وجل عن موادة من حاد الله ورسوله ومن أنواع الشرور كلها ـ بإذن الله عز وجل.

﴿وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾.

وصف الله ـ عز وجل ـ الذين آمنوا بالله واليوم الآخر بأنهم لا يوادون من حاد الله ورسوله، وأنه عز وجل جعل الإيمان في قلوبهم وثبته فيها وأمدهم وقواهم بروح منه

---

(١) في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٩٤.

(٢) في « تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٣٢٢.

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٣١٦، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٧٦٣، وأبو داود في الصلاة ١٣٥٣، والنسائي في التطبيق ١١٢١، والترمذي في الصلاة ٢٣٢ ـ من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما.

فسعدوا في حياتهم بالاستقامة على طاعة الله –عز وجل ـ، ثم ذكر ما أعد لهم في الآخرة في الجنة من ألوان النعيم.

قوله ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ جنات: جمع جنة، وهي ما أعده الله ـ عز وجل ـ لسكنى أوليائه المتقين وحزبه المفلحين في دار كرامته دار السلام، التي فيها من ألوان النعيم ما لا يعلمه إلا الله ـ عز وجل ـ كما قال عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

وقال ﷺ: «فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»[1].

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ صفة لجنات، أي: تجري من تحت أشجار هذه الجنات ومساكنها وغرفها الأنهار، يشربون منها ويصرّفونها حيث شاؤوا ويتمتعون برؤيتها، وهي كما قال الله عز وجل ﴿أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: مقيمين فيها إقامة أبدية لا تحول ولا تزول، لأن الجنة لا تفنى ولا يفنى نعيمها وأهلها بإجماع المسلمين.

﴿رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ رضي الله عنهم لإيمانهم وعملهم الصالح فوفقهم للحق والثبات عليه، وأثابهم على ذلك بالجنات وما فيها من النعيم.

﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ بما هيأ لهم من أسباب الهداية والتوفيق والسعادة في الدنيا والآخرة، والأجر العظيم في الجنة، كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩].

وقال تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨].

قال ابن كثير[2]: «وفي قوله ﴿رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾: سر بديع، وهو أنه لما سخطوا على القرائب والعشائر في الله عوضهم الله بالرضا عنهم، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم والفوز العظيم، والفضل العميم».

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٤٤، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٢٤، والترمذي في التفسير ٣١٩٧، وابن ماجه في الزهد ٤٣٢٨ ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٨٠.

كما قال ﷺ فيما روته عائشة رضي الله عنها: «من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس»[1].

ورضى الله عنهم من أعظم النعيم المعنوي الذي تقر به عيونهم فهم ضيوف على أكرم الأكرمين وقد رضي ـ عز وجل ـ عنهم ورضوا عنه، فأعظم بها من كرامة.

والرضا من المضيف من أعظم ما تقربه عين الضيف ويسعد به.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ﴾ أشار إليهم مرة ثانية بإشارة البعيد (أُوْلَٰٓئِكَ) تعظيماً ورفعة لشأنهم وتوكيداً لذلك.

﴿حِزۡبُ ٱللَّهِۚ﴾ أي: أهل عبوديته الخاصة وأنصاره وأهل كرامته وإفضاله.

﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ﴾ «ألا» أداة تنبيه أي: ألا إن حزب الله وعباده المؤمنين (هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ) الفائزون بالمطلوب الناجون من المرهوب، الفائزون بالجنة والثواب، الناجون من النار والعذاب.

وقد أكد الفلاح في الآية بـ « ألا» أداة التنبيه و « إن» المؤكدة، وضمير الفصل «هم» وكون الجملة اسمية، وتعريف الخبر « المفلحون» أي: أولئك المفلحون الفلاح العظيم الذي لا يشبهه فلاح.

وفي هذا تنويه بما أعد الله لهم من الفوز والكرامة والسعادة في الدنيا والآخرة، في مقابل ما أعده لحزب الشيطان من الكفار والمنافقين من العذاب الشديد المهين والخسران المبين.

الفوائد والعبر:

١ ـ أن محادة الله ـ عز وجل ـ محادة لرسوله ﷺ، كما أن محادة الرسول ﷺ محادة لله ـ عز وجل.

٢ ـ قضاء الله وحكمه على المحادين له ولرسله بالذلة والهوان والشقاء في الدنيا والآخرة وقضاؤه بالغلبة والعزة له ولرسله وأتباعهم.

٣ ـ إثبات اسمين من أسماء الله ـ عز وجل، وهما «القوي» و «العزيز» وما يؤخذ منهما من إثبات صفة القوة وعزة القهر والغلبة وعزة الامتناع له تعالى.

٤ ـ لا يجتمع الإيمان بالله واليوم الآخر وموادة من حاد الله ورسوله مهما كان هذا المحاد من الآباء أو الأبناء أو الإخوان أو العشيرة.

٥ ـ الثناء على الذين آمنوا بالله واليوم الآخر ولم يوادوا من حاد الله ورسوله مهما كانت قرابته والامتنان عليهم بأن الله ثبت الإيمان في قلوبهم، وأمدهم بوحيه ونوره ومعرفته.

٦ ـ الوعد من الله ـ عز وجل ـ بالثواب العظيم للمؤمنين به واليوم الآخر بإدخالهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها مع رضا الله عنهم ورضاهم عنه وكونهم حزبه المفلحين دون غيرهم.

٧ ـ أن الجنة لا تفنى ولا يفنى نعيمها وأهلها.

---

(١) سيأتي تخريجه ص١٣٠.

تفسير سورة الحشر

عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة الحشر، قال: «نزلت في بني النضير»[1]، وفي رواية عنه أن ابن عباس قال له: «قل سورة النضير»[2] ولهذا تسمى هذه السورة: سورة بني النضير.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِي ٱلْأَبْصَٰرِ ۝ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝﴾.

قوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

سبق الكلام عليه مفصلاً في مطلع سورة الحديد وهو إخبار من الله عز وجل أن كل ما في السموات وما في الأرض يسبحه ويعظمه ويعبده ويصلي له ويوحده وينقاد له وينزهه عما لا يليق بجلاله، ويدل على وجوده وعظمته وكمال ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته. كما قال عز وجل: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقد أخبر الله عز وجل عن تسبيح جميع المخلوقات له في مواضع كثيرة من القرآن وفي مطلع خمس سور، تسمى المسبحات وهي: الحديد، والحشر، والصف، والجمعة، والتغابن. لتأكيد ذلك والدلالة على عظمته سبحانه وتعالى وخضوع جميع المخلوقات لأمره، وتعظيمها له سبحانه وتعالى.

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

أي: هو وحده الذي أخرج الذين كفروا به وجحدوا شريعته وما جاء به نبيه محمد ﷺ.

﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهم يهود بني النضير، إحدى قبائل اليهود الثلاث التي كانت في

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الحشر ٤٨٨٢، ومسلم في التفسير ٣٠٣١.
(٢) أخرجها البخاري في المغازي ٤٠٢٩.

المدينة وهم: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة، عاهدهم النبي - ﷺ - كلهم، لما قدم المدينة، فنقضوا العهد، وأول من نقض العهد منهم بنو قينقاع، وذلك في السنة الثانية من الهجرة في شوال بعد وقعة بدر، فغزاهم الرسول ﷺ، وحاصرهم في حصونهم أشد الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فنزلوا على حكم الله ورسوله، ثم منّ عليهم، وأمرهم أن يخرجوا من المدينة، ولا يجاوروه بها، فخرجوا إلى أذرعات الشام، وهلك أكثرهم.

ثم تلاهم بنو النضير فنقضوا العهد، فغزاهم رسول الله - ﷺ - بعد بدر بستة أشهر، وقبل أحد - كما روي عن عائشة ـ رضي الله عنها[1] وعروة بن الزبير[2]، وقيل كانت غزوة بني النضير بعد وقعة أحد. وقد أنزل الله فيهم سورة الحشر.

ثم تبعهم بنو قريظة، فنقضوا العهد لما خرج الرسول ﷺ لغزوة الخندق «غزوة الأحزاب»، فحاصرهم النبي - ﷺ - بعد غزوة الأحزاب، وحكّم فيهم سعد بن معاذ - رضي الله عنه - فحكم فيهم بحكم الله - عز وجل - أن يقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم، وتقسم أموالهم، فقال له النبي - ﷺ - «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات» وقد ذكر الله قصتهم في سورة الأحزاب.

وكان من أمر بني النضير في نقضهم العهد غدرهم بالنبي - ﷺ - حيث هموا بقتله بإلقاء صخرة عليه، لما جاء يستعينهم في دية القتيلين من بني عامر فجاءه الوحي من ربه، فخرج من بينهم، ثم بعث إليهم، أن اخرجوا من المدينة، ولا تساكنوني بها، وقد أجلتكم كذا، فمن وجدت بعد ذلك ضربت عنقه[3].

﴿مِن دِيَـٰرِهِمْ﴾ أي: من دورهم ومنازلهم وحصونهم في ناحية المدينة، بعد حصارهم ست ليال، وقيل غير ذلك.

﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ أي: لأول محشرهم إلى أرض المحشَر والمنْشَر الشام.

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «من شك في أن أول المحشر ههنا - يعني الشام - فليتل هذه الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ قال

---

(١) سياتي تخريجه قريباً.

(٢) ذكره البخاري عن الزهري عن عروة في المغازي - حديث بني النضير - انظر «فتح الباري» ٧/ ٣٢٩، وأخرجه ابن أبي حاتم مسنداً في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٤٥. وانظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ٨٩، «البداية والنهاية» ٥/ ٢٠، ٥٣٣.

(٣) انظر «السيرة النبوية» لابن هشام ٢/ ٤٧ - ٥٠، ١٩٠ - ١٩٤، ٢٣٣ - ٢٤٨، «دلائل النبوة» للبيهقي ٣/ ٣٥٤، «زاد المعاد» ٥/ ٦٥، ١٢٧، «البداية والنهاية» ٥/ ٣١٨، ٣٣٥ - ٣٣٦، ٥٣٣، ٦/ ٧٠، «تفسير ابن كثير» ٨/ ٣٨، «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٣٢٤ - ٣٢٥.

لهم رسول الله - ﷺ -: «اخرجوا» قالوا: إلى أين؟ قال: «إلى أرض المحشر»[١].

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «كانت غزوة بني النضير، وهم طائفة من اليهود على رأس ستة أشهر من غزوة بدر، وكان منزلهم ونخلهم بناحية المدينة فحاصرهم رسول الله - ﷺ - حتى نزلوا على الجلاء، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل من الأمتعة والأموال إلا الحلقة - يعني السلاح - فأنزل الله فيهم: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟﴾ فقاتلهم النبي - ﷺ - حتى صالحهم على الجلاء، فأجلاهم إلى الشام، وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء فيما خلا، وكان الله قد كتب عليهم ذلك، ولولا ذلك لعذبهم في الدنيا بالقتل والسبي وأما قوله: ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ فكان ذلك أول حشر في الدنيا إلى الشام»[٢].

قال الطبري[٣]: «وذلك خروجهم من منازلهم ودورهم حين صالحوا رسول الله - ﷺ - على أن يؤمنهم على دمائهم ونسائهم وذراريهم، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل من أموالهم، ويخلوا له دورهم وسائر أموالهم، فأجابهم رسول الله - ﷺ - إلى ذلك. فخرجوا من ديارهم، فمنهم من خرج إلى الشام، ومنهم من خرج إلى خيبر».

وقال السعدي[٤]: «وكان إخراجهم منها أول حشر وجلاء كتبه الله عليهم، على يد رسوله محمد - ﷺ - إلى خيبر، ودلت الآية على أن لهم حشراً وجلاءً غير هذا، فقد وقع حين أجلاهم النبي - ﷺ - من خيبر، ثم عمر - رضي الله عنه - أخرج بقيتهم منها».

وهناك حشر آخر وهو حشرهم وجميع الخلق يوم القيامة في أرض الشام كما جاء في الحديث: «تخرج نار من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر»[٥].

﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟﴾ «ما» نافية، ومعنى ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟﴾ أي: ما حسبتم وما توقعتم أيها المسلمون أن يخرجوا من ديارهم لحصانتها ومنعتها وعزهم فيها وشدة بأسهم، وكثرة عددهم وعدتهم، ونحو ذلك.

﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

أي: وحسبوا لجهلهم وغرورهم وإعجابهم بحصونهم أنها ستمنعهم من الله إذا أراد

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، ١٠/ ٣٣٤٥ - الأثر ١٨٨٥٠.

(٢) أخرجه الحاكم ٢/ ٤٨٣ وصححه، وأقره الذهبي. وأخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» ٢/ ٤٤٤.

(٣) في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٩٦ - ٤٩٧.

(٤) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٣٢٧.

(٥) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة ٢٩٠١، وأبو داود في الملاحم ١/ ٤٣، والترمذي في الفتن ٢١٨٣، وابن ماجه في الفتن ٤٠٤١، ٤٠٥٥ من حديث حذيفة بن أسيد الغفاري - رضي الله عنه.

بهم أمراً من الإخراج أو القتل أو غير ذلك.

قال الزمخشري[١]: «وفي تقديم الخبر على المبتدأ دليل على فرط وثوقهم بحصانتها ومنعها إياهم، وفي تصيير ضميرهم اسماً لأن وإسناد الجملة إليه دليل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة لا يبالى معها بأحد يتعرض لهم أو يطمع في معازتهم، وليس ذلك في قولك: وظنوا أن حصونهم تمنعهم».

﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ أي: جاءهم الله - عز وجل - وأمره من حيث لم يظنوا، ولم يخطر ببالهم أن يؤتوا منه.

كما قال عز وجل: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦] وقال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧].

﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ أي: ألقى في قلوبهم الخوف والهلع والهزيمة من داخلهم وهذا - فيما يظهر - تفسير لقوله: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ إذ كانوا يفتخرون بقوتهم ومنعتهم وحصونهم، فأتاهم الله من حيث لم يخطر لهم على بال، أي من باب وطريق لم يظنوا أنهم سيؤتون منه، فألقى الله في قلوبهم الرعب والخوف، وكان من أسباب ذلك قتل كعب بن الأشرف سيدهم، فانهزموا من داخلهم بعد أن نزل بهم رسول الله - ﷺ - في أصحابه وحاصرهم وفي الحديث قال ﷺ -: «نصرت بالرعب مسيرة شهر»[٢].

قال السعدي[٣]: «﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ وهو الخوف الشديد، الذي هو جند الله الأكبر، الذي لا ينفع معه عدد ولا عدة ولا قوة، ولا شدة. فالأمر الذي يحتسبونه، ويظنون أن الخلل يدخل عليهم منه إن دخل، هو الحصون التي تحصنوا بها، واطمأنت نفوسهم إليها، ومن وثق بغير الله فهو مخذول، ومن ركن إلى غير الله كان وبالاً عليه، فأتاهم أمر سماوي نزل على قلوبهم..»

ولهذا سألوا رسول الله - ﷺ - أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح ففعل فحملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل.

﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ﴾ قرأ أبو عمرو: (يُخَرِّبون بيوتهم) بفتح الخاء وتشديد الراء،

---

(١) في «الكشاف» ٤/ ٧٩.

(٢) أخرجه البخاري في التيمم ٣٣٥، ومسلم في المساجد ٥٢١، والنسائي في الغسل والتيمم ٤٣٢ - من حديث جابر - رضي الله عنه.

(٣) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٣٢٨.

وقرأ الباقون بإسكان الخاء وتخفيف الراء.

أي: يهدمون بيوتهم ويفسدونها بأيديهم أنفسهم، حيث كان الواحد منهم يهدم بيته بيده بنفسه ليحمل ما يمكنه من المنقولات، من أخشاب وغيرها، حتى عتبات الأبواب على ظهر بعيره، فخرجوا إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام، وتركوا ديارهم وأموالهم وأسلحتهم لرسول الله – ﷺ – فحازها رسول الله – ﷺ – وكان فيها خمسون درعاً، وخمسمائة بيضة، وثلثمائة وأربعون سيفاً.

﴿وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ويهدمون بيوتهم ويفسدونها بأيدي المؤمنين، وذلك لإجبار المؤمنين لهم على ذلك حيث حاصروهم، وعاهدهم الرسول ﷺ على الكف عن دمائهم مقابل خروجهم ولهم ما تمكنوا من حمله من أثاث وغيره ما عدا السلاح.

﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ أي: خذوا العبرة والعظة يا أصحاب البصائر والعقول المستنيرة من حال هؤلاء اليهود الذين حل بهم من أمر الله ما لم يخطر لهم على بال من الذل والخوف من داخل نفوسهم فأخذوا يخربون ويهدمون بيوتهم بأنفسهم ويخرجون من ديارهم بسبب كفرهم ونقضهم العهود والمواثيق.

ووجه الخطاب بالاعتبار لأولي الأبصار والعقول – السليمة – لأنهم هم الذين تهديهم بصائرهم وعقولهم – إلى التأمل والنظر والبحث عن الحق والسماع له واتباعه.

﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ﴾ الواو: استئنافية و«لولا» شرطية غير جازمة وهي: حرف امتناع لوجود، و«كتب» بمعنى: قدّر، و«الجلاء»: النفي والخروج من ديارهم وأموالهم، أي: ولولا أن قدر الله عليهم الجلاء واقتضته حكمته.

﴿لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ جواب «لولا» واللام واقعة في جواب «لولا»، أي: لعذبهم في الدنيا عذاباً آخر بالقتل والسبي ونحو ذلك كما فعل بإخوانهم بني قريظة بعد ذلك لما نقضوا العهد.

أي: لولا أن الله – عز وجل – قدر عليهم الجلاء والنفي والإخراج من ديارهم وأموالهم – وهو بلا شك عذاب لهم وعقوبة ـ لعذبهم في الدنيا عذاباً أشد من ذلك بالقتل والسبي ونحو ذلك.

ففي الآية إشارة إلى استحقاقهم عذاباً أشد من الجلاء، لكن الله عز وجل قدر عليهم واختار لهم ما هو أخف وهو الجلاء.

﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾ أي: ولهم مع عذاب الدنيا سواء أُجْلُوا أو قتلوا عذاب النار، وهو العذاب الأكبر كما قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا

وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ [الزمر: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٧].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الإشارة لما سبق من إخراج أهل الكتاب من ديارهم إلى أرض المحشر الشام، وقذف الرعب في قلوبهم، وحملهم على تخريب بيوتهم، وما أُعد لهم في الآخرة من عذاب النار ﴿بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: بسبب أنهم شاقوا الله ورسوله، أي: عادوا الله ورسوله، وخالفوا أمر الله ورسوله.

والمشاقة: أن يتخذ المشاق شقاً وجانباً غير شق الآخر وجانبه.

والمعنى: أنهم خالفوا وعصوا وحادوا الله ورسوله وكذبوا ما جاءهم من الحق على ألسنة رسل الله، ومنهم خاتمهم محمد عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام، كما قال عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وعطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسمه - عز وجل - بالواو التي تقتضي التشريك في الحكم لأن مشاقة الرسول ﷺ مشاقة لله - عز وجل.

﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾

لما كان المقام مقام ذكر العقاب، لم يقل: ومن يشاق الله ورسوله - وإن كان المعنى هكذا - لأن أمر الثواب والعقاب إلى الله وحده، أي: ومن يخالف الله - عز وجل - ويعص أمره ويرتكب نهيه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي: فإن الله شديد العقاب لمن شاقه وخالف أمره وارتكب نهيه، كما قال عز وجل ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢٥، ٢٦].

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

سبب النزول:

عن ابن عمر رضي الله عنهما: «أن رسول الله - ﷺ - حرق نخل بني النضير وقطع، وهي البويرة - فأنزل الله - عز وجل: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً

عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيُخۡزِيَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾»[١].

وفي رواية عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: «حاربت النضير وقريظة، فأجلى بني النضير وأقر قريظة ومنّ عليهم حتى حاربت قريظة فقتل رجالهم وقسم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين، إلا بعضهم لحقوا بالنبي - ﷺ - فأمنهم وأسلموا، وأجلى يهود المدينة كلهم بني قينقاع، وهم رهط عبد الله بن سلام، ويهود بني حارثة، وكل يهود بالمدينة»[٢].

وفي رواية عن ابن عمر رضي الله عنهما: «أن النبي ﷺ حرق نخل بني النضير، قال: ولها يقول حسان بن ثابت - رضي الله عنه:

وهان على سراة بني لُؤيّ[٣] حريـق بالبويرة مُسْتطير

قال: فأجابه أبو سفيان بن الحارث:

أدام الله ذلك من صنيـع وحرّق في نواحيها السعير
ستعلم أينـا منهـا بنُزْهٍ[٤] وتعلم أي أرضينا تضير»[٥]

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله: ﴿مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيُخۡزِيَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ قال: «يستنزلونهم من حصونهم وأمروا بقطع النخل، فحاك في صدورهم، فقال المسلمون: قطعنا بعضاً وتركنا بعضا، فلنسألن رسول الله - ﷺ -: هل لنا فيما قطعنا من أجر؟ وهل لنا فيما تركنا من وزر، فأنزل الله: ﴿مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ﴾»[٦].

وعن جابر - رضي الله عنه - قال: «رخص لهم في قطع النخل، ثم شدد عليهم، فأتوا النبي - ﷺ - فقالوا: يا رسول الله علينا إثم فيما قطعنا، أو علينا وزر فيما تركنا؟ فأنزل الله - عز وجل -: ﴿مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾»[٧].

وعن يزيد بن رُومان قال: «لما نزل رسول الله - ﷺ بهم - يعني بني النضير - تحصنوا منه في الحصون، فأمر رسول الله - ﷺ - بقطع النخل والتحريق فيها، فنادوه: يا محمد قد كنت

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي - حديث بني النضير ٤٠٣١، ومسلم في الجهاد - جواز قطع أشجار الكفار وتحريقها ١٧٤٦، وأبو داود في الجهاد ٢٦١٥، والترمذي في السير ١٥٥٢، وابن ماجه في الجهاد ٢٨٤٤، وأحمد ٢/ ٨٠٧.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي ٤٠٢٨ ومسلم في الجهاد والسير ١٧٤٦، وأبو داود في الخراج والإمارة والفيء ٣٠٠٥.

(٣) السراة الرؤساء، وبنو لؤي: هم قريش، فهم الذين أغروا بني النضير بنقض العهد ووعدوهم أن ينصروهم.

(٤) النزه: البعد. وهذا إنما قاله أبو سفيان قبل إسلامه - رضي الله عنه.

(٥) أخرجه البخاري في المغازي ٤٠٣٢ وانظر «ديوان حسان» ص١١٠ طبعة بيروت، و«سيرة ابن هشام» ٢/ ٢٧٢.

(٦) أخرجه الترمذي في التفسير ٣٣٠٣، وقال: «حديث حسن غريب».

(٧) أخرجه الحافظ أبو يعلى في مسنده فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٨٦ وانظر «جامع البيان» ٢٢/ ٥١١.

تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه، فما بال قطع النخل وتحريقها فأنزل الله: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾»[1].

قوله ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ (ما) اسم شرط جازم في محل نصب لـ (قطعتم) و«قطعتم» فعل شرط، وجوابه (فبإذن الله) واللينة: النخلة، واللين: النخل والتمر.

﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ أي: فلم تقطعوها ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، أي: كل ذلك القطع أو تركه ﴿بإذن الله﴾ أي: بأمره الكوني والشرعي، كما أحل ـ عز وجل ـ لنبيه ﷺ القتال بمكة ساعة من نهار.

﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ أي: وليذل الفاسقين الخارجين عن طاعة الله ورسوله من اليهود وأوليائهم من المنافقين وغيرهم. وفي هذا إشارة إلى أن في قطع النخل إذلالاً للفاسقين، وكان من أسباب إلقاء الرعب في قلوبهم.

ولقد سجل هذا النصر للمسلمين في إجلاء بني النضير، وقتل كعب بن الأشرف عدد من شعراء المسلمين – قال كعب بن مالك – رضي الله عنه:

لقد خزيت بغدرتها الحبور[2] كذاك الدهر ذو صرف يدور
وذلك أنهم كفروا برب عظيم أمره أمر كبير
وقد أوتوا معاً فهماً وعلماً وجاءهُمُ من الله النذير
نذير صادق أدى كتاباً وآيات مبينة تنير
فقالوا ما أتيت بأمر صدق وأنت بمنكر منا جدير
فقال: بلى لقد أديت حقاً يصدقني به الفَهِم الخبير
فمن يتبعه يهد لكل رشد ومن يكفر به يُجز الكفور
فلما أُشربوا غدراً وكفراً وجدّبهم عن الحق النفور
أرى الله النبي برأي صدق وكان الله يحكم لا يجور
فأيده وسلطه عليهم وكان نصيره نعم النصير
فغودر منهم كعب صريعاً فذلت بعد مصرعه النضير

إلى أن قال:

فذاقوا غب أمرهم وبالاً لكل ثلاثة منهم بعير[3]

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥١٠، وانظر ٥١١.
(٢) الحبور: جمع حبر، أراد بها علماء اليهود.
(٣) أي: يتعاقبون عليه في خروجهم.

وأجلوا عامدين لقينقاع وغودر منهُمُ نخل ودور [1]

الفوائد والعبر:

١ ـ أن كل ما في السموات وما في الأرض يسبح الله عز وجل.

٢ ـ إثبات اسمين من أسماء الله عز وجل وهما «العزيز» و «الحكيم» وأنه ذو العزة التامة، وذو الحكم النافذ والحكمة البالغة.

٣ ـ قدرة الله عز وجل ـ وقوته وشدة بأسه، وعظيم نعمته على المؤمنين في إخراجه يهود بني النضير من المدينة إلى أرض المحشر الشام مع استبعاد المؤمنين خروجهم، واغترار بني النضير بقوتهم ومنعة حصونهم.

٤ ـ الإشارة إلى أن أرض المحشر هي الشام.

٥ ـ لا عاصم من أمر الله وإذا أراد الله بقوم سوءً فلا دافع له ولا مانع.

٦ ـ هزيمة الله ـ عز وجل ـ لبني النضير من داخل أنفسهم مما لم يخطر ببالهم، وإلقاؤه الرعب في قلوبهم، مما جعلهم يخربون بيوتهم ويخرجون من ديارهم بعد حصارهم.

٧ ـ وجوب أخذ العبرة والعظة مما حل ببني النضير مما لم يخطر لهم على بال من الذل والخوف من داخل نفوسهم ومن ثم تخريبهم بيوتهم وإخراجهم صاغرين ـ بسبب كفرهم ونقضهم العهود والمواثيق.

٨ ـ إنما يتذكر ويعتبر أصحاب العقول والبصائر.

٩ ـ أن ما أحله الله ببني النضير من الجلاء هو ما كتبه الله عليهم وهو أخف العقوبتين، أي: أخف من القتل والسبي ونحو ذلك.

١٠ ـ الوعيد الشديد لليهود بعذاب النار في الآخرة لكفرهم وصدهم عن سبيل الله ونقضهم العهود.

١١ ـ ذم يهود بني النضير بمشاقة الله والرسول ومخالفتهم أمر الله ورسوله وأن ما حلّ بهم من الجلاء والوعيد في النار هو بسبب ذلك.

١٢ ـ جواز عطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسم الله في باب المخالفة والطاعة بالواو التي تقتضي التشريك في الحكم، لأن معصية الرسول ﷺ معصية لله وطاعته طاعة لله ـ عز وجل.

١٣ ـ شدة عقاب الله ـ عز وجل ـ وانتقامه ممن خالف أمره وعصاه.

١٤ ـ أن ما حصل من المؤمنين من قطع لبعض نخيل بني النضير وترك لبعضها هو بإذن الله وأمره الكوني والشرعي.

١٥ ـ أن إذن الله ـ عز وجل ـ للمؤمنين بقطع نخيل بني النضير هو لإذلالهم وإلقاء الرعب في قلوبهم.

١٦ ـ بلوغ يهود بني النضير غاية الفسق والخروج عن طاعة الله ـ عز وجل.

(١) انظر «السيرة النبوية» لابن هشام ٢/ ١٩٩ ـ ٢٠٠، «تفسير ابن كثير» ٨/ ٨٧ ـ ٨٨، «البداية والنهاية» ٥/ ٥٤١.

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٧﴾.

صلة الآيتين بما قبلهما:

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة أنه هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم وكتب عليهم الجلاء منها، بياناً لقدرة الله ـ عز وجل ـ وقوته وامتنانا على عباده المؤمنين ثم ذكر منته على رسوله ﷺ بما أرجع إليه من أموال بني النضير من غير قتال وحكم هذه الأموال ثم ذكر حكم أموال الفيء عموماً.

قوله: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ﴾ أي: وما رده الله على رسوله منهم، أي: من أموال بني النضير. و«أفاء» بمعنى: رد وأرجع، ومنه سمي الفيء وهو ظل الزوال، من فاء أي: رجع.

والفيء: هو ما أُخذ من أموال الكفار بحق من غير قتال.

والمعنى: وما رده الله وأرجعه على رسوله من أموال بني النضير.

وفي هذا إشارة إلى أن المال لا يستحقه إلا الرسل وأتباعهم المؤمنون فقوله: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: وما رده ممن لا يستحقه إلى من يستحقه، كما قال عز وجل: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٢٨] وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [النور: ٥٥].

﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، و«ما» نافية، والإيجاف: الإسراع، والركاب: الإبل.

أي: فما أسرعتم عليه من خيل ولا إبل ولا سيرتموها ولا قاتلتم ولا بارزتم للحصول عليه، أي: لم تتعبوا بتحصيلها لا بأنفسكم ولا بخيلكم وإبلكم.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ﴾ الواو: عاطفة، أي: ولكن الله يسلط رسله على من يشاء، كما سلط رسوله محمداً ﷺ على بني النضير فحاصرهم، وأوقع الله في قلوبهم الرعب، فخرجوا وتركوا ديارهم وأموالهم، فصارت أموالهم فيئاً رده الله إلى رسوله ﷺ يضعها كيف يشاء.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم

يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، فكانت لرسول الله – ﷺ – خاصة، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنته، وقال مرة: قوت سنته، وما بقي جعله على الكراع والسلاح في سبيل الله عز وجل»[(١)].

وقد روي أن رسول الله ﷺ قسمها بين المهاجرين، ولم يعط الأنصار شيئاً إلا رجلين هما سهل بن حنيف، وأبو دجانة سماك بن خرشة، ذكرا فقرا فأعطاهما[(٢)].

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: والله عز وجل على كل شيء قدير أيّاً كان ذلك الشيء صغيراً كان أو كبيراً، قليلاً كان أو كثيراً ولهذا قدم المتعلق وهو قوله ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ على قوله ﴿قَدِيرٌ﴾ فهو عز وجل ذو القدرة التامة على كل شيء، ومن قدرته عز وجل أن أنزل الذين كفروا من أهل الكتاب من حصونهم وأخرجهم وأجلاهم من ديارهم، بلا قتال، بل بهزيمتهم من داخلهم بإلقاء الرعب والخوف في قلوبهم.

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي: ما رد الله على رسوله من أموال أهل القرى التي تفتح بدون قتال.

﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ .

أي: فسهم منه لله – عز وجل، وسهم منه للرسول ﷺ يضعه مع سهم الله – عز وجل – في مصالح المسلمين، وسهم منه (لذي القربى) أي: لقرابة الرسول – ﷺ – وهم بنو هاشم وبنو المطلب يسوى بين ذكورهم وإناثهم، وسهم منه لليتامى، وهم الذين فقدوا آباءهم وهم دون البلوغ، قال ﷺ: «لا يتم بعد احتلام»[(٣)].

وسهم منه للمساكين، وهم من لا يجدون كفايتهم، أو لا يجدون شيئا، سموا مساكين من السكون، وهو عدم الحركة لأن الفقر أسكنهم وأذلهم، وسهم منه لابن السبيل، وهو المسافر المنقطع في سفره ولو كان غنيا في بلده، سمي بابن السبيل لملازمته السبيل وهو الطريق للسفر.

وهذه المصارف المذكورة للفيء في هذه الآية هي مصارف خمس الغنيمة المذكورة في سورة الأنفال في قوله – عز وجل -: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الآية: ٤١].

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٩٠٤، ومسلم في الجهاد ١٧٥٧، وأبو داود في الخراج ٢٩٦٥، والنسائي في قسم الفيء ٤١٤٠، والترمذي في الجهاد ١٧١٩، وأحمد ١/ ٢٥، ٤٨، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥١٩. وانظر «زاد المعاد» ٥/ ١٢٨.

(٢) انظر «السيرة النبوية» ٢/ ١٩٠ – ١٩٢، «سنن أبي داود»، ـ كتاب الخراج ٢٩٧١ «جامع البيان» ٢٢/ ٥٠٠ – ٥٠٢، ٥١٣، ٥١٨ – ٥٢٠، ٥٢٦، «سنن البيهقي» ٦/ ٢٩٦ «تفسير ابن كثير» ٨/ ٨٣ – ٨٤، ٩٠، «البداية والنهاية» ٥/ ٥٣٧.

(٣) أخرجه أبو داود في الوصايا ٢٨٧٣ ـ من حديث علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه.

وهذه هي المصارف الخاصة للفيء، وهم أهل الخمس، ومصارفه العامة هم المهاجرون والأنصار والتابعون لهم إلى يوم الدين، لقوله تعالى بعد هذا: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ الآية، وبهذا عمل ﷺ وخلفاؤه الراشدون.

قال ابن القيم [1] : «ومن تأمل النصوص وعمل رسول الله ﷺ ـ وخلفائه وجده يدل على قول أهل المدينة ـ يعني هذا القول ـ فإن الله سبحانه جعل أهل الخمس هم أهل الفيء، وعينهم اهتماماً بشأنهم وتقديماً لهم، ولما كانت الغنائم خاصة بأهلها، لا يشركهم فيها سواهم نص على خمسها لأهل الخمس، ولما كان الفيء لا يختص بأحد دون أحد جعل جملته لهم وللمهاجرين والأنصار وتابعيهم، فسوى بين الخمس وبين الفيء في المصرف، وكان رسول الله ﷺ يصرف سهم الله وسهمه في مصالح الإسلام، وأربعة أخماس الخمس في أهلها مقدماً للأهم فالأهم، والأحوج فالأحوج، فيزوج منه عزابهم، ويقضي منه ديونهم، ويعين ذا الحاجة منهم، ويعطي عزبهم حظاً ومتزوجهم حظين، ولم يكن هو ولا أحد من خلفائه يجمعون اليتامى والمساكين وأبناء السبيل وذوي القربى ويقسمون أربعة أخماس الفيء بينهم على السوية، ولا على التفضيل، كما لم يكونوا يفعلون ذلك في الزكاة، فهذا هديه وسيرته، وهو فصل الخطاب ومحض الصواب».

﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ قرأ أبو جعفر (تكون) بالتأنيث، و(دولةٌ) بالرفع، وقرأ الباقون ﴿ يكون ﴾ بالتذكير ونصب ﴿ دولةً ﴾.

﴿كَيْ﴾ حرف مصدري ونصب، و«لا» حرف نفي. أي: جعلنا هذه المصارف لمال الفيء لئلا يكون متداولاً بين الأغنياء فقط يستأثرون به دون الفقراء.

ويؤخذ من هذا تعليل أحكام الله – عز وجل – وأن ما شرعه لحكمة، كما أن ما قدره وقضاه كوناً لحكمة أيضا.

كما يؤخذ من هذا وجوب مراعاة حقوق اليتامى والمساكين وابن السبيل وذوي الحاجات في المجتمع المسلم، وأن الإسلام وسط بين الشيوعية والرأسمالية.

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ الواو: عاطفة، و«ما» اسم شرط جازم في الموضعين.

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤٢٣ ـ ٤٢٥، «زاد المعاد» ٥/ ٨٤ ـ ٨٧.

والمعنى: وما أعطاكم الرسول من الفيء وغيره ﴿فَخُذُوهُ﴾ وما أمركم به من الأوامر فافعلوه.

﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ﴾ أي: وما نهاكم عنه من الفيء وغيره من النواهي فانتهوا عنه واتركوه.

قال ابن كثير [(١)]: «أي: مهما أمركم به فافعلوه ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه إنما يأمر بخير وإنما ينهى عن شر».

و«ما» في الموضعين تفيد العموم في المأمورات والمنهيات ويدخل فيها كل ما أمر به الشرع وكل ما نهى عنه، فقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ﴾ قاعدة أصولية وأصل عام يشمل جميع أصول الدين وفروعه وأن ما جاء به الرسول ﷺ يجب الأخذ به واتباعه، سواء كان مما جاء في القرآن الكريم، أو مما جاء في السنة النبوية، لا فرق في ذلك، فكل ذلك وحي من عند الله – عز وجل – كما قال – عز وجل –: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤].

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحُسْن، المغيرات خلق الله – عز وجل – قال: فبلغ امرأة في البيت يقال لها أم يعقوب، فجاءت إليه، فقالت: بلغني أنك قلت كيت وكيت. قال: ما لي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وفي كتاب الله. فقالت: إني لأقرأ ما بين لوحيه فما وجدته. فقال: إن كنت قرأتيه فقد وجدتيه. أما قرأت: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ﴾ قالت: بلى. قال: فإن النبي ﷺ نهى عنه» [(٢)].

وعن سعيد بن جبير أنه سمع ابن عمر وابن عباس أنهما شهدا على رسول الله – ﷺ – أنه نهى عن الدُّبَّاء والحنتم والمزفت والنقير، ثم تلا رسول الله – ﷺ – هذه الآية ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ﴾ [(٣)].

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٩٢.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الحشر ٤٨٨٦، ومسلم في اللباس ـ تحريم فعل الواصلة ٢١٢٥، وأبو داود في الترجل ٤١٦٩، والنسائي في الزينة ٥٠٩٩، والترمذي في الأدب ٢٧٨٢، وابن ماجه في النكاح ١٩٨٩، وأحمد ١/ ٤٣٣ - ٤٣٤.

(٣) أخرجه بهذا اللفظ النسائي في الأشربة ٥٦٤٣. وأخرجه من غير ذكر الآية البخاري في الإيمان ٥٣، ومسلم في الأشربة ١٩٩٧، وأبو داود في الأشربة ٣٦٩٠، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٥٠٣١، والترمذي في الأشربة ١٨٦٨، وابن ماجه في الأشربة ٣٤٠٢ من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

وفعل الأوامر مقيد بالاستطاعة، لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

أما ترك النواهي فهو بمقدور كل أحد، ولهذا قال ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه»[1].

لكن الضرورات في الإسلام تقدر بقدرها، فمن ألجأته الضرورة، أو أكره على فعل أو قول منهي عنه فهو معذور قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦].

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن خالف أمره أو ارتكب نهيه، فعقابه شديد من حيث كمه وكيفه ووقته ونوعه.

الفوائد والعبر:

١ ـ بيان أن أموال بني النضير التي ردها الله ـ عز وجل ـ على رسوله بلا قتال هي له ﷺ خاصة يضعها كيف يشاء، والإشارة إلى أن الغنم على قدر الغرم.

٢ ـ إثبات المشيئة لله ـ عز وجل ـ وإثبات قوته وقدرته على كل شيء.

٣ ـ بيان مصرف الفيء الذي يأخذه المسلمون من الكفار بغير قتال، وأنه يجعل ستة أسهم سهم لله وسهم للرسول ﷺ يوضعان في مصالح المسلمين وسهم لقرابة الرسول ﷺ، بني هاشم وبني المطلب، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين وسهم لابن السبيل، وهي مصارف خمس الغنيمة المذكورة في سورة الأنفال في قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الآية: ٤١].

٤ ـ أن الله عز وجل جعل الفيء في هذه المصارف الستة لئلا يبقى متداولاً بين الأغنياء يستأثرون به دون الفقراء.

٥ ـ عناية الإسلام بقرابة النبي ﷺ واليتامى والمساكين وابن السبيل، ومصالح المسلمين.

٦ ـ وجوب الأخذ بما جاء به الرسول ﷺ والانتهاء عما نهى عنه، وتقوى الله ـ عز وجل .

٧ ـ شدة عقاب الله لمن خالف أمره وعصاه.

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام ـ الاقتداء برسول الله ﷺ ٧٢٨٨، ومسلم في الفضائل – توقيره ﷺ ١٣٣٧، والنسائي في مناسك الحج ٢٦١٩، وابن ماجه في المقدمة ١.

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ .

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله ـ عز وجل ـ في الآية السابقة مصارف الفيء الخاصة، ثم أتبع ذلك بذكر مصارفه العامة، وهم المهاجرون والأنصار والتابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين ـ مردفاً ذلك بالثناء عليهم حسب فضلهم ومنزلتهم، المهاجرون، ثم الأنصار، ثم التابعون لهم.

قوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ «للفقراء» بدل من قوله «ولذي القربى» وما عطف عليه، أو خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: ما أفاء الله على رسوله للفقراء المهاجرين ـ إلى آخر ما عطف عليه، أو معطوف على ما قبله مع حذف حرف العطف والتقدير: وللفقراء المهاجرين. وقيل غير ذلك.

أي: أن مصارف الفيء العامة هم الفقراء المهاجرون، والذين تبوؤوا الدار والإيمان والذين جاؤوا من بعدهم.

والفقير والمسكين إذا انفرد كل منهما شمل الآخر وصارا صنفاً واحداً أما إذا ذكرا جميعاً كما في قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠] فهما صنفان. وقد اختلف أهل العلم أيهما أحسن حالاً المسكين أو الفقير.

وقد يستدل بهذه الآية على ما ذهب إليه أكثر أهل العلم من أن الفقير أسوأ حالاً لأنه لا يملك شيئاً ولهذا سمى الله المهاجرين فقراء، لأنهم لا شيء عندهم البتة هاجروا وتركوا ديارهم وأموالهم.

وأيضا فإن الفقير مأخوذ من انفصام فقار الظهر، المؤدي إلى الهلكة وقد استعاذ ﷺ من الفقر، فقال ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر وعذاب القبر» (١). بينما سأل ـ ﷺ

(١) أخرجه النسائي في السهو ١٣٤٧ ـ من حديث أبي بكرة ـ رضي الله عنه.

- المسكنة، فقال: «اللهم أحيني مسكينا، وأمتني مسكينا، واحشرني في زمرة المساكين»[١].

وقد أوصل بعضهم الأقوال في الفرق بين الفقير والمسكين إلى أحد عشر قولاً[٢].

و﴿ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ جمع مهاجر، مأخوذ من الهجرة، وهي لغة: الترك، وشرعاً: الخروج من بلد الشرك إلى بلد الإسلام.

والمراد: الذين هاجروا من مكة إلى المدينة من الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم، يوم أن كانت مكة - شرفها الله - دار كفر، فلما فتحها ﷺ وصارت دار إسلام فلا هجرة منها قال ﷺ في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا» [٣]، أي: لا هجرة من مكة بعد فتحها.

والهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام باقية إلى قيام الساعة، قال ﷺ: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها» [٤].

﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾ أي: الذين أخرجهم كفار مكة من ديارهم وأموالهم، وذلك بالتضيق عليهم وأذيتهم لهم في أبدانهم وعدم تمكينهم من أداء شعائر دينهم، واضطرارهم إلى الخروج من مكة وترك ديارهم وأموالهم وأهليهم وعشائرهم، حتى إن الواحد منهم يربط الحجر على بطنه من شدة الجوع ويتخذ الحفرة دثاراً له في الشتاء من شدة الحاجة.

وفي نسبة الديار إلى المهاجرين دليل على جواز تملك رباع مكة وبيعها وتأجيرها.

﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ الجملة حالية. أي: حال كونهم يطلبون ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: زيادة في دينهم ودنياهم وأجراً في آخرتهم.

كما قال عز وجل: ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: ١٠٠] أي: سعة في دينه ودنياه.

﴿وَرِضْوَٰنًا﴾ أي: ورضوان الله - عز وجل - عنهم.

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٥٢، من حديث أنس رضي الله عنه. وقال هذا حديث غريب» وأخرجه ابن ماجه في الزهد ٤١٢٦ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) انظر «الناسخ والمنسوخ» للنحاس ٢/ ٤٤٢ - ٤٤٦، «شرح الطحاوية» ٢/ ٤٥٢، «تفسير آيات الأحكام في سورة النساء» ١/ ١٦٠.

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٧٨٣، ومسلم في الحج ١٣٥٣، وأبو داود في الجهاد ٢٤٨٠، والنسائي في البيعة ٤١٧٠، والترمذي في السير ١٥٩٠.

(٤) أخرجه أبو داود في الجهاد ٢٤٧٩، والدارمي في السير ٢٥١٣ - من حديث معاوية - رضي الله عنه.

فهجرتهم خالصة لله عز وجل طلباً للزيادة والفضل منه – سبحانه وتعالى، وطلباً لرضاه.

﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ الواو: عاطفة، والجملة في محل نصب معطوفة على ﴿يَبۡتَغُونَ﴾ أي: فخروجهم وهجرتهم لابتغاء الفضل والرضوان من الله ـ عز وجل ـ ولأجل نصرة دين الله ورسوله. فنصرة الله ـ عز وجل ـ بنصرة دينه، ونصرة رسوله ـ ﷺ ـ بنصرته نفسه ودينه في حياته، ونصرة دينه بعد وفاته.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ أي: الصادقون في إيمانهم ظاهراً وباطناً، وفي هجرتهم، الذين صدَّقوا إيمانهم وأقوالهم بفعالهم، فخرجوا وتركوا ديارهم وأموالهم، طلباً للفضل من الله والرضوان ونصرة الله ورسوله، كما قال ﷺ: «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله» بخلاف من قال فيهم: «ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[(١)].

والهجرة في سبيل الله وترك المحبوبات والمألوفات من الديار والأهل والأولاد والأموال والعشيرة ونحو ذلك من أعظم الدلائل على صدق الإيمان.

عن عبد الله بن عدي رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ واقفاً على الحزْوَرَة[(٢)]، فقال: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت»[(٣)].

وقد قيل:

كم منزل في الأرض يألفه الفتى ... وحنينه دومـاً لأول منـزل

وقال الآخر:

بلادي وإن جـارت عليّ عزيزة ... وأهلي وإن ضنوا علي كرام

ولهذا لما أراد بعض الصحابة - رضوان الله عليهم - الهجرة منعهم أولادهم فأنزل الله – عز وجل – قوله: ﴿إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾ [التغابن: ١٤][(٤)].

فليس من السهل على النفوس ترك هذه المحبوبات والمألوفات إلا على من تركها إيثاراً لما هو أحب إليه منها، وهو طلب مرضاة الله عز وجل، وما عنده من الثواب

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٤، ومسلم في الإمارة ١٩٠٧، وأبو داود في الطلاق ٢٢٠١، والنسائي في الطهارة ٧٥، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٤٧، وابن ماجه في الزهد ٤٢٢٧ – من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) الحزْوَرَة على وزن قسورة موضع في مكة عند باب الحناطين.

(٣) أخرجه الترمذي في المناقب ٣٩٢٥، وابن ماجه في المناسك ٣١٠٨ – وقال الترمذي: «حديث حسن غريب صحيح».

(٤) انظر سبب نزول هذه الآية في الكلام عليها في تفسير سورة التغابن.

العظيم في جنات النعيم.

وهذا يدل على فضل المهاجرين الأولين، وقدمهم في السبق في الإيمان - رضي الله عنهم وأرضاهم -، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

قال ابن كثير[1]: «وهؤلاء هم الذين صدقوا قولهم بفعلهم، وهؤلاء هم سادات المهاجرين».

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ﴾.

أثنى الله - عز وجل - على المهاجرين، ثم أتبع ذلك بالثناء على الأنصار - رضي الله عنهم وأرضاهم - مبينا فضلهم وشرفهم وكرمهم وسلامة صدورهم، وإيثارهم ـ مع حاجتهم ـ لإخوانهم المهاجرين، وأن لهم نصيباً من الفيء.

عن يزيد بن الأصم - رضي الله عنه -: «أن الأنصار قالوا: يا رسول الله، اقسم بيننا وبين إخواننا المهاجرين الأرض نصفين، قال: «ولكنهم يكفونكم المؤونة وتقاسمونهم الثمرة، والأرض أرضكم». قالوا: رضينا، فأنزل الله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾»[2].

قوله ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ الواو: استئنافية[3]. أي: والذين سكنوا دار الهجرة المدينة من قبل المهاجرين، وسبقوا إلى الإيمان قبل كثير منهم.

وذلك أن الأنصار أسلم منهم من أسلم قبل الهجرة، وقدم منهم من قدم في العقبة الأولى والعقبة الثانية، وبايعوا النبي ﷺ على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأولادهم.

﴿يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ﴾ أي: يحبون محبة صادقة في الله ولله من هاجر إليهم من إخوانهم المهاجرين.

قال ابن كثير[4]: «أي: من كرمهم وشرف أنفسهم يحبون المهاجرين ويواسونهم بأموالهم».

﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ﴾ أي: ولا يحسون في صدورهم لسلامتها ﴿حَاجَةٗ﴾ من حسد أو ضغينة أو حرج على إخوانهم المهاجرين ﴿مِّمَّآ أُوتُواْ﴾ أي: مما

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٩٤.
(٢) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ص٢٨٠.
(٣) وقيل عاطفة، فيكون قوله ﴿ والذين تبوءوا الدار والإيمان ﴾ معطوفاً على قوله ﴿ للمهاجرين ﴾ انظر «الكشاف» ٤/ ٨٢.
(٤) في «تفسيره» ٨/ ٩٤.

أعطاهم الله من الفضل والشرف، والتقديم في الذكر، والرتبة والمنزلة الرفيعة.

وفي هذا دلالة على أن المهاجرين أفضل من الأنصار، لأن الله قدمهم في الذكر، وذكر أن الأنصار لا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، فدل على أن الله آتاهم ما لم يؤت الأنصار ولا غيرهم، ولأنهم جمعوا بين النصرة والهجرة.

وقيل: ﴿مِّمَّآ أُوتُواْ﴾ من الفيء وغيره، يعني أن نفوسهم لا تتبع ما أعطي إخوانهم المهاجرون من الفيء وغيره.

والسلامة من الحسد وأمراض القلوب مقام رفيع ومطلب عزيز لا يرتقي إليه إلا من رزقه الله قلباً سليما، كما قال عز وجل: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال: «كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ فقال: يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة، فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه، قد تعلق نعليه بيده الشمال، فلما كان الغد قال رسول الله ﷺ مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى، فلما كان اليوم الثالث، قال رسول الله ﷺ مثل مقالته أيضا، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى فلما قام رسول الله ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو ابن العاص، فقال: إني لاحيت [(١)] أبي، فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثاً، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي فعلت. قال: نعم. قال أنس: فكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الثلاث الليالي، فلم يره يقوم من الليل شيئا، غير أنه إذا تعارَّ وتقلب على فراشه ذكر الله وكبر، حتى يقوم لصلاة الفجر. قال عبد الله: غير أني لم أسمعه يقول إلا خيراً، فلما مضت الثلاث ليال، وكدت أن أحتقر عمله، قلت: يا عبد الله، لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجر، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرات: «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة». فطلعت أنت الثلاث المرار، فأردت أن آوي إليك لأنظر ما عملك فأقتدي به، فلم أرك تعمل كثير عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ؟ قال: ما هو إلا ما رأيت. فلما وليت دعاني، فقال: ما هو إلا ما رأيت، غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشاً، ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه. قال عبد الله: هذه التي بلغت بك وهي التي لا تطاق»[(٢)].

---

(١) أي: نازعت.

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ١٦٦، والطبراني بإسناد حسن. قال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٩٦: «ورواه النسائي في اليوم والليلة =

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ .

سبب النزول:

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: أتى رجل رسول الله – ﷺ – فقال: يا رسول الله، أصابني الجهد، فأرسل إلى نسائه، فلم يجد عندهن شيئا، فقال النبي ﷺ: «ألا رجل يضيف هذا الليلة، رحمه الله،؟» فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله، فذهب إلى أهله فقال لامرأته: ضيف رسول الله ﷺ لا تدخريه شيئاً. فقالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية. قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم، وتعالي، فأطفئي السراج ونطوي بطوننا الليلة. ففعلت، ثم غدا الرجل على رسول الله – ﷺ – فقال: «لقد عجب الله – عز وجل – أو ضحك من صنيعكما البارحة» وأنزل الله عز وجل: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ وفي رواية لمسلم تسمية هذا الأنصاري بأبي طلحة – رضي الله عنه»[1].

قوله ﴿وَيُؤْثِرُونَ﴾ أي: ويقدمون، والإيثار أن يقدم الإنسان غيره على نفسه بمحاب النفس من المال والطعام والشراب والمتاع ونحو ذلك، مع حاجته إلى ذلك أو ضرورته إليه، وهو أكمل أنواع الجود والكرم، وهو ضد الأثرة والجشع والطمع والشح والأنانيّة.

﴿خَصَاصَةٌ﴾: حاجة وفاقة وفقر.

والمعنى: أنهم رضي الله عنهم يقدمون على أنفسهم المحتاجين من إخوانهم المهاجرين ولو كان بهم حاجة وفاقة، فيبدؤون بحاجة غيرهم قبل حاجتهم. وقد قال ﷺ: «أفضل الصدقة جهد المقل»[2].

عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال: قال المهاجرون: يا رسول الله، ما رأينا مثل قوم

=

عن سويد بن نصر عن ابن المبارك عن معمر، به. وهذا إسناد صحيح على شرط الصحيحين، لكن رواه عقيل وغيره عن الزهري، عن رجل، عن أنس فالله أعلم. وانظر «العلل» للدارقطني (٤/ ٢٦/ب) و«مرويات الإمام الزهري المعللة» للدكتور عبد الله دمفو ٣/ ١٣١١ حديث ٧٩، «مجموع الفتاوى» ١٠/ ١١٨ – ١١٩.

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الحشر ٤٨٨٩، ومسلم في الأشربة – إكرام الضيف ٢٠٥٤، والترمذي في تفسير سورة الحشر ٣٣١٤، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٢٨.

(٢) أخرجه أبو داود في الوتر ـ فضل التطوع في البيت ١٤٤٩، والنسائي في الزكاة ـ جهد المقل ٢٥٢٦، وأحمد ٣/ ٤١١ – ٤١٢ من حديث عبد الله بن حبشي رضي الله عنه. وأخرجه أيضا ٢/ ٣٥٨ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. ومن حديث أبي ذر – رضي الله عنه – ٥/ ١٧٨، ١٧٩، ٢٦٥.

قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل، ولا أحسن بذلاً في كثير لقد كفونا المؤونة، وأشركونا في المهنأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله. قال: «لا، ما أثنيتم عليهم، ودعوتم الله لهم»[١].

وعن أنس - رضي الله عنه - قال: دعا النبي - ﷺ - الأنصار أن يُقطع لهم البحرين، قالوا: لا، إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها. قال: «إما لا، فاصبروا حتى تلقوني فإنه سيصيبكم بعدي أثرة»[٢].

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: «قالت الأنصار: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل، قال: «لا» فقالوا: تكفونا المؤونة ونشرككم في الثمرة؟ قالوا: سمعنا وأطعنا»[٣].

والإيثار منزلة عظيمة ودرجة رفيعة من أعلى مراتب الكرم، إن لم تكن أعلاها، ولقد ضرب الأنصار رضي الله عنهم وغيرهم من صحابة رسول الله ﷺ في هذا أروع الأمثال.

قال ابن كثير[٤] في كلامه على قوله ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾: «وهذا المقام أعلى من حال الذين وصف الله بقوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [الإنسان: ٨]، وقوله: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة: ١٧٧] فإن هؤلاء يتصدقون وهم يحبون ما تصدقوا به، وقد لا يكون لهم حاجة إليه ولا ضرورة به، وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه ومن هذا المقام تصدق الصديق رضي الله عنه بجميع ماله، فقال له رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك»؟ فقال: أبقيت لهم الله ورسوله»[٥].

وهذا الماء الذي عرض على عكرمة وأصحابه يوم اليرموك، فكل منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه، وهو جريح مثقل أحوج ما يكون إلى الماء، فرده الآخر إلى الثالث، فما وصل الثالث حتى ماتوا عن آخرهم، ولم يشربه أحد منهم رضي الله عنهم وأرضاهم».

فكفى الأنصار رضي الله عنهم شرفاً وفخراً آووا رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام، وأحبوهم، وواسوهم بكل ما يملكون مع سلامة صدورهم عليهم وإيثارهم لهم على أنفسهم.

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ الواو: اعتراضية، و«من» شرطية، و«يوق» فعل الشرط

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٢٠٠ - ٢٠١، ٢٠٤، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٨٧.

(٢) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار - قول النبي ﷺ للأنصار: «اصبروا حتى تلقوني على الحوض» ٣٧٩٤.

(٣) أخرجه البخاري في المزارعة ـ إذا قال: اكفني مؤونة النخل أو غيره وتشركني في الثمرة ٢٣٢٥.

(٤) في «تفسيره» ٨/ ٩٦ - ٩٧.

(٥) أخرجه أبو داود في الزكاة ١٦٧٨، والترمذي في المناقب ٣٦٧٥ والدارمي في الزكاة ١٦٦٠ - من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وجوابه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾. ومعنى ﴿يُوقَ﴾ يكف، ويسلم من شح نفسه، وهو من رزق الإيثار.

والشح يقال بضم الشين وكسرها وفتحها وهو أشد من البخل، وقيل البخل مع حرص.

قال الشاعر:

بكيت على الأطلال إن لم أقف بها وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه

قال الزمخشري[1]: «الشح بالضم والكسر: اللؤم، وأن تكون نفس الرجل كزة حريصة على المنع، كما قال:

يمارس نفساً بين جنبيه كزة إذا هم بالمعروف قالت له مهلاً

وقد أضيف إلى النفس لأنه غريزة فيها، وأما البخل فهو المنع بنفسه».

والشح أعم من البخل، لأن البخل يطلق ـ غالباً ـ على منع المال فقط، وضرره غالباً على صاحبه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [محمد: ٣٨] وقد يطلق البخل على منع غير المال، وفي الحديث: «أبخل الناس من بخل بالسلام»[2].

أما الشح فهو يتعلق بمنع الحق الواجب من المال، وبغير ذلك من أوجه الخير والإحسان، والمعروف، بل ويحمل على الاعتداء على حقوق الناس وأموالهم. قال تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨] وفي قصة هند زوجة أبي سفيان أنها قالت: إن أبا سفيان رجل شحيح، لا يعطيني ما يكفيني وولدي. فقال ﷺ: «خذي من ماله ما يكفيك وولدك بالمعروف»[3].

وعن الأسود بن هلال قال: «جاء رجل إلى عبد الله فقال: يا أبا عبد الرحمن، إني أخاف أن أكون قد هلكت! فقال له عبد الله: وما ذاك؟ قال: سمعت الله يقول: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ وأنا رجل شحيح، لا أكاد أخرج من يدي شيئا، فقال عبد الله: ليس ذلك بالشح الذي ذكر الله في القرآن، إنما الشح الذي ذكر الله في

---

(١) في «الكشاف» ٤/ ٨٢.

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» ٦/ ٤٠، والبيهقي في «شعب الإيمان»، ٦/ ٤٢٩ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في البيوع ٢٢١١، ومسلم في الأقضية ١٧١٤، وأبو داود في البيوع ٣٥٣٢، والنسائي في آداب القضاة ٥٤٢٠، وابن ماجه في التجارات ٢٢٩٣ – من حديث عائشة رضي الله عنها.

القرآن أن تأكل مال أخيك ظلماً، ولكن ذلك البخل وبئس الشيء البخل»[(١)].

وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - عن رسول الله - ﷺ - قال: «بريء من الشح من أدى الزكاة، وقرى الضيف، وأعطى في النائبة» [(٢)].

وعن أبي الهياج الأسدي قال: «كنت أطوف بالبيت فرأيت رجلاً يقول: «اللهم قني شح نفسي» لا يزيد على ذلك، فقلت له: فقال: «إني إذا وقيت شح نفسي لم أسرق ولم أزن، ولم أفعل» وإذا الرجل عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه»[(٣)].

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ الفاء واقعة في جواب الشرط، لأنه جملة اسمية، والفلاح: الفوز والظفر والنجاح، الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب، الفوز بالسعادة في الدنيا والآخرة، الفوز بالجنة والنجاة من النار.

وأكد الفلاح لمن وقي شح نفسه بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم».

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم»[(٤)].

وعن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الفحش، فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش، وإياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالفجور ففجروا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا» [(٥)].

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد أبدا، ولا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبدا» [(٦)].

ومن هذه الأحاديث والآثار يتبين أن الشح أشد وأعظم من البخل لأن الشح يحمل على

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ٩/ ٩٨، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٢٩ - ٥٣٠، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/٣٣٤٦ـ ٣٣٤٧.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٣٠ - ٥٣٢.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٣٠.

(٤) أخرجه مسلم في البر - تحريم الظلم ٢٥٧٨، وأحمد ٣/ ٣٢٣.

(٥) أخرجه أبو داود في الزكاة - صلة الرحم ١٦٩٨، وأحمد ٢/ ١٥٩ - ١٦٠.

(٦) أخرجه النسائي في الجهاد - فضل من عمل في سبيل الله على قدمه ٣١١٠، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٣٣، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٧٤، وأحمد ٣/ ٢٥٦، ٣٤٠، ٣٤٢، ٤٤١، ٥٠٥.

منع الواجب وتركه وعلى ارتكاب المحرم والظلم. والشحيح يقصر في أداء الواجب، ويمنع الحق الذي عليه، ولا يتنازل عن شيء من حقه، ولو كان عند أقرب الناس إليه كوالده وولده وزوجه، يُحرِّج الآخرين، ولا يُحلل أحدا عن مظلمة، بل قد يشح بالدعاء لغيره من المسلمين، حاله وهو غير جاهل كحال ذلك الأعرابي الجاهل الذي قال: اللهم ارحمني ومحمداً، ولا ترحم معنا أحداً. فالتفت إليه النبي ﷺ فقال: «لقد حجرت واسعاً»[1].

وما أشبه من هذه حاله بالحاسد الذي يكره الخير للغير.

فمن وقي شح نفسه سمحت نفسه بأداء حقوق الله، وحقوق الخلق، والبعد عما نهى الله عنه، وعن ظلم الخلق، وسمحت نفسه ببذل المال والخير والمعروف والخلق الطيب في سبيل الله وذاق طعم الحياة وسعد في دينه ودنياه وأخراه - نسأل الله التوفيق.

وليس من الشح المذموم الشح بالوقت أن يضيع ويذهب سدى، بل هو من الشح المحمود، لأن الوقت أغلى ما أعطي للإنسان، وقد أقسم الله به في مواضع كثيرة من كتابه العزيز كما قال عز وجل ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾.

قال ابن القيم[2]: «فإن الفلاح كل الفلاح في الشح به، فمن لم يكن شحيحاً بوقته تركه الناس على الأرض عياناً مفلساً، فالشح بالوقت هو عمارة القلب وحفظ رأس ماله، ومما يدل على هذا أنه سبحانه أمر بالمسابقة في أعمال البر والتنافس فيها، والمبادرة إليها، وهذا ضد الإيثار بها».

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

أثنى الله عز وجل على المهاجرين، ثم أتبع ذلك بالثناء على الأنصار، ثم ثلث بالثناء على من جاء بعدهم من التابعين ومن تبعهم إلى يوم الدين كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٠]. مبيناً أن لهم نصيبهم من الفيء.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ﴾ أي: والذين جاءوا من بعد المهاجرين

---

(١) أخرجه أبو داود في الطهارة ٣٨٠، والترمذي في الطهارة ١٤٧، وابن ماجه في الطهارة وسننها ٥٢٩ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٢٥.

والأنصار أي: بعد الصحابة رضي الله عنهم وهم التابعون لهم بإحسان وتابعوهم إلى يوم القيامة. «يقولون» خبر للاسم الموصول «الذين».

﴿رَبَّنَا﴾ أي: يا ربنا، والرب: هو الخالق المالك المدبر.

﴿ٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ أي: اغفر لنا ذنوبنا، والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة عليه.

﴿وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ أي: واغفر لإخواننا الذين سبقونا بالإيمان من المهاجرين والأنصار وسائر الصحابة أجمعين. وكذا كل من سبق بالإيمان فمن جاء بعده من إخوانه المؤمنين إلى قيام الساعة يدعون له بالمغفرة فيدعو المتأخر منهم للمتقدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولهذا قال ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[1].

وهذا يدل على فضل السابق على اللاحق من حيث العموم ولهذا قال ﷺ: «خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يأتي بعدهم قوم يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون ويظهر فيهم السمن»[2].

وعن الزبير بن عدي قال: «أتينا أنس بن مالك، فشكونا إليه ما نلقى من الحجاج، فقال: اصبروا، فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم سمعته من نبيكم ﷺ»[3].

وفي حديث حذيفة – رضي الله عنه – قال: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر، قال: نعم، وفيه دخن، قلت: وما دخنه؟ قال: قوم يهدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها، قلت: يا رسول الله، صفهم لنا. فقال: هم من

---

(١) أخرجه مسلم في الوصية ١٦٣١، وأبو داود في الوصايا ٢٨٨٠، والنسائي في الوصايا ٣٦٥١، والترمذي في الأحكام ١٣٧٦ – من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦٥٠، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٥٣٥، وأبو داود في السنة ٤٦٥٧، والنسائي في الأيمان والنذور ٣٨٠٩، والترمذي في الفتن ٢٢٢١ – من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الفتن ٧٠٦٨، والترمذي في الفتن ٢٢٠٦.

جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا، قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض على أصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك»[١].

﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: ولا تجعل في قلوبنا حقداً وبغضاً وحسداً للذين آمنوا ممن سبقونا، ولا ممن هم بين أيدينا ومعنا. أي: لا تجعل في قلوبنا غلاً لأحد من أهل الإيمان.

﴿رَبَّنَآ﴾ أي: يا ربنا استجب دعاءنا ﴿إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ و«الرءوف» و«الرحيم» اسمان من أسماء الله عز وجل الأول على وزن «فعول» والثاني على وزن «فعيل» يدلان على أنه عز وجل ذو الرأفة العظيمة، والرحمة الواسعة، والرأفة أرق من الرحمة وأخص منها.

وسلامة القلوب من الضغينة والحقد والحسد أمر عزيز المنال، وبعيد المرام إلا على من وفقه الله ورزقه قلباً سليماً، ولهذا امتن الله عز وجل على أهل الجنة بنزع الغل من قلوبهم، قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

وقال أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤].

فكم من مصلٍ قائمٍ صائمٍ، قلبه يغلي حقداً وحسداً على كثير من إخوانه المسلمين، وكم من إنسان يستطيع صيام النهار، وقيام الليل، وبذل المال لكنه لا يستطيع علاج قلبه من هذا المرض.

فمن كان في قلبه غل وحقد وحسد وضغينة على إخوانه المسلمين فنصيبه من هذا الثناء من الله في الآية الكريمة يقل ويضعف بقدر ما عنده من هذا المرض العضال – إن كان له نصيب – نسأل الله السلامة والعافية. إذ الواجب أن يحب المسلم لأخيه ما يحب لنفسه، كما قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[٢].

ففتش نفسك أخي الكريم فإنه قل من يسلم من هذا الداء، فإن وجدت عندها شيئاً

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦٠٦، ومسلم في الإمارة ١٨٤٧، وأبو داود في الفتن والملاحم ٤٢٤٤، وابن ماجه في الفتن ٣٩٧٩.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان ١٣، ومسلم في الإيمان ٤٥، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٥٠١٦، والترمذي في صفة القيامة ٢٥١٥، وابن ماجه في المقدمة ٦٦ – من حديث أنس – رضي الله عنه.

من هذا فألزمها تقوى الله، وأعلمها بأن فضل الله واسع قد شمل البر والفاجر وإن الجنة وعدت ملأها، وإن النار وعدت ملأها. وإن الناس لو كانوا كلهم في الجنة ما ضرك ذلك، ولو كانوا كلهم في النار ما نفعك ذلك فعالج قلبك وأحب للمسلمين ما تحب لنفسك وادع لهم، وأبشر بالخير إن شاء الله تعالى.

ولا شك أن في مقدمة من لا يستحقون الوصف المذكور في الآية أولئك الذين يقعون في صحابة رسول الله ﷺ ويسبونهم ويبغضونهم وهم الرافضة، ومن سلك مسلكهم الذين جعلوا سب الصحابة وتنقصهم ديدناً لهم - عليهم من الله ما يستحقون - إذ كيف يبيحون لأنفسهم الكلام فيمن شهد الله لهم بالسبق ورضي عنهم، وهم خير القرون، ولكن كما قال الله - عز وجل - ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «أمروا أن يستغفروا لهم، فسبوهم، ثم قرأت هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ الآية»[1].

وعنها قالت: أمرتم بالاستغفار لأصحاب محمد - ﷺ - فسببتموهم، سمعت نبيكم - ﷺ - يقول: «لا تذهب هذه الأمة حتى يلعن آخرها أولها»[2].

قال ابن كثير[3]: «وما أحسن ما استنبط الإمام مالك من هذه الآية الكريمة: أن الرافضي الذي يسب الصحابة ليس له في مال الفيء نصيب لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء في قوله: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾».

وهكذا روي عن الإمام أحمد رحمه الله تعالى، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم[4].

وعن مالك بن أوس بن الحدثان، قال: «قرأ عمر بن الخطاب: ﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾ حتى بلغ ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ثم قال: هذه لهؤلاء، ثم قرأ: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ الآية، ثم قال: هذه

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٤٧.
(٢) أخرجه البغوي في «معالم التنزيل» ٤/ ٣٢١.
(٣) في «تفسيره» ٨/ ٩٩.
(٤) انظر «زاد المعاد» ٥/ ٨٤ - ٨٧، «بدائع التفسير» ٤/ ٤٢٤.

هؤلاء، ثم قرأ ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ حتى بلغ: ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ ثم قال: استوعبت هذه الآية المسلمين عامة، وليس أحد إلا له فيها حق ثم قال: لئن عشت ليأتين الراعي، وهو بِسَرْوِ حِمْيَرَ[1] نصيبه منها، لم يعرق جبينه»[2].

وفي رواية عن مالك بن أوس بن الحدثان قال: «كان عمر يحلف على أيمان ثلاث: يقول: والله ما أحد أحق بهذا المال من أحد، وما أنا بأحق به من أحد، والله ما من المسلمين أحد إلا وله في هذا المال نصيب إلا عبداً مملوكاً، ولكنا على منازلنا من كتاب الله تعالى وقَسْمنا من رسول الله - ﷺ - فالرجل وبلاؤه في الإسلام، والرجل وقدمه في الإسلام، والرجل وغناؤه في الإسلام، والرجل وحاجته، والله لئن بقيت لهم ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو يرعى مكانه»[3].

قال السعدي[4]: «فهؤلاء الأصناف الثلاثة ـ يعني المذكورين في الآيات: ا لمهاجرين، والأنصار، والتابعين لهم بإحسان ـ هم أصناف هذه الأمة، وهم المستحقون للفيء، الذي مصرفه راجع إلى مصالح المسلمين».

ويؤخذ من الآيات، الثناء من الله ـ عز وجل ـ على المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم القيامة، وأنهم في الأفضلية هكذا: المهاجرون، ثم الأنصار، ثم التابعون لهم بإحسان. فالمهاجرون ضحوا بديارهم وأموالهم ابتغاء الفضل من الله - عز وجل - والرضوان، ونصرة لله ورسوله فأثبتوا صدق إيمانهم وأقوالهم بفعالهم رضي الله عنهم.

والأنصار الذين سكنوا دار الهجرة قبل المهاجرين وآمنوا قبل كثير منهم، أحبوا إخوانهم المهاجرين وواسوهم بأموالهم، ولم يجدوا في صدورهم أدنى حاجة من حسد على إخوانهم المهاجرين على ما آتاهم الله من الفضل والرضوان والمنزلة الرفيعة وآثروهم على أنفسهم بالمال والطعام وغير ذلك وسلموا من شح النفوس فأفلحوا وفازوا.

والذين جاءوا من بعد المهاجرين والأنصار واتبعوهم بإحسان يدعون الله بالمغفرة

---

(١) قال في «النهاية» مادة «سرى» السَّرْو: ما انحدر من الجبل وارتفع عن الوادي في الأصل. والسَّرْو أيضاً: محلة حِمْيَر.

(٢) أخرجه: الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥١٦، والبيهقي في «سننه» ٦/ ٣٥٢. وأخرج أبو داود في الخراج - صفايا الرسول ﷺ من الأموال - آخره بنحوه ـ عن الزهري قال: قال عمر رضي الله عنه: ﴿ وما أفاء الله على رسوله منهم ﴾ .. الخ. قال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٩٩: «وفيه انقطاع».

(٣) أخرجه أحمد ١/ ٤٢.

(٤) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٣٣٧.

للذين سبقوهم بالإيمان من المهاجرين والأنصار وغيرهم وأن يرزقهم سلامة القلوب على إخوانهم المؤمنين.

الفوائد والعبر:

١ ـ أن من أحق المسلمين بأن يعطوا من مال الفيء الفقراء المهاجرين ـ رضي الله عنهم الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم.

٢ ـ الثناء على المهاجرين الذين هاجروا وتركوا ديارهم وأموالهم ابتغاء الفضل من الله والرضوان ونصرة لله ورسوله وأنهم هم الصادقون في إيمانهم وهجرتهم. وتفضيلهم على الأنصار.

٣ ـ جواز تملك رباع مكة وبيعها وتأجيرها لأن الله أضاف الديار إليهم إضافة تمليك، وقد منع من هذا بعض أهل العلم والأظهر ـ والله أعلم ـ جواز ذلك.

٤ ـ الثناء على الأنصار الذين سكنوا دار الهجرة «المدينة» قبل المهاجرين وسبقوا إلى الإيمان قبل كثير منهم بمحبتهم لإخوانهم المهاجرين وسلامة قلوبهم عليهم وإيثارهم لهم على أنفسهم مع فاقتهم وفقرهم وشدة حاجتهم.

٥ ـ أن للأنصار ـ رضي الله عنهم ـ نصيباً في الفيء.

٦ ـ أن من وقي شح نفسه فهو المفلح حقاً.

٧ ـ في الثناء على المهاجرين بهجرتهم طلباً للفضل من الله ورضوانه ونصرة له ولرسوله وأنهم هم الصادقون ترغيب في الهجرة في سبيل الله وبيان لفضلها بل ووجوبها إذا لم يستطع المسلم إظهار شعائر دينه. كما أن في الثناء على الأنصار ترغيباً في السبق إلى الإيمان وسلامة القلوب من الحسد والضغائن، وفي الإيثار، والبعد عن الشح.

٨ ـ الثناء على التابعين الذين يدعون ربهم بالمغفرة لهم ولإخوانهم السابقين بالإيمان وأن لا يجعل في قلوبهم غلاً للذين آمنوا، وبيان أن لهم نصيباً في الفيء.

٩ ـ مشروعية دعاء المؤمنين لإخوانهم الذين سبقوهم في الإيمان، ودعاء بعضهم لبعض.

١٠ ـ فضل المؤمنين السابقين على من جاؤوا بعدهم.

١١ ـ وجوب سلامة القلوب بين المؤمنين، من الغل والحقد والحسد وسؤال الله السلامة من ذلك.

١٢ ـ إثبات اسمين من أسماء الله ـ عز وجل ـ وهما «الرؤوف» و «الرحيم» وصفة الرأفة التامة والرحمة الواسعة له ـ عز وجل.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١٢) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٣) لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (١٤) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١٧)﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله – عز وجل – إخراجه بني النضير من ديارهم، وذكر حكم أموالهم التي ردت إلى المسلمين بدون قتال ثم ذكر موقف المنافقين ووعدهم ليهود بني النضير بمناصرتهم وربط مصيرهم بمصيرهم، وتكذيب الله لهم في ذلك مبيناً رهبة اليهود وجبنهم، وأن مثل المنافقين في وعدهم لليهود بمناصرتهم كمثل الشيطان حين زينَّ للإنسان الكفر ثم تبرأ منه.

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ الآية.

عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ «يعني عبد الله بن أبي وأصحابه، ومن كان منهم على مثل أمرهم»[(١)].

وعن يزيد بن رومان: «أن رهطاً من بني عوف بن الخزرج منهم عبد الله بن وديعة، ومالك بن أبي قوقل، وسويد، وداعس، بعثوا إلى بني النضير أن اثبتوا وتمنعوا، فإنا لن نسلمكم، وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم، فتربصوا ذلك من نصرهم، فلم يفعلوا، وكانوا قد تحصنوا في الحصون من رسول الله ﷺ حين نزل بهم»[(٢)].

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الهمزة للاستفهام، ومعناه التعجب، أي: انظر لهؤلاء المنافقين وتعجب من قولهم وحالهم.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٣٥. وانظر «السيرة النبوية» ٢/ ١٩٢.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٠٠، وانظر «السيرة النبوية» ٢/ ١٩١.

﴿إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾ أي: إلى المنافقين الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر كعبد الله ابن أبي وأمثاله وسمي من يظهر الإيمان ويبطن الكفر بالمنافق أخذاً من نافقاء الجربوع التي يجعلها في نهاية جحره عليها قشرة رقيقة من الأرض فإذا داهمه عدو من باب جحره ضرب هذه النافقاء برأسه وخرج، والمنافق له وجهان يأتي المؤمنين بوجه ويأتي غيرهم بوجه آخر، كما قال عز وجل: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤]. وقال تعالى: ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ [النساء: ١٤٣].

﴿يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: يقول هؤلاء المنافقون لإخوانهم بالكفر يهود بني النضير وسموا إخوانهم لأن الكفر يجمعهم، فالمنافقون وإن كانوا بين ظهراني المؤمنين ويحسبون منهم في الظاهر فهم أشد كفراً وعذاباً من جميع طوائف الكفار لأنهم غصة في حلوق المؤمنين ويصعب التحرز منهم وينطلي أمرهم على الكثيرين كما قال تعالى ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ﴾ [الأنفال: ٦٠]. بخلاف الكافر الظاهر البين، ولهذا قال تعالى في عذابهم ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

﴿لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ﴾ اللام في قوله ﴿لَئِنۡ﴾ موطئة للقسم، أي: والله لئن أخرجتم من المدينة وأجليتم منها لنخرجن معكم، واللام في قوله (لنخرجن) واقعة في جواب القسم. أي: إن مصيرنا مرتبط بمصيركم حتى في الخروج معكم إن أخرجتم.

﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدًا﴾ أي: لا نطيع في التخلي عنكم وعدم نصرتكم وعن كون مصيرنا مصيركم، ولا في الكلام فيكم أحداً أبداً أياً كان حتى ولو كان من المؤمنين الذين نحن معهم في الظاهر، أي: لا نطيع فيكم قول عاذل أو مخوف.

﴿وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ﴾ اللام في قوله ﴿لَنَنصُرَنَّكُمۡ﴾ واقعة في جواب القسم، أي: والله إن قوتلتم لننصرنكم. أي: وإن قاتلكم محمد ومن معه لننصرنكم معشر بني النضير عليهم بالقتال معكم.

﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: والله يشهد إنهم في دعواهم الخروج معهم إن أخرجوا وارتباط مصيرهم بمصيرهم وعدم التخلي عنهم لقول أحد أبدا ومناصرتهم إن قوتلوا لكاذبون. فكل هذا كذب منهم شهد الله بكذبهم فيه، وليس هناك قول أكذب من قول

شهد الله بكذبه وهو خير الشاهدين، كما في قوله تعالى عنهم في مطلع سورة المنافقين ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الآية: ١].

قال ابن كثير[١]: «والله يشهد إنهم لكاذبون فيما وعدوهم به إما أنهم قالوا قولاً ومن نيتهم ألا يفوا لهم به، وإما أنهم لا يقع منهم الذي قالوه».

﴿لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾ اللام في قوله ﴿لَئِنْ﴾ في الموضعين موطئة للقسم، أي: والله لئن أخرجوا لا يخرجون معهم لتمسكهم بالتراب والطين ونظرتهم المادية.

﴿وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ أي: والله لئن قوتلوا لا ينصرونهم لجبنهم وخوفهم.

وهذا قسم من الله عز وجل يؤكد كذبهم في دعوى الخروج معهم إن أخرجوا وعدم نصرتهم لهم إن قوتلوا بعد شهادته – عز وجل – بكذبهم وفي هذا دليل على صدق نبوته ﷺ. وهذا الذي حصل فإن عبد الله بن أبي رأس المنافقين أرسل إلى بني النضير – بعدما قاموا يتجهزون للخروج – أن لا تخرجوا فإن معي ألفين، يدخلون معكم حصونكم فيموتون دونكم، وتنصركم قريظة، وحلفاؤكم غطفان فطمع رئيسهم حيي بن أخطب فيما قال له وبعث إلى رسول الله ﷺ يقول: إنا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك. فكبر رسول الله ﷺ وأصحابه، ونهضوا إليهم، وعلي بن أبي طالب – رضي الله عنه – يحمل اللواء، فأقاموا على حصونهم يرمون بالنبال والحجارة، واعتزلتهم قريظة، وخانهم ابن أبي، وحلفاؤهم من غطفان، فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على أن يخرجوا من المدينة – كما سبق بيانه[٢].

﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ الواو: عاطفة، واللام موطئة للقسم. والتقدير: والله لئن نصروهم ليولن الأدبار.

والمعنى: ولو فرض أنهم أرادوا نصرهم وقاتلوا معهم مع أن هذا لا يمكن أن يقع منهم لأن الله شهد على كذبهم في ذلك وأقسم على عدم نصرتهم لهم. وأمر شهد الله بكذبه وأقسم على عدم وقوعه لا يمكن أن يكون ولكن الآية على سبيل الفرض والتنزل معهم، أي: لو فرض أنهم نصروهم.

﴿لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ اللام واقعة في جواب القسم. والجملة جواب القسم في قوله

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٠٠.
(٢) انظر الكلام على قوله ﴿ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم ﴾ الآية.

﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ أي: ليولن المعركة أدبارهم وظهورهم فارين هاربين خوفاً من الموت، كما هي حالهم إذا خرجوا للقتال مع رسول الله ﷺ والمؤمنين يرجعون من عرض الطريق ويبطئون ويثبطون ويفرون من الزحف كما قال تعالى عنهم في سورة النساء ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ [الآية: ٧٢].

وقال تعالى في سورة التوبة: ﴿وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [الآية: ٨١].

وقال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ [التوبة: ٤٧].

وقوله هنا ﴿لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ﴾ يحتمل أيضا أن يراد به الطائفتان معاً المنافقون واليهود بمعنى أن يكون نصر المنافقين لبني النضير سبباً في هزيمتهم جميعاً وفرارهم من المعركة مولين الأدبار.

﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي: ثم تكون النتيجة عدم نصرهم فتكون مناصرة المنافقين لهم سببا لهزيمتهم وعدم نصرهم وفرارهم من المعركة، وتولية الأدبار.

وهكذا شأن المنافقين في كل زمان ومكان في وعودهم سواء لإخوانهم الكافرين، أو للمؤمنين يكذبون، ويثبطون ويبطئون، ويفرون إن حضروا المعركة، يريدون المشاركة في الغنم دون الغرم كما قال الله تعالى عنهم ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٢، ٧٣].

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ﴾ اللام لام الابتداء. أي: لأنتم أيها المؤمنون ﴿أَشَدُّ رَهْبَةً﴾ أي: خوفاً ﴿فِي صُدُورِهِم﴾ أي: في صدور المنافقين واليهود ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: أنهم يخافون منكم أيها المؤمنون أكثر من خوفهم من الله، كما قال تعالى ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧].

وماذا يؤمل في قوم يخافون من الناس أشد من خوفهم من الله، وما أكثر من هذه حاله من ضعاف الإيمان ومرضى القلوب.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة للمعنى المأخوذ من الجملة السابقة، أي: خوفهم منكم أشد من خوفهم من الله ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ الباء للسببية، أي: بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا علم عندهم ولا معرفة ولا فقه في الدين. وإلا كيف يخافون من المخلوق الضعيف أشد من

خوفهم من الخالق العظيم سبحانه.

﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو (جدار) على الإفراد، وقرأ الباقون ﴿ جُدُر ﴾ على الجمع. أي: لا يقاتلكم اليهود ﴿جَمِيعًا﴾ حال من ضمير المخاطبين، أي: إذا كنتم مجتمعين جيشاً واحداً. ﴿إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ أي: إلا وهم في قرى محصنة، أي: في داخل الحصون لا يبرزون لكم ﴿أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾ أي: أو من خلف حيطان وأسوار، فاعتمادهم في القتال على حصونهم وأسوارهم، ولا شجاعة لديهم، وفي هذا أعظم الذم لهم.

قال ابن كثير[1]: «يعني أنهم من جبنهم وهلعهم لا يقدرون على مواجهة جيش الإسلام بالمبارزة والمقابلة، بل إما في حصون، أو من وراء جدر محاصرين فيقاتلون للدفع عنهم ضرورة».

ويحتمل أن تكون ﴿جَمِيعًا﴾ حال من ضمير الواو، أي: لا يقاتلكم اليهود حتى في حال اجتماعهم ﴿إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾.

﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ أي: عداوتهم بينهم شديدة، والبأس: العداوة والتقاتل، قال تعالى: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥]. فاليهود أعداء فيما بينهم وهم نحل وطوائف متنافرة متناحرة، وهم والمنافقون أعداء أيضا، وإن أظهروا المودة فيما بينهم.

﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾ الخطاب في قوله ﴿تَحْسَبُهُمْ﴾ للرسول - ﷺ - ولكل من يصلح له ممن يشاهد ظواهر اليهود والمنافقين، أي: تظنهم أيها الناظر إليهم أنهم مجتمعون على رأي واحد وقلب واحد.

﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ الواو: حالية، أي: والحال أن قلوبهم ﴿شَتَّىٰ﴾ أي: متفرقة جدا، وليسو على قلب رجل واحد ولا على رأي واحد.

قال ابن كثير[1]: «أي تراهم مجتمعين فتحسبهم مؤتلفين، وهم مختلفون غاية الاختلاف».

﴿ذَٰلِكَ ﴾ الإشارة لجبن المنافقين واليهود وعداوتهم فيما بينهم وتفرق قلوبهم.

﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ أي: بسبب أنهم قوم لا يعقلون، أي: لم يستفيدوا من عقولهم بمعرفة الحق والعمل به، ولهذا صاروا كمن لا يعقل، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٠٠.

لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا﴾ الكاف: للتشبيه، و«مثل» صفة وشبه، أي: مثل يهود بني النضير في نقضهم العهد، وما حل بهم من الجلاء والنهاية المؤلمة ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا﴾ وهم يهود بني قينقاع الذين أجلاهم الرسول - ﷺ - قبل هذا أو كمثل كفار قريش الذين أصابهم ما أصابهم يوم بدر، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

﴿ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي: ذاقوا ونالوا وتجرعوا عقوبة كفرهم وبغيهم، هذا في الدنيا.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: ولهم في الآخرة عذاب مؤلم موجع حساً ومعنى في النار، مع عذاب الدنيا.

﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ﴾ الكاف: للتشبيه، والمثل: الشبه. والشيطان: كل متمرد عات خارج عن طاعة الله - عز وجل - من الإنس والجن والحيوان. قال تبارك وتعالى: ﴿شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢] وقال ﷺ: «الكلب الأسود شيطان» (١) والمراد به هنا إبليس وأعوانه.

والمعنى: مثل المنافقين في وعدهم لليهود بالخروج معهم ونصرهم، وكذبهم وتخليهم عنهم كمثل الشيطان حين قال للإنسان اكفر، فأمره بالكفر بالله وإنكاره وجحد شريعته وزين له ذلك.

﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ﴾ أي: فلما كفر الإنسان قال الشيطان إني بريء منك، أي: تبرأ من الإنسان بعد أن أوقعه في الكفر وزينه له، وهذا فعله مع عامة الناس. كما قال الله عنه ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة - باب قدر ما يستر المصلي ٥١٠، وأبو داود في الصلاة - ما يقطع الصلاة ٧٠٢ من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

قال ابن كثير [١] في كلامه على الآية ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾ الآية. «يعني مثل هؤلاء اليهود في اغترارهم بالذين وعدوهم النصر من المنافقين ثم لما حقت الحقائق وجدّ بهم الحصار والقتال تخلوا عنهم وأسلموهم للهلكة مثالهم في ذلك كمثل الشيطان إذ سول للإنسان – والعياذ بالله – الكفر، فإذا دخل فيما سوله تبرأ منه وتنصل، وقال: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾».

قوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في هذه الآية: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال: كانت امرأة ترعى الغنم، وكان لها أربعة إخوة، وكانت تأوي بالليل إلى صومعة راهب – قال: فنزل الراهب ففجر بها فحملت فأتاه الشيطان فقال له: اقتلها ثم ادفنها، فإنك رجل مصدق يسمع قولك، فقتلها ثم دفنها قال: فأتى الشيطان إخوتها في المنام فقال لهم: إن الراهب صاحب الصومعة فجر بأختكم، فلما أحبلها قتلها ثم دفنها في مكان كذا وكذا.. فانطلقوا فاستعدوا ملكهم على ذلك الراهب فأتوه فأنزلوه، ثم انطلقوا به فلقيه الشيطان، فقال: إني أنا الذي أوقعتك في هذا، ولن ينجيك منه غيري، فاسجد لي سجدة واحدة وأنجيك مما أوقعتك فيه. قال: فسجد له، فلما أتوا به ملكهم تبرأ منه، وأخذ فقتل»[٢].

والله أعلم بصحة هذه القصة وما جاء في معناها. والآية أعم من ذلك كله، فالشيطان لا يترك أحداً من الإنس، بل ولا من الجن إلا زين له الكفر، فإن عجز عنه نقله إلى البدعة، فإن عجز عنه نقله إلى ترك الواجب، فإن عجز عنه نقله إلى فعل المحرم، فإن عجز عنه شغله بالمفضول عن الفاضل، فإن عجز عنه شغله بالمباحات، فإن عجز وأيس منه سلط عليه من يؤذيه من شياطين الجن والإنس، لكن ذلك لا يضره، حيث سلم له دينه، بل هو زيادة أجر له.

والشيطان في هذه المقالة ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كاذب غير صادق إذ لو كان يخاف الله حقاً ما خالف أمره، واستكبر عن طاعته قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٠١.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٤٢، وأخرجه بمعناه عن علي رضي الله عنه ٢٢/ ٥٤١. وقد ذكرهما ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١٠١ – ١٠٢ – نقلاً عن الطبري وقال بعد ذكر قصة ابن مسعود رضي الله عنه «وكذا روي عن ابن عباس وطاوس ومقاتل بن حيان نحو ذلك. واشتهر عند كثير من الناس أن هذا العابد هو برصيص. والله أعلم».

لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

وقد أقسم أنه سيعمل جاهداً في إغواء بني آدم كما قال تعالى عنه: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣].

﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ﴾ أي: فكانت نهاية الشيطان الآمر بالكفر، والإنسان الفاعل له، ومصيرهما أنهما في النار خالدين فيها وكذلك عاقبة ونهاية المنافقين واليهود الهزيمة والبوار في الدنيا، وفي الآخرة نهايتهم النار وبئس القرار.

﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: الخلود في النار جزاء وعقوبة الظالمين، الذين وضعوا العبادة في غير موضعها فعبدوا غير الله، وهذا جزاء كل ظالم.

والظلم: النقص ووضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان، وأظلم الظلم الشرك بالله عز وجل كما قال لقمان ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣].

الفوائد والعبر:

١ ـ وعد المنافقين وحلفهم لإخوانهم الكفرة من أهل الكتاب بوحدة مصيرهم وأنهم إن أخرجوا ليخرجون معهم وإن قوتلوا لينصرونهم، وتكذيب الله عز وجل ـ لهم والتعجيب من حالهم ومقالهم.

٢ ـ إثبات أخوة المنافقين للكفرة من أهل الكتاب لأن الكفر يجمعهم، بل المنافقون أشد كفراً من جميع الكفار.

٣ ـ أن من صفات المنافقين الحلف الكاذب وإخلاف الوعود والجبن والفرار من الزحف.

٤ ـ هزيمة أهل الكتاب وعدم نصرهم لمحاربتهم الله ورسوله واعتمادهم على المنافقين ووعودهم الكاذبة لهم بنصرهم.

٥ ـ خوف المنافقين واليهود من المؤمنين أشد من خوفهم من الله لعدم علمهم وفقههم في الدين وعدم معرفتهم بعظمة الله ـ عز وجل.

٦ ـ شدة جبن اليهود وعدم قدرتهم على مبارزة المؤمنين ومقاتلتهم إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر.

٧ ـ شدة عداوة اليهود فيما بينهم وشدة العداوة بينهم وبين المنافقين، يظنهم الناظر إليهم مجتمعين وقلوبهم متفرقة متعادية متنافرة لأنهم لم يعقلوا ما ينفعهم في دينهم وآخرتهم.

٨ ـ لا ينبغي الاغترار بالمظاهر وإنما المعوّل عليه ما في المخبر.

٩ ـ أن مثل يهود بني النضير في نقضهم العهد وما حل بهم من الجلاء والعقوبة والنهاية المؤلمة كمثل الذين من قبلهم قريبا وهم يهود بني قينقاع الذين أجلاهم الرسول ﷺ قبل هذا وكفار قريش الذين أصابهم ما أصابهم يوم بدر، وما أعد لهم من العذاب الأليم في النار.

١٠ ـ أن مثل المنافقين في وعدهم اليهود بالخروج معهم ونصرهم وكذبهم وتخليهم عنهم كمثل الشيطان في أمره الإنسان بالكفر وتبريه منه زعماً منه أنه يخاف الله ـ وهو كاذب.

١١ ـ أن مصير الشيطان والإنسان المتبع له على الكفر الخلود في النار، وهو مصير المنافقين واليهود مجازاة لهم على ظلمهم وهو مصير كل ظالم وبئس المصير.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)﴾.

عن جرير بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: «كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار، قال: فجاءه قوم حفاة عراة مجتابي النمار أو العباء، متقلدي السيوف، عامتهم من مضر، بل كلهم من مضر، فتغير وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة قال: فدخل ثم خرج، فأمر بلالاً فأذن وأقام الصلاة، فصلى ثم خطب، فقال: «﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ إلى آخر الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] وقرأ الآية التي في الحشر: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الآية: ١٨] تصدق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره، حتى قال: ولو بشق تمرة» قال: فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت، ثم تتابع الناس، حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت رسول الله ﷺ يتهلل وجهه كأنه مذهبة. فقال رسول الله ﷺ: «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[1].

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾.

صدَّر - عز وجل - خطابه للمؤمنين بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام، وناداهم بوصف الإيمان تشريفاً وتكريماً لهم وحثاً على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما بعده من الأوامر واجتناب ما بعده من النواهي يعد من مقتضيات الإيمان - كما قال عبد الله ابن مسعود - رضي الله عنه -: «إذا سمعت الله يقول ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأرعها سمعك فهو خير يأمر به أو شر ينهى عنه»[2].

وقد اجتمع في هذه الآيات أمر، بل عدة أوامر تأمر بخير، ونهي عن شر.

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة ١٠١٧، والنسائي في الزكاة ٢٥٥٤، والترمذي في العلم ٢٦٧٥، وابن ماجه في المقدمة ٢٠٣.
(٢) سبق تخريجه.

وتقوى الله – عز وجل – امتثال أوامره واجتناب نواهيه[١].

﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ «الغد» في الأصل اليوم الذي بعد يومك والأيام ثلاثة: يوم أمس، وقد مضى، واليوم الحاضر، ويوم غد لا يدري الإنسان أيدركه أم لا.

والمراد بـ«غد» يوم القيامة، وسمي بـ«غد» لتحقق وقرب وقوعه لأنه آت وكل آت قريب، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠] قال قتادة: «ما زال ربكم يقرب الساعة حتى جعلها كغد وغد يوم القيامة»[٢].

والمعنى: ولتنظر ولتتأمل كل نفس الذي قدمته ليوم القيامة من الأعمال، وهل يصلح أن تلقى الله – عز وجل – به يوم العرض الأكبر على الله أو لا يصلح ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤٠]، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠] قبل ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٥٦ – ٥٨]. وقبل أن يقول الإنسان: ﴿يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ [الفجر: ٢٤].

قال ابن القيم[٣]: «فأمر سبحانه العبد أن ينظر ما قدم لغد، وذلك يتضمن محاسبة نفسه على ذلك، والنظر: هل يصلح ما قدمه أن يلقى الله به أو لا يصلح؟ والمقصود من هذا النظر: ما يوجبه ويقتضيه من كمال الاستعداد ليوم المعاد، وتقديم ما ينجيه من عذاب الله ويبيض وجهه عند الله. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا، وتزينوا للعرض الأكبر على من لا تخفى عليه أعمالكم ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]»[٤].

فوا أسفا على أعمار وأوقات تتصرم وتنقضي باللهو والغفلات، والانشغال بجمع حطام الدنيا الفاني، والاستمتاع بالملذات، دون الاستعداد لذلك اليوم وما فيه من الغبن والندامة والحسرات.

---

(١) راجع ما سبق في الكلام على قوله تعالى في سورة الحجرات ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله ﴾ [الآية: ١].

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٤٧.

(٣) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٢٦.

(٤) انظر «الحلية» لأبي نعيم ١/ ٥٢.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ تأكيد للأمر الأول بتقوى الله، يدل على أهمية تقوى الله وعظم شأنها فهي وصية الله للأولين والآخرين قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١] وبها الفلاح والنجاح والسعادة في الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ «الخبير» اسم من أسماء الله عز وجل على وزن «فعيل»، يدل على سعة خبرته عز وجل، ومعنى «الخبير» المطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها. واطلاعه عز وجل على ظواهر الأمور وجلائلها وجلياتها من باب أولى و«ما» موصولة أو مصدرية، أي: خبير بالذي تعملون، أو بعملكم أي: ذو خبرة وعلم بأعمالكم خيرها وشرها ولا يخفى عليه منها شيء.

وفي هذا وعد ووعيد، وعد لمن أطاع الله، ووعيد لمن خالفه، لأن مقتضى كونه – عز وجل – مطلعاً على أعمال العباد أن يحاسبهم ويجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، ولا يظلم ربك أحداً.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: ولا تكونوا أيها المؤمنون، كالذين نسوا الله وذكره والعمل بطاعته من أهل الكفر والمعاصي، ﴿فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: فأنساهم العمل الصالح لأنفسهم مجازاة لهم على نسيانهم له عز وجل ولذكره وطاعته، والجزاء من جنس العمل قال تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ١٧]، وقال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ [الأعراف: ٥١]، وقال تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ [السجدة: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الجاثية: ٣٤].

قال ابن القيم [١]: «فلما نسوا ربهم نسيهم وأنساهم أنفسهم، فعاقب من نسيه عقوبتين: إحداهما: أنه سبحانه نسيه، والثانية: أنه أنساه نفسه.

قال: ونسيانه سبحانه للعبد إهماله وتركه وتخليه عنه وإضاعته، فالهلاك أدنى إليه من اليد للفم. وأما إنساؤه نفسه، فهو إنساؤه لحظوظها العالية وأسباب سعادتها وفلاحها وصلاحها، وما تكمل به، بنسيه ذلك جميعه، فلا يخطر بباله، ولا يجعله على ذكره، ولا

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٢٦ – ٤٢٧.

يصرف إليه همته فيرغب فيه، فإنه لا يمر بباله حتى يقصده ويؤثره، وأيضا: فينسيه عيوب نفسه ونقصها وآفاتها، فلا يخطر بباله إزالتها. وأيضا ينسيه أمراض نفسه وقلبه وآلامها، فلا يخطر بقلبه مداواتها، ولا السعي في إزالة عللها وأمراضها التي تؤول به إلى الفساد والهلاك فهو مريض مثخن بالمرض، ومرضه مترام به إلى التلف، ولا يشعر بمرضه، ولا يخطر بباله مداواته، وهذا من أعظم العقوبة العامة والخاصة، فأي عقوبة أعظم من عقوبة من أهمل نفسه وضيعها ونسي مصالحها وداءها ودواءها، وأسباب سعادتها وفلاحها وصلاحها، وحياتها الأبدية في النعيم المقيم».

ويؤخذ من مفهوم الآية الأمر بذكر الله عز وجل وعدم نسيانه، قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٣].

قال ابن القيم [١] بعد ما ذكر ما يترتب على نسيان العبد نفسه من كون أمره فرطاً وضياع مصالحه وتعرضه للهلاك والخيبة والخسران قال: «ولا سبيل إلى الأمان من ذلك إلا بدوام ذكر الله تعالى، واللهج به، وأن لا يزال اللسان رطباً به، وأن يتولى منزلة حياته التي لا غنى عنها، ومنزلة غذائه الذي إذا فقده فسد جسمه وهلك، وبمنزلة الماء عند شدة العطش، وبمنزلة اللباس في الحر والبرد، وبمنزلة الكن في شدة الشتاء والسموم. فحقيق بالعبد أن ينزل ذكر الله منه بهذه المنزلة وأعظم، فأين هلاك الروح والقلب وفسادهما من هلاك البدن وفساده، هذا هلاك لابد منه، وقد يعقبه صلاح لا بد، وأما هلاك القلب والروح فهلاك لا يرجى معه صلاح ولا فلاح ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. لو لم يكن في فوائد الذكر وإدامته إلا هذه الفائدة وحدها لكفى بها، فمن نسي الله تعالى أنساه نفسه، ونسيه في العذاب يوم القيامة».

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

﴿أُولَئِكَ﴾ أي: الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم. وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيراً لشأنهم ﴿هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: هم الخارجون عن طاعة الله – عز وجل – المخالفون لأمره المرتكبون لنهيه.

وأكد الفسق فيهم بثلاثة مؤكدات: كون الجملة اسمية، معرفة الطرفين، مع ضمير

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٢٨ – ٤٢٩.

الفصل «هم».

وبقدر ما يغفل الإنسان عن ذكر الله - عز وجل - يكون نصيبه من هذا الوصف المشين.

﴿لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ «لا» نافية أي: لا يستوي أصحاب النار وساكنوها وملازموها وهم الكافرون والفاسقون، وأصحاب الجنة وهم ساكنوها وملازموها من المؤمنين المتقين، أي: لا يستوي هؤلاء وهؤلاء عند الله وفي حكمه، وفيما أعده لكل منهم، وفي حال كل منهم من حيث السعادة والشقاوة والربح والخسران ولهذا قال:

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ أي: هم الفائزون بالأجر والثواب والناجون من العقوبة والعذاب. وأكد الفوز فيهم بكون الجملة اسمية معرّفة الطرفين مع ضمير الفصل «هم».

فتأمل ـ أخي الكريم ـ في قوله ﴿لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ فمن الذي نفى التساوي بين هؤلاء وهؤلاء؟ هو العليم الحكيم العلي العظيم سبحانه.

قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ١٨ ـ ٢١].

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]، وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾ [غافر: ٥٨].

فشتان ما بين الفريقين:

شتان بين الحالتين فإن ترد   جمعاً فما الضدان يجتمعان[١].

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾

«لو» شرطية غير عاملة و«أنزلنا» فعل الشرط، وجوابه ﴿لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ وهي: حرف امتناع لامتناع، أي: امتنع رؤيتك خشوع الجبل خشوع عبادة وتكليف وتصدعه من خشية الله لعدم إنزال القرآن عليه، وإلا فجميع المخلوقات من الجمادات والحيوانات ناطقها وبهيمها كلها خاضعة منقادة لله – عز وجل – كما قال عز وجل: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

والإنزال يكون من أعلى إلى أسفل، فيدل قوله ﴿أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ على علو الله عز وجل على خلقه، كما يدل على أن القرآن الكريم منزل غير مخلوق – كما هو معتقد أهل السنة والجماعة، خلافاً للمعتزلة القائلين بخلق القرآن.

وقد امتحن بسبب هذا القول إمام أهل السنة أحمد بن حنبل رحمه الله وغيره من العلماء فصبر رحمه الله وتصدى لهذه الفتنة وفندها، ولهذا قال علي بن المديني: «أعز الله الإسلام برجلين أبو بكر يوم الردة، وابن حنبل يوم المحنة» أي: يوم المحنة بالقول بخلق القرآن.

﴿لَّرَأَيْتَهُۥ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له ﴿خَٰشِعًا﴾ أي: ذليلاً خاضعاً ﴿مُّتَصَدِّعًا﴾ أي: متشققاً، ﴿مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ أي: من الخوف الشديد من الله – عز وجل – كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤].

والخشية: أشد الخوف، فهي أخص منه، ولهذا قالوا: الخشية لا تكون إلا مع عظم المخشي، وعلم الخاشي، لقوله ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

والمراد: بيان أن الجبل على ما هو عليه من الشدة والصلابة والقساوة وعظم الخلقة لو أنزل القرآن عليه وسمعه وفهم ما فيه من دلائل عظمة الله ـ عز وجل ـ والأحكام العظيمة، والمواعظ البليغة، والوعد والوعيد، والترغيب والترهيب والثواب والعقاب وغير ذلك؛ لخشع

---

(١) البيت لابن القيم ضمن القصيدة النونية انظر ص١١.

الله وخوفه، فكيف لا تخشع ولا تلين ولا تتصدع قلوب كثير من الناس وقد أنزل القرآن عليهم وسمعوه وفهموه فصارت قلوب كثير من الناس أقسى من الجبال قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الرعد: ٣١] أي: لكان هذا القرآن. ولهذا أبت السموات والأرض والجبال مع عظمها حمل الأمانة كما قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

فسبحان من جعل الجبال لو أنزل عليها القرآن تخشع وتخضع وتلين وهي من الحجارة مع شدتها وصلابتها [١] بينما تقسو قلوب كثير من الناس فلا تتأثر بالقرآن ولا تخضع، ولا تلين، كما قال عز وجل: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾

الإشارة للأمثال التي يضربها الله عز وجل في القرآن كما في قوله تعالى قبل هذا ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الآية: ٢١].

والأمثال: جمع مَثَل، وهو تشبيه الشيء المعنوي بالشيء الحسي لإيضاح الأمر المعنوي وتقريبه في الأذهان، وهذا كثير في القرآن الكريم كما في قوله تعالى في تشبيه الإيمان في قلب المؤمن ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

وقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ

---

(١) ومن هذا حنين الجذع إليه ﷺ كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كان النبي ﷺ يخطب إلى جذع، فلما اتخذ المنبر تحوّل إليه، فحنَّ الجذع، فأتاه فمسح يده عليه» أخرجه البخاري في المناقب ٣٥٨٣، وأخرجه بمعناه من حديث جابر رضي الله عنه ٣٥٨٤، ٣٥٨٥.

سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١].

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ «لعل» للتعليل، أي: لأجل أن يتفكروا. والتفكر: استعمال الفكر والعقل الذي منحه الله للإنسان وميزه به عن الحيوان، والتأمل في آيات الله – عز وجل – الكونية والشرعية، وفيما فيه سعادة الإنسان في دينه ودنياه وآخرته.

الفوائد والعبر:

١ ـ تصدير خطاب المؤمنين بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام، وندائهم بوصف الإيمان تكريماً وتشريفاً لهم وحثاً على الاتصاف بهذا الوصف وامتثال ما بعده من أمر، والكف عما بعده من نهي وأن ذلك من مقتضيات الإيمان.

٢ ـ وجوب تقوى الله، والاستعداد ليوم القيامة، وتأكيد وجوب ذلك.

٣ ـ إثبات اسم الله ـ عز وجل ـ «الخبير» وكمال خبرته ـ عز وجل ـ وعلمه بأعمال العباد، وفي هذا وعد ووعيد.

٤ ـ تحذير المؤمنين ونهيهم أن يكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم والعمل لخلاصها وسعادتها وأولئك هم الفاسقون الخارجون عن طاعة الله ـ تعالى ـ.

٥ ـ إثبات الفرق الشاسع والبون الواسع بين أصحاب النار، وأصحاب الجنة فهؤلاء هم الفائزون بالنعيم والخير العميم، وأولئك في دركات الجحيم.

٦ ـ إثبات علو الله ـ عز وجل على خلقه ـ بذاته وصفاته.

٧ ـ أن القرآن الكريم منزل من عند الله ـ عز وجل ـ غير مخلوق ـ كما هو مذهب أهل السنة والجماعة. وفي هذا رد على المعتزلة ونحوهم.

٨ ـ الإشارة لقساوة قلوب الفاسقين الكافرين التي لم تلن ولم تخشع لذكر الله ـ عز وجل ـ وكلامه وأنها أشد قسوة من الجبال التي لو أنزل عليها هذا القرآن لخشعت وتصدعت من خشية الله.

٩ ـ وجوب الخشوع لله ـ عز وجل ـ والذل والخضوع له والخوف منه.

١٠ ـ ضرب الأمثال للناس لأجل أن يتفكروا في آيات الله ـ عز وجل ـ ويتعظوا بها.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾

قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾ تكلم عز وجل عن نفسه بضمير الغيبة تعظيماً لنفسه لأنه هو العظيم.

﴿ٱللَّهُ﴾ أي: المألوه المعبود بحق محبة وتعظيماً، وهو علم على ذات الرب - عز وجل - وهو أصل الأعلام، وتأتي أسماء الله عز وجل تابعة له، وقد يأتي تابعاً كما في قوله ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ [إبراهيم: ١، ٢]. فـ«الله» تابع للاسم الذي قبله، لكنه هنا لا يعرب صفة، وإنما يعرب بدلاً، أو عطف بيان.

﴿ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ﴾ أي: الذي لا معبود بحق سواه، ولا رب غيره، فقوله ﴿لَآ إِلَٰهَ ﴾ نفي للعبادة عما سواه، وقوله: ﴿إِلَّا هُوَ ۖ﴾ إثبات العبادة له وحده عز وجل، وهذا معنى كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» نفي وإثبات، نفي العبادة عما سواه سبحانه، وإثبات العبادة له وحده. فلا رب غيره، ولا إله للوجود سواه، وكل ما يعبد من دونه فباطل.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ﴾ الغيب: السر وما غاب عن الخلق، والشهادة: العلانية وما يشاهده الخلق.

قال تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقدّم الغيب على الشهادة في قوله ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ﴾ إشارة أن الغيب والشهادة عنده سواء كما قال عز وجل ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠].

﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ «الرحمن» و«الرحيم» اسمان من أسماء الله عز وجل الأول على وزن «فعلان» والثاني على وزن «فعيل»، و«فعلان» أبلغ من «فعيل» ولهذا قدم «الرحمن» على «الرحيم» هنا، وفي البسملة والفاتحة.

ويدل كل من «الرحمن» و«الرحيم» في حال انفراد كل منهما عن الآخر على إثبات صفة الرحمة الواسعة لله عز وجل رحمة ذاتية ثابتة له - عز وجل - ورحمة فعلية يوصلها إلى من شاء من خلقه، كما قال عز وجل: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ﴾ [العنكبوت: ٢١].

رحمة عامة لجميع الخلق ورحمة خاصة بالمؤمنين. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]، [الحج: ٦٥] والناس عام للمؤمنين وغيرهم.

قال ابن كثير [١] في كلامه على قوله ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾: «والمراد أنه ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات، فهو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما».

وفي حال اجتماع «الرحمن» مع «الرحيم» كما في هذه الآية يؤخذ من «الرحمن» إثبات صفة الرحمة الذاتية الثابتة لله – عز وجل – ويؤخذ من «الرحيم» إثبات صفة الرحمة الفعلية التي يوصلها – سبحانه – إلى من شاء من خلقه، كما يؤخذ من «الرحمن» إثبات صفة الرحمة العامة لجميع الخلق، ويؤخذ من «الرحيم» إثبات صفة الرحمة الخاصة بالمؤمنين – كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

و«الرحمن» لا يسمى به غير الله، وهو ثاني اسم من أسماء الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ [الإسراء: ١١].

أما «الرحيم» فيجوز أن يسمى ويوصف به غير الله، كما قال تعالى في وصف نبيه محمد ﷺ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تأكيد لما سبق، وتوطئة وتمهيد لما بعده.

﴿ٱلْمَلِكُ﴾ أي: مالك الكون كله المتصرف فيه، قال تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ [طه: ١١٤، المؤمنون: ١١٦]، وقال عز وجل: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾ المطهر، المعظم الممجد. كما قال عز وجل في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري» [٢].

﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ كما في الحديث «اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام» [٣]. فهو السلام: الذي لا يعتريه نقص ولا عيب، الكامل في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، ومنه عز وجل السلام، فهو عز وجل المسلم عباده من الآفات والشرور، والذي يَسْلَمُ

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٠٥.

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٦٢٠، وأبو داود في اللباس ٤٠٩٠، وابن ماجه في الزهد ٤١٧٤، وأحمد ٢/ ٣٧٦.

(٣) أخرجه مسلم في المساجد ٥٩١، وأبو داود في الصلاة ١٥١٢، والترمذي في الصلاة ٣٠٠، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٩٢٨ – من حديث ثوبان – رضي الله عنه.

خلقه من أن يظلمهم كما قال عز وجل: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

﴿ٱلۡمُؤۡمِنُ﴾ روى الضحاك عن ابن عباس – رضي الله عنهما -: «أمَّن خلقه من أن يظلمهم[١]» واختاره الطبري[٢].

وقال ابن زيد: «صدَّق عباده المؤمنين في إيمانهم به»[٣].

وقال السعدي[٤]: «المصدق لأنبيائه ورسله بما جاؤوا به بالآيات البينات والبراهين القاطعات، والحجج الواضحات».

﴿ٱلۡمُهَيۡمِنُ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة «المهيمن: الشهيد»[٥]. فيكون كقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [البروج: ٩]، وقوله: ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ﴾ [الرعد: ٣٣].

وقيل ﴿ٱلۡمُهَيۡمِنُ﴾: الأمين، وقيل: المصدق، وقيل: الرقيب والحفيظ.

﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي له العزة التامة كما قال عز وجل: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ﴾ [الصافات: ١٨٠] فهو – عز وجل – صاحب العزة التامة، بأنواعها: عزة القوة، وعزة الغلبة، وعزة الامتناع[٦].

﴿ٱلۡجَبَّارُ﴾ الذي جبر وقهر خلقه على ما يشاء، وأذعن له سائر الخلق، والذي يجبر الكسير والمصاب ويغني الفقير.

﴿ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ﴾ ذو الكبرياء والعظمة كما قال تعالى في الحديث القدسي: «العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحداً منها عذبته»[٧].

﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ أي: تنزه الله ـ عز وجل ـ وتقدس وتعالى عما يشركون معه من الشركاء.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ﴾

أي: الذي خلق الخلق، وأصل الخلق: الإبداع والتقدير، فالخالق المبدع المقدر لما يوجده.

قال ابن تيمية[٨]: «الخلق هو الإبداع بتقدير، فتضمن تقديرها في العلم قبل تكوينها».

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١٠٥.

(٢) انظر «جامع البيان» ٢٢/ ٥٥٢.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٥٢.

(٤) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٣٤٥.

(٥) أخرجه عنهم الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٥٣.

(٦) راجع الكلام على قوله ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ [الآية: ١ من سورة الحديد].

(٧) سبق تخريجه.

(٨) في «مجموع الفتاوى» ١٦/ ٦٠.

وقال حافظ الحكمي [(١)]: «الخالق: المقدر والمقلب للشيء بالتدبير إلى غيره».

﴿ٱلۡبَارِئُ﴾ أي: الذي برأ الخلق. ﴿ٱلۡمُصَوِّرُ﴾ الممثل والمشكل للصور على ما يريد.

قال الزمخشري [(٢)]: «(الخالق): المقدر لما يوجده (البارئ) المميز بعضه من بعض بالأشكال المختلفة ﴿ٱلۡمُصَوِّرُ﴾ الممثل».

وقال القرطبي[(٣)]: «البارئ»: المنشئ المخترع، و«المصور» مصور الصور ومركبها على هيئات مختلفة، فالتصوير مرتب على الخلق والبراية وتابع لهما، ومعنى التصوير: التخطيط والتشكيل وخلق الله الإنسان في أرحام الأمهات ثلاث خِلَق: جعله علقة، ثم مضغة، ثم جعله صورة وهو التشكيل الذي يكون به صورة وهيئة يعرف بها ويتميز عن غيره بسمتها».

فخلق، أي: قدر، ثم برأ، أي: أنشأ واخترع، ثم صور، أي: جعل التخطيط والشكل المناسب.

قال ابن كثير [(٤)]: «الخلق: التقدير، والبراء: هو الفري، وهو: التنفيذ وإبراز ما قدره وقرره إلى الوجود، وليس كل من قدّر شيئاً ورتبه يقدر على تنفيذه وإيجاده سوى الله عز وجل. قال الشاعر يمدح آخر:

ولأنت تفري ما خلقت وبعـ ... ـض القوم يخلق ثم لا يفري[(٥)]

أي: أنت تنفذ ما خلقت، أي: ما قدّرت، بخلاف غيرك فإنه لا يستطيع ما يريد. فالخلق: التقدير، والفري: التنفيذ. ومنه يقال: قدّر الجلاّد ثم فَرَى، أي: قطع على ما قدره بحسب ما يريده.

وقوله: ﴿ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُ﴾ أي: الذي إذا أراد شيئا قال له: كن فيكون على الصفة التي يريد، والصورة التي يختار، كقوله: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٨] ولهذا قال «المصور» أي الذي ينفذ ما يريد إيجاده على الصفة التي يريدها».

﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ أي: له عز وجل – الأسماء الحسنى من كل وجه ألفاظها ومعانيها ودلالاتها وآثارها وحقائقها وغير ذلك، التي لا يحصيها ولا يعلمها أحد إلا هو.

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن رسول الله ﷺ قال: «إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر»[(٦)]. متفق عليه.

---

(١) في «معارج القبول» ١/ ١٣١.

(٢) في «الكشاف» ٤/ ٨٥.

(٣) في «الجامع لأحكام القرآن» ١٨/ ٤٨.

(٤) في «تفسيره» ٨/ ١٠٦.

(٥) هذا البيت لزهير بن أبي سلمى. انظر «ديوانه» ص٩٤.

(٦) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٤١٠، ومسلم في الذكر والدعاء ٢٦٧٧، والترمذي في الدعوات ٣٥٠٦، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٦٠.

وزاد الترمذي وابن ماجه: «هو الله الذي لا إله إلا هو، الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الشهيد، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المحصي، المبدئ، المعيد، المحيي، المميت، الحي، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالي، المتعالي، البر، التواب، المنتقم، العفو، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغني، المغني، المانع، الضار، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور» هذا لفظ الترمذي [(١)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية [(٢)]: «تعيينها ليس من كلام الرسول ﷺ باتفاق أهل العلم بحديثه».

وقال ابن كثير [(٣)]: «والذي عول عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج فيه وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعاني، عن زهير بن محمد: أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك، أي: أنهم جمعوها من القرآن، كما ورد عن جعفر بن محمد وسفيان بن عيينة وأبي زيد اللغوي، والله أعلم».

ثم قال ابن كثير: «ثم ليعلم أن الأسماء الحسنى ليست منحصرة في التسعة والتسعين بدليل ما رواه أحمد ... عن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – عن رسول الله ﷺ – أنه قال: «ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك، ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك ماضٍ فيّ حكمك، عدل فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أعلمته أحداً من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله همه وحزنه، وأبدله مكانه فرحاً، فقيل: يا رسول الله، أفلا نتعلمها؟ فقال: بلى، ينبغي لكل من سمعها أن يتعلمها» [(٤)].

قال ابن كثير: «وذكر الفقيه الإمام أبو بكر بن العربي أحد أئمة المالكية في كتابه «عارضة الأحوذي

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٥٠٧، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٦١، وقال الترمذي: «هذا حديث غريب.. وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة، ولا نعلم في كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث».

(٢) في «مجموع الفتاوى» ٦/ ٣٨٢.

(٣) في «تفسيره» ٥/ ٥١٦ ـ ٥١٧.

(٤) أخرجه أحمد ١/ ٣٩١، والحاكم ١/ ٥٠٩ – ٥١٠، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٠/ ١٣٦ وقال: «رواه أحمد وأبو يعلى والبزار ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح، غير أبي سلمة الجهني، وقد وثقه ابن حبان».

في شرح الترمذي» أن بعضهم جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله ألف اسم - فالله أعلم».

وقد ذكر شيخنا الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله في كتابه «القواعد المثلى» أنه جمع تسعة وتسعين اسماً مما ظهر له من كتاب الله - تعالى - وسنة رسوله - ﷺ. قال: «فمن كتاب الله: الله، الأحد، الأعلى، الأكرم، الإله، الأول، الآخر، والظاهر، والباطن، البارئ، البر، البصير، التواب، الجبار، الحافظ الحسيب، الحفيظ، الحفي، الحق، المبين، الحكيم، الحليم، الحميد، الحي، القيوم، الخبير، الخالق، الخلاق، الرؤوف، الرحمن، الرحيم، الرزاق، الرقيب، السلام، السميع، الشاكر، الشكور، الشهيد، الصمد، العالم، العزيز، العظيم، العفو، العليم، العلي، الغفار، الغفور، الغني، الفتاح، القادر، القاهر، القدوس، القدير، القريب، القوي، القهار، الكبير، الكريم، اللطيف، المؤمن، المتعالي، المتكبر، المتين، المجيب، المجيد، المحيط، المصور، المقتدر، المقيت، الملك، المليك، المولى، المهيمن، النصير، الواحد، الوارث، الواسع، الودود، الوكيل، الولي، الوهاب.

ومن سنة رسول الله ﷺ: الجميل، الجواد، الحكم، الحيي، الرب، الرفيق، السبوح، السيد، الشافي، الطيب، القابض، الباسط، المقدم، المؤخر، المحسن، المعطي، المنان، الوتر».

قال الشيخ: هذا ما اخترناه بالتتبع واحد وثمانون اسماً في كتاب الله تعالى وثمانية عشر اسماً في سنة رسول الله - ﷺ - وإن كان عندنا تردد في إدخال «الحفي» لأنه إنما ورد مقيداً في قوله - تعالى - عن إبراهيم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧]، وكذلك «المحسن» لأننا لم نطلع على رواته في الطبراني، وقد ذكره شيخ الإسلام من الأسماء.

قال: ومن أسماء الله تعالى ما يكون مضافاً مثل: مالك الملك، ذي الجلال والإكرام»[١].

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: يسبح له جميع الذي في السموات والأرض، من المخلوقات، من الملائكة والإنس والجن والحيوانات والنبات والجماد، وسائر المخلوقات، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤][٢].

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ وهو عز وجل ذو العزة التامة، والحكم النافذ والحكمة البالغة. والحكيم مشتق من الحكم ومن الحكمة، فله عز وجل الحكم بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وله الحكمة بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية[٣].

عن معقل بن يسار - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: « من قال حين يصبح ثلاث مرات: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم قرأ ثلاث آيات من آخر سورة

---

(١) انظر «القواعد المثلى» ص١٥ - ١٦.

(٢) انظر ما سبق في الكلام على مطلع سورة الحديد.

(٣) انظر ما سبق في الكلام على قوله ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ [الآية ١ من سورة الحديد].

الحشر وكل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسي، وإن مات في ذلك اليوم مات شهيداً، ومن قالها حين يمسي كان بتلك المنزلة»[1].

الفوائد والعبر:

١ ـ تعظيم الله ـ عز وجل ـ لنفسه بذكر أسمائه الحسنى الدالة على صفاته العليا.

٢ ـ إثبات اسمه ـ عز وجل ـ الأعظم «الله» وأنه عز وجل المعبود الذي لا معبود بحق سواه.

٣ ـ علم الله الواسع المحيط بكل شيء مما يُسر ويظهر، ومما غاب عن الخلق ومما يشاهد.

٤ ـ إثبات اسميه عز وجل «الرحمن» و «الرحيم» وما يدلان عليه من صفة الرحمة الواسعة له ـ عز وجل ـ رحمة ذاتية ورحمة فعلية، رحمة عامة ورحمة خاصة.

٥ ـ أن «الرحمن» أبلغ وأخص من «الرحيم» لهذا قدم عليه.

٦ ـ تأكيد ألوهيته عز وجل ـ وأنه لا معبود بحق سواه.

٧ ـ إثبات اسميه ـ عز وجل ـ «الملك» و «القدوس» وسعة ملكه وتمام تصرفه وعظمته.

٨ ـ إثبات اسميه ـ عز وجل ـ «السلام» و «المؤمن» وما يدلان عليه من الصفة، فهو السلام الذي لا يعتريه نقص ولا عيب والمسلم عباده من الآفات والمؤمن الذي لا يظلم أحد عنده، المصدق لأنبيائه ورسله وعباده في إيمانهم.

٩ ـ إثبات أسمائه ـ عز وجل ـ «المهيمن» و «العزيز» و «الجبار» و «المتكبر»، وما يؤخذ منها من إثبات هيمنته عز وجل وشهادته على الخلق ورقابته عليهم وحفظه لهم، وأنه عز وجل ذو العزة التامة بأنواعها عزة القوة، وعزة القهر والغلبة وعزة الامتناع، والجبار الذي أذعن له سائر الخلق والذي يجبر المصاب ذو الكبرياء والعظمة.

١٠ ـ تنزيه الله ـ عز وجل ـ لنفسه عن الشريك، وأمره العباد بذلك.

١١ ـ إثبات أسمائه ـ عز وجل ـ «الخالق» و «البارئ» و «المصور» وما يؤخذ منها من إثبات صفة الخلق والتقدير والبرء، والتصوير ـ له عز وجل لجميع المخلوقات على أحسن الخلق وأجمل الصفات.

١٢ ـ إثبات أن لله ـ عز وجل ـ الأسماء الحسنى كلها بلا حصر.

١٣ ـ تسبيح جميع ما في السموات والأرض لله ـ عز وجل.

١٤ ـ تأكيد تسميته عز وجل ـ بالعزيز وتأكيد عزته وقوته وقهره وامتناعه.

١٥ ـ إثبات اسم الله «الحكيم» وما يؤخذ منه من إثبات صفة الحكم التام له عز وجل بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني والشرعي والجزائي والحكمة بقسميها: الحكمة الغائية والحكمة الصورية.

---

(١) اخرجه أحمد ٥/ ٢٦، والترمذي في «فضائل القرآن» ٢٩٢٢. وقال الترمذي: «حديث غريب».

تفسير سورة الممتحنة

سبب النزول

لما نقض أهل مكة العهد الذي بينهم وبين الرسول ﷺ أمر النبي ﷺ بالتجهز لغزوهم، وسأل الله - عز وجل - أن يعمي عليهم خبره، لكن حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه كتب إليهم كتاباً يخبرهم فيه بعزم رسول الله - ﷺ - على غزوهم ليتخذ بذلك عندهم يداً يحمون بها قرابته، فأنزل الله هذه السورة [(١)].

فعن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال: «بعثني رسول الله - ﷺ - أنا والزبير والمقداد، فقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ[(٢)] فإن بها ظعينة[(٣)] معها كتاب فخذوه منها»، فانطلقنا تعادى[(٤)] بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة قلنا: أخرجي الكتاب. قالت: ما معي كتاب، قلنا لتُخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب. قال: فأخرجت الكتاب من عقاصها[(٥)] فأخذنا الكتاب، فأتينا به رسول الله - ﷺ - فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين بمكة، يخبرهم ببعض أمر رسول الله - ﷺ - فقال رسول الله - ﷺ -: «يا حاطب، ما هذا؟». قال: لا تعجل عليّ، إني كنت امرأ ملصقاً في قريش، ولم أكن من أنفسهم، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم بمكة، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني، ولا رضى بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله - ﷺ -: «إنه صدقكم» فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال: «إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم» ونزلت فيه السورة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾»[(٦)].

---

(١) انظر «جامع البيان» ٢٢/ ٥٥٩، «السيرة النبوية» لابن هشام ٤/ ٣٩، «البداية والنهاية» ٦/ ٥١٠، «تفسير ابن كثير» ٨/ ١٠٨.

(٢) روضة خاخ على اثني عشر ميلا من المدينة.

(٣) أي: امرأة.

(٤) أي: تتسابق.

(٥) أي: من ذوائبها المضفورة.

(٦) أخرجه البخاري في المغازي - فضل من شهد بدراً ٤٢٧٤، ومسلم في فضائل الصحابة - فضائل أهل بدر رضي الله عنهم، وقصة حاطب بن أبي بلتعة ٢٤٩٤، وأبو داود في الجهاد ٢٦٥٠، والترمذي في تفسير سورة الممتحنة ٣٣٠٥، وأحمد ١/ ٧٩ - ٨٠.

وفي رواية عن علي رضي الله عنه قال: «بعثني رسول الله - ﷺ - وأبا مرثد والزبير ابن العوام، وكلنا فارس. وقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها امرأة من المشركين معها كتاب من حاطب إلى المشركين» فأدركناها تسير على بعير لها حيث قال رسول الله - ﷺ - فقلنا: الكتاب؟ فقالت: ما معي كتاب. فأنخناها فالتمسنا، فلم نر كتاباً، فقلنا: ما كذب رسول الله - ﷺ - لتخرجن الكتاب أو لنجردنك. فلما رأت الجد أهوت إلى حجزتها [(١)] وهي محتجزة بكساء فأخرجته. فانطلقنا به إلى رسول الله - ﷺ - فقال عمر: يا رسول الله قد خان الله ورسوله والمؤمنين، فدعني فلأضرب عنقه. فقال: «ما حملك على ما صنعت؟» قال: والله ما بي إلا أن أكون مؤمنا بالله ورسوله أردت أن تكون لي يد يدفع الله بها عن أهلي ومالي، وليس أحد من أصحابك إلا له هنالك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله، فقال: «صدق لا تقولوا له إلا خيراً» فقال عمر: إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين، فدعني، فلأضرب عنقه، فقال: «أليس من أهل بدر؟، فقال: لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة، أو قد غفرت لكم». فدمعت عينا عمر، وقال: الله ورسوله أعلم»[(٢)].

وفي رواية: «فأنزل الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ الآية»[(٣)].

وفي رواية: «فأنزل الله - عز وجل - في حاطب: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ إلى قوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ إلى آخر القصة»[(٤)].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ

(١) الحجزة: معقد الإزار.
(٢) أخرجه البخاري في المغازي - فضل من شهد بدراً ٣٩٨٣.
(٣) أخرجها الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٦٠ - ٥٦١.
(٤) انظر «السيرة النبوية» ٢/ ٣٩٨ - ٣٩٩، «جامع البيان» ٢٢/ ٥٦٢ - ٥٦٣.

مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝ إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ ۝ لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ۝﴾

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ صدر الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام، ونادى المؤمنين بوصف الإيمان تشريفاً وتكريماً لهم وحثا على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال الطلب بعده وهو عدم موالاة الكافرين يعد من مقتضيات الإيمان، وأن عدم امتثاله يعد نقصاً في الإيمان.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فأرعها سمعك فهو خير يأمر به، أو شر ينهى عنه»[1].

﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ «لا» ناهية، والنهي هنا يفيد التحريم، أي: لا تجعلوا ﴿عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ﴾ وهم الكفار ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ أي: أولياء لكم وأنصاراً.

ويؤخذ من الآية أن الكفار كما هم أعداء الله – عز وجل – هم أيضاً أعداء للمؤمنين فلا يمكن لمن كان عدواً لله – عز وجل – أن يكون وليا حقاً للمؤمنين صادقاً في موالاته لهم – وإن زعم ذلك – فعدو الله عدو لأولياء الله، وولي الله ولي لأولياء الله.

قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤]، وقال تعالى: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٧].

وفي هذه الآيات أشد التهديد والوعيد وأعظم الزجر عن موالاة الكافرين.

وعن ربعي بن خراش قال: سمعت حذيفة بن اليمان – رضي الله عنه – يقول: «ضرب لنا رسول الله – ﷺ – أمثالاً: واحداً، وثلاثة، وخمسة، وسبعة، وتسعة، وأحد

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٣/ ٩٠٢ – الأثر ٥٠٢٧.

عشر. قال: فضرب لنا مثلاً منها وترك سائرها، قال: «إن قوماً كانوا أهل ضعف ومسكنة قاتلهم أهل تجبر وعداء فأظهر الله أهل الضعف عليهم، فعمدوا إلى عدوهم فاستعملوهم وسلطوهم، فأسخطوا الله عليهم إلى يوم القيامة»[1].

﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ أي: توادونهم، وتفعلون معهم وتقولون لهم ما يوحي بمودتكم لهم، وهذا كقوله بعد ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ .

﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ الواو: للحال، و«قد» للتحقيق. أي: والحال أنهم قد كفروا بالذي جاءكم من الحق من عند الله على لسان رسوله - ﷺ - من القرآن والسنة، أي: جحدوه وأنكروه، ولم يؤمنوا به.

﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ الجملة مستأنفة كالتفسير لكفرهم، أو حال من كفروا، أي: أنهم أخرجوا الرسول - ﷺ - وإياكم أيها المؤمنون فاضطروكم إلى الخروج والهجرة من مكة إلى المدينة، وما زالوا يخرجون من آمن ولهذا قال ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ ولم يقل: أخرجوا الرسول وإياكم، إشارة إلى استمرارهم على أذية من آمن واضطراره إلى الخروج والهجرة.

﴿أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ أي: بسبب إيمانكم بالله ربكم، أي: لا سبب لإخراجكم سوى إيمانكم بالله رب العالمين، كقوله عز وجل: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البروج: ٨، ٩]، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠].

قال ابن كثير [2]: «وقوله: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾: هذا مع ما قبله من التهييج على عداوتهم وعدم موالاتهم لأنهم أخرجوا الرسول وأصحابه من بين أظهرهم، كراهة لما هم عليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده».

﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى﴾ ﴿جِهَٰدًا﴾ مفعول لأجله.

أي: إن كنتم خرجتم وهاجرتم لأجل الجهاد في سبيلي. والجهاد: بذل الجهد والطاقة والوسع في قتال الكفار، وفي طاعة الله - عز وجل -.

﴿فِى سَبِيلِى﴾ أي: لإعلاء كلمتي ونصر ديني. كما قال ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٤٠٧.
(٢) في «تفسيره» ٨/ ١١٢.

هي العليا فهو في سبيل الله - عز وجل -»[1].

﴿وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ﴾ أي: طلباً لمرضاتي عنكم.

والمعنى: إن كنتم خرجتم من مكة لأجل الجهاد في سبيلي وطلباً لرضائي، صادقين في ذلك فلا تتخذوهم أولياء.

﴿تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾ أي: فكيف تسرون إليهم بالمودة؟ أو فلم تسرون إليهم بالمودة.

﴿وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ﴾ الواو: حالية و«ما» في الموضعين موصولة، أو مصدرية، أي: والحال أني أنا أعلم بالذي أخفيتم والذي أعلنتم، أو بإخفائكم وإعلانكم، أي: أعلم بالذي تسرون به وتضمرونه، والذي تجهرون به وتعلنونه، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ [النحل: ١٩]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ [البقرة: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِۖ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ﴾ [الأنعام: ٣]، وقال تعالى: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الملك: ١٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ﴾ [الأعلى: ٧].

ومن علمه - عز وجل - بما أخفي وما أعلن - علمه بما فعل حاطب - رضي الله عنه.

﴿وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ الواو: استئنافية و«من» شرطية و«يفعله» فعل الشرط وجوابه قوله ﴿فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وقرن بالفاء لاتصاله بـ«قد».

والضمير في قوله ﴿يَفۡعَلۡهُ﴾ يعود إلى المفهوم من النهي السابق من اتخاذ الكافرين أولياء والإلقاء إليهم بالمودة والإسرار لهم بها.

﴿فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: فقد تاه وبعد عن وسط الطريق، أي: عن الطريق العدل، والطريق السوي، وأخطأ طريق الحق والصواب. قال تعالى: ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ [طه: ١٣٥].

﴿إِن يَثۡقَفُوكُمۡ﴾ أي: إن قدروا عليكم وتمكنوا منكم وظفروا بكم ﴿يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ﴾ أي: تظهر لكم عداوتهم الشديدة.

﴿وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم﴾ أي: ويمدوا إليكم أيديهم بالبطش، وألسنتهم بالقول.

---

(١) أخرجه البخاري في العلم ١٢٣، ومسلم في الإمارة ١٩٠٤، وأبو داود في الجهاد ٢٥١٧، والنسائي في الجهاد ٣١٣٦، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٤٦، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٨٣ - من حديث أبي موسى - رضي الله عنه.

﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾ أي: بما يسوؤكم ويؤذيكم وينال منكم من الفعل السيء والقول السيء. أي: فلو أتيحت لهم فرصة لما ادخروا وسعاً في أذيتكم بالفعل والقول.

﴿وَوَدُّواْ﴾ أي: تمنوا وأحبوا ﴿لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: ودوا وتمنوا وأحبوا كفركم، أو أن تكفروا، فهم لا يحبون أن يحصل المؤمنون على أي خير. ويؤخذ من الآية أن الشيطان وجنده وأعوانه من شياطين الإنس والجن لا يرضيهم ولا يقنعهم ولا يكفيهم إلا أن يردوا المسلمين عن دينهم - كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨]، وقال تعالى في أهل الكتاب: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وقال تعالى في أتباع الشهوات: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

﴿لَن تَنفَعَكُمْ﴾ أي: لن تغني عنكم ولن تدفع عنكم ﴿أَرْحَامُكُمْ﴾ أي: قراباتكم عموماً ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾ خصوصاً - فهو من عطف الخاص على العام.

والأرحام: جمع رحم، وهي في الأصل موضع تكوّن الجنين، والمراد بهم هنا القرابة، وسمي القرابة أرحاماً لأنهم خرجوا من رحم واحد، أو لأنهم يتراحمون فيما بينهم.

والأولاد: جمع ولد، يشمل الذكر والأنثى من أولاد الإنسان وأولاد بنيه وإن نزلوا بمحض الذكور، وهم ذريته.

﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ قرأ عاصم ويعقوب بفتح الياء وكسر الصاد مخففة، (يَفْصِلُ) وقرأ حمزة والكسائي وخلف بضم الياء وفتح الفاء وكسر الصاد مشددة (يُفَصِّلُ) وقرأ الباقون بضم الياء وإسكان الفاء وفتح الصاد مخففة (يُفْصَلُ). وسمي يوم القيامة بهذا الاسم لقيام الناس فيه من قبورهم كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]، ولقيام الأشهاد فيه لقوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١]، ولقيام الروح والملائكة فيه صفاً كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾[النبأ: ٣٨]، ولقيام الحساب والعدل الحقيقي فيه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١)، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

ومعنى ﴿يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ أي: يمايز ويفرّق بينكم، فلا أحد ينفع أو يغني عن أحد، ولا

أحد ينتصر أو يدفع عن أحد عذاب الله - عز وجل - كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ﴾ [الدخان: ٤١، ٤٢]، وقال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ [الصافات: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

ففي ذلك اليوم لا أحد ينفع أحداً ولا أحد ينتصر لأحد بخلاف ما كان عليه الحال في الدنيا حيث يقول قائلهم:

أخاك أخاك إن من لا أخا له كساع إلى الهيجا بدون سلاح[(١)]

وقد يحتمل أن معنى قوله: ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ أي: يحكم بينكم بإعطاء كل منكم حقه من الآخر، ولو كان أقرب الناس إليه كأمه وأبيه وصاحبته وبنيه. ولا مانع من حمل الآية على المعنيين.

ويؤخذ من ذلك أنه لا يجوز أن يواد الإنسان أو يوالي الكفار لأجل كونهم من قرابته، أو أولاده، فإنهم لا ينفعونه يوم القيامة، بل تعود عليه موالاتهم بالضرر يوم القيامة. وفي حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه، وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس»[(٢)].

ولو كان أحد يملك لقرابته في ذلك اليوم نفعاً أو دفعاً لكان أولى الناس بذلك سيد الخلق نبينا محمد ﷺ فأمه وأبوه في النار.

فعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ، قال: يا رسول الله، أين أبي؟ قال: «في النار» فلما مضى دعاه، فقال: «إن أبي وأباك في النار»[(٣)].

ولم يستطع - ﷺ - هداية عمه أبي طالب الذي كانت له الأيادي البيضاء في الدفاع

---

(١) البيت للربيع بن ضبع الفزاري.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه - انظر «تيسير العزيز الحميد» ص٤٩٣. وقد أخرجه الترمذي في الزهد ٣٤١٤ عنها بلفظ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس».

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان - بيان أن من مات على الكفر فهو في النار ٢٠٣. وأبو داود في السنة - باب في ذراري المشركين ٤٧١٨، وأحمد ٣/ ١١٩.

عن النبي ﷺ.

ولما توفي أبو طالب عم النبي ﷺ على الشرك، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. قال رسول الله ﷺ: «أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك» فأنزل الله تعالى فيه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣][1].

وروي أنه قال: «لا أزال أستغفر لك ربي حتى يردني» فاستغفر له بعدما مات. فقال المسلمون ما يمنعنا أن نستغفر لآبائنا ولذوي قراباتنا قد استغفر إبراهيم لأبيه، وهذا محمد - ﷺ - يستغفر لعمه، فاستغفروا للمشركين حتى نزل ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ﴾ [التوبة: ١١]».

ورُوِيَ: «أنه ﷺ استأذن ربه في الاستغفار لأمه، فلم يأذن له فيه، ونزل ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ حتى ختم الآية ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ [التوبة: ١١٤][2].

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: والله بالذي تعملون، أو بعملكم ﴿بَصِيرٌ﴾ أي: عالم به، مطلع عليه، ذو علم وبصر به، لا تخفى عليه منه خافية، وسيحاسبكم ويجازيكم عليه إن خيراً فخير وإن شراً فشر - ففي هذا وعد لمن اتقى الله وأطاعه، ووعيد لمن خالف أمره وعصاه.

الفوائد والعبر:

١ـ تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام، ونداؤهم بوصف الإيمان تشريفاً وتكريماً لهم وحثاً على الاتصاف بهذا الوصف وامتثال ما بعده من الطلب، وأن ذلك من مقتضيات الإيمان، وعدمه نقص في الإيمان.

٢ ـ نهي المؤمنين عن موالاة أعداء الله وأعدائهم الكفار ومودتهم وتأكيد ذلك وتأكيد حرمة ذلك، وتهييج المؤمنين على عداوتهم لكفرهم بما جاءهم من الحق، وإخراجهم الرسول والمؤمنين من مكة بلا ذنب إلا أنهم آمنوا بربهم.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٦٧٥، ومسلم في الإيمان ٢٤، والنسائي في الجنائز ٢٠٣٥ - من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه رضي الله عنه.

(٢) انظر «أسباب النزول» للواحدي ص١٧٨، «لباب النقول» ص١٢٦، ١٢٧، «تفسير ابن كثير» ٤/ ١٥٨ - ١٦١، ٨/ ١١٣.

٣ ـ أن من عادى الله فهو عدو للمؤمنين ومن عادى المؤمنين فهو عدو لله.
٤ـ تقرير أن ما جاء المؤمنين من عند الله ـ عز وجل ـ هو الحق، وتقرير صدق رسالته ﷺ.
٥ـ إثبات ربوبية الله الخاصة للمؤمنين، وتشريفهم بها.
٦ ـ أن على المؤمنين الصادقين في هجرتهم وجهادهم وفي إيمانهم البعد عن موالاة وموادة الكافرين فإن موالاتهم تنافي الإخلاص لله في هذه الأعمال ولا تجتمع معها، والتحذير لمن فعل ذلك وأنه عين الضلال عن سواء السبيل.
٧ ـ علم الله عز وجل المحيط بما يخفيه العباد في قلوبهم وما يعلنونه.
٨ ـ تربص الكافرين الدوائر بالمؤمنين وظهور شدة عداوتهم لهم لو تمكنوا منهم وتطاولهم عليهم بأيديهم وألسنتهم بالسوء ومودتهم لو يكفرون.
٩ ـ لا أحد من الأقارب والأولاد وغيرهم ينفع أو يغني عن أحد يوم القيامة أو ينتصر له ويدفع عنه عذاب الله، بل يفصل بينهم، بل ويؤخذ لكل منهم حقه من الآخر.
١٠ ـ لا يجوز موالاة وموادة الكفار لقرابتهم.
١١ ـ علم الله ـ عز وجل ـ واطلاعه وبصره بجميع أعمال العباد فيجازي كلاً بما عمل، وفي هذا وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾﴾

صلة الآيات بما قبلها:

نهى الله عز وجل في الآيات السابقة عن اتخاذ الكافرين أولياء، بعد ما حصل من حاطب بن أبي بلتعة ـ رضي الله عنه ـ من الكتابة لهم، والإلقاء إليهم بالمودة والإسرار لهم بها، وذكر – عز وجل ما يهيج على عداوتهم من كفرهم، وإخراجهم للرسول – ﷺ – والمؤمنين، وتربصهم بالمؤمنين وغير ذلك، ثم أتبع ذلك بذكر من ينبغي أن يقتدى به في هذا وهو إبراهيم الخليل عليه السلام والذين معه من المؤمنين في براءتهم من قومهم المشركين ومعبوداتهم، وإظهار العداوة لهم حتى يؤمنوا بالله وحده لا شريك له.

قوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ «قد» حرف تحقيق، والخطاب للمؤمنين، والأسوة: القدوة، أي: قد كانت لكم أيها المؤمنون قدوة حسنة طيبة، ومثل يحتذى في الخير والأمور الحسنة، لأن القدوة نوعان: قدوة حسنة طيبة، وقدوة سيئة خبيثة.

﴿فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ أي: في نبي الله إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام والذين معه من الأنبياء والمؤمنين في براءتهم من قومهم الكافرين وعدم موالاتهم ومحبتهم لهم.

﴿إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ﴾ «إذ» ظرف زمان بمعنى «حين»، أي: حين قالوا لقومهم المشركين.

﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ﴾ برآء: جمع بريء، يقال في جمعه: برآء، وأبرياء، وبريئون، جمع مذكر سالم. أي: إنا تبرأنا منكم فلسنا منكم ولستم منا.

﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: وتبرأنا من عبادتكم ومن الذي تعبدونه من دون الله من المعبودات، فلا نعبد شيئاً منها، بل نعبد الله وحده.

﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ أي: أنكرناكم، وأنكرنا دينكم وطريقتكم.

﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ﴾ أي: وظهر بيننا وبينكم العداوة والبغضاء لكم، ووجب علينا إظهار ذلك لكم ﴿أَبَدًا﴾ من الآن وعلى الدوام ما دمتم على الكفر.

﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ حتى للغاية، أي: إلى أن تؤمنوا بالله وحده لا شريك له، بالإيمان بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وشرعه، وتعبدوه وحده.

﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ «إلا» أداة استثناء، و«قول» مستثنى منصوب من قوله ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

أي: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ آزر ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ فليس لكم فيه أسوة، أو لا تتأسوا به في ذلك.

قال الطبري [(١)]: «إلا في قول إبراهيم لأبيه ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ فإنه لا أسوة لكم فيه في ذلك، لأن ذلك كان من إبراهيم لأبيه عن موعدة وعدها إياه قبل أن يتبين له أنه عدو لله، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه».

كما قال عز وجل ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: «ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه [(٢)] حتى مات، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه» [(٣)].

وفي هذا دلالة على فضل نبينا محمد – ﷺ – على إبراهيم وعلى سائر الأنبياء عليهم السلام – لأن الله أمرنا بالاقتداء به – ﷺ – مطلقا فقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧] بينما استثنى بعض فعل إبراهيم لما أمرنا بالاقتداء به – عليه السلام.

﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ الواو: حاليه و«ما» نافية أي: والحال أني لا أملك لك من الله من شيء.

و«من» في قوله ﴿مِن شَىْءٍ﴾ زائدة من حيث الإعراب مؤكدة من حيث المعنى و«شيء» نكرة في سياق النفي، فتعم أي شيء، أي: ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ شيئاً من الأشياء مهما كان صغيراً أو كبيراً، قليلاً أو كثيراً، لا هداية ولا غير ذلك، ولا أقدر على شيء من ذلك، وإنما المالك لذلك كله والقادر عليه هو الله عز وجل، كما قال عز وجل: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فأين من هذا الذين يتوسلون بالأنبياء والأولياء يطلبون منهم جلب النفع ودفع الضر، وإبراهيم خليل الرحمن يعلنها صريحة لأبيه وأقرب الناس إليه ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾.

---

(١) في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٦٧.

(٢) كما قال تعالى عنه أنه قال: (واغفر لأبي إنه كان من الضالين) [الشعراء: ٨٦].

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٢/ ٣٠، ٣٢، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٦/ ١٨٩٤، ١٨٩٥.

كما قال عز وجل لنبينا محمد ﷺ سيد ولد آدم ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ۝ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن: ٢٠، ٢١].

نسألك اللهم الهداية للحق والثبات عليه إلى أن نلقاك.

﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ هذا إلى قوله ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ من تتمة كلام إبراهيم عليه السلام والذين معه بعد أن أعلنوا البراءة من قومهم ومن معبوداتهم وإظهار العداوة والبغضاء لهم ما داموا على الشرك.

﴿رَّبَّنَا﴾ أي: يا ربنا، خالقنا ومالكنا، والمتصرف فينا.

﴿عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ أي: عليك اعتمدنا، وإليك فوضنا أمورنا في جلب النفع لنا ودفع الضر عنا مع تمام الثقة بك والبراءة من حولنا وقوتنا.

﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ أي: وإليك تبنا ورجعنا.

﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: وإليك وحدك المرجع والمآل والمنقلب والمعاد في الدار الآخرة وفي جميع الأمور.

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: يا ربنا لا تصيرنا ﴿فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ والفتنة: الابتلاء والامتحان، وتكون في الخير والشر كما قال عز وجل: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

والمعنى: يا ربنا لا تصيرنا فتنة للذين كفروا بأن تسلطهم علينا بالقتل والأذى، أو بأن نواليهم ونوادهم، فيكونوا سبباً في فتنتنا عن ديننا أو بظهورهم علينا فيظنوا أنهم على حق ونكون فتنة لهم.

﴿وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ﴾ أي: واغفر لنا يا ربنا، بستر ذنوبنا عن الخلق والتجاوز عن عقوبتها – كما جاء في تقرير الله عز وجل للعبد المؤمن بذنوبه وقوله – عز وجل –: «أنا سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»[(١)].

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ «العزيز» و«الحكيم» من أسماء الله – عز وجل – كل منهما على وزن «فعيل»، يدل «العزيز» على أن له عز وجل العزة بأنواعها الثلاثة: عزة القهر، وعزة القوة، وعزة الامتناع.

---

(١) سبق تخريجه.

ويدل «الحكيم» على أن له - عز وجل - الحكم بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وأن له الحكمة، بقسميها: الحكمة الغائية والحكمة الصورية.

وقد أكد عز وجل كمال عزته وحكمه وحكمته - إضافة إلى كون هذين الاسمين جاءا على صيغة المبالغة بـ «أن» المؤكدة، ويكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «أنت».

وناسب ختم الآية بقوله ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ مع أنه يلي قوله ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ﴾ - والله أعلم - ليناسب قوله قبل ذلك: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾

هذا تأكيد لما سبق في قوله ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ الآية.

واللام في قوله ﴿لَقَدْ كَانَ﴾ للقسم، و«قد» للتحقيق، أي: والله ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ فتكرار هذه الجملة تأكيد، وتصديرها بالقسم تأكيد آخر، وقال هنا: «كان» وفي الآية الأولى «كانت»، وذلك - والله أعلم - للتنصيص في الآية الأولى على أن لهم بإبراهيم والذين معه أسوة حسنة في البراءة من الكافرين، وأما قوله في الآية الثانية ﴿كَانَ﴾ ففيه إشارة إلى أن لهم فيهم أسوة عامة في طاعة الله تعالى وترك معصيته.

﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ﴾ «لمن» جار ومجرور بدل من قوله «لكم» و«من» اسم موصول، أي: للذي يرجو ثواب الله، ويخاف عقابه. قال تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣] أي: لا تخافون لله عظمة.

﴿وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ أي: ويرجو الثواب في اليوم الآخر، ويخاف العقاب.

واليوم الآخر: يوم القيامة، لأنه لا يوم بعده، فآخر ليلة من الدنيا صبيحتها يوم القيامة.

وفي قوله: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ تأكيد وتهييج أيضا لأخذ القدوة من إبراهيم والذين معه في البراءة من الكافرين، وأن من كان يرجو الله واليوم الآخر لا بد أن يكون كذلك.

وقرن - عز وجل - بين رجائه واليوم الآخر - كما يقرن عز وجل كثيراً بين الإيمان به واليوم الآخر، لأن اليوم الآخر يوم الحساب والجزاء على الأعمال وهو من أعظم ما يحمل الإنسان على العمل ومحاسبة النفس، كما رُويَ عن عمر رضي الله عنه قوله: «لولا الإيمان باليوم الآخر لرأيت من الناس غير ما ترى» أي: لتنكر الناس بعضهم لبعض، ولتهالكوا في الشهوات والمعاصي إذ لا وازع ولا رادع.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي: ومن يعرض عن طاعة الله – عز وجل – وأمره ونهيه بقلبه وجوارحه، وقوله وفعله، وذلك بموالاة الكافرين وغير ذلك.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ «الغني» و«الحميد» كل منهما من أسماء الله عز وجل على وزن «فعيل»، يدل «الغني» على كمال وسعة غناه، وأنه غني عن خلقه، كما قال عز وجل: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام: ١٣٣] وقال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠] وقال تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦]، وقال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ﴾ [الزمر: ٧].

وقال عز وجل في الحديث القدسي: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر..»[1].

و«الحميد» يدل على أنه – عز وجل – المحمود على كرمه وجوده، وفي جميع أقواله وأفعاله، المستحق للحمد وحده كما قال عز وجل ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ والحمد: وصف المحمود بصفات الكمال مع المحبة والتعظيم[2].

وقد قرن عز وجل بين اسميه «الغني» و«الحميد» في مواضع عدة من القرآن الكريم. إشارة إلى أنه عز وجل المحمود على غناه لكرمه العميم وجوده العظيم.

قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النساء: ١٣١]، وقال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الحج: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ١٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٧٧، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٩٥، وابن ماجه في الزهد ٤٢٥٧ – من حديث أبي ذر – رضي الله عنه.

(٢) انظر «اللباب في تفسير الاستعاذة والبسملة وفاتحة الكتاب» ص٢١٣.

ﵟٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُﵞ [لقمان: ٢٦]، وقال تعالى: ﵟوَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُﵞ [فاطر: ١٥]، وقال تعالى: ﵟوَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُﵞ [الحديد: ٢٤، الممتحنة: ٦]، وقال تعالى: ﵟفَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞﵞ [التغابن: ٦].

الفوائد والعبر:

١ ـ ينبغي أن يكون للمؤمنين قدوة حسنة في إبراهيم عليه السلام والذين معه في إخلاصهم العبادة لله ـ عز وجل ـ وبراءتهم من قومهم المشركين ومن معبوداتهم وكفرهم بهم وإظهار عداوتهم وبغضهم أبداً حتى يؤمنوا بالله ويوحدوه.

٢ ـ لا يتأسى ولا يقتدى في إبراهيم عليه السلام في استغفاره لأبيه وهو مشرك لأن الاستغفار للمشركين لا يجوز وإنما استغفر إبراهيم عليه السلام لأبيه عن وعد له بذلك فلما تبين له عداوته لله واستمراره على الشرك تبرأ منه.

٣ ـ أن الهداية بيد الله فهو يهدي من يشاء بفضله ويضل من يشاء بعدله ولهذا قال إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن لأبيه «وما أملك لك من الله من شيء».

٤ ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة لأوليائه المؤمنين ـ وتشريفهم بها.

٥ ـ وجوب إخلاص العبادة لله وحده والتوكل عليه والإنابة إليه أسوة بإبراهيم عليه السلام والذين معه.

٦ ـ أن المصير والمرجع والمآب والمآل إلى الله ـ عز وجل ـ فيجازي كلاً بعمله.

٧ ـ مشروعية سؤال الله ـ عز وجل ـ السلامة من فتنة الذين كفروا في الدين أو القتل أو غير ذلك، وسؤال الله ـ المغفرة.

٨ ـ إثبات اسمين من أسماء الله وهما «العزيز» و «الحكيم» وأن له عز وجل العزة التامة، والحكم النافذ، والحكمة البالغة.

٩ ـ تأكيد وجوب أخذ القدوة من إبراهيم عليه السلام ومن آمن معه في براءتهم من قومهم المشركين ومعبوداتهم لمن كان يرجو الله والثواب يوم القيامة، وذلك تعظيما لخطر الشرك، وتحذيرا منه

١٠ ـ التهديد لمن تولى وأعرض عن طاعة الله وخالف أمره ووالى أعداءه وبيان غنى الله ـ عز وجل ـ عنه وأنه سبحانه الغني عن خلقه.

١١ ـ إثبات اسمين من أسمائه ـ عز وجل ـ وهما «الغني» و «الحميد» وأنه سبحانه الغني عن جميع الخلق المغني لهم، المحمود على كرمه وجوده، وفي جميع أقواله وأفعاله، المستحق للحمد وحده.

١٢ ــ أن الغنى إذا لم يصاحبه جود وكرم وبذل منه يحمد عليه صاحبه فلا قيمة له، بل هو نقمة ووبال على صاحبه.

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٧ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩﴾

صلة الآيات بما قبلها:

نهى الله – عز وجل – في الآيات السابقة عن موالاة الكافرين ومودادتهم – مطلقا – وحيث إن ترك موالاة الكافرين إذا كانوا من الأقربين أمر ليس بالسهل على النفوس لم يقنط - عز وجل – المؤمنين، بل فتح لهم باب الرجاء في إيمان هؤلاء الكافرين فتعود المودة بينهم وبينهم، فقال عز وجل ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

ثم بين عز وجل من لم يتناولهم النهي ممن يجوز الإقساط إليهم وبرهم من الكافرين ومن لا تجوز موالاتهم مطلقا في الآيتين بعد ذلك.

قال ابن القيم [(١)]: «لما نهى الله سبحانه في أول السورة عن اتخاذ المسلمين الكفار أولياء، وقطع المودة بينهم وبينهم، توهم بعضهم أن برهم والإحسان إليهم من الموالاة والمودة، فبين الله – سبحانه – أن ذلك ليس من الموالاة المنهي عنها، وأنه لم ينه عن ذلك، بل هو الإحسان الذي يحبه ويرضاه وكتبه على كل شيء، وإنما المنهي عنه تولي الكفار والإلقاء إليهم بالمودة».

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ﴾ «عسى» للترجي بالنسبة للمخلوق – كما قال الشاعر:

عسى الكرب الذي أمسيت فيه ... يكون وراءه فرج قريب [(٢)]

وقال الآخر:

عسى فرج يأتي به الله إنه ... له كل يوم في خليقته أمر [(٣)]

فيكون المراد بالرجاء هنا ما يقوم في قلوب المخاطبين: أي: يرجى أن الله يجعل بينكم

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٣٣.

(٢) البيت لهدبة بن خشرم، وهو في «ديوانه» ص٥٤.

(٣) البيت لمحمد بن إسماعيل، كما في حاشية «شذور الذهب» ص ٣٥١.

وبين الذين عاديتم منهم مودة. أو ترجون أن الله يجعل بينكم وبينهم مودة ويحتمل أن هذا وعد من الله عز وجل أن يجعل بينهم وبين هؤلاء الكفار مودة بأن يسلم هؤلاء الكفار. وتكون «عسى» هنا بمعنى الوعد من الله عز وجل بذلك.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «عسى من الله واجبة» [١].

والمعنى: عسى الله أن يجعل بينكم أيها المؤمنون وبين كفار مكة الذين نهيتم عن موالاتهم وموادتهم وأمرتم بعداوتهم مودة، وذلك بأن يسلموا، وهكذا حصل فآمن كثير من أهل مكة يوم الفتح وقبله وبعده، منهم أبو سفيان وغيره.

﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ﴾ أي: ذو قدرة تامة على كل شيء، ومن ذلك تقليب القلوب، بإدخال الإيمان في قلوب كثير من الكفار، كما قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، والتأليف بين القلوب المتنافرة والمتناحرة، كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٢ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣].

ولهذا قال - ﷺ -: «ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي» [٢]. وقد أحسن القائل:

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما ... يظنان كل الظن أن لا تلاقيا [٣]

ولهذا فإن من الحكمة بل من المأمور به شرعاً أن لا يفرط الإنسان بالعداوة ولا بالمحبة، وفي الحديث: «أحبب حبيبك هوناً ما، فعسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما، فعسى أن يكون حبيبك يوماً ما» [٤].

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ «الغفور» و«الرحيم» من أسماء الله عز وجل يدلان على أنه عز وجل

---

(١) أخرجه البيهقي في سننه ٩/ ١٣.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي - غزوة الطائف ٤٣٣٠، ومسلم في الزكاة - إعطاء المؤلفة قلوبهم ١٠٦١، وأحمد ٤/ ٤٢ - من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم - رضي الله عنه.

(٣) البيت لقيس بن الملوح «مجنون ليلى» انظر «ديوانه» ص٣١٥.

(٤) أخرجه الترمذي في البر - الاقتصاد في الحب والبغض ١٩٩٧ - من حديث علي بن أبي طالب - رضي الله عنه. وقال: «حديث غريب. وصحح وقفه على علي رضي الله عنه».

ذو المغفرة التامة، والرحمة الواسعة، ومن مغفرته عز وجل ورحمته أن يغفر لمن تاب من المؤمنين ويرحمهم، وأن يهدي من يشاء من كفار مكة وغيرهم للإيمان، ويغفر لهم ما قد سلف، كما قال عز وجل: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ «لا» نافية، ومعنى ﴿لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ أي: لم يقاتلوكم لأجل دينكم وبسببه ﴿وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ﴾ أي: ولم يضطروكم إلى الخروج من دياركم لأجل دينكم أيضا. ﴿أَن تَبَرُّوهُمۡ﴾ أي: تحسنوا إليهم وتصلوهم ﴿وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ﴾ أي: تعدلوا إليهم ومعهم من «أقسط» الرباعي، بمعنى: عدل وأنصف.

و«أن» والفعل بعدها في قوله ﴿أَن تَبَرُّوهُمۡ﴾ في تأويل مصدر في محل جر بدل من قوله ﴿ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ﴾

والتقدير: لا ينهاكم الله عن بر الذين لم يقاتلوكم في الدين من الكفار ولم يخرجوكم من دياركم ولا عن الإقساط إليهم، كالنساء والضعفة وغيرهم، أي: لا ينهاكم الله عن الإحسان إليهم وصلتهم. قال تعالى في الوالدين المشركين: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾ [لقمان: ١٥].

وعن أسماء بنت أبي بكر – رضي الله عنهما – قالت: قدمت أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا، فأتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، إن أمي قدمت، وهي راغبة[١]، أفأصلها؟ قال: «نعم صلي أمك»[٢].

وفي رواية عن عبد الله بن الزبير – رضي الله عنه – قال: «قدمت قتيلة على ابنتها أسماء ابنة أبي بكر بهدايا: صناب[٣] وأقط وسمن، وهي مشركة، فأبت أسماء أن تقبل هديتها وتدخلها بيتها. فسألت عائشة النبي ﷺ، فأنزل الله عز وجل: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾، فأمرها أن تقبل هديتها، وأن تدخلها بيتها»[٤].

وأيضا لا ينهاكم الله عن العدل معهم وفيهم، بل ذلك واجب عليكم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ﴾ [المائدة: ٢]،

---

(١) أي مشركة.

(٢) أخرجه البخاري في الهبة ـ الهدية للمشركين ٢٦٢٠، ومسلم في الزكاة – فضل النفقة والصدقة على الأقربين ١٠٠٣، وأبو داود في الزكاة ١٦٦٨، وأحمد ٦/ ٣٤٤، ٣٤٧.

(٣) الصناب – بالصاد المهملة والنون: الخردل المعمول بالزيت وهو صباغ يؤتدم به.

(٤) أخرجها أحمد ٤/ ٤، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٧٢، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٤٩.

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ [المائدة: ٨].

فالعدل واجب مع كل أحد. والإحسان مشروع لكل ذي كبد رطبة حتى للكلاب فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ قال: «بينا رجل بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً، فنزل فيها فشرب، ثم خرج، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني، فنزل البئر، فملأ خفه ماء، فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له، قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم لأجراً؟ فقال: «في كل ذات كبد رطبة أجر»[1].

ويؤخذ من الآية الرد على الغلاة من الخوارج وغيرهم الذين يستبيحون دماء وأموال مخالفيهم من المسلمين. وقد قال ﷺ: «إياكم والغلو في الدين فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين»[2] وقيل له ﷺ: ادع على المشركين؟ قال: «إني لم أبعث لعانا وإنما بعثت رحمة»[3].

ولما استأذنه ملك الجبال أن يطبق على أهل مكة الأخشبين ـ جبلين بمكة ـ قال: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً»[4].

ودعا ﷺ لقومه وهم يوقعون به وبأصحابه صنوف الأذى فقال: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[5].

ولهذا اعتذر نوح عليه السلام عن الشفاعة بسبب أنه دعا على قومه فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦].

ولما دخل ﷺ مكة فاتحاً منتصراً أمن أهلها وقال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»[6] مع ما لقيه منهم ﷺ من المحادة والعناد.

وزار ﷺ الغلام اليهودي الذي كان يخدمه لما مرض وقعد عند رأسه وقال له أسلم فنظر إلى أبيه، فقال له أبوه أطع أبا القاسم ﷺ، فأسلم، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «الحمد لله الذي أنقذه من النار»[7].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ أي: إن الله يحب المقسطين الذين يعدلون فيما لهم وعليهم

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم والغصب ٢٤٦٦، ومسلم في السلام ٢٢٤٤، وأبو داود في الجهاد ٢٥٥٠.
(٢) أخرجه النسائي في مناسك الحج ٣٠٥٧ ـ من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما.
(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٩٩ ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.
(٤) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٣١، ومسلم في الجهاد والبر ١٧٩٥ ـ من حديث عائشة ـ رضي الله عنها.
(٥) أخرجه البخاري في الأنبياء ٤٣٧٧، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٩٢، وابن ماجه في الفتن ٤٠٢٥ ـ من حديث عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه.
(٦) أخرجه البيهقي في «سننه» ٩/ ١١٨ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه. وانظر «السيرة النبوية» ٤/ ٥٥.
(٧) أخرجه البخاري في الجنائز ١٣٥٦، وأبو داود في الجنائز ٣٠٩٥ ـ من حديث أنس ـ رضي الله عنه.

وفي حكمهم بين الناس، كما قال ﷺ: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا»[١].

وفي الآية إثبات المحبة لله - عز وجل - على ما يليق بجلاله وعظمته لقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.

ويفهم من الآية أنه - عز وجل - لا يحب القاسطين الظالمين، بل يبغضهم.

كما يؤخذ منها سماحة الدين الإسلامي في معاملة الآخرين حتى غير المسلمين، وهذا هو الذي جعل الخليفة الراشد علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ يتحاكم مع اليهودي الذي وجد درعه عنده إلى القاضي شريح ولم يكن لدى علي ـ رضي الله عنه ـ بينة، فقيل له يحلف اليهودي ويأخذ الدرع، فقال: هو وذاك فلما رأى اليهودي أن خليفة المسلمين تحاكم معه إلى القضاء اعترف بأن الدرع لعلي ـ رضي الله عنه ـ وأعلن إسلامه[٢] وبهذا الخلق وهذا العدل فتح السلف قلوب الناس للإسلام.

﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾

في هذه الآية تصريح بما فهم من الآية قبلها وهي قوله: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ الآية، وتأكيد للنهي في قوله في مطلع السورة ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ وحصر للنهي فيها في النهي عن موالاة الذين قاتلوهم في الدين وأخرجوهم من ديارهم وظاهروا على إخراجهم.

قوله: ﴿وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ﴾ المظاهرة: المعاونة، أي: عاونوا وساعدوا على إخراجكم، قال تعالى: ﴿وَإِن تَظَـٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾ [التحريم: ٤] أي: وإن تعاونا عليه.

﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بدل من قوله ﴿ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ﴾ أي: عن توليهم، أو عن موالاتهم ومناصرتهم، وعن أن تكونوا لهم أولياء ونصراء.

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ الواو: استئنافية و«من» شرطية، «يتولهم» فعل الشرط، وجوابه جملة ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ واقترن الجواب بالفاء لأنه جملة اسمية.

والإشارة في قوله ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ للذين يتولون الكافرين من المؤمنين، وأشار

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة ١٨٢٧، والنسائي في آداب القضاة ٥٣٧٩ من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.
(٢) انظر «تاريخ الخلفاء» للسيوطي ص١٨٤ ـ ١٨٥.

إليهم بإشارة البعيد تحقيراً لأمرهم، ويحتمل أن يراد بالإشارة نفس الكفار. ويحتمل أن يراد بها الطائفتين معاً الكفار ومن يتولاهم من المؤمنين فالكفار ظالمون، كما قال عز وجل: ﴿وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤] ومن والاهم فهو منهم، كما قال عز وجل: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

وقد أكد وصفهم بالظلم بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين وبضمير الفصل «هم».

والظلم: النقص قال تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: ٣٣] وهو وضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان وهؤلاء المذكورون، وضعوا الولاية في غير موضعها وخالفوا أمر الله.

وأظلم الظلم الشرك بالله قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] وإنما كان الشرك أظلم الظلم لأن حق الله – عز وجل – أوضح الحقوق وأبينها خلق ورزق وأنعم علينا بسائر النعم، فمن صرف حق الله وهو العبادة لغير الله فهو من أظلم الظالمين.

الفوائد والعبر:

١ ـ ترجية الله ـ عز وجل للمؤمنين ووعده لهم بأن يجعل بينهم وبين من عادوهم من أهل مكة بسبب كفرهم مودة وذلك بأن يؤمن هؤلاء الكفار أو بعضهم فتعود الموالاة بينهم وهكذا حصل.

٢ ـ تأكيد عدم جواز موالاة ومودة الكافرين.

٣ ـ قدرة الله ـ عز وجل ـ التامة على كل شيء ومن ذلك تقليب القلوب وإدخال الإيمان في قلوب كثير من الكفار.

٤ ـ إثبات اسمين من أسمائه ـ عز وجل ـ وهما «الغفور» و «الرحيم» ومغفرته ـ عز وجل ـ التامة ورحمته الواسعة، ولهذا هدى كثيراً من المشركين إلى الإسلام بمغفرته ورحمته.

٥ ـ وجوب الإقساط والعدل مع الكفار غير المحاربين ممن لم يقاتلوا المؤمنين ولم يخرجوهم من ديارهم، وجواز الإحسان إليهم وبرهم بل ذلك مما يؤجر عليه.

٦ ـ إثبات المحبة لله ـ عز وجل ـ وأنه يحب المقسطين العادلين، ونفي محبته عن الظالمين الجائرين.

٧ ـ تأكيد وحصر النهي في الموالاة في النهي عن موالاة المقاتلين للمؤمنين في الدين المخرجين لهم من ديارهم المظاهرين على إخراجهم.

٨ ـ التحذير من موالاة الكافرين الظالمين للمؤمنين في قتالهم لهم وإخراجهم من ديارهم وأن من والاهم فهو ظالم مثلهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (١١)﴾

سبب النزول:

عن مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة ـ رضي الله عنهما قالا: «لما كاتب رسول الله ﷺ سهيل بن عمرو يوم الحديبية على قضية المدة، وكان فيما اشترط سهيل بن عمرو أنه قال: لا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، وخليت بيننا وبينه، فرد رسول الله ﷺ أبا جندل بن سهيل يومئذ إلى أبيه سهيل بن عمرو، ولم يأت رسول الله ﷺ أحد من الرجال إلا رده في تلك المدة وإن كان مسلماً، وجاءت المؤمنات مها جرات، أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ونسوة أخر فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ حتى بلغ ﴿بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾»[1].

قوله: ﴿إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ﴾ أي: إذا جاءكم النساء المؤمنات مهاجرات، والهجرة هي الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام. وهي واجبة إذا كان الإنسان لا يستطيع إظهار شعائر دينه في بلاد الكفر.

ومما يؤسف له أنه قد انعكس الحال فأصبح المسلم في بعض البلاد الإسلامية لا يستطيع أن يظهر شعائر دينه بينما يستطيع ذلك في كثير من بلاد الكفر ـ والله المستعان.

والهجرة من مكة كانت واجبة قبل فتحها أما بعده فقد صارت دار إسلام قال ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية»[2] أي: لا هجرة من مكة بعد فتحها، لأنها صارت دار إسلام ولله الحمد والمنة.

﴿فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ أي: اختبروهن، وذلك بسؤالهن عن سبب خروجهن، وهجرتهن

---

(١) أخرجه مطولاً ـ من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم ـ البخاري في الجهاد ـ المصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط ٢٧٣١، ٢٧٣٢، وابن إسحاق في السيرة انظر «السيرة النبوية» لابن هشام ٣/ ٣٢١، والبيهقي في الجزية ٩/ ٢١٨، وأخرجه مختصراً أبو داود في الجهاد ٢٧٦٥، ٢٧٦٦، وأحمد ٤/ ٣٢.

(٢) سبق تخريجه.

وتحليفهن إن احتيج إلى ذلك ليتبين صدق إيمانهن، ولهذا قال بعده ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾.

فعن أبي نصر الأسدي قال: سئل ابن عباس: كيف امتحان رسول الله - ﷺ - النساء؟ قال: «كان يمتحنهن: بالله ما خرجت ـ من بغض زوج؟ وبالله ما خرجت ـ رغبة عن أرض إلى أرض؟ وبالله ما خرجت ـ التماس دنيا؟ وبالله ما خرجت ـ إلا حباً لله ورسوله»[١].

ورُويَ أن الذي كان يحلفهن عن أمر رسول الله - ﷺ - له عمر بن الخطاب رضي الله عنه[٢].

﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ أي: فإن علمتموهن صادقات في إيمانهن، وفي هجرتهن، خرجن حباً لله ورسوله وفراراً بدينهن ـ حسب ما يظهر لكم - إذ لا يطلع على البواطن إلا الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُمْ﴾ [النساء: ٢٥]. فليس لنا إلا الظاهر، وأمر السرائر إلى من يعلم السر وأخفى.

وفي الحديث «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[٣].

لكن قد يستدل بما يظهر من الأقوال والأفعال على ما في الباطن.

ولهذا قال الحافظ ابن كثير في كلامه على الآية ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ قال[٤]: «وفيه دلالة على أن الإيمان يمكن الاطلاع عليه يقيناً».

﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ أي: فلا تردوهن إلى أزواجهن الكفار. وإذا كانت المتزوجة لا ترد إلى زوجها فمن باب أولى أن لا ترد غير المتزوجة.

فهذه الآية مخصصة لما جاء في صلح الحديبية من الشرط: «على أن لا يأتيك منا أحد، وإن كان على دينك إلا رددته إلينا». ولهذا لما جاءت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط - رضي الله عنها - مهاجرة بعد هذا الصلح وبعد نزول هذه الآية لم يرجعها رسول الله ﷺ وكذا غيرها من النساء اللاتي هاجرن في تلك المدة.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٧٥ - ٥٧٦.
(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١١٨.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) في «تفسيره» ٨/ ١١٨.

﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ أي: لا هن يحللن لهم وقد آمنَّ وهم كفار.

﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ أي: ولا هم يحلون لهن وهم كفار وهن مؤمنات. فلا تحل مؤمنة لكافر، ولا يحل كافر لمؤمنة، كما قال عز وجل: ﴿ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟﴾ [البقرة: ٢٢١]. فحرم الله عز وجل بهذه الآية المؤمنات على المشركين، وكان جائزاً في أول الإسلام أن يتزوج المشرك المؤمنة. وكانت زينب – ابنة النبي ﷺ – تحت أبي العاص بن الربيع، وكان مشركاً، فأمره الرسول ﷺ بعد نزول هذه الآية أن يبعث بها إليه، فأقامت في المدينة بعد وقعة بدر إلى أن أسلم زوجها أبو العاص بن الربيع فردها إليه رسول الله ﷺ.

عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: «ولما بعث أهل مكة في فداء أسراهم بعثت زينب في فداء أبي العاص بمال، وبعثت فيه بقلادة لها كانت عند خديجة أدخلتها بها على أبي العاص. قالت: فلما رآها رسول الله – ﷺ – رق لها رقة شديدة، وقال: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها الذي لها»؟ فقالوا: نعم. وكان رسول الله – ﷺ – أخذ عليه أو وعده أن يُخلي سبيل زينب إليه. وبعث رسول الله – ﷺ – زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار، فقال: «كونا ببطن يأجج حتى تمر بكما زينب فتصحبانها حتى تأتيا بها» (١).

فلما قدم أبو العاص مكة، وفَى له بذلك وصدّقه فيما وعده، فبعثها إلى رسول الله – ﷺ – مع زيد بن حارثة – رضي الله عنه –، فأقامت في المدينة من بعد وقعة بدر وكانت سنة اثنتين إلى أن أسلم زوجها أبو العاص بن الربيع زمن الحديبية (٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن رسول الله – ﷺ – رد ابنته زينب على أبي العاص بن الربيع بالنكاح الأول، ولم يحدث شيئاً».

وفي رواية: «وكان إسلامها قبل إسلامه بست سنين»، وفي رواية «بسنتين، ولم يحدث شهادة ولا صداقاً» (٣).

وعن الحجاج بن أرطأة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: «أن رسول الله –

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد ٢٦٩٢، وأحمد ٦/ ٢٧٦.

(٢) انظر «سير أعلام النبلاء» ١/ ٣٣٠ – ٣٣٤، «زاد المعاد» ٥/ ١٣٦– ١٣٧ «تفسير ابن كثير» ٨/ ١١٨ – ١١٩.

(٣) أخرجه أبو داود في الطلاق – إلى متى ترد إليه امرأته إذا أسلم بعدها ٢٢٤٠، والترمذي في النكاح – ما جاء في الزوجين يسلم أحدهما ١١٤٣، وابن ماجه في الطلاق – الزوجين يسلم أحدهما قبل الآخر ٢٠٠٩، وأحمد ١/ ٢٦١. وصححه، وقال الترمذي: «ليس بإسناده بأس».

ﷺ - رد ابنته زينب على أبي العاص بن الربيع بمهر جديد ونكاح جديد»[(١)].

قال الخطابي[(٢)]: «قال محمد بن إسماعيل: حديث ابن عباس أصح في هذا الباب من حديث عمرو بن شعيب».

وقال الإمام أحمد بعد روايته لحديث عمرو بن شعيب: «هذا حديث ضعيف، أو واهٍ، ولم يسمعه الحجاج من عمرو بن شعيب، إنما سمعه من محمد بن عبيد العزرمي، والعزرمي حديثه لا يساوي شيئاً. والحديث الصحيح الذي روي أن النبي ﷺ أقرهما على النكاح الأول».

وقد اختلف أهل العلم في بقاء حكم النكاح إذا أسلم أحد الزوجين دون الآخر. فذهب جمهور أهل العلم إلى أن النكاح ينفسخ، منهم من قال بمجرد إسلام أحدهما. وهو رواية عن أحمد، وبه قال أبو حنيفة إن كان أحدهما في دار الإسلام والآخر في دار الحرب. ومنهم من قال لا ينفسخ النكاح إلا بانقضاء العدة، منهم مالك والشافعي وأحمد في رواية عنه. وبه قال أبو حنيفة إذا كان الزوجان في دار الإسلام أو في دار الحرب[(٣)].

وذهب بعض أهل العلم إلى أن النكاح لا ينفسخ بمجرد إسلام أحد الزوجين، سواء فرقت بينهما الهجرة أو لم تفرق. واختار هذا شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم مستدلين بحديث ابن عباس في رده ﷺ ابنته زينب على أبي العاص، وقد أسلمت قبله بسنين، وما في معناه من الآثار.

قال ابن تيمية: «وأما القول بأنه بمجرد إسلام أحد الزوجين المشركين تحصل الفرقة، قبل الدخول أو بعده فهذا في غاية الضعف، فإنه خلاف المعلوم المتواتر من شريعة الإسلام، فإنه قد علم أن المسلمين الذين دخلوا في الإسلام كان يسبق بعضهم بعضا بالتكلم بالشهادتين، فتارة يسلم الرجل وتبقى المرأة مدة ثم تسلم، كما أسلم كثير من

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ٢٠٧ - ٢٠٨ - وضعفه، وابن ماجه في النكاح ٢٠١٠.

(٢) انظر «سنن أبي داود» ٢/ ٦٧٦.

(٣) انظر «المدونة» ٢/ ٢٩٨، ٣٠٢ - ٣٠٣، «الأم» ٤/ ١٩٣، ٢٧٠ - ٢٧١، ٥/ ٤٤ - ٤٥ «أحكام القرآن» للشافعي ٢/ ٦٩، «مسائل الإمام أحمد» رواية ابنه عبد الله ص٣٣٠ - ٣٣١، رواية النيسابوري ١/ ٢١٧ «الإشراف على مذاهب العلماء» ٤/ ٢١٠، «الناسخ والمنسوخ» للنحاس ٣/ ١١٤ «المحلى» ٧/ ٣١٤، «المسائل الفقهية» ٢/ ١٠٥، «أحكام القرآن» لابن العربي ٣/ ١٧٨٧، «زاد المسير» ٨/ ٢٤٤، «المغني» ٦/ ٦١٤ - ٦١٦، «فتح القدير» لابن الهمام ٣/ ٤٢٢، «تبيين الحقائق» ٢/ ١٧٥، «زاد المعاد» ٥/ ١٣٦ - ١٤٠، «أحكام أهل الذمة» ١/ ٢٣٥ - ٢٥١، «حاشية ابن عابدين» ٣/ ١٩١ - ١٩٢، «تفسير ابن كثير» ٨/ ١١٩، «بدائع التفسير» ٤/ ٤٣٤ - ٤٣٦.

نساء قريش وغيرهم قبل الرجال...»[1].

وقال ابن القيم[2]: «فإنه لا يعرف أن رسول الله - ﷺ - جدد نكاح زوجين سبق أحدهما الآخر بإسلامه وقد رد النبي - ﷺ - ابنته زينب على أبي العاص بن الربيع، وهو إنما أسلم زمن الحديبية، وهي أسلمت من أول البعثة، فبين إسلامهما أكثر من ثماني عشرة سنة. وأما قوله في الحديث: «كان بين إسلامها وإسلامه ست سنين» فوهم إنما أراد بين هجرتها وإسلامه.

قال: وأما مراعاة زمن العدة فلا دليل عليه من نص ولا إجماع، ولا يعرف اعتبار العدة في شيء من الأحاديث، ولا كان النبي ﷺ يسأل المرأة هل انقضت عدتها أم لا، ولا ريب أن الإسلام لو كان بمجرده فرقة، لم تكن فرقة رجعية، بل بائنة، فلا أثر للعدة في بقاء النكاح، وإنما أثرها في منع نكاحها للغير، فلو كان الإسلام قد نجز الفرقة بينهما لم يكن أحق بها في العدة، ولكن الذي دل عليه حكمه - ﷺ - أن النكاح موقوف، فإن أسلم قبل انقضاء عدتها فهي زوجته، وإن انقضت عدتها، فلها أن تنكح من شاءت، وإن أحبت انتظرته، فإن أسلم كانت زوجته من غير حاجة إلى تجديد نكاح».

واستدل ابن القيم على هذا أيضاً بما رُويَ عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال في الزوجين الكافرين يسلم أحدهما: «هو أملك ببضعها ما دامت في دار هجرتها» وفي رواية: «هو أحق بها ما لم يخرج من مصرها».

قال ابن القيم: «ولو لا إقراره - ﷺ - الزوجين على نكاحهما، وإن تأخر إسلام أحدهما عن الآخر بعد صلح الحديبية، وزمن الفتح لقلنا بتعجيل الفرقة بالإسلام من غير اعتبار عدة، لقوله ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ وقوله ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠]، وأن الإسلام سبب الفرقة، وكل ما كان سبب الفرقة تعقبه الفرقة كالرضاع والخلع والطلاق - وبعد أن ذكر من قال به من السلف وغيرهم، وأنه إحدى الروايتين عن أحمد قال: «ولكن الذي أنزل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ وقوله: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ لم يحكم بتعجيل الفرقة».

ثم استدل ابن القيم بإسلام امرأة صفوان بن أمية قبل إسلامه بنحو شهر ولم يفرق

---

(١) انظر «أحكام أهل الذمة» ١/ ٢٥١.

(٢) انظر «زاد المعاد» ٥/ ١٣٦ - ١٤٠.

النبي - ﷺ - بينهما [١]، وبإسلام أم حكيم قبل زوجها عكرمة بن أبي جهل، وإسلام أبي سفيان قبل امرأته هند، وإسلام حكيم بن حزام قبل امرأته وغيرهم - رضي الله عنهم - ولم يفرق النبي - ﷺ - بين أحد منهم وزوجته. كما استدل بإسلام نصرانية قبل زوجها في عهد عمر - رضي الله عنه - ولم يفرق بينهما [٢].

﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾ الضمير يعود إلى أزواجهن من الكفار، و«ما» موصولة، أي: وأعطوهم الذي أنفقوه، وغرموه من المهور، وذلك للعهد الذي بينهم وبين المسلمين فلا يجمع لهم بين فسخ أزواجهم منهم وتغريمهم ما دفعوا لهن من المهور.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: لا حرج ولا إثم عليكم ﴿أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر، أي: ولا حرج عليكم في نكاحهن والنكاح: لغة الضم والجمع، وشرعاً: عقد الزوجية الصحيح. ويطلق على العقد، وعلى الوطء. والمراد به هنا: العقد، أي: ولا حرج ولا إثم عليكم في الزواج بهن.

﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: إذا أعطيتموهن مهورهن فهن كغيرهن من النساء، لا يجوز الاستهانة بمهورهن وحقوقهن وسُمي المهر أجراً لتأكيد وجوبه لأنه في مقابلة الانتفاع بالبضع. وجواز نكاحهن مشروط بانقضاء عدتهن، وتوفر بقية شروط النكاح من الولي والشاهدين وغير ذلك.

﴿وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب بتشديد السين، وقرأ الباقون بتخفيفها.

و(الكوافر): جمع كافرة.

والمعنى: لا تتزوجوا الكافرات، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١].

وأيضاً لا تبقوا على نكاح من كان عندكم منهن بل فارقوهن وقد جاء في حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم رضي الله عنهما في صلح الحديبية: «أنه لما أنزل الله هذه الآية ﴿وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ طلق عمر بن الخطاب رضي الله عنه يومئذ امرأتين فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، وتزوج الأخرى صفوان ابن أمية» [٣].

---

(١) اخرجه مالك في الموطأ ٢/ ٥٤٣ - ٥٤٤.

(٢) انظر «زاد المعاد» ٥/ ١٣٧ - ١٤٠ وانظر أيضاً ١٣٤ - ١٣٥.

(٣) سبق تخريجه. وانظر «جامع البيان» ٢٢/ ٥٨٣ - ٥٨٤. «السيرة النبوية» ٢/ ٣٢٧.

كما طلق طلحة بن عبيد الله زوجته أروى بنت ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، فتزوجها خالد بن سعيد بن العاص[١].

﴿وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ﴾ قرأ ابن كثير والكسائي وخلف: (وسلوا) وقرأ الباقون: (واسألوا).

أي: واطلبوا الذي أنفقتموه من المهور على أزواجكم اللاتي يذهبن إلى الكفار إن ذهبن، وليطلبوا هم الذي أنفقوه على أزواجهم اللاتي هاجرن إليكم أيها المسلمون، فلهم حق المطالبة في ذلك ويجب عليكم إعطاؤهم ذلك لقوله ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ﴾، فالسؤال مشروع في حق هؤلاء وهؤلاء لما أنفقوه على أزواجهم لكن الأمر بإيتاء ذلك خص به المؤمنون في قوله: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ﴾ لأنهم هم الذين يمتثلون أوامر الله عز وجل.

قال السعدي[٢]: «وفي هذا دليل على أن خروج البضع من الزوج متقوم فإذا أفسد مفسد نكاح امرأة رجل برضاع أو غيره كان عليه ضمان المهر».

﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْۚ﴾ الإشارة لما سبق في الآية من عدم رد النساء المهاجرات إلى أزواجهن إذا علمنا إيمانهن ووجوب إعطائهم ما غرموه عليهن من المهور، وجواز نكاحهن بشروطه وتحريم الكافرات على المؤمنين، وجواز مطالبة الذين ذهبت أزواجهم من الفريقين للفريق الآخر بما أنفقوا عليهن. وأشار إلى هذه الأحكام بإشارة البعيد تعظيماً لهذه الأحكام وتأكيداً لوجوب امتثالها.

وحكم الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام: حكم كوني وحكم شرعي، وحكم جزائي، والمراد ب«حكم الله» في هذه الآية الحكم الشرعي. ومن الحكم الكوني قول ولد يعقوب عليه السلام ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ﴾ [يوسف: ٨٠]. والحكم الجزائي في الآخرة.

والمعنى: هذه الأحكام الشرعية في الآية هي حكم الله – عز وجل – الذي حكم به ويحكم به بينكم وبين الكفار، مما يتعلق بهذا الصلح صلح الحديبية مما سبق نزول الآية ووقت نزولها، وفيما يستقبل، ولهذا جاء التعبير بالمضارع ﴿يَحْكُمُ﴾.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ «العليم» و«الحكيم» من أسماء الله – عز وجل – يدلان على أنه عز وجل ذو العلم الواسع، والحكم النافذ والحكمة البالغة، ومن علمه عز وجل وحكمه وحكمته شرع هذه الأحكام العظيمة بين خلقه.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٨٤ – ٥٨٥.
(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٣٥٩.

﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا﴾

سبب النزول:

عن عائشة ـ رضي الله عنها: «أن رسول الله ﷺ كان يمتحنهن، وبلغنا أنه لما أنزل الله تعالى: أن يردوا إلى المشركين ما أنفقوا على من هاجر من أزواجهم، وحكم على المسلمين أن لا يمسكوا بعصم الكوافر، أن عمر طلق امرأتين، قريبة بنت أبي أمية، وابنة جرول الخزاعي فتزوج قريبة معاوية، وتزوج الأخرى أبو جهم، فلما أبى الكفار أن يقروا بأداء ما أنفق المسلمون على أزواجهم أنزل الله تعالى: ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ﴾ والعَقَبُ ما يؤدي المسلمون إلى من هاجرت امرأته من الكفار، فأمر أن يعطى من ذهب له زوج من المسلمين ما أنفق من صداق نساء الكفار اللاتي هاجرن، وما نعلم أحداً من المهاجرات ارتدت بعد إيمانها»[١]

قوله: ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ أي: وإن ذهبت بعض زوجاتكم إلى الكفار، ولم يردوا إليكم ما أنفقتموه عليهن، ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ أي: أصبتم غنيمة في قتالكم الكفار الذين لا عهد بينكم وبينهم، ﴿فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا﴾ أي: أعطوا الذين ذهبت أزواجهم من المؤمنين دون عوض من الكفار، أي: أعطوهم من الغنيمة مثل الذي أنفقوا من المهور عليهن.

و«عاقبتم» على هذا تكون من المعاقبة للكفار المقاتلين بقتلهم وسلب أموالهم، وهذا قول عامة المفسرين، وهو الأظهر.

وذهب بعض أهل العلم منهم عائشة ـ رضي الله عنها والزهري إلى أن المعنى: أن يرد المؤمنون إلى من ذهبت زوجته من المؤمنين من العقب الذي بأيديهم الذي أمروا أن يردوه على المشركين من نفقاتهم التي أنفقوا على أزواجهم اللاتي آمن وهاجرن، ثم ردوا إلى المشركين فضلاً إن كان بقي لهم. والعقب: ما كان بأيدي المؤمنين من صداق نساء الكفار حين آمنَّ وهاجرن[٢].

---

(١) أخرجه البخاري في الشروط ـ الشروط في الجهاد ٢٥٨٢.

(٢) سبق تخريجه عن عائشة ـ رضي الله عنها، وأخرجه عن الزهري الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٩٠. وانظر «السيرة النبوية» لابن هشام ٢/ ٣٢٦.

قال ابن كثير[1] بعد ما ذكر القولين: «وهذا ـ يعني القول بأنه يعطى من الغنيمة ـ لا ينافي الأول، لأنه إن أمكن الأول فهو أولى - يعني قول الزهري - وإلا فمن الغنائم اللاتي تؤخذ من أيدي الكفار، وهذا أوسع».

الفوائد والعبر:

١ ـ تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام، ونداؤهم بوصف الإيمان تشريفاً وتكريماً لهم، وحضاً على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما بعده من أوامر واجتناب ما بعده من نواه يعد من مقتضيات الإيمان وعدم ذلك يعد نقصاً في الإيمان.

٢ ـ أمر الله ـ عز وجل ـ للمؤمنين بامتحان المؤمنات المهاجرات للتأكد من إيمانهن حسب الظاهر، وأما الباطن فلا يعلمه إلا الله ـ عز وجل.

٣ ـ عدم جواز إرجاع المؤمنات المهاجرات إلى الكفار بعد معرفة إيمانهن لأنهن لا يحللن لهم ولا هم يحلون لهن.

٤ ـ وجوب إيتاء الأزواج الكفار ما أنفقوا على زوجاتهم اللاتي آمنَّ وهاجرن.

٥ ـ لا حرج ولا إثم في نكاح المؤمنات المهاجرات بعد انقضاء عدتهن من أزواجهن الكفار بعد إعطائهن مهورهن.

٦ ـ تحريم الإمساك بعصم الكوافر، وتزوج الكافرات.

٧ ـ أن للأزواج من المؤمنين مطالبة الكفار بما أنفقوه على زوجاتهم اللاتي ذهبن للكفار، كما أن للأزواج الكفار مطالبة المؤمنين بما أنفقوه على زوجاتهم اللاتي آمنَّ وهاجرن.

٨ ـ أن هذه الأحكام المذكورة في الآيات من أحكام الله الشرعية التي حكم الله بها بين عباده.

٩ ـ إثبات اسمين من أسماء الله عز وجل، وهما «العليم» و «الحكيم» وصفة العلم الواسع لله ـ عز وجل ـ والحكم التام النافذ والحكمة البالغة.

١٠ ـ يجب إعطاء من فاتتهم زوجاتهم إلى الكفار من الغنيمة إذا لم يعطهم الكفار عوضاً عما أنفقوه عليهن.

١١ ـ وجوب تقوى الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه وأن ذلك من مقتضيات الإيمان.

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٢١.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ «يا» حرف نداء، و«أي» منادى مبني على الضم في محل نصب، لأن المنادى مفعول به منصوب، و«ها» للتنبيه. و«النبي» هو نبينا محمد ﷺ و«ال» فيه للعهد الذهني، أي النبي المعهود المعروف. و«النبي» مشتق من النبأ، لأنه مُنبأ، أي: مُخبَر من الله – عز وجل –، ومُنبئ، أي: مُخبِر لقومه. ومشتق أيضاً من النبوة، وهو المكان المرتفع، لأن الأنبياء ذوو مكانة عالية عند الله وعند المؤمنين.

وتصدير الخطاب للنبي ﷺ بالنداء يدل على التنبيه والعناية والاهتمام. وقد خص الله – عز وجل – نبينا محمداً ﷺ بندائه بوصف النبوة تشريفاً وتكريماً له – ﷺ – وتذكيراً له بنعمة الله – عز وجل – عليه بالنبوة والرسالة، بينما ينادي – عز وجل – سائر الأنبياء بأسمائهم يا نوح، يا إبراهيم، يا موسى، يا داود، يا عيسى بن مريم، ونحو ذلك.

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ «إذا» ظرفية شرطية غير عاملة، أي: إذا جاءك النساء المؤمنات بالله ورسوله وبما جاء عن الله ورسوله.

﴿يُبَايِعْنَكَ﴾ أي: يعاهدنك على هذه الأمور المذكورة، وهذه الشروط.

والمبايعة للرسول – ﷺ – مبايعة لله تعالى كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

وذلك أن المجازي على الوفاء بهذا العهد والعقد هو الله عز وجل كما قال عز وجل: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

وإنما أضيفت المبايعة للرسول ﷺ لأنه هو المباشر لأخذ البيعة منهم، وإلا فمبايعته – ﷺ – ومعاهدته على الدخول في الإيمان، أو على الجهاد وغير ذلك هي مبايعة ومعاهدة لله عز وجل.

عن عبادة بن الصامت – رضي الله عنه قال: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره وعلى أثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله إلا أن

تروا كفراً بواحاً عندكم من الله عليه برهان، وأن نقول الحق أينما كنا وحيثما كنا لا نخاف في الله لومة لائم»[1].

كما أن دخول الإنسان في الإيمان عهد بينه وبين ربه يوجب عليه القيام بحقوقه – عز وجل – وجزاؤه على الله – عز وجل – قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]، وقال عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

﴿عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: على أن لا يشركن بالله شيئاً من الشرك، أو شيئاً من الأشياء.

والشرك: هو اتخاذ شريك مع الله وصرف شيء من حقوق الله لغيره، وتسويته بالله كما ذكر الله عن المشركين أنهم يقولون يوم القيامة ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨].

و«شيئا» نكرة في سياق النفي فتعم كل شرك صغيراً كان أو كبيرا، خفياً كان أو جليا، وتعم كل شيء أشرك به مع الله، أياً كان ذلك الشيء، ومهما كان صغيراً أو كبيراً قليلاً أو كثيراً.

أي: يبايعنك ويعاهدنك على أن لا يشركن بالله شيئاً من الأشياء، ولا شيئاً من الشرك أياً كان ومهما كان، بل يخلصن العبادة لله وحده.

وبدأ بأخذ العهد عليهن بالبراءة من الشرك، لأن الشرك أعظم الذنوب ولا يقبل معه أي عمل، ولا يغفر لمن مات مصراً عليه.

﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾ السرقة: أخذ الشيء خفية، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ [الحجر: ١٨] أي: إلا من استمع خفية، ومنه قولهم: سارقه النظر - إذا نظر إليه بخفية.

والسرقة شرعاً: أخذ مبلغ مخصوص من المال المحترم من مالكه أو نائبه، خفية من حرز معلوم، من غير حق ولا شبهة.

ولهذا فإن للزوجة أن تأخذ من مال زوجها إن كان مقصراً في نفقتها قدر كفايتها لأن لها

---

(١) أخرجه البخاري في الأحكام ٧١٩٩، ومسلم في الإمارة ١٧٠٩، والنسائي في البيعة ٤١٤٩، وابن ماجه في الجهاد ٢٨٦٦.

حقاً في مال زوجها. وفي حديث هند بنت عتبة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بني، فهل عليّ من جناح إن أخذت من ماله بغير علمه؟ فقال رسول الله ﷺ: «خذي من ماله ما يكفيك وولدك بالمعروف»(١).

﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ أي: ولا يطأهن غير أزواجهن، لأن الله عز وجل حرم على المؤمنين الزنا، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: «جاءت فاطمة بنت عتبة تبايع النبي ﷺ فأخذ عليها ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ﴾ الآية. قالت: فوضعت يدها على رأسها حياء، فأعجبه ما رأى منها، فقالت عائشة: أقري أيتها المرأة، فوالله ما بايعنا إلا على هذا: قالت: فنعم إذاً، فبايعها بالآية»(٢).

﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ أي: ولا يقتلن أولادهن من بنين وبنات سواء بعد ولادتهم خشية الفقر أو العار أو غير ذلك – كما كان يفعله أهل الجاهلية قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨، ٩] ، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١].

أو بقتلهم وهم أجنة في بطونهن بأن تلقي الواحدة منهن نفسها من مكان مرتفع أو تتعمد حمل شيء يقتل ونحو ذلك لأجل إسقاط حملها، أو بإجراء عملية لإجهاض حملها سواء كان ذلك مخافة الفقر أو العار، أو لإراحة نفسها منه، أو لغير ذلك من الأغراض الفاسدة المحرمة. فهذا كله من قتل النفس المعصومة التي حرم الله قتلها إلا بالحق، وهو من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله.

﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ﴾ البهتان في الأصل: الكذب، وسمي الكذب بهتاناً لأنه يبهت ويحير من رُمي به، كما أنه يبهت الكذاب نفسه في النهاية.

---

(١) أخرجه البخاري في الأحكام ـ القضاء على الغائب ٧١٨٠، ومسلم في الأقضية ـ قضية هند ١٧١٤، وأبو داود في البيوع ٣٥٣٢، والنسائي في آداب القضاة ٥٤٢٠، وابن ماجه في التجارات ٢٢٩٣ – من حديث عائشة – رضي الله عنها.

(٢) أخرجه أحمد ٦/ ١٥١.

﴿يَفْتَرِينَهُۥ﴾ أي: يختلقنه كذبا.

﴿بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ أي: يحملنه بين أيديهن في بطونهن، ويلدنه بين أرجلهن مع فروجهن. والبطن والفرج كل منهما بين اليدين والرجلين. والمراد: ولا يأتين بحمل يلدنه وينسبنه كذباً إلى أزواجهن.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول حين نزلت آية الملاعنة: «أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم، فليست من الله في شيء، ولا يدخلها الله جنته، وأيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب الله منه، وفضحه الله على رؤوس الأولين والآخرين يوم القيامة»[(١)].

﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ أي: ولا يعصينك في فعل معروف تأمرهن به. والمعروف: ما تعارف الناس على حسنه وأمر به الشرع، ومن ذلك ترك النياحة على الميت – كما سيأتي في الحديث في مبايعته ﷺ. وقد قال ﷺ: «ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية»[(٢)].

﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾ أي: فعاهدهن على الإسلام، وما أعده الله لمن أسلم منهن من الحياة السعيدة والجزاء الحسن في الجنة. كما قال ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله»[(٣)].

﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ﴾ أي: اطلب لهن المغفرة من الله لما قد يحصل منهن من سهو وخطأ وتقصير – مما لا يسلم منه البشر غالباً.

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: إن الله عز وجل ذو المغفرة التامة، والرحمة الواسعة لمن شاء من عباده، كما قال عز وجل: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨].

وهكذا بايع رسول الله – ﷺ – المؤمنات، كما أمره الله – عز وجل – فعن عروة بن

---

(١) أخرجه أبو داود في الطلاق – إذا شك في الولد ٢٢٦٣، والنسائي في الطلاق ٣٤٨١.

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز – ليس منا من ضرب الخدود ١٢٩٧، ومسلم في الإيمان – تحريم ضرب الخدود ١٠٣، والنسائي في الجنائز ١٨٦٠، والترمذي في الجنائز ٩٩٩، وابن ماجه في الجنائز ١٥٨٤ – من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان ٢٢ ـ من حديث عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنه.

الزبير أن عائشة – رضي الله عنها – أخبرته أن رسول الله – ﷺ – كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قال عروة: قالت عائشة: فمن أقرت بهذا الشرط من المؤمنات، قال لها رسول الله – ﷺ –: «قد بايعتك»، كلاماً، ولا والله ما مست يده يد امرأة قط في المبايعة، ما يبايعهن إلا بقوله: «قد بايعتك على ذلك»[(١)].

وعن أميمة بنت رقيقة، قالت: «أتيت رسول الله – ﷺ – في نساء لنبايعه، فأخذ علينا ما في القرآن: ﴿لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ الآية، وقال: «فيما استطعتن وأطقتن» قلنا: الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا، قلنا: يا رسول الله، ألا تصافحنا؟ قال: «إني لا أصافح النساء، إنما قولي لامرأة واحدة كقولي لمائة امرأة» ولم يصافح منا امرأة»[(٢)].

وفي حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: جاءت أميمة بنت رقيقة إلى رسول الله ﷺ تبايعه على الإسلام، فقال: «أبايعك على أن لا تشركي بالله شيئاً، ولا تسرقي، ولا تزني، ولا تقتلي ولدك، ولا تأتي ببهتان تفترينه بين يديك ورجليك، ولا تنوحي، ولا تبرجي تبرج الجاهلية الأولى»[(٣)].

وفي رواية عن أميمة أنها دخلت على رسول الله – ﷺ – في نسوة، فقلن: «يا رسول الله ابسط يدك نصافحك. فقال: «إني لا أصافح النساء، ولكن سآخذ عليكن» فأخذ علينا حتى بلغ: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾: «فيما أطقتن واستطعتن» فقلن: الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا»[(٤)].

وعن سلمى بنت قيس، وكانت إحدى خالات رسول الله – ﷺ – قد صلت معه القبلتين، وكانت إحدى نساء بني عدي بن النجار، قالت: «جئت رسول الله – ﷺ – فبايعته في نسوة من الأنصار، فلما شرط علينا ألا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف – قال: «ولا تغشُشن أزواجكن». قالت: فبايعناه، ثم انصرفنا، فقلت لامرأة منهن: ارجعي فسلي رسول الله – ﷺ – ما غش أزواجنا؟ فسألته، فقال: «تأخذ ماله، فتحابي به غيره»[(٥)].

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الممتحنة ٤٨٩١، ومسلم في الإمارة ١٨٦٦، والترمذي في تفسير سورة الممتحنة ٣٣٠٦، وابن ماجه في الجهاد ٢٨٧٥، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٧٦.

(٢) أخرجه الترمذي في السير – ما جاء في بيعة النساء ١٥٩٧، وابن ماجه في الجهاد – بيعة النساء ٢٨٧٤، وأحمد ٦/ ٣٥٦. وقال الترمذي «حديث حسن صحيح» وقال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١٢٢ عن إسناد أحمد «هذا إسناد صحيح».

(٣) أخرجه أحمد ١/ ١٩٦ ، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٩٧.

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٩٨ – ٥٩٩.

(٥) أخرجه أحمد ٦/ ٣٧٩ – ٣٨٠، ٦/ ٤٢٢ – ٤٢٣، وانظر «أسد الغابة» ٧/ ١٤٩ ترجمة سلمى بنت قيس.

وعن عائشة بنت قدامة بن مظعون، قالت: «أنا مع أمي رائطة بنت سفيان الخزاعية، والنبي - ﷺ - يبايع النسوة، ويقول: «أبايعكن على أن لا تشركن بالله شيئاً، ولا تسرقن، ولا تزنين، ولا تقتلن أولادكن ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن، ولا تعصينني في معروف» قالت: فأطرقن، فقال لهن النبي ﷺ: «قلن نعم فيما استطعتن» فكن يقلن وأقول معهن، وأمي تلقنني قولي أيْ بنية: نعم، فيما استطعت، فكنت أقول كما يقلن»[١].

وعن أم عطية قالت: «بايعنا رسول الله - ﷺ - فقرأ علينا ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ ونهانا عن النياحة فما وفت منا امرأة غير خمس نسوة: أم سليم، وأم العلاء، وابنة أبي سبرة امرأة معاذ، وامرأتان - أو ابنة أبي سبرة، وامرأة معاذ، وامرأة أخرى»[٢].

وكان - ﷺ - يتعاهد النساء بهذه البيعة يوم العيد[٣] تأكيداً لذلك.

فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «شهدت الصلاة يوم الفطر مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان، فكلهم يصليها قبل الخطبة، ثم يخطب بعد، فنزل نبي الله ﷺ فكأني أنظر إليه حين يجلس الرجال بين يديه، ثم أقبل يشقهم حتى أتى النساء مع بلال، فقرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ حتى فرغ من الآية كلها، ثم قال حين فرغ: «أنتن على ذلك؟» فقالت امرأة واحدة، لم يجبه غيرها: نعم يا رسول الله - قال: «فتصدقن» قال: فبسط بلال ثوبه، فجعلن يلقين الفتخ والخواتيم في ثوب بلال»[٤].

وعن عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - قال: كنا مع رسول الله ﷺ فقال: «تبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم» - وقرأ الآية التي أخذت على النساء: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله عليه، فهو إلى الله، إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه»[٥].

---

(١) أخرجه أحمد ٦/ ٣٦٥، وانظر «أسد الغابة» ٧/ ١٩٤ ترجمة عائشة بنت قدامة.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الممتحنة ٤٨٩٢، ومسلم في الجنائز ـ التشديد في النياحة ٩٣٦، وأبو داود في الجنائز ٣١٢٧، والنسائي في البيعة ٤١٧٩، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٥٩٨ - ٦٠١.

(٣) انظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ١٢٣.

(٤) أخرجه البخاري في الجمعة ٩٧٩، ومسلم في العيدين ٨٨٥، وأبو داود في الصلاة ١١٤١، والنسائي في صلاة العيدين ١٥٧٥.

(٥) أخرجه البخاري في الأحكام ٧٢١٣، ومسلم في الحدود - الحدود كفارات لأهلها ١٧٠٩، والنسائي في البيعة ٤١٦١، والترمذي في الحدود ١٤٣٩.

وفي رواية لابن إسحاق عن عبادة بن الصامت – رضي الله عنه – قال: «كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلاً، فبايعنا رسول الله – ﷺ – على بيعة النساء، وذلك قبل أن يفرض الحرب، على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف. وقال «فإن وفيتم فلكم الجنة»[١].

قال القرطبي[٢]: «قال المهدوي: أجمع المسلمون على أنه ليس للإمام أن يشترط عليهن هذا، والأمر بذلك ندب لا إلزام. وقال بعض أهل النظر: إذا احتيج إلى المحنة من أجل تباعد الدار كان على إمام المسلمين إقامة المحنة».

الفوائد والعبر:

١ ـ تصدير الخطاب للنبي ﷺ بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام.

٢ ـ نداؤه ﷺ بوصف النبوة تشريفاً وتكريماً له، وتذكيراً له بنعمة الله ـ عز وجل ـ عليه بالنبوة وإشارة لفضله ﷺ على سائر الأنبياء.

٣ ـ مشروعية مبايعة النساء المؤمنات على الشروط المذكورة في الآية.

٤ ـ أمر الله ـ عز وجل ـ لنبيه ﷺ بالاستغفار للمؤمنات بعد مبايعتهن لما قد يحصل منهن من تقصير وترغيباً لهن وتثبيتاً.

٥ ـ في الشروط المذكورة في مبايعة المؤمنات في هذه الآية دلالة على شمول البيعة لفعل كل ما أمر الله به واجتناب كل ما نهى الله عنه، لأن الله أخذ عليهن فيها الإيمان بالله وحده لا شريك له، واجتناب السرقة والزنا وقتل أولادهن، وألا يأتين بولد من الزنا ينسبنه كذبا لأزواجهن، وألا يعصين الرسول ﷺ فيما يأمرهن به من معروف وهذا شامل لكل ما جاء به الدين.

٦ ـ أن الشرك أعظم الذنوب لهذا جعل البعد عنه أول الشروط في البيعة، وأن الزنا والسرقة وقتل الولد والإتيان بولد من الزنا ونسبته للزوج ـ هذه من أكبر الكبائر لهذا خصها بالذكر.

٧ ـ أن الطاعة بالمعروف لقوله «ولا يعصينك في معروف».

٨ ـ إثبات اسمين من أسماء الله ـ عز وجل ـ وهما «الغفور» و«الرحيم» وإثبات صفة المغفرة التامة له عز وجل، والرحمة الواسعة.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٥١ – الأثر ١٨٨٧١.

(٢) في «الجامع لأحكام القرآن» ١٨/ ٧٦.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾ ﴾

ختم الله – عز وجل – هذه السورة بما بدأها به وهو نهي المؤمنين عن موالاة الكافرين تأكيداً لذلك وتحريضاً للمؤمنين على عداوة الكافرين.

قوله ﴿لَا تَتَوَلَّوْاْ﴾ أي: لا تتخذوهم أولياء توادونهم وتناصرونهم وتركنون إليهم.

﴿قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: اليهود قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١]، وقال تعالى ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وقد قال رسول الله ﷺ: «المغضوب عليهم اليهود»(١).

والغضب ـ وإن كان من أخص أوصاف اليهود الذين عرفوا الحق وتركوه، لكن كل من كفر وجحد شريعة الله فله نصيب من غضب الله عز وجل بقدر منزلته وهكذا كل عاص لله – عز وجل – له نصيب من ذلك بقدر معصيته.

﴿قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْأٓخِرَةِ﴾ «قد» للتحقيق، أي: قد تحقق يأسهم من ثواب الآخرة ونعيمها في حكم الله – عز وجل – فلاحظ لهم فيها ولا نصيب.

﴿ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ الكاف: للتشبيه، و«ما» مصدرية، أو موصولة، والتقدير يأساً كيأس الكفار، أي مثل يأس الكفار، أو كاليأس الذي يئسه الكفار.

ومعنى ﴿ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ أي: كما يئس الكفار الذين ماتوا على الكفر ودفنوا في القبور من ثواب الآخرة، ومن كل خير، بعدما عاينوا في القبور أعمالهم السيئة ومصيرهم السيء، إذ ليس بعد الموت من مستعتب. وليس بعد الدنيا من دار إلا الجنة للأبرار، والنار للكفار، وبئس القرار.

ويحتمل أن المعنى: كما يئس الكفار الأحياء من بعث أصحاب القبور، لأنهم ينكرون البعث بعد الموت. ولا مانع من حمل الآية على المعنيين. وفي ذلك إيذان بكفرهم وشدة يأسهم من الآخرة.

---

(١) كما في حديث عدي بن حاتم – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – ﷺ – «المغضوب عليهم» اليهود، و«الضالين» النصارى». أخرجه الترمذي في تفسير سورة الفاتحة ٢٩٥٣، ٢٩٥٤، وأحمد ٤/ ٣٧٨ – ٣٧٩. وإسناده صحيح.

الفوائد والعبر:

١ ـ تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام ونداؤهم بوصف الإيمان تشريفاً وتكريماً لهم وحثاً على الاتصاف بهذا الوصف وترك المنهي عنه بعده.

٢ ـ نهي المؤمنين عن موالاة المغضوب عليهم وهم اليهود.

٣ ـ تأكيد حرمة موالاة غير المؤمنين فقد بدئت السورة بالنهي عن موالاة المشركين وختمت بالنهي عن موالاة اليهود المغضوب عليهم.

٤ ـ غضب الله ـ عز وجل ـ على اليهود ـ لتركهم الحق بعد معرفته.

٥ ـ كفر اليهود ويأسهم من ثواب الآخرة فلاحظ لهم فيها ولا نصيب.

تفسير سورة الصف

عن عبد الله بن سلام – رضي الله عنه – قال: «قعدنا نفر من أصحاب رسول الله – ﷺ – فتذاكرنا، فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله تعالى لعملناها، فأنزل الله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا﴾ حتى ختمها. قال عبد الله: فقرأها علينا رسول الله – ﷺ – حتى ختمها»[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ۝﴾

قوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ سبق الكلام على هذا في مطلع سورة الحديد وسورة الحشر.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «في قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ قال: كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد، يقولون: لوددنا أن الله - عز وجل – دلنا على أحب الأعمال إليه، فنعمل به، فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إيمان به لا شك فيه، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقروا به، فلما نزل الجهاد كره ذلك أناس من المؤمنين، وشق عليهم أمره، فقال الله سبحانه: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾»[2].

«لِمَ» اللام حرف جر، و«ما» استفهامية حذفت ألفها للتخفيف، أي: لماذا ﴿تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ و«ما» موصولة، أو نكرة موصوفة بمعنى شيء، أي: لم تقولون الذي لا تفعلونه، أو لم تقولون شيئاً لا تفعلونه. وهذا إنكار من الله عز وجل على من يقول من المؤمنين قولاً لا يتبعه بالفعل أو يعد وعداً ولا يفي به.

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٤٥٢، والترمذي في تفسير سورة الصف ٣٣٠٩، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٥٣ – الأثر ١٨٨٨٠، والحاكم ٢/ ٦٩، ٢٢٩، ٤٨٧. وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وقال ابن حجر في «فتح الباري» ١٠/ ٢٦٥، «إسناده صحيح».

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٦٠٦ – ٦٠٧.

قال القرطبي[1]: «قوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ استفهام على جهة الإنكار والتوبيخ على أن يقول الإنسان عن نفسه من الخير ما لا يفعله. أما في الماضي فيكون كذباً، وأما في المستقبل فيكون خلفاً وكلاهما مذموم».

وفي قوله: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ تعريض بأن العافية لا يعد لها شيء، وأن السلامة غنيمة وأن الأولى أن لا يسأل الإنسان أو يتمنى أمراً قد لا يفي بفعله، أو يلزم نفسه بما لم يلزمه الله به كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [محمد: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [النساء: ٧٧].

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ هذا تأكيد للإنكار عليهم و«كبر» بمعنى «عظم» و«مقتاً» منصوب على التمييز والتفسير، كقول القائل: كبر قولاً هذا القول ومعنى ﴿مَقْتًا﴾ أي: بغضاً.

﴿عِندَ اللَّهِ﴾ أي: في حكم الله.

﴿أَن تَقُولُوا﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع فاعل «كبر»، و«ما» موصولة، أي: كبر مقتا عند الله قولكم الذي لا تفعلونه.

والمعنى: عظم بغضاً في حكم الله قولكم قولاً لا تفعلونه ولا تفون به.

والمقت: البغض الشديد، ولهذا قال عز وجل عن نكاح زوجات الآباء ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر: ١٠].

عن عبد الله بن عامر بن ربيعة، قال: أتانا رسول الله - ﷺ - في بيتنا، وأنا صبي، قال: فذهبت لأخرج لألعب، فقالت أمي: يا عبد الله تعال أعطك. فقال لها رسول الله ﷺ: «وما أردت أن تعطيه؟» قالت: تمراً. فقال: «أما إنك لو لم تفعلي كتبت عليك

---

(١) في «الجامع لأحكام القرآن» ١٨/ ٨٠.

كذبة»[١].

ويكفي في شناعة القول بلا فعل والوعد بلا وفاء أنه مبغض عند الله، ومن أخص صفات المنافقين، كما قال ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»[٢].

وعن عبد الله بن عمرو – رضي الله عنه -: أن النبي ﷺ قال: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»[٣].

فالقول بلا فعل، والوعد بلا وفاء أمر محرم لا يجوز، وليس من صفات المؤمنين بل من صفات المنافقين إذ الواجب الوفاء بالعهد والوعد، وإتباع القول بالفعل، وأن لا يقول الإنسان ما لا يفعل، فإن الله عز وجل أنكر على المؤمنين القول بلا فعل أشد الإنكار.

قال القرطبي[٤]: «وهذه الآية توجب على كل من ألزم نفسه عملاً فيه طاعة أن يفي بها».

وفي حديث أبي موسى – رضي الله عنه -: «وكنا نقرأ سورة كنا نشبهها بإحدى المسبحات، فأنسيتها، غير أني حفظت منها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ فتكتب شهادة في أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة»[٥].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾

هذا ظاهر العلاقة في سبب النزول حيث سألوا عن أحب الأعمال إلى الله، فهو أشبه بالجواب على سؤالهم.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ﴾ أي: الذين يقاتلون لإعلاء كلمة الله عز وجل. كما في حديث أبي موسى - رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ سئل عن الرجل يقاتل حمية، والرجل يقاتل شجاعة، والرجل يقاتل ليرى مكانه، أي ذلك في سبيل

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب – باب في الكذب ٤٩٩١، وأحمد ٣/ ٤٤٧.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان ٣٣، ومسلم في الإيمان ٥٩، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٥٠٢١، والترمذي في الإيمان ٢٦٣١ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان – علامة المنافق ٣٤، ومسلم في الإيمان – بيان خصال المنافق ٥٨، وأبو داود في السنة ٤٦٨٨، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٥٠٢٠، والترمذي في الإيمان ٢٦٣٢.

(٤) في «الجامع لأحكام القرآن» ١٨/ ٧٨.

(٥) أخرجه مسلم في الزكاة ١٠٥٠.

الله؟ فقال ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»[١].

﴿صَفًّا﴾ أي: مصطفين في مواجهة العدو.

﴿كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ أي: كأنهم في اصطفافهم للقتال تجاه العدو ﴿بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ أي: مثبت ملتصق بعضه ببعض، أي: ليس بينهم في صفوفهم ثغرات أو منافذ يدخل منها العدو، وقلوبهم مجتمعة على الحق ليس بينهم اختلاف.

ويؤخذ من هذا فضل الجهاد والمجاهدين، وأن الجهاد من أحب الأعمال إلى الله عز وجل، وأن من أحب عباده إليه الذين يقاتلون في سبيله راصين صفوفهم كالبنيان المرصوص. قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَـٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٥، ٩٦].

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: سئل النبي – ﷺ – أي الأعمال أفضل؟ قال: «إيمان بالله ورسوله» قيل: ثم ماذا؟ قال: «جهاد في سبيل الله» قيل: ثم ماذا؟ قال: «حج مبرور»[٢].

وعن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يضحك الله إليهم: الرجل يقوم من الليل، والقوم إذا اصطفوا للصلاة، والقوم إذا صفوا للقتال»[٣].

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – ﷺ –: «إن في الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيله»[٤].

وعنه – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «تكفل الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي، وإيمان بي، وتصديق برسلي، فهو ضامن علي أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة»[٥].

---

(١) اخرجه البخاري في العلم ١٢٣، ومسلم في الإمارة ١٩٠٤، وأبو داود في الجهاد ٢٥١٧، والنسائي في الجهاد ٣١٣٦، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٤٦، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٨٣.

(٢) أخرجه البخاري في الحج ١٥١٩، ومسلم الإيمان ٨٣، والنسائي في مناسك الحج ٢٦٢٤، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٥٨.

(٣) أخرجه أحمد ٣/ ٨٠، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٢٠٠.

(٤) أخرجه البخاري في الإيمان ٦، ومسلم في الإمارة ١٨٧٦، والنسائي في الجهاد ٣١٢٢، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٥٣.

(٥) أخرجه البخاري في الإيمان ٣٦، ومسلم في الإمارة ١٨٧٦.

الفوائد والعبر:

١ ـ تسبيح جميع ما في السموات وما في الأرض لله ـ عز وجل ـ بلسان المقال أو الحال أو بهما جميعاً.

٢ ـ إثبات اسمين من أسماء الله ـ عز وجل ـ، وهما «العزيز» و «الحكيم» وأن له عز وجل العزة التامة: عزة القوة، وعزة القهر، وعزة الامتناع، وله الحكم التام النافذ بأقسامه: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وله الحكمة البالغة بقسميها: الحكمة الغائية والحكمة الصورية.

٣ ـ تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء لتنبيههم لأهمية الخطاب ونداؤهم بوصف الإيمان تشريفاً وتكريماً لهم وحثا على الاتصاف بهذا الوصف والانتهاء عما نُهي عنه بعد هذا النداء.

٤ ـ الإنكار والتوبيخ لمن يقول من المؤمنين قولاً لا يتبعه بالفعل وتأكيد حرمة ذلك وشدة بغض الله له.

٥ ـ وجوب إتباع القول بالعمل والحذر من صفات المنافقين الذين يقولون ما لا يفعلون.

٦ ـ محبة الله ـ عز وجل ـ للمجاهدين في سبيله متراصة صفوفهم كالبنيان المرصوص مجتمعة قلوبهم على الحق، وفي هذا إثبات المحبة لله ـ عز وجل على ما يليق بجلاله وعظمته، وتحريض المؤمنين وحثهم على القتال في سبيله.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾.

صلة الآيتين بما قبلهما:

عاتب الله عز وجل المؤمنين، وأنكر عليهم أن يقولوا ما لا يفعلون، ثم أتبع ذلك بذكر شيء مما جرى لموسى وعيسى عليهما السلام من قومهما من الأذى والمخالفة، تسلية للرسول - ﷺ - تجاه تكذيب قومه وأذاهم له، وترغيباً له بالصبر.

عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: لما قسم النبي - ﷺ - قسمة حنين قال رجل من الأنصار: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله، فأتيت النبي - ﷺ - فأخبرته فتغير وجهه، ثم قال: «رحمة الله على موسى لقد أوذي أكثر من هذا فصبر»[(١)].

كما أن في ذلك تحذيراً للمكذبين من قومه ﷺ والسعيد من وعظ بغيره.

قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ الواو: استئنافية، و«إذ» ظرف زمان بمعنى «حين»، أي: واذكر حين قال نبي الله وكليمه موسى بن عمران - عليه السلام - لقومه بني إسرائيل.

﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى﴾ صدر الخطاب لهم بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام. والقوم هم الجماعة من الناس. ﴿لِمَ﴾ اللام حرف جر، و«ما» للاستفهام حذفت ألفها للتخفيف، أي: لماذا ﴿تُؤْذُونَنِى﴾ وفي هذا شيء من التلطف معهم. والأذى: ما يتأذى به الإنسان من قول أو فعل ومن ذلك قولهم عنه عليه السلام بأنه آدر، أي: منتفخ الخصيتين[(٢)]: ولهذا قال تعالى محذراً المؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩].

ومن أذاهم له عليه السلام الصد عن دينه والمخالفة له ولدعوته ولهذا قال: ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ الواو: حالية، و«قد» للتحقيق، أي: والحال أنكم قد تعلمون أني رسول الله إليكم علماً يقينياً، حقاً وصدقاً، أي: تعلمون صدقي فيما جئتكم

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٤٣٣٥، ومسلم في الزكاة ١٠٦٢.

(٢) كما جاء في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٤٠٤، ومسلم في الفضائل ٣٣٩، والترمذي في التفسير ٣٢٢١، وأحمد ٢/ ٥١٤ - ٥١٥.

به من الآيات الشرعية والكونية من عند الله – عز وجل – الدالة على صدق رسالتي إليكم. ولهذا استحق اليهود غضب الله لأنهم عرفوا الحق وتركوه.

والرسول: هو من أوحي إليه بوحي وأمر بتبليغه.

وفي إضافة «رسول» إلى الله – عز وجل – تعظيم لشأن الرسول «موسى عليه السلام» فإن الرسول يعظم بعظم المرسِل له وفي قوله ﴿إِلَيْكُمْ﴾ تذكير لقومه بني إسرائيل بعناية الله بهدايتهم، والتشديد في إقامة الحجة عليهم.

وفي قوله: ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ نوع من التلطف معهم واستعطاف قلوبهم ولكن ذلك لم ينجع فيهم لقساوة قلوبهم.

﴿فَلَمَّا زَاغُوا﴾ أي: فلما عدلوا ومالوا عن اتباع الحق. والزيغ: الميل والعدول عن الحق مع معرفته والعلم به.

﴿أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أي: أمالها وصدها عن الحق والهدى وجعلها محلا للشك والشرك والنفاق والحيرة والخذلان، ترى المنكر معروفاً والمعروف منكراً. وذلك أن الجزاء من جنس العمل، والسيئة تجر للسيئة بعدها كما قال تعالى ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٨ – ١٠]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

فالسيئات والمعاصي يجر بعضها بعضاً، وبعضها إلى بعض أسرع من السيل إلى منحدره، مما يوجب البعد عنها والحذر منها.

وخص القلوب بالزيغ لأنها محل الصلاح والفساد من الجسد كما قال ﷺ: «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»[1].

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ هداية الله تنقسم إلى قسمين: هداية دلالة وإرشاد،

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٢، ومسلم في المساقاة ١٥٩٩، وابن ماجه في الفتن ٣٩٨٤، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

وهذه عامة للفاسقين وغيرهم. لأن الله أرشد إلى الحق ودل عليه بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وبما وهب البشر من الأفئدة والأبصار والأسماع التي بها تقوم عليهم الحجة.

والقسم الثاني: هداية التوفيق والقبول، وهذه خاصة بالله عز وجل وهي المنفية عن الفاسقين في قوله ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾.

و«الفاسقين» جمع فاسق، والفسق: هو الخروج عن طاعة الله وعن الصلاح إلى الفساد. ولهذا تسمى الفواسق الخمس بالفواسق، لأنها تخرج وتسعى للإفساد.

فجمع الله – عز وجل – لمن آذوا رسوله موسى عليه السلام وزاغوا عن الحق عقوبتين الأولى: إزاغة وإمالة قلوبهم عن الحق، والثانية: عدم هدايتهم له. وهتان العقوبتان لكل من زاغ ومال عن الحق من أمة محمد – ﷺ – من باب أولى – لوضوح الحق الذي جاء به – ﷺ – وفضل دينه على سائر الأديان، وفضله ﷺ على سائر الرسل عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام.

﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾

ذكر الله – عز وجل – ما جرى لموسى – عليه السلام ـ مع قومه، ثم أتبع ذلك بذكر ما جرى لعيسى – عليه السلام – مع قومه.

قوله: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ أي: واذكر حين قال عيسى بن مريم عليه السلام لقومه ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم﴾ وعيسى هو آخر أنبياء بني إسرائيل.

ويذكر عيسى بن مريم – غالباً – في القرآن الكريم منسوباً لأمه بينما يذكر بقية الأنبياء بلا نسبة ولا لآبائهم، وذلك للتذكير بعظيم قدرة الله – تعالى – في خلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وذلك آية من آيات الله عز وجل.

وهو معدود في القرآن من ذرية إبراهيم عليه السلام ـ وإن كان ابن بنته ـ لأنه لا أب له، وذلك في قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الآيات: ٨٣ – ٨٥].

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ صدر الخطاب لهم بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام.

و(بنو إسرائيل) هم بنو يعقوب عليه السلام وذريته وإسرائيل: هو يعقوب عليه السلام.

﴿ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم ﴾ إخبار وإعلام من عيسى - عليه السلام - لبني إسرائيل أنه مرسل من عند الله إليهم، وفي قوله: ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ بإضافة «رسول» إلى الله – عز وجل – تعظيم لشأن عيسى عليه السلام. وفي قوله: ﴿إِلَيۡكُم﴾ توكيد لعناية الله بهدايتهم والتشديد في إقامة الحجة عليهم.

﴿مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾ «مصدقاً» حال، أي: حال كوني ﴿مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾ أي: لما سبقني من التوراة، التي بشّرت بي، وأنا مصداق ما أخبرت به.

فرسالة عيسى عليه السلام تصديق لما جاء في التوراة من البشارة به، وتصديق لها بأنها حق، وهو وكتابه الإنجيل متمم للتوراة ولرسالة موسى عليهما السلام. وهكذا جميع الكتب السماوية يصدق بعضها بعضا ويشهد بعضها لبعض.

﴿وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وحال كوني (مبشراً برسول) ونكر «رسول» للتعظيم. والمبشِّر: المخبر بما يَسُر، والبشارة: الخبر السار. سميت بذلك أخذاً من البشرة، لأن الإنسان إذا أخبر بما يسر استنارت بشرته وظهر ذلك على أسارير وجهه.

﴿يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ وهو نبينا محمد ﷺ أفضل الرسل وخاتم الأنبياء، اسمه أحمد ومحمد قال ﷺ: «إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب»[١].

وعن أبي موسى الأشعري – رضي الله عنه – قال: سمى لنا رسول الله – ﷺ – نفسه أسماء، منها ما حفظنا، فقال: «أنا محمد وأحمد والمقفي والحاشر، ونبي التوبة، ونبي الرحمة»[٢]. وفي رواية «ونبي الملحمة»[٣].

ويؤخذ من قوله ﴿وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ بشارة عيسى عليه السلام بمحمد ﷺ، والشهادة له بالرسالة وأن عيسى عليه السلام هو آخر أنبياء بني إسرائيل وبعده محمد ﷺ أفضل الرسل وخاتمهم.

وعن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك، قال: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي حين حملت بي كأنه

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب ٣٥٣٢، ومسلم في الفضائل – باب في أسمائه ﷺ ٢٣٥٤، والترمذي في الأدب ٢٨٤٠، من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الفضائل ٢٣٥٥. وأخرجه أحمد ٥/ ٤٠٥ من حديث حذيفة رضي الله عنه.

(٣) أخرجها أحمد ٤/ ٣٩٥، ٤٠٤ – من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام»[١].

وعن العرباض بن سارية – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «إني عند الله لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأنبئكم بأول ذلك: دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي، ورؤيا أمي التي رأت، وكذلك أمهات النبيين يرين»[٢].

وعن أبي أمامة – رضي الله عنه – قال: قلت: يا نبي الله، ما كان بدء أمرك؟ قال: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي أنه يخرج منها نور، أضاءت له قصور الشام»[٣].

والمراد بدعوة إبراهيم حين قال: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وهكذا شهد النجاشي برسالته ﷺ كما في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في قصة هجرتهم إلى الحبشة حيث قال النجاشي: «أشهد أنه رسول الله، فإنه الذي نجد في الإنجيل، وإنه الرسول الذي بشّر به عيسى بن مريم..»[٤].

وكما بشر عيسى عليه السلام في الإنجيل بمحمد – ﷺ – فقد بشر به موسى عليه السلام في التوراة، وأخذ الله العهد على النبيين بالإيمان به قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

قال ابن عباس – رضي الله عنهما – «ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه العهد لئن بعث محمد وهو حي ليتبعنه، وأخذ عليه أن يأخذ على أمته: لئن بعث محمد وهم أحياء ليتبعنه وينصرنه»[٥].

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُواْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: فلما جاءهم الرسول المبشَّر به محمد ﷺ «بالبينات» أي: بالآيات البينات والحجج الواضحات، والبراهين القاطعات من الأدلة الكونية والشرعية قال الكافرون من قومه من المشركين ومن أهل الكتاب ﴿هَـٰذَا سِحْرٌ

---

(١) أخرجه ابن إسحاق، انظر «السيرة النبوية» لابن هشام ١/ ١٦٦ – قال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١٣٦: «هذا إسناد جيد».
(٢) أخرجه أحمد ٤/ ١٢٧، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٦١٣.
(٣) أخرجه أحمد ٥/ ٢٦٢.
(٤) أخرجه أحمد ١/ ٤٦١.
(٥) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١٣٦.

مُّبِينٌ﴾ أي: إن ما جاء به من الوحي ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: سحر بين ظاهر في نفسه أنه سحر، ومبين أمر الذي جاء به أنه ساحر.

والسحر: عقد تعقد وينفث فيها، تؤثر في العقول والأبدان والأبصار بإذن الله الكوني - كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وهكذا دأب المكذبين للحق، ولدعاته من الرسل وأتباعهم عندما تعيى بهم الحيل أمام الحق الواضح الصريح، ولا يستطيعون له دفعاً فإنهم يلجؤون إلى مثل هذه التهم الباطلة من الرمي بالسحر ونحو ذلك[١]، فلينتبه لهذا الدعاة والمصلحون والموجهون، وليأخذوا منه العظة والعبرة فإن طريق الدعوة ليس مفروشاً بالورود والرياحين، بل هو طريق شاق يحتاج إلى تحمل وصبر ومرابطة قال ﷺ: «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات»[٢].

ولقد أحسن القائل:

ودرب الصاعدين كما علمتم   به الأشواك تكثر لا الورود[٣]

الفوائد والعبر:

١ ـ تسلية النبي ﷺ وتقوية قلبه وترغيبه في الصبر على أذى قومه بذكر ما حصل لموسى وعيسى عليهما السلام من قومهما من الأذى والتكذيب.

٢ ـ تحذير المكذبين له ﷺ من سلوك طريق اليهود والنصارى في تكذيبهم لأنبيائهم وأذيتهم لهم.

٣ ـ أن اليهود عرفوا الحق وتركوه ولهذا استحقوا غضب الله عليهم لتمام قيام الحجة عليهم.

٤ ـ تلطف موسى عليه السلام مع قومه في الخطاب ولكن ذلك لم ينجع فيهم لقساوة قلوبهم.

٥ ـ إثبات رسالة موسى وعيسى عليهما السلام وتشريفهما وجميع الرسل بإضافتهم إلى الله ـ عز وجل.

٦ ـ أن المعصية والسيئة تجر إلى ما هو أعظم وأكبر منها، وأن الجزاء من جنس العمل لقوله ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾.

٧ ـ عدم توفيق الله للفاسقين الخارجين عن طاعته.

٨ ـ أن عيسى عليه السلام جاء مكملاً، ومصدقاً لرسالة موسى عليه السلام وللتوراة.

٩ ـ شهادة عيسى عليه السلام وغيره من الأنبياء بصدق رسالة محمد ﷺ والبشارة به.

١٠ ـ أن من أسمائه ﷺ «أحمد».

١١ ـ تكذيب المشركين لرسول الله ﷺ ولما جاءهم به من الآيات البينات الشرعية والكونية ووصفهم لما جاءهم به بأنه سحر مبين وهكذا دأب المكذبين للحق.

---

(١) كما جعل كثير من شياطين الإنس والجن الاتهام للأبرياء بالعين وسيلة للتفريق بين المسلمين من الأقارب وغيرهم، فإذا أرادوا التحريش بين اثنين وإيقاع العداوة بينهما، قالوا: إن فلاناً قد أصابك بعينه، أو أنه عيّان، فاحذر منه، ومع ضعف الإيمان وضعف التوكل على الله، وخوف الكثيرين من الناس ما لا يخافون من الله ـ صار هذا من أعظم مداخل الشيطان في هذا الزمان للتفريق بين المسلمين من الأقارب وغيرهم، فاحذر أخي الكريم من هذه الوسوسة، وتوكل على الله، ومن توكل عليه كفاه.

(٢) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٢٣، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥٩ – من حديث أنس – رضي الله عنه.

(٣) هذا البيت لوليد الأعظمي شاعر عراقي ضمن قصيدة بعنوان شباب الجيل انظر ديوانه «الزوابع» ص٦٩.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝﴾.

قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ هذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥ﴾ [العنكبوت: ٦٨].

الواو: استئنافية. و«أظلم» على وزن «أفعل» التفضيل، أي: لا أحد أشد ظلماً.

﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ أي: من الذي اختلق على الله الكذب فجعل له الأنداد والشركاء، والصاحبة والولد، وكذب رسله، ورماهم بالسحر كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ [الرعد: ٤٣].

قال الطبري[1]: «ومن أشد ظلماً وعُدواناً ممن اختلق على الله الكذب، وهو قول قائلهم للنبي ﷺ: هو ساحر وما جاء به سحر»

و«أفعل» التفضيل هنا على بابه، لأن أظلم الظلم وأشده الشرك بالله عز وجل، لأن حقه عز وجل أوضح الحقوق وأبينها وأعظمها فمن صرفه لغير الله أو أشرك معه غيره فليس هناك من هو أظلم منه، ولهذا قال لقمان فيما حكى الله عنه: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

والظلم: النقص، قال تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: ٣٣] أي: ولم تنقص منه شيئا.

وهو أيضاً: وضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان.

وهو قسمان: ظلم للنفس بالكفر والمعاصي، وظلم للغير بالتعدي عليهم - وهذا داخل في ظلم النفس.

﴿وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ الواو: للحال، أي: في الحال التي يدعى فيها ﴿إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ أي: إلى الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك. أي: وقد أقيمت الحجة عليه بدعوته إلى الإسلام بالآيات البينات والحجج الواضحات، والبراهين القاطعات فلا حجة له ولا عذر.

---

(١) انظر «جامع البيان» ٢٢/ ٦١٤.

يُدعى إلى أصل الخير ورأسه وأعظمه الإيمان، فيختار أصل الشر ورأسه وأعظمه الشرك، أمره عجيب وحاله مريب ومنقلبه كئيب.

إذ الواجب البحث عن الحق وطريقه لو لم يدع إليه، فكيف يتركه وقد دعي إليه، ويختار طريق الباطل هذا في غاية الظلم والسفه والجهل.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكلام فيه كما سبق في الكلام على قوله ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي: إن الله عز وجل لا يوفق القوم الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي، وظلموا غيرهم بالاعتداء على حقوقهم. وهذا مجازاة لهم حجب الله هدايته عن قلوبهم بسبب ظلمهم، ولهذا قال الله – تعالى – فيهم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [النحل: ١١٦، ١١٧].

﴿يُرِيدُونَ﴾ أي يقصدون ويحاولون بظلمهم.

﴿لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾ اللام للتعليل وهي بمعنى «أن» كما في قوله تعالى في سورة التوبة ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الآية: ٣٢].

أي: يريدون ليطفئوا ويخمدوا ﴿نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾.

ونور الله: هو نور وحيه، نور القرآن – كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨].

ومنه النور الذي يلقيه في قلوب عباده المؤمنين كما قال عز وجل في سورة النور ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ إلى قوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [الآية: ٣٥] وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: بافترائهم الكذب على الله والباطل بقولهم بأفواههم، بجعل الأنداد والشركاء له والصاحبة والولد، وردهم الحق، وقولهم لما جاءهم به الرسول ﷺ من الحق ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وغير ذلك.

وإنما خص الأفواه بالذكر – مع أنهم لم ولن يدخروا وسيلة لرد الحق بقول أو بفعل إلا عملوها ـ إشارة لضعفهم ووهنهم، فهم في هذا أشد ضعفاً ووهناً ممن يريدون إطفاء

نور الشمس بالنفخ بأفواههم.

قال ابن كثير[١]: «أي: يحاولون أن يردوا الحق بالباطل، ومثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس بفيه، وكما أن هذا مستحيل كذاك ذاك مستحيل».

﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف وحفص (مُتِمُّ) بغير تنوين و(نُورِهِۦ) بالخفض، وقرأ الباقون بالتنوين والنصب.

أي: والله مكمل نوره ومظهره على الأديان كلها كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: ولو كره الكافرون إتمام نوره وإكماله.

والكافرون: جمع كافر، وهو من جحد وجود الله وربوبيته وألوهيته أو أسماءه وصفاته، وشريعته، أو شيئاً من ذلك.

قال الطبري[٢]: «والله معلنٌ الحق، ومظهر دينه، وناصر محمداً - ﷺ - على من عاداه، فذلك إتمام نوره وعني بالنور في هذا الموضع الإسلام».

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ هذا كقوله تعالى في سورة التوبة: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الآية: ٣٣]. وقال تعالى في سورة الفتح: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الآية: ٢٨].

أي: هو الله ﴿ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ أي: بعث رسوله محمداً - ﷺ - أفضل الرسل وخاتمهم.

﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾ بالوحي والعلم النافع. ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: والدين الحق وهو العمل الصالح.

وهما رأس مال الإنسان في هذه الحياة: علم نافع وعمل صالح - نسأل الله التوفيق، ولهذا قال ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «قل اللهم إني أسألك الهدى والسداد»[٣].

فالهدى: العلم النافع، والسداد: العمل الصالح.

﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن يجعله ظاهراً عاليا.

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٣٨.

(٢) في «جامع البيان» ٢٢/ ٦١٤.

(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ٢٧٢٥، وأبو داود في الخاتم ٤٢٢٥، والنسائي في الزينة ٥٢١٠ - من حديث علي بن أبي طالب - رضي الله عنه.

﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ (الدين) اسم جنس، أي ليجعله ظاهراً عالياً على الأديان كلها السماوية والأرضية مهيمناً عليها ناسخاً لها.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩] وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ أي: ولو كره المشركون ذلك، أي: ولو كره المشركون ظهور الإسلام على الأديان كلها من الشرك وغيره. فهذا الدين هو الظاهر على الأديان كلها، وأتباعه هم الظاهرون على غيرهم الغالبون لمن سواهم ما إن تمسكوا به، فإن تخلوا عنه واكتفوا بالانتساب إليه فقط، فلا غلبة لهم ولا ظهور، وواقع المسلمين اليوم أكبر شاهد على هذا.

عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: «إن رسول الله ﷺ كان يقول: «لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى» فقلت: يا رسول الله، إن كنت لأظن حين أنزل الله ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ أن ذلك سيكون تاماً. قال: «إنه سيكون من ذلك ما شاء الله، ثم يبعث الله ريحاً طيبة، فيتوفى من كان في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، فيبقى من لا خير فيه، فيرجعون إلى دين آبائهم»[1].

الفوائد والعبر:

١ ـ لا أحد أظلم ممن اختلق على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام فأشرك مع الله غيره وكذب رسله ورماهم وما جاؤوا به من الحق بالسحر.

٢ ـ عدم توفيق الله للظالمين بسبب ظلمهم لأنفسهم ولغيرهم بالشرك والمعاصي ـ بعد إقامة الحجة عليهم.

٣ ـ إرادة المكذبين الظالمين إطفاء نور الله «نور الحق» بافترائهم الكذب بأفواههم وأقوالهم الباطلة وأنى لهم ذلك فالله متم نوره ولو كره الكافرون ذلك ورغم أنوفهم.

٤ ـ الإشارة لعظمة الحق وظهوره وثباته، وأن مثل من يريد إطفاء نوره وإبطاله كمن يحاول عبثاً إطفاء نور الشمس.

٥ ـ الامتنان على العباد بإرساله ـ عز وجل ـ محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق أي: بالعلم النافع والعمل الصالح وإظهاره على جميع الأديان ولو كره المشركون ذلك.

---

(١) اخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة ٢٩٠٧، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/٦١٦، والحاكم ٤/٤٤٦، ٤٤٩.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٣)﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

جاء في سبب نزول هذه السورة أن الصحابة سألوا عن أحب الأعمال إلى الله عز وجل فذكر الله عز وجل في هذه الآيات ما يدل على أن من أهم ذلك الإيمان به والجهاد في سبيله، فذلك التجارة الرابحة.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

«هل» حرف استفهام، وفيه معنى التشويق والترغيب.

و«التجارة» تطلق على عقود المعاوضات التي يطلب بها الأرباح كالبيع والشراء والإجارة ونحو ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ﴾ [النساء: ٢٩].

كما تطلق التجارة على جزاء الأعمال والمتاجرة مع الله - عز وجل - بالإيمان والأعمال الصالحة للفوز بالجنة والنجاة من النار، وهي المرادة بالتجارة هنا في قوله ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ﴾؟ وهي التجارة حقاً.

ولهذا أتبعها بقوله ﴿تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وفسرها بقوله ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ﴾ كما قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩].

ونكرت تجارة هنا للتعظيم. قال ﷺ: «من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن

سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة»[1].

قال ابن القيم رحمه الله[2]:

يا سلعة الرحمن لست رخيصة بل أنت غالية على الكسلان

يا سلعة الرحمن ليس ينالها في الألف إلا واحد لا اثنان

﴿تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: تكون سبباً في نجاتكم وسلامتكم ﴿مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وهو عذاب النار، لأن الإيمان والعمل الصالح إنما هو سبب لدخول الجنة والنجاة من النار، وليس بعوض عن دخول الجنة كما يقوله المعتزلة. ودخول الجنة والنجاة من النار إنما هو برحمة أرحم الراحمين، ولهذا قال ﷺ: «لن يدخل أحداً عملُه الجنة قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل، فسددوا وقاربوا ولا يتمنين أحدكم الموت، إما محسناً فلعله أن يزداد خيراً، وإما مسيئاً فلعله أن يستعتب»[3].

و«أليم» «فعيل» بمعنى «مفعل» أي: موجع حساً ومعنى، وهو عذاب النار، العذاب الأكبر والأشد مع ما يسبقه من العذاب الدنيوي بالأنفس والأموال وفقدان السعادة لمن خالف أمر الله.

وقدم قوله: ﴿تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ على تفسير وبيان التجارة تشويقاً للتجارة وقدم النجاة من النار على دخول الجنات لأن التخلية قبل التحلية وإشارة إلى أن من نجا من النار دخل الجنة إذ ليس هناك سوى هتين المنزلتين، إما الجنة وإما النار كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠].

قال الشاعر:

الموت باب وكل الناس داخله يا ليت شعري بعد الموت ما الدار

الدار جنة عدن إن عملت بما يرضي الإله وإن فرطت فالنار

هما محلان ما للناس غيرهما فاختر لنفسك ماذا أنت تختار

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٤٥٠ - من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - وقال: «حديث حسن غريب».

(٢) في «النونية» ص٢٤٨.

(٣) أخرجه البخاري في المرضى ٥٦٧٣، ومسلم في صفة القيامة ٢٨١٦، وابن ماجه في الزهد ٤٢٠١ - من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١﴾ لما تشوقت النفوس وتطلعت إلى معرفة ما هي هذه التجارة، التي فيها النجاة من العذاب الأليم وذلك بقوله ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ فسرها وبيّنها بقوله: ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ﴾.

فالتجارة الرابحة حقاً هي التجارة مع الله – عز وجل – بالإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله بالأموال والأنفس.

وفي قوله: ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ بعد ندائهم باسم الإيمان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ دليل على حاجة الإنسان إلى الإيمان كل لحظة والزيادة منه والثبات عليه. كما قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦].

فإن العبد مفتقر في كل ساعة وحالة إلى الله في هدايته للإيمان وتثبيته عليه وزيادته منه.

ومعنى الإيمان بالله: الإيمان بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وشرعه. وضده الكفر.

ومعنى الإيمان بالرسول ﷺ: طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما عنه نهى وزجر، وألا يعبد الله إلا بما شرع، وهو معنى شهادة أن محمداً رسول الله.

وفي عطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسم الله عز وجل بالواو في قوله ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ تعظيم له ﷺ، وأن من لازم الإيمان: الإيمان بالله ورسوله. فمن آمن بالله ولم يؤمن بالرسول ﷺ فليس بمؤمن، كما أن من آمن بالرسول ﷺ ولم يؤمن بالله ـ عز وجل ـ فليس بمؤمن، فالإيمان بالله والرسول متلازمان.

كما أن فيه جواز عطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسم الله عز وجل بالواو التي تقتضي التشريك في الحكم في باب الإيمان والطاعة، لأن الإيمان بالرسول ﷺ من الإيمان بالله.

فالإيمان بالله ورسوله درجة عظيمة ومنزلة رفيعة، به الفوز والفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة – نسأل الله التوفيق والثبات على الإيمان حتى الممات.

﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ المجاهدة بذل الجهد والطاقة والوسع ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: لإعلاء كلمة الله – كما قال ﷺ -: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»[1].

(١) سبق تخريجه.

والمعنى: وتبذلون جهدكم وطاقتكم ووسعكم في قتال الكفار لإعلاء كلمة الله.

﴿بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ قدم الجهاد بالأموال هنا وفى جميع المواضع في القرآن عدا قوله في سورة التوبة ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ [الآية: ١١١]. وذلك لأهمية الجهاد بالمال، فالجهاد بالنفس لا يمكن أن يقوم إلا بالجهاد بالمال والعدة والعتاد والسلاح والزاد والمراكب وغير ذلك.

وجملة ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ وإن كانت خبراً فمعناها الطلب والأمر، أي: آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم.

ولهذا جاء جوابه مجزوماً في قوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ﴾ وقد قرأها عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «آمنوا بالله ورسوله»[(١)].

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الإشارة للإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس، والذي هو التجارة الرابحة مع الله عز وجل.

﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: خير لكم خيرية مطلقة من تجارة الدنيا، ومن الدنيا بحذافيرها، وغير ذلك. فالخير كل الخير بالإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله

و«خير» وإن كان اسم تفضيل، فإنه لا يدل على أن في عدم الإيمان وترك الجهاد شيئاً مفضولاً من الخير، لأن اسم التفضيل قد يستعمل في المفاضلة بين شيئين ليس في أحدهما شيء من الفضل البتة بل هو شر محض، كما في قوله عز وجل ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤] فلا يؤخذ من هذا أن أهل النار عندهم شيء من خير المستقر وحسن المقيل إذ لا خير في النار البتة ولا حسن فيها بل كل ما فيها شر وسوء.

وقد سئل ﷺ عن أفضل الأعمال فقال: «إيمان بالله ورسوله» قيل: ثم ماذا؟ قال: «جهاد في سبيل الله»، قيل: ثم ماذا؟ ، قال: «حج مبرور»[(٢)].

وعن عبد الله بن حبشي الخثعمي – رضي الله عنه -: أن النبي ﷺ سئل أي الأعمال أفضل؟ قال: «إيمان لا شك فيه، وجهاد لا غلول فيه، وحجة مبرورة»[(٣)].

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: إن كنتم ذوي علم، تعلمون به ما ينفعكم، وتهتدون

---

(١) انظر «معاني القرآن» للفراء ٣/ ١٥٤، «جامع البيان» ٢٢/ ٦١٧.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه النسائي في الزكاة ٢٥٢٦، والدارمي في الصلاة ١٤٢٤.

به لما فيه خيركم وسعادتكم في دينكم ودنياكم، أي: اعلموا أن في المتاجرة مع الله في الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم الخير كل الخير لكم.

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾

هذا هو جواب الأمر المفهوم من جملة الخبر ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ﴾، أي: آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا في سبيله بأموالكم وأنفسكم ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ﴾ وهو تفسير للخيرية في قوله ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ المغفرة: ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة عليه - كما جاء في حديث ابن عمر في المناجاة أن الله عز وجل يقرر عبده المؤمن بذنوبه، فيقول - عز وجل -: «أنا سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»[١].

﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ﴾

جنات: جمع جنة، والجنة في الأصل البستان، وسمي البستان جنة لأنه يجن، أي: يستر من بداخله بأشجاره الملتفة وثماره الكثيرة.

والمراد بقوله: «جنات»: ما أعده الله عز وجل لأوليائه في دار كرامته مما لا تقاس به جنات الدنيا وبساتينها، كما قال عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧] وقال ﷺ: «فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»[٢].

ونكر «جنات» تعظيماً لشأنها - جنات، وأي جنات، جنات ونعم الجنات.

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ صفة لـ«جنات» لأن الجمل بعد النكرات صفات وبعد المعارف أحوال.

والمعنى: تجري من تحت أشجارها ومساكنها وغرفها الأنهار كما قال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ﴾ [الزمر: ٢٠] يشربون منها ويغتسلون فيها ويتمتعون برؤيتها، ويصرفونها كيف شاؤوا بلا جداول ولا أخدود.

عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: «لعلكم تظنون أن أنهار الجنة تجري في

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٤٤، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٢٤، والترمذي في التفسير ٣١٩٧، وابن ماجه في الزهد ٤٣٢٨ من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

أخدود في الأرض، والله إنها لتجري سائحة على وجه الأرض، حافتاها قباب اللؤلؤ، وطينها المسك الأذفر»[١].

قال ابن القيم [٢]:

أنهارها في غير أخدود جرت ... سبحان ممسكها عن الفيضان

وهي أنواع - كما ذكر الله عز وجل في سورة محمد: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [الآية: ١٥].

وتتفجر من الفردوس - كما قال ﷺ: «إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، ومنه تُفجَّر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن»[٣].

﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾ أي: ويدخلكم مساكن ومنازل ﴿طَيِّبَةً﴾ طيبة السكن يطيب فيها حال الساكن ويرتاح ويسر ويطمئن ويأمن كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الزمر: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٨].

﴿فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ «عدن» بمعنى إقامة دائمة أبدية. أي: في جنات إقامة أبدية لا يتحولون عنها كما قال عز وجل في سورة التوبة: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الآية: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧].

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الإشارة لما سبق من مغفرة ذنوبهم وإدخالهم الجنات والمساكن الطيبة في جنات عدن.

---

(١) انظر «تفسير ابن كثير» ٧/٢٩٦.

(٢) في «النونية» ص٢٢٩.

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير - درجات المجاهدين في سبيل الله ٢٧٩٠، وأحمد ٢/٣٣٥ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

و﴿ٱلْفَوْزُ﴾ الفلاح والنجاح، الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب، الفوز بالجنة، والنجاة من النار.

﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ كمية وكيفية الذي لا يقدر كنه عظمته إلا من وصفه بأنه «عظيم» وهو العظيم سبحانه وتعالى.

وفي جعل قوله ﴿تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وقوله ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الآية مكتنفين لتفسير التجارة إشارة إلى أن التجارة هي مجموع الأمرين الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله، وما أعد الله لهم من الجزاء عليه من النجاة من النار والمغفرة ودخول الجنات.

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ﴾ الواو: عاطفة و«أخرى» مفعول به لفعل محذوف تقديره «يؤتكم» مجزوم عطفاً على «يغفر». أي: ويؤتكم نعمة وزيادة وثمرة أخرى عاجلة في الدنيا «تحبونها».

﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لكم على عدوكم.

﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ﴾ أي: وفتح من الله قريب لكم لبلاد الكفر كمكة وغيرها من المدن والأمصار. وذلك إذا آمنتم بالله ورسوله وجاهدتم في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم، كما قال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]. وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]. وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وهكذا نصر الله – عز وجل – النبي ﷺ والمؤمنين على أعدائهم، وفتح لهم مكة وغيرها من البلاد وفاءً بما وعدهم، وهو الذي لا يخلف الميعاد سبحانه وتعالى.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ سبق بيان معنى البشارة واشتقاقها والخطاب للنبي – ﷺ – ولكل من يصلح له. أي: وأخبر المؤمنين بالخبر السار لهم في دنياهم وآخرتهم وهو السعادة في الدنيا والآخرة، ومغفرة الذنوب ودخول الجنات والفوز العظيم والنصر على الأعداء والفتح القريب.

ويؤخذ من هذا التعبير القرآني المحبب للنفوس ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أنه ينبغي أن نكون مبشرين كما قال ﷺ لمعاذ وأبي موسى لما بعثهما إلى اليمن «يسرا ولا تعسرا،

وبشرا ولا تنفرا»[١].

وهذا التعبير القرآني العظيم والتوجيه النبوي الكريم يذكرني بكلمة أحب أن أسجلها لسماحة الشيخ الوالد عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله تلك العبارة الرقيقة التي تدخل إلى شغاف القلوب عندما يسأله سائل كثيراً ما يختم إجابته له بقوله: «وأبشر بالخير» فرحمك الله يا شيخنا وبشرك بكل خير، وجزاك عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، فقد كنت مثالاً يحتذى في الدعوة إلى الله، وفي فعل الخير، وقوله وفي تحبيب الناس إليه، وفي محبته لهم.

الفوائد والعبر:

١ ـ تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء لتنبيههم لأهميته، ونداؤهم بوصف الإيمان تشريفاً وتكريماً لهم وحثاً على الاتصاف بهذا الوصف وعلى امتثال ما بعد هذا النداء من الأوامر.

٢ ـ الحض والترغيب على الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس.

٣ ـ أن التجارة الرابحة بالإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس ففيها النجاة من العذاب الأليم، وفيها الخير كل الخير ومغفرة الذنوب والفوز بجنات النعيم، والنصر في الدنيا والفتح القريب.

٤ ـ أن الإيمان بالله ورسوله متلازمان وأنهما شرطان لقبول الأعمال.

٥ ـ أن الجهاد المشروع في الإسلام هو ما كان في سبيل الله، أي لإعلاء كلمة الله ووفق ما شرع الله.

٦ ـ أهمية الجهاد بالمال ولهذا قدم على الجهاد بالنفس وكل منهما مهم في وقته وعند الحاجة إليه.

٧ ـ عظم ما أعده الله للمؤمنين المجاهدين في سبيله من الجنات التي تجرى من تحتها الأنهار والمساكين الطيبة مع الإقامة الأبدية فيها وذلك الفوز العظيم.

٨ ـ وعد الله ـ عز وجل ـ للمؤمنين المجاهدين في سبيله بأموالهم وأنفسهم بالنصر على أعدائهم وفتح بلاد الكفر، وهكذا حصل بفضل الله عز وجل.

٩ ـ البشارة المطلقة للمؤمنين بالسعادة والنصر والفوز والفلاح في الدنيا والآخرة. فلله الحمد.

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٣٠٣٨، ومسلم في الأشربة ١٧٣٣ ـ من حديث أبي موسى ـ رضي الله عنه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ١٤﴾

صلة الآية بما قبلها:

رغب عز وجل بالإيمان به وبرسوله والجهاد في سبيله، ثم أتبع ذلك بأمر المؤمنين بمناصرة دين الله؛ كما فعل الحواريون من أتباع عيسى عليه السلام.

قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ النداء للمؤمنين من هذه الأمة.

﴿كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ قرأ ابن عامر ويعقوب وحمزة والكسائي وعاصم (أنصار) بغير تنوين، مضافاً إلى لفظ الجلالة، وقرأ الباقون بالتنوين ولام الجر (أنصاراً لله). أي: كونوا أنصار دينه - كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧].

﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ﴾

﴿ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ﴾: جمع حواري، والحواري: صفي الرجل وخاصته. والمراد: أتباع عيسى وأنصاره وأعوانه.

﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ «من» للاستفهام، وفيه معنى التحضيض أي: من أنصاري وأعواني منكم يا قوم في دعوتي وطريقي إلى الله.

﴿قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ﴾ أي: قال الحواريون، وهم أصفياء عيسى وأتباعه ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾ أي: أنصار دينه.

والمعنى: يا أيها الذين آمنوا كونوا في الاستجابة لله ولرسوله، ونصرة دينه كالحواريين في الاستجابة لعيسى عليه السلام ونصرته فيما جاء به من عند الله، وليس في هذا ما يستلزم، بل ولا ما يدل على فضل الحواريين على صحابة رسول الله ﷺ والمؤمنين من هذه الأمة. إذ لا أفضل من صحابة رسول الله ﷺ والمؤمنين من هذه الأمة كما قال تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

قال ابن كثير[1]: «وهكذا كان رسول الله ﷺ يقول في أيام الحج: «من رجل يؤويني

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٣٩.

حتى أبلغ رسالة ربي فإن قريشاً منعوني أن أبلغ رسالة ربي»[1] حتى قيض الله له الأوس والخزرج من أهل المدينة فبايعوه وآزروه وشارطوه أن يمنعوه من الأسود والأحمر إن هو هاجر إليهم، فلما هاجر إليهم بمن معه من أصحابه وفوا له بما عاهدوا الله عليه، ولهذا سماهم الله ورسوله الأنصار، وصار ذلك علماً عليهم رضي الله عنهم وأرضاهم».

﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: فصدقت طائفة وجماعة من بني إسرائيل بعيسى عليه السلام ورسالته وانقادوا له.

﴿وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ أي: جحدت طائفة وجماعة رسالته وهم اليهود.

قال ابن كثير [2]: «اهتدت طائفة من بني إسرائيل بما جاءهم به، وضلت طائفة فخرجت عما جاءهم به، وجحدوا نبوته، ورموه وأمه بالعظائم – وهم اليهود – عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة وغلت فيه طائفة ممن اتبعه، حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة، وافترقوا فرقاً وشيعاً، فمن قائل إنه ابن الله. وقائل: إنه ثالث ثلاثة: الآب، والابن، وروح القدس. ومن قائل: إنه الله».

﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ أي: نصرنا الذين آمنوا مع عيسى من الحواريين وقويناهم على من عاداهم من اليهود وفرق النصارى الكافرة.

﴿فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ أي: فأصبحوا ظاهرين على عدوهم بتأييد الله ونصره لهم لأنهم على الحق.

ولهذا فإن من تأييد الله لهم – كما قال بعض المفسرين – بعثة محمد ﷺ.

فعن سعيد بن جبير عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: «لما أراد الله – عز وجل – أن يرفع عيسى إلى السماء خرج إلى أصحابه وهم في بيت، اثنا عشر رجلاً من عين في البيت، ورأسه يقطر ماء، فقال: إن منكم من سيكفر بي اثنتي عشر مرة، بعد أن آمن بي. قال: ثم قال: أيكم يلقى عليه شبهي فيقتل مكاني، ويكون معي في درجتي؟ قال: فقام شاب من أحدثهم سناً، فقال: أنا. فقال له: اجلس، ثم أعاد عليهم، فقام الشاب، فقال: أنا. فقال له: اجلس، ثم أعاد عليهم، فقام الشاب قال: أنا. قال: نعم، أنت ذاك. قال: فألقي عليه شبه عيسى، ورفع عيسى من روزنة في البيت إلى السماء قال: وجاء

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٣٢٢، ٣٣٩ – من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ١٣٩ وانظر ٢/ ٤٠١.

الطلب من اليهود، وأخذوا شبهه فقتلوه وصلبوه، وكفر به بعضهم، اثنتي عشرة مرة، بعد أن آمن به، فتفرقوا ثلاث فرق. فقالت فرقة: كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء، وهؤلاء اليعقوبية. وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء الله، ثم رفعه إليه، وهؤلاء النسطورية. وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله، ثم رفعه إليه، وهؤلاء المسلمون. فتظاهرت الطائفتان الكافرتان على المسلمة فقتلوها، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً - ﷺ -: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ يعني الطائفة التي كفرت من بني إسرائيل في زمن عيسى، والطائفة التي آمنت في زمن عيسى ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾، في إظهار محمد دينهم على دين الكفار ﴿فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾»[١].

قال ابن كثير[٢] بعد سياقه عن ابن عباس: «فأمة محمد ﷺ لا يزالون ظاهرين على الحق، حتى يأتي أمر الله، وهم كذلك، وحتى يقاتل آخرهم الدجال مع المسيح - عيسى ابن مريم - عليه السلام - كما وردت الأحاديث الصحاح والله أعلم».

الفوائد والعبر:

١ ـ تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام ونداء المؤمنين بوصف الإيمان تشريفاً وتكريماً لهم وحثاً على الاتصاف بهذا الوصف وامتثال ما ذكر بعد هذا النداء من أمر.

٢ ـ تحضيض المؤمنين على الاستجابة للرسول ﷺ ونصرة دين الله كما فعل الحواريون أتباع عيسى عليه السلام، وأخذ القدوة من المؤمنين قبلهم.

٣ ـ التذكير بقدرة الله ـ عز وجل ـ في خلق عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ من أنثى بلا ذكر.

٤ ـ الثناء على الحواريين أصحاب عيسى عليه السلام ـ بنصرتهم دين الله.

٥ ـ تأييد الله ـ عز وجل ـ وتقويته ونصره للمؤمنين من أتباع عيسى ـ عليه السلام ـ على أعدائهم الكافرين وإظهاره لهم. وهكذا فإنه عز وجل ينصر أولياءه في كل زمان ومكان والعاقبة للمتقين.

---

(١) أخرجه الطبري «جامع البيان» ٢٢/ ٦٢٢ - ٦٢٣.
(٢) في «تفسيره» ٨/ ١٤٠.

تفسير سورة الجمعة

عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: «إن النبي ﷺ كان يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة الم تنزيل السجدة، وهل أتى على الإنسان حين من الدهر، وأن النبي ﷺ كان يقرأ في صلاة الجمعة سورة الجمعة والمنافقين»[١].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤)﴾.

قوله: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ سبق الكلام على هذا في مطلع سورة الحديد، وفي آخر سورة الحشر.

﴿الْمَلِكِ﴾ أي: الملك للسموات والأرض وما فيهما وما بينهما الخالق لذلك كله المتصرف فيه بأمره وحكمه.

والمَلِك أعم من المالك، وأبلغ، لأن كل مَلِك مالك وليس كل مالك ملكاً.

﴿الْقُدُّوسِ﴾: المعظم المنزه عن النقائص، الموصوف بصفات الكمال.

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾

في هذه الآية إجابة دعوة إبراهيم الخليل عليه السلام حين دعا لأهل مكة بقوله ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

قوله ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ أي: هو الله سبحانه ﴿الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ وفي هذا تذكير بعظمته عز وجل، وعظيم نعمته عليهم.

و«بعث» بمعنى أرسل، و«الأميين» جمع أمي، وهو من لا يقرأ ولا يكتب، والمراد بهم العرب، قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾

(١) أخرجه مسلم في الجمعة – ما يقرأ في صلاة الجمعة ٨٧٩، والنسائي في الجمعة ١٤٢١.

[آل عمران: ٢٠].

﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ هو نبينا محمد ﷺ أفضل الرسل وسيد الخلق فهو عربي من ذرية إسماعيل ابن إبراهيم - عليهما السلام، فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب القرشي الهاشمي.

وهو أمي أيضاً قال تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وتخصيص الأميين، وهم العرب بالذكر لتذكيرهم بعظيم نعمة الله عليهم، فالمنة عليهم أبلغ وآكد، كما أن المسؤولية عليهم في تبليغ الدعوة أعظم، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤] لأنه بلسانهم كما قال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]. **وقال تعالى**: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ﴾ [إبراهيم: ٤٠] وإلا فهو مبعوث فيهم وفي غيرهم، وذكر لهم ولغيرهم كما قال تعالى ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الحج: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] أي: لأنذركم به وأنذر به كل من بلغه القرآن.

﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ أي: يقرأ عليهم آيات الله - عز وجل - القرآن الكريم.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي: ويطهرهم بما يتلو عليهم من آيات الله - عز وجل - وما فيها من المعاني والأحكام والآداب والمواعظ التي فيها طهارة النفوس والقلوب والأبدان.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: ويعملهم القرآن والسنة، وما فيهما من الأحكام والحكم كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ٩٦] أي: القرآن والسنة.

﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ﴾ الواو: حالية. أي: والحال أنهم كانوا من قبل في ضلال مبين. والمعنى: وإن كانوا من قبل بعثته ﷺ ﴿لَفِى ضَلَـٰلٍ﴾ أي: بُعد وتيه عن الحق ﴿مُّبِينٍ﴾ أي: بين واضح في نفسه، ﴿مُّبِينٍ﴾ أمر من كان عليه أنه ضائع تائه. وأي: ضلال أبين من الشرك بالله - عز وجل.

قال ابن كثير[1]: «فبعثه الله - سبحانه وتعالى ولله الحمد والمنة - على حين فترة من

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٤٢.

الرسل، وطموس من السبل، وقد اشتدت الحاجة إليه... وذلك أن العرب كانوا متمسكين بدين إبراهيم - عليه السلام - فبدلوه وغيروه وقلبوه وخالفوه، واستبدلوا بالتوحيد شركاً، وباليقين شكاً، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله، وكذلك أهل الكتابين قد بدلوا كتبهم وحرفوها وغيروها، وأولوها، فبعث الله محمداً - صلوات الله وسلامه عليه - بشرع عظيم كامل شامل لجميع الخلق، فيه هدايتهم، والبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمر معاشهم ومعادهم... وجمع له تعالى - ولله الحمد والمنة - جميع المحاسن ممن كان قبله، وأعطاه ما لم يعط أحداً من الأولين، ولا يعطيه أحداً من الآخرين، فصلوات الله وسلامه عليه إلى يوم القيامة».

﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْۚ﴾ أي: وآخرين ممن بعث فيهم الرسول ﷺ وأنزل فيهم القرآن ﴿لَمَّا يَلْحَقُواْ﴾ لم يحن وقت لحوقهم بهم، أي: أنهم يأتون بعدهم ويدخل فيهم من يأتي بعدهم من العرب والعجم إلى يوم القيامة، وهذا يدل على عموم رسالته ﷺ. فالمعنى (لما يلحقوا بهم) في الزمن، أي: أنهم يأتون بعدهم، أو ﴿لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْۚ﴾ في الفضل. والآية تحتمل الأمرين معاً.

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: كنا جلوساً عند النبي - ﷺ - فأنزلت عليه سورة الجمعة: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْۚ﴾ قالوا: من هم يا رسول الله؟ فلم يراجعهم، حتى سئل ثلاثاً، وفينا سلمان الفارسي، فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان، ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال - أو رجل من هؤلاء»[١].

وعن سهل بن سعد الساعدي - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إن في أصلاب أصلاب رجال من أصحابي رجالاً ونساءً من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب، ثم قرأ: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْۚ﴾ يعني بقية من بقي من أمة محمد - ﷺ»[٢].

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ سبق الكلام عليه.

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الإشارة إلى ما أعطاه الله - عز وجل - لمحمد ﷺ - وخصه به من الرسالة والنبوة العظيمة، وما خص به أمته من بعثته إليهم وإنزال القرآن الكريم عليه ليزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة.

فأكرم بهذا وأنعم به من فضل كما قال عز وجل ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الجمعة ٤٨٩٨، ومسلم في فضائل الصحابة ـ فضل فارس ٢٥٤٦، والترمذي ٣٢٦١.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٥٥ - الأثر ١٨٨٩١.

فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

والفضل: الزيادة منه – عز وجل – بلا استحقاق من المتفضل عليه.

﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يعطيه الذي يشاء من عباده، فتفضل على محمد – ﷺ – بالرسالة، وتفضل على أمته ببعثته فيهم.

وفي هذا إثبات المشيئة لله عز وجل – كما يليق بجلاله فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: والله صاحب الزيادة والإفضال والإنعام والجود العظيم، لا راد لفضله ولا مانع لعطائه كما قال عز وجل: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٩].

اللهم إنا نسألك من فضلك العظيم ما لا نحتاج معه إلى أحد سواك.

الفوائد والعبر:

١ ـ تسبيح جميع ما في السموات وما في الأرض من المخلوقات لله ـ عز وجل.

٢ ـ إثبات أسماء الله ـ عز وجل: «الملك»، «القدوس»، «العزيز»، «الحكيم» وما تدل عليه من كمال ملكه وتدبيره وتصرفه، وتمام عظمته، وعزته عزة القوة والقهر والامتناع، ونفوذ أحكامه الكونية والشرعية والجزائية، وحكمته البالغة التامة في شرعه وقدره وأمره ونهيه.

٣ ـ نعمة الله ـ عز وجل ـ على العرب وامتنانه عليهم وعلى العالم أجمع ببعثه محمد ﷺ وإنزال القرآن عليه.

٤ ـ أن العرب كانوا قبل الإسلام أميين لا يقرؤون ولا يكتبون وهكذا كان النبي ﷺ.

٥ ـ أن من نعمة الله ـ عز وجل ـ وفضله على العرب خاصة جعل النبي منهم وبلسانهم يتلو عليهم القرآن ويطهرهم معنوياً من الشرك والمعاصي وحسياً من النجاسات والأحداث ويعلمهم القرآن والسنة.

٦ ـ أن المسؤولية في تبليغ الرسالة على العرب أعظم وآكد، لأن الرسول ﷺ منهم والقرآن بلغتهم.

٧ ـ أن القرآن والسنة كل منهما من وحي الله ـ وهما مصدرا التشريع.

٨ ـ ضلال العرب البين الواضح وبعدهم عن الحق قبل بعثة محمد ﷺ فيهم ونزول القرآن.

٩ ـ عموم رسالة النبي محمد ﷺ لجميع الناس السابق منهم واللاحق.

١٠ ـ تأكيد عزته ـ عز وجل ـ وكمال حكمه وتمام حكمته ومن كمال عزته وحكمه وحكمته أن بعث محمداً ﷺ رسولاً إلى الناس كافة وأنزل عليه القرآن الكريم.

١١ ـ الإشارة لعظم فضل الله ـ عز وجل ـ على محمد ﷺ في تخصيصه بهذه الرسالة العظيمة وعلى العرب في اختياره منهم وعلى الأمة المحمدية كلها ببعثة محمد ﷺ فيهم وإنزال القرآن عليه.

١٢ ـ إثبات المشيئة لله ـ عز وجل ـ وعظم فضله وإفضاله وإنعامه على الخلق.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝ وَلَا يَتَمَنَّوۡنَهُۥٓ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝ قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنۡهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

بعد ما ذكر الله عز وجل فضله على الأمة المحمدية ببعثة محمد ﷺ فيهم وإنزال القرآن عليه، أتبع ذلك بذم اليهود الذين أنزل الله عليهم التوراة فلم يعملوا بها وكذبوا بآيات الله.

وذلك بياناً لما هم عليه من سيء الصفات، وتحذيراً للأمة المحمدية من مسالك اليهود المغضوب عليهم.

قوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾ «مثل» أي: شبه ﴿ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾ يعني اليهود الذين أنزلت عليهم التوراة وكلفوا علمها والعمل بما فيها.

والتوراة: هي الكتاب الذي أنزله – عز وجل – على نبيه وكليمه موسى بن عمران – عليه السلام – كتبها الله عز وجل بيده، قال تعالى: ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

وفي الحديث: «قال آدم: أنت موسى اصطفاك الله بكلامه، وكتب لك التوراة بيده»[(١)].

وفي الحديث الآخر: «أن الله غرس جنة عدن بيده، وخلق آدم بيده، وكتب التوراة بيده»[(٢)].

أنزلها الله عز وجل جملة واحدة على موسى عليه السلام مكتوبة بألواح، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤].

﴿ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا﴾ أي: ثم لم يعملوا بها، بل خالفوها وحرفوها وبدلوها وكذبوا بمحمد – ﷺ – وقد أمروا بالإيمان به فيها واتباعه وتصديقه.

﴿كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ﴾ أي: مثلهم في عدم العمل بالتوراة وعدم الانتفاع بها والاستفادة

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة طه ٤٧٣٦، ومسلم في القدر ٢٦٥٢، والترمذي في القدر ٢١٣٥، وابن ماجه في المقدمة ٨٠، وأحمد ٢/ ٢٦٨، ٣٩٢، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر «مجموع الفتاوى» ٥/ ٩٧، «الصواعق المرسلة» ١/ ٢٧٤.

منها ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ﴾ كمثل وشبه الحمار الحيوان المعروف الذي يضرب به المثل في البلادة.

﴿يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ﴾ الأسفار: جمع «سِفْر» وهي كتب العلم الكبار، أي: يحمل كتباً على ظهره، لكنه لا يدري ماذا عليه، وماذا فيها، ولا تلحقه فضيلة بسبب حملها، ولا ينتفع بها ولا يستفيد منها بوجه، ولو حملت عليه كتب الدنيا كلها، وإنما حظه منها النصب والتعب والثقل. كما قيل:

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

قال الزمخشري[1]: «شبه اليهود في أنهم حملة التوراة وقراؤها وحفاظ ما فيها، ثم أنهم غير عاملين بها، ولا منتفعين بآياتها، وذلك أن فيها نعت رسول الله ﷺ والبشارة به، ولم يؤمنوا به بالحمار حمل أسفاراً، أي: كتباً كباراً من كتب العلم، فهو يمشي بها، ولا يدري منها إلا ما يمر بجنبيه وظهره من الكد والتعب، وكل من علم ولم يعمل بعلمه فهذا مثله، وبئس المثل».

وقال ابن كثير[2]: «أي كمثل الحمار إذا حمل كتباً لا يدري ما فيها، فهو يحملها حملاً حسياً ولا يدري ما عليه، وكذلك هؤلاء في حملهم الكتاب الذي أوتوه حفظوه لفظاً ولم يفهموه، ولا عملوا بمقتضاه، بل أولوه وحرفوه وبدلوه، فهم أسوأ حالاً من الحمير، لأن الحمار لا فهم له، وهؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها، ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]».

كما قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب فهو كمثل الحمار يحمل أسفارا، والذي يقول له: أنصت، ليس له جمعة»[3].

---

(١) في «الكشاف» ٤/ ٩٦.
(٢) في «تفسيره» ٨/ ١٤٣.
(٣) أخرجه أحمد ١/ ٢٣٠. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٢/ ١٨٤: «رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير، وفيه مجالد ابن سعيد وقد ضعفه الناس ووثقه النسائي في رواية».

﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ بئس: فعل ذم، أي: قبح وساء شبه اليهود الذين كذبوا بآيات الله. فقد شبهوا في هذا المثل بالحمار أبلد الحيوانات، حال كونه يحمل كتباً في العلم لا يستفيد منها لعدم فهمه، وفقدانه ما أعطاهم الله من فهم، إذ لو كان هذا الحمار يحمل طعاماً لأحس وشعر به بخلاف الأسفار.

والمراد بآيات الله ما يشمل الآيات الشرعية التي أنزلت في التوراة، والآيات الكونية، ومنها الآيات التسع التي أيد الله بها موسى كالعصا والحية والطوفان وغيرها.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: والله لا يوفق القوم الظالمين ولا يقبل أعمالهم الذين ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي وظلموا غيرهم بالتعدي على حقوقهم وقد سبق الكلام على هذه الآية مفصلاً في سورة الصف.

وفي قوله: ﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أن هذا المثل كما هو مثل لليهود هو مثل لكل من كذب بآيات الله، وكان من الظالمين من اليهود وغيرهم من هذه الأمة.

وقال ابن القيم[1]: «قاس من حمّله – سبحانه – كتابه، ليؤمن به، ويعمل به ويدعو إليه، ثم خالف ذلك، ولم يحمله، إلا على ظهر قلب، فقراءته بغير تدبر، ولا تفهم، ولا اتباع له، ولا تحكيم له، ولا عمل بموجبه كحمار على ظهره زاملة أسفار لا يدري ما فيها فحظه منها حملها على ظهره، ليس إلا، فحظ هذا من كتاب الله كحظ هذا الحمار من الكتب التي على ظهره، فهذا المثل، وإن كان قد ضرب لليهود فهو متناول من حيث المعنى لمن حمل القرآن، فترك العمل به، ولم يؤد حقه، ولم يرعه حق رعايته».

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا﴾ الأمر للنبي ﷺ، أي: قل يا محمد ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا﴾ أي: نادهم منبهاً لهم بهذا الوصف، ومعنى ﴿الَّذِينَ هَادُوا﴾ أي: الذين رجعوا وتابوا من الكفر والشرك وعبادة العجل، واتبعوا دين يهودا، أحد أنبياء بني إسرائيل وأحد أولاد يعقوب – عليه السلام.

﴿إِن زَعَمْتُمْ﴾ أي: إن ادعيتم. والزعم يطلق غالباً على زعم الأمر الباطل.

﴿أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ﴾ أي: أحبابه، والذين يوالونه ويوادونه ويواليهم

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/٤٤٨ – ٤٤٩.

ويحبهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ﴾ [المائدة: ١٨] ، وكما قال قائلهم: نحن شعب الله المختار فهم يزعمون أنهم أولى الناس بالله وأنهم هم الذين على الهدى، وأن محمداً ﷺ وأصحابه وغيرهم على ضلالة.

﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: فاطلبوا الموت أو ادعوا على أنفسكم بالموت ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ في زعمكم أنكم أولياء الله وأحباؤه، لتنالوا أجر ولايتكم، لأن المحب يحب القرب من حبيبه، ولتستريحوا من كرب الدنيا وهمومها وغمومها بالموت، ولتنتقلوا سريعاً إلى دار كرامته التي أعدها لأوليائه.

قال ابن كثير[١]: «أي: إن كنتم تزعمون أنكم على هدى، وأن محمداً وأصحابه على ضلالة، فادعوا بالموت على الضال من الفئتين ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ فيما تزعمونه».

﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا﴾ الواو: عاطفة و«لا» نافية، أي: ولا يمكن أن يتمنوه أبداً.

﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ﴾ الباء للسببية، و«ما» موصولة أو مصدرية، أي: ولا يتمنونه أبدا بسبب الذي قدمته أيديهم من الكفر والمعاصي والظلم والفجور، أو بسبب تقديم أيديهم ذلك لأنهم يعرفون أنهم لم يقدموا خيراً، بل لم يقدموا إلا الكفر والمعاصي، وليس أمامهم بعد الموت إلا النار. كما قال تعالى لهم: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٩٤ – ٩٦].

عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: قال أبو جهل – لعنه الله -: إن رأيت محمداً عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه. قال: فقال رسول الله ﷺ: «لو فعل لأخذته الملائكة عياناً، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا، ورأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ رجعوا لا يجدون مالاً ولا أهلاً»[٢].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ «عليم» على وزن «فعيل» صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة، أي: أنه عز وجل ذو العلم التام الواسع بالظالمين وأعمالهم وأحوالهم لا تخفى عليه منهم خافية

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٤٤.
(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة العلق ٤٩٥٨، والترمذي في تفسير سورة اقرأ ٣٣٤٨، وأحمد ١/ ٢٤٨.

وسيحاسبهم ويجازيهم عليها وهو عز وجل عليم بالظالمين وغيرهم وبجميع خلقه وسيجازي كلا بعمله وإنما خص الظالمين هنا تهديداً لهم ووعيداً، لأن السياق معهم، بل مع أظلم الظالمين، وهم اليهود المغضوب عليهم.

﴿قُلْ﴾ أي: قل يا محمد ﴿إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ أي: الذي تهربون منه وتخافونه أيها اليهود ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ﴾ أي: لا محالة، فلا بد أن تموتوا. قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥، الأنبياء: ٣٥، العنكبوت: ٥٧]. وقال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

قال زهير[1]:

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ... وإن يرق أسباب السماء بسلم

وقال الآخر:

فهن المنايا أي واد سلكته ... عليها طريقي أو علي طريقها

وقال الآخر:

هو الموت ما منه ملاذ ومهرب ... متى حط ذا عن نعشه ذاك يركب[2]

وقال الآخر:

الموت باب وكل الناس داخله ... يا ليت شعري بعد الموت ما الدار

﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ أي: ثم بعد الموت تبعثون وترجعون إلى عالم السر والعلانية، وهو الله الذي لا تخفى عليه خافية من أعمالكم.

وقدّم عز وجل الغيب على الشهادة لتأكيد كمال علمه وأن السر عنده كالشهادة، كما قال عز وجل ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠].

﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: فيخبركم بالذي كنتم تعملون، أو فيخبركم بعملكم، ويحاسبكم ويجازيكم على ذلك.

الفوائد والعبر:

١ ـ تشبيه اليهود في كونهم حملة التوراة ولم يعملوا بها بأقبح مثل وأحقره وهو مثل الحمار يحمل كتباً في العلم ولا ينتفع بها وبئس المثل مثلهم لتكذيبهم بآيات الله ومثل

---

(١) انظر «ديوان زهير» ص٢٩.

(٢) البيت للشاعر محمد بن عثيمين.

ذلك من سلك طريقهم في معرفة الحق وعدم العمل به.

٢ ـ عدم توفيق الله وهدايته للظالمين الذين ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي وظلموا غيرهم بالتعدي على حقوقهم.

٣ ـ تحدي اليهود بتمني الموت إن كانوا صادقين في زعمهم أنهم أولياء لله من دون الناس، لأن من كان ولياً لله حقاً يحب لقاءه.

٤ ـ نفي الله ـ عز وجل ـ تمني اليهود الموت أبداً لعلمهم أنهم لم يقدموا لما أمامهم سوى الكفر والمعاصي وما يستوجبون به النار.

٥ ـ تهديد الله ـ عز وجل ـ للظالمين من اليهود وغيرهم بعلم الله عز وجل بما هم عليه من الظلم وأنه سيجازيهم بأعمالهم.

٦ ـ أنه لا مفر ولا محيد من الموت ولابد لجميع الخلق من لقائه.

٧ ـ إثبات البعث والمعاد بعد الموت وإخبار العباد بأعمالهم ومجازاتهم عليها.

٨ ـ علم الله ـ عز وجل ـ الواسع المحيط بالشاهد والغائب والسر والعلانية والوعيد للظالمين والوعد للمؤمنين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾

قوله: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ أي: إذا أذن لصلاة الجمعة، وهذا يدل على مشروعية النداء لها.

ويوم الجمعة: هو سابع أيام الأسبوع، وهو أفضلها.

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها وفيه تقوم الساعة وفيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يسأل الله شيئاً إلا أعطاه الله إياه»(١).

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم، فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تبع، اليهود غداً، والنصارى بعد غد»(٢).

﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: امضوا واقصدوا وسيروا إلى ذكر الله – أي: إلى صلاة الجمعة وخطبتها – وفي التعبير بقوله ﴿فَٱسْعَوْاْ﴾ إشارة إلى أنه ينبغي المبادرة بعد النداء بالذهاب إليها والاهتمام بها والتفرغ لها، والإقبال بالقلب على السعي إليها. وليس المراد بذلك الركض والمشي السريع إليها.

قال ﷺ: «إذا أتيتم الصلاة فامشوا وعليكم السكينة فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا»(٣).

ويؤخذ من قوله ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ أن الجمعة فريضة يجب السعي إليها وأن الخطبتين لها فريضة يجب حضورهما لأن المراد بالذكر الخطبتان والصلاة.

﴿وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ أي: واتركوا البيع والأمر للوجوب، وهو أمر للبائع والمشتري، لأن

---

(١) أخرجه الترمذي في الجمعة ٤٩١ – بنحوه، وأخرجه مختصراً البخاري في الجمعة – الساعة التي في يوم الجمعة ٩٣٥، ومسلم في الجمعة – الساعة التي في يوم الجمعة ٨٥٤، وأبو داود في الصلاة ١٠٤٦، والنسائي في الجمعة ١٤٣٠، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها ١١٣٧.

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة ٨٧٦، ومسلم في الجمعة – هداية هذه الأمة ليوم الجمعة ٨٥٥، والنسائي في الجمعة ١٣٦٧.

(٣) أخرجه البخاري في الأذان ـ لا يسعى إلى الصلاة، وليأت بالسكينة والوقار ٦٣٦، ومسلم في المساجد – استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة والنهي عن إتيانها سعياً ٦٠٢، وأبو داود في الصلاة ٥٧٢، والنسائي في الإمامة ٨٦١، والترمذي في الصلاة ٣٢٧، وابن ماجه في المساجد والجماعات ٧٧٥ – من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وأخرجه البخاري أيضاً ٦٣٥، ومسلم ٦٠٣ – من حديث أبي قتادة – رضي الله عنه.

البيع يطلق على الأمرين ولهذا قال ﷺ «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا»[١].

والمراد بالنداء في الآية النداء الثاني الذي بين يدي خروج النبي ﷺ وجلوسه على المنبر، وكذا الأئمة من بعده.

لأن النداء الأول إنما أمر به الخليفة الراشد - عثمان بن عفان - رضي الله عنه - ليجتمع الناس لما كثروا، كما في حديث السائب بن يزيد - رضي الله عنه - قال: «كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر، فلما كان عثمان بعد زمن، وكثر الناس زاد النداء الثاني على الزوراء[٢]»[٣].

وقد قال ﷺ «عليكُم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ»[٤].

فيجب السعي إلى الصلاة وسماع الخطبة، ويحرم البيع بعد النداء الثاني باتفاق أهل العلم.

قال ابن كثير[٥]: «ولهذا اتفق العلماء على تحريم البيع بعد النداء الثاني. واختلفوا هل يصح إذا تعاطاه متعاط أم لا؟ على قولين، وظاهر الآية عدم الصحة».

وقد ذهب كثير من أهل العلم إلى صحة البيع، وإن كان البيع في هذا الوقت محرماً بالإجماع.

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الإشارة إلى مصدر الأمر السابق في قوله ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ أي: السعي إلى ذكر الله وترك البيع خير لكم، خيرية مطلقة من كل وجه في الدنيا والآخرة، إذ لا مقارنة بين إجابة أمر الله وطاعته، وما فيه السعادة في الدنيا والآخرة، وبين الانشغال بالدنيا الفانية وما فيه الشقاء في الدنيا والآخرة.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: إن كنتم ذوي علم تهتدون به إلى ما ينفعكم.

ومن أهم أسباب الحصول على هذا الخير الموعود به التبكير إلى الجمعة ما أمكن ذلك والغسل والسواك والطيب ولبس أحسن ثيابه، والقرب والدنو من الإمام للأحاديث الكثيرة الواردة في فضل ذلك.

فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «من اغتسل غسل الجمعة

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع ٢٠٧٩، ومسلم في البيوع ١٥٣٢، وأبو داود في البيوع ٣٤٥٩، والنسائي في البيوع ٤٤٥٧، والترمذي في البيوع ١٢٤٦ من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه.

(٢) الزوراء: هي دار بالمدينة قرب المسجد فكان يؤذن عليها.

(٣) أخرجه البخاري في الجمعة - الأذان يوم الجمعة ٩١٢، وأبو داود في الصلاة ١٠٨٧، والنسائي في الجمعة ١٣٩٢، والترمذي في الجمعة ٥١٦.

(٤) أخرجه أبو داود في السنة ٤٦٠٧، والترمذي في العلم ٢٦٧٦، وابن ماجه في المقدمة ٤٢ - من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه.

(٥) في «تفسيره» ٨/ ١٤٩.

ثم راح في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشاً أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر»[1].

وعن أوس بن أوس الثقفي ـ رضي الله عنه ـ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من غسّل واغتسل يوم الجمعة، وبكر وابتكر، ومشى ولم يركب، ودنا من الإمام واستمع ولم يَلْغُ كان له بكل خطوة أجر سنة، أجر صيامها وقيامها»[2].

كما يستحب لها الغسل، كما دل عليه حديث أبي هريرة وحديث أوس وغيرهما، وعن ابن عمر – رضي الله عنهما – أن رسول الله ﷺ قال: «إذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسل»[3].

وعن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم»[4].

وعن جابر – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «على كل رجل مسلم في كل سبعة أيام غسل يوم، وهو يوم الجمعة»[5].

كما يستحب لها السواك والطيب، وأن يلبس لها أحسن ثيابه ففي بعض روايات حديث أبي سعيد ـ رضي الله عنه: «غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم، والسواك، وأن يمس من طيب أهله»[6].

وعن أبي أيوب الأنصاري ـ رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب أهله – إن كان عنده – ولبس من أحسن ثيابه، ثم

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة فضل الجمعة ٨٨١، ومسلم في الجمعة – الطيب والسواك يوم الجمعة ٨٥٠، وأبو داود في الطهارة ٣٥١، والنسائي في الجمعة ١٣٨٨، والترمذي في الجمعة ٤٩٩، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٠٩٢.

(٢) أخرجه أبو داود في الطهارة – الغسل يوم الجمعة ٣٤٥، والنسائي في الجمعة ـ فضل غسل يوم الجمعة ١٣٨١، والترمذي في الجمعة – فضل الغسل يوم الجمعة ٤٩٤ وابن ماجه في إقامة الصلاة ـ الغسل يوم الجمعة ١٠٨٧، وأحمد ٤/ ١٠٤. وقال الترمذي: «حديث حسن».

(٣) أخرجه البخاري في الجمعة – فضل الغسل يوم الجمعة ٨٧٧، والنسائي في الجمعة ١٣٧٦، والترمذي في الجمعة ٤٩٢، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٠٨٨.

(٤) أخرجه البخاري في الأذان ٨٥٨، ومسلم في الجمعة ٨٤٦، وأبو داود في الطهارة ٣٤١، والنسائي في الجمعة ١٣٧٥، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٠٨٩.

(٥) أخرجه النسائي في الجمعة ـ إيجاب الغسل يوم الجمعة ١٣٧٨، وأحمد ٣/ ٣٠٤ وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حق لله على كل مسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام يغسل رأسه وجسده». أخرجه البخاري ٨٩٨، ومسلم في الجمعة – الطيب والسواك يوم الجمعة ٨٤٩.

(٦) أخرجه البخاري في الجمعة ٨٨٠، ومسلم في الجمعة ٨٤٦، والنسائي في الجمعة ١٣٧٥.

خرج حتى يأتي المسجد فيركع – إن بدا له – ولم يؤذ أحداً ثم أنصت إذا خرج إمامه حتى يصلي – كانت كفارة لما بينها وبين الجمعة الأخرى»[١].

وعن عبد الله بن سلام رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبي مهنته»[٢].

وعن عائشة – رضي الله عنها – أن رسول الله ﷺ – خطب الناس يوم الجمعة، فرأى عليهم ثياب النمار [٣]، فقال: «ما على أحدكم إن وجد سعة أن يتخذ ثوبين لجمعته سوى ثوبي مهنته»[٤].

كما يستحب القرب والدنو من الإمام – كما في حديث أوس بن أوس – رضي الله عنه، وغيره.

والعجيب أن كثيراً من الناس إذا جاهد النفس والشيطان، وجاء قبل خروج الإمام إلى الصلاة، ولو بوقت يسير، أدركه الشيطان في اللحظات الأخيرة بحيث تجده إذا دخل المسجد بدل أن يتجه إلى روضة المسجد خلف الإمام ويمينه تجده يبحث عن مكان يستند فيه على سارية من سواري المسجد أو على حائط من حيطانه ولو كان في مؤخرة المسجد، أو يقبع في زاوية من زواياه، أو يتجه إلى جهة اليسار مع خلو جهة اليمين، أو يتجه إلى نهاية الصف مع خلو وسطه، ونحو ذلك، ولا شك أن هذا من تقديم الأدنى على ما هو خير، ومن انتهاز الشيطان الفرصة لحرمان الإنسان من الأجر أو تقليله ما أمكن. وقد قال عز وجل: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١].

فالمؤمن إذا دخل المسجد ضيف على أكرم الأكرمين وأجود الأجودين في بيت من بيوت الله – عز وجل – ينبغي أن يحرص على أن يكون في أحب بقعة إلى الله – عز وجل – في المسجد، وهي روضة المسجد خلف الإمام، إن أمكنه ذلك، وإن لم يمكنه ذلك فعن يمين الإمام، فإن لم يمكن فعن يساره، فإن لم يجد مكاناً في الصف الأول ففي الصف الثاني على نحو ما تقدم، وإلا ففي الصف الثالث وهكذا.

وإن من العجيب والغريب عدم مراعاة كثير من الناس لهذه المعاني، وزهدهم في القرب من الله وابتغاء مرضاته ومحابه، لأن هذه المعاني من تعظيم الله عز وجل وتعظيم الصلاة ومن كمال الصلاة، وتمام أجرها. ولاشك أن هذا من الجفاء وينقص من أجورهم

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٤٢٠.
(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة – اللبس للجمعة ١٠٧٨، وابن ماجه في إقامة الصلاة – الزينة يوم الجمعة ١٠٩٥.
(٣) ثياب النمار: ثياب يلبسها الأعراب.
(٤) أخرجه ابن ماجه في إقامة الصلاة ـ الزينة يوم الجمعة ١٠٩٦.

بقدر جفوتهم وجفائهم.

ولله المثل الأعلى – لو أن إنساناً استضاف مجموعة من الناس، فلما دخلوا عليه جلسوا عند الباب، أو في مؤخرة المجلس، وأبوا القرب إلى مقدمة المجلس، لعُدَّ هذا من الجفاء في دنيا الناس فكيف لا يعد جافياً من يجلس في مؤخرة المسجد وفي الصفوف المتأخرة، وأطراف الصفوف تاركاً المنافسة والمسارعة والمسابقة إلى فضل الله، وزيادة الأجر في روضة المسجد وأوائل الصفوف وميامنها وقد قال ﷺ: «لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا»[(١)].

وفي المقابل تجد بعضاً من الناس يأتي متأخراً فيتخطى رقاب الناس وهم جلوس أثناء الخطبة وقبلها، ويخترق الصفوف بسرعة عند إقامة الصلاة مفرقاً بين الناس ليصل إلى ما أمكنه من الصفوف الأُوَل غير مراع آداب الصلاة والمساجد، وشعور إخوانه المصلين، يريد ـ بزعمه ـ فضل الصفوف الأول، فيرتكب منهياً بأذاه للمصلين وقد قال ﷺ وهو يخطب للذي جاء متأخراً وأخذ يتخطى رقاب الناس: «اجلس فقد آذيت وآنيت»[(٢)].

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ أي: انتهت الصلاة وفرغ منها.

﴿فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: تفرقوا فيها.

﴿وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أي: اطلبوا من فضل الله، وفضل الله: ما عنده عز وجل من الزيادة والإفضال، والمراد به هنا فضل الرزق الدنيوي بالبيع والشراء ونحو ذلك.

فأمرهم عز وجل أولاً بالسعي للاجتماع للصلاة، وترك البيع، ثم أمرهم بعد قضاء الصلاة بالتفرق في الأرض وطلب الرزق من الله.

وفي الأمر بطلب الرزق – مع أنه أمر جبل عليه الإنسان – إشارة إلى أن التحريم للبيع في وقت الصلاة لا يمثل حرجاً، فصلوا ثم انتشروا وبيعوا واشتروا. وإشارة إلى أن الشرع إذا منع من شيء أباح أشياء، وأن الأصل في الأشياء الحل.

قال ابن كثير[(٣)]: «لما حجر عليهم في التصرف بعد النداء وأمرهم بالاجتماع، أذن لهم بعد الفراغ بالانتشار في الأرض والابتغاء من فضل الله، فنهاهم أولاً عن البيع بعد النداء،

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان ٦١٥، ومسلم في الصلاة ٤٣٧، والنسائي في المواقيت ٥٤٠، والترمذي في الصلاة ٢٢٥ – من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن ماجه في إقامة الصلاة ١١١٥ – من حديث جابر بن عبد الله – رضي الله عنه.

(٣) في «تفسيره» ٨/ ١٤٩.

ثم أمرهم بعد قضاء الصلاة بالانتشار في الأرض والابتغاء من فضله على سبيل الإباحة والرخصة لأن الأمر بعد الحظر يفيد الإباحة والرخصة والله عز وجل يحب أن تؤتى رخصه كما جاء في الحديث»[١].

وكان طائفة من السلف يعمد إلى البيع والشراء في هذا الوقت اتباعاً لأمر الله عز وجل وطلبا لبركة هذا الوقت.

عن عراك بن مالك – رضي الله عنه – أنه إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد، فقال: «اللهم أجبت دعوتك وصليت فريضتك، وانتشرت كما أمرتني فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين»[٢].

وروي عن بعض السلف أنه قال: «من باع واشترى في يوم الجمعة بعد الصلاة بارك الله له سبعين مرة لقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾»[٣].

﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي: واذكروا الله ذكراً كثيراً بتسبيحه وتحميده وتهليله وتكبيره وغير ذلك حال انتشاركم في الأرض وابتغائكم الرزق من الله وحال بيعكم وشرائكم وفي جميع أحوالكم وتقلباتكم، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣].

أي: إنكم وإن كنتم خرجتم من ذكر الله عز وجل في خطبة الجمعة وصلاتها فاستمروا على ذكر الله ولا تنقطعوا عن ذكر الله حتى في حال طلبكم الرزق، ولا تشغلكم الدنيا عن ذكر الله – عز وجل.

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «من دخل سوقاً من الأسواق، فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير كتب له ألف ألف حسنة، ومحي عنه ألف ألف سيئة»[٤].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

---

(١) أخرجه أحمد ٢/١٠٨ – من حديث ابن عمر – رضي الله عنهما – أن النبي ﷺ قال: «إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته».

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/٣٣٥٦.

(٣) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/١٤٩.

(٤) أخرجه الترمذي في الدعوات – ما يقول إذا دخل السوق ٣٤٢٨، وابن ماجه في التجارات والأسواق ودخولها ٢٢٣٥، وأحمد ١/٤٧ – من حديث عمر بن الخطاب – رضي الله عنه.

سبب النزول:

عن جابر بن عبد الله – رضي الله عنه – قال: «قدمت عير المدينة ورسول الله ﷺ يخطب، فخرج الناس، وبقي اثنا عشر رجلاً، فنزلت: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾»[١].

وفي رواية عن جابر – رضي الله عنه – قال: «بينا رسول الله ﷺ يخطب يوم الجمعة، فقدمت عير إلى المدينة، فابتدرها أصحاب رسول الله ﷺ حتى لم يبق مع رسول الله ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو تتابعتم، حتى لم يبق منكم أحد لسال بكم الوادي ناراً» ونزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾. وقال: كان في الاثني عشر الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ أبو بكر وعمر رضي الله عنهما»[٢].

وعن جابر – رضي الله عنه – أنهم كانوا إذا نكحوا تضرب الجواري بالمزامير، فيشتد الناس إليهم ويدعون رسول الله ﷺ قائماً، فنزلت هذه الآية»[٣].

وقد قيل إن هذه القصة وقعت لما كان الرسول ﷺ يقدم الصلاة على الخطبة روى ذلك أبو داود في مراسيله[٤].

قوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾.

الواو: استئنافية. والضمير «الواو» يرجع إلى الصحابة الذين كانوا أمامه ﷺ وهو يخطب، وفي الآية شيء من المعاتبة لهم - رضي الله عنهم.

والتجارة: اسم يقع على عقود المعاوضات التي يطلب بها الأرباح كالبيع والشراء ونحو ذلك.

والمراد بها هنا: العير التي قدمت المدينة تحمل البضائع.

﴿أَوْ لَهْوًا﴾ قيل: إنهم كانوا يستقبلون التجارة بالطبل والتصفيق، وقيل مع هذه التجارة طبل.

﴿انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ أي: خرجوا إليها. والضمير يعود إلى التجارة، لأنها هي المقصودة بالخروج، واللهو تبع لها. والمعنى انفضوا إلى ذلك ﴿وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ أي: وتركوك قائماً تخطب، أو قائماً في الخطبة.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الجمعة ٩٣٦، ومسلم في الجمعة قول الله تعالى: ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً ﴾ ٨٦٣، والترمذي في التفسير ٣٣١١، وأحمد ٣/ ٣١٣.

(٢) أخرجه أبو يعلى فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١٥٠.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٦٤٨ – بإسناد صحيح، وأخرجه أبو عوانة في صحيحه فيما ذكره الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» ٣/ ٧٦.

(٤) انظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ١٥٠.

ويؤخذ من هذا أن الخطيب يكون قائماً، كما في الحديث: «كانت للنبي – ﷺ – خطبتان يجلس بينهما يقرأ القرآن ويذكر الناس»[1].

﴿قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ﴾ أي: قل لهم يا محمد الذي عند الله من الأجر والثواب العظيم في الجنة خير وأفضل من اللهو والتجارة.

﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ أي: أنه عز وجل هو الرازق والرزاق وحده، والرزق كله بيده، فاعبدوه، واطلبوا الرزق منه في وقته، وتوكلوا عليه كما قال عز وجل ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: ١٢٣] وليس معنى ذلك أن هناك رازقاً غير الله، بل هو الرازق والرزاق وحده كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [الحج: ٥٨].

وإنما قد يكون بعض المخلوقين سبباً للرزق فقط أما الرازق والرزاق حقاً فهو الله عز وجل مسبب الأسباب وهذا مثل قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]. فالخالق حقاً هو الله عز وجل، كما قال عز وجل ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: ٥٤].

الفوائد والعبر:

١ ـ تنبيه المؤمنين بأهمية الخطاب الموجه إليهم بتصديره بالنداء، وتشريفهم وتكريمهم بندائهم بوصف الإيمان حثاً على الاتصاف بهذا الوصف وامتثال ما بعد هذا النداء من أمر ونهي.

٢ ـ وجوب السعي إلى صلاة الجمعة وخطبتها بعد النداء الثاني لها وترك البيع بعد ذلك وأن في ذلك الخير كل الخير لمن لديه علم ينتفع به.

٣ ـ مشروعية الانتشار والتفرق في الأرض بعد قضاء صلاة الجمعة وطلب الرزق من الله وذكر الله بتسبيحه وتحميده وتكبيره وتهليله وغير ذلك في جميع الأوقات، والوعد بالمجازاة على ذلك بالفلاح والسعادة في الدارين.

٤ ـ العتاب اللطيف للمؤمنين الذين خرجوا وتركوا الرسول ﷺ قائماً يخطب لما رأوا التجارة واللهو.

٥ ـ أن المشروع في الخطبة أن يكون الخطيب قائماً.

٦ ـ أن ما عند الله من الأجر والثواب العظيم في الجنة خير وأفضل من اللهو ومن التجارة، ومن الدنيا بحذافيرها.

٧ ـ أن الأرزاق كلها بيد الله ـ عز وجل ـ وهو خير الرازقين.

---

(١) أخرجه مسلم في الجمعة – ذكر الخطبتين قبل الصلاة وما فيهما من الجلسة ٨٦٢، وأبو داود في الصلاة ١٠٩٤، والنسائي في الجمعة ١٤١٨ من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه.

تفسير سورة المنافقون

سبب النزول

عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فأصاب الناس شدة، فقال عبد الله بن أبي لأصحابه: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله. وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. فأتيت النبي ﷺ فأخبرته بذلك. فأرسل إلى عبد الله بن أبي فسأله فاجتهد يمينه ما فعل فقالوا: كذب زيد يا رسول الله. فوقع في نفسي مما قالوا حتى أنزل الله تصديقي في ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ﴾. قال: ودعاهم رسول الله ﷺ ليستغفر لهم، فلووا رؤوسهم. وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ قال: كانوا أجمل شيء»[1].

وعن جابر بن عبد الله – رضي الله عنه – قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة، فكسع[2] رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين. فقال رسول الله ﷺ: «ما بال دعوى الجاهلية؟ دعوها فإنها منتنة» وقال عبد الله بن أبي بن سلول – وقد فعلوها – والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. قال جابر: وكان الأنصار بالمدينة أكثر من المهاجرين حين قدم رسول الله ﷺ ثم كثر المهاجرون بعد ذلك، فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال النبي ﷺ: «دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»[3].

وروى ابن إسحاق في قصة بني المصطلق في غزوة المريسيع – قال: «فبينا رسول الله ﷺ مقيم هناك، اقتتل على الماء جهجاه بن سعيد الغفاري، وكان أجيراً لعمر بن الخطاب، وسنان بن وَبْر. قال: ازدحما على الماء فاقتتلا، فقال سنان: يا معشر الأنصار. وقال الجهجاه: يا معشر المهاجرين ـ وزيد بن أرقم ونفر من الأنصار عند عبد الله بن أبي فلما سمعها قال: قد ثاورونا في بلادنا. والله ما مثلنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال القائل: «سمن كلبك يأكلك» والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ثم أقبل على

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة المنافقون ٤٩٠٣. ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم ٢٧٧٢، والترمذي في تفسير سورة المنافقون ٣٣١٢، وأحمد ٤/ ٣٦٨ – ٣٦٩، ٣٧٣، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٦٥٥ – ٦٥٧.

(٢) أي: ضربه.

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة المنافقون ٤٩٠٥، ومسلم في البر ـ نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً ٢٥٨٤، والترمذي في التفسير ٣٣١٥، وأحمد ٢/ ٣٩٢ – ٣٩٣، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٦٦١ – ٦٦٢.

من عنده من قومه وقال: هذا ما صنعتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو كففتم عنهم لتحولوا عنكم من بلادكم إلى غيرها. فسمعها زيد بن أرقم، فذهب بها إلى رسول الله ﷺ وهو - غُلَيِّمٌ - وعنده عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فأخبره الخبر، فقال عمر - رضي الله عنه -: يا رسول الله، مر عبّاد بن بشر فليضرب عنقه. فقال ﷺ: «فكيف إذا تحدث الناس - يا عمر - أن محمداً يقتل أصحابه؟ لا، ولكن ناد يا عمر في الرحيل».

فلما بلغ عبد الله بن أبي أن ذلك قد بلغ رسول الله ﷺ أتاه فاعتذر إليه، وحلف بالله ما قال ما قال عليه زيد بن أرقم - وكان عند قومه بمكان - فقالوا: يا رسول الله، عسى أن يكون هذا الغلام أوهم، ولم يثبت ما قال الرجل.

وراح رسول الله ﷺ مهجراً في ساعة كان لا يروح فيها، فلقيه أسيد بن الحضير فسلم عليه بتحية النبوة، ثم قال: والله لقد رحت في ساعة منكرة ما كنت تروح فيها، فقال رسول الله ﷺ: «أما بلغك ما قال صاحبك ابن أبي؟ زعم أنه إذا قدم المدينة أنه سيخرج الأعز منها الأذل». قال: فأنت يا رسول الله العزيز وهو الذليل. ثم قال: يا رسول الله ارفق به، فوالله لقد جاء الله بك، وإنا لننظم له الخرز لِنُتَوِّجه، فإنه ليرى أن قد استلبته ملكاً.

فسار رسول الله ﷺ بالناس حتى أمسوا، وليلته حتى أصبحوا، وصدر يومه حتى اشتد الضحى، ثم نزل بالناس ليشغلهم عما كان من الحديث، فلم يأمن الناس أن وجدوا مس الأرض فناموا، ونزلت سورة المنافقين»[1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ۝١ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣﴾ ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٤﴾

قوله: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ «إذا» ظرفية شرطية. والخطاب في «جاءك» للنبي ﷺ، وفيه تشريف وتكريم له ﷺ.

---

(١) انظر «السيرة النبوية» لابن هشام ٣/ ٣٠٣ ـ ٣٠٥، «تفسير ابن كثير» ٨/ ١٤٥ ـ ١٥٥.

و﴿ٱلْمُنَـٰفِقُونَ﴾ جمع منافق، وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، سموا بذلك أخذاً من نافقاء «اليربوع» وهو دويبة صغيرة أكبر من الفأرة، يتخذ جحراً في الأرض، ويجعل في آخره النافقاء ليس بينها وبين سطح الأرض سوى قشرة رقيقة جداً، فإذا داهمه عدو من باب جحره ضرب هذه النافقاء برأسه وخرج. فأخذ النفاق والمنافقون من هذا المعنى. وذلك أن المنافق يظهر الإيمان ويبطن الكفر، وإذا لقي المؤمنين قال: إنه مؤمن، وإذا لقي غير المؤمنين من المنافقين وغيرهم قال: أنا معكم، وقولي للمؤمنين أنا مؤمن مجرد استهزاء بهم، فيتخلص بهذا من ملامة هؤلاء وهؤلاء قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٤، ١٥]. كما قال تعالى عنهم هنا ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ﴾.

وقوله ﴿قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي: قالوا قولاً ظاهراً بألسنتهم ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ على وجه الكذب والنفاق منهم، زاعمين مواطأة قلوبهم لما نطقت به ألسنتهم.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ فلا حاجة إلى شهادتهم هذه الشهادة الظاهرة ووسط هذه الجملة بين قولهم ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ وبين الرد عليهم بقوله ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ﴾ للدلالة على عدم الحاجة لشهادتهم وأن قولهم ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ في حد ذاته حق وصدق، وإن كانوا لا يعتقدون ذلك.

﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ﴾ اللام للتوكيد، أي: والله يشهد إن المنافقين لكاذبون في قولهم ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ لأنهم لا يعتقدون صحة ما يقولون، بل يُكذِّبون برسالته وبما جاء به من عند الله ولا يشهدون أن محمداً رسول الله كما أنهم لا يشهدون أن لا إله إلا الله على الحقيقة.

فقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ مع أن هذا أمر معلوم للرسول ﷺ ذكر – والله أعلم – من باب المقابلة لقوله ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ﴾ فرد الله عليهم بأمرين: علمه عز وجل بأن محمداً ﷺ رسوله، وشهادته عز وجل بكذب المنافقين في زعمهم أنهم يشهدون أنه رسول الله.

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً﴾

أي: جعلوا (أيمانهم) وهي: جمع يمين، أي: حلفهم – ﴿جُنَّةً﴾ أي: ستراً ووقاية لدمائهم وأموالهم وأعراضهم، لتسلم من القتل والسلب والاستحلال، كما حصل من عبد الله بن أبي وغيره، لأن من دخل في الإيمان عُصم دمه وماله وعرضه، فهم كما قال

تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ [التوبة: ٥٦] «جنة» من الاجتنان، وهو الاستتار، ومنه سمي «الجنان» وهو القلب لأنه مستتر، وسمي «الجن» لأنهم مستترون، وسمي «المجن» لأنه يستتر به، وتتقى به السهام، ويقال: جَن الليل. أي: ستر الكون بظلامه وهكذا.

﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: فأعرضوا بأنفسهم عن سبيل الله، أي: عن طريقه ومنهجه ودينه، وصدوا غيرهم فاغتر بهم من لا يعرف حقيقة أمرهم، فصدقهم فيما يقولون واقتدى بهم فيما يفعلون، مع ما هم عليه من خبث القول والعمل، ولهذا قال:

﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي: إنهم ساء وقبح الذي كانوا يعملون، أو عملهم، من الكفر والشهادة بالكذب، والاتقاء بالأيمان الكاذبة والصد عن سبيل الله، فمن قلدهم فيما يقولون ويفعلون صدوه عن الإيمان بالله وطريقه، لأنهم لا يعملون إلا سيئاً.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ الإشارة لما حصل منهم من أعمال سيئة، أي: إنهم إنما حصل لهم ما حصل من النفاق والشهادة بالكذب واتخاذ الأيمان وقاية وسوء العمل، بسبب تذبذبهم، وأنهم آمنوا وصدقوا ظاهراً بألسنتهم وجوارحهم الظاهرة، وكفروا وجحدوا باطناً في قلوبهم، أو أنهم نطقوا بالشهادة وقاموا بالأعمال الظاهرة ثم كفروا بأن ظهر منهم من الأقوال والأفعال ما يدل على كفرهم، كما قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤] أي: وظهر كفرهم بعد إسلامهم، وكقوله: ﴿لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٦].

وأيضاً آمنوا، أي: نطقوا بالإيمان عند المؤمنين، ثم كفروا، أي: نطقوا بالكفر عند شياطينهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

فهم أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر. وقيل آمنوا ثم ارتدوا.

﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: فختم على قلوبهم بسبب كفرهم ونفاقهم بعد إيمانهم.

﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: فهم بسبب ذلك الطبع على قلوبهم ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا فقه لديهم، ولا علم ولا فهم ولا معرفة يهتدون بها إلى طريق الحق والخير.

قال ابن كثير[1]: «أي: فلا يصل إلى قلوبهم هدى، ولا يخلص إليها خير، فلا تعي ولا تهتدي».

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٥١.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾، الواو: عاطفة، و«إذا» ظرفية شرطية. والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له أي: وإذا شاهدتهم يا نبي الله، وإذا شاهدتهم أيها المشاهد ﴿تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ أي: تعجبك أجسامهم لطولها وضخامتها، واستواء خلقها، وجمالها ونضارتها وحسن أشكالها وصورها.

﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ أي: وإن يتكلموا تصغ أنت ومن يسمعهم لكلامهم لبلاغتهم وفصاحة ألسنتهم ظانا صدقهم لأنهم ذوو فصاحة ولسن كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٩].

﴿كَأَنَّهُمْ﴾ أي: كأنهم في أجسامهم التي تعجب الناظر لها ﴿خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾. «خشب» جمع خشبة، وهي ما يقتطع من سيقان بعض الأشجار الكبيرة كأشجار الأثل وغيرها.

﴿مُّسَنَّدَةٌ﴾ أي: مسندة على جدار أو على شجر أو غير ذلك، أو: إلى شيء يسندها، لأنه لا يمكن أن تعتمد على نفسها، وهي في هذه الحال لا ينتفع بها بل هي ثقل على ما أسندت إليه، فهم كذلك مع كون أجسامهم تعجب الناظر إليها بشكلها ونضارتها لا يستطيعون الاعتماد على أنفسهم، ولا نفع فيهم ولا شفع أشبه بالأخشاب المسندة على الجدران، وخضراء الدمن، والطبول الجوفاء، صور بلا حقائق.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كان عبد الله بن أبي وسيماً جسيماً صحيحاً صبيحاً ذلق اللسان، فإذا قال: سمع النبي ﷺ مقالته»[1].

قال الطبري[2]: «لا خير عندهم، ولا فقه لهم، ولا علم، وإنما هم صور بلا أحلام، وأشباح بلا عقول».

وقال ابن كثير[3]: «فهم جهامات وصور بلا معاني».

﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ يظنون كل هيعة، وكل واقعة كائنة أنها نازلة بهم، وأنهم المقصودون بها، لريبهم ونفاقهم وخبثهم وسوء ظنهم وضعف يقينهم وجبنهم وخورهم وشدة خوفهم كما يقال: «كاد المريب أن يقول خذوني» فإذا صاح صائح، أو نادى مناد في العسكر أو في المدينة أو هنا أو هناك لأي أمر ظنوه إيقاعاً بهم، وخافوا من افتضاح

---

(١) انظر «الجامع لأحكام القرآن» ١٨/ ١٢٤ – ١٢٥.

(٢) في «جامع البيان» ٢٢/ ٦٥٣.

(٣) في «تفسيره» ٨/ ١٥٢.

نفاقهم، أو أن ينزل بهم ما يبيح دماءهم وأموالهم، فهم دائماً في خوف وقلق كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [الأحزاب: ١٩]. ففقدوا الأمن والطمأنينة وأحاطت بهم المخاوف من كل جانب بسبب نفاقهم وعدم إيمانهم، وصدق الله العظيم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن للمنافقين علامات يعرفون بها: تحيتهم اللعنة، وطعامهم نُهبة، وغنيمتهم غلول، ولا يقربون المساجد إلا هُجْراً، ولا يأتون الصلاة إلا دُبْراً، مستكبرين، لا يألفون، ولا يؤلفون، خُشُبٌ بالليل، صُخُبٌ أو سُخُبٌ بالنهار»(١).

﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾ أي: هم العدو الحقيقي، الكاملون في العداوة لك وللمؤمنين لأن العدو البارز أهون من العدو الذي لا يشعر به، وهو مخادع ماكر، يزعم أنه ولي وهو العدو المبين كما قال تعالى عن الشيطان: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨، ٢٠٨، الأنعام: ١٤٢].

﴿فَاحْذَرْهُمْ﴾ أي: كن منهم على حذر ويقظة، واحتراز واحتياط، ولا تغتر بظاهرهم وزعمهم الإيمان والأخوة للمؤمنين فهم أشد عداوة للرسول ﷺ وللمؤمنين من جميع الكفار، وضررهم على المؤمنين أشد من الكفار الظاهرين لأن الكفار الظاهرين يُعرفون ويُحترز منهم أما المنافقون فهم بين ظهراني المؤمنين، ويصعب الاحتراز منهم. ولشدة عداوتهم وخطرهم على المؤمنين كان عذابهم أشد من جميع الكفار كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٥].

ولهذا يقدم ذكرهم في باب الوعيد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠] وقال تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ [الأحزاب: ٧٣].

قال ابن القيم (٢): «هذا من إثبات الأولوية والأحقية لهم في هذا الوصف، وأنه لا يتوهم بانتسابهم إلى المسلمين ظاهراً وموالاتهم لهم ومخالطتهم إياهم أنهم ليسوا

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ٢٩٣: قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٩/ ٢٢٣: «رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني، ورجالهم رجال الصحيح». ومعنى «هجراً» أي: إعراضاً وتركاً، و«دبراً» أي: في آخرها وآخر وقتها. خشب بالليل: أي: كأنهم خشب ملقاة على الأرض، وهو كناية عن أنهم لا يُصلون في الليل، صُخُبٌ أو سُخُب بالنهار: أي: يكثر صخبهم وصياحهم بالنهار على الدنيا شحاً وحرصاً.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٥٣.

بأعدائهم، بل هم أحق بالعداوة ممن باينهم في الدار، ونصب لهم العداوة، وجاهرهم بها، فإن ضرر هؤلاء المخالطين لهم المعاشرين لهم، وهم في الباطن على خلاف دينهم أشد عليهم من ضرر من جاهرهم بالعداوة وألزم وأدوم، لأن الحرب مع أولئك ساعة، أو أياماً، ثم ينقضي ويعقبه النصر والظفر، وهؤلاء معهم في الديار والمنازل، صباحاً ومساءً، يدلون العدو على عوراتهم، ويتربصون بهم الدوائر، ولا يمكن مناجزتهم فهم أحق بالعداوة من المباين المجاهر، فلهذا قيل: ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ﴾ لا على معنى أنه لا عدو لكم سواهم، بل على معنى أنهم أحق بأن يكونوا لكم عدواً من الكفار المجاهرين».

﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ أي: أهلكهم ولعنهم الله وأخزاهم كيف يُصرفون عن الحق وإلى أي وجه يُصرفون عن الحق مع البيان وقيام البرهان وهو حكم من الله عليهم بالهلكة، وتعليم لعباده وأمر لهم أن يدعوا عليهم بذلك.

الفوائد والعبر:

١ ـ تشريف الله ـ عز وجل ـ لرسوله ﷺ وتكريمه له وعنايته به ودفاعه عنه.

٢ـ إثبات علم الله ـ عز وجل ـ أن محمداً رسوله، فلا حاجة لشهادة المنافقين الكاذبة.

٣ ـ فضح سرائر المنافقين وشهادة الله ـ عز وجل ـ وهو خير الشاهدين ـ بكذبهم في زعمهم أنهم يشهدون أن محمداً رسول الله.

٤ ـ تستر المنافقين بأيمانهم الكاذبة وقاية لأنفسهم وأموالهم وصدهم عن سبيل الله وبئس الصنيع صنيعهم.

٥ ـ تذبذب المنافقين بإظهارهم الإيمان وقيامهم بالأعمال الظاهرة وكفرهم وجحودهم في الباطن.

٦ ـ معاقبة المنافقين بسبب نفاقهم وتذبذبهم بالختم على قلوبهم فلا يفقهون ولا يعلمون ما ينفعهم.

٧ ـ حسن مظهر المنافقين وكلامهم مما يعجب المشاهد ويبهر السامع مع سوء مخبرهم فهم أشبه بالخشب المسندة والطبول المجوفة.

٨ ـ قلق المنافقين وشدة خوفهم وريبتهم، وظنهم أن كل صيحة عليهم.

٩ ـ أن المنافقين هم العدو الحقيقي للرسول ﷺ وللمؤمنين وللإسلام لأنهم بين ظهراني المؤمنين فهم أشد وأخطر من الكفار الظاهرين فيجب الحذر كل الحذر منهم.

١٠ ـ لعن المنافقين وإهلاكهم لعظيم خطرهم وشرهم والتعجب من انصرافهم عن الحق مع البيان وقيام البرهان.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٥) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٧) يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨)﴾

قوله ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ الواو: عاطفة و«إذا» ظرفية شرطية غير عاملة، و«قيل» فعل الشرط، وجوابه «لووا».

وقوله: ﴿قِيلَ لَهُمْ﴾ بالبناء للمجهول، ولم يقل: وإذا قال الله لهم، أو قال لهم رسوله، أو قال لهم المؤمنون ليشمل أي قائل لهم.

﴿لَهُمْ﴾ أي: للمنافقين، وعلى رأسهم زعيمهم عبد الله بن أبي رأس المنافقين.

﴿تَعَالَوْا﴾ أي: هلموا وأقبلوا.

﴿يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ أي: يطلب لكم رسول الله من الله مغفرة ذنوبكم، بسترها عن الخلق والتجاوز عن عقوبتها.

﴿لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ قرأ نافع وروح بتخفيف الواو الأولى، وقرأ الباقون بتشديدها. وقراءة التخفيف على أنهم فعلوا ذلك مرة واحدة، وقراءة الباقين تدل على تكرارهم ذلك.

ومعنى ﴿لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ أي: أمالوا رؤوسهم وأعناقهم، وهزوا رؤوسهم استهزاء برسول الله ﷺ.

﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ أي: وشاهدتهم يعرضون بأبدانهم وقلوبهم ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ الواو: حالية. أي: حال كونهم مستكبرين، أي: أن صدودهم وإعراضهم عما قيل لهم إنما سببه استكبارهم وأنفتهم واحتقارهم لما قيل لهم ولمن قاله.

وهكذا يحمل الكبر صاحبه ـ عياذاً بالله ـ على رد الحق والصد والإعراض عنه – كما قال ﷺ: «الكبر بطر الحق وغمط الناس» (١) أي: رد الحق وازدراء الناس وتنقصهم.

﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي: سواء على هؤلاء المنافقين الذين لووا رؤوسهم استكباراً وعناداً واستهزاء سألت الله أن يغفر لهم ذنوبهم، أم لم

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ٩١، والترمذي في البر والصلة ١٩٩٩ من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. وانظر «جامع البيان» ٢٢/ ٦٥٨.

تسأله ذلك ﴿لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ أي: لن يستر ذنوبهم ويتجاوز عن عقوبتهم عليها، بل سيفضحهم بها ويعاقبهم عليها كما قال تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠].

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي: إن الله لا يوفق القوم الخارجين عن طاعته عز وجل.

فالهداية المنفية عنهم هي الهداية الخاصة بالله – عز وجل – هداية التوفيق والقبول، لا الهداية العامة فقد دلهم الله عز وجل وأرشدهم، هم وغيرهم بكتابه وعلى لسان رسوله ﷺ إلى ما فيه خيرهم، ومن ذلك قوله عز وجل ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ فهذا من إرشادهم لكنهم كما ذكر الله عنهم ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ و﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾.

فبسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله – عز وجل – حرموا هداية التوفيق من الله عز وجل كما قال عز وجل ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٥، ١٥٦].

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ هم، أي المنافقون ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ لإخوانهم من المنافقين، وغيرهم ﴿لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ يعني من المهاجرين رضي الله عنهم الذين هاجروا وتركوا ديارهم وأهليهم وأولادهم وأموالهم ابتغاء وجه الله ﴿حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ أي: حتى يخرجوا من المدينة، ويتفرقوا عن رسول الله ﷺ كما قال عبد الله بن أبي – لعنه الله – «لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله» وقال لقومه: «هكذا صنعتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو كففتم عنهم لتحولوا عنكم من بلادكم إلى غيرها»[1].

وكأنهم بهذا القول من أكرم الناس، وهم أبخلهم، وكأنهم المتكفلون بنفقة المؤمنين، ولهذا رد الله عليهم بقوله:

﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ «لله» جار ومجرور خبر مقدم لإفادة القصر والحصر، أي: إن خزائن ملك السموات والأرض وما فيهما من الأموال والأرزاق وغير ذلك له وحده دون سواه، فيؤتي الرزق من يشاء ويمنعه من يشاء، وييسر أسبابه لمن يشاء

---

(١) سبق تخريجه في ذكر سبب نزول السورة.

ويعسرها على من يشاء وهو المتكفل بأرزاق جميع الخلق كما قال عز وجل ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦]، وقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨] ورزق الله لا يجره حرص حريص ولا يرده كراهية كاره، ولو كان أحد يستطيع أن يمنع رزق أحد لمات جل الناس جوعاً، ولما عاش العصفور مع الصقر.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا فقه لهم على الحقيقة إذ كيف يقولون هذه المقالة، التي فحواها أن نفقة من عند رسول الله ﷺ عليهم، وأن خزائن الأرزاق في أيديهم وتحت مشيئتهم.

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّۚ﴾ كما قال كبيرهم عبد الله بن أبي: «والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل».

فيقسمون لئن رجعنا وعدنا، يعني من السفر وكان ذلك في غزوة المريسيع ﴿إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ يعني المدينة النبوية مدينة رسول الله ﷺ ﴿لَيُخْرِجَنَّ﴾ اللام واقعة في جواب القسم، أي: والله لئن رجعنا إلى المدينة ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّۚ﴾.

و﴿ٱلْأَعَزُّ﴾ أي: الفريق الذي هو أعز، و«أعز» على وزن «أفعل» اسم تفضيل، أي: الفريق الذي بلغ أعلى درجات العز، ويعنون به أنفسهم. وهم أذل وأخس وأحقر خلق الله وأهونهم على الله وعلى خلقه في الدنيا والآخرة، فحياتهم في الدنيا حياة مادية بهيمية كحياة الحمار، مع الشقاء والتذبذب وفقدان السعادة، ومصيرهم في الآخرة الدرك الأسفل من النار.

﴿مِنْهَا﴾ أي: من المدينة.

﴿ٱلْأَذَلَّۚ﴾ أي: الفريق الذي هو أذل، و«أذل» على وزن «أفعل» اسم تفضيل، أي: الفريق الذي بلغ أدنى درجات الذل ويقصدون بذلك – أخزاهم الله – الرسول ﷺ وأصحابه. وكما يقال: اعكس تصب، فإن الذي بلغ غاية الذل والمهانة والحقارة هو عبد الله بن أبي وأشياعه من المنافقين، وهل هناك أذل وأحقر ممن كفر بالله، بل وأظهر الإيمان خوفاً من الخلق، فأذله الله. والذي بلغ غاية العز وأفضله ومنتهاه بعد الله – عز وجل – هو رسول الله ﷺ والمؤمنون، ولهذا قال عز وجل:

﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾

أي: ولله – عز وجل – العزة التامة بجميع معانيها وأنواعها: عزة الامتناع فهو – عز وجل – ممتنع عن كل عيب ونقص، وعزة القهر والغلبة، كما قال عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨، ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف:

٢١]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ [المجادلة: ٢١].

وعزة القوة كما قال – عز وجل -: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

فهو – عز وجل – ذو العزة التامة – كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾ [النساء: ١٣٩]، وقال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ [فاطر: ١٠] وهو عز وجل صاحب العزة كما قال عز وجل ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠](١).

وكل عزة مستمدة من عزته – عز وجل – ولهذا قال هنا ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فعزة الرسول – ﷺ – والمؤمنين من عزة الله عز وجل، لأن العز كل العز بطاعة الله – عز وجل – قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

كما أن الذل كل الذل بمعصية الله – عز وجل – ولهذا لا أذل بعد إبليس من المنافقين، لأنهم بلغوا من المعصية والكفر بالله منتهاه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي: ولكن المنافقين لا يعلمون حقيقة أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين.

فنفى عنهم الفقه أولاً، ثم نفى عنهم العلم ثانياً، وهو تدرج في الذم لهم من سيء إلى أسوأ منه، فالذي لا يعقل هو الذي لا يستطيع الفهم والإدراك والاستنباط بعقله، وأسوأ منه الذي لا يعلم فهو مع كونه لا يستطيع الإدراك بعقله لا يستطيع أيضا أن يعلم ويعرف ما أدركه غيره واستنبطه وهذا غاية الغباء والجهل. وأسوأ من هذا الذي لا يشعر فلا يدرك ولا يحس ولا بما تدركه الحواس الظاهرة فهو معدوم الإحساس، كما وصفهم بهذا في سورة البقرة في قوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ﴾[البقرة: ١٢].

وقد روي: «أن عبد الله بن عبد الله بن أبي وقف على باب المدينة واستل سيفه، فجعل الناس يمرون عليه، فلما جاء أبوه عبد الله بن أبي قال له ابنه: وراءك، فقال: مالك؟ ويلك. فقال: والله لا تجوز من ههنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ فإنه العزيز وأنت الذليل، فلما جاء رسول الله ﷺ وكان إنما يسير ساقة، فشكا إليه عبد الله بن أبي ابنه، فقال ابنه عبد الله، والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له، فأذن له رسول الله

---

(١) انظر الكلام على قوله ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ في مطلع سورة الحديد.

ﷺ فقال: أما إذ أذن لك رسول الله ﷺ فجز الآن»[١].

وروى ابن إسحاق وغيره: أن عبد الله بن عبد الله بن أبي لما بلغه أمر أبيه أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي، فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني، إني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي بين الناس، فأقتله، فأقتل مؤمناً بكافر، فأدخل النار فقال رسول الله ﷺ: «بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا»[٢].

الفوائد والعبر:

١ ـ تكبر المنافقين وليهم رؤوسهم، وصدودهم وأنفتهم من المجيء إلى الرسول ﷺ ليستغفر لهم وعن قبول الحق والانقياد له.

٢ ـ تيئيس المنافقين من مغفرة الله لهم سواء استغفر لهم الرسول ﷺ أو لم يستغفر لهم.

٣ ـ عدم توفيق الله للمنافقين ولغيرهم من الفاسقين الخارجين عن طاعة الله ـ عز وجل.

٤ ـ محاولة المنافقين الإضرار بالمؤمنين اقتصادياً بمنع الانفاق عليهم ليضطروهم للخروج من المدينة، وكأنهم المتكفلون بأرزاق العباد.

٥ ـ بيان أن خزائن السموات والأرض كلها لله والأرزاق كلها بيده يرزق من يشاء ويحرم من يشاء لكن المنافقين لا يفقهون هذه الحقيقة.

٦ ـ فضح عبد الله بن أبي في مقالته الشائنة «ليخرجن الأعز منها الأذل» وتبنيه مع أتباعه من المنافقين إخراج الرسول ﷺ والمؤمنين من المدينة، وإذلال الله ـ عز وجل له، وتخييب أمله، وإبطال كيده.

٧ـ إثبات أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، وأن الذل لمن خالف أمر الله ورسوله من المنافقين وغيرهم، ولكن المنافقين لا يعلمون هذه الحقيقة.

٨ـ أن العز كل العز في طاعة الله تعالى ورسوله، وأن الذل كل الذل في معصية الله ورسوله.

---

(١) انظر «جامع البيان» ٢٢/ ٦٦٢ – ٦٦٣، «تفسير ابن كثير» ٨/ ١٥٩.

(٢) انظر «السيرة النبوية» لابن هشام ٢/ ٢٩٢ – ٢٩٣، «جامع البيان» ٢٢/ ٦٩٩ – ٦٧٠، «تفسير ابن كثير» ٨/ ١٥٩.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله عز وجل فيما سبق من السورة أحوال المنافقين ومواقفهم ومقالاتهم المخزية ثم ختم الله عز وجل السورة بنهي المؤمنين عن الانشغال بالأموال والأولاد عن ذكر الله وأمرهم بالإنفاق مما رزقهم الله قبل حلول الأجل وانقطاع العمل وفي هذا تحذير من مسلك المنافقين وصفاتهم الذميمة وهي الانشغال بالأموال والأولاد، ومنع الإنفاق من رزق الله، لأنهم ينظرون للحياة نظرة مادية فقط.

وفي هذا إشارة إلى عدم الأمن من النفاق قال عبد الله بن أبي مليكة: «أدركت ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ كلهم يخشى على نفسه من النفاق»، وقال بعض السلف: «ما أمن النفاق إلا منافق» ولهذا روي أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه سأل حذيفة بن اليمان ـ صاحب سر رسول الله ﷺ ـ قائلاً له «هل عدني لك رسول الله من المنافقين»؟

قوله: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ﴾ أي: لا تشغلكم أموالكم، وهي كل ما يتمول من دراهم وعقار وأثاث وغير ذلك ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾ أي: ولا تشغلكم أولادكم. والأولاد يشمل أولاد الإنسان وأولاد بنيه، وإن نزلوا بمحض الذكور.

﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ عام في جميع أنواع ذكر الله من الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد وقراءة القرآن والتسبيح والتحميد والثناء على الله عز وجل، والتهليل والتكبير، ودعاء الله واستغفاره والتضرع إليه، وسائر أعمال البر والخير كلها من الواجبات والمستحبات، من أذكار القلب واللسان والجوارح، والأذكار القولية والفعلية وغيرها. لأن بالذكر حياة القلوب، فهو لها كالماء للزرع، وكالماء للسمك لا حياة له إلا به.

قال ابن القيم[1]: «المقصود: أن دوام الذكر لما كان سبباً لدوام المحبة وكان الله سبحانه أحق بكمال الحب والعبودية والتعظيم والإجلال كان كثرة ذكره من أنفع ما للعبد، وكان عدوه حقاً هو الصاد له عن ذكر ربه وعبوديته».

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٥٣ – ٤٥٥.

وقدم الأموال على الأولاد – والله أعلم – لأنها تشغل أكثر إذا كثرت عند الإنسان ـ والناس يختلفون في هذا ـ لكن المنشغلين بالأموال أكثر من المنشغلين في الأولاد، ولأن الأموال كثيراً ما تشغل عن ذكر الله وعن الأولاد أيضاً أي: عن تربيتهم وتعليمهم وتوجيههم، فكم من والد انشغل عن أولاده بسبب أمواله وأعماله.

وأيضاً فإن الانشغال بالأولاد قد ينتهي بكبر الأولاد، لكن الانشغال بالمال يزداد مع كثرته وازدياد الحرص عليه مع الكبر وحتى القبر.

فالمال فتنة وأي فتنة، لأن زيادته تكون غالباً على حساب نقصان الدين، ونقصان نصيب الإنسان من ربه، هذا إذا كان من طرق حلال فكيف إذا كان من طرق محرمة أو مشتبهة في الأسهم وغيرها مما يجعل الإنسان قلقاً طول حياته ـ وما خلقنا لهذا، اللهم غفراً.

وقد أحسن القائل:

زيادة المرء في دنياه نقصان ... وربحه غير محض الخير خسران
وكل وجدان حظ لا ثبات له ... فإن معناه في التحقيق فقدان
يا عامراً لخراب الدهر مجتهداً ... تالله هل لخراب الدهر عمران
ويا حريصاً على الأموال يجمعها ... أُنسيت أن سرور المال أحزان
زع الفؤاد عن الدنيا وزخرفها ... فصفوها كدر والوصل هجران[1]

وخص الأموال والأولاد في قوله ﴿لا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ لأنهما من أعظم ما يلهي عن ذكر الله. كما قال عز وجل: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]. ولهذا قال تعالى: ﴿لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٠، ١١٦]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾ [التوبة: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ﴾ [الإسراء: ٦٤].

وقد يلتهي الإنسان بغير الأموال والأولاد من حب الرياسة والشهرة والمناصب والرياضة وغير ذلك مما ينتظمه قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١] أي: ألهاكم التكاثر في الأموال والأولاد وغير ذلك.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ الواو: استئنافية، و«من» شرطية و«يفعل» فعل الشرط، وجوابه جملة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ وارتبط الجواب بالفاء لأنه جملة اسمية.

---

(١) الأبيات لأبي الفتح البستي.

والإشارة في ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى المصدر المفهوم من قوله ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾. أي: ومن يلته وينشغل بالأموال والأولاد عن ذكر الله ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

أي: فأولئك الذين يلتهون بالأموال والأولاد عن ذكر الله ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ و«الخاسرون» جمع خاسر والخسر والخسران: ضد الربح، وقد أكد الجملة هنا بكونها اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم» أي: فأولئك هم الخاسرون حقاً، الذين غُبنوا حظوظهم من كرامة الله عز وجل ورحمته وفضله، والذين بلغوا الغاية العظمى في الخسارة، وهي الخسارة في الدين التي لا تشبهها خسارة فخسروا السعادة في الدنيا والآخرة، وخسروا الجنة والنعيم المقيم في الآخرة، لأنهم آثروا ما يفنى على ما يبقى.

قال عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

فالخسارة العظمى، والمصيبة الكبرى، والكسر الذي لا ينجبر أن يصاب الإنسان في دينه نسأل الله السلامة. وقد أحسن القائل:

وكل كسر فإن الله يجبره ... وما لكسر قناة الدين جبران

وأي خسارة كخسارة من ألهته الأموال والأولاد عن ذكر الله الذي أمر الله عز وجل بالإكثار منه كما قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١]، والذي به يذكر الله العبد كما قال عز وجل ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، والذي هو سبب الفلاح والمغفرة، والأجر العظيم، كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥، الجمعة: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

والذي يحوز صاحبه قصب السبق قال ﷺ: «سبق المفردون» قالوا: يا رسول الله، وما المفردون؟، قال: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات»[1].

والذي هو خير الأعمال وأزكاها – كما في حديث أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: ذكر الله تعالى»[2].

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ـ الحث على ذكر الله تعالى ٢٦٧٦، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات ـ فضل الذكر ٣٣٧٧، وابن ماجه في الآداب ـ فضل الذكر ٣٧٩٠، والحاكم ١/ ٤٩٦ =

﴿وَأَنفِقُوا﴾ أي: وأنفقوا أيها المؤمنون في سبل الخير كلها من النفقات الواجبة والمستحبة، من الزكاة والنفقة على الأهل والأولاد وفي الحج، والصدقة على الفقراء والمساكين والمحتاجين، وفي أعمال البر والخير من بناء المساجد، وتعليم كتاب الله تعالى، وسنة نبيه ﷺ وغير ذلك من العلوم النافعة، وفي بناء المدارس ومراكز الخدمات الصحية والاجتماعية وفتح الطرق وتعبيدها وحفر الآبار، وغير ذلك من وجوه البر والخير وما أكثرها.

﴿مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ «من» للتبعيض و«ما» موصولة، أو مصدرية أي: من الذي زرقناكم، أو من رزقنا إياكم – والرزق هو العطاء. أي: مما أعطيناكم من الأموال.

وفي هذا حث لهم على الإنفاق والبذل والعطاء والسخاء في ذلك، لأن الرزق من الله – عز وجل – والمال ماله – عز وجل – وهو عارية بيد الإنسان فلِمَ البخل به ومنعه وهو عز وجل الرزاق الذي يخلف على من أنفق، كما قال عز وجل ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

وفي الحديث: «اللهم أعط منفقاً خلفاً وأعط ممسكاً تلفا»[(١)]

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ أي: من قبل حضور الموت، بحضور علاماته وأماراته، وحلول سكراته كما قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء: ١٨].

والموت: هو عبارة عن خروج الروح من البدن ومفارقتها له.

﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ﴾ أي: هلا أجلتني فيكون استفهاماً، وقيل «لا» صلة، فيكون الكلام بمعنى التمني.

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ جواب «لولا» أي: إلى زمان قريب، أي: قليل.

والمعنى: فيقول يا رب هلا أجلتني وأخرت موتي إلى أجل ووقت قريب، أي: هلا زدت في عمري شيئاً يسيراً، لأستدرك ما فات.

﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ أصله (فأتصدق) أدغمت التاء في الصاد، أي: فأتصدق من مالي.

﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ قرأ أبو عمرو ﴿ وأكونَ ﴾ بالواو ونصب النون، وقرأ الباقون

=

وصححه ووافقه الذهبي.

(١) سبق تخريجه.

بجزم النون من غير واو.

والمعنى: فأتصدق وأنفق من مالي، وأعمل أعمالاً صالحة، واستعتب واستدرك ما ضاع من عمري بلا عمل، في هذه المدة اليسيرة. وهيهات، ولات ساعة مندم، ما بعد حضور الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار كما قال عز وجل عن الكفار ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ [إبراهيم: ٤٤].

فكل مفرط يود إعطاءه مهلة ليتدارك ما فات ويستعتب من الخطأ والتقصير حتى أهل النار يودون الرجوع إلى الدنيا مع أنهم لو رجعوا لعادوا لما نهوا عنه كما قال عز وجل ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨].

وحتى الذين يتمنون عند الموت المهلة لو أعطيت لهم ما أجابوا الدعوة ولا اتبعوا الرسل ولا أنفقوا ولا عملوا صالحاً لأن الله لو علم فيهم صدقاً فيما يقولون لوفقهم إلى التدارك قبل حضور الموت.

﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ أي: ولن يؤجل الله نفساً وينظرها إذا حضر أجلها، لأن الآجال محدودة، والأنفاس معدودة، كما قال عز وجل ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤، النحل: ٦١]، وقال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ [الحجر: ٥، المؤمنون: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سبأ: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ٤]. وهذا لا ينافي ما جاء في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من سره أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه»[1].

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال لها: «إنه من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي حظه من خير الدنيا والآخرة، وصلة الرحم وحسن الجوار يعمران الديار، ويزيدان في الأعمار»[2].

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع ٢٠٦٧، ومسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٥٧، وأبو داود في الزكاة ١٦٩٣.
(٢) أخرجه أحمد ٦/ ١٥٩.

وكذا ما جاء في معنى هذين الحديثين لأنه ليس معنى ذلك أن يزاد في العمر أو ينقص منه، بعد ما كتب وقدر ولكن معنى ذلك أن الله كتب أن هذا يبسط له في رزقه ويطول عمره بسبب صلته لرحمه، وأنه أيضاً يبارك الله لمن فعل ذلك في رزقه وعمره، وفي عقبه وذريته كما في حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: ذكرنا عند رسول الله ﷺ الزيادة في العمر، فقال: «إن الله لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها، وإنما الزيادة في العمر أن يرزقه الله ذرية صالحة، يدعون له، فيلحقه دعاؤهم في قبره»[1]

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم ﴿ بما يعملون ﴾ بالياء، وقرأ الباقون بالتاء ﴿ بما تعملون ﴾ و«ما» موصولة، أو مصدرية، أي: والله خبير بالذي تعملون، أو بعملكم و«الخبير» المطلع على بواطن الأمور، فهو أخص من العليم، وإذا كان مطلعاً على البواطن فاطلاعه على الظواهر من باب أولى. فهو عز وجل عليم بأعمال العباد باطنها وظاهرها خفيها وجليها دقيقها وجليلها، لا تخفى عليه خافية، وسيجازي كلاً بعمله، المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

الفوائد والعبر:

١ ـ تصدير خطاب المؤمنين بالنداء للتنبيه لهم والعناية بخطابهم والاهتمام به.

٢ ـ نداء المؤمنين بوصف الإيمان تشريفاً وتكريماً لهم وحثاً على الاتصاف بهذا الوصف، ووجوب امتثال ما بعد هذا النداء من أمر واجتناب ما بعده من نهي.

٣ ـ التحذير من الانشغال بالأموال والأولاد عن ذكر الله وما يقرب إلى الله.

٤ ـ أن الخاسرين حقاً من انشغلوا عن ذكر الله ـ عز وجل ـ وطاعته بالأموال والأولاد وغير ذلك.

٥ ـ الأمر بالإنفاق في سبيل الله بإخراج النفقات الواجبة من الزكاة والنفقة على الأهل والأولاد وغير ذلك، وبالنفقات المستحبة والصدقات المندوبة في وجوه البر كلها.

٦ ـ الحث والترغيب في المبادرة إلى الإنفاق في سبيل الله ووجوه البر قبل حضور الموت وعلاماته.

٧ ـ تذكير الإنسان بأن ما عنده من مال هو من رزق الله وأن المال مال الله ـ عز وجل ـ وهو وديعة عند الإنسان فلا ينبغي أن يبخل بالإنفاق منه.

٨ ـ سؤال كل مفرط بالإنفاق والعمل الصالح وتمنيه عند حضور الموت لو أمهل إلى أجل قريب ليستعتب ويتدارك ما فات بالصدقة والعمل الصالح ولكن هيهات ذلك.

٩ ـ إثبات ربوبية الله العامة لجميع الخلق، وأن لكل أجل كتاباً ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها.

١٠ ـ سعة خبرة الله ـ عز وجل ـ وعلمه واطلاعه على أعمال العباد، ومجازاته كلاً منهم بما عمل، وفي هذا وعد لمن أحسن، ووعيد لمن أساء.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١٦٠.

تفسير سورة التغابن

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝﴾.

قوله: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ سبق الكلام على هذا.

وقد ختم الله – عز وجل – السور المسبحات بهذه السورة، وهن خمس سور: الحديد، والحشر، والصف، والجمعة، والتغابن.

وأشبهها بمطلع هذه السورة سورة الجمعة ففيها قوله ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وفي سورة الحديد ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ وفي سورة الحشر والصف ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ قدّم الخبر وهو الجار والمجرور للدلالة على اختصاصه عز وجل وحده دون غيره بالملك حقيقة، لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الاختصاص والحصر. أي: له – عز وجل – الملك، ملك السموات والأرض وما بينهما، الخلق خلقه والأمر أمره، وهو مالك الملك وحده، له ملك الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وقال تعالى ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١].

ويظهر ويتبين كمال ملكه وتمامه يوم القيامة يوم تخضع الأملاك والملوك وما ملكوا له – عز وجل – ولهذا قال تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ [الحج: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، وقال تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٢٦].

وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد إنا نجد أن الله يجعل السموات على إصبع والأرضين على إصبع والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع، فيقول: أنا الملك، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ:

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]»[1].

لا شريك له في ذلك كله كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ [الإسراء: ١١١] وقال تعالى: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ [الفرقان: ٢].

﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ قدم الخبر وهو الجار والمجرور لإفادة الحصر والاختصاص أي: وله عز وجل وحده الحمد التام، كما قال عز وجل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ١، غافر: ٦٥].

والحمد: وصف المحمود بصفات الكمال مع المحبة والتعظيم، فله ـ عز وجل ـ الحمد في الدنيا والآخرة – كما قال عز وجل – ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]. وله الحمد في السموات والأرض وفي جميع الأوقات كما قال عز وجل: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٨] وله حمد جميع ما في السموات والأرض من جميع المخلوقات.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: وهو سبحانه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من الأشياء صغيراً كان أو كبيراً، قليلاً كان أو كثيراً، خفياً كان أو جلياً، أو أياً كان هذا الشيء، وقدم هذا على الخبر ﴿قَدِيرٌ﴾ وهو متعلق به لتأكيد قدرته على كل شيء.

و«قدير» على وزن «فعيل» يدل على أنه – عز وجل – ذو القدرة التامة، فلا يعجزه شيء. كما قال عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤].

و «القدير» من أسمائه ـ عز وجل.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ أي: هو الذي أوجدكم وأنشأكم من العدم وعلى غير مثال سابق، وحده دون سواه. وأصل الخلق: التقدير، ثم التنفيذ والإيجاد[2].

﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ قدم الكافر على المؤمن ـ والله أعلم ـ لأن الكفار هم الكثرة الكاثرة كما في قوله تعالى ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٦]، وذلك ـ والله أعلم إشارة وتنبيه على وجوب الحذر من مسلكهم.

أي: فمنكم أيها الناس كافر قدراً وكونا. والكفر هو جحود وجود الله وربوبيته

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨١١، ومسلم في صفة القيامة ٢٧٨٦، والترمذي في التفسير ٣٢٣٨.
(٢) انظر الكلام على قوله تعالى في سورة الحشر ﴿ هو الله الخالق البارئ المصور ﴾ [الآية: ٢٤].

وألوهيته وأسمائه وصفاته وشريعته أو شيء من ذلك، ضد الإيمان.

﴿وَمِنكُمْ مُّؤْمِنٌ﴾ أي: ومنكم أيها الناس ﴿مُّؤْمِنٌ﴾ قدراً وشرعاً، والإيمان هو الإيمان بالله، بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وشريعته وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وبكل ما يجب الإيمان به مما جاء في الكتاب والسنة.

وفي الآية دلالة على أن الله عز وجل قدر مقادير كل شيء قبل خلق الخلق ومن ذلك الكفر والإيمان كما جاء في الحديث «إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة»[1].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع أو باع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع أو باع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»[2].

وليس في تقدير الكفر على الكافرين، والإيمان للمؤمنين حجة لمن كفر أو عصى، لأن الله عز وجل أقام الحجة على الخلق بإرسال الرسل وإنزال الكتب وبيان الحق من الباطل والهدى من الضلال، والإنسان لا يعلم ما قدر له، فمن بحث عن الهدى والإيمان وتحراه وفق له، ومن أعرض عن ذلك وبحث عن الكفر والشر يسر له كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ - ١٠].

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: والله بالذي تعملون أو بعملكم ﴿بَصِيرٌ﴾ أي: مطلع عليه لا تخفى عليه منه خافية وفي هذا وعد ووعيد، وعد لمن آمن ووعيد لمن كفر.

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي: أوجد السموات والأرض بالحق والعدل والحكمة فقامت السموات والأرض وقام الكون كله على الحق والعدل والحكمة والغاية المقصودة له عز وجل قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥].

﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾ أي: صور أشكالكم وخالف بينها.

---

(١) أخرجه مسلم في القدر ٢٦٥٣، والترمذي في القدر ٢١٥٦ - من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في القدر ٦٥٩٤، ومسلم في القدر ٢٦٤٣، وأبو داود في السنة ٤٧٠٨، والترمذي في القدر ٢١٣٧، وابن ماجه في المقدمة ٧٦.

﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ جعلها أحسن المخلوقات صورة وأجملها وأبهاها منظراً، فلم يجعلها على صور قبيحة سيئة كصورة القرد أو الحمار، أو غير ذلك، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦ – ٨]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: وإليه وحده – عز وجل – المرجع والمآل والمآب في الدنيا والآخرة – كما قال عز وجل ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾ [الرعد: ٣٦].

﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: يعلم جميع الذي في السموات والأرض من الكائنات والمخلوقات فعلمه محيط بكل شيء – كما قال عز وجل – ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].

﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ أي: ويعلم الذي تسرون وتخفون والذي تعلنون وتظهرون، أو يعلم إسراركم وإعلانكم، أي: إخفاءكم وإظهاركم.

وقدم عز وجل علمه بما يسرون على علمه بما يعلنون، تأكيداً لشمول علمه وعدم خفاء شيء عليه سبحانه، فالسر عنده كالعلانية كما قال عز وجل ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ﴾ [الممتحنة: ١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ [الأعلى: ٧]، وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ [إبراهيم: ٣٨].

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: والله عليم بصاحبة الصدور، وهي القلوب التي في الصدور قال عز وجل: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

أي إنه – عز وجل – ذو علم تام بالقلوب وما تنطوي عليه من المكنونات والأسرار كما قال عز وجل: ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٠] وقد أكد عز وجل في هذه الآية كمال علمه وشموله لكل شيء متدرجاً من العام إلى الخاص إلى ما هو أخص منه فذكر أولا علمه بما في السموات والأرض، ثم عطف عليه علمه بما يسرون وما يعلنون، ثم عطف عليه علمه بذات الصدور فبدأ بذكر علمه العام، ثم عطف عليه بذكر علمه الخاص، ثم عطف عليه بذكر علمه بأخص الخاص وهو العلم بذات الصدور وفي هذا بيان لإحاطة علمه – عز وجل – بكل شيء، ووجوب مراقبته في السر والعلن.

الفوائد والعبر:

١ ـ تسبيح جميع ما في السموات وما في الأرض لله ـ عز وجل.

٢ ـ اختصاص الله ـ عز وجل ـ بالملك وحده دون غيره فله عز وجل الملك والأمر والتدبير.

٣ ـ أن الحمد التام لله عز وجل هو المستحق له وحده دون سواه.

٤ ـ إثبات كمال قدرة الله ـ عز وجل ـ وأنه سبحانه ذو القدرة التامة على كل شيء.

٥ ـ امتنان الله ـ عز وجل ـ على الخلق وبيان تمام قدرته في خلقهم ونفوذ قدره الكوني فيهم فمنهم كافر ومنهم مؤمن.

٦ ـ إثبات اسم الله ـ عز وجل ـ «البصير» وإحاطة علمه ـ عز وجل ـ واطلاعه وبصره بجميع أعمال العباد ومجازاتهم عليها.

٧ ـ خلق الله عز وجل السموات والأرض بالحق، وإقامته هذا الكون على العدل.

٨ ـ نعمة الله ـ عز وجل ـ على بني آدم بجعل صورهم أحسن الصور وأبهاها منظراً، وأعدلها خلقة.

٩ ـ أن المرجع والمصير والمآب إلى الله ـ عز وجل ـ منه البداية وإليه النهاية.

١٠ ـ سعة علم الله ـ عز وجل ـ وإحاطته بما في السموات والأرض وبما يخفي الخلائق وبما يعلنون وبما تنطوي عليه القلوب والضمائر، وفي هذا وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝﴾.

في هتين الآيتين تهديد وتحذير للمكذبين الكافرين من هذه الأمة بذكر أخبار المكذبين قبلهم وعقوباتهم وعذابهم.

قوله ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ الهمزة للاستفهام، أي: ألم يأتكم خبر الذين كفروا من قبل من الأمم الماضية كقوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وغيرهم والخطاب لعموم الناس الذين بعث فيهم نبينا محمد ﷺ، والنبأ: الخبر الهام كما في قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ [النبأ: ١، ٢].

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: الذين كفروا بالله وكذبوا رسله ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبلكم ﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي: فتجرعوا ومسهم عقوبة كفرهم وتكذيبهم الوخيمة وما حل بهم من العذاب والنكال والخزي الدنيوي.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: ولهم مع هذا العقاب الدنيوي ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة بالنار، و«أليم» «فعيل» بمعنى «مفعل» أي: مؤلم موجع حسياً للأبدان، ومؤلم موجع معنوياً ونفسياً للقلوب.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ﴾ أي: ذلك العقاب الدنيوي الذي حل بالذين كفروا من قبلهم والعذاب الأخروي الذي توعدوا به بسبب أنه ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالحجج والبراهين والدلائل القاطعات، لإقامة الحجة عليهم.

﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ الاستفهام للإنكار والاستكبار، أي: فقالوا استكباراً وإنكاراً أن يكون المرسل إليهم ومن يدلهم على طريق الهداية بشراً مثلهم، ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ أي: ليس لهم فضل علينا، فلماذا خصهم الله دوننا، كما قال قوم صالح عليه السلام ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ۝ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر: ٢٤، ٢٥].

وهذا منهم على سبيل العناد والاستكبار، وإلا فكون الرسول بشراً من جنسهم هو الأقرب لهدايتهم، وبه إقامة الحجة عليهم، إذ لو كان ملكاً لادعوا أنه ليس منهم، بل للزم أن يكون على هيئة رجل ليفهموا منه خطابه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩].

فمقتضى الحال أن يكون الرسول منهم إقامة للحجة عليهم، ولهذا قال الرسل لأقوامهم ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم:

١١] وقال تعالى ممتناً على العباد: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْۖ﴾ [إبراهيم: ٤].

﴿فَكَفَرُواْ﴾ جحدوا وكذّبوا بما جاءتهم به رسلهم من البينات ﴿وَّتَوَلَّواْۚ﴾ أعرضوا عن الحق بقلوبهم وأبدانهم ﴿وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُۚ﴾ أي: أظهر غناه عنهم، وعن إيمانهم به وبرسله لأنه لا تنفعه طاعة المطيع، ولا تضره معصية العاصي كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً»[١].

﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ﴾ أي: غني عن جميع خلقه، له الغنى التام المطلق من جميع الوجوه، الذي غناه من لوازم ذاته سبحانه الذي له ملك السموات والأرض وخزائنهما بيده.

﴿حَمِيدٌ﴾ في أقواله وأفعاله وأوصافه، محمود عند جميع خلقه على غناه وإفضاله وجوده وكرمه وإنعامه عليهم.

الفوائد والعبر:

١ ـ الوعيد والتهديد والتحذير للمكذبين والكافرين من هذه الأمة بذكر أخبار المكذبين الكافرين من الأمم قبلهم وعقوبات الله لهم وما أعد لهم من العذاب الأليم في الآخرة والسعيد من وعظ بغيره.

٢ ـ أن الكبر والعناد من أعظم أسباب رد عوة الرسل والكفر بما جاؤوا به من الآيات البينات والتولي عن الحق.

٣ ـ غنى الله ـ عز وجل ـ عن من تولى وأعرض عن طاعته لأنه ـ عز وجل ـ لا تنفعه طاعة المطيع كما لا تضره معصية العاصي.

٤ ـ إثبات اسمين من أسماء الله ـ عز وجل ـ وهما «الغني» و «الحميد» وما يدلان عليه من إثبات صفة الغنى الكامل له عز وجل وأنه ـ عز وجل ـ الحميد في أقواله وأفعاله وأوصافه المحمود عند جميع خلقه على غناه وإفضاله وكرمه وجوده وإنعامه عليهم.

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٧٧، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٩٥، وابن ماجه في الزهد ٤٢٥٧ من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٧ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ۝٨ يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٩ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝١٠﴾

قوله: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ﴾ «زعم» أي: ادعى وأكثر ما يستعمل الزعم بالادعاء الكاذب. قال ابن عمر رضي الله عنهما: «زعم: كنية الكذب»[(١)].

وفي الحديث: «بئس مطية الرجل زعموا»[(٢)].

أي: زعم وادعى الذين كفروا وجحدوا ما جاءتهم به رسل الله من المشركين والملحدين وغيرهم أنهم لن يبعثوا من قبورهم أحياءً بعد موتهم كما قال عز وجل عنهم: ﴿بَلۡ زَعَمۡتُمۡ أَلَّن نَّجۡعَلَ لَكُم مَّوۡعِدٗا﴾ [الكهف: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ۝٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾ كقوله تعالى في سورة يونس ﴿۞وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ﴾ [الآية: ٥٣]، وقوله تعالى في سورة سبأ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ [الآية: ٣٠].

فهذه ثلاثة مواضع في القرآن الكريم أمر الله بها رسوله ﷺ أن يقسم على أن البعث حق.

ومعنى قوله ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾ أي: قل لهم يا محمد مقسماً لهم بربك، و«بلى» بمعنى: نعم.

والواو في قوله ﴿وَرَبِّي﴾ واو القسم، والمقسم به هو «الرب» عز وجل والياء للمتكلم.

﴿لَتُبۡعَثُنَّ﴾ اللام واقعة في جواب القسم، أي: والله لتبعثن، أي: لتخرجن من قبوركم أحياء بعد موتكم.

﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ﴾ «ثم» حرف عطف، «لتنبئون» معطوف على «لتبعثن» فاللام فيه للقسم، أي: ثم والله ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ﴾ أي: لتخبرن بالذي عملتم أو بعملكم من خير

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٩.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب ـ باب في قول الرجل: «زعموا» ٤٩٧٢، وأحمد ٤/ ١١٩، ٥/ ٤٠١ من حديث أبي مسعود الأنصاري وحذيفة رضي الله عنهما.

وشر، وتحاسبون وتجازون على ذلك.

﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ الإشارة تعود إلى مصدر الفعلين ﴿لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ أي: بعثكم وإخباركم بأعمالكم ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: هين سهل، لأن الله لا يعجزه شيء، ولا عسير عليه سبحانه وتعالى. فالذي خلق وأوجد من العدم قادر على إعادة الخلق من باب أولى، بل ذلك عليه أهون كما قال عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥].

﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر وجملة ﴿فَـَٔامِنُوا۟﴾ في محل جزم جواب الشرط المقدر، أي: إن كان الأمر كذلك في أن البعث والإنباء بالأعمال حق ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾.

والخطاب للمشركين المكذبين بالبعث، والأمر للوجوب فيجب الإيمان بالله وبرسوله محمد ﷺ والنور الذي أنزله الله وهو القرآن الكريم.

والإيمان بالله يتضمن الإيمان بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته والإيمان بالرسول شهادة أنه محمد رسول الله، وذلك بطاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وألا يعبد الله إلا بما شرع.

﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ وهو القرآن الكريم كما قال عز وجل ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، وقال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

وقوله: ﴿أَنزَلْنَا﴾ فيه إثبات علو الله على خلقه، لأن الإنزال يكون من أعلى إلى أسفل، كما أن فيه إثبات أن القرآن الكريم منزل من عند الله عز وجل غير مخلوق، خلافاً للمعتزلة ومن سلك مسلكهم.

فمن آمن بالله ورسوله والنور الذي أنزله الله عز وجل سار في هذه الحياة على هدى ونور من الله في أقواله وأفعاله وجميع تصرفاته، وسلم من الحيرة والقلق والتذبذب، وأحس بطعم الإيمان وطعم الحياة على منهج الله – عز وجل – وسعد في دنياه وأخراه، هدوء وطمأنينة، حزم في أداء الواجبات من حقوق الله وحقوق الخلق، وفي البعد عن المنهيات، شكر في حال السراء، وصبر في حال الضراء «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته

ضراء صبر فكان خيراً له»[١].

وصدق الله العظيم حيث يقول في الحديث القدسي: «وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»[٢].

فما بالك يا أخي بمن كان الله له بهذه المثابة هذا منتهى العز وغاية السعادة والشرف والسؤدد والحياة الكريمة في الدنيا والآخرة. نسأل الله الهداية والتوفيق.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ أي: والله بعملكم أو بالذي تعملون ﴿خَبِيرٞ﴾ أي: ذو خبرة واطلاع على عملكم، باطنه وظاهره، دقيقه وجليله، خفيه وجليه، لا تخفى عليه منه خافية وسيحاسبكم ويجازيكم عليه.

وقدّم هنا المتعلق ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ لتأكيد علمه عز وجل بجميع أعمالهم ما بطن منها وما ظهر.

وفي الأمر بالإيمان بالله ورسوله والنور الذي أنزله وتأكيد علمه عز وجل بأعمالهم توكيد لما سبق في الآية قبله من تقرير البعث والحساب، أي: فانقطعت حجة منكري البعث فلم يبق من سبيل للنجاة إلا الإيمان بالله ورسوله والنور الذي أنزله الله.

﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ﴾ قرأ يعقوب «نجمعكم» بالنون، وقرأ الباقون بالياء.

وهذا من تأكيد البعث والحساب، فأمر عز وجل رسوله ﷺ بأن يقسم للذين كفروا بأن البعث والحساب حق ثم أمر عز وجل بالإيمان به وبرسوله والنور الذي أنزله لأهمية ذلك لأنه السبب للنجاة في ذلك اليوم ثم أكد أحقية البعث فقال: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ﴾.

﴿يَوۡمَ﴾ مفعول به لفعل محذوف، تقديره: اذكر، ويوم الجمع هو يوم القيامة، وسمي يوم الجمع لأن الله يجمع فيه الخلائق كلهم أولهم وآخرهم، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾ [هود: ١٠]، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِ﴾ [آل عمران: ٢٥]، وقال تعالى:

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٩٩، والدارمي في الرقاق ٢٧٧٧ من حديث صهيب رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٠٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِۚ﴾ [الشورى: ٧]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الجاثية: ٢٦]. وقال ﷺ في حديث أبي هريرة الطويل: «يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد يُسْمعهم الداعي وينفذهم البصر»[(١)].

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة ليوم الجمع يوم القيامة، وأشار إليه بإشارة البعيد تعظيماً له.

﴿يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ أي: اليوم الذي يظهر فيه التغابن الحقيقي بين الخلق و«التغابن» تفاعل من «الغبن» بمعنى النقص والخسارة وفي الحديث: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ»[(٢)].

فالغبن الحقيقي بين الناس يظهر ذلك اليوم، فمن مستظل تحت ظل الرحمن، ومن ملجم بالعرق إلجاما، ومن معطى كتابه بيمينه، ومن معطى كتابه بشماله، ومن مار على الصراط كالبرق أو الريح أو كأجاود الخيل، ومن حاب عليه حبواً، ومن مكردس في النار. ومن شارب من الكوثر والتسنيم، ومن شارب من الحميم.

يظهر الغبن الحقيقي عندما يُخلَّد أناس في الجنان والنعيم، ويُخلَّد آخرون في النيران والجحيم، يظهر الغبن عندما يرى المؤمن مقعده من النار لو أساء ليزداد شكراً، ويرى الكافر مقعده من الجنة لو أحسن ليزداد حسرة[(٣)].

يظهر الغبن عندما يأخذ أناس حسنات أناس آخرين ويضعون عليهم من سيئاتهم

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء: ٣٣٤٠، ومسلم في الإيمان ـ باب أدنى أهل الجنة منزلة ١٩٤، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٣٤.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤١٢، والترمذي في الزهد ٢٣٠٤، وابن ماجه في الزهد ٤١٧٠ ـ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أهل النار يرى مقعده من الجنة، فيقول: لو أن الله هداني فيكون عليهم حسرة، قال: وكل أهل الجنة يرى مقعده من النار، فيقول لولا أن الله هداني، قال: فيكون له شكراً»، أخرجه أحمد ٢/ ٥١٢، ٥٤١، وفي حديث علي رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ في بقيع الغرقد في جنازة، فقال: «ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة، ومقعده من النار... » الحديث أخرجه البخاري في التفسير ٤٩٤٥، ومسلم في القدر ٢٦٤٧، وأبو داود في السنة ٤٦٩٤، والترمذي في القدر ٢١٣٦، وابن ماجه في المقدمة ٧٨.

بسبب المظالم، ويظهر الغبن عندما يرفع أقوام إلى أعلى عليين، ويرد أناس إلى أسفل سافلين.

شتان بين الحالتين فإن ترد جمعاً فما الضدان يجتمعان[1]

فليس الغبن والخسارة خسارة مال، أو أهل، أو ولد، أو جاه أو منصب، أو صحة أو حياة بل الغبن أعظم وأشد من ذلك، بل هو غبن لا يتصور، فكم من شخص لا يذوق غمضاً إذا غبن في صفقة، أو خسر في تجارة، أو نزلت قيمة الأسهم لكنه لسوء حظه وعدم توفيقه تفوته صلاة الجماعة أو بعضها فلا يتأثر لذلك بل الأمر عنده سواء، أدركها أو لم يدركها، وهكذا غيرها من الواجبات، والحقوق لأنه لا يحسب للغبن الحقيقي (يوم التغابن) أيّ حساب.

﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾﴾

صلة الآيتين بما قبلهما:

في هتين الآيتين تفسير الغبن وتصويره في أعظم صورة إذ لا غبن أعظم على الكافرين من إدخالهم النار وتخليدهم في العذاب، بينما يدخل المؤمنون الجنة ويخلدون في النعيم.

قوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا نُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ الواو: استئنافية و«من» شرطية، و«يؤمن» فعل الشرط، وجوابه ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾.

ومعنى ﴿يُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ يؤمن بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وآياته وشرعه

﴿وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ أي: ويعمل عملاً صالحاً، وحذف الموصوف، واكتفى بذكر الصفة «صالحاً» لأن المهم في العمل كونه صالحاً.

ويكون العمل صالحاً إذا توفر فيه شرطان: الإخلاص لله عز وجل ومتابعة الرسول ﷺ كما قال عز وجل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥] أي: أخلص لله، وهو متبع ما جاء به الرسول ﷺ.

فإن كان العمل فيه شرك لغير الله فهو باطل، قال تعالى في الحديث القدسي: «من

---

(١) البيت لابن القيم ضمن القصيدة النونية ص١١.

عمل عملا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه»[١].

وإن كان العمل على غير ما جاء به الرسول ﷺ فهو مردود قال ﷺ «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»[٢].

وفي رواية «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»[٣].

﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِۦ﴾ أي: يمحو ويزيل عنه سيئاته ويتجاوز عن عقوبته عليها و«سيئات» جمع سيئة، وهي الذنوب والمعاصي، وسميت بذلك لأنها تسوء صاحبها في الحال والمآل، كما تسوء غيره في الحال إما مباشرة إن كانت متعدية، وإما بآثارها السيئة إن كانت غير متعدية قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

﴿وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ﴾ معطوف على قوله ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِۦ﴾.

وذكر تكفير سيئاته أولاً، ثم عطف عليه إدخاله الجنة، لأن التخلية قبل التحلية.

و«جنات» جمع جنة، فللمؤمن أكثر من جنة، كما قال عز وجل ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، وذكر صفاتهما، ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢] وذكر صفاتهما.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن أم الربيع بنت البراء، وهي أم حارثة بن سراقة أتت النبي ﷺ فقالت: يا نبي الله ألا تحدثني عن حارثة وكان قتل يوم بدر، أصابه سهم غرب[٤]، فإن كان في الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء، قال: «يا أم حارثة إنها جنان في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى»[٥].

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ صفة لـ«جنات» أي: تجري من تحت أشجارها ومساكنها وغرفها الأنهار المختلفة، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ «خالدين» حال، وجمع باعتبار معنى «من» أي: مقيمين فيها

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٨٥، وابن ماجه في الزهد ٤٢٠٢ ـ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الأقضية ١٧١٨ ـ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه البخاري في الصلح ٢٦٩٧، ومسلم في الأقضية ١٧١٨، وأبو داود في السنة ٤٦٠٦، وابن ماجه في المقدمة ١٤ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) أي: سهم طائش لا يدرى من أين أتى.

(٥) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٧٠٩، والترمذي في التفسير ٣١٧٤.

إقامة أبدية لا تحول ولا تزول، فلا هم يفنون، ولا يخرجون منها، ولا هي تفنى. وهذا باتفاق المسلمين ـ نسأل الله من فضله.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ﴾ الإشارة لتكفير سيئات من آمن بالله وعمل صالحاً وإدخاله الجنات وخلوده الأبدي فيها وأشار إليه بإشارة البعيد تعظيماً له.

و«الفوز» هو الفلاح والنجاح والظفر بالمطلوب والنجاة من المرهوب.

﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ كماً وكيفاً، والذي لا يقدر قدر عظمته إلا الذي وصفه بأنه عظيم وهو العظيم سبحانه وتعالى.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي: جحدوا وأنكروا آياتنا الكونية والشرعية وكذبوا بها.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أشار إليهم بإشارة البعيد تحقيراً لهم.

﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أهلها وساكنوها وملازموها.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: مقيمين فيها إقامة أبدية لا يتحولون عنها ولا يخرجون منها كما قال عز وجل ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٣٧] وقال عز وجل: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧]. وقال تعالى: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٥].

إلى غير ذلك من الآيات فالنار لا تفنى، ولا يفنى عذابها ولا أهلها على الصحيح من أقوال أهل العلم وهو قول الجمهور[١].

﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: وبئس المرجع والمنقلب النار. وإذا كان الله عز وجل وصف هذا المصير بهذا الوصف فلا يعلم مدى بؤس وقبح هذاالمصير إلا من وصفه بذلك وهو العليم الخبير.

الفوائد والعبر:

١ ـ تكذيب الكفار بالبعث والمعاد، وزعمهم أنهم لن يبعثوا.

٢ ـ أمر الله ـ عز وجل ـ لنبيه ﷺ بالإقسام لهم بربه على أحقية بعثهم وإخبارهم بأعمالهم ومجازاتهم عليها وأن ذلك على الله يسير.

٣ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة لنبيه ﷺ.

---

(١) سيأتي إن شاء الله تعالى ذكر بقية الأدلة على هذا في الكلام على قوله تعالى في سورة الجن: ﴿ ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا ﴾ [الآية: ٢٣].

٤ ـ وجوب الإيمان بالله ورسوله والقرآن وما فيه من الهدى والنور.

٥ ـ إثبات سعة علم الله ـ عز وجل ـ وخبرته واطلاعه على جميع أعمال العباد والوعد للمؤمنين والوعيد للكافرين.

٦ ـ تأكيد البعث وجمع الخلائق للحساب والجزاء، وذلك يوم الجمع يوم التغابن يوم يظهر حقيقة الربح والخسران.

٧ ـ أن من شرط صحة الإيمان العمل الصالح الذي يتوفر فيه الإخلاص لله ومتابعة الرسول ﷺ، وفي هذا رد على المرجئة.

٨ ـ وعد الله ـ عز وجل ـ الذي لا يخلف الميعاد لمن آمن بالله وعمل صالحاً بتكفير سيئاته، وإدخاله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً.

٩ ـ عظم ما أعد الله ـ عز وجل ـ لعباده المؤمنين من الثواب والفوز العظيم مما لا يقدر قدره إلا العظيم سبحانه وتعالى.

١٠ ـ الوعيد الشديد والتهديد الأكيد للكفرة المكذبين بآيات الله بالنار وملازمتهم لها وخلودهم فيها، وبئس المصير النار.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾

قوله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾ «ما» نافية، ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ﴾ «إلا» أداة حصر، ومعنى ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ﴾ أي: بأمره وإرادته وقدره وقضائه الكوني، لأن الإذن ينقسم إلى قسمين: إذن شرعي، وإذن كوني. والإذن الكوني لا بد من وقوعه وهو بمعنى الإرادة الكونية، ولا يلزم أن يكون محبوباً لله، والإذن الشرعي لا يلزم وقوعه، وهو بمعنى الإرادة الشرعية ولا بد أن يكون محبوباً لله عز وجل، ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ﴾ [الشورى: ٢١] أي: ما لم يشرعه الله.

وهذه الآية كقوله عز وجل في سورة الحديد: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ﴾ [الآية: ٢٢].

فكل ما يقع ويحصل من المصائب في الأرض من جدب وقحط وغرق وحرق وتلف محاصيل وغير ذلك وكل ما يقع من المصائب في الأنفس من أمراض وموت وغير ذلك، كل ذلك وغيره بإذن الله وأمره وقدره الكوني.

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ﴾ الواو: عاطفة و«من» شرطية و«يؤمن» فعل الشرط، وجوابه ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ﴾.

قال علقمة: «هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم»[(١)].

أي: ومن يؤمن بالله عز وجل وقضائه وقدره، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، فيرضى ويسلم ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ﴾ أي: يوفق قلبه للصبر واليقين والتسليم لأمره، والرضا بقضائه وقدره، والاحتساب، ويعينه على تحمل ما أصابه ويعوضه خيراً في دينه ودنياه وآخرته.

و يهد قلبه أيضاً لزيادة الإيمان والاطمئنان ويوفقه للثبات أمام المصائب والفتن، قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه: أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أي العمل أفضل؟ قال: «إيمان بالله وتصديق به، وجهاد في سبيله». قال: أريد أهون من

---

(١) أخرجه عبد الرازق في «تفسيره» ٢/ ٢٩٥، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ١٢.

هذا يا رسول الله. قال: «السماحة والصبر». قال: أريد أهون من ذلك يا رسول الله. قال: «لا تتهم الله في شيء قضى لك به»[١].

فمن آمن بالله عز وجل وقضائه وقدره خيره وشره انشرح صدره، وسعد واطمأن في حال السراء والضراء، كما قال ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»[٢].

وهذه الدرجة لا يصل إليها إلا من صدق في إيمانه بالله عز وجل، ظاهراً وباطناً، فعلاً للمأمورات واجتناباً للمحظورات، وعلم أن ما يجري في الكون من حركة أو سكون، من مصائب وغيرها إنما ذلك بقدر الله عز وجل، وسأل الله عز وجل على الدوام الهداية والتوفيق للشكر عند السراء، والصبر والتسليم والرضا عند الضراء، وسأل الله الثبات على الحق واللطف في قضائه وقدره، وحسن الختام، فإن الإنسان قد يضعف عندما تتتابه بعض المصائب والمشكلات وقد يضيق بها ذرعاً ويعز عليه الصبر ما لم يتداركه الله بعونه وعنايته وتوفيقه فلا ينبغي أن يغتر أحد بنفسه، أو يثق بعمله، وإنما يثق برحمة أرحم الراحمين، ولطفه سبحانه وتعالى.

فاشدد يديك بحبل الله معتصماً فإنه الركن إن خانتك أركان

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ أي: أنه عز وجل ذو علم تام بكل شيء أيا كان من المصائب، وأحوال القلوب وغير ذلك كما قال عز وجل ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا﴾ [طه: ٩٨].

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ الطاعة: الامتثال بفعل أوامر الله عز وجل وترك نواهيه.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ «ال» في «الرسول» للعهد الذهني، أي: الرسول المعهود محمداً ﷺ وطاعته بفعل ما أمر به ﷺ وترك ما نهى عنه.

وأعاد الفعل ﴿وَأَطِيعُواْ﴾ ولم يقل: «وأطيعوا الله والرسول» إشارة إلى أن طاعة الرسول ﷺ تجب استقلالا بمعنى أن طاعته تجب فيما أمر به مما لم يأت في القرآن الكريم.

وفي هذا رد على الذين يدعون إلى الأخذ بالقرآن وحده واطراح السنة مصداق ما أخبر به الرسول ﷺ كما جاء في حديث المقدام بن معد يكرب: «رب رجل جالس على

---

(١) أخرجه أحمد ٥/٣١٨ – ٣١٩.

(٢) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٩٩ من حديث صهيب رضي الله عنه.

أريكته يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا إنما حرم رسول الله ﷺ مثل ما حرم الله»[١].

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: فإن أعرضتم عن طاعة الله وطاعة الرسول ﷺ والتولي يكون بالإعراض بالقلب والبدن.

﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط و«إنما» أداة حصر، وهي كافة ومكفوفة، والبلاغ: الوصول إلى الغاية، يقال: بلغ إلى كذا، بمعنى وصل إليه وفي قصة الثلاثة الأبرص والأقرع والأعمى: «فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك»[٢].

والمعنى: وما على رسولنا إلا تبليغ رسالة الله عز وجل إلى الناس والحصر هنا إضافي، أي: ليس عليه فيما يتعلق بهم إلا تبليغهم الرسالة أما هدايتهم فأمرها إلى الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢] لكن عليه ﷺ الطاعة والامتثال بنفسه.

و«المبين» اسم فاعل، من أبان الشيء، بمعنى أظهره وأوضحه، أي: البلاغ المظهر الموضح لما دعا إليه وبلغه، ومن لازم ذلك أن يكون بيناً في نفسه، فهو بيِّن بنفسه مبيِّن لغيره.

أي: فاعلموا أنما مهمة الرسول ﷺ محصورة ومقصورة في تبليغ الرسالة والدعوة والبلاغ البين الواضح. وقد بلغ ﷺ البلاغ المبين، فبلغ ﷺ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ في هذا إثبات الألوهية والعبودية لله عز وجل وحده، ونفيها عما عداه كما في كلمة وشهادة التوحيد: «لا إله إلا الله» أي: لا معبود بحق إلا الله.

قال ابن كثير[٣]: «خبر عن التوحيد ومعناه معنى الطلب، أي: وحدوا الإلهية له،

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة ـ باب لزوم السنة ٤٦٠٤، ٤٦٠٥، والترمذي في العلم ٢٦٦٣، وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه في المقدمة ١٢، ١٣، وأحمد ٤/ ١٣٠، ١٣٤، وابن حبان في «موارد الظمآن» ٩٧، والحاكم في المستدرك، ١/ ١٠٨.

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٤٦٤، ومسلم في الزهد والرقائق ٢٩٦٤ – من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) في «تفسيره» ٨/ ١٦٤.

وأخلصوها لديه».

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ اللام في قوله ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ لام الأمر، وهو للوجوب، وأكد ذلك بتقديم المتعلق، وهو قوله ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: وعلى الله وحده فليعتمد المؤمنون ويفوضوا أمورهم.

والتوكل على الله: التفويض والاعتماد على الله في جلب النفع ودفع الضر، مع تمام الثقة به عز وجل.

﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: المؤمنون كاملو الإيمان، فكلما قوي إيمان العبد وكمل كان توكله أقوى وأكمل، وكلما ضعف إيمانه ضعف توكله، فضعف الإيمان سبب لضعف التوكل، وضعف التوكل دليل على ضعف الإيمان، ولهذا يجمع الله عز وجل بين التوكل والعبادة، وبين التوكل والإيمان وما في معناه، قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

الفوائد والعبر:

١ ـ إثبات قدر الله السابق وأن ما يقع في الكون من مصائب هو بأمر الله ـ عز وجل ـ وتقديره.

٢ ـ أن من آمن بالله ـ عز وجل ـ وقضائه وقدره هدى قلبه وشرح صدره للتسليم والرضا بقضاء الله فاطمأن وسعد في حياته.

٣ ـ علم الله ـ عز وجل ـ بكل شيء.

٤ ـ وجوب طاعة الله ورسوله والتهديد لمن تولى وأعرض عن طاعة الله ورسوله.

٥ ـ أن طاعة الرسول ﷺ تجب استقلالاً بحيث تجب طاعته فيما أمر به أو نهى عنه وإن لم يرد ذلك في القرآن الكريم، وفي هذا رد على من يرون الاكتفاء بالقرآن.

٦ ـ أن مهمة الرسول ﷺ هي تبليغ الرسالة للناس بلاغاً بيناً وقد بلغ ﷺ البلاغ المبين، وهداية القلوب بيد علام الغيوب.

٧ ـ إثبات وحدانية الله ـ عز وجل ـ وتفرده بالألوهية واستحقاق العبودية.

٨ ـ وجوب التوكل والاعتماد على الله ـ عز وجل ـ وأن ذلك شرط لصحة الإيمان.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾

سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ قال: فهؤلاء رجال أسلموا من مكة، فأرادوا أن يأتوا رسول الله ﷺ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهوا في الدين، فهمّوا أن يعاقبوهم فأنزل الله هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

قوله: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ «إن» للتوكيد و«من» للتبعيض، أي: إن بعض أزواجكم وأولادكم عدواً لكم. ويفهم من هذا أن بعض الأزواج والأولاد ليسوا بأعداء، بل منهم من يكون عوناً على الخير وطاعة الله تعالى.

والأزواج: جمع زوج وهو يطلق على المرأة وزوجها في لغة القرآن الكريم اللغة الفصحى، فيقال: زوج فلانة، وزوج فلان، والمراد هنا الزوجات، أي: إن بعض زوجاتكم وأولادكم عدوا لكم.

والعدو من يريد لك الشر، أو يحملك عليه، أو يكون سببا في منع الخير عنك عن قصد منه أو عن غير قصد فبعض الأزواج أعداء لأزواجهم، وبعض الأولاد أعداء لوالديهم، وذلك من وجوه عدة من أهمها أنهم قد يلتهون بهم عن طاعة الله عز وجل والعمل الصالح كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة التغابن ٣٣٧٣، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ١٤، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٥٨، والحاكم ٢/ ٤٩٠. وقال الترمذي: «حسن صحيح» وقال الحاكم «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي

ومنها أنهم قد يحملونهم على معصية الله ويثبطونهم عن طاعة الله تعالى فقد يتساهل الأزواج والوالدان في ترك بعض الواجبات كترك الهجرة والجهاد وغير ذلك، أو في ارتكاب بعض المنهيات مجاراة لأزواجهم وأولادهم ونزولاً عند رغباتهم فتحملهم العاطفة، أو طلب رضاهم على تقديم محبتهم ورضاهم على محبة الله ورضاه.

وقد يقصر الأزواج أو الوالدان في توجيه أزواجهم وأولادهم وفي حملهم على أداء الواجبات والبعد عن المنهيات، ونحو ذلك فيأثمون بسبب ذلك.

قال ابن القيم[١]: «ليس المراد من هذه العداوة ما يفهمه كثير من الناس أنها عداوة البغضاء والمحادة، بل إنما هي عداوة المحبة الصادة للآباء عن الهجرة والجهاد وتعلم العلم والصدقة وغير ذلك من أمور الدين وأعمال البر... وما أكثر ما فات العبد من الكمال والفلاح بسبب زوجته وولده».

﴿فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ أي: كونوا منهم على حذر. والحذر: الاحتراز والحيطة من الشيء المخيف.

والمعنى: فاحذروهم على دينكم، أو فاحذروهم أن يضروكم في دينكم، أو أن توافقوهم على رغباتهم فيما لا يرضي الله.

قال مجاهد: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ قال: «يحمل الرجل على قطيعة الرحم، أو معصية ربه، فلا يستطيع الرجل مع حبه إلا أن يطيعه»[٢].

أقول - والله المستعان - كم حمل الأزواج والأولاد أزواجهم ووالديهم - كما قال مجاهد رحمه الله - على قطيعة الرحم مع الإخوة والأخوات وغيرهم من الأقارب، بل ومع الآباء والأمهات، وكم حملوهم على المعصية، بإدخال آلات اللهو والفساد في البيوت، والسفر إلى بلاد الكفر والإباحية، وأماكن الفساد إرضاء لهم، وكم تهاون الأزواج والوالدان في حمل أزواجهم وأولادهم على الحق وقصرهم وأطرهم عليه، من أداء الواجبات وترك المنهيات، ومن شكر النعم وعدم الإسراف فيها وغير ذلك مجاملة مع أزواجهم وأولادهم، وإرضاء لهم.

﴿وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ العفو: التجاوز عما حصل من الذنب والخطأ، والصفح: تناسي ذلك الذنب والخطأ وترك اللوم والتثريب

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٥٩ - ٤٦٠.
(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ١٥ - ١٦.

عليه، وهو أعلى من العفو، كما قال يوسف لإخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]. والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة، لكن حيث قرنت بالعفو والصفح هنا فمعناها: الستر.

والمعنى: وإن تتجاوزوا أيها المؤمنون عما حصل من أزواجكم وأولادكم مما فيه ضرر عليكم في دينكم من حملكم على ترك الهجرة أو الجهاد ونحو ذلك وتتركوا اللوم والتثريب على ذلك، وتستروه.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: فإن الله عز وجل ذو الستر لذنوب عباده والتجاوز عن عقوبتهم عليها، والرحمة الواسعة بهم وبغيرهم.

﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ «إنما» أداة حصر، أي: ما أموالكم وأولادكم إلا فتنة، أي: ابتلاء واختبار لكم.

عن بريدة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يخطب، فجاء الحسن والحسين - رضي الله عنهما - عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه، ثم قال: «صدق الله ورسوله ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما»[1].

والفتنة والابتلاء تكون في الخير والشر كما قال عز وجل: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «لا يقولن أحدكم: اللهم إني أعوذ بك من الفتنة، فإنه ما منكم أحد إلا وهو مشتمل على فتنة، لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، فأيكم استعاذ فليستعذ بالله تعالى من مضلات الفتن»[2].

فالأموال والأولاد قد تكون شراً وضرراً على الإنسان في دينه ودنياه وآخرته، وقد تكون خيراً.

فالأموال قد تشغل الإنسان وتلهيه عن دينه وطاعة ربه، وهذا كثير في أصحاب الأموال، قال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١، ٢].

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة - الإمام يقطع الخطبة لأمر يحدث ١١٠٩، والنسائي في الجمعة - نزول الإمام عن المنبر قبل فراغه من الخطبة وقطعه كلامه ١٤١٣، والترمذي في المناقب - مناقب الحسن والحسين ٣٧٧٤، وابن ماجه في اللباس - لبس الأحمر للرجال ٣٦٠٠، وأحمد ٥/ ٣٥. وقال الترمذي: «حسن غريب».

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١١/ ١١٥ - ١١٦.

فكم فُرّط في الصلاة والزكاة وغيرهما من الواجبات بسبب الانشغال بالأموال وحبها، وكم صلى الإنسان صلاة لا يدري ماذا قال فيها بسبب ذلك، وكم انتهكت المحرمات من الربا والغش والرشوة وأكلت أموال الناس بالباطل من أجل الأموال وحبها، وكم نسي كثير من الناس حقوق الله وحقوق خلقه، ونسوا الموت والحساب والجنة والنار بسببها قال ﷺ «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش»[١].

وكم حمل الأولاد والديهم على التساهل في فعل الواجبات وارتكاب المنهيات كما سبق ذكره.

وفي حديث الأشعث بن قيس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في الأولاد: «فإن فيهم قرة عين وأجرا إذا قبضوا وإنهم لمجبنة محزنة، إنهم لمجبنة محزنة»[٢].

وعن أبي يعلى العامري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الولد ثمرة القلوب، وإنهم لمجبنة مبخلة محزنة»[٣].

قال الزجاج[٤] في كلامه على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾: «وهذا عام في جميع الأولاد، فإن الإنسان مفتون بولده، لأنه ربما عصى الله تعالى بسببه، وتناول الحرام لأجله، ووقع في العظائم إلا من عصمه الله تعالى».

وينبغي أن يتأمل هذا من ابتلي بالفقر والعقم فلا يأسى على ما فاته، ويرضى بما قدّر الله له، ويعلم أن الخيرة فيما اختاره الله، ويحسن الظن بربه ويجزم بأن ما اختاره الله له هو عين الخيرة، فكم من أناس كان سبب شقائهم في الدنيا والآخرة وهلاكهم أموالهم وعلى أيدي أولادهم.

وقد يكون المال مطية للخير إذا وفق صاحبه لاكتسابه من حلال، وصرفه في حلال، وأداء حقوق الله عز وجل فيه، والإنفاق منه في سبل الخير وكما قال ﷺ: «نعم المال الصالح للرجل الصالح»[٥].

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٨٧، والترمذي في الزهد ٢٣٧٥، وابن ماجه في الزهد ٤١٣٦ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ٢١١.

(٣) أخرجه ابن ماجه في الأدب ٣٦٦٦. وصححه البوصيري، وأخرجه عبد الرزاق في «المصنف» ١١/ ١٤٠، ٢٠١٤٣، والبزار ٢/ ٣٧٨. والحاكم ٢/ ١٦٤ وصححه. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٨/ ١٥٥ «رجاله ثقات».

(٤) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٦١.

(٥) أخرجه أحمد ٤/ ١٩٧، ٢٠٢ ـ من حديث عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه.

كما قد يكون الأولاد عونا على الخير إذا أصلحهم الله وهداهم فيكونون عوناً لوالديهم على أمر الدين والدنيا إلا أن الغالب والمشاهد – وكما هو الظاهر من النصوص – أن الأموال والأولاد كثيراً ما يلحق أهليهم الضرر منهم – إلا من رحم الله – مما يوجب على المرء الاحتراز من أخطار المال وضرره وتبعاته بحيث يجعل المال في يده لا في قلبه وأن يعرف من أين يكتسبه وفيم ينفقه ويؤدي حقوق الله – عز وجل – فيه ويبذل منه هاء وهاء في سبل الخير.

وأن يعمل على توجيه أولاده وتربيتهم التربية الصالحة منذ نعومة أظفارهم مع المتابعة في ذلك حتى يبلغوا ويرشدوا مع الدعاء لهم دائماً. وأن يحترز من أن تحمله مجاملتهم أو طلب رضاهم في الوقوع فيما لا يرضي الله، فإن من التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس، ومن التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس كما جاء في الحديث(١).

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ أي: والله عنده ثواب عظيم في الدنيا والآخرة فلا ينبغي أن يكون المال والولد سببا لمعصية الله، فإن الله عز وجل عنده ثواب عظيم وفضل كبير لمن أطاعه واتقى الله في ماله وولده في الدنيا والآخرة وأعظم ذلك الجنة، وما فيها من ألوان النعيم، فلا ينبغي للمسلم أن يحمله المال على معصية الله عز وجل فإن سلوك الطرق المشروعة في كسب المال وإنفاقه في وجوهه وأداء الحقوق الواجبة فيه والمستحبة سبب لنمائه، والبركة فيه والزيادة من الله عز وجل في الدنيا مع الثواب العظيم في الآخرة.

كما لا ينبغي للمسلم أن تحمله المجاملة مع أولاده والتماس رضاهم فيما يسخط الله، أملا في نفعهم أو دفع شرهم والسلامة من أذاهم، فإن في توجيههم إلى الحق وحملهم عليه والصبر على مجاهدتهم من الثواب العظيم وحسن العاقبة له ولهم في الدنيا والآخرة، وصلاح أحوالهم ما يتضاءل أمامه ذلك المأمول العاجل على حساب رضى الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

---

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها انظر «تيسير العزيز الحميد» ص٤٩٣ وأخرجه الترمذي في الزهد ٢٤١٤ بلفظ «من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس».

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ أي: فاتقوا الله بفعل ما أمركم به وترك ما نهاكم عنه بقدر جهدكم وطاقتكم واستطاعتكم، كما قال عز وجل ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال عز وجل ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق: ٧]. وقال ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه»(١).

وعن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – قال: «كنا إذا بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة يقول لنا: فيما استطعتم»(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «سددوا وقاربوا وأبشروا، واعلموا أنه لن يدخل أحَدَكم عملهُ الجنة، وأن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل»(٣).

فالحمد لله الذي جعل التكليف قدر الوسع والطاقة والاستطاعة فلم يكلف الإنسان ما لا يستطيع، ووضع عن هذه الأمة الآصار والأغلال التي كانت على من قبلهم كما قال عز وجل ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ومن قواعد الشريعة الإسلامية: أن المشقة تجلب التيسير وأن الضرورات تبيح المحظورات، وأن الضرر ممنوع كما قال تعالى: ﴿غَيْرَ مُضَارٍّ﴾ [النساء: ١٢]، وفي الحديث: «لا ضرر ولا ضرار»(٤).

وليس في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] ما ينافي كون التكليف حسب الوسع والطاقة، لأن معنى ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ أي: قدر استطاعتكم فهو مقيد ومفسر بالآيات والأحاديث التي فيها الأمر بالتقوى قدر الاستطاعة، وليس منسوخاً بها لأن الله لا يأمر بما لا يستطاع.

بل نهى الشرع الحكيم عن الانقطاع للعبادة والتبتل ونحو ذلك، وجعل ذلك ليس من

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام ٧٢٨٨، ومسلم في الحج ١٣٢٧، والنسائي في مناسك الحج ٢٦١٩، والترمذي في العلم ٢٦٧٩، وابن ماجه في المقدمة ٢– من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الأحكام ٧٢٠٢، ومسلم في الإمارة ١٨٦٧، وأبو داود في الخراج والإمارة والفيء ٢٩٤٠، والنسائي في البيعة ٤١٨٧، والترمذي في السير ١٥٩٣.

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٦٤، ومسلم في صفة القيامة ٢٨١٨ ـ من حديث عائشة رضي الله عنها وفي رواية عنها «استقيموا ولن تحصوا واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن» أخرجه ابن ماجه في الطهارة وسننها ٢٧٧.

(٤) أخرجه ابن ماجه في الأحكام ٢٣٤٠ من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

الدين في شيء وهذا رد رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون والنفر الذين معه التبتل وترك الزواج والانقطاع للعبادة بقيام الليل وصيام النهار.

وقال ﷺ: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ولكني أصوم وأفطر، وأصلي وأنام، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني»[1].

﴿وَٱسْمَعُواْ﴾ أي: واسمعوا لأمر الله ورسوله بآذانكم وقلوبكم.

﴿وَأَطِيعُواْ﴾ أي: انقادوا لذلك بجوارحكم ظاهراً وباطناً كما قال الله عز وجل عن المؤمنين: ﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

وقد عاب الله عز وجل على الذين يسمعون ولا يطيعون قال تعالى عن اليهود: ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ [النساء: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١] أي: لا يسمعون سماع انتفاع كما قال الله عز وجل ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

﴿وَأَنفِقُواْ﴾ أي: أنفقوا النفقات الواجبة والمستحبة من الزكوات والنفقة على الأهل والأولاد وعلى المحتاجين من الأقارب وغيرهم، وفي طرق الخير المختلفة.

﴿خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ أي: خيراً تدخرونه لأنفسكم تجدون أثره الطيب على أنفسكم وأموالكم في حياتكم، وتجدون ثوابه عند الله عز وجل أوفر ما يكون بعد مماتكم كما قال تعالى بعد هذا ﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ﴾ [التغابن: ١٧]، وقال عز وجل: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل: ٢٠].

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ الشح: الحرص الشديد الذي قد يحمل على منع الواجب مما في يده والتطلع والحرص على ما ليس بيده، فإذا حصل بيده شيء شح به، وبخل بإخراجه فالبخل ثمرة الشح، والشح يأمر بالبخل كما قال ﷺ: «إياكم والشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا»[2].

---

(١) سبق تخريجه. وانظر الكلام على قوله تعالى في سورة الحديد ﴿ ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم ﴾ [الآية: ٢٧].

(٢) أخرجه أبو داود في الزكاة ـ باب في الشح ١٦٩٨، والحاكم ١/ ٤١٥ وصححه ووافقه الذهبي ـ من حديث عبد الله =

ومعنى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: ومن يكف بخل نفسه الشديد الذي قد يحمل على منع الواجب فأولئك هم المفلحون الفائزون، الذين بلغوا غاية الفوز والفلاح والظفر والنجاح، فازوا بالمطلوب ونجوا من المرهوب وقد تقدم الكلام على هذه الآية بأوسع من هذا في سورة الحشر.

قال ابن القيم [(١)]: «فالإيثار ضد الشح، فإن المؤثر على نفسه تارك لما هو محتاج إليه والشحيح حريص على ما ليس بيده، فإذا حصل بيده شيء شح عليه وبخل بإخراجه فالبخل ثمرة الشح، والشح يأمر بالبخل، فالبخيل من أجاب داعي الشح، والمؤثر من أجاب داعي الجود، كذلك السخاء عما في أيدي الناس هو السخاء، وهو أفضل من سخاء البذل، قال عبد الله بن المبارك: «سخاء النفس عما في أيدي الناس أفضل من سخاء النفس بالبذل»».

والشح أعم من كونه بالمال، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: «قوله ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ يقول: هوى نفسه حيث يتبع هواه ولم يقبل الإيمان»[(٢)].

وترتيب الفلاح الذي هو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب، الفوز بالجنة والنجاة من النار على الوقاية من الشح يدل على عموم الشح وأنه ما حمل الإنسان على التقصير في الواجب أو تركه، أو على ارتكاب المنهي فمن وقي شح نفسه كان ذا نفس سمحة مطمئنة، وصدر منشرح لشرع الله عز وجل منقاد لفعل أوامره وترك نواهيه، ومن ذلك الإنفاق في وجوه البر، وحب الخير للغير، ومن لم يوق شح نفسه كان ذا نفس قلقة، وصدر ضيق حرج، غير منقاد لفعل أوامر الله وترك نواهيه إلا بمشقة وكره، يريد الاستئثار بكل شيء لنفسه لا يحب الخير لغيره. يشح بالنفقات الواجبة فضلا عن المستحبة، بل يشح بالسلام والدعاء والعفو والتسامح وبشاشة الوجه حتى مع أهله ووالديه وأولاده وإخوانه وأقاربه وجيرانه وأصدقائه وسائر من لهم به علاقة، لا يحب الخير إلا لنفسه، نظرته إلى الناس والحياة نظرة سوداوية، فهو دائماً في هم وقلق وحرج، وما علم أن الأمر أيسر من ذلك، يقدم سوء الظن دائماً وكأنه سوف يؤكل، يحتاط لنفسه

=

ابن عمرو رضي الله عنهما.

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٦١.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٢٠.

احتياطات لا حاجة لها بسبب أوهامه وتخوفاته[١] كما قال الشاعر:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه ... وصدق ما يعتاده من توهم

وعادى محبيه بقول عداته ... وأصبح في شك من الليل مظلم

﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: إن تقرضوا الله في الإنفاق في سبل الخير كلها استجابة لأمره لكم في قوله ﴿وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ وغير ذلك.

﴿قَرْضًا﴾ أي: انفاقاً وبذلاً وتصدقاً في وجوه البر.

﴿حَسَنًا﴾ أي: خالصاً لوجه الله ـ عز وجل، ومن كسب طيب وبنفس طيبة لا منّ فيه ولا أذى للمتصدّق عليه، كما قال عز وجل ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ [البقرة: ٢٦٢، ٢٦٣].

وسمى الله عز وجل الإنفاق في الخير والصدقة قرضاً ترغيباً فيه، وإشارة إلى أن الله عز وجل تكفل بجزائه وأجره، وإذا كان عدم رد القرض يكون بسبب ظلم المقترض أو إعدامه، فإن الله عز وجل يقول عن نفسه في الحديث القدسي: «من يقرض غير عديم ولا ظلوم»[٢].

﴿يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ﴾ أي: يزده لكم، وضعف الشيء كثره مرتين، والله عز وجل يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة [٣] كما قال عز وجل: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي: يستر ذنوبكم عن الخلق، ويتجاوز عن العقوبة عليها، لأن معنى المغفرة: الستر والتجاوز، ومنه سمي المغفر وهو البيضة التي توضع على الرأس تستره وتقيه السهام.

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما في المناجاة في تقرير الله عز وجل للعبد المؤمن بذنوبه وتذكيره بها ثم يقول عز وجل: «أنا سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»[٤].

﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ﴾ يعطي الكثير على القليل، ويجزي من أحسن بالحسنى والزيادة، كما

---

(١) انظر ما سبق في الكلام على قوله تعالى في سورة الحشر ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ [الآية: ٩].

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٧٥٨ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «ينزل الله في السماء الدنيا لشطر الليل أو لثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ أو يسألني فأعطيه؟، ثم يقول: من يقرض غير عديم ولا ظلوم».

(٣) انظر الكلام على قوله تعالى في سورة الحديد ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له﴾ [الآية: ١١].

(٤) سبق تخريجه.

قال عز وجل: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

قال الطبري[1]: «والله ذو شكر لأهل الإنفاق في سبيله بحسن الجزاء لهم على ما أنفقوا في الدنيا في سبيله».

﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يمهل ولا يهمل كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٤٨].

قال ابن القيم[2]:

وهو الحليم فلا يعاجل عبده ... بعقوبة ليتوب من عصيان

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: عالم السر والعلانية والخفاء والجهر.

﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، ذو العزة التامة عزة القهر، وعزة القوة وعزة الامتناع، وذو الحكم التام، الحكم الكوني والحكم الشرعي والحكم الجزائي، والحكمة البالغة، الحكمة الغائية والحكمة الصورية. وقد سبق الكلام على هذا مفصلا في آخر سورة الحشر.

الفوائد والعبر:

١ ـ تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء تنبيها لهم وعناية واهتماماً بخطابهم.

٢ ـ نداء المؤمنين بوصف الإيمان تشريفاً وتكريماً لهم وحثاً على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما بعد هذا النداء من أوامر من مقتضيات الإيمان وعدمه يعد نقصاً في الإيمان.

٣ ـ أن من الأزواج والأولاد من يكونون أعداء لأزواجهم ووالديهم يحملونهم على معصية الله ـ عز وجل ـ ومخالفته.

٤ ـ وجوب الحذر من أن تكون محبة الأزواج والأولاد وطلب رضاهم وتلبية رغباتهم سبباً في التقصير في طاعة الله ورسوله.

٥ ـ الترغيب في التجاوز وترك التثريب وستر ما حصل وما يحصل من الأزواج والأولاد من خطأ.

٦ ـ إثبات اسمين من أسماء الله ـ عز وجل ـ وهما «الغفور» و «الرحيم» وأنه عز وجل ذو المغفرة التامة والرحمة الواسعة.

٧ ـ التحذير من فتنة الأموال والأولاد.

---

(١) في «جامع البيان» ٢٣/ ٢١.
(٢) انظر «النونية» ص١٤٨.

٨ ـ أن ما عند الله ـ عز وجل ـ من الأجر العظيم الباقي أهم وأعظم من الدنيا وزينتها الفانية من الأزواج والأولاد والأموال.

٩ ـ وجوب تقوى الله ـ عز وجل ـ قدر الاستطاعة والسمع والطاعة لأمره ونهيه.

١٠ ـ مشروعية الإنفاق وجوباً بأداء الزكاة والنفقات الواجبة واستحباباً في غير ذلك من وجوه البر، والترغيب في ذلك؛ فهو خير يدخره المرء لنفسه.

١١ ـ التحذير من الشح والبخل الذي يحمل على منع الحق وترك الواجب وارتكاب المحرم.

١٢ ـ أن من وفقهم الله ـ عز وجل ـ فوقاهم من الشح هم المفلحون حقاً.

١٣ ـ الترغيب في الصدقة والإنفاق في طرق الخير بتسمية ذلك قرضاً لله عز وجل والوعد بمضاعفته، والمغفرة.

١٤ ـ ينبغي أن يكون التصدق والإنفاق خالصاً لله عز وجل، من مال طيب، وبنفس طيبة، بلا منّ ولا أذى.

١٥ ـ إثبات اسمين من أسماء الله عز وجل وهما «الشكور» و «الحليم» وإثبات صفة الشكر له عز وجل للمخلصين له المنفقين في سبيله بمجازاتهم بأحسن الجزاء، وإثبات صفة الحلم له عز وجل وعدم معاجلته من عصاه بالعقوبة.

١٦ ـ علم الله ـ عز وجل ـ بالسر والعلانية والغيب والشهادة.

١٧ ـ إثبات اسمين من أسماء الله ـ عز وجل ـ وهما «العزيز» و«الحكيم» وأن له عز وجل العزة التامة والحكم النافذ والحكمة البالغة.

تفسير سورة الطلاق

هذه السورة تسمى سورة الطلاق، وتسمى سورة النساء القصرى كما سيأتي في سبب نزول الآية ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ﴾.

وكما قال ابن مسعود رضي الله عنه: «نزلت سورة النساء القصرى، بعد الطولى ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾»[1] أي: أن سورة النساء القصرى يعني سورة الطلاق نزلت بعد سورة النساء الطولى يعني سورة البقرة.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ «يا» حرف نداء، و«أي» منادى مبني على الضم في محل نصب، لأن المنادى في الأصل مفعول به، معناه: «أدعوك» و«ها» للتنبيه. فتصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام، «النبي» «ال» فيه للعهد، أي: النبي المعهود في الأذهان محمد ﷺ الذي أنزل الله عليه القرآن.

و«النبي» مشتق من النبأ، وهو الخبر، ومن النبوة وهي المكان المرتفع، لأن النبي مُنبأ ومُخبَر من عند الله عز وجل ومنبِئ ومُخبِر لقومه بما نبئ به، ولأن الأنبياء ذوو مكانة عالية رفيعة عند الله عز وجل، والمراد بالنبي هنا النبي الرسول وهو الذي أوحي إليه بوحي وأمر بتبليغه.

وفي ندائه ﷺ بوصف النبوة، وتخصيصه بذلك من بين الأنبياء تشريف وتكريم له ﷺ وإشارة إلى فضله على سائر الأنبياء عليهم السلام حيث ينادون في القرآن الكريم بأسمائهم لا بوصف النبوة.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الطلاق ٤٩١٠.

﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ «إذا» ظرفية شرطية، و«طلقتم» فعل الشرط وجوابه ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾.

وقد خاطب الله عز وجل النبي ﷺ أولاً تشريفاً وتكريماً له فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ ثم خاطب أمته تبعاً فقال: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ وهذا يدل على أن الخطاب له ﷺ خطاب للأمة ما لم يدل دليل على تخصيصه بذلك ومعنى ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ أي: إذا أردتم طلاقهن والطلاق: حل عقد الزوجية. وهو جائز في الإسلام، وقد تدعو إليه الحاجة والضرورة عندما يصعب الوفاق بين الزوجين وتصبح الحياة بينهما جحيماً لا يطاق، ويكون بقاء الزوجية بينهما سببا لمعصية كل منهما ربه في حق الآخر ففي الطلاق في مثل هذه الحال مخرج وفرج، وفضل الله واسع كما قال عز وجل ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٣٠].

ومع أن الطلاق جائز فهو أمر يبغضه الله كما في الحديث: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق»[١].

وهذا الحديث وإن كان فيه كلام لأهل العلم من حيث سنده فإن معناه صحيح يؤيده الحديث في بعث الشيطان سراياه للإفساد كما في حديث جابر رضي الله عنه وغيره أنه سمع النبي ﷺ يقول: «يبعث الشيطان سراياه فيفتنون الناس، فأعظمهم عنده منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئاً. قال: ثم يجيء أحدهم، فيقول ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته. قال: فيدنيه، ويقول: نِعْم أنت»[٢].

﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أي: فطلقوهن مستقبلات لعدتهن بأن يكون طلاق المرأة في طهر لم يجامعها فيه، لا في حال حيضها، ولا في طهر جامعها فيه.

عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه طلق امرأته وهي حائض، فذكر عمر ذلك لرسول الله ﷺ فتغيظ رسول الله ﷺ ثم قال: «ليراجعها، ثم يمسكها حتى تطهر، ثم تحيض فتطهر، فإن بدا له أن يطلقها، فليطلقها طاهراً قبل أن يمسها، فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء»[٣].

---

(١) أخرجه أبو داود في الطلاق ٢١٧٨، وابن ماجه في الطلاق ٢٠١٨ من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وقد ضعفه كثير من أهل العلم، وحسنه بعضهم.
(٢) أخرجه مسلم في صفة القيامة ٢٨١٣.
(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة الطلاق – ٥٢٥١، ومسلم في الطلاق ـ تحريم طلاق الحائض بغير رضاها ١٤٧١، وأبو داود في الطلاق ـ طلاق السنة ٢١٧٩، والنسائي في الطلاق ـ ما يفعل إذا طلق تطليقة وهي حائض ٣٣٩٠، =

وفي بعض الروايات قال ابن عمر: «وقرأ النبي ﷺ (يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن في قبل عدتهن)»[١].

وأيضا فلا يطلقها ثلاثاً أو يتبع الطلقة الطلقة، لأن ما بعد الطلقة الأولى من الطلقات لم تكن في استقبال عدتها، بل هي في نفس العدة، لأن العدة ابتدأت منذ الطلقة الأولى.

قال ابن القيم[٢]: «ولهذا قال كل من قال بتحريم جمع الثلاث: إنه لا يجوز له أن يردف الطلقة بأخرى في ذلك الطهر، لأنه غير مطلق للعدة، فإن العدة قد استقبلت من حين الطلقة الأولى فلا تكون الثانية للعدة».

عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾.

قال: «لا يطلقها وهي حائض، ولا في طهر قد جامعها فيه، ولكن يتركها حتى إذا حاضت وطهرت طلقها تطليقة»[٣].

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال في قوله ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ قال: «الطهر من غير جماع»[٤].

وهكذا قال جمهور العلماء من السلف ومن بعدهم.

وعن عكرمة: «﴿فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ العدة: الطهر، والقرء: الحيضة، أن يطلقها حبلى مستبيناً حملها، ولا يطلقها وقد طاف عليها، ولا يدري حبلى هي أم لا»[٥].

قال ابن كثير[٦]: «ومن ههنا أخذ الفقهاء أحكام الطلاق، وقسموه إلى طلاق سنة، وطلاق بدعة، فطلاق السنة: أن يطلقها طاهراً من غير جماع، أو حاملاً قد استبان حملها. والبدعي: هو أن يطلقها في حال الحيض، أو في طهر قد جامعها فيه، ولا يدري أحملت أم لا؟ وطلاق ثالث لا سنة فيه ولا بدعة، وهو طلاق الصغيرة والآيسة، وغير المدخول بها».

﴿وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ أي: احفظوها واضبطوها واعرفوا بدايتها، ونهايتها بالأقراء، وهي

=

والترمذي في الطلاق ـ ما جاء في طلاق السنة ١١٨٥، ١١٨٦، وأحمد ٢/ ٢٦، ٤٣.

(١) جاء هذا في رواية مسلم.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٦٥.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٢٩.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» ٥/ ١، ٣، وابن ماجه في الطلاق ٢٠٢٠، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٢٢، ٢٣، والبيهقي في «سننه» ٧/ ٣٢٥.

(٥) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١٦٩.

(٦) في «تفسيره» ٨/ ١٦٩.

الحيض أو الأطهار، أو بالأشهر، أو بوضع الحمل، لئلا تطول العدة على المرأة، ولئلا تختلط المياه، ولكي يتمكن من مراجعتها إذا أرادها.

وذلك لما يترتب على إحصائها وضبطها من حق لله عز وجل، وحق للزوج المطلق، وحق لها في النفقة وغيرها، وحق لمن يتزوجها بعد.

والأمر في قوله ﴿وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ متوجه للزوجين.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ بفعل ما أمركم الله به وترك ما نهاكم عنه، ومن ذلك أن يكون طلاق النساء في استقبال عدتهن، وإحصاء العدة وضبطها، وعدم مضارة المرأة في إطالة العدة عليها.

﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ أي: لا تخرجوا أيها الأزواج المطلقات ما دمن في العدة من بيوتهن، لأن لهن عليكم حق السكنى، ولا يجوز لهن أن يخرجن ما دمن في العدة، لأن من حقكم عليهن بقاءهن حتى انتهاء عدتهن.

فإخراجهن قبل انتهاء العدة اعتداء على حقهن في السكن حتى انتهاء العدة وخروجهن بأنفسهن فيه إضاعة حق الزوج، وفي هذا وذاك اعتداء على حرمات الله عز وجل.

﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ «إلا» أداة استثناء أي: لا يُخرجن من بيوتهن إلا في حال إتيانهن بفاحشة مبينة.

والفاحشة: ما يستفحش شرعاً وفي عرف المسلمين كالزنا والنشوز وبذاءة اللسان وأذية أهل الزوج في القول والفعل ونحو ذلك.

﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾ أي: بينة واضحة.

ففي هذه الحال يجوز إخراجها من بيت الزوج وإن كانت في العدة، لأنها هي التي تسببت لإخراج نفسها، وهذا في المعتدة الرجعية. وأما البائن فليس لها سكنى واجبة، لأن السكن تبع للنفقة، والنفقة تجب للرجعية دون البائن.

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ الإشارة ﴿ تلك ﴾ إلى ما سبق من أحكام الطلاق والعدة، المتضمنة أوامر ونواهي وأشار إليها بإشارة البعيد إشارة لعظمها وأهميتها، أي: أن هذه الأحكام والشرائع هي حدود الله التي حدها وأوجب العمل بها والحد في الأصل: الفاصل بين شيئين، وسميت حدوداً لأنه لا يجوز تجاوزها ولا تعديها كما أن الحدود الأرضية بين الجيران والمالكين تمنع من تجاوز أحدهم وتعديه إلى أرض الآخر.

﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ أي: من يتجاوز أحكام الله وشرائعه تركاً لما

أمر الله به، أو ارتكاباً لما نهى الله عنه ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ بتعدي حدود الله، بمخالفة أمره أو ارتكاب نهيه، حيث نقص نفسه حظها، وبخسها حقها، لأن النفس وديعة عند الإنسان يجب أن يحملها على ما فيه سعادتها ونجاتها في الدنيا والآخرة، لا أن يوردها موارد الهلاك في الدنيا والآخرة، ولا ظلم أعظم للنفس من حملها على تعدي حدود الله، ومعصيته بمخالفة أمره ونهيه، وتعريضها لعذاب النار.

﴿لَا تَدْرِى﴾ أي: لا تدري أيها المطلق ولا تعلم.

﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ «لعل» للترجي، أي: نُهينا عن إخراج المطلقات أو خروجهن من بيوتهن رجاء أن تتبدل الأحوال ويذهب ما في الأنفس ويندم الزوج على طلاق زوجته، وقد تتبعها نفسه حيث يراها أمامه فيراجعها بجماع أو غيره، ومن أعظم أسباب حصول هذا بقاؤها في بيت زوجها، فهو أقرب وأرجى لصلاح الحال، أما لو خرجت بعد الطلاق مباشرة فهذا أعظم للشقة والخلاف وتنافر القلوب وتباعدها.

وهكذا فسر أكثر السلف ومن بعدهم قوله تعالى ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ بالرجعة.

فجعل الله عز وجل السكنى للمطلقة إذا كانت رجعية، رجاء أن يحدث الله أمراً وهو رجعتها.

فأما إن كانت المطلقة مبتوتة لا رجعية، أو متوفى عنها فليس لها نفقة ولا سكنى لحديث فاطمة بنت قيس الفهرية حين طلقها زوجها أبو عمرو بن حفص آخر ثلاث تطليقات، وكان غائباً عنها باليمن، فأرسل إليها بذلك، فأرسل إليها وكيله بشعير نفقة فتسخطته، فقال: والله ليس لك علينا شيء. فأتت رسول الله ﷺ فقال: «ليس لك عليه نفقة ولا سكنى» وأمرها أن تعتد في بيت أم شريك، ثم قال: «تلك امرأة يغشاها أصحابي، اعتدي عند ابن أم مكتوم، فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك ولا يراك»[1].

وفي بعض رواياته: أن رسول الله ﷺ قال لها: «انظري يا ابنة آل قيس، إنما النفقة والسكنى للمرأة على زوجها ما كانت له عليها رجعة، فإذا لم يكن له عليها رجعة، فلا نفقة ولا سكنى، اخرجي فانزلي على فلانة»، ثم قال: «إنه يُتحدث إليها انزلي على ابن

---

(١) أخرجه مسلم في الطلاق ـ المطلقة ثلاثا ١٤٨٠، وأبو داود في الطلاق ـ نفقة المبتوتة ٢٢٨٤، والنسائي في النكاح ٣٢٢٢، والترمذي في النكاح ١١٣٥، وابن ماجه في الطلاق ٢٠٣٦، وأحمد ٦/ ٣٧٣، ٤١٢.

أم مكتوم، فإنه أعمى لا يراك ... »[١].

وهذا ما عليه جمهور أهل العلم أنه لا نفقة ولا سكنى للمبتوتة ولا للمتوفى عنها، لكن المتوفى عنها زوجها تعتد في البيت الذي توفي وهي فيه إن كان لها، وكذا إن أجاز الورثة ذلك إذا لم يكن لها فإن طلبوا خروجها خرجت[٢].

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: فإذا قاربن، أي: المطلقات انتهاء عدتهن وشارفن على ذلك ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ بمراجعتهن والعزم على إبقائهن في عصمتكم.

﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ بما هو معروف بين الزوجين المسلمَين من حسن الصحبة وأداء الحقوق والعشرة الطيبة، كما قال تعالى ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩] ومن ذلك الصفح ونسيان أخطاء الماضي وفتح صفحة جديدة من الحياة بين الزوجين.

﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ بتسريحهن بإحسان بعد انقضاء عدتهن من غير مغاضبة ولا مضارة، ولا أذى لا بفعل ولا بقول، مع أداء ما لهن من حقوق عليكم كما قال عز وجل ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. وكما قال عز وجل لنبيه ﷺ في أمره بتخيير نسائه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٨].

وقدم عز وجل الأمر بالإمساك لأنه ـ والله أعلم ـ أحب إليه ولأن الطلاق أبغض الحلال إلى الله، لما في الطلاق من تشتت شمل الأسرة والآثار السيئة المترتبة على ذلك غالباً.

﴿وَأَشْهِدُوا﴾ أي: وأشهدوا على الطلاق والرجعة.

والأصل في الأمر الوجوب، فالإشهاد واجب، وقيل مستحب، وقيل واجب على الرجعة ومستحب على الطلاق.

﴿ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ أي: صاحبي عدل منكم أيها المسلمون أي: شاهدين عدلين منكم، فلا يكفي شهادة رجل واحد ولا بد من كون الشاهدين «عدلين» ولا بد من كونهما من المسلمين.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إن أراد مراجعتها قبل أن تنقضي عدتها أشهد رجلين كما قال الله: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ عند الطلاق وعند المراجعة، فإن راجعها

---

(١) جاء هذا في رواية لأحمد والنسائي في الطلاق ـ باب الرخصة في ذلك وصحح إسناده ابن القيم في «زاد المعاد» ٥/ ٥٢٦.

(٢) انظر «زاد المعاد» ٥/ ٦٨٧ – ٦٨٨.

فهي عنده على تطليقتين، وإن لم يراجعها فإذا انقضت عدتها فقد بانت منه بواحدة، وهي أملك بنفسها، ثم تتزوج من شاءت هو أو غيره»[1].

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه أنه سئل عن الرجل يطلق امرأته ثم يقع بها، ولم يشهد على طلاقها، ولا على رجعتها، فقال: «طلقت لغير سنة، ورجعت لغير سنة، أشهد على طلاقها وعلى رجعتها ولا تعُد»[2].

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَـٰدَةَ لِلَّهِۚ﴾ أي: أقيموا الشهادة خالصة لله عز وجل، إذا استشهدتم وأدوها كما تحملتم من غير زيادة ولا نقصان.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾

الإشارة لما أمر الله عز وجل به في الآية من إمساك النساء إذا بلغن أجلهن بمعروف، أو مفارقتهن بمعروف مع الإشهاد على ذلك وأداء الشهادة خالصة لوجه الله عز وجل.

﴿يُوعَظُ بِهِۦ﴾ الموعظة هي ذكر الأحكام مقرونة بالترغيب والترهيب، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ [النساء: ٥٨] أي: نعم الموعظة يعظكم بها.

﴿مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ أي: الذي كان منكم يؤمن بالله، أي: يؤمن بوجود الله وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وشرعه.

﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِۚ﴾ أي: ويؤمن باليوم الآخر يوم القيامة وما فيه من الحساب والجزاء.

وسمي اليوم الآخر لأنه آخر الأيام فآخر ليلة من الدنيا صبيحتها يوم القيامة. وكثيراً ما يقرن الله عز وجل بين الإيمان به والإيمان باليوم الآخر، لأن الإيمان باليوم الآخر أعظم دافع وباعث على العمل، لأن فيه الحساب والجزاء على الأعمال.

أي: أن هذه الأحكام والمواعظ إنما يتعظ بها ويستفيد منها وينتفع بها من كان يؤمن بالله وبشرعه، ويرجو ثوابه ويخاف عقابه في الدار الآخرة كما قال عز وجل ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ [الأعلى: ١٠ - ١٢].

وقد قال بعض أهل العلم بوجوب الإشهاد على الرجعة بمعنى أنها لا بد أن تكون بالقول وأن يشهد عليها، قالوا: لأن الله ذكر أنه إنما يوعظ بهذه الأحكام من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فكأنهم جعلوا من شرط الإيمان بالله واليوم الآخر وصحته أن يشهد

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٤١.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الطلاق - الرجعة ٢٠٢٥.

على الرجعة إذا حصل الطلاق وأراد الرجعة.

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أي: ومن يتق الله بفعل أوامره وترك نواهيه في أحكام الطلاق والرجعة وغير ذلك.

﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ أي: يجعل له كونا وقدراً مخرجاً وفرجاً من كل كرب، ومن أي ضائقة تصيبه وتلم به، مالية، أو اجتماعية، أو نفسية أو غير ذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ينجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة»[1].

فعلى الزوجين كما على غيرهما تقوى الله عز وجل ليوفقهم ويأخذ بأيديهم لما هو أصلح لهم وأسعد في دينهم ودنياهم. كما قال عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩].

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إن أجمع آية في القرآن: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ [النحل: ٩]، وإن أكثر آية في القرآن فرجاً: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾»[2].

﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ الرزق هو العطاء، أي: يعطيه العطاء الكثير.

﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أي: ييسر له أسباب الرزق من حيث لا يشعر ولا يعلم أي: من حيث لا يخطر بباله، يظن أنه سيأتيه الرزق من هذا الوجه، فيرزقه الله من وجه آخر، بلا كلفة ولا مشقة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩١].

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: «جعل رسول الله ﷺ يتلو عليَّ هذه الآية ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ حتى فرغ من الآية ثم قال: «يا أبا ذر لو أن الناس كلهم أخذوا بها كفتهم» قال: فجعل يتلوها ويرددها علي حتى نعست، ثم قال: «يا أبا ذر كيف تصنع إن أخرجت من المدينة؟» قلت: إلى السعة والدعة أنطلق، فأكون حمامة من حمام مكة. قال: «كيف تصنع إن أخرجت من مكة؟» قال: قلت: إلى السعة والدعة، إلى الشام والأرض المقدسة، قال: «وكيف تصنع إن أخرجت من الشام؟» قال: قلت: والذي بعثك بالحق أضع سيفي على عاتقي، قال: «أو خير من ذلك؟» قلت:

---

(١) اخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٤٣، ٨/ ١٧٢.
(٢) اخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٤٨.

أو خير من ذلك؟ قال: «تسمع وتطيع، وإن كان عبداً حبشياً»[١].

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه، ولا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر»[٢].

وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطانا»[٣].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ومن كل ضيق مخرجا، ورزقه من حيث لا يحتسب»[٤].

وقد قال بعضهم: «ما افتقر تقي قط، قالوا: لم؟ قال: لأن الله يقول: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾»[٥].

وفي المقابل فإن من لم يتق الله بفعل ما أمر الله به واجتناب ما نهى الله عنه في أمر الطلاق والرجعة وغير ذلك من أموره فإنه يصير إلى ضيق وشدة لا مخرج له منها، وتتعسر عليه أبواب الرزق وهذا أمر مشاهد فمثلا من لم يراع السنة في الطلاق بل أوقعه على الوجه المحرم كالثلاث مثلاً فإنه لا بد أن يندم ندامة لا يتمكن من استدراكها والخروج منها، وهكذا من لم يتق الله في جميع أموره تراه ينتقل من ضائقة إلى أخرى، وتتعسر عليه أسباب الرزق والحياة، ولهذا جاء في الأثر «بشّر القاتل بالقتل والزاني بالفقر، ولو بعد حين» وهذا أمر يشهد له الواقع.

﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾

أي: ومن يعتمد على الله ويفوض جميع أموره إلى الله مع تمام الثقة بالله عز وجل في جلب النفع ودفع الضر، مع فعل الأسباب.

﴿فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ أي: فهو كافيه كل ما أهمه في أمر دينه ودنياه، قال تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ﴾ [الزمر: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: ١٢٣].

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كنت رديف النبي ﷺ فقال لي: «يا

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ١٧٨ – ١٧٩.

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ٢٧٧، ٢٨٠، ٢٨٢، وابن ماجه في الفتن ـ باب العقوبات ٤٠٢٢.

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٤٤، وابن ماجه في الزهد ٤١٦٤، وأحمد ١/ ٣٠، ٥٢ من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٤) أخرجه أحمد ١/ ٢٤٨.

(٥) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ٨.

غلام إني معلمك كلمات احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف»[(١)].

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤونة، ورزقه من حيث لا يحتسب، ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها»[(٢)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما رفع الحديث إلى رسول الله ﷺ، قال: «من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يده، ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله»[(٢)].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من نزلت به فاقة فأنزلها بالناس كان قمناً أن لا تسد حاجته، ومن أنزلها بالله عز وجل أتاه الله برزق عاجل، أو موت عاجل»[(٣)].

قال ابن القيم[(٤)]: «وكلما كان العبد حسن الظن بالله، حسن الرجاء له، صادق التوكل عليه، فإن الله لا يخيب أمله فيه البتة، فإنه سبحانه لا يُخيِّب أمل آمل، ولا يُضيع عمل عامل، فإنه لا أشرح للصدر، ولا أوسع له بعد الإيمان من ثقته بالله ورجائه له وحسن ظنه به»

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ جمع بين الأمر بفعل الأسباب والتوكل على الله، ومن جمع بين ذلك جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا ورزقه من حيث لا يحتسب، وكفاه كل ما أهمه في أمر دينه ودنياه.

ومن فرط في أحد الأمرين كأن يتوكل على الله ويترك فعل الأسباب أو يفعل الأسباب ويعتمد عليها فهذا ليس على شيء.

قال ابن القيم[(٥)]: «فإن الله إنما يكون حسب المتوكل عليه إذا اتقاه، وتقواه فعل

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٢٩٣، ٣٠٣، والترمذي في صفة القيامة ٢٦٣٥. وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٢) أخرجهما ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٦٠.

(٣) أخرجه أحمد ١/ ٤٤٢.

(٤) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٦٨.

(٥) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٦٩ – ٤٧٠.

الأسباب المأمور بها لا إضاعتها».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ قرأ حفص عن عاصم ﴿ بالغُ ﴾ بغير تنوين، و﴿ أمرِه ﴾ بالخفض، وقرأ الباقون بالتنوين والنصب (بالغٌ أمرَه).

والمعنى: أن الله منفذ أمره وقضائه وحكمه الكوني في خلقه فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٤٠]، وقال عز وجل: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ أي: قد جعل الله كونا. ﴿لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ أي: لكل شيء تقديراً وتوقيتاً، تقديراً من حيث كنهه وكمه وكيفه، لا يزيد عليه ولا ينقص منه، وتوقيتاً من حيث وقته وزمنه، لا يتقدم ولا يتأخر عنه أي: قد جعل الله لكل شيء تقديراً علمياً وهو تقديره عز وجل لمقادير الخلائق في علمه وكتابه قبل تكوينها، ثم كونها على ذلك القدر الذي علمه وكتبه، كما قال عز وجل: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

الفوائد والعبر:

١ ـ تنبيه النبي ﷺ بتصدير خطابه بالنداء، وندائه بوصف النبوة تشريفاً له وتكريماً وإشارة لفضله على سائر الأنبياء ـ عليه وعليهم الصلاة والسلام.

٢ ـ أن الخطاب للنبي ﷺ خطاب للأمة ما لم يدل دليل على تخصيصه بذلك لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾.

٣ ـ إباحة الطلاق.

٤ ـ يجب أن يكون طلاق النساء في استقبال عدتهن بأن يكون طلاقهن في طهر لم يجامعن فيه، لا في حال حيضهن، ولا في طهرتم جماعهن فيه، ولا يطلقن ثلاثاً، ولا يردف المطلق الطلقة بأخرى.

٥ ـ وجوب إحصاء العدة وضبطها لما يترتب على ذلك من حق لله ـ عز وجل، وحق للزوج المطلق، وحق للمطلقة، وحق لمن يتزوجها بعد، ولئلا تطول العدة على المرأة، ولكي يتمكن المطلق من رجعتها إذا أرادها، ولئلا تختلط المياه.

٦ ـ وجوب تقوى الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه في أحكام الطلاق والعدة وغير ذلك.

٧ ـ التذكير بعظمة الله وعبوديته وربوبيته وعظيم نعمه بقوله ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾.

٨ ـ لا يجوز إخراج المطلقات الرجعيات من بيوتهن ولا يجوز لهن أن يخرجن مادمن في العدة حفاظاً على حقوقهن وحقوق أزواجهن.
٩ ـ إذا أتت المرأة بفاحشة بينة من زنا أو نشوز أوبذاءة لسان جاز للزوج إخراجها من بيته وهي في عدة طلاقها الرجعي.
١٠ ـ أن ما أمر الله به من أوامر وما نهى الله عنه من نواه في أحكام الطلاق والعدة وغير ذلك كل ذلك من حدود الله التي يجب الوقوف عندها ولا يجوز تجاوزها ولا تعديها ومن فعل ذلك فقد ظلم نفسه.
١١ ـ أن من الحكمة في تحريم إخراج المطلقة الرجعية من بيتها، وإيجاب السكنى لها رجاء أن يكون ذلك سبباً في صلاح الحال ومراجعتها.
١٢ ـ أن الإنسان لا يدري ولا يعلم ما تؤول إليه عواقب الأمور.
١٣ ـ قدرة الله ـ عز وجل ـ التامة على تغيير الأحوال وتبديلها إلى ما هو أصلح فينبغي التعلق به ورجاؤه.
١٤ ـ إذا قاربت المعتدة الرجعية انقضاء عدتها وجب إما مراجعتها بالمعروف، وإما مفارقتها بالمعروف من غير مضارة.
١٥ ـ مشروعية إشهاد رجلين عدلين من المسلمين على الطلاق وعلى الرجعة وهو على الرجعة آكد وأوجب.
١٦ ـ وجوب إقامة الشهادة خالصة لله، وأدائها كما تحملها الشاهد من غير زيادة ولا نقصان.
١٧ ـ أن ما أمر الله به من إمساك النساء إذا بلغن أجلهن أو مفارقتهن بالمعروف والإشهاد على ذلك وإقامة الشهادة لله وغير ذلك مما يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر.
١٨ ـ وجوب الإيمان بالله واليوم الآخر، وعظم مكانة الإيمان باليوم الآخر، لأنه أعظم دافع للعمل الصالح لهذا يقرن كثيراً في القرآن الكريم بالإيمان بالله.
١٩ ـ أن من اتقى الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه في أحكام الطلاق والرجعة وغير ذلك جعل الله له من كل ضيق مخرجاً ورزقه من حيث لا يخطر بباله.
٢٠ ـ وجوب التوكل على الله وأن من توكل على الله كفاه.
٢١ ـ أن الله منفذ أمره وقضاءه الكوني في خلقه.
٢٢ ـ تقدير الله ـ عز وجل ـ مقادير كل شيء وعلمه بها وكتابته لها قبل كونها ثم تكوينها وإيجادها وفق ذلك التقدير.

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ۝٤ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ۝٥ أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖۖ وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ ۝٦ لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ۝٧﴾

قوله: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾.

ذكر الله عز وجل في سورة البقرة أن المطلقة تعتد ثلاثة قروء، قال تعالى: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ﴾ [البقرة: ٢٢٨] والمراد بالقروء الحيض، وقيل الأطهار، وقال عز وجل في مطلع هذه السورة ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أي: مستقبلات لعدتهن، بأن تطلق المرأة في طهر لم تجامع فيه، لا في طهر جامعها فيه، ولا في حال الحيض.

وهذا إنما ينطبق على ذوات الأقراء، أي: اللاتي يحضن، ثم أتبع ذلك بذكر عدة الآيسات واللاتي لم يحضن وأولات الأحمال، فقال: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾.

سبب النزول:

عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: «قلت لرسول الله ﷺ إن ناساً من أهل المدينة لما أنزلت هذه الآية التي في البقرة في عدة النساء قالوا: لقد بقي من عدة النساء عِدَدٌ لم يُذكرْنَ في القرآن: الصغار، والكبار واللائى قد انقطع عنهن الحيض، وذوات الحمل، قال: فأنزلت التي في النساء القصرى ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾»(١).

قوله: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾ أي: اللائي كبرن وبلغن سن الإياس من المحيض من نسائكم.

وقد اختلف في حد الإياس فقيل خمسون سنة وقيل ستون سنة، وقيل لا حد له ويعرف بيأس أقاربها.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٥١، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٦٠.

واختار شيخ الإسلام ابن تيمية أنه يختلف باختلاف النساء، وليس له حد يتفق فيه النساء، والمراد بالآية: أن يأس كل امرأة من نفسها، قد ينقطع حيضها وتأيس منه ولها أربعون ونحوها، وغيرها لا تأيس منه وإن كان لها خمسون[١]

﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ أي: إن شككتم في حكم عدتهن، وبماذا يعتددن ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ ويؤيد هذا ما جاء في سبب نزول الآية. وهو الأظهر في المعنى، والأصح.

وقال بعض المفسرين ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ أي: إن رأين دماً وشككن في كونه حيضاً أو استحاضة وارتبتم فيه رُويَ هذا عن مجاهد والزهري وابن زيد[٢].

﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ الجملة جواب الشرط، والفاء رابطة لجواب الشرط، أي: فعدتهن إذا طلقن ثلاثة أشهر.

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ﴾ لصغرهن ونحو ذلك فعدتهن كذلك ثلاثة أشهر وحذف هذا لدلالة المذكور عليه.

﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ أي: وصاحبات الأحمال أي: الحوامل ﴿أَجَلُهُنَّ﴾ أي: نهاية عدتهن من طلاق أو وفاة ﴿أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأول مصدر في محل رفع خبر قوله ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ﴾ أي: نهاية عدتهن وضع حملهن كله، واحداً، أو توأمين أو أكثر، حياً كان أو ميتاً، تام الخلقة، أو ناقصها، نفخ فيه الروح أو لم ينفخ، سواء طالت مدة الحمل أو قصرت، زادت على أربعة أشهر وعشر، أو نقصت، حتى ولو وضعت بعد الطلاق أو الموت بلحظة انتهت عدتها.

عن أبي بن كعب رضي الله عنه أنه لما نزلت هذه الآية قال لرسول ﷺ: لا أدري أمشتركة أم مبهمة قال رسول الله ﷺ: «أية آية» ؟ قال: ﴿أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾، المتوفى عنها والمطلقة؟ قال: «نعم»[٣].

وعن سبيعة الأسلمية رضي الله عنها: «أنها كانت تحت سعد بن خولة – وكان ممن شهد بدراً وتوفي عنها في حجة الوداع وهي حامل، فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته، فلما تعلت من نفاسها تجملت للخطاب، فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك، فقال لها: ما لي أراك متجملة؟ لعلك ترجين النكاح، إنك والله ما أنت بناكح حتى تمر عليك أربعة أشهر وعشر.

---

(١) انظر «الاختيارات الفقهية» ص٢٨، «بدائع التفسير» ٤/ ٤٧٥ – ٤٨٢.

(٢) أخرجه عنهم الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٤٩ – ٥٠.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٦٠.

قالت سبيعة: فلما قال لي ذلك جمعت عليّ ثيابي حين أمسيت فأتيت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك، فأفتاني بأني قد حللت حين وضعت حملي، وأمرني بالتزوج إن بدا لي»[١].

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: «قتل زوج سبيعة الأسلمية، وهي حبلى فوضعت بعد موته بأربعين ليلة، فخطبت، فأنكحها رسول الله ﷺ وكان أبو السنابل فيمن خطبها»[٢].

وعن المسور بن مَخْرَمَةَ رضي الله عنه: «أن سبيعة الأسلمية توفي عنها زوجها وهي حامل، فلم تمكث إلا ليالي حتى وضعت، فلما تعلت من نفاسها خطبت، فاستأذنت رسول الله ﷺ في النكاح فأذن لها أن تُنكح فنُكحت»[٣].

فانتهاء عدة المطلقة بائناً كانت أو رجعية والمتوفى عنها زوجها إذا كانت حاملاً بمجرد وضع الحمل، ولو كان ذلك عقب الطلاق أو الوفاة بلحظات لقوله ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ ولقصة سبيعة الأسلمية رضي الله عنها، وغيرها وبهذا قال جمهور السلف وأهل العلم بعدهم.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «من شاء لاعنته ما نزلت ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ إلا بعد آية المتوفى عنها زوجها، قال: وإذا وضعت المتوفى عنها زوجها فقد حلت، يريد بآية المتوفى عنها زوجها ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]»[٤].

وعنه قال: «أتجعلون عليها التغليظ، ولا تجعلون عليها الرخصة؟ نزلت سورة النساء القصرى بعد الطولى ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾»[٥].

يعني بسورة النساء القصرى سورة الطلاق، ويعني بالطولى سورة البقرة.

وقد قيل إن الآية ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ خاصة بالمطلقات، أما المتوفى عنها زوجها فعدتها أربعة أشهر وعشر كما في آية البقرة.

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٣٩٩١، ومسلم في الطلاق ـ انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها أو غيرها بوضع الحمل ١٤٨٤ وأبو داود في الطلاق ـ عدة الحامل ٢٣٠٦، والنسائي في الطلاق ـ عدة المتوفى عنها زوجها ٣٥١٨، وابن ماجه في الطلاق ـ الحامل المتوفى عنها زوجها إذا وضعت حلت للأزواج ٢٠٢٧، ٢٠٢٨.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الطلاق ٤٩٠٩، وفي الطلاق ٥٣١٨ ومسلم في الطلاق ١٤٨٥، والنسائي في الطلاق ٣٥١١ والترمذي في الطلاق ١١٩٤.

(٣) أخرجه البخاري في الطلاق ٥٣٢٠، والنسائي في الطلاق ٣٥٠٦، وابن ماجه في الطلاق ٢٠٢٩، وأحمد ٤/ ٣٢٧.

(٤) أخرجه أبو داود في الطلاق ٢٣٠٧، والنسائي في الطلاق ـ عدة المتوفى عنها زوجها ٣٥٢٢، وابن ماجه في الطلاق ـ الحامل المتوفى عنها ٢٠٣٠، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٥٤ – ٥٥، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٦١.

(٥) أخرجه البخاري في تفسير سورة الطلاق ٤٥٣٢، والنسائي في الطلاق ـ عدة المتوفى عنها زوجها ٣٥٢١، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٥٥.

وقيل تعتد المتوفى عنها زوجها وهي حامل آخر الأجلين فإن كان أطولهما وضع الحمل كأن تكون توفى عنها زوجها وهي في أول الحمل اعتدت بوضع الحمل وإن كان أطولهما أربعة أشهر وعشراً اعتدت به بمعنى أنها لا تقل عدتها عن أربعة أشهر وعشر، وقد تزيد إلى تسعة أشهر، أو إلى أكثر من ذلك حتى تضع حملها وهذا لأجل العمل بالآيتين آية البقرة، وآية سورة الطلاق.

رُوِيَ هذا عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه[1] وعن ابن عباس رضي الله عنهما.

فعن أبي سلمة رضي الله عنه قال: «جاء رجل إلى ابن عباس وأبو هريرة جالس عنده فقال: أفتني في امرأة ولدت بعد موت زوجها بأربعين ليلة، فقال ابن عباس: آخر الأجلين. قلت أنا: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ قال أبو هريرة: أنا مع ابن أخي يعني: أبا سلمة، فأرسل ابن عباس غلامه كريباً إلى أم سلمة يسألها، فقالت: قتل زوج سبيعة الأسلمية وهي حبلى، فوضعت بعد موته بأربعين ليلة، فخطبت فأنكحها رسول الله ﷺ وكان أبو السنابل فيمن خطبها»[2].

والصحيح القول الأول كما دلت عليه الآية ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ والأحاديث في قصة سبيعة وغير ذلك وهو قول الجمهور من الصحابة والفقهاء بعدهم.

وقد استدل له ابن القيم بعموم الآية ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ من ثلاث جهات: عموم الخبر عنه وهو أولات الأحمال، فإنه يتناول جميعهن. الثاني: عموم الأجل فإنه أضافه إليهن، واسم الجمع إذا أضيف إلى معرفة يعم، فجعل وضع الحمل جميع أجلهن. الثالث: أن المبتدأ والخبر معرفتان إذ التقدير: وأولات الأحمال أجلهن وضع حملهن، وإذا كان المبتدأ والخبر معرفتين اقتضى ذلك حصر الثاني في الأول[3].

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ تأكيد وحض على تقوى الله عز وجل بفعل أوامره واجتناب نواهيه، فقد قال قبل هذا ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢﴾ أي: يجعل له فرجاً من كل كرب ومن كل ضائقة بعد حصولها، وقال ههنا ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ أي: ييسر له أموره من حيث البداية، فيسلم بإذن الله عز وجل من الكروب والضائقات.

---

(١) أخرجه عن علي رضي الله عنه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٥٦، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٦١.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٩٠٩، ومسلم في الطلاق ١٤٨٥، والنسائي في الطلاق ٣٥١١، والترمذي في الطلاق واللعان ١١٩٤، وأحمد ٤/ ٣٢٧.

(٣) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٧١.

والمراد بالجعل في قوله ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ الجعل الكوني القدري.

والضمير في قوله ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ يحتمل أن يعود إلى الله، أي: يجعل الله له من أمره الكوني يسرا، ويحتمل عود الضمير إلى من اتقى الله، أي: ومن يتق الله يسهل له أمره والمعنى على التقديرين واحد وهو: ومن يتق الله ييسر ويسهل له أمور دينه ودنياه، فمهما توجه لأمر من الأمور كان الله معه يسدده ويعينه وييسر أموره ويحفظه كما قال ﷺ: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله» الحديث [1].

وقد أحسن القائل:

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجني عليه اجتهاده

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة لما ذكر في الآية السابقة من أحكام الطلاق والرجعة والعدة وغيرها، أو لما ذكر فيها وفيما قبلها، أو لكل ما شرعه الله من أحكام وأشار إليه بإشارة البعيد تعظيماً له.

﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: أمر الله وحكمه الشرعي.

﴿أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾ أي: أنزله إليكم بما أوحاه إلى رسوله محمد ﷺ من القرآن الكريم المنزل من عند الله عز وجل، ومن السنة النبوية التي هي من وحي الله عز وجل قال عز وجل ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣] أي: القرآن والسنة، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤].

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ هذا تأكيد ثالث لتقوى الله عز وجل ـ وحضٌ عليها، رتب عليه الجزاء الأخروي وهو تكفير السيئات والأجر العظيم.

ومعنى ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ أي: يمحو ويزيل عنه سيئاته، ويسترها عن الخلق ويتجاوز عن عقوبتها.

والسيئات: جمع سيئة، وهي الذنوب والمعاصي سميت بذلك لأنها تسوء صاحبها في الحال والمآل وقد تسوء غيره.

﴿وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ أي: يجعل أجره وثوابه عظيما، كماً وكيفاً عنده – عز وجل – بإدخاله الجنات وما فيها من النعيم ورؤية الرب الرحيم.

وقدم تكفير السيئات على ذكر عظم الأجر لأن التخلية قبل التحلية.

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾ نهى الله عز وجل في الآيات السابقة عن إخراج المعتدات من بيوتهن، وأنه لا ينبغي أن يخرجن، وفي هذا بيان وجوب السكنى لهن.

---

(١) سبق تخريجه قريباً.

ثم أكد ذلك في قوله ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾ الآية. وبين قدر إسكانهن، وأنه من حيث يسكنون ومن وجدهم.

والأمر في قوله: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ لمن يطلقون زوجاتهم طلاقاً رجعياً، أي: أسكنوا زوجاتكم اللاتي طلقتموهن طلاقاً رجعياً ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ «من» تبعيضية أي: من بعض سكنكم وعندكم، وفي بيوتكم اللاتي تسكنونها ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ عطف بيان لقوله ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ وتفسير له، أي: من قدر سعتكم وطاقتكم.

﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ أي: ولا تضاروهن عند إسكانكم لهن بالقول أو بالفعل لأجل التضييق عليهن ليخرجن من بيوتكم قبل تمام عدتهن، أو ليفتدين أنفسهن منكم بما لهن، وقيل بأن يطلقها فإذا قاربت انتهاء عدتها راجعها مضارة لها.

﴿وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ﴾ أي: وإن كن ـ يعني: المطلقات صاحبات حمل، أي: حوامل.

﴿فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ الأمر للوجوب فتجب النفقة على المطلقة الحامل لها وللحمل حتى تضع، وإن طالت مدة الحمل وهذا بالإجماع إذا كان الطلاق رجعياً. واختلف أهل العلم بالنسبة للمطلقة البائن فذهب كثير من السلف منهم ابن عباس [١] وغيره [٢] وكثير من الفقهاء إلى وجوب النفقة عليها، لأجل الحمل وحملوا الآية على البائن، قالوا لأن الرجعية نفقتها واجبة مطلقا سواء كانت حاملاً أو حائلاً.

وقال بعض أهل العلم لا نفقة لها وإن كانت حاملاً، لأن السياق كله في الرجعيات وإنما نص على الإنفاق على الحامل وإن كانت رجعية، لأن الحمل تطول مدته غالباً، لئلا يتوهم أنه إنما تجب النفقة بمقدار مدة العدة.

وظاهر الآية وجوب النفقة عليها لأجل الحمل.

قال الطبري [٣]: «والصواب من القول في ذلك عندنا أن لا نفقة للمبتوتة إلا أن تكون حاملاً، لأن الله جلّ ثناؤه جعل النفقة بقوله: ﴿وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ للحوامل دون غيرهن من البائنات من أزواجهن، ولو كان البوائن من الحوامل وغير الحوامل في الواجب لهن من النفقة على أزواجهن سواء لم يكن لخصوص أولات الأحمال بالذكر في هذا الموضع وجه مفهوم، إذ هن وغيرهن في ذلك سواء، وفي خصوصهن

---

(١) اخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٦٢.

(٢) روي عن عمر وابن مسعود رضي الله عنهما: انهما يجعلان للمطلقة ثلاثا السكنى والنفقة» اخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٦٣.

(٣) في «جامع البيان» ٢٣/ ٦٤.

بالذكر دون غيرهن أدل الدليل على أن لا نفقة لبائن إلا أن تكون حاملاً» ثم استدل بحديث فاطمة بنت قيس. وقد سبق.

واختلف أهل العلم هل النفقة لها بواسطة الحمل أو للحمل وحده على قولين.

﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ أي: فإن أرضعن لكم المولود بعد انقضاء عدتهن وبينونتهن منكم، ﴿فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: اعطوهن أجور إرضاعهن لأولادكم وذلك أجرة المثل، أو ما يتفقان عليه وهن أحق بإرضاعهم من غيرهن ما لم تزد أجرة إرضاعهن عن أجرة المثل.

وفي هذا دلالة على أنه لا يجب عليهن إرضاعهم، وقد بن بانقضاء عدتهن.

قال ابن كثير[1]: «أي: إذا وضعن حملهن وهن طوالق فقد بِنَّ بانقضاء عدتهن ولها حينئذ أن ترضع الولد، ولها أن تمتنع منه، ولكن بعد أن تغذيه باللِّبأ وهو باكورة اللبن، الذي لا قوام للولد غالباً إلا به، فإن أرضعت استحقت أجرة مثلها، ولها أن تعاقد أباه أو وليه على ما يتفقان عليه من أجرة».

﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ الائتمار: التشاور والتفاهم والاتفاق، أي: تشاوروا وتوافقوا ﴿بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: بما هو معروف شرعاً وعرفاً في أمر إرضاع المولود وأجرة ذلك، وفي جميع أموركم، من غير مضارة، كما قال عز وجل: ﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾ أي: وإن تعسر الأمر بينكم في إرضاع الولد وأجرة ذلك بأن امتنعت أمه من إرضاعه مطلقا، أو طلبت أجرة لم يوافق عليها الزوج، أو بذل الزوج أجرة لم توافق عليها هي، ونحو ذلك.

والتعاسر: تفاعل من العسر، أي: عسر على كل منكما قبول رأي الآخر في مقدار أجرة الرضاع.

﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى﴾ أي: يطلب له مرضعة أخرى غير أمه لكن إن رضيت الأم بالأجرة التي استؤجرت بها الأجنبية فهي أحق به.

وإن لم يقبل إلا ثدي أمه تعين عليها إرضاعه، ولها أجرة المثل إن لم يتفقا على مسمى.

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ﴾ أي: لينفق صاحب السعة والغنى أي: الذي وسع الله عليه في رزقه.

﴿مِّن سَعَتِهِ﴾ أي: بقدر وسعه وغناه، بحيث يوسع على من ينفق عليهم ومن ذلك التوسيع في النفقة على المطلقة الرجعية، وعلى البائن إذا كانت حاملاً وعلى المولود،

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ١٧٩.

سواء كان المنفق هو أبوه، أو وليه من بعده، ومن ذلك التوسيع على المرضعة بالأجرة وبخاصة إذا كانت أم المولود.

ويؤخذ من هذه الآية وجوب نفقة الولد على الأب دون الأم.

﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ أي: ومن ضيق عليه رزقه.

﴿فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ أي: فلينفق من الذي آتاه الله، أي: بقدر الذي آتاه الله من الرزق.

عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة نفر، كان لأحدهم عشرة دنانير، فتصدق منها بدينار. وكان لآخر عشر أواق فتصدق منها بأوقية. وكان لآخر مائة أوقية، فتصدق منها بعشر أواق. فقال رسول الله ﷺ: «هم في الأجر سواء كل تصدق بعشر ماله. قال الله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾»[1].

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ أي: لا يُحمِّل الله نفساً إلا قدر الذي آتاها من الوسع والطاقة، وبما هو من مقدورها، فجعل عز وجل كلا بحسبه وخفف عن المعسر.

وهذه الآية كقوله تعالى في سورة البقرة ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الآية: ٢٨٦].

فحمداً لك اللهم على جعل التكليف وفق الوسع والطاقة.

رُوِيَ: «أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل عن أبي عبيدة رضي الله عنه فقيل: إنه يلبس الغليظ من الثياب، ويأكل أخشن الطعام. فبعث إليه بألف دينار، وقال للرسول: انظر ما يصنع بها، إذا هو أخذها. فما لبث أن لبس اللين من الثياب، وأكل أطيب الطعام، فجاء الرسول فأخبره، فقال: رحمه الله تأول هذه الآية ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾»[2].

﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾

أمر الله عز وجل من قدر عليه رزقه بالإنفاق بقدر ما آتاه الله، ثم وعد عز وجل بأنه سيجعل بعد عسر يسرا وذلك تسلية لمن لم يقدر إلا على القليل، وحثاً وتشجيعاً له لئلا يشح بهذا القليل.

﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ﴾ أي: جعلاً كونياً قدرياً ﴿بَعْدَ عُسْرٍ﴾ أي: بعد ضيق وشدة وفقر ﴿يُسْرًا﴾ سعة ورخاء وغنى.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١٨٠، وقال ابن كثير «هذا حديث غريب من هذا الوجه».

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٦٩ - ٧٠.

وهذا وعد منه عز وجل وهو الذي لا يخلف الميعاد بأنه سيجعل ويقدر بعد الضيق والشدة سعة ورخاء وفرجاً ومخرجاً، فالعسر يعقبه بإذن الله عز وجل اليسر.

عن أنس رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ جالساً وحياله جحر، فقال: «لو جاء العسر فدخل هذا الجحر لجاء اليسر حتى يدخل عليه فيخرجه» فأنزل الله عز وجل ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الانشراح: ٥، ٦]»[١].

بل إنه عز وجل يتبع العسر بيسرين كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الانشراح: ٥، ٦] فذكر العسر معرفاً في الموضعين فدل على أن الثاني هو الأول، وذكر اليسر منكراً فدل على أن الثاني غير الأول.

ولهذا رُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «لن يغلب عسر يسرين»[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «دخل رجل على أهله، فلما رأى ما بهم من الحاجة خرج إلى البرية، فلما رأت امرأته قامت إلى الرحى فوضعتها، وإلى التنور فسجرته، ثم قالت: اللهم ارزقنا. فنظرت، فإذا الجفنة قد امتلأت، قال: وذهبت إلى التنور فوجدته ممتلئاً، قال: فرجع الزوج قال: أصبتم بعدي شيئاً؟ قالت امرأته: نعم، من ربنا»[٣].

الفوائد والعبر:

١ ـ أن عدة المطلقات الآيسات من المحيض واللاتي لم يحضن ثلاثة أشهر، وأولات الأحمال نهاية عدتهن وضع حملهن سواء كن مطلقات أو متوفى عنهن.

٢ ـ الترغيب في تقوى الله والوعد لمن اتقى الله بتيسير أموره في الدنيا وتكفير سيئاته وتعظيم أجره في الآخرة.

٣ ـ أن ما ذكر فيما سبق من أحكام الطلاق والرجعة والعدة وغير ذلك من أحكام جاءت في القرآن الكريم كل ذلك مما أمر الله به شرعاً وأنزله في كتابه.

٤ ـ وجوب إسكان المطلقات طلاقاً رجعياً من حيث يسكن أزواجهن ومن وجدهم وتحريم مضارتهن للتضييق عليهن ليخرجن قبل تمام العدة أو ليفتدين أنفسهن من

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٤٦ وروي موقوفاً من كلام ابن مسعود رضي الله عنه. انظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ٤٥٣.

(٢) أخرجه مالك في الجهاد ـ الترغيب في الجهاد، انظر «تنوير الحوالك» ١/ ٢٩٦. وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٤٤٦ عن الحسن البصري، وأخرجه عنه مرفوعاً إلى النبي ﷺ مرسلاً، عبد الرزاق في «تفسيره» ٢/ ٣٨٠، والطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٤٩٦، والحاكم في المستدرك ٢/ ٥٢٨.

(٣) أخرجه أحمد ٢/ ٥١٣، وأخرجه بأطول من هذا ٢/ ٤٢١.

أزواجهن بمالهن، أو بتطليقهن ثم مراجعتهن إذا قاربن انتهاء العدة مضارة لهن.

٥ ـ وجوب النفقة للمطلقة الحامل لها وللحمل إذا كان الطلاق رجعياً ووجوب النفقة عليها لأجل الحمل إذا كان الطلاق بائناً، وقيل لا تجب لها النفقة في هذه الحال وظاهر الآية وجوب النفقة لها لأجل الحمل حتى تضع.

٦ ـ يجب إعطاء المطلقات البائنات أجرة المثل إذا هن أرضعن أولاد من طلقوهن.

٧ ـ وجوب الائتمار والتشاور والتوافق بالمعروف في أمر إرضاع المولود وأجرة ذلك، وفي جميع الأمور.

٨ ـ إذا تعاسر الزوجان في إرضاع الولد وفي أجرة ذلك ترضعه امرأة أخرى غير أمه.

٩ ـ أن نفقة الولد على الأب دون الأم.

١٠ ـ الترغيب لمن وسع الله عليه في الغنى أن يوسع في النفقة على المنفق عليهم من الأهل والأولاد، ومن ذلك التوسيع في الإنفاق على المطلقة الرجعية، وعلى البائن إذا كانت حاملاً وعلى المولود وعلى المرضعة بالأجرة وبخاصة إذا كانت الأم.

١١ ـ لا حرج على من ضيق عليه رزقه أن ينفق بقدر ما آتاه الله.

١٢ ـ أن التكليف على قدر الوسع والطاقة.

١٣ ـ وعد الله ـ عز وجل ـ بأنه سيجعل بعد عسر يسراً وهو الذي لا يخلف الميعاد، بل إن كل عسر معه من الله يسران.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾

صلة الآيات بما قبلها:

أمر الله عز وجل من مطلع السورة إلى هنا بامتثال جملة من أحكام الطلاق والعدة والرجعة وسكنى المعتدة والنفقة عليها وعلى حملها ورضاعه.

ثم أخبر عما حل بمن خالف أمر الله ورسله من الأمم السالفة من العذاب والعقوبات الدنيوية وما أعد لهم من العذاب الشديد في الآخرة، تأكيداً لوجوب امتثال ما أمر الله به ورسوله من أحكام، وتحذيراً من المخالفة لأوامر الله ـ عز وجل ورسوله.

قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي: وكثير من القرى.

﴿عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ﴾ أي: عصت وتمردت وتجبرت وطغت واستكبرت عن أمر ربها الشرعي ورسله، أي: عن أوامر الله الشرعية وأوامر رسله.

والقرية: مأخوذة من القري، وهو مكان التجمع، ومنه سمي القرو وهو مكان تجمع الماء، وسمي القرآن: لأنه مجموع حروف وكلمات وآيات وسور.

والمراد بالقرية: مكان اجتماع طائفة من الناس يقال لها مدينة ويقال لها قرية، فهي المصر الجامع، قال عز وجل: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ [محمد: ١٣].

والمراد: وكثير من أهل القرى.

قال الطبري[1]: «وكم من أهل قرية طغوا عن أمر ربهم وخالفوه، وعن أمر رسل ربهم فتمادوا في طغيانهم وعتوهم، ولجوا في كفرهم».

وفي إضافة ضمير «قرية» إلى اسم «الرب» عز وجل في قوله ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾ تأكيد لوجوب طاعة الله عز وجل وعدم مخالفته، وتذكير بنعمة ربوبيته فهو عز وجل الخالق المالك المدبر سبحانه وتعالى.

---

(١) في «جامع البيان» ٢٣/ ٧٠.

﴿فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ أي: حاسبناها على تمردها وعتوها حسابا صعباً عسيراً، وناقشناها نقاشاً دقيقاً استقصينا فيه عليهم، ولم نتجاوز فيه عن شيء، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [الرعد: ١٨] وقد قال ﷺ: «من نوقش الحساب هلك»[1]. ولهذا قال بعده:

﴿وَعَذَّبْنَٰهَا﴾ أي: وعذبناها في الدنيا.

﴿عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أي: عذاباً منكرا فظيعاً بأنواع العذاب والعقوبات، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ [النساء: ٨٤].

﴿فَذَاقَتْ﴾ أي: فأحست وتجرعت ومسها.

﴿وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ أي: غب وعاقبة وعقوبة أمرها لما خالفت أمر الله ورسوله.

﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ وكان نهاية أمرها خسراً، أي: غبناً ونقصاً، وخسراناً لا ربح فيه بوجه من الوجوه.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي: هيأ الله لهم في الآخرة عذاباً شديداً وهو عذاب النار، العذاب الأشد والأكبر كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ [الزمر: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ [الغاشية: ٢٤].

والمعنى: أن الله عز وجل عذب أولئك الذين تمردوا عن أمره عذاباً منكراً وعقوبة عاجلة تجرعوها في الدنيا مع ما أعد الله لهم من العذاب الشديد في الآخرة، وكانت نهاية أمرهم الخسار والبوار في الدنيا والآخرة.

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: فاتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه يا أصحاب العقول والبصائر السليمة، التي تفقه، وتهدي أصحابها إلى ما ينفعها وإلى ما فيه سعادتها في دينها ودنياها وأخراها. وفيه تحذير لهم من مسلك ومصير من تمردوا على أوامر الله ممن لديهم العقول التي هي مناط التكليف لكنها لم تنفعهم كما قال عز وجل

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٩٣٩، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٧٦، والترمذي في الرقائق ٢٤٢٦ ـ من حديث عائشة رضي الله عنها.

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩].

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ «الذين» اسم موصول مبني في محل نصب عطف بيان على «أولي» أو بدل منه، أي: الذين صدقوا وانقادوا ظاهراً وباطناً.

﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ «قد» للتحقيق، أي: قد أنزل الله إليكم ذكرا، وهو القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾، [الحجر:٩]، وقال تعالى: ﴿وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٠].

ويؤخذ من قوله ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ علو الله ـ عز وجل ـ على خلقه ـ لأن الإنزال يكون من أعلى إلى أسفل، وأن القرآن الكريم منزل من عند الله عز وجل ـ غير مخلوق كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، خلافاً للمعتزلة.

﴿رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَـٰتٍ﴾ هذا كالتفسير لقوله ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾.

قال بعضهم (رسولا) منصوب على أنه بدل اشتمال وملابسة لأن الرسول هو الذي بلغ الذكر، وقال بعضهم «رسولا» مفعول لفعل محذوف تقديره: أرسل رسولا، والمراد بقوله (رسولا) هو محمد ﷺ، ونكره لأنه معهود ومعروف.

﴿يَتْلُوا۟﴾ يقرأ ويقص.

﴿ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ الشرعية وهي آيات الذكر، القرآن الكريم، المنزل من عند الله، لأن القرآن الكريم بما اشتمل عليه من إعجاز في لفظه ومعناه وأحكامه وأخباره وصلاحيته لكل زمان ولكل مكان ولكل أمة، وما دل عليه من صدق من جاء به كل ذلك علامة على أنه من عند الله عز وجل كما قال عز وجل: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

﴿مُبَيِّنَـٰتٍ﴾ حال، أي: يتلو عليكم آيات الله حال كونها مبينات.

قرأ بعض السبعة (مبيَّنات) بفتح الياء مع التشديد، بمعنى: أوضحهن الله عز وجل وبينهن. وقرأ بعضهم (مبيِّنات) بكسر الياء وتشديدها «اسم فاعل» أي: أنهن مبينات للحق من الباطل والهدى من الضلال والحلال من الحرام.

﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن يخرج الرسول ﷺ بما يتلو من الآيات البينات ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: الذين صدقوا بقلوبهم وألسنتهم بالله ورسوله ﷺ وبالآيات المنزلة عليه من عند الله عز وجل.

﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾: أي: وانقادوا بجوارحهم وعملوا الأعمال الصالحات. وحذف الموصوف دون الصفة للدلالة على أن المهم كون العمل صالحاً، أي: وعملوا الأعمال الصالحات التي يتوفر فيها: الإخلاص لله عز وجل، ومتابعة الرسول ﷺ. وهذا يدل على أنه لا بد مع الإيمان من عمل الصالحات لا كما يقول أهل الإرجاء: إنه يكفي مجرد الإيمان. فالإيمان قول وعمل واعتقاد.

﴿مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي: من ظلمات الكفر والشك والجهل إلى نور الإيمان واليقين والعلم، نور القرآن الذي به الهداية وحياة القلوب والذي سماه الله عز وجل نوراً في مواضع عدة من القرآن الكريم، كما سماه روحاً، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢].

وجمع الظلمات ووحد النور، لأن طرق الباطل كثيرة متشعبة، وطريق الحق واحد كما قال عز وجل: ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وهذه الآية كقوله في سورة إبراهيم ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الآية: ١]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وفي قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ﴾ امتنان من الله عز وجل على عباده المؤمنين بإنزال القرآن العظيم وإرسال الرسول الكريم ﷺ، وحث وترغيب وإغراء بالتذكر والاهتداء بالقرآن واتباع الرسول ﷺ.

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾.

ذكر الله عز وجل قبل هذا عذابه الدنيوي لمن عصى وتمرد عن أمر الله ورسله، وما أعد لهم من العذاب الشديد في الآخرة، ثم ذكر ما أعده لمن آمن وعمل صالحاً من الجنات وما فيها من الأنهار والرزق الحسن.

قوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ﴾ الواو: استئنافية و«من» شرطية، و«يؤمن» فعل الشرط، و«يعمل صالحاً» معطوف عليه، وجواب الشرط «يدخله جنات».

فمن آمن بالله ورسوله وكل ما أوجب الله الإيمان به وعمل عملاً صالحاً خالصاً لله عز وجل ووفق شرعه استحق هذا الجزاء وهو دخول الجنات.

والجنات: ما أعده الله عز وجل لإقامة أوليائه فيها من ألوان النعيم ما لا يعلمه إلا الله كما قال عز وجل ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧].

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ صفة لـ «جنات» أي: أن أنهارها المختلفة تجري من تحت أشجارها ومساكنها وغرفها كما قال عز وجل: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [العنكبوت: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الزمر: ٢٠].

وهي كما وصفها الله عز وجل بقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: ١٥].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي: مقيمين فيها إقامة أبدية لا يتحولون عنها. وجمع «خالدين» نظراً لمعنى «من» في قوله ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾.

﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ «قد» للتحقيق، أي: قد أحسن الله لمن آمن بالله وعمل صالحاً ﴿رِزْقًا﴾، وأفرد الضمير مراعاة للفظ «من»، و﴿رِزْقًا﴾: عطاءً، وأي رزق وأي عطاء أحسن من دخول الجنات والخلود فيها والتمتع بما فيها من ألوان النعيم ورؤية العزيز الحكيم - نسأل الله عز وجل من فضله.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا﴾

ذكر الله عز وجل في هذه السورة جملة من الأحكام آمراً بها، وحذر من مخالفة أمر الله ورسوله بذكر ما حل بمن عصى وخالف من الأمم الماضية من العذاب الدنيوي وما أعد لهم من العذاب الأخروي ممتناً على عباده المؤمنين بإرسال الرسول الكريم وإنزال الآيات الشرعية، وما أعد لهم من الجنات والرزق، ثم أتبع ذلك بذكر عظم آياته الكونية، وكمال قدرته وسلطانه العظيم وعلمه المحيط بكل شيء.

قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ أي: الذي أوجد وأنشأ سبع سموات كما قال عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: ١٥]، وقال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤].

﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أي: وخلق من الأرض مثلهن أي: سبع أرضين، كما قال ﷺ: «من ظلم قيد شبر طوقه من سبع أرضين يوم القيامة»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم – إثم من ظلم شيئا من الأرض ٢٤٥٣، ومسلم في البيوع – تحريم الظلم وغصب الأرض
=

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «من أخذ من الأرض شيئاً بغير حقه خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين»[(1)].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «خلق الله سبع سموات غلظ كل واحدة مسيرة خمسمائة عام، وبين كل واحدة منهن خمسمائة عام، وفوق السموات السبع الماء، والله جل ثناؤه فوق الماء لا يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم، والأرض سبع بين كل أرضين خمسمائة عام وغلظ كل أرض خمسمائة عام»[(2)].

﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ أي: يتنزل أمر الله الكوني بينهن.

أي: أن الله عز وجل خلقهن وأوجدهن، وأمره وتدبيره نافذ فيهن وفيما بينهن، لأنه عز وجل هو الرب الخالق المالك المدبر.

﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ اللام للتعليل، أي: أنه عز وجل خلق سبع سموات وسبع أرضين وأنفذ أمره فيهن وفيما بينهن لأجل أن تعلموا عموم قدرته وعظمتها، وسعة علمه وإحاطته بكل شيء.

والخطاب للمؤمنين لقوله قبل هذا ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾.

وقوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ هتان الجملتان كل منهما في تأويل مصدر في محل نصب مفعول ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟﴾ أي: لتعلموا قدرة الله على كل شيء، وإحاطة علمه بكل شيء.

وقدم المتعلق وهو قوله ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾، لتأكيد عموم قدرته على كل شيء أي: على كل شيء من الأشياء صغيراً كان أو كبيراً، قليلاً أو كثيراً، خفياً أو جلياً، دقيقاً أو جليلاً، أيا كان نوعه وكيفه وكمه.

﴿قَدِيرٌ﴾ أي: ذو قدرة عظيمة تامة نافذة، فلا يعجزه شيء سبحانه كما قال عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٤].

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ معطوفة على الجملة قبلها، وقدم قوله ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ لتأكيد شمول علمه وإحاطته بكل شيء، أي: لتعلموا كمال علم الله عز وجل، وإحاطة علمه بكل شيء وسعته كل شيء كما قال عز وجل: ﴿إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].

=

وغيرها ١٦١٢ - من حديث عائشة رضي الله عنها.

(١) أخرجه البخاري في المظالم والغصب ٢٤٥٤.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٧٨، والدارمي في «الرد على الجهمية» ص٢١، وابن خزيمة في التوحيد ص٧٠.

ففي خلقه عز وجل السموات السبع والأرضين السبع، وتدبيرهن وما بينهن دليل على عظيم قدرته عز وجل وشمولها لكل شيء، وعلى إحاطة علمه وسعته لكل شيء وأن الذي يخلق، ويستحق اسم الخالق حقا هو سبحانه، إذ من لازم ذلك تمام القدرة على كل شيء، وتمام العلم وسعته لكل شيء، وليس هذا لأحد سواه سبحانه وتعالى ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

الفوائد والعبر:

١ ـ التحذير من مخالفة وتكذيب أمر الله ـ عز وجل ـ ورسوله ﷺ بذكر ما حل بالمكذبين لأمر الله ورسله من الأمم السابقة من العقوبات الدنيوية وما ينتظرهم من العقوبات الأخروية.

٢ ـ مرارة وشدة مخالفة أمر الله ورسله فحساب شديد، وعذاب منكر، وتجرع لعقوبة المخالفة، وعاقبة خيبة وخسران، وعذاب شديد في الآخرة.

٣ ـ وجوب تقوى الله ـ عز وجل ـ بفعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه.

٤ ـ تميز وفضل أصحاب العقول التي تدلهم عقولهم على معرفة الله عز وجل ومعرفة الحق والعمل به لهذا خصهم بالأمر بتقوى الله.

٥ ـ التعريض بذم من لم يستفيدوا من عقولهم بل هم أشباه البهائم كما ذكر الله عز وجل.

٦ ـ الامتنان من الله ـ عز وجل ـ على المؤمنين بإنزال القرآن العظيم وبعثة الرسول الكريم ﷺ والترغيب والإغراء بتذكر القرآن واتباع الرسول ﷺ.

٧ ـ إثبات علو الله ـ عز وجل ـ على خلقه علوا مطلقا.

٨ ـ أن القرآن الكريم ذكر وعظة لأولي الألباب، منزل من عند الله عز وجل غير مخلوق.

٩ ـ إثبات رسالة محمد ﷺ وتشريفه وتكريمه ﷺ.

١٠ ـ إقامة الحجة على الخلق بتبيين الآيات وتفصيلها.

١١ ـ أن الهدف من إرسال الرسل ومنهم محمد ﷺ ومن إنزال الكتب ومنها القرآن الكريم هو إخراج الناس وبخاصة الذين آمنوا وعملوا الصالحات من ظلمات الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم.

١٢ ـ أن الإيمان اعتقاد بالقلب وقول باللسان وعمل الصالحات بالجوارح.

١٣ ـ لابد لقبول العمل من كونه صالحاً، أي: خالصاً لله ـ عز وجل ـ وعلى سنة رسوله ﷺ.

١٤ ـ أن طريق الحق واحد وطرق الباطل كثيرة ومتشعبة.

١٥ ـ عظم ما أعد الله ـ عز وجل ـ لمن آمن بالله وعمل صالحاً من الجنات وما فيها من النعيم والأنهار والخلود الأبدي فيها والرزق الحسن.

١٦ ـ بيان كمال قدرة الله ـ عز وجل ـ وقوته وسعة علمه وإحاطته بكل شيء في خلق السموات السبع والأرضين السبع، ونفوذ أمره الكوني فيهن، وفيما بينهن وأنه عز وجل وحده الخالق المالك المدبر.

تفسير سورة التحريم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥)﴾

سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قلت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: «من المرأتان اللتان قال الله فيهما: ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾؟ قال: عائشة وحفصة، وكان بدء الحديث في شأن أم إبراهيم القبطية أصابها النبي ﷺ في بيت حفصة في يومها، فوجدته حفصة، فقالت: يا نبي الله لقد جئت إليّ شيئاً فريا، ما جئت إلى أحد من أزواجك في يومي وفي دوري، وعلى فراشي، قال: «ألا ترضين أن أحرمها عليّ فلا أقربها؟» قالت: بلى. فحرمها، وقال: «لا تذكري ذلك لأحد» فذكرته لعائشة فأظهره الله عز وجل عليه، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ الآيات كلها فبلغنا أن النبي ﷺ كفر يمينه، وأصاب جاريته»[١].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «قال النبي ﷺ لحفصة: «لا تخبري أحداً، وإن أم إبراهيم عليّ حرام» فقالت: أتحرم ما أحل الله لك؟، قال: «فوالله لا أقربها». قال: فلم يقربها حتى أخبرت عائشة. قال: فأنزل الله: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾»[٢].

---

(١) اخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٨٨، ٩٥، ٩٦، وقد اخرج أوله من حديث مطول البخاري في تفسير سورة التحريم ٤٩١٣ – ٤٩١٦، ومسلم في الطلاق ـ في الإيلاء ١٤٧٩، والترمذي في تفسير سورة التحريم ٣٣٧٤، وأحمد ١/ ٣٣ – ٣٤.

(٢) اخرجه الهيثم بن كليب في مسنده فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١٨٦ وقال ابن كثير: «وهذا إسناد صحيح، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة، وقد اختاره الحافظ الضياء المقدسي في كتابه «المستخرج».

وعن أنس رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرمها على نفسه، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ إلى آخر الآية»[١].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش، ويمكث عندها، فتواطأت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل له أكلت مغافير[٢]؟، إني أجد منك ريح مغافير فدخل على إحداهما النبي ﷺ، فقالت ذلك له، فقال: «لا، بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش، ولن أعود له» فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ إلى ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ لعائشة وحفصة ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ﴾ لقوله: «بل شربت عسلاً، ولن أعود له، وقد حلفت، فلا تخبري بذلك أحداً»[٣].

وفي رواية عن عائشة أيضاً أن التي أسقته العسل هي حفصة، وأن اللاتي تواطأن على تلك المقالة هن عائشة وسودة وصفية[٤].

قال ابن كثير[٥] بعد سياق هذه الرواية والتي قبلها: «والغرض أن هذا السياق فيه أن حفصة هي الساقية للعسل، وهو من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن خالته عائشة رضي الله عنها، وفي طريق ابن جريج عن عطاء عن عبيد بن عمير عن عائشة أن زينب بنت جحش هي التي سقت العسل، وأن عائشة وحفصة تواطأتا وتظاهرتا عليه فالله أعلم، وقد يقال: إنهما واقعتان ولا بُعْدَ في ذلك إلا أن كونهما سبب نزول الآية فيه نظر. ومما يدل على أن عائشة وحفصة رضي الله عنهما هما المتظاهرتان حديث ابن عباس: «لم أزل حريصا على أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله فيهما: ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾»[٦].

وقد رجح بعض المفسرين في سبب النزول قصة مارية، لأن الغيرة هي التي تحمل

---

(١) أخرجه النسائي في عشرة النساء ٣٩٥٩ والحاكم ٢/ ٤٩٣ وقال: «صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي.

(٢) المغافير: شيء شبيه بالصمغ يكون في شجر الرمث فيه حلاوة. انظر مادة «غفر» في «الصحاح» للجوهري، «لسان العرب» وانظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ١٨٨.

(٣) أخرجه البخاري في الطلاق ٥٢٦٧، ومسلم في الطلاق ـ وجوب الكفارة على من حرم امرأته ولم ينو الطلاق ١٤٧٤، وأبو داود في الأشربة ٣٧١٤، والنسائي في الطلاق ٣٤٢١.

(٤) أخرجها أيضا البخاري في الطلاق ـ باب ﴿لم تحرم ما أحل الله لك﴾ ٥٢٦٨، ومسلم في الموضع السابق.

(٥) في «تفسيره» ٨/ ١٨٩.

(٦) سبق تخريجه.

النساء على مثل هذه المواقف وبهذا قال جمع من مفسري السلف[1].

ورجح بعضهم قصة شرب العسل منهم ابن العربي والقرطبي[2] وهكذا قال ابن كثير[3]: «والصحيح أن ذلك كان في تحريمه العسل» ثم ذكر ما رواه البخاري وغيره لكن يعكر هذا قوله قبل هذا: «إلا أن كونهما سبب نزول الآية فيه نظر».

ولا شك أن قصة مارية أقوى من حيث المعنى إلا أن الأولى اعتبار القصتين في سبب النزول، نظراً لصحة إسناد كل منهما.

قال الطبري[4]: «والصواب من القول في ذلك أن يقال: كان الذي حرمه رسول الله ﷺ على نفسه شيئاً كان الله قد أحله له، فجائز أن يكون ذلك كان جاريته، وجائز أن يكون شراباً من الأشربة، وجائز أن يكون غير ذلك، غير أنه أي ذلك كان، فإنه تحريم شيء كان له حلالاً فعاتبه الله تعالى ذكره على تحريمه على نفسه ما كان قد أحله، وبيّن تحلة يمينه».

وقال ابن حجر[5]: «يحتمل أن تكون الآية نزلت في السببين معاً».

وقال الشوكاني[6]: «فهذان سببان صحيحان لنزول الآية، والجمع ممكن بوقوع القصتين قصة العسل وقصة مارية، وأن القرآن نزل فيهما جميعاً، وفي كل واحد منهما أنه أسر الحديث إلى بعض أزواجه».

قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ «يا» حرف نداء، و«أي» منادى مبني على الضم في محل نصب و«ها» للتنبيه و«النبي» صفة لأي، أو بدل منها. و«ال» فيه للعهد الذهني، أي: النبي المعهود المعلوم المعروف، محمد ﷺ.

والنبي مشتق من النبأ وهو الخبر، لأنه مُخْبَر من عند الله، ومُخْبِر لقومه، ومشتق من النبوة وهو المكان المرتفع لعظم ورفعة منزلة الأنبياء عليهم السلام.

﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ الاستفهام للتنبيه والعتاب أي: لماذا تحرم الذي أحله الله لك من العسل، أو مارية القبطية، أو غير ذلك.

---

(١) انظر «جامع البيان» ٢٣/ ٨٣ – ٨٨.
(٢) انظر «أحكام القرآن» لابن العربي ٤/ ١٨٤٤ – ١٨٤٦، «الجامع لأحكام القرآن» ١٨/ ١٧٩.
(٣) في «تفسيره» ٨/ ١٨٧.
(٤) في «جامع البيان» ٢٣/ ٨٩.
(٥) في «فتح الباري» ١٠/ ٢٨٣.
(٦) في «فتح القدير» ٥/ ٢٥٢.

﴿تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ﴾ أي: تطلب وتريد رضا أزواجك عائشة وحفصة، أو غيرهما، كما جاء في سبب النزول وهذا يقوي أن الذي حرمه على نفسه هو مارية القبطية، وأياً كان الذي حرم على نفسه ﷺ ـ فإن في هذا دليلاً على عدم عصمته ﷺ عن الصغائر وكذا سائر الأنبياء ـ عليهم السلام ـ من باب أولى لكنهم يوفقون للتوبة منها والرجوع عنها.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ «الغفور» و«الرحيم» من أسماء الله عز وجل، فهو عز وجل ذو المغفرة التامة، والرحمة الواسعة، ومن مغفرته عز وجل ورحمته أن غفر لرسوله ﷺ ما حصل منه من تحريم الحلال على نفسه ورحمه ورحم أمته بفرض الكفارة.

﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ﴾ «قد» للتحقيق، و«فرض» بمعنى أوجب، أي: قد أوجب الله لكم تحليل أيمانكم، أو التحلل من أيمانكم والخروج من تبعتها بالكفارة، وهذا إذا كانت على تحريم الحلال ونحو ذلك كتحليل الحرام فيجب التكفير عنها والحنث. أما ما عدا ذلك فيجب الوفاء بها. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ إلى قوله: ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ﴾ [المائدة: ٨٧ ـ ٨٩].

قال ابن عباس: «﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ [الأحزاب: ٢١] يعني أن النبي ﷺ حرم جاريته، فقال الله جل ثناؤه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ إلى قوله: ﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ﴾ فكفر يمينه، فصير الحرام يميناً»[(١)].

وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «في الحرام يمين تكفر وقال: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ [الأحزاب: ٢١]»[(٢)].

ففرض الله عز وجل وأوجب على من حلف على تحريم الحلال أن يتحلل من يمينه بالكفارة أيا كان هذا الحلال الذي حلف على تحريمه سواء جاريته أو طعاماً أو شراباً، أو ملبساً، أو أي شيء من المباحات وهذا هو ظاهر قوله عز وجل ﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ﴾ وقال ﷺ: «إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها»[(٣)].

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٨٧.

(٢) أخرجها البخاري في تفسير سورة التحريم ٤٩١١، ومسلم في الطلاق ـ وجوب الكفارة على من حرم امرأته ولم ينو الطلاق ١٤٧٣، والنسائي في الطلاق ٣٤٢٠، وابن ماجه في الطلاق ٢٠٧٣.

(٣) أخرجه البخاري في الذبائح والصيد ٥٥١٨، ومسلم في الأيمان ١٦٤٩، والنسائي في الصيد والذبائح ٤٣٤٦، وابن =

وعن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فكفر عن يمينك وائت الذي هو خير»(1).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها، فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه»(2).

وعن عائشة رضي الله عنها أن أبا بكر رضي الله عنه لم يكن يحنث في يمينه قط حتى أنزل الله كفارة اليمين، وقال: «لا أحلف على يمين، فرأيت غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وكفرت عن يميني»(3).

﴿وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾ أي: والله متولي أموركم، وناصركم ومعينكم.

﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ «العليم» و«الحكيم» من أسماء الله عز وجل كل منهما على وزن «فعيل» يدل «العليم» علىإثبات صفة العلم الواسع لله عز وجل كما قال عز وجل: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا﴾ [طه: ٩٨].

ويدل «الحكيم» على أنه عز وجل ذو الحكم التام بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وذو الحكمة التامة: الحكمة الغائية والحكمة الصورية.

﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا﴾ أي: واذكر حين أسر النبي إلى بعض أزواجه، وهي حفصة رضي الله عنها في قول أكثر المفسرين من السلف ومن بعدهم ﴿حَدِيثٗا﴾ هو قوله لحفصة ـ رضي الله عنها ـ كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما في سبب النزول في شأن مارية «ألا ترضين أن أحرمها فلا أقربها، قالت: بلى فحرمها. وقال: لا تذكري ذلك لأحد».

أو هو قوله ﷺ «بل شربت عسلاً ولن أعود، وقد حلفت، فلا تخبري بذلك أحداً» كما جاء هذا في حديث عائشة رضي الله عنها في سبب النزول.

﴿فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ﴾ أي: فلما أخبرت حفصة بما أسر به النبي ﷺ إليها عائشة رضي الله عنهما.

﴿وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ﴾ أي: وأطلعه الله عز وجل على أن حفصة أخبرت عائشة.

=

ماجه في الكفارات ٢١٠٧ من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(١) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور ٦٦١٢، ومسلم في الأيمان ١٦٥٢، وأبو داود في الأيمان والنذور ٣٢٧٨، والنسائي في آداب القضاة ٥٣٨٤.

(٢) أخرجه مسلم في الأيمان ١٦٥٠، والترمذي في النذور والأيمان ١٥٣٠.

(٣) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور ٦٦٢١.

﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٖ﴾ قرأ الكسائي ﴿ عَرَف ﴾ بتخفيف الراء، وقرأ الباقون بتشديدها.

أي: عرّف حفصة بعض ما أفشت من حديثه ﷺ ﴿وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٖ﴾ أي: تركه فلم يعرفها به، ولم يعرض له كرماً منه ﷺ وحلماً.

وهكذا ينبغي لمن يعاتب أخاً له أن لا يكثر عليه وأن يعرض عن كثير مما حصل منه.

﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ﴾ أي: فلما أخبرها به، أي أخبر حفصة بعلمه أنها أخبرت بما أسر به إليها وأفشت سره لعائشة رضي الله عنهما.

﴿قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ﴾ أي: قالت حفصة رضي الله عنها من أخبرك ﴿هَٰذَاۖ﴾ أي: هذا الخبر وهو أني أفشيت ما أسررتَ به إليَّ، والذي لم يخرج منا، وكأنها ظنت أن عائشة رضي الله عنها أخبرته بذلك.

﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ أي: قال ﷺ أخبرني العليم الخبير، و«العليم» ذو العلم المحيط بكل شيء كما قال عز وجل: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ﴾ [الأنعام: ٨٠].

و«الخبير» اسم من أسماء الله ـ عز وجل ـ على وزن «فعيل» أي: المطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها، وعلى هذا فهو مطلع على ظواهرها وجلائلها وجلياتها من باب أولى. لكن في حال اجتماع هذين الاسمين معاً يحمل «العليم» على العلم بالظواهر، ويحمل «الخبير» على العلم بالبواطن.

والمعنى: قال أخبرني العليم الخبير بكل شيء، المطلع على الظواهر والبواطن، والذي يعلم السر وأخفى، والذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾.

هذا عتاب من الله عز وجل لحفصة وعائشة رضي الله عنهما وعرض للتوبة عليهما، وتذكير لهما بأنهما حصل منهما ما لا ينبغي.

والتوبة معناها: الرجوع والإنابة إلى الله ـ عز وجل ـ بشروطها المعلومة، والمعنى: إن ترجعا إلى الله وتنيبا إليه ﴿فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾ أي: فقد مالت قلوبكما إلى ما فيه مشقة عليه ﷺ، مما كان سبباً في تحريمه على نفسه ما يحبه.

وجمع القلوب مع أنهما قلبان للتخفيف وكراهة الجمع بين تثنيتين متواليتين وهذا كقوله ﴿فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨].

﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ﴾ أي: وإن تتظاهرا عليه، فحذفت إحدى التاءين تخفيفاً، أي: وإن

تتعاونا عليه بما يشق عليه ﷺ ويستمر هذا منكن.

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه من المرأتان اللتان قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ﴾؟ قال: «عائشة وحفصة»[1].

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ﴾ أي: متوليه وناصره ومعينه.

﴿وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ جبريل: هو ملك الوحي عليه السلام.

﴿وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ أي: ومن صلح من المؤمنين، أو والمؤمنون الصالحون، الذين جمعوا بين الإيمان وإصلاح العمل بالإخلاص لله عز وجل ومتابعة الرسول ﷺ كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم وغيرهم من المؤمنين رضي الله عنهم.

والمعنى: فإن الله هو متوليه وناصره ومعينه، وجبريل وصالح المؤمنين أولياؤه وأنصاره وأعوانه ـ بعد الله ـ عز وجل، وفي هذا أعظم تشريف وتكريم له ﷺ، ودفاع عنه، وحفظ له، كما أن فيه من التحذير لحفصة وعائشة رضي الله عنهما ما لا يخفى.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «حدثني عمر بن الخطاب قال: «لما اعتزل نبي الله ﷺ نساءه دخلت المسجد، فإذا الناس ينكتون بالحصى، ويقولون: طلق رسول الله ﷺ نساءه، وذلك قبل أن يؤمر بالحجاب. فقلت: لأعلمن ذلك اليوم» وذكر الحديث في دخوله على عائشة وحفصة، ووعظه إياهما، وفي استئذانه على رسول الله ﷺ ثم قال: «فقلت: يا رسول الله ما يشق عليك من أمر النساء، فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل، وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك، وقلما تكلمت، ـ وأحمد الله ـ بكلام إلا رجوت أن يكون الله يصدق قولي، ونزلت هذه الآية آية التخيير: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ﴾، ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾، فقلت: أطلقتهن؟ قال: لا. فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي: لم يطلق نساءه. ونزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٌ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [النساء: ٨٣] فكنت استنبطت ذلك الأمر»[2].

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة التحريم ٤٩١٣، ٤٩١٤، ٤٩١٥، ومسلم في الطلاق – باب في الإيلاء ١٤٧٩ – وقد سبق تخريجه في سبب النزول.

(٢) أخرجه مسلم في الطلاق ـ باب الإيلاء ١٤٧٩، وأخرجه البخاري بمعناه في تفسير سورة التحريم ٤٩١٣، ٤٩١٤، ٤٩١٥.

سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾

صلة الآية بما قبلها:

ذكر الله عز وجل في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ﴾ الآية أنه متول رسوله ﷺ وناصره، وجبريل وصالح المؤمنين أيضاً أنصاره وأعوانه. وفي هذا من التخويف لأزواجه ما لا يخفى، ثم خوفهن بأمر يشق على النساء كثيراً وهو الطلاق فقال: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ﴾.

سبب النزول:

عن أنس ـ رضي الله عنه، قال: قال عمر ـ رضي الله عنه: «اجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه، فقلت لهن: عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن، فنزلت هذه الآية»[1]

وفي حديث ابن عباس المذكور آنفاً:

«قال عمر: فقلت: يا رسول الله ما يشق عليك من أمر النساء، فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنين معك ... ونزلت هذه الآية آية التخيير: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ﴾».

وفي حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ قال عمر ـ رضي الله عنه: «وافقت الله في ثلاث، أووافقني ربي في ثلاث، قلت: يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، وقلت يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية الحجاب، قال: وبلغني معاتبة النبي ﷺ بعض نسائه فدخلت عليهن، قلت إن انتهيتن أو ليبدلن الله رسوله خيراً منكن، حتى أتيت إحدى نسائه، قالت: يا عمر أما في رسول الله ﷺ ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت؟ فأنزل الله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾»[2].

«عسى» للترجي بالنسبة للمخلوق، وهي من الله واجبة كما قال ابن عباس رضي الله عنهما [3] أي: وعد محقق منه عز وجل.

وفي التعبير بلفظ الربوبية، وإضافة «رب» إلى ضميره ﷺ في قوله ﴿رَبُّهُۥٓ﴾ إضافة إلى تشريفه ﷺ وتكريمه إشارة أيضا إلى أنه ﷺ يلوذ بملاذ عظيم، ويأوي إلى ركن شديد هو

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة التحريم ٤٩١٦، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٩٩ ـ ١٠٠.

(٢) أخرجه البخاري في «تفسير سورة البقرة ـ قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗى﴾ ٤٤٨٣.

(٣) أخرجه البيهقي في سننه فيما ذكره الزركشي في «البرهان» ٤/ ٢٨٨. وانظر «تفسير آيات الأحكام في سورة النساء» ٢/ ٨٩٣ ـ ٨٩٤.

ربه الذي بيده الخلق والملك والتدبير.

﴿إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ أي: إن حصل منه تطليق وفراق لكن. وهذا فيه تخويف لهن كما سبق.

﴿أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ الإبدال والتبديل جعل شيء مكان شيء، والمعنى: أن يرزقه بدلكن ومكانكن ويعوضه عنكن ﴿أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ أي: أزواجاً خيراً وأفضل منكن مطلقا ديناً ودنيا وهذا لو طلقهن، لكنه لم يطلقهن فبقين هن أمهات المؤمنين وأفضل نساء الأمة ـ رضي الله عنهن.

قال السعدي[1]: «وهذا من باب التعليق الذي لم يوجد، ولا يلزم وجوده، فإنه ﷺ ما طلقهن ولو طلقهن لكان ما ذكره الله عز وجل من هذه الأزواج الفاضلات».

﴿مُسْلِمَٰتٍ﴾ الإسلام: هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك، فمعنى ﴿مُسْلِمَٰتٍ﴾ مستسلمات منقادات ظاهراً بجوارحهن بفعل الأعمال الظاهرة ﴿مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ أي: مصدقات منقادات باطناً بقلوبهن. أي: أنهن منقادات ظاهراً وباطناً.

ويؤخذ من ذكر «مسلمات»، «مؤمنات»، ومن تقديم «مسلمات» على «مؤمنات» أن الإيمان غير الإسلام، وأن الإسلام أعم، وأن الإيمان أخص، وقد سبق الكلام على هذا في سورة الحجرات، وفي سورة الذاريات.

﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾ القنوت دوام الطاعة، أي: مطيعات مديمات لطاعة الله عز وجل، وطاعة أزواجهن.

﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾ أي: راجعات إلى الله ومنيبات إليه.

﴿عَٰبِدَٰتٍ﴾ أي: مخلصات العبودية لله عز وجل متذللات خاضعات له سبحانه، قائمات بما يحب سبحانه.

والعبادة لغة: التذلل والخضوع، وشرعاً: اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ أي: صائمات. بهذا فسرها جمهور السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وهو أقرب.

وقال بعضهم: معنى ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ أي: مهاجرات.

﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ الثيب: التي سبق أن تزوجت، والبكر: التي لم تتزوج بعد، أي: لم تفتض بكارتها. وقد وسط الواو بين ﴿ثَيِّبَٰتٍ﴾ ﴿وَأَبْكَارًا﴾ دون بقية الصفات، لأنهما صفتان متنافيتان، لا يمكن اجتماعهما بخلاف بقية الصفات فقد تجتمع.

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٤٢١.

وقدم الثيبات على الأبكار ـ والله أعلم ـ لأن الثيبات عندهن من التجربة في أمور الحياة والرزانة ما ليس عند الأبكار. ولا تخفى تلك المواقف العظيمة لخديجة رضي الله عنها معه ﷺ وكذا أم سلمة رضي الله عنها، وغيرهما.

ولم يعطف هذه الصفات بعضها على بعض بالواو لأجل التنصيص على ثبوت جميع هذه الصفات لكل واحدة منهن. ولو عطفت بالواو لاحتمل أن بعضهن يتصف بكذا وبعضهن يتصف بكذا، ولهذا لما أريد هذا المعنى في الثيبات والأبكار وسط الواو بينهن لتنافي هتين الصفتين وعدم اجتماعهما أما بقية الصفات فيمكن اجتماعها في الواحدة منهن.

قال السعدي[1]: «فلما سمعن رضي الله عنهن هذا التخويف والتأديب بادرن إلى رضا رسول الله ﷺ فكان هذا الوصف منطبقاً عليهن، فصرن أفضل نساء المؤمنين».

الفوائد والعبر:

١ ـ تصدير الخطاب للنبي ﷺ بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام.

٢ ـ نداؤه ﷺ بوصف النبوة تشريفاً وتكريماً له.

٣ ـ معاتبة الله ـ عز وجل ـ لنبيه ﷺ في تحريمه ما أحل الله له سواء جاريته أو العسل أو غير ذلك.

٤ ـ أنه ﷺ ليس معصوماً عن الوقوع في الصغائر، وكذلك سائر الأنبياء من باب أولى لكنهم يرجعون عنها ويتوبون.

٥ ـ لا يجوز تحريم ما أحل الله من الطيبات كما لا يجوز تحليل ما حرم الله من الخبائث.

٦ ـ الحذر من إرضاء الأزواج، أو الأولاد أو غيرهم فيما يسخط الله.

٧ ـ إثبات اسمين من أسماء الله ـ عز وجل ـ وهما «الغفور» و «الرحيم» وما يؤخذ منهما من إثبات المغفرة التامة لله ـ عز وجل ـ والرحمة الواسعة.

٨ ـ وجوب التحلل من الأيمان والتكفير عنها إذا كانت على تحريم حلال أو تحليل حرام، ووجوب التكفير عنها مطلقاً إذا حصل الحنث فيها.

٩ ـ إثبات ولاية الله ـ عز وجل ـ للمؤمنين ونصره وتأييده وحفظه وتسديده لهم.

١٠ ـ إثبات اسم «العليم» و «الحكيم» من أسمائه عز وجل وأنه عز وجل ذو العلم

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٤٢٢.

التام الواسع والحكم النافذ والحكمة البالغة.

١١ ـ إطلاع الله ـ عز وجل ـ لنبيه ﷺ على شيء مما غاب عنه تأييداً له ﷺ ومن ذلك إظهاره له على إفشاء إحدى زوجاته ما أسر به إليها.

١٢ ـ كرم خلقه ﷺ إذ لم يعاتب من أفشت سره ﷺ إلا على بعض ما حصل منها وأعرض عن بعض.

١٣ ـ إثبات اسم الله ـ عز وجل ـ «الخبير» وما يدل عليه من سعة خبرته عز وجل واطلاعه على بواطن الأمور وخفاياها.

١٤ ـ عتاب الله ـ عز وجل ـ لحفصة وعائشة ـ رضي الله عنهما ـ وحثهما على التوبة مما حصل منهما مما فيه مشقة عليه ﷺ وتحذير هما من التعاون عليه ﷺ.

١٥ ـ تولي الله ـ عز وجل ـ لنبيه ﷺ وتكريمه له وعنايته به وحفظه له ودفاعه عنه بنفسه بجبريل وصالح المؤمنين وملائكته.

١٦ ـ إثبات ربوبية الله الخاصة لنبيه ﷺ ـ لقوله (عسى ربه) وتشريفه ﷺ وتكريمه بها.

١٧ ـ التهديد لأزواج النبي ﷺ بطلاقه لهن واستبدالهن بأزواج خير منهن فيهن أجمل الصفات وأكملها.

١٨ ـ إباحة الطلاق، وأنه جائز له ﷺ أن يطلق من شاء من أزواجه أو يطلقهن كلهن.

١٩ ـ أن الإسلام أعم من الإيمان فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً.

٢٠ ـ الترغيب لأزواج النبي ﷺ ولغيرهن من نساء المسلمين بل وللمسلمين عامة بالاتصاف بالصفات المذكورة، الإسلام والإيمان والقنوت والتوبة والعبادة والسياحة وهي الصيام.

٢١ ـ في تقديم الثيبات على الأبكار في الآية إشارة لمكانتهن لما لهن من التجربة والرزانة والله أعلم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۝٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٨﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ أي: اجعلوا لأنفسكم وأهليكم من أزواج وأولاد وغيرهم وقاية من النار بتقوى الله عز وجل بأنفسكم بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وبتعليم أهليكم من أزواج وأولاد وغيرهم وإرشادهم، وحملهم على تقوى الله عز وجل كما قال ﷺ: «مروا أبناءكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر، وفرقوا بينهم في المضاجع»[1].

وقدّم الأنفس لأن أول ما يجب أن يبدأ به المرء نفسه، فهي أمانة عنده يجب أن يحملها على ما فيه صلاحها واستقامتها وسلامتها ونجاتها، ولهذا جاء في النفقة قوله ﷺ «ابدأ بنفسك ثم بمن تعول»[2].

وقرن الأهل بالأنفس إشارة إلى عظم مسؤولية الإنسان عن أهله كما قال ﷺ: «فالرجل راع ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها» الحديث[3].

وقوله ﴿نَارٗا﴾ بالتنكير، أي: ناراً شديدة عظيمة ليست كناركم المعروفة.

﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ وقودها: ما توقد به أي: أنها توقد بالناس، أي: بجثث بني آدم، وبالحجارة، وليست توقد بالحطب والخشب كنار الدنيا، والمراد بالحجارة حجارة

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة ـ متى يؤمر الغلام بالصلاة ٤٩٥، والترمذي في المواقيت ـ متى يؤمر الصبي بالصلاة ٤٠٥، وأحمد ٣/ ٤٠٤ من حديث سبرة بن معبد الجهني رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح» وأخرجه أبو داود أيضاً من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة ٩٩٧، من حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسم قال: «ابدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شيء فلأهلك، فإن فضل شيء فلذي قرابتك... الخ»، والنسائي في البيوع ٤٦٥٢، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال قال النبي ﷺ: «أفضل الصدقة ما ترك غنى واليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول.. » أخرجه البخاري في النفقات ٥٣٥٥، وأبو داود في الزكاة ١٦٧٦ والنسائي في الزكاة ٢٥٣٤.

(٣) أخرجه البخاري في الجمعة ٨٩٣، ومسلم في الإمارة ١٨٢٩، وأبو داود في الخراج والإمارة والفيء ٢٩٢٨، والترمذي في الجهاد ١٧٠٥ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الكبريت شديدة الاشتعال، وشديدة الحرارة، شديدة النتن، ومن ذلك الأصنام التي تعبد من دون الله من الأحجار وغيرها كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

وهذه الآية كقوله تعالى في سورة البقرة ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [الآية: ٢٤].

﴿عَلَيْهَا﴾ أي: قد أوكل على هذه النار ﴿مَلَٰٓئِكَةٌ﴾ وهم خزنة النار وزبانيتها كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨]، وقال تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٣٠].

ومن هؤلاء الملائكة «مالك» خازن النار كما في قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

﴿غِلَاظٌ﴾ أي: غلاظ القلوب والطباع، قد نزعت الرحمة من قلوبهم بالكافرين.

﴿شِدَادٌ﴾ أقوياء الأجسام تركيبهم في غاية الشدة والضخامة والمنظر المزعج.

﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ «لا» نافية، ومعصية الله مخالفته بترك أمره أو ارتكاب نهيه، وقوله ﴿مَآ أَمَرَهُمْ﴾ في محل نصب بدل من لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ أي: لا يعصون الله ما أمر، أي: أمره.

و«ما» في الموضعين موصولة تفيد العموم، أي: لا يخالفون أمر الله الذي يأمرهم به في أي أمر أمرهم به.

والصفات المنفية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها كما في قوله عز وجل ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

والمعنى هنا إثبات كمال طاعتهم لله عز وجل ومبادرتهم لتنفيذ أمره، وكمال قدرتهم على ذلك وهو ما صرح به في قوله: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي: ويفعلون كل ما يأمرهم الله عز وجل به من غير توان ولا عجز.

وقوله ﴿مَا يُؤْمَرُونَ﴾ دون أن يقول: ما يأمرهم الله به. لأنه معلوم أنه عز وجل هو الذي يأمرهم، ولقوله قبله ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ «يا» حرف نداء، وأي: منادى مبني على الضم في محل نصب، و«الذين» صفة لـ «أي» أو بدل منها «كفروا» صلة الموصول «الذين» أي: الذين جحدوا وأنكروا وجود الله وربوبيته وألوهيته وأسماءه وصفاته وشرعه أو شيئاً من ذلك.

وصدر الخطاب بالنداء للتعظيم والاهتمام والتنبيه لهم. ونودوا بوصف الكفر إهانة وتحقيراً لهم وبياناً أن هذا الوصف وهو الكفر هو الذي أوقعهم فيما هم فيه من العذاب والمصير السيء.

﴿لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ﴾ «لا» ناهية، والاعتذار: تقديم العذر، وطلب المعذرة والمسامحة، والمراد باليوم يوم القيامة المعلوم المعهود الثقيل الشديد.

والمعنى: لا تعتذروا فإنه لا يقبل منكم. وقد يكون النهي هنا بمعنى النفي: أي: لا عذر لكم يوم القيامة.

﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ «إنما» أداة حصر و«ما» موصولة، أو مصدرية، والمعنى: لا تجزون وتحاسبون وتعاقبون إلا بعلمكم أو بالذي كنتم تعملون.

وقال ﴿مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ دون أن يقول: بما كنتم تعملون، فكأن الجزاء هو نفس العمل للإشارة والتنبيه إلى أن الجزاء من جنس العمل تماماً، وأن الإنسان كما يدين يدان كما قال تعالى: ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦] أي: موافقاً لأعمالهم.

والمعنى: لا تعتذروا فلن يقبل منكم، أو لا عذر لكم، ولن تظلموا إنما تجازون بالذي كنتم تعملون من غير زيادة ولا نقص، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٨].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ سبق الكلام عليه في مواضع عدة.

﴿تُوبُوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: ارجعوا إلى الله وأنيبوا إليه، كما قال عز وجل ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ [الزمر: ٥٤].

﴿تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم بضم النون (نُصوحا) وقرأ الباقون بفتحها. و«توبة» مصدر، و«نصوحا» صفة لها، أي: رجعة وأوبة وإنابة صادقة، هي محض الصدق والنصح والإخلاص، لا غش فيها ومنه قوله تعالى: ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩٢].

قال ابن القيم [1]: «النصح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء: الأول: تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها بحيث لا تدع ذنباً إلا تناولته، والثاني: إجماع العزم والصدق بكليته عليها بحيث لا يبقى عنده تردد ولا تلوم ولا انتظار، بل يجمع عليها كل إراداته وعزيمته مبادراً بها، الثالث: تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها، ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته والرغبة فيما لديه، والرهبة مما عنده، لا كمن يتوب لحفظ جاهه وحرمته،

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٨٦ - ٤٨٧.

ومنصبه ورياسته، ولحفظ حاله أو لحفظ قوته وماله، أو استدعاء حمد الناس أو الهرب من ذمهم، أو لئلا يتسلط عليه السفهاء أو لقضاء نهمته من الدنيا أو لإفلاسه وعجزه، ونحو ذلك من العلل التي تقدح في صحتها وخلوصها لله عز وجل. فالأول يتعلق بما يتوب منه، والثالث يتعلق بما يتوب إليه، والأوسط يتعلق بذات التائب ونفسه. فنصح التوبة: الصدق فيها والإخلاص، وتعميم الذنوب بها، ولا ريب أن هذه التوبة تستلزم الاستغفار وتتضمنه وتمحو جميع الذنوب، وهي أكمل ما يكون من التوبة».

أي: توبة صادقة يتوفر فيها شروط التوبة الخمسة، الأول: الإخلاص لله تعالى، فلا تكون خوفاً أو رجاء من غيره ونحو ذلك.

الشرط الثاني: الإقلاع عن المعصية ومن ذلك رد حقوق الآدميين إليهم، فإنه لا يعتبر مقلعاً عن المعصية من لم تزل حقوق الآدميين في ذمته.

الشرط الثالث: الندم على فعل المعصية، وقد قال ﷺ: «الندم توبة»[(١)].

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ عن التوبة النصوح، فقال: «الندم على الذنب حين يفرط منك، فتستغفر الله بندامتك منه عند الحاضر، ثم لا تعود إليه أبداً»[(٢)].

الشرط الرابع: العزم على عدم العودة إليها مرة ثانية، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «التوبة النصوح أن يتوب من الذنب ثم لا يعود فيه»[(٣)]. وروي نحوه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه[(٤)].

الشرط الخامس: أن تكون التوبة في وقتها المناسب، قبل بلوغ الروح الحلقوم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٧، ١٨][(٥)].

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٣٧٦، وابن ماجه في الزهد - ذكر التوبة ٤٢٥٢ - من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٦٢.
(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ١٠٦ - ١٠٧، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٦٢.
(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ١٠٧.
(٥) انظر تفصيل شروط التوبة وأحكامها في «تفسير آيات الأحكام في سورة النساء» ١/ ٣٣٠ - ٣٣٣.

وقال ﷺ: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»[١].

وأن تكون التوبة قبل غلق بابها بطلوع الشمس من مغربها، وفي الحديث «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها»[٢].

وقال ﷺ: «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها»[٣].

وتقبل التوبة من العبد وإن كان مقيما على غيره على الصحيح من أقوال أهل العلم خلافاً للمعتزلة الذين يقولون: لا يعتبر تائباً من أقام على ذنب، لأن من تاب من ذنب يقال له تائب مطلق توبة. ومن عدل الله عز وجل أن يجازيه على توبته من ذلك الذنب، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] لكن لا يستحق الوصف بالتوبة المطلقة إلا من تاب من جميع الذنوب فهذا هو التائب التوبة المطلقة.

وليس من لازم قبول التوبة ولا من شرط صحتها أن لا يقع الإنسان في الذنب مرة أخرى، فمن توفرت فيه شروط التوبة السابقة فتوبته صحيحة، وهي مقبولة بإذن الله عز وجل، فإن عاد للذنب فعليه أن يتوب مرة أخرى، وهكذا ما لم يضمر في نفسه أنه سيعود إلى الذنب فهذا لا تصح توبته لأنه لم يعزم على عدم العودة إلى الذنب، بل أضمر أنه سيعود إليه أو عزم على ذلك فلا معنى لتوبته.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ «عسى» للترجي إذا كانت من المخلوق كما قيل:

عسى الكرب الذي أمسيت فيه ... يكون وراءه فرج قريب[٤]

وقال الآخر:

عسى فـرج يأتي بـه الله إنه ... له كل يوم في خليقته أمر[٥]

وهي من الله واجبة كما قال ابن عباس رضي الله عنهما[٦].

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٥٣٧، وابن ماجه في الزهد ٤٢٥٣، وأحمد ٢/ ١٣٢ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما وقال الترمذي: «حسن غريب» وصححه الحاكم ٢/ ٢٤٩، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد ٢٤٧٩، والدارمي في السير ٢٥١٣ من حديث معاوية رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في التوبة ٢٧٥٩ من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٤) البيت لهدبة بن خشرم وهو في «ديوانه» ص٥٤.

(٥) البيت لمحمد بن إسماعيل كما في «حاشية شذور الذهب» ص٣٥١.

(٦) أخرجه البيهقي في سننه فيما ذكره الزركشي في «البرهان» ٤/ ٢٨٨.

والمعنى: أنها وعد من الله سيتحقق لأنه عز وجل لا يخلف الميعاد ولهذا أضافها إلى اسم الرب، لأنه الذي بيده الخلق والملك والتدبير.

﴿أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ أي: أن يمحو عنكم سيئاتكم ويزيلها، ويسترها عن الخلق، ويتجاوز عن عقوبتها.

والسيئات: جمع سيئة، وهي الذنوب والمعاصي، سميت بذلك لأنها تسوء صاحبها في الحال والمآل، كما قد تسوء غيره بأثرها المباشر إذا كانت متعدية، أو بأثرها العام على البلاد والعباد إذا كانت غير متعدية.

﴿وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: ويدخلكم جنات تجري من تحت أشجارها وغرفها الأنهار المختلفة من أنهار الماء واللبن والخمر والعسل.

فمن تاب إلى الله عز وجل توبة نصوحاً صادقة، فإن الله عز وجل يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار، بل ويبدل سيئاته حسنات كما قال عز وجل ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠].

﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ ﴿يَوْمَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿لَا يُخْزِى ٱللَّهُ﴾ أي: لا يذل ولا يهين ﴿ٱلنَّبِىَّ﴾ «ال» للعهد الذهني، أي: النبي المعهود، محمداً ﷺ، وقد رُويَ أنه ﷺ قال في صلاته يوم الفتح «اللهم لا تخزني يوم القيامة»(١).

وهكذا قال الخليل عليه السلام: ﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء: ٨٧]، وامتن الله عز وجل على نبيه صالح عليه السلام والذين آمنوا معه بقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [هود: ٦٦].

والمعنى: يوم القيامة لا يذل الله النبي والذين آمنوا معه، ولا يهينهم، بل يعزهم ويكرمهم غاية الإكرام وأكمله، لأنهم أكرم الخلق عنده، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

والصفة هنا منفية، والصفات المنفية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها كما في قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨] فقوله ﴿ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ صفة منفية جيء بها لإثبات كمال ضدها، وهي الحياة.

---

(١) اخرجه احمد ٤/ ٢٣٤ ، من حديث يحيى بن حسان عن رجل من بني كنانة قال: صليت خلف النبي ﷺ عام الفتح، فسمعته يقول: «اللهم لا تخزني يوم القيامة».

﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي: نور النبي ﷺ والمؤمنين معه يسير أمامهم يستضيؤن به، وعن أيمانهم لفضل اليمن ـ في عرصات القيامة على قدر أعمالهم [١].

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ الجملة حالية، أي: حال كونهم يقولون: يا ربنا، خالقنا ومالكنا ومدبر أمورنا اجعل نورنا تاماً كاملاً مستمراً معنا، وذلك عندما يرون نور المنافقين قد انطفأ.

﴿وَٱغْفِرْ لَنَآ﴾ أي: استر ذنوبنا عن الخلق وتجاوز عن عقوبتنا عليها.

﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: إنك ذو قدرة تامة على كل شيء، لا يعجزك شيء مهما كان. وقدم المتعلق، وهو قوله ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ لتأكيد عموم قدرته ونفوذها في كل شيء.

عن أبي ذر وأبي الدرداء رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول من يؤذن له في السجود يوم القيامة، وأول من يؤذن له برفع رأسه، فأنظر بين يدي فأعرف أمتي من بين الأمم، وأنظر عن يميني فأعرف أمتي من بين الأمم، وأنظر عن شمالي فأعرف أمتي من بين الأمم» فقال رجل: يا رسول كيف تعرف أمتك من بين الأمم؟ قال: «غر محجلون من آثار الطهور، ولا يكون أحد من الأمم كذلك غيرهم، وأعرفهم أنهم يؤتون كتبهم بأيمانهم، وأعرفهم بسيماهم في وجوههم من أثر السجود، وأعرفهم بنورهم بين أيديهم» [٢].

الفوائد والعبر:

١ ـ تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء تنبيها لعظم الأمر وأهميته.

٢ ـ نداء المؤمنين بوصف الإيمان تشريفاً وتكريماً لهم وحثا على الاتصاف بهذا الوصف، وعلى امتثال ما بعد هذا النداء من أوامر.

٣ ـ وجوب السعي في تخليص الأنفس والأهل من الأزواج والأولاد والوالدين والأقارب وغيرهم من النار بحملهم على طاعة الله تعالى وتقواه.

٤ ـ شدة النار وعظمها وأن وقودها الكفرة من الناس وحجارة الكبريت التي هي في غاية الحرارة.

---

(١) انظر الكلام على قوله تعالى في سورة الحديد: ﴿يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم﴾ [الآية: ١٢].

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ١٩٩.

٥ ـ غلظة زبانية جهنم وشدتهم وعدم معصيتهم لله، وفعلهم ما يؤمرون به من تعذيب الكفرة المجرمين والعصاة وغير ذلك وفي هذا أشد التحذير منهم.

٦ ـ الإيمان بوجود الملائكة وطاعتهم المطلقة لله عز وجل بلا معصية.

٧ ـ الوعيد والتهديد للكافرين وأنه لا يقبل منهم الاعتذار يوم القيامة.

٨ ـ أن الجزاء من جنس العمل، وكما يدين المرء يدان وما ربك بظلام للعبيد.

٩ ـ وجوب التوبة إلى الله توبة صادقة نصوحا.

١٠ ـ وعد الله ـ عز وجل ـ الذي لا يتخلف لمن تابوا وأنابوا إليه بتكفير سيئاتهم وإدخالهم جنات تجري من تحتها الأنهار يوم إكرامه عز وجل لنبيه ﷺ والمؤمنين غاية الإكرام وأكمله.

١١ ـ كما استنار النبي ﷺ والمؤمنون بنور الله بالإيمان والعمل الصالح في الدنيا كان ذلك لهم نوراً في عرصات القيامة يسعى أمامهم وعن أيمانهم مغتبطين به يسألون الله إتمام نورهم ومغفرته.

١٢ ـ إثبات ربوبية الله الخاصة للمؤمنين، وتكريمهم بها.

١٣ ـ إثبات قدرة الله ـ عز وجل ـ التامة، وأنه على كل شيء قدير.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٩ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ۝١٠ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١١ وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ۝١٢﴾

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ سبق الكلام عليه في مطلع السورة.

﴿جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ أي: ابذل الجهد في قتال الكفار الذين أظهروا الكفر بالله ورسوله بالسيف والسنان وجاهد المنافقين الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر بالحجة والبرهان ودحض شبههم وفضح نفاقهم.

﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ أي: شدد الغلظة عليهم، ولا تلن معهم، وهو أمر له ﷺ وللمؤمنين كما قال تعالى في وصفهم ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ﴾ [المائدة: ٥٤].

﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ﴾ أي: ومأواهم الذي يأوون إليه ومصيرهم في الآخرة ﴿جَهَنَّمُۖ﴾ أي: النار، وسميت بجهنم لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها وشدة حرها أعاذنا الله وجميع المسلمين منها.

﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي: وبئس المرجع والمآل جهنم، وبئس المصير مصيرهم.

ولا يُقدر شدة قبح هذا المصير وسوئه، إلا الذي وصفه بهذا الوصف وهو العليم الخبير.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ۝١٠ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

ضرب المثل: هو تقريب الأمر والشيء المعنوي المعقول بتشبيهه بالشيء المحسوس لزيادة الإيضاح والبيان، والمثل: الشبه.

قال السعدي [١]: «هذان المثلان اللذان ضربهما الله للمؤمنين والكافرين، ليبين لهم أن اتصال الكافر بالمؤمن، وقربه منه، لا يفيده شيئا، وأن اتصال المؤمن بالكافر، لا يضره، مع قيامه بالواجب عليه، فكأن في ذلك إشارة وتحذيراً لزوجات النبي ﷺ عن المعصية،

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٤٢٥.

وأن اتصالهن به ﷺ لا ينفعهن شيئا مع الإساءة».

قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: في عدم انتفاعهم من صلتهم بالمؤمنين ومعاشرتهم لهم وقربهم منهم.

﴿ٱمْرَأَتَ نُوحٍ﴾ أي: امرأة نبي الله ورسوله «نوح» عليه السلام، الذي هو أول رسل الله عز وجل وأحد أولي العزم من الرسل.

﴿وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾ أي: وامرأة نبي الله عز وجل ورسوله لوط عليه السلام.

﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ﴾ أي: في عصمتهما والمراد بالعبودية هنا العبودية الخاصة، ولم يقل تحت نبيين أو رسولين، وإنما وصفهما بالعبودية لأن العبودية لله هي أشرف ما يتصف به البشر، ولهذا وصف الله بها أفضل رسله محمداً صلى الله عليه في أعلى المقامات وهو مقام العبادة فقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، وفي مقام الإسراء فقال: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١].

﴿صَـٰلِحَيْنِ﴾ أي: مخلصين العبادة لله عز وجل، متبعين ما جاء عنه سبحانه وتعالى.

﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ بعدم اتباعهما، وكفرتا بالله، وليس المراد بالخيانة فعل الفاحشة فإن نساء الأنبياء عليهم السلام معصومات عن الوقوع في الفاحشة، لحرمة الأنبياء عليهم السلام.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾: «ما زنتا، أما امرأة نوح فكانت تقول للناس: إنه مجنون، وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدل قومها على أضيافه»[١].

﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي: فلم يغن نوح ولوط عليهما السلام مع مكانتهما عند الله وكونهما من رسله ﴿عَنْهُمَا﴾ أي: عن زوجتيهما ﴿مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي: فلم يستطيعا هدايتهما، ولم يدفعا أو يمنعا عنهما عذاب الله، لأنهما كفرتا بالله ﴿وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ أي: وقيل لهما، أي: للزوجتين ﴿ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ أي: مع جملة الداخلين فيها، وفي عدادهم.

قال ابن القيم[٢]: «قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ كأن الكون كله نطق بذلك وقاله لهما».

وقال أيضاً[٣]: «فتضمن مثل الكفار: أن الكافر يعاقب على كفره وعداوته لله

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ١١١ - ١١٢.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٩٠.

(٣) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٨٧ - ٤٨٨.

ورسوله وأوليائه، ولا ينفعه مع كفره ما كان بينه وبين المؤمنين من لحمة نسب أو صلة صهر أو سبب من أسباب الاتصال، فإن الأسباب كلها تنقطع يوم القيامة إلا ما كان منها متصلا بالله وحده على أيدي رسله، فلو نفعت وصلة القرابة والمصاهرة أو النكاح مع عدم الإيمان، لنفعت الوصلة التي كانت بين نوح ولوط وامرأتيهما فلما لم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين قطعت الآية حينئذ طمع من ركب معصية الله وخالف أمره ورجا أن ينفعه صلاح غيره من قريب أو أجنبي، ولو كان بينهما في الدنيا أشد الاتصال فلا اتصال فوق اتصال البنوة والأبوة والزوجية، ولم يغن نوح عن ابنه، ولا إبراهيم عن أبيه ولا نوح ولا لوط عن امرأتيهما قال تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْۚ﴾ [الممتحنة: ٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [الانفطار: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔاۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ﴾ [الروم: ٣٣]».

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

هذا المثل في مقابلة المثل الأول: فضرب الله أولاً مثلاً للذين كفروا لا تنفعهم صلتهم بالمؤمنين الصالحين وقربهم منهم، ثم ضرب مثلاً للذين آمنوا لا تضرهم صلتهم وقرابتهم للكافرين مع قيامهم بالواجب عليهم تجاههم كما قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةًۗ﴾ [آل عمران: ٢٨].

قال قتادة: «كان فرعون أعتى أهل الأرض وأبعدهم، فوالله ما ضر امرأته كفر زوجها حين أطاعت ربها لتعلموا أن الله حكم عدل، لا يؤاخذ أحداً إلا بذنبه»(١).

وفرعون هو ملك مصر في عهد موسى عليه السلام وهو الذي ادعى الربوبية وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] كما ادعى الألوهية فقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨] أهلكه الله ومن معه بالغرق، وامرأته هي: آسية بنت مزاحم ـ رضي الله عنها.

﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: حين ﴿قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى﴾ أي: يارب ابن لي، ونادته سبحانه باسم الربوبية الذي معناه: الخالق المالك المدبر، ليكون أنجع في طلبها، فكأنها تقول: يا من له الخلق والملك والتدبير ﴿ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ١١٥ – ١١٦.

وقدمت ﴿عِندَكَ﴾ على ﴿بَيْتًا﴾ فاختارت الجار قبل الدار ـ رضي الله عنها ويؤخذ من هذا فضل جوار الله عز وجل وأنه نعم الجوار، والترغيب في طلب جواره عز وجل بالعمل الصالح والدعاء.

كما يؤخذ منه درس لاختيار الجار حتى في هذه الدار، وهذا أمر يغفل عنه الكثيرون، يأخذون في الحسبان عرض الشوارع المحيطة بالأرض وكونها جنوبية أو شرقية، لا غربية ولا شمالية وينسون اختيار الجار، وهو أهم من ذلك.

لأن الجار إما أن يكون تقيا محسناً فتسعد به وإما أن يكون جار سوء فينغص عليك عيشك، إما بكونه لا يصلي، أو بفسقه، أو بكونه يلتقط على جاره الزلات، ويتتبع العورات، ولا تؤمن بوائقه.

فالأول كجار ذلك الذي ألمت به الحاجة وركبته الديون فاضطر إلى بيع بيته فاشْتُري منه بثلاثمائة ألف درهم، ولما جاء المشتري ليستلم البيت قال له صاحبه أعطني أيضاً ثلاثمائة درهم أخرى، فقال له المشتري مقابل ماذا؟ فقال له: مقابل جوار فلان فقال له: أنا لم أشتر منك جوار فلان أنا اشتريت منك الدار فقال البائع: إذاً أنا لا أبيعك الدار، فعلم جاره ـ ذلك الجار الذي لا يباع جواره بالنقود ـ علم حاله وأنه إنما باع داره اضطراراً لديون ركبته وحاجة فأعطاه ثلاثمائة ألف درهم وقال له اجلس في بيتك وأوف ديونك.

وهكذا رُويَ أن عبد الله بن المبارك العالم الزاهد وقد كان جاراً في خراسان ليهودي، وكان رحمه الله كلما كسا أولاده أو اشترى لهم شيئاً من الفواكه أو الحلوى أو اللحم أو غير ذلك يفعل ذلك مع أولاد جاره اليهودي فيكسوهم ويطعمهم مع أولاده فاضطر اليهودي لبيع داره فأعطي فيها ألف دينار فطلب ألف دينار آخر مقابل جوار عبد الله بن المبارك رضي الله عنه وأسلم. وقال: أشهد والله أن دينا أخرجك دين حق.

ولسنا نطالب الجيران بكل هذا ولا ببعضه، إنما نطالبهم بحسن الجوار، والألفة والسلام، والصلاة مع جماعة المسجد، والتعاون على البر والتقوى.

وأما النوع الثاني من الجيران وهو جار السوء المؤذي لجيرانه بقوله وفعله، والذي لايسلم جيرانه من تبعاته لتخلفه عن الصلاة وارتكابه المنهيات وتتبعه الزلات والعورات، ونحو ذلك فهو الذي أمر النبي ﷺ بالاستعاذة منه فقال: «تعوذوا بالله من جار السوء في دار المقام»[1].

وهذا ينطبق عليه قول القائل:

---

(١) أخرجه النسائي في الاستعاذة، ٥٥٠٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذا عوى وصـــوَّت إنســـان فكدت أطيـــر

فالكلاب أحسن جواراً منه، لأنها قد تحرس المنزل، وتأكل بقايا الطعام أما الجار الذي هذه صفته وبخاصة إذا كان لا يصلي أو يظهر فسقه فإنه أشبه بالنار المحرقة يخشى أن تلتهم بيت الجار فانتبه أخي الكريم لهذا وارغب في جوار الله عز وجل بالعمل الصالح مع دعاء الله وسؤاله واختر من الجيران في الدنيا من يكون عوناً لك على أمر دينك ودنياك أو من تسلم من شره على الأقل، ولا إخالك سالماً.

قوله: ﴿وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ أي: خلصني وأنقذني من فرعون وتعذيبه ومن عمله السيء وكفره وهي في هذا تعلن براءتها منه ومن عمله.

عن سلمان رضي الله عنه قال: «كانت امرأة فرعون تعذب في الشمس فإذا انصرف عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها، وكانت ترى بيتها في الجنة»[1].

﴿وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي: وخلصني وانقذني من فرعون وقومه الظالمين، الذين ارتكبوا أعظم الظلم وهو الكفر والشرك بالله والظلم لمن آمن من عباد الله كآسية رضي الله عنها.

فالتجأت رضي الله عنها إلى من إليه الملتجأ كما كان دعاء أنبياء الله عز وجل والمؤمنين، قال نوح عليه السلام: ﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٨]، وقال لوط عليه السلام: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٩]، وقال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢١]، وقال قوم موسى عليه السلام: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [يونس: ٨٦].

قال ابن القيم[2]: «ووجه المثل: أن اتصال المؤمن بالكافر لا يضره شيئا إذا فارقه في كفره وعمله، فمعصية الغير لا تضر المؤمن المطيع شيئاً في الآخرة وإن تضرر بها في الدنيا بسبب العقوبة التي تحل بأهل الأرض إذا أضاعوا أمر الله، فتأتي عامة فلم يضر امرأة فرعون اتصالها به وهو من أكفر الكافرين ولم ينفع امرأة نوح ولوط اتصالهما بهما، وهما رسولا رب العالمين».

قوله: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ﴾ كقوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ١١٥.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٤٨٨.

فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الآية: ٩١].

ومعنى ﴿ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي: التي حفظت فرجها من الحرام وصانته بالعفاف.

﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ أي: فنفخنا في فرجها روحاً ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ أي: من أرواحنا التي ننفخها في المخلوقات، فتدب فيها الحياة كما قال تعالى عن آدم: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩، ص: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ [السجدة: ٩].

وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في خلق الإنسان: «ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح»[1].

فأرسل الله عز وجل جبريل عليه السلام والذي هو الروح كما قال عز وجل ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣]، وقال تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤]، وقال تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: ٤]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ [النبأ: ٣٨] والمراد بالروح في هذه الآيات جبريل عليه السلام.

وقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝١٧ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ۝١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٧ - ١٩]. فنفخ عليه السلام بفيه بفرجها فخُلق عيسى عليه السلام بأمر الله عز وجل كما قال عز وجل ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١] أي: أن الله عز وجل خلق عيسى عليه السلام من أم بلا أب بقوله: «كن» كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

قال الطبري[2]: «يقول: فنفخنا فيه، في جيب درعها، وذلك فرجها ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ من جبريل، وهو الروح».

وقال ابن كثير[3]: «أي: بواسطة الملك، وهو جبريل، فإن الله بعثه إليها، فتمثل لها في صورة بشر سوي، وأمره الله تعالى أن ينفخ بفيه في جيب درعها، فنزلت النفخة فولجت في فرجها، فكان منه الحمل بعيسى عليه السلام».

﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب وحفص عن عاصم بضم

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ـ خلق آدم ٣٣٢٢، ومسلم في القدر ٢٦٤٣، وأبو داود في السنة ٤٧٠٨، والترمذي في القدر ٢١٣٨، وابن ماجه في المقدمة ٧٦، وأحمد ١/ ٣٨٢، ٤٣٠.

(٢) في «جامع البيان» ٢٣/ ١١٦.

(٣) في «تفسيره» ٨/ ٢٠٠.

الكاف والتاء من غير ألف على الجمع، وقرأ الباقون بكسر الكاف وفتح التاء وألف بعدها على الإفراد.

أي: وصدقت بكلمات ربها الشرعية والقدرية، قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

وقال عن عيسى عليه السلام: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٧١].

﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ أي: وكتبه التي أنزلها على أنبيائه ورسله.

قال الطبري [(١)]: «وآمنت بعيسى، وهو كلمة الله ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ التوراة والإنجيل».

﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ أي: من المطيعين الصديقين، المداومين على طاعة الله عز وجل بخشية وخشوع كما قال تعالى ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «خط رسول الله ﷺ في الأرض أربعة خطوط، وقال: «أتدرون ما هذا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. فقال رسول الله ﷺ: «أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم ابنة عمران، وآسية ابنة مزاحم امرأة فرعون»[(٢)].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»[(٣)].

وفي ختم هذه السورة بهذه الأمثال الثلاثة ما يناسب ما بدئت به السورة، وهو ذكر أزواج النبي ﷺ، وما حصل منهن، كما جاء في سبب النزول، ففي ضرب المثل الأول تحذيرهن من التظاهر عليه ﷺ، وتخويفهن وغيرهن من معصية الله ورسوله، وتذكيرهن وغيرهن بأنه لم ينفع امرأة نوح وامرأة لوط كونهما تحت نبيين من أنبياء الله عز وجل.

وفي ضرب المثل الثاني حث لأزواج النبي ﷺ وغيرهن على التمسك بطاعة الله ورسوله.

وفي ضرب المثل بمريم إشارة إلى أنه لم يضرها قذف أعداء الله اليهود ونسبتهم إياها وابنها إلى ما برأهما الله منه، وهي الصديقة الكبرى المصطفاة على نساء العالمين. فلا يضر في الرجل الصالح قدح الفجار والفساق فيه. وفي هذا تسلية لعائشة رضي الله عنها أم المؤمنين إن كانت السورة نزلت بعد قصة الإفك.

---

(١) في «جامع البيان» ٢٣/ ١١٧.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ٢٩٣.

(٣) أخرجه البخاري في الأنبياء ـ باب قول الله تعالى: ﴿ وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون ﴾ ٣٤١١، ومسلم في الفضائل ـ فضائل خديجة أم المؤمنين ٢٤٣١، والنسائي في عشرة النساء ٣٩٤٧، والترمذي في الأطعمة ١٨٣٤، وابن ماجه في الأطعمة ٣٢٨٠.

فتضمنت هذه الأمثال الثلاثة التخويف والتحذير لأزواج النبي ﷺ ولغيرهن من معصية الله ورسوله، والحث لهن ولغيرهن على الطاعة، والتسلية وتوطين النفس لمن أوذي منهن أو من غيرهن.

الفوائد والعبر:

١ ـ تصدير الخطاب للنبي ﷺ بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام، ونداؤه بوصف النبوة تشريفاً له وتكريماً.

٢ ـ وجوب مجاهدة الكافرين الصادين عن دين الله بالسيف والسنان، ومجاهدة المنافقين بالحجة والدليل والبرهان والغلظة عليهم.

٣ ـ أن مآل الكافرين والمنافقين ومأواهم ومصيرهم نار جهنم وبئس المصير.

٤ ـ ضرب الأمثال للناس في القرآن لتقريب المعاني وهداية الخلق وإقامة الحجة عليهم.

٥ ـ أن اتصال الكافرين بالمؤمنين وقربهم منهم لا ينفعهم ولا يدفع عنهم عذاب الله ولهذا لم ينفع امرأة نوح وامرأة لوط كونهما تحت نبيين من أنبياء الله ـ عز وجل.

٦ ـ شرف العبودية لله عز وجل لهذا وصف الله بها نبيه نوحاً ولوطاً عليهما السلام، كما وصف بها غيرهما من رسله وبخاصة سيد الرسل محمد ﷺ.

٧ ـ خيانة امرأة نوح عليه السلام له بمخالفته وتكذيبه ورميه بالجنون مع قومها ولهذا استحقت دخول النار والخلود فيها.

٨ ـ خيانة امرأة لوط عليه السلام له بمخالفته وتكذيبه ودلالة قومه على ضيوفه لهذا استحقت دخول النار والخلود فيها.

٩ ـ أن اتصال المؤمنين بالكافرين وقرابتهم لهم لا تضرهم إذا قاموا بالواجب عليهم تجاههم لهذا لم يضر امرأة فرعون كونها تحت فرعون لما آمنت بالله ـ عز وجل.

١٠ ـ ثناء الله ـ عز وجل ـ على آسية امرأة فرعون في إيمانها وطلبها جوار ربها والنجاة من فرعون وعمله ومن القوم الظالمين.

١١ ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة بأوليائه.

١٢ ـ أهمية اختيار الجار قبل الدار لقول آسية رضي الله عنها ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ ولم تقل (بيتاً عندك) بل اختارت الجار قبل الدار فقالت (عندك بيتاً).

١٣ ـ ثناء الله ـ عز وجل ـ على مريم ابنة عمران عليها السلام بإحصانها لفرجها وحفظها له وتصديقها بكلمات ربها الشرعية والقدرية وكتبه ومداومتها على الطاعة ولهذا طهرها الله واصطفاها على نساء العالمين.

١٤ ـ إيجاد عيسى بن مريم عليه السلام من أنثى بلا ذكر حيث أرسل الله ـ عز وجل «الروح الأمين» جبريل عليه السلام إلى مريم عليها السلام فنفخ فيها من روحه بأمره عز وجل.

تفسير سورة الملك

فضلها:

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن رسول الله ﷺ قال: «إن سورة في القرآن ثلاثين آية شفعت لصاحبها حتى غفر له: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾»[1].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سورة في القرآن خاصمت عن صاحبها حتى أدخلته الجنة: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾»[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ضرب بعض أصحاب النبي ﷺ خباءه على قبر، وهولا يحسب أنه قبر، فإذا فيه إنسان يقرأ سورة تبارك الذي بيده الملك حتى ختمها، فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني ضربت خبائي على قبر، وأنا لا أحسب أنه قبر، فإذا إنسان يقرأ سورة تبارك الملك حتى ختمها، فقال رسول الله ﷺ: «هي المانعة، هي المنجية، تنجيه من عذاب القبر»[3].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ (ألم تنزيل)، و (تبارك الذي بيده الملك)»[4].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾.

قوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾. ﴿تَبَٰرَكَ﴾: أي: تعاظم وتعالى وكثر خيره وإنعامه وعم إحسانه، وهذا ثناء وتمجيد من الله عز وجل لنفسه الكريمة، لأنه سبحانه أهل الثناء والمجد

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة ١٤٠٠، والترمذي في فضائل القرآن ٢٨٩١، وابن ماجه في الأدب ٣٧٨٦، وأحمد ٢/ ٢٩٩، ٣٢١، وقال الترمذي: «حديث حسن».

(٢) رواه الطبراني والحافظ المقدسي – فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٢٠١.

(٣) أخرجه الترمذي في فضائل القرآن – ماجاء في سورة الملك ٢٨٩٠، وابن ماجه في الأدب – ثواب القرآن ٣٧٨٦. وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

(٤) أخرجه الترمذي في الموضع السابق ٢٨٩٢.

والتعظيم، ولهذا كان ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الركوع: «ربنا لك الحمد ملء السموات والأرض وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»(١).

وقال عز وجل في الحديث القدسي: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار»(٢).

﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ أي: الذي من عظمته أن بيده الملك كله، علويه وسفليه، السموات والأرض ومن فيهن، وما بينهن، مالكه وخالقه والمتصرف فيه كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وقال عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [المائدة: ١٧]، وقال تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [يس: ٨٣].

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: وهو – سبحانه – ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أياً كان هذا الشيء صغيراً أو كبيراً خفياً أو جلياً، دقيقاً أو جليلاً، أو غير ذلك ﴿قَدِيرٌ﴾ أي: ذو قدرة تامة نافذة لأنه عز وجل لا يعجزه شيء كما قال عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر: ٤٤].

وقدم المتعلق وهو قوله (على كل شيء) لتأكيد كمال قدرته عز وجل وشمولها لكل شيء، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه، لحكمته وعدله وقهره، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾ [آل عمران: ١٨٩]، وقال تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾﴾ [الحديد: ٢].

وقد أثنى المولى عز وجل على نفسه هنا بقوله ﴿تَبَٰرَكَ﴾ مقروناً بذكر كمال ملكه وقدرته وعظيم آياته في الكون من خلق الموت والحياة وابتلاء الناس أيهم أحسن عملاً وخلق السموات وغير ذلك كما قال تعالى: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [الزخرف: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة ٤٧٧، وأبو داود في الصلاة ٨٤٧، والنسائي في التطبيق ١٠٦٨ من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٦٢٠، وأبو داود في اللباس ٤٠٩٠، وابن ماجه في الزهد ٤١٧٤ – من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه.

وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان: ٦١، ٦٢].

وأثنى على نفسه عز وجل بقوله ﴿تَبَارَكَ﴾ مقروناً بذكر انفراده بالخلق والأمر وربوبيته للعالمين كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤]. وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [غافر: ٦٤].

ومقروناً بذكر أطوار خلق الإنسان كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٢ – ١٤].

وأثنى على نفسه – سبحانه – بقوله ﴿تَبَارَكَ﴾ مقروناً بذكر امتنانه بإنزال القرآن الكريم وملكه السموات والأرض ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان: ١، ٢].

وأثنى على نفسه بذلك مقروناً بوعده عز وجل لنبيه ﷺ بعظم الثواب كما في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾﴾ [الفرقان: ١٠].

ومقروناً باسمه عز وجل وربوبيته لنبيه ﷺ، ووصفه عز وجل بالعظمة والإكرام في قوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ [الرحمن: ٧٨].

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ هذا وما بعده إلى قوله ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ تفصيل واستدلال على كمال ملكه عز وجل وتمام قدرته على كل شيء، بدأه عز وجل بذكر خلق الموت والحياة والحكمة من ذلك، ثم بذكر خلق السموات السبع الطباق بلا تفاوت ولا فطور وتزيين السماء الدنيا بمصابيح وجعلها رجوماً للشياطين.

ومعنى قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ أي: الذي قدر الموت والحياة أزلاً وأوجدهما في الحيوان والنبات، كما قال عز وجل: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾﴾ [النجم: ٤٤].

فأوجد عز وجل عنصر الحياة بنفخ الروح في البدن، وعنصر الموت بمفارقة الروح للبدن، والتي لا يعلم حقيقتها إلا الله عز وجل كما قال عز وجل: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥].

وأوجد الخلائق من العدم وأحياهم بعد أن كانوا أمواتاً ثم يميتهم ثم يحييهم، كما قال عز وجل: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [الحج: ٦٦]، وقال تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١]، وقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الجاثية: ٢٦].

فسمى ما قبل الخلق - وهو العدم - موتاً - ولهذا قدم ذكر الموت على الحياة في قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ لأن الموت سابق للحياة.

فسبحان من أوجد الإنسان في هذه الحياة، فأصبح بها يؤمل الآمال العظيمة ليعمر هذا الكون بأمر الله عز وجل حتى إن الساعة لتقوم ورجل يحمل فسيلة نخل ليغرسها[1]، فالله أكبر.

وسبحان من فضح الدنيا بالموت فلم يدع لذي لب فيها فرحاً، أذل الجبابرة، وقصر الأقاصرة، وفي هذا وذاك نعمة من الله عز وجل على الخلائق إذ في إحيائهم نعمة من الله ـ عز وجل ـ عليهم ليعملوا صالحاً يسعدوا به في دنياهم وأخراهم، وفي إماتتهم جميعاً عدل بينهم ليبعثهم جميعاً ويجازيهم بأعمالهم وينتصر لمظلومهم من ظالمه.

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ اللام للتعليل، أي: لأجل أن يبلوكم، ويختبركم ويمتحنكم والخطاب للناس عامة. وهذه الآية كقوله ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝﴾ [الكهف: ٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

والابتلاء: الاختبار والامتحان، ويكون بالخير والشر كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

---

(١) قال ﷺ: «إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليفعل»، أخرجه أحمد ٣/ ١٨٤، ١٩١ ـ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

قال الشاعر:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ... ويبتلي الله بعض القوم بالنعم

أي: إن الله عز وجل أحياكم وأوجدكم لأجل أن يبلوكم ويختبركم ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ كما قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦].

قال الفضيل بن عياض: «﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: أخلصه وأصوبه، لأن العمل إن كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل وإن كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، فلابد من كون العمل خالصاً صواباً.

قال ابن كثير[1]: «أي: ليختبركم ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ولم يقل: أكثر عملاً، بل أحسن عملاً، ولا يكون العمل حسناً، حتى يكون خالصاً لله عز وجل على شريعة رسول الله ﷺ، فمتى فقد العمل واحداً من هذين الشرطين بطل وحبط».

فالمهم في العمل أن يكون خالصاً لله عز وجل، صواباً على سنة رسول الله ﷺ.

ولهذا قال أبو بكر المزني رحمه الله: «ما سبق أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام، ولكن بشيء وقر في قلبه»[2].

فالعبرة بالكيف لا بالكم، ولهذا قال ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس»[3].

وقال ﷺ: «أفضل الصدقة جهد المقل»[4].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «سبق درهم مائة ألف درهم»[5].

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ أي: وهو - سبحانه - العزيز، ذو العزة التامة: عزة الامتناع، وعزة القوة، وعزة القهر والغلبة[6].

وهو - سبحانه - «الغفور» ذو المغفرة الواسعة، وهي: ستر ذنوب عباده عن الخلق،

---

(١) في «تفسيره» ٤/ ٢٤١ وانظر ٢/ ٣٧٤.

(٢) ذكره في «المقاصد الحسنة» ص٣٦٩ حديث ٩٧٠، وانظر «التفسير الكبير» ١١/ ٩.

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٤٦، ومسلم في الزكاة ١٠٥١، والترمذي في الزهد ٢٣٧٣، وابن ماجه في الزهد ٤١٣٧ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) كما في حديث عبد الله بن حبشي الخثعمي - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ سئل أي الصدقة أفضل؟ قال: «جهد المقل» أخرجه أبو داود في الصلاة ١٤٤٩، والنسائي في الزكاة ٢٥٢٦.

(٥) أخرجه النسائي في الزكاة - باب جهد المقل ٢٥٢٧، وأخرجه أحمد ٢/ ٣٧٩ بلفظ «سبق درهم درهمين».

(٦) راجع ما سبق في الكلام على قوله ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ في مطلع سورة الحديد.

والتجاوز عن العقوبة عليها، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]، وقال عز وجل: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾ [الرعد: ٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ [فصلت: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾ [المدثر: ٥٦].

ومن المهم هنا أن نلمح المعنى العظيم، وهو كمال الصفة باقتران اسميه عز وجل «العزيز» و«الغفور» فله العزة التامة، والمغفرة الواسعة، وله كمال الاتصاف بهتين الصفتين مقترنتين بكون مغفرته مع عزة، وعزته مع مغفرة، فهو كمال إلى كمال.

وهذا بخلاف المخلوق الضعيف - ولله المثل الأعلى - فإن اعتز فقد تحمله عزته على عدم الستر والتجاوز، بل قد يغتر بها فتحمله على الظلم والغشم، وإن غفر وستر وتجاوز فقد يكون بسبب ضعفه لا عن عزة.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ أي: أوجد سبع سموات (طباقا) أي كل واحدة فوق الأخرى، طبقة فوق طبقة، وكل سماء مقبية على الأخرى وكل واحدة منهن أوسع من التي تحتها سعة عظيمة فأصغرهن السماء الدنيا وأعظمهن وأوسعهن السماء السابعة، وليس معنى ذلك أن كل واحدة منهن ملتصقة بالأخرى، وقد دل على هذا حديث الإسراء كما في رواية أنس بن مالك رضي الله عنه وغيره: «أنه يعرج به ﷺ من سماء إلى سماء حتى انتهى إلى السماء السابعة»[(١)].

وفي حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «هل تدرون كم بين السماء والأرض؟، قلنا الله ورسوله أعلم، قال: بينهما مسيرة خمسمائة سنة، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة، وكثف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة، وبين السماء السابعة والعرش بحر، بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، والله تعالى فوق ذلك، وليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم»[(٢)].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام، وبين كل سماء خمسمائة عام وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي والماء خمسمائة عام، والعرش فوق الماء والله فوق العرش لا يخفى عليه شيء من أعمالكم»[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة ٣٤٩، ١٦٣، ومسلم في الإيمان ـ الإسراء برسول الله ﷺ.
(٢) أخرجه أبو داود في السنة ٤٧٢٣، والترمذي في تفسير القرآن ٣٣٢٠، وابن ماجه في المقدمة ١٩٣.
(٣) أخرجه ابن مهدي فيما ذكره شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في كتاب التوحيد انظر: «تيسير العزيز الحميد» ص٧٣٥. وأخرجه بمعناه الدارمي في «الرد على الجهمية» ص٢١ وابن خزيمة في التوحيد ص٧٠، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/٧٨.

﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ﴾ «ما» نافية، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له الخطاب، أي: ما تشاهد أيها الناظر والمتأمل في خلق الرحمن من تفاوت، ولم يقل ما ترى فيهن من تفاوت تعظيماً لخالقهن وتنبيها على سبب سلامتهن من التفاوت وهو كونهن خلق الرحمن – سبحانه – و(الرحمن) هو الله – عز وجل – كما قال عز وجل ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَۖ﴾ [الإسراء: ١١٠]، وكما قال عز وجل في الفاتحة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝﴾ [الآيتان: ٢، ٣].

وقال عز وجل: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢]. وكما في البسملة ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

﴿مِن تَفَٰوُتٍۖ﴾ قرأ حمزة والكسائي (تفوُّت) بضم الواو مشددة من غير ألف، وقرأ الباقون (تفاوت) بالألف والتخفيف.

و«من» في قوله ﴿مِن تَفَٰوُتٍۖ﴾: زائدة من حيث الإعراب مؤكدة للنفي من حيث المعنى أي: ما ترى وتشاهد أيها الناظر المتأمل في خلق الرحمن تفاوتاً أيَّ تفاوت مهما قل.

والتفاوت: الاختلاف والتنافر والخلل والنقص والعيب والاضطراب وعدم التناسب.

﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ أي: انظر إلى السماء ببصرك وتأمل فيها جيدا هل ترى وتشاهد فيها ﴿مِن فُطُورٍ﴾ أي: من شقوق وصدوع وفتوق أو خلل ونقص وعيب، و«من» كسابقتها زائدة من حيث الإعراب مؤكدة للنفي.

﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ أي: مرتين.

﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ أي: يرجع إليك البصر ذليلاً صاغراً.

﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ الواو: حالية، أي: حال كونه حسيراً، أي: كليل منقطع نظره من الإعياء من كثرة التكرار وعدم وجود النقص.

والمعنى: فارجع البصر وكرره مرة بعد أخرى، فمهما كررت سيرجع إليك البصر ذليلاً صاغراً وهو كليل منقطع من الإعياء من كثرة التكرار عاجزاً أن يرى فطوراً وشقوقاً أو عيباً وخللاً في خلق السموات.

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِۖ﴾.

بيَّن عز وجل في الآيتين السابقتين إحكام خلقه السموات السبع الطباق وكماله، وخلوَّه من التفاوت والنقص، ثم أتبع ذلك ببيان أنه زين السماء الدنيا بمصابيح وجعلها رجوماً للشياطين، وهذه الآية كقوله: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ﴾ [فصلت: ١٢].

قوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ الواو: للاستئناف، واللام للقسم، و«قد» للتحقيق، أي: والله لقد جملنا السماء الدنيا.

و«السماء الدنيا» هي التي تلي الأرض والتي نشاهدها.

والمصابيح هي الكواكب النيرة التي تنير الكون الثابتة والسيارة، كالشمس والقمر والنجوم.

قال السعدي[1]: «﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا﴾ أي: ولقد جملنا ﴿ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ التي ترونها وتليكم ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾ وهي النجوم على اختلافها في النور والضياء. فإنه لولا ما فيها من النجوم لكانت سقفاً مظلماً لا حسن فيه ولا جمال ولكن جعل الله هذه النجوم زينة وجمالاً ونوراً وهداية يهتدى بها في ظلمات البر والبحر ولا ينافي إخباره أنه زين السماء الدنيا بمصابيح أن يكون كثير من النجوم فوق السموات السبع، فإن السموات شفافة وبذلك تحصل الزينة للسماء الدنيا وإن لم تكن الكواكب فيها».

﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وجعلناها جعلاً كونيا ﴿رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ أي: يرجم بها الشياطين عند محاولتهم استراق السمع من السماء.

و«الشياطين» جمع شيطان، وهو كل متمرد عات خارج عن طاعة الله ـ عز وجل.

قال ابن كثير[2]: «عاد الضمير في ﴿وَجَعَلْنَٰهَا﴾ على جنس المصابيح لا على عينها، لأنه لا يرمى بالكواكب التي في السماء، بل بشهب من دونها، وقد تكون مستمدة منها».

﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ أي: وأعددنا وهيأنا وجهزنا ﴿لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: عذاب النار المستعرة المتوقدة المشتعلة فـ «السعير» «فعيل» بمعنى «مفعول» فهي «سعير» بمعنى مسعورة، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩]، وهي نزلهم وضيافتهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الكهف: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾ [الواقعة: ٥٦].

والضمير في قوله (لهم) للشياطين.

أي: جعلنا المصابيح رجوماً للشياطين خزياً وعذاباً لهم في الدنيا، وأعددنا وهيأنا لهم في الآخرة ﴿عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٤٣٠ – ٤٣١.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٢٠٤.

لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ۝٨ دُحُورٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ ۝١٠﴾ [الصافات: ٦ - ١٠].

عن قتادة قال: «إنما خلقت هذه النجوم لثلاث خصال: خلقها زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها فمن تأول فيها غير ذلك، فقد قال برأيه وأخطأ حظه، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به»[1].

الفوائد والعبر:

١- بركة المولى عز وجل وعلوه وكثرة خيره واختصاصه بالملك وقدرته التامة على كل شيء.

٢- الاستدلال على كمال ملكه وتمام قدرته عز وجل بخلق الموت والحياة وخلق السموات السبع وإحكام خلقها وتزيين السماء الدنيا بالمصابيح وجعلها رجوماً للشياطين.

٣- أن الحكمة من إيجاد الموت والحياة، وخلق الخلق من العدم وإماتتهم ومن ثم بعثهم هي ابتلاؤهم وامتحانهم أيهم أخلص عملا وأصوبه ليجازوا على أعمالهم.

٤- الحث والترغيب في المنافسة في تحسين العمل إخلاصاً لله عز وجل ومتابعة للرسول ﷺ لقوله ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾.

٥- إثبات أن من أسماء الله عز وجل «العزيز» و«الغفور»، و«الرحمن» وما يؤخذ من ذلك من إثبات صفة العزة التامة، والمغفرة الواسعة والرحمة له ـ عز وجل.

٦- عظم خلق السموات السبع الطباق، وإحكامها وحبكها بلا فطور ولا شقوق. وتمام خلقه عز وجل وشدته بلا اختلاف ولا تفاوت.

٧- تزيين السماء الدنيا بالمصابيح وجعلها رجوماً للشياطين، كما أنها علامات يهتدى بها في ظلمات البر والبحر كما قال تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ۝١٦﴾ [النحل: ١٦].

٨- الوعيد الشديد للشياطين بعذاب السعير في الآخرة.

٩- أن النار موجودة الآن مهيأة لأهلها لقوله ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ١٢٣.

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله عز وجل في الآية السابقة أنه أعتد للشياطين عذاب السعير، ثم ذكر ما أعتده لأتباعهم الذين كفروا بربهم من عذاب جهنم الحسي والمعنوي وأن مآل الفريقين المتبوع والتابع عذاب جهنم وعذاب السعير.

قوله ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ الواو: استئنافية. والكفر لغة: الستر والتغطية.

و﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ هم الذين جحدوا وجود الله، وربوبيته وألوهيته وأسماءه وصفاته وشريعته أو شيئاً من ذلك.

وتقديم الخبر وهو قوله ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يفيد قصر جزائهم وحصره على عذاب جهنم، وأنه ليس لهم إلا عذاب جهنم.

و«جهنم» اسم من أسماء النار، سميت به لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها، وشدة حرها، والجزاء من جنس العمل فحيث كان الكفار يتخبطون في الدنيا بظلمات الكفر والشك والجهل كان عذابهم جهنم التي هذا وصفها.

﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: وساء وقبح المنقلب والمآل والمأوى والمرجع جهنم.

ولا يستطيع أحد أن يقدر عظم سوئها وقبحها – إلا من وصفها بذلك، وهو العظيم سبحانه وتعالى.

﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا﴾ «إذا» ظرفية شرطية غير عاملة أي: إذا سيقوا ودفعوا إليها وأدخلوا فيها، كما قال تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [ق: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾ [ق: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الفرقان: ١٣]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾﴾ [الملك: ٨].

وعبر عن سوقهم إليها وإدخالهم فيها بإلقائهم فيها تحقيراً وإهانة لهم، فهم يلقون فيها كما يلقى الحجر في اليم لا يؤبه بهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾ [الإسراء: ٣٩].

ولأنهم أيضاً يساقون إليها سوقاً بشدة، ويدفعون إليها دفعا بعنف، كما قال تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ [مريم: ٨٦]، وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾ [ق: ٢١]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾﴾ [الطور: ١٣]، وقال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾﴾ [الدخان: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾﴾ [الحاقة: ٣٠، ٣١].

﴿سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا﴾ أي: صوتاً عالياً فظيعاً قال في اللسان[1] «الشهيق أقبح الأصوات».

والشهيق في الأصل ما يسمع من صوت الهواء الداخل إلى الرئة، ويقابله الزفير صوت الهواء الخارج من الرئة. قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [هود: ١٠٦].

وفي الأثر: «أن الرجل يجر إلى النار فتشهق إليه كما تشهق البغلة إلى الشعير»[2].

وسماعهم شهيقها من مقدمات عذابهم، فهي في شغف إليهم، بل وتناديهم، كما قال عز وجل ﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾﴾ [المعارج: ١٧].

وهذا من عذاب الأسماع التي صمت عن الحق واستمعت للباطل، كما قال عز وجل: ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

﴿وَهِىَ تَفُورُ﴾ الواو: حالية، أي: حال كونها تفور، أي: تغلي وتتقلب من شدة حرارتها يقال: فار القدر أو فار الماء في القدر إذا غلى وأخذ يتقلب من شدة الحرارة.

كما يقال فار القدر أو الإناء إذا امتلأ ماءً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [هود: ٤٠، المؤمنون: ٢٧].

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ تكاد: تقارب، و«كاد» كغيرها من الأفعال على الصحيح نفيها نفي، وإثباتها إثبات، فقوله ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ﴾ أي: تقارب.

﴿تَمَيَّزُ﴾ أصلها تتميز فحذفت إحدى التاءين تخفيفاً أي: تتفرق وتتقطع، وينفصل بعضها عن بعض، كما قال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٣٧].

﴿مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ أي: من شدة الغيظ والحنق عليهم، لشدة غضب الجبار عليهم.

---

(١) مادة «شهق».

(٢) أخرجه عبد بن حميد عن يحيى فيما ذكره السيوطي في «الدر المنثور» ٦/ ٢٤٨.

﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ﴾ أي: كلما ألقي وأدخل ﴿فِيهَا﴾ أي: في جهنم ﴿فَوۡجٌ﴾ أي: جماعة كثيرة منهم ﴿سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ﴾ إنكاراً عليهم وتوبيخاً وتبكيتاً لهم وتعذيباً لقلوبهم. و«خزنتها»: هم الملائكة الموكلون عليها وعلى تعذيب أهلها.

﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ﴾ أي: ألم يأتكم ويبعث إليكم ﴿نَذِيرٌ﴾ ينذركم ويحذركم جهنم وعذابها، وهم رسل الله عز وجل وأنبياؤه كما قال عز وجل ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء: ١٦٥].

وهذا من العذاب المعنوي المنصب على قلوبهم، لأن العذاب نوعان: عذاب جسمي حسي يؤلم الأبدان، وهو إصلاؤها بالنار، وعذاب معنوي يؤلم القلوب، وهو التوبيخ والتقريع لهم.

والاستفهام فيه أيضاً معنى التقرير، ولهذا اعترفوا وأجابوا بقولهم: ﴿بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ﴾ وأقروا بما قابلوا به نذر الله عز وجل ورسله فقالوا: ﴿فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾ وذلك لافتضاحهم بظهور الحقائق ومعاينتها، فليس المقام مقام إنكار، وليس الخبر كالعيان(١).

والاستفهام إذا كان مقترناً بالنفي كما في قوله هنا ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ﴾ ؟، وكما في قوله: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ۝﴾ [الانشراح: ١] وقوله تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ۝﴾ [الإنسان: ٤٠]، وقوله: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝﴾ [التين: ٨] ونحو ذلك فجوابه بـ «بلى».

والمعنى: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ﴾ أنذرنا وحذرنا عذاب جهنم ﴿فَكَذَّبۡنَا﴾ ذلك النذير، ﴿وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ﴾ أي: نفينا وأنكرنا أن يكون الله نزل أي شيء من الكتب، وقلنا للنذر الذين جاؤونا مكذبين لهم ﴿إِنۡ أَنتُمۡ﴾ «إن» نافية، أي: ما أنتم أيها النذر ﴿إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾. أي: إلا في بُعْد وتيه عن الحق كبير.

فجمعوا بين أمور ثلاثة كل واحد منها أسوأ مما قبله فأولاً: كذبوا رسولهم، وثانياً نفوا أن يكون الله نزل شيئاً من الوحي على الرسل لهداية الخلق، وبهذا كذبوا جميع الرسل والكتب، وثالثاً: رموا الرسل الهداة المهتدين المبعوثين لهداية الخلق بالضلال الكبير.

---

(١) كما جاء في حديث ابن عباس – رضي الله عنهما – أن رسول الله ﷺ قال: «ليس الخبر كالمعاينة» أخرجه أحمد ١/ ٢١٥.

وهذه عادة المكذبين للرسل يرمونهم بأبشع الصفات لينفروا الناس منهم ومن دعوتهم، وفي هذا درس عظيم للدعاة إلى الله والمصلحين والمربين ليعلموا أن طريق الجنة شاق، وليس مفروشاً بالورود والرياحين، كما قال عز وجل ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤]، وقال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [الروم: ٢، ٣].

وقال ﷺ: «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات»[(١)].

وقد أحسن القائل:

ودرب الصاعين كما علمتم ... به الأشواك تكثر لا الورود[(٢)]

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ﴾ ندموا على تكذيبهم نذر الله وما نزله عليهم، وودوا وتمنوا أنهم سمعوا وتعقلوا ما جاءتهم به النذر فقالوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ أي: سماع انتفاع لما جاءت به النذر ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ أيضاً تعقل انتفاع لذلك، فنفوا عن أنفسهم أعظم طرق الهداية وهما السمع والعقل لعدم انتفاعهم بهما.

﴿مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: ما كنا في عداد أصحاب السعير وساكنيها وملازميها فندموا حين لا ينفع الندم، ولات ساعة مندم، كما قال تعالى ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الزمر: ٥٦ـ ٥٨].

قال ابن كثير[(٣)]: «وهكذا عادوا على أنفسهم بالملامة وندموا حيث لا تنفعهم الندامة فقالوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ أي: لو كانت لنا عقول ننتفع بها أو نسمع ما أنزل الله من الحق لما كنا على ما كنا عليه من الكفر بالله والاغترار به، ولكن لم يكن لنا فهم نعي به ما جاءت به الرسل، ولا كان لنا عقل يرشدنا إلى اتباعهم».

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٢٢، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥٩ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.
(٢) البيت لوليد الأعظمي انظر «ديوانه الزوابع» ص٦٩.
(٣) في «تفسيره» ٨/ ٢٠٥.

﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ﴾ أي: فاعترفوا على أنفسهم بذنبهم بتكذيبهم نذر الله وما نزل عليهم ورميهم إياهم بالضلال الكبير، وأنهم ما سمعوا ما جاءتهم به النذر ولا تعقلوه.

﴿فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ هذا حكم من الله عز وجل عليهم بالبعد والهلاك، أي: فبعداً وهلاكاً لأصحاب السعير وساكنيها وملازميها، فما أشقاهم وأرداهم وأي بعد وهلاك كبعد وهلاك من حكم الله عليهم بذلك فما لهم من سلامة ولا قرب.

وفي هذا الاعتراف من المكذبين دلالة على عدله عز وجل في خلقه وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليهم بإرسال الرسل، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ۝١٥﴾ [الإسراء: ١٥].

وهذه الآية كقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧١﴾ [الزمر: ٧١].

وقد روى أبو البختري الطائي عمن سمع رسول الله ﷺ أنه قال: «لن يهلك الناس حتى يعذروا من أنفسهم»[١].

الفوائد والعبر:

١ - الوعيد الشديد للذين كفروا بربهم بعذاب جهنم وأنها بئس المآل والمنقلب.

٢ـ إثبات ربوبية الله العامة لجميع الخلق.

٣- فظاعة جهنم وقبح صوتها وشدة غليانها وغيظها على من يلقى فيها.

٤- تبكيت وتوبيخ وتقريع خزنة النار لمن يلقون فيها بقولهم لهم ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ﴾، وهذا عذاب معنوي ينصب على القلوب لا يقل عن العذاب الحسي.

٥- إقرار المكذبين واعترافهم في ذلك اليوم بما جاءهم من النذر، وأنهم كذبوهم وكذبوا ما جاؤوا به من الوحي من عند الله ورموهم بالضلال الكبير، لكن هذا الإقرار لا ينفعهم في ذلك اليوم كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ۝٨٤ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

٦- شدة مكابرة المكذبين للرسل واجترائهم على رميهم بأقبح الصفات تنفيراً للناس عنهم.

٧- شدة حسرة المكذبين للرسل وندمهم واعترافهم بذنبهم، وأنهم لم يستفيدوا من سمعهم ولا من عقولهم بل كانت وبالاً عليهم.

٨- حكم الله ـ عز وجل ـ على المكذبين بالبعد والهلاك لقوله ﴿فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٢٦٠، وانظر أيضاً ٥/ ٢٩٣.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة ما أعده للشياطين وأتباعهم الكافرين من عذاب جهنم والسعير وحالهم فيها ومقالهم واعترافهم على أنفسهم وندمهم حيث لا ينفع الندم، ثم أتبع ذلك بذكر ما أعده لمن خشي ربه بالغيب من المغفرة والأجر الكبير وهذا على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب.

ثم أتبع ذلك بما يدل على كمال عدله عز وجل بين الخلائق وهو سعة علمه - سبحانه - بخلقه وأحوالهم وأقوالهم. ممتناً عليهم بتذليل الأرض وتسخير خيراتها لهم، ومنبهاً أن إليه مردهم.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾ [يس: ١١].

والخشية: أشد الخوف، لأنها أخص منه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] ولهذا قال بعض أهل العلم: من شرط الخشية عظم المخشي، وعلم الخاشي استدلالاً بهذه الآية.

﴿رَبَّهُم﴾ أي: خالقهم ومالكهم والمتصرف فيهم، وأضافهم إلى الرب تكريماً وتشريفاً لهم، لأن الربوبية قسمان: ربوبية خاصة، وربوبية عامة، والمراد بها هنا الربوبية الخاصة، ربوبية التكريم والتشريف والهداية والتوفيق والحفظ.

والمعنى: أنهم يخشون ربهم ويخافونه فيمتثلون أوامره ويجتنبون نواهيه.

﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: وهو سبحانه غيب لم يروه، كما قال تعالى: ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [ق: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [النساء: ٩٤].

والغيب ما غاب عن الحواس، قال تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: ١٠٣].

ولما سأل جبريل عليه السلام النبي ﷺ عن الإحسان قال: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1].

وسأل أبو ذر رضي الله عنه رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: «نور أنى أراه»[2].

وقالت عائشة رضي الله عنها: «من زعم أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية»[3].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا هلموا إلى حاجتكم، قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، قال: فيسألهم ربهم وهو أعلم منهم، ما يقول عبادي؟ قالوا: يقولون: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك، قال: فيقول: هل رأوني؟ قال: فيقولون: لا والله ما رأوك، قال: فكيف لو رأوني...»الحديث[4].

وأيضاً: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: وهم غائبون عن أعين الناس لا يراهم أحد من الناس كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله» – إلى أن قال: «ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه» الحديث[5].

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ الجملة في محل رفع خبر «إن» في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ وقوله ﴿لَهُم﴾ جار ومجرور خبر قدم لإفادة الحصر والتخصيص، أي: لهم خاصة مغفرة وأجر عظيم دون غيرهم.

و«المغفرة» هي ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن عقوبته، أي لهم مغفرة لذنوبهم بسترها والتجاوز عنها.

﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي: وثواب عظيم في جنات النعيم، وإذا كان المولى العظيم وصف أجرهم بأنه عظيم فلا يقدر قدر عظمته إلا العظيم سبحانه.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٠، ومسلم في الإيمان ٩، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٤٩٩١، وابن ماجه في المقدمة ٦٤ – من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان ١٧٨، والترمذي في التفسير ٣٢٨٢ – من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان ١٧٧، والترمذي في تفسير القرآن ٣٠٦٨.

(٤) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٤٠٨، ومسلم في الذكر والدعاء ٢٦٨٩، والترمذي في الدعوات ٣٦٠٠، وأحمد ٢/ ٢٥١.

(٥) أخرجه البخاري في الأذان ٦٦٠، ومسلم في الزكاة ١٠٣١، والنسائي في آداب القضاة ٥٣٨٠، والترمذي في الزهد ٢٣٩١.

وسمى عز وجل ثوابهم أجراً مع أنه لا يجب عليه – سبحانه – شيء لخلقه، تكرماً منه – سبحانه – وامتناناً عليهم لأنه هو الذي تكفل به وأوجبه على نفسه كما قال عز وجل: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقال عز وجل: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأعراف: ١٥٦].

قال ابن القيم[1]:

ما للعباد عليه حق واجب	هو أوجب الأجر العظيم الشان
كلا ولا عمل لديه ضائع	إن كان بالإخلاص والإحسان
إن عذبوا فبعدله أو نعموا	فبفضله والفضل للمنان

فجمع لهم عز وجل بين مغفرة ذنوبهم بسترها والتجاوز عنها، وبذلك يزول المرهوب وبين إثابتهم بالأجر العظيم وبذلك يحصل المطلوب.

وقدم مغفرة الذنوب، لأن التخلية قبل التحلية.

﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

في ذكر هذا بعد ذكره عذاب من كفروا بربهم، وثواب الذين يخشون ربهم بالغيب إشارة إلى أن هذا الجزاء عن علم تام منه عز وجل بخلقه وأحوالهم وأقوالهم.

وقوله: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ﴾ أي: إن شئتم فأسروا قولكم وإن شئتم فاجهروا به، فالسر والعلانية عنده – سبحانه – سواء.

كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾﴾ [طه: ٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الأعلى: ٧].

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: إنه عز وجل ذو علم تام بصاحبة الصدور وهي القلوب، أي: بما تخفيه وتنطوي عليه القلوب من المكنونات والخواطر، والاعتقادات والإرادات والحب والبغض مما لم تنطق به الألسن لا سراً ولا جهراً، وإذا كان عالماً بما في القلوب فعلمه بما عدا ذلك من الأقوال والأفعال الظاهرة من باب أولى وأحرى.

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ «ألا» استفهام إنكار على من أنكروا علمه ـ عز وجل .

---

(١) في «النونية» ص١٤٩ – ١٥٠.

و«من» موصولة في محل رفع فاعل، والتقدير: ألا يعلم الخالق الذي خلق الخلق وأتقنه وأحسنه مخلوقه ومصنوعه، وقد تكون «من» في محل نصب مفعول، أي: ألا يعلم الرب مخلوقه.

وفي هذا أبلغ التقرير لكمال علمه عز وجل بالدليل العقلي، وفيه أعظم الإفحام لمنكري علمه عز وجل، فحيث كانوا يقرون بأنه خالقهم وخالق صدورهم وما تضمنته فكيف تخفى عليه وهي خلقه، فإن الخالق لا بد أن يعلم مخلوقه والصانع لا بد أن يعلم مصنوعه.

﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ الواو: حالية، و«اللطيف الخبير» اسمان من أسمائه ـ عز وجل ـ كل منهما على وزن «فعيل» يدل «اللطيف» على دقة لطفه ـ عز وجل، ويدل «الخبير» على دقة خبرته وسعة علمه ـ سبحانه ـ فـ «اللطيف» الذي يدرك الدقيق، و«الخبير» الذي يدرك الخفي، أي: المحيط علماً بالدقائق والخفيات والسرائر والمضمرات.

قال ابن تيمية[(١)]: «قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ دلت على علمه بالأشياء من وجوه تضمنت البراهين المذكورة لأهل النظر العقلي:

أحدها: أنه خالق لها، والخلق هو الإبداع بتقدير، فتضمن تقديرها في العلم قبل تكوينها.

الثاني: أنه مستلزم للإرادة والمشيئة فيلزم تصور المراد، وهذه الطريقة المشهورة عند أهل الكلام.

الثالث: أنها صادرة عنه وهو سببها التام والعلم بالأصل يوجب العلم بالفرع، فعلمه بنفسه يستلزم العلم بكل ما يصدر عنه.

الرابع: أنه «لطيف» يدرك الدقيق «خبير» يدرك الخفي. وهذا هو المقتضي للعلم بالأشياء فيجب وجود المقتضى لوجود السبب التام».

وقال ابن القيم[(٢)]: «الذي لطف صنعه وحكمته ودق حتى عجزت عنه الأفهام، والخبير: الذي انتهى علمه إلى الإحاطة ببواطن الأمور وخفاياها كما أحاط بظواهرها، فكيف يخفى على اللطيف الخبير ما تحتويه الضمائر وتخفيه الصدور».

وقد أحسن القائل[(٣)]:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل ... خلوت ولكن قل علي رقيب

---

(١) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ١٣.
(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٤٩٤.
(٣) البيتان لصالح عبد القدوس، انظر «ديوانه» ص١٣٣.

ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما يُخفى لديه يغيب

ويأتي «اللطيف» بمعنى المحسن قال ابن القيم في النونية[1]:

وهو اللطيف بعبده ولعبده واللطف في أوصافه نوعان

إدراك أسرار الأمور بحكمة واللطف عند مواقع الإحسان

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾.

في هذا امتنان من الله عز وجل على عباده، أي: هو سبحانه الذي امتن عليكم بأن جعل الأرض كوناً وقدراً مذللة منقادة للسير عليها والبناء عليها وحفرها وشقها واستخراج الماء منها واستخراج خيراتها، ولهذا قال:

﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ أي: سيروا وسافروا حيث شئتم في طرقها وفجاجها وأرجائها ونواحيها وأطرافها في جبالها وأوديتها وسهولها.

﴿وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ أي: وكلوا مما أودعه فيها، وأخرجه لكم منها من رزقه وعطائه مما يستخرج منها من الحبوب والثمار والفواكه وغير ذلك.

والتعبير بالأكل لأنه الأهم فهو كسوة الباطن - لا يستطيع الإنسان الحياة بدونه وسائر الانتفاعات من الأرض وخيراتها - تبع لذلك.

قال ابن كثير[2] في الكلام على هذه الآية: «ثم ذكر نعمته على خلقه في تسخيره لهم الأرض، وتذليله إياها لهم، بأن جعلها قارة ساكنة لا تمتد ولا تضطرب، بما جعل فيها من الجبال، وأنبع فيها من العيون، وسلك فيها من السبل، وهيأ فيها من المنافع ومواضع الزروع والثمار فسافروا حيث شئتم من أقطارها وترددوا في أقاليمها وأرجائها في أنواع المكاسب والتجارات».

وفي قوله ﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ إشارة إلى أنه ينبغي الجمع بين السعي وفعل الأسباب مع الاعتماد والتوكل على الله عز وجل، كما قال ﷺ فيما رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً»[3].

(١) ص١٤٩.

(٢) في «تفسيره» ٨/٢٠٦.

(٣)أخرجه الترمذي في الزهد - ما جاء في الزهادة في الدنيا ٢٣٤٤، وابن ماجه في الزهد - التوكل واليقين ٤١٦٤، وأحمد =

﴿وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ أي: وإليه وحده عز وجل نشر الخلائق من قبورهم وعليه حسابهم كما قال عز وجل ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ۝﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

وفي ذكر هذا بعد الامتنان بتذليل الأرض لهم يمشون عليها ويبنون ويسكنون ويأكلون من خيراتها تنبيه وتذكير إلى أن هذه الدار ليست دار بقاء، وأن الناس فيها غير مستوطنين ولا مقيمين بل هم عابرو سبيل يتزودون فيها للدار الباقية دار القرار، فهي دار عبور ومرور، لا دار استقرار وحبور والجاهل المغبون من ركن إليها، والكيس الفطن العاقل الحازم اللبيب من لم يطمئن إليها.

كما جاء في الحديث: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني»[(١)].

الفوائد والعبر:

١ ـ التنويه بما أعده الله من المغفرة والأجر الكبير لمن يخشونه ويخافونه وهو غيب لم يروه، وإن غابوا عن أعين الناس.

٢ ـ إثبات ربوبية الله الخاصة لأهل خشيته، وتكريمهم بها.

٣ ـ أن التخلية قبل التحلية، لأن بالتخلية زوال المرهوب بمغفرة الذنوب، وبالتحلية حصول المطلوب بالأجر الكبير كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

٤ ـ امتنان الله عز وجل على عباده المؤمنين بتسمية ثوابهم أجراً، وإيجابه عز وجل على نفسه ذلك لهم.

٥ ـ علم الله عز وجل واطلاعه التام على ما أسر به الخلق أو جهروا به وما تكنه ضمائرهم وقلوبهم.

٦ ـ تأكيد علمه عز وجل بالخلق، وأنه أعلم بهم وأدرى، لأنه خالقهم وهم خلقه.

٧ ـ إثبات اسمين من أسماء الله عز وجل وهما «اللطيف» و«الخبير» وما يؤخذ منهما من إثبات تمام لطفه عز وجل وكمال خبرته.

٨ ـ نعمة الله عز وجل العظيمة على الخلق بتذليل الأرض لهم للسير عليها واستخراج خيراتها والأكل من رزقه الواسع فيها.

٩ ـ إثبات نشر الخلائق وبعثهم من قبورهم وحسابهم.

١٠ ـ الإشارة إلى أن الدنيا مزرعة للآخرة.

=

١/ ٣٠، ٥٢، وقال الترمذي «حديث حسن صحيح».

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع ٢٤٥٩، وابن ماجه في الزهد ٤٢٦٠ ـ من حديث شداد بن أوس ـ رضي الله عنه . وقال الترمذي: «حديث حسن».

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

لما ذكّر ـ عز وجل ـ الخلق بنعمته عليهم بتذليل الأرض لهم خوّف المكذبين وهددهم وتوعدهم بسلب هذه الصفة عنها بخسفها بهم وجعلها تمور، ثم خوفهم بإرسال الريح الحاصب عليهم، وبما حل بالمكذبين من قبلهم، ووجههم إلى رؤية عظيم قدرة الله عز وجل في الطير حال كونهن صافات ويقبض ما يمسكهن إلا الرحمن سبحانه وتعالى.

قوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ الهمزة للاستفهام، ومعناه التهديد والوعيد والخطاب للكفار المكذبين.

و«من» اسم موصول بمعنى «الذي» أي: ءأمنتم الذي في السماء أي: في العلو وهو الله عز وجل الذي هو عال على خلقه بائن منهم مستو على عرشه.

﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: يُغوِّر بكم الأرض، ويغيبكم فيها.

﴿فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾ أي: تموج وترتج وتتكفأ وتذهب وتجيء وتضطرب وتتزلزل، فلا يمكن العيش والحياة عليها، بعد أن كانت ذلولاً ثابتة مستقرة مهيأة للاستقرار والحياة. وفيما يقع ويشاهد من الزلازل المهلكة المدمرة التي تحصد أرواح مئات الآلاف من الناس وتقضي على الأخضر واليابس وتذر الديار بلاقع أعظم عبرة لمن يعتبر.

﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ «أم» هي المنقطعة التي بمعنى «بل» وهمزة الاستفهام، أي: بل ءأمنتم الذي في السماء، وهو الله ـ عز وجل.

﴿أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أي: أن يرسل عليكم ريحاً شديدة ترميكم بالحصباء وهي الحجارة فتهلككم كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾﴾ [الإسراء: ٦٨].

﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ أي: فستعلمون بعد حلول العقوبة فيكم من خسف الأرض بكم أو إرسال الريح الحاصب عليكم ﴿كَيْفَ نَذِيرِ﴾ كيف كان إنذاري لكم وعقوبة تكذيبكم للنذر ومخالفتكم لهم، وكيف حل بكم ما أنذرتكم به الرسل والكتب.

وفي هتين الآيتين تخويف وتحذير من الأمن من مكر الله وعقوبته في الدنيا لمن كفر به

وخالف أمره بخسف الأرض بهم، أو بإرسال الريح الحاصب عليهم، وغير ذلك، وتنبيه لهم على قدرته التامة على ذلك، كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾ [الإسراء: ٦٨، ٦٩].

وقال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ [النحل: ٤٥ - ٤٧].

وقال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٧ - ٩٩].

لكنه عز وجل يمهل ولا يهمل، كما قال عز وجل: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ﴾ [فاطر: ٤٥].

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الواو للاستئناف، واللام للقسم، و«قد» للتحقيق أي: والله لقد كذب الذين من قبلهم، أي: من قبل قومك يا محمد من الأمم السابقة، كذبوا نذر الله ورسله وأنبياءه.

﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: فكيف كان إنكاري عليهم وعقابي لهم، أي: ما أشد إنكاري عليهم وعقابي لهم بالإهلاك، أي: أن ذلك كان عظيماً شديداً فليأخذ قومك مما حل بأولئك الأقوام العظة والعبرة، فإن السعيد من وعظ بغيره.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ ۚ﴾.

بعد ما خوفهم عذاب الله عز وجل وعقابه أنكر عليهم ووبخهم على عدم النظر والتأمل في عظيم آيات الله عز وجل وقدرته في جعل الطير تطير فوقهم صافات ويقبضن وإمساكها في الجو.

قوله ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أي: أعموا ولم يروا، والاستفهام للإنكار والتوبيخ.

أي: أولم ينظروا إلى الطير فوقهم في السماء ﴿صَٰٓفَّٰتٖ﴾ أي: حال كونهن باسطات ناشرات لأجنحتهن في الجو والهواء عند الطيران، ﴿وَيَقۡبِضۡنَۚ﴾ أي: ويضممن أجنحتهن إذا ضربن بها جنوبهن، وعند وقوعهن.

﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ﴾ «ما» نافية، أي: ما يمسكهن في الجو والهواء عن السقوط ﴿إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ﴾ سبحانه وتعالى برحمته ولطفه وقدرته بما سخر لهن من الهواء وبما جعل لهن من الأجنحة والزعانف والخلقة المناسبة لذلك.

﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ﴾ أي: إنه عز وجل ذو بصر وخبرة وعلمٍ في كل شيء من مخلوقاته، خلقاً لها وملكاً وتدبيراً وغير ذلك.

وقدم المتعلق وهو قوله ﴿بِكُلِّ شَيۡءِۭ﴾ لتأكيد شمول بصره وخبرته وعلمه بكل شيء أياً كان ذلك الشيء.

والمراد: أولم ينظروا إلى الطير حال طيرانها وعند وقوعها فيتأملوا في عظيم قدرة الله عز وجل وبصره في مخلوقاته حيث جعل الطير تطير على هذه الكيفية، وأمسكها في الجو والهواء، كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٧٩﴾ [النحل: ٧٩]، وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ﴾ [النور: ٤١].

الفوائد والعبر:

١- إثبات علو الله على خلقه لقوله ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾.

٢- تخويف الكافرين والمكذبين بالعقوبات الكونية الدنيوية من خسف الأرض بهم أو إرسال الريح الحاصب عليهم، والوعيد والتهديد لهم بذلك، وتذكيرهم بما حل بالمكذبين قبلهم من العقوبات كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٠﴾ [العنكبوت: ٤٠].

٣- التذكير بنعمة الله ـ عز وجل ـ بجعل الأرض مستقرة، وبعظيم قدرة الله عز وجل في إمساك الطير حال طيرانها بين السماء والأرض.

٤- إثبات اسم الله ـ عز وجل ـ «الرحمن» وصفة الرحمة الواسعة له ـ عز وجل ـ وإثبات أنه ـ عز وجل ـ بكل شيء بصير، وعلى كل شيء مطلع وبه خبير.

﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (٢٠) أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ۚ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١) أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٢) قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٢٣) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٦) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ (٢٧)﴾.

قوله: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (٢٠) أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ۚ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾.

بعدما أنكر عز وجل على المكذبين، وخوَّفهم عقابه الدنيوي وأن يحل بهم ما حل بالمكذبين قبلهم منكراً عليهم عدم التأمل والنظر في عظيم قدرة الله عز وجل في الطير تطير في الجو فوقهم، أتبع ذلك بإنكار ما يعتقدونه في معبوداتهم ويبتغونه منها من النصر والرزق غروراً منهم وعتواً.

قوله: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، أي: من هذا الذي هو جند لكم وعون لكم أيها الكافرون يملك نصركم ويقدر عليه ﴿مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ﴾ أهي هذه المعبودات التي تعبدونها من دون الله، كما تعتقدون ذلك؟ فليس الأمر كما تعتقدون ولن يحصل لكم ما تؤملون.

﴿إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ «إن» نافية بمعنى «ما». أي ما الكافرون إلا في غرور من الشيطان كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣، فاطر: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (١٤)﴾ [الحديد: ١٤].

وقال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (١٢٠)﴾ [النساء: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (٦٤)﴾ [الإسراء: ٦٤].

فهم في غرور من الشيطان حيث زين لهم عبادة غير الله، واعتقادهم فيها النصر، وهي لا تملك نصر أنفسها فكيف تنصر غيرها - كما قال عز وجل -: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٢)﴾ [الأعراف: ١٩١، ١٩٢]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٧)﴾ [الأعراف: ١٩٧].

فلا ولي لهم من دون الرحمن ولا ناصر، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ

ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٠٧، التوبة: ١١٦، العنكبوت: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾ [الشورى: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [هود: ١١٣].

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ الاستفهام كسابقه للإنكار، أي: من هذا الذي يرزقكم غير الله إن أمسك الله رزقه وقطعه عنكم، أهي معبوداتكم التي تعبدونها من دون الله. والجواب: لا أحد يرزقكم سوى الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [العنكبوت: ١٧].

﴿بَل لَّجُّوا۟﴾ «بل» للإضراب. ﴿لَّجُّوا۟﴾ أي: استمروا وتمادوا في طغيانهم، كما قال عز وجل: ﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المؤمنون: ٧٥].

﴿فِى عُتُوٍّ﴾ في قسوة وعدم لين للحق، وعناد واستكبار، ومخالفة لأمر الله ونهيه، كما قال تعالى: ﴿وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [الأعراف: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ﴾ [الطلاق: ٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة: ١٦٦]، وقال تعالى: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الفرقان: ٢١].

﴿وَنُفُورٍ﴾ أي: شرود وبعد عن الحق بقلوبهم وأبدانهم لا يستمعون إليه ولا يفقهونه ولا يتبعونه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ [الإسراء: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾ [الفرقان: ٦٠]، وقال تعالى: فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ [فاطر: ٤٢].

وكما قال نوح عليه السلام فيما حكى الله عنه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾﴾ [نوح: ٥ - ٧].

﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

ذكر الله عز وجل فيما تقدم ما أعده لمن خشيه من المغفرة والثواب، وما أعده لمن كفر به من العقوبة والعذاب، ثم ضرب مثلاً فيه بيان الفرق الواسع والبون الشاسع بين حال المؤمن والكافر فقال: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

قوله: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ الهمزة للاستفهام، أي: أفمن يسير منكساً على وجهه واقعاً عليه، لا يبصر ما بين يديه وما عن يمينه وشماله ﴿أَهْدَىٰٓ﴾ أي: أشد استقامة على الطريق ﴿أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: أمّن يسير سوياً منتصباً على طريق مستقيم لا اعوجاج فيه، يبصر ما بين يديه وما عن يمينه وشماله، كما قال تعالى في سورة الفرقان في وصف نور الإيمان في قلب المؤمن: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [الآية: ٣٥]، لا شك أن هذا أهدى وهذا مثل ضربه الله عز وجل للكافر والمؤمن كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [النحل: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [هود: ٢٤].

فمثّل الله عز وجل الكافر بمن يمشي مكباً على وجهه لأنه ليس على هدى، بل يتخبط في ظلمات الكفر والشك والجهل مخالفاً لفطرة الله التي فطر الناس عليها، كما قال تعالى في سورة النور: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [الآيتين: ٣٩، ٤٠]

ومثّل عز وجل المؤمن بمن يمشي مستوي القامة منتصباً على رجليه على فطرة الله لأنه يمشي على طريق معتدل وهدى ونور من الله وعلى صراطه المستقيم، كما قال عز وجل: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وهذا كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِيٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [غافر: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ [الرعد: ١٦]. وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [فاطر: ١٩ – ٢٢].

وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الزمر: ٢٩].

أي: ضرب الله مثلاً لمن يشرك مع الله غيره ويعبد أكثر من معبود، ومن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً.

فشتان بين من يمشي مكباً على وجهه منكوس الفطرة يشرك مع الله غيره، وبين من يمشي سوياً على الفطرة التي فطر الله الناس عليها يؤمن بربه ويوحده، فما بينهما أبعد مما بين الثرى والثريا، وما بين المشرق والمغرب.

شتان بين الحالتين فإن ترد جمعاً فما الضدان يجتمعان

قال ابن كثير[1]: «وهذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فالكافر مثله فيما هو فيه كمثل من يمشي مكباً على وجهه، أي: من يمشي منحنياً لا مستوياً على وجهه، أي: لا يدري أين يسلك ولا كيف يذهب؟ بل هو تائه حائر ضال، أهذا أهدى ﴿أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا﴾ أي: منتصب القامة ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ﴾ على طريق واضح بيّن، وهو في نفسه مستقيم، وطريقه مستقيمة، هذا مثلهم في الدنيا، وكذلك يكونون في الآخرة فالمؤمن يحشر سوياً على صراط مستقيم، مفض به إلى الجنة الفيحاء، وأما الكافر فإنه يحشر يمشي على وجهه إلى نار جهنم».

كما قال تعالى: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الصافات: ٢٢ - ٢٦].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟، قال: «أليس الذي أمشاه على رجليه في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة»[2].

وليس في قوله ﴿أَهْدَىٰٓ﴾ ما يدل على أن من يمشي مكباً على وجهه وهو الكافر عنده شيء من الهداية، لأن اسم التفضيل قد يستعمل بين أمرين ليس في أحدهما شيء من الفضل، كما في قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٠٨.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الفرقان ٤٧٦٠، ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم ٢٨٠٦، وأحمد ٣/ ١٦٧.

[الفرقان: ٢٤]. إذ ليس في النار شيء من الخيرية أو حسن المقيل البتة، فهي شر محض.

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾ «قل» الأمر للنبي ﷺ، أي: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بالبعث من قومك، هو الذي ابتدأ خلقكم وأوجدكم من العدم.

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾. أي: كمل خلقكم بهذه الجوارح السمع والأبصار، والأفئدة، وهي العقول.

وخص هذه الجوارح بالذكر لفضلها فالسمع والأبصار أدوات وطرق وصول الحق إلى القلوب، والقلوب هي محل الإدراك ومناط التكليف وعليها مدار صلاح الأعمال وفسادها كما قال ﷺ: «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»[1].

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ «ما» موصولة أو مصدرية، أي: قليلاً الذي تشكرون، أو قليلاً شكركم، أي: قليل منكم الشاكر، وقليل منكم الشكر.

والآية خبر، وفيها معنى الأمر، أي: اشكروا.

والشكر: باستعمال هذه الجوارح، وغيرها من نعم الله التي لا تحصى في طاعة الله عز وجل بفعل أوامره وترك نواهيه.

وهذه الآية كقوله ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ۝﴾ [سبأ: ١٣]، وقوله: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص:٢٤]، وقوله: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝﴾ [الأنعام: ١١٦][2].

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: قل لهم يا محمد هو الله الذي بثكم ونشركم وفرقكم في أقطار الأرض وأرجائها على اختلاف صوركم وأشكالكم وألوانكم ولغاتكم.

﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: إليه تجمعون يوم القيامة، كما قال عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ۝ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝﴾ [الواقعة: ٤٩ – ٥٠]، وقال عز وجل:

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٢، ومسلم في المساقاة ١٥٩٩، وابن ماجه في الفتن ٣٩٨٤ – من حديث النعمان بن بشير – رضي الله عنه.

(٢) انظر ما سبق في الكلام على قوله تعالى في سورة القمر ﴿حِكْمَةٌۢ بَـٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ [الآية: ٥]، وقوله في سورة الحديد ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ [الآية: ٢٦].

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩][1].

قال ابن كثير[2]: «أي: تجمعون بعد هذا التفرق والشتات، يجمعكم كما فرقكم ويعيدكم كما بدأكم».

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾ أي: ويقول الكفار إنكاراً للبعث واستبعاداً لوقوعه: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾ أي: متى وقوع هذا الذي تعدنا به من البعث والحشر والجمع بعد التفرق والموت.

﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما تعدوننا وتخبروننا به، وجمعوا الضمير باعتبار الخبر عن الله ورسوله ﷺ، أو بضميمة المؤمنين إليهم، أو أن دأب المكذبين قول هذا لرسلهم.

﴿قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ﴾ أمر الله عز وجل رسوله ﷺ أن يرد علم البعث والحشر إليه - سبحانه - أي: قل لهم يا محمد ﴿إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ﴾ «إنما» أداة حصر، أي: إنما علم وقت الحشر وقيام الساعة عند الله عز وجل، لا يعلمه غيره، كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ ۚ﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا﴾ [النازعات: ٤٤].

﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ﴾ الواو: عاطفة و«إنما» أداة حصر، أي: ما أنا إلا نذير، أنذركم وقوع ذلك الوعد وأخبركم أنه واقع لا محالة، وأحذركم عذاب الله.

﴿مُّبِينٌ﴾ أي: بيّن واضح، و«مبين» ما أمرت بإبانته لكم من النذارة والتحذير والتخويف من عذاب الله وقد أنذرتكم وبلغتكم وقد أعذر من أنذر.

والحصر هنا إضافي، أي: ما أنا بالنسبة لأمر الحشر والبعث إلا نذير أنذركم بتحتم وقوعه، ولا أدري متى وقوعه، لكنه ﷺ مع ذلك بشير، مكلف بالعمل كغيره قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ﴾ [البقرة: ١١٩].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۖ﴾ [المؤمنون: ٥١].

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ أي: فلما رأوا ما وعدوا به من العذاب في الآخرة، وقيل عذاب يوم بدر ﴿زُلْفَةً﴾ أي: قريباً.

---

(١) انظر الكلام على هذه الآية في سورة التغابن.

(٢) في «تفسيره» ٨/٢٠٨.

﴿سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: ظهر على وجوه الذين كفروا بالله وأنكروا البعث والحشر الاستياء والكآبة والحزن وخابت ظنونهم، وأيقنوا بالخيبة والخسران المبين والمصير إلى النار، وبئس القرار، قال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ ۝٤٧ وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٤٨﴾ [الزمر: ٤٧، ٤٨].

﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ قرأ يعقوب بإسكان الدال مخففة، وقرأ الباقون بفتحها مشددة.

أي: وقيل لهم على وجه التقريع والتوبيخ ﴿هَٰذَا﴾ أي: البعث والحشر والحساب والعذاب ﴿ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ أي: الذي كنتم في دار الدنيا تستعجلون وقوعه، وتطلبونه، إنكاراً له واستبعاداً لوقوعه قد رأيتموه عياناً كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ۝٧﴾ [التكاثر: ٧].

وفي الحديث: «ليس الخبر كالعيان»[1] وهذا ما كانوا يستعجلونه كما قال تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾ [الحج: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿۞ وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡ﴾ [يونس: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ۝١٦﴾ [ص: ١٦]، أي: عجل لنا نصيبنا من الحساب. وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ۝٣٢﴾ [الأنفال: ٣٢].

الفوائد والعبر:

١- تسفيه عقول المشركين والإنكار عليهم في عبادتهم من دون الله ما لا يملك لهم نصرا ولا رزقاً وغرورهم ومكابرتهم في ذلك وعتوهم ونفورهم عن الحق.

٢- إثبات اسم الله عز وجل «الرحمن» وصفة الرحمة الواسعة له ـ عز وجل، وأنه سبحانه هو الرب الذي بيده النصر ومنه الرزق.

٣- شتان بين المؤمن والكافر والبر والفاجر، فالكافر الفاجر كمن يمشي مكباً على وجهه، والمؤمن البر كمن يمشي سوياً معتدلاً على طريق مستقيم، فالمؤمن أهدى وأقوم سبيلا، والكافر أعوج وأضل سبيلا.

٤- أن اسم التفضيل قد يستعمل بين شيئين ليس في أحدهما شيء من الفضل.

---

(١) سبق تخريجه.

٥- بلاغة القرآن الكريم وبلوغه الغاية فيما يدعو إليه وفيما ينفر منه لقوله ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. ولك أخي الكريم أن تتخيل حالة كل من هذين الصنفين، والبون الشاسع بينهما.

٦- امتنان الله على الناس بإنشائهم وجعل السمع والأبصار والأفئدة لهم وتذكيرهم بذلك ليشكروه.

٧- قلة شكر الناس للنعم وقلة الشاكر منهم لقوله ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣].

٨- تذكير الخلق بأن الله عز وجل هو الذي خلقهم ونشرهم وفرقهم في الأرض وأن إليه حشرهم وجمعهم وعليه حسابهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

٩- استبعاد الكافرين للبعث والحساب والجزاء على الأعمال، تكذيباً لذلك، وإنكاراً له، وتكذيباً له ﷺ ولما جاء به.

١٠- أن علم المعاد وبعث العباد عند الله عز وجل لا يعلمه سواه، ومهمة الرسول ﷺ هي الإنذار والتخويف من عذاب الله.

١١- تغير وجوه الكفار ومساءتها واسودادها عند معاينة العذاب قريباً منهم وتبكيتهم، وتعذيب قلوبهم بأن يقال لهم ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾﴾.

أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين من قومك الذين يتربصون بهلاكك كما قال الله عز وجل عنهم ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ [الطور: ٣٠] قل لهم: أخبروني ﴿إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ﴾ أي: إن عذبني الله ومن معي من المؤمنين فأهلكنا كما تتمنون ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ فأثابنا ونعّمنا.

﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: فمن يجيركم من عذاب الله أيها الكافرون، فأنتم معذبون لا محالة ولا مجير لكم من عذاب الله سواء أهلكنا أو رحمنا، فاعملوا على خلاص أنفسكم بالتوبة والإيمان والعمل الصالح.

ولم يقل: فمن يجيركم من عذاب أليم ـ والله أعلم ـ للتنصيص على كفرهم، وربط العقوبة بالعذاب بسببها وهو الكفر، وليشمل هذا الوعيد كل كافر.

﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي: قل هو الرحمن صدقنا به رباً ومعبوداً وانقدنا له ظاهراً وباطناً.

﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي: وعليه – وحده – اعتمدنا وفوضنا جميع أمورنا مع تمام الثقة به سبحانه.

وكثيراً ما يقرن عز وجل بين الإيمان به، وعبادته وبين التوكل عليه، كما في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٥]، وقوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣][(١)].

والتوكل داخل في الإيمان ومن جملة لوازمه لكنه خص بالذكر من بين سائر الأعمال لعظم مكانته من الإيمان، وكون الأعمال صحتها وكمالها متوقفين عليه. كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة: ٢٣].

﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ قرأ الكسائي بالغيب (فسيعلمون) وقرأ الباقون بالخطاب (فستعلمون)، أي: فستعلمون من هو في بعد وتيه عن الحق، أهو نحن أم أنتم،

---

(١) انظر ما سبق في الكلام على قوله تعالى في سورة التغابن: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [الآية: ١٣].

ولمن تكون العاقبة في الدنيا والآخرة أهي لنا، أم لكم؟.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾.

أي: قل يا محمد: أخبروني إن أصبح ماؤكم غائراً ذاهباً في الأرض لا تستطيعون الوصول إليه بأي وسيلة.

﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ أي: فمن الذي ﴿يأتيكم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ أي: بماء نابع سائح جار ظاهر على وجه الأرض تراه العيون، لا ينضب، تشربون منه وتسقون أنعامكم وأشجاركم وزروعكم. أي: لا أحد يستطيع أن يأتيكم بذلك إلا الله عز وجل.

وفي هذا تخويف لهم من سلب نعمة الماء، وتذكيرهم بإنعامه وإفضاله عليهم بها، كما قال عز وجل: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ الْمَآءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الواقعة: ٦٨ـ ٧٠].

الفوائد والعبر:

١- تربص الكافرين هلاك الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين.

٢- التهديد للكافرين، وأنه لا مجير لهم من العذاب الأليم في النار يوم القيامة.

٣- التنزل مع الكفار والمكذبين لتقريرهم ليتبين لهم أنهم ليسوا على شيء لقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ اللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا﴾ وإلا فلا شك أنه ﷺ يعلم أنه ومن معه من المرحومين بإذن الله ـ عز وجل.

٤- أن عذاب الكافرين المكذبين مؤلم موجع حساً للأجساد، ومؤلم موجع معنى للقلوب.

٥- إثبات اسم الله «الرحمن» وهو ثاني اسم من أسماء الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ﴾ وإثبات صفة الرحمة الواسعة لله عز وجل.

٦- لا يقوم الإيمان بالله إلا على دعامتين: الإيمان بالله عز وجل، والتوكل عليه، ولهذا كثيراً ما يقرن الله عز وجل بينهما في القرآن الكريم.

٧- وعيد الكفار المكذبين بأنهم سيعلمون حقاً أنهم هم الذين كانوا في ضلال مبين، وليس ذلك هو الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين، كما زعموا، وذلك بوقوع العذاب عليهم.

٨- امتنان الله عز وجل على الناس بالماء الذي يشربون، وتخويفهم من سلبه منهم وتغويره عنهم فلا أحد غيره – سبحانه – يستطيع أن يأتيهم بماء معين لا ينضب. وبهذا جمع الله لهم بين التخويف بالعقاب الدنيوي والعذاب الأخروي.

تفسير سورة القلم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧﴾.

قوله: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ «ن» أحد حروف الهجاء، وأحد الحروف المقطعة التي تكون أوائل السور نحو «ص» و«ق» وقد سبق الكلام على هذه الحروف، وذكر أقوال أهل العلم في معناها والمراد بها في مطلع سورة «ق»، وأن أظهر الأقوال في معناها أنها ذكرت في مطلع بعض السور للتحدي والإعجاز، وأن العرب الذين هم أرباب الفصاحة والبلاغة والبيان، والذين نزل القرآن بلغتهم عاجزون عن الإتيان بمثله، بل بعشر سور مثله، بل بسورة من مثله، مع أنه بهذه الحروف التي ينطقون بها.

قال ابن القيم[1]: «الصحيح أن «ن» و«ق» و«ص» من حروف الهجاء التي يفتتح بها الرب سبحانه بعض السور، وهي أحادية وثنائية وثلاثية ورباعية وخماسية، ولم تجاوز الخمسة، ولم تذكر قط في أول سورة إلا وعقبها بذكر القرآن إما مقسماً به، وإما مخبراً عنه ما خلا سورتين سورة «كهيعص» و«ن» ففي هذا تنبيه على شرف هذه الحروف وعظم قدرها وجلالتها إذ هي مباني كلامه وكتبه التي تكلم سبحانه بها، وأنزلها على رسله، وهدى بها عباده وعرفهم بواسطتها نفسه وأسماءه وصفاته وأفعاله وأمره ونهيه ووعيده ووعده، وعرفهم بها الخير والشر والحسن والقبيح، وأقدرهم على التكلم بها... وهذا من أعظم نعمه عليهم، كما هو من أعظم آياته».

﴿وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ الواو: للقسم، و«القلم» مقسم به، والقلم هو أداة الكتابة المعروفة، فبه كتب القدر، كما في حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، قال: يا رب ما أكتب؟، قال: اكتب القدر ما كان وما هو كائن إلى الأبد»[2].

---

(١) انظر: بدائع التفسير» ٤/ ٤٩٩، وانظر الكلام على هذه الحروف بأوسع من هذا في مطلع سورة «ق».

(٢) أخرجه أبو داود في السنة - باب في القدر ٤٧٠٠، والترمذي في القدر ٢١٥٥، وأحمد ٥/ ٣١٧، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ١٤٥.

وبه يكتب الملائكة أعمال بني آدم، وبه يكتب الذكر، وبه يكتب العلم.

﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ الواو: عاطفة و«ما» موصولة، أي: والذي يكتبون، وقد تكون «ما» مصدرية، أي: وسطرهم، أي: كتبهم كما قال تعالى: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝﴾ [العلق: ٣ ـ ٥].

فأقسم عز وجل بأداة الكتابة وهو القلم، وبالذي يكتبون، وهو العلم.

قال ابن تيمية[١]: «أقسم سبحانه بالقلم وما يسطرون: فإن القلم يكون به الكتاب الساطر للكلام المتضمن للأمر والنهي والإرادة والعلم المحيط بكل شيء، فالإقسام وقع بقلم التقدير ومسطوره، فتضمن أمرين عظيمين تناسب المقسم عليه. أحدهما: الإحاطة بالحوادث قبل كونها، وأن من علم بالشيء قبل كونه أبلغ ممن علمه بعد كونه، فإخباره عنه أحكم وأصدق.

الثاني: أن حصوله في الكتابة والتقدير يتضمن حصوله في الكلام والقول والعلم من غير عكس، فإقسامه بآخر المراتب العلمية يتضمن أولها من غير عكس، وذلك غاية المعرفة واستقرار العلم إذا صار مكتوباً، فليس كل معلوم مقولاً، ولا كل مقول مكتوباً، وهذا يبين لك حكمة الإخبار عن القدر السابق بالكتابة دون الكلام فقط، أو دون العلم فقط».

ويؤخذ من افتتاح السورة بقوله ﴿نٓ﴾ ومن الإقسام بالقلم وبالمكتوب فضل العلم وأهله.

وقد أكد القرآن الكريم هذا في مواضع عدة، بل إن أول آية وأول سورة نزلت من القرآن الكريم على النبي ﷺ بالأمر بذلك، قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

وقال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [محمد: ١٩]، قال البخاري «فبدأ بالعلم قبل القول والعمل»[٢].

وقال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

---

(١) انظر: «دقائق التفسير» ٥/ ١٤ ـ ١٥.

(٢) انظر «فتح الباري» ١/ ١٥٩ ـ كتاب العلم ـ باب العلم قبل القول والعمل.

وقال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

وامتن عز وجل على عباده بالعلم بقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [الرحمن: ١ ـ ٤].

وقال ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[(١)].

وقد سجل هذا الشاعر بقوله:

هل العلم في الإسلام إلا فريضة ... وهل أمة سادت بغير التعلم

لقد أيقظ الإسلام للمجد والعلا ... بصائر أقوام عن المجد نوَّم

فأشرق نور العلم من حجراته ... على وجه عصر بالجهالة مظلم

ودك حصون الجاهلية بالهدى ... وقوَّض أطناب الضلال المخيم[(٢)]

وعن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يفعل، وإن العالم ليستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا مالاً ولا درهماً، إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر»[(٣)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده»[(٤)].

وعن معاوية ـ رضي الله عنه قال: «سمعت النبي ﷺ يقول من يرد الله به خيراً يفقهه

---

(١) أخرجه ابن ماجه في المقدمة ٢٢٤ ـ من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه.

(٢) الأبيات لمعروف الرصافي.

(٣) أخرجه أبو داود في العلم ٣٦٤١، والترمذي في العلم ٢٦٨٢، وابن ماجه في المقدمة ٢٢٣، وأحمد ٥/ ١٩٦.

(٤) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ٢٦٩٩، وأبو داود في الصلاة ١٤٥٥، والترمذي في القراءات ٢٩٤٥، وابن ماجه في المقدمة ٢٢٥.

في الدين»[١].

وعن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها»[٢].

وقال ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[٣].

وقال ﷺ: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً»[٤].

وقال ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم»[٥].

وقد قال بعض السلف: «من أراد الدنيا فعليه بالعلم ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ومن أرادهما معاً فعليه بالعلم».

وبالعلم ارتفع كلب الصيد على غيره من الكلاب فجاز اقتناؤه وحل صيده.

قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤].

ولهذا قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لكل شيء قيمة وقيمة المرء ما يحسنه»[٦].

وقال رضي الله عنه:

ما الفضل إلا لأهل العلم إنهم ... على الهدى لمن استهدى أدلاء

---

(١) أخرجه البخاري في العلم ٧١، ومسلم في الزكاة ١٠٣٧، وابن ماجه في المقدمة ٢٢١.
(٢) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤٠٩، ومسلم في صلاة المسافرين ٨١٦، وابن ماجه في الزهد ٤٢٠٨.
(٣) أخرجه مسلم في الوصية ١٦٣١، وأبو داود في الوصايا ٢٨٨٠، والنسائي في الوصايا ٣٦٥١ ـ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٤) أخرجه مسلم في العلم ٢٦٧٤، وأبو داود في السنة ٤٦٠٩، والترمذي في العلم ٢٦٧٤ – من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٥) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٩٤٢، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٤٠٦، وأبو داود في العلم ٣٦٦١ – من حديث سهل بن سعد – رضي الله عنه.
(٦) انظر «الجامع لأحكام القرآن» ٦/ ٧٤.

فعش بعلم ولا تطلب به بدلاً   فالناس موتى وأهل العلم أحياء

وقال الشافعي:

العلم يرفع بيتاً لا عماد له   والجهل يهدم بيت العز والشرف

وقال الآخر:

فصاحة حسان وخط ابن مقلة   وحكمة لقمان وزهد بن أدهم

لو اجتمعت في المرء والمرء جاهل   ينادى عليه لا يسام بدرهم

قوله: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾.

هذا هو المقسم عليه، وهو نفي الجنون عنه ﷺ، وإثبات الأجر غير الممنون له، وأنه على خلق عظيم.

وقوله: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ «ما» نافية عاملة عمل ليس، والباء للسببية، أي: لست يا محمد بسبب نعمة ربك عليك بالنبوة والرسالة ﴿بِمَجۡنُونٖ﴾ أي: بمعتوه فاقد العقل، كما يقوله الجهلة المكذبون المعاندون من قومك، كما هي عادة المكذبين للرسل، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ۝٥٣﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣].

فأقسم عز وجل على تبرئة نبيه ورسوله ﷺ عما يقوله المشركون.

وفي توسيط قوله ﴿بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ﴾ بين اسم «ما» وخبرها، إشارة إلى عظيم نعمة الله عليه ﷺ وأنه بهذه النبوة والرسالة منعم عليه مصطفى من بين العالمين، وتأكيد لنفي ما رموه به إذ كيف تجعل النعمة العظيمة سبباً للجنون، وكيف تجعل النعمة نقمة، فهم أولى بوصف الجنون.

﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ﴾ نكّر «أجراً» للتعظيم، أي: وإن لك لأجراً عظيماً وثواباً جزيلاً غير منقطع، على تبليغك رسالة ربك، وأدائك الأمانة، ونصحك للأمة، وجهادك في الله حق جهاده، كما قال تعالى: ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ۝١٠٨﴾ [هود: ١٠٨]،

وقال تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾ [التين: ٦]، أي: غير مقطوع.

وأيضاً غير ممنون به عليك كما يمن الخلق بإتباعهم ما يُعطون بالمن والأذى من تكبرهم على من يعطونه واحتقارهم له ونحو ذلك.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ هذا قسم منه عز وجل وهو أصدق القائلين، وشهادة منه عز وجل وهو خير الشاهدين لرسوله ﷺ أنه على خلق عظيم فأعظم به من قسم وأكرم بها من شهادة.

والمعنى: وإنك لعلى دين عظيم، لأنه ﷺ تخلق بأخلاق القرآن، وتأدب بآدابه امتثالاً لأوامره، واجتناباً لنواهيه حتى صار ذلك له سجية وطبعاً مع ما جبله الله عليه من كريم السجايا وعظيم الصفات أدباً وحياء، وشجاعة وكرماً، صفحاً وحلماً، شفقة ورحمة، صدقاً ومحبة.

وقد رُوي أنه ﷺ قال: «أدبني ربي فأحسن تأديبي».

ولما سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلقه ﷺ قالت: «كان خلقه القرآن»[1]. وذلك نحو قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ۝١٩٩﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾ [التوبة: ١٢٨].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي «أف» قط، ولا قال لشيء فعلته: لم فعلته؟، ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلته؟، وكان ﷺ أحسن الناس خلقاً، ولا مسست خزاً ولا حريراً، ولا شيئاً كان ألين من كف رسول الله ﷺ ولا شممت مسكاً ولا عطراً كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ»[2].

فكان له ﷺ من كل خصلة من مكارم الأخلاق أعلاها وأكملها وأجلها في حق ربه، وفي تعامله مع أهله وأزواجه وأصحابه وسائر الناس.

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه، قال: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً،

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين – جامع صلاة الليل ٧٤٦، وأبو داود في التطوع – صلاة الليل ١٣٤٢، والنسائي في قيام الليل ١٦٠١، وأحمد ٦/٥٣، ١١١، ١١٦، ١٨٨، ٢١٦، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ١٥٠، ١٥١.

(٢) أخرجه الترمذي في البر والصلة ٢٠١٥، وأخرجه مختصراً البخاري في الوصايا ٢٧٦٨، ومسلم في الفضائل ـ كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً ٢٣٠٩، وأحمد ٣/١٠٧، ٢٠٠، ٢٢٢.

وأحسن الناس خلقاً، ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير»[١].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادماً له قط، ولا امرأة، ولا ضرب بيده شيئاً قط، إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا خُيِّر بين شيئين قط إلا كان أحبهما إليه أيسرهما حتى يكون إثماً، فإذا كان إثماً كان أبعد الناس من الإثم، ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى إليه إلا أن تنتهك حرمات الله، فيكون هو ينتقم لله عز وجل»[٢].

وقال ﷺ: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»[٣].

وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: «ما حجبني رسول الله ﷺ منذ أسلمت، ولا رآني إلا تبسم في وجهي»[٤].

وعن أبي مسعود البدري ـ رضي الله عنه ـ قال: أتى النبي ﷺ رجل فكلمه، فجعل ترعد فرائصه، فقال له: «هوّن عليك فإني لست بملك إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد»[٥] وهذا تواضع منه ﷺ.

فلنا به ﷺ الأسوة والقدوة، كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١].

وكان ﷺ مع ما وهبه الله من خلق كريم يسأل ربه بقوله: «واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت»[٦].

وأوصى ﷺ سلمان رضي الله عنه أن يقول: «اللهم إني أسألك صحة في إيمان وإيماناً في حسن خلق»[٧].

وقال ﷺ: «أحب الأعمال إلى الله الخلق الحسن»[٨].

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب – صفة النبي – ﷺ ٣٥٤٩، ومسلم في الفضائل ٢٣٣٧، والترمذي في اللباس ١٧٢٤.

(٢) أخرجه احمد ٦/ ٢٣٢.

(٣) أخرجه احمد ٢/ ٣٨١ ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه وفي حديث ابن عباس – رضي الله عنهما فيما رواه أبو ذر ـ رضي الله عنه عن أخيه حين بعثه إلى النبي ﷺ فرجع فقال له: «رأيته يأمر بمكارم الأخلاق» أخرجه البخاري في المناقب ٣٨٦١، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٤٧٤.

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٣٠٣٦، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٤٧٥، والترمذي في المناقب ٣٨٢٠، وابن ماجه في المقدمة ١٥٩.

(٥) أخرجه ابن ماجه في الأطعمة ٣٣١٢.

(٦) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٧٧١، وأبو داود في الصلاة ٧٦٠، والنسائي في الافتتاح ٨٩٧، والترمذي في الدعوات ٣٤٢١ – من حديث طويل – عن علي بن أبي طالب – رضي الله عنه.

(٧) أخرجه احمد ٢/ ٣٢١ – من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٨) أخرجه الطبراني.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما من شيء أثقل في ميزان العبد يوم القيامة من حسن الخلق»[١].

وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً»[٢].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أخيركم أحسنكم خلقاً» وفي رواية: «إن خياركم أحاسنكم أخلاقاً»[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم خلقاً»[٤].

وعن أسامة بن شريك رضي الله عنه، قال: جاءت الأعراب فسألوا رسول الله ﷺ وقالوا: ما خير ما أعطي الناس يا رسول الله؟، قال: «خلق حسن» وفي رواية عنه قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أي الناس خير؟ قال: «أحسنهم خلقاً»[٥].

وعن عمرو بن عبسة ـ رضي الله عنه، قال: أتيت رسول الله ﷺ وقلت: أي الإيمان أفضل؟ قال: «خلق حسن»[٦].

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»[٧].

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «إن المؤمن ليدرك بحسن الخلق درجة الصائم القائم»[٨].

وعنها رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «إنه من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي حظه من خير الدنيا والآخرة، وصلة الرحم وحسن الخلق وحسن الجوار يعمران الديار،

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٧٩٩، والترمذي في البر والصلة ٢٠٠٢، وقال: «حديث حسن صحيح» وأحمد ٦/ ٤٥١ - ٤٥٢.

(٢) أخرجه الترمذي في البر والصلة ٢٠١٨ وقال: «حديث حسن غريب».

(٣) أخرجه البخاري في الأدب ٦٠٢٩، ٦٠٣٥، ومسلم في الفضائل ٢٣٢١، والترمذي في البر والصلة ١٩٧٥، وأحمد ٢/ ١٨٥.

(٤) أخرجه الترمذي في الرضاع ١١٦٢، والدارمي في الرقاق ٢٧٩٢، وأحمد ٢/ ٢٥٠.

(٥) أخرجه أحمد ٤/ ٢٧٨.

(٦) أخرجه أحمد ٤/ ٣٨٥.

(٧) أخرجه الترمذي في البر والصلة ـ ما جاء في معاشرة النساء ١٩٨٧، وقال «حديث حسن صحيح».

(٨) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٧٩٨.

ويزيدان في الأعمار»[١].

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً، وبيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه»[٢].

وعن أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ قال: «يا أم سلمة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة»[٣].

وقد أحسن القائل:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا[٤]

فما أجمل الخلق الحسن وأفضله، ويا فوز من منحه الله ذلك، فوفقه للإحسان والندى، قولاً وفعلاً وبذلاً، وكف الأذى، والصبر عليه، وطلاقة الوجه وبشاشته وابتسامته، وينبغي أن يعلم أن العلم بالتعلم والحلم بالتحلم. وقد أحسن القائل:

بعلم وحلم ساد في قومه الفتى ... وكونك إياه عليك يسير[٥]

وقد رُويَ أن رجلاً قال للمأمون استمع فإنني سأشدد عليك في القول، فقال: والله لا أستمع منك ولا كرامة، فإن الله قد بعث من هو خير منك إلى من هو شر مني فقال له: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤].

وقد روي في العفو وحسن الخلق: «أن رجلاً أهدى لرجل هدية، فقال له: مقابل ماذا؟، قال: مقابل أنك أهديت إلي حسناتك في استطالتك في عرضي».

وكان ضمام بن حمزة إذا أصبح قال: «اللهم إني لا شيء عندي أتصدق به، لكني أتصدق بأن أجعل كل من وقع في عرضي في حل مني».

وشتم رجل رجلاً، فلم يرد عليه حتى دخل البيت وصلى ركعتين ثم خرج، فقال له الرجل عجباً لك أشتمك، ثم تصنع هكذا، فقال: نعم دخلت فصليت ركعتين واستغفرت

---

(١) أخرجه أحمد ٦/ ١٥٩، ٤٥١.
(٢) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٨٠٠، والترمذي في البر والصلة ١٩٩٣، وابن ماجه في المقدمة ٥١.
(٣) أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» ١/ ١١٠.
(٤) البيت لأحمد شوقي.
(٥) البيت من شواهد ابن عقيل في باب «كان وأخواتها» ولم ينسب لقائل.

الله من الذنب الذي سلطك عليّ بسببه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله إن فلانة يذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها قال: «هي في النار». قال: يا رسول الله فإن فلانة يذكر من قلة صيامها وصدقتها وصلاتها، وأنها تصدق بالأثوار من الأقط، ولا تؤذي جيرانها بلسانها قال: «هي في الجنة»[1].

فتأمل أخي الكريم وأختي الكريمة في خلقه ﷺ، ولنا فيه أسوة، وتأمل فيما ذكرت لك من النصوص العظيمة والله الله بالخلق الطيب الحسن تبلغ به بإذن الله أعلى الدرجات، وتسعد به في دنياك وأخراك، ويحبك الله ويحبك الناس، وتدرك من الخير والفضل من الله ـ عز وجل ـ بلاكد ولا تعب ـ ما لا يدركه غيرك بالصيام والقيام وبذل المال وغير ذلك، وإياك والكبر والغلظة والفضاضة والجفاء والحقد والحسد وسوء الظن وسوء الخلق فإنها من أسباب الشقاء في الدنيا والأخرة.

قوله: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ أي: فسترى وتعلم يا محمد، وسيرى ويعلم المكذبون لك الزاعمون أنك مجنون، من المفتون منكم عن الحق الضال عنه أأنت أم هم، وفي هذا وعد له ﷺ ولأتباعه، ووعيد للمكذبين له.

وأدخلت الباء في قوله ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ لتدل على تضمين الفعل في قوله ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ معنى العلم والإخبار وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ۝﴾ [القمر: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝﴾ [سبأ: ٢٤].

قال ابن القيم[2]: «و«ستبصر» مضمن معنى تشعر وتعلم، فعدي بالباء، كما تقول: ستشعر بكذا وتعلم به، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝﴾ [العلق: ١٤]، وإذا دعاك اللفظ إلى المعنى من مكان قريب فلا تجب من دعاك إليه من مكان بعيد».

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي: إن ربك يا محمد هو أعلم بالذي تاه وبعد عن طريقه عز وجل ـ الطريق المستقيم ـ وهم المكذبون لك وفي هذا تهديد ووعيد لهم.

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي: وهو أعلم بالمهتدين من العباد، ومنهم أنت وأصحابك

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ٤٤٠.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٥١١.

وأتباعك، وفيه وعد لهم، كما أن في هذا بيان لحكمته عز وجل في هداية من يصلح للهداية دون غيره قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١١٧)﴾ [الأنعام: ١١٦ ، ١١٧]، وقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥)﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى (٣٠)﴾ [النجم: ٢٩ ، ٣٠].

والمعنى: إن ربك هو أعلم بأنهم هم وأتباعهم الضالون عن سبيله، وهو أعلم بأنك وأصحابك وأتباعك أنتم المهتدون.

الفوائد والعبر:

١- تحدي العرب بالقرآن وقد نزل بلغتهم.

٢- إقسام المولى عز وجل بالقلم والكتابة على أنه ﷺ ليس بما أنعم الله به عليه بمجنون، وأن له أجراً غير ممنون، وأنه على خلق عظيم.

٣- أن لله عز وجل أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، لأن إقسامه بها يدل على عظمته هو، أما المخلوق فلا يقسم إلا بالله.

٤- إثبات رسالة النبي ﷺ ونعمة الله عليه بالنبوة، ونفي ما رماه به المكذبون من الجنون.

٥- عظم اجتراء المكذبين للرسل وللدعاة إلى الله برميهم لهم بأقبح الأوصاف كالجنون والسحر والكهانة ونحو ذلك.

٦ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة لنبيه ﷺ وتشريفه له بذلك وتكريمه.

٧- وعد الله عز وجل لنبيه ﷺ بالأجر العظيم غير المقطوع وغير الممنون به عليه، كما يمن الخلق بما يُعطون.

٨- ثناء الله عز وجل على رسوله ﷺ وشهادته له بالخلق العظيم فأعظم بها من شهادة من خير الشاهدين.

٩- وعد الرسول ﷺ والمؤمنين معه ووعيد المكذبين له بظهور حقيقة كل منهم وطمأنة الرسول ﷺ وأن العاقبة له وللمتقين لقوله ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (٥) بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾.

١٠- علم الله عز وجل التام بالضالين عن سبيله وبالمهتدين إليه، وفي هذا أيضاً وعد للمهتدين ووعيد للضالين.

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٥ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ۝١٦﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

أقسم الله عز وجل في مطلع هذه السورة على نفي ما رمى به المكذبون رسوله ﷺ من الجنون، وعلى وعده ﷺ بالأجر غير المنقطع، والشهادة له بالخلق العظيم، والوعد له والوعيد لهم بأن الله سيبين لكل منهم حقيقة حاله، فهو عز وجل الأعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ثم حذر النبي ﷺ من طاعتهم والتنازل معهم فيما يطلبون من المداهنة، ومن الاغترار بحلفهم الكاذب.

قوله: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر أي: فلا تطع يا محمد المكذبين من قومك وغيرهم فيما يطلبون منك من المداهنة وغير ذلك مما فيه مخالفة الشرع وهم غالباً لا يأمرون بخير.

وقد نهى الله عز وجل نبيه ﷺ عن طاعة الكافرين والمنافقين في مواضع عدة من كتابه، كما قال تعالى في مطلع سورة الأحزاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الآية: ١]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ۝٥٢﴾ [الفرقان: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٤٨﴾ [الأحزاب: ٤٨].

ونهيه ﷺ عن طاعة المكذبين والكافرين والمنافقين نهي له ولأمته، وليس في نهيه ﷺ عن طاعة المكذبين دلالة أو إشارة إلى أنه قد يطيعهم.

وقد ذكر ابن تيمية[1] رحمه الله أن قوله: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ الآيات تتضمن أصلين:

«أحدهما: أنه نهاه عن طاعة هذين الضربين، فكان فيه فوائد:

منها أن النهي عن طاعة المرء نهي عن التشبه به بالأولى فلا يطاع المكذب والحلاف ولا يعمل بمثل عملهما.. فإن النهي عن قول من يأمر بالخلق الناقص أبلغ في الزجر من النهي عن التخلق به لوجوه، منها: أن ذلك أبلغ في الإكرام والاحترام فإن قوله (لا

---

(١) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ١٥ - ١٦.

تكذب، ولا تحلف، ولا تشتم، ولا تهمز) ليس هو مثل قوله: لا تطع من يكون متلبساً بهذه الأخلاق لما فيه من تشريفه وبراءته، ومنها: أن الأخلاق مكتسبة بالمعاشرة، ففيه تحذير عن اكتساب شيء من أخلاقهم بالمخالطة لهم فليأخذ حذره فإنه محتاج إلى مخالطتهم لأجل دعوتهم إلى الله تعالى.

ومنها أنهم يبدون مصالح فيما يأمرون به، فلا تطع من كان هكذا، ولو أبداها فإن الباعث لهم على ما يأمرون به هو ما في نفوسهم من الجهل والظلم، وإذا كان الأصل المقتضي للأمر فاسداً لم يقبل الأمر فإن الأمر مداره على العلم بالمصلحة وإرادتها، فإذا كان جاهلاً لم يعلم المصلحة، وإذا كان الخلق فاسداً لم يردها، وهذا معنى بليغ.

والأصل الثاني أنه ذكر قسمين، المكذبين، وذوي الأخلاق الفاسدة، وذلك لوجوه: أحدها: أن المأمور به هو الإيمان والعمل الصالح، فضده التكذيب والعمل الفاسد، والثاني: أن المؤمنين مأمورون بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر منهيون عن قبول ضده وهو التكذيب بالحق والترك للصبر».

﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ أي: أحب المكذبون وتمنوا ﴿لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ أي: لو ترخص لهم وتلين - على حساب دينك - فيلينون، وذلك بأن تطيعهم في بعض ما يأمرونك به، أو تتنازل عن شيء من دينك، فيطيعونك في بعض ما لا يعارض أهواءهم.

أي: أحبوا ملاينته لهم بالتنازل عن بعض ما هو عليه من الحق وقبول بعض ما هم عليه من الباطل، كما قال بعضهم: اعبد إلهنا سنة ونعبد إلهك سنة.

ولهذا امتن الله عز وجل على نبيه ﷺ بتثبيته له أمام هذه الدعوات فقال: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء: ٧٤، ٧٥].

وما نداءات القائلين بالتقارب بين الأديان، والتقريب بين أهل السنة والرافضة كما ينادي بذلك بعض المفتونين والمخدوعين ممن لا يميزون بين الحق والباطل إلا من هذا المنبع الآسن فإن الإيمان لا يجتمع مع الكفر، وإن السنة لا تجتمع مع البدعة.

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾.

نهى عز وجل عن طاعة المكذبين عموماً، ثم أكد النهي، وخص من بينهم الموصوفين بهذه الصفات القبيحة في الآيات.

قوله﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾ أي: ولا تطع كل إنسان حلاف، و«حلاف» على وزن «فعّال» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، أي: حلاف في أقواله، كثير الحلف والأيمان الفاجرة الكاذبة.

كما تدل على الاجتراء على الله والاستهانة بأسمائه وصفاته، ولهذا قال ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: أشيمط زان وعائل مستكبر، ورجل جعل الله بضاعته لا يشتري إلا بيمينه ولا يبيع إلا بيمينه»[1].

﴿مَّهِينٍ﴾ في أفعاله، حقير ضعيف الرأي والتدبير، و«مهين» على وزن «فعيل» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة تدل على أنه بلغ الغاية في المهانة والحقارة، وذلك أن كثرة الحلف تدل غالباً على ضعف الحالف وكذبه وتستره بالأيمان الكثيرة الكاذبة، كما ذكر الله عز وجل عن المنافقين ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ٢]. ولا أذل ولا أحقر ولا أهون ممن عصى الله وخالفه، وآثر شهوات نفسه.

﴿هَمَّازٍ﴾ على وزن «فعّال» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، أي: كثير الهمز، وهو الاغتياب والعيب للناس والاستهزاء بهم بقوله ولسانه، وقد يكون بالفعل والإشارة[2].

قال ابن تيمية[3]: «فالهمز أقوى من اللمز وأشد، سواء كان همز صوت أو همز حركة، والهماز المبالغ في العيب نوعاً وقدراً».

وقد عظم الإسلام أمر الغيبة فقال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ﴾ [الحجرات: ١٢].

وقال ﷺ: «أتدرون ما الغيبة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذكرك أخاك بما يكره»، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟، قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته»[4].

---

(١) أخرجه الطبراني بسند صحيح فيما ذكره شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في كتاب التوحيد انظر «فتح المجيد» ص٤١٦ - ٤١٨.

(٢) انظر الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾.

(٣) انظر «دقائق التفسير» ٥/١٧.

(٤) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨٩، وأبو داود في الأدب ٤٨٧٤، والترمذي في البر والصلة ١٩٣٤- من =

﴿مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾ أي: كثير المشي بالنميمة، والنميمة: نقل الحديث بين الناس للإفساد والتحريش بينهم.

قال ابن تيمية[1]: «والمشاء بنميم هو من العيب، ولكنه عيب في القفا، فهو عيب الضعيف العاجز، فذكر العياب بالقوة والعياب بالضعف، والعياب في مشهد والعياب في مغيب».

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مر رسول الله ﷺ بقبرين، فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة»[2].

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة قتات».

وفي بعض الروايات «لا يدخل الجنة نمام»[3].

وعن أسماء بنت يزيد بن السكن رضي الله عنها: أن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بخياركم؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «الذين إذا رُؤوا ذكر الله عز وجل»[4]. ثم قال: «ألا أخبركم بشراركم؟ المشاؤون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون للبراء العنت[5]»[6].

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ «مناع» كحلاف، و«مشاء» على وزن «فعال» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة أي: أنه بلغ الغاية في منع الخير، فلا يمكن أن يعمل أو يقول أو يقدم خيراً، بل يمنع ما عليه من حقوق من الأعمال والنفقات الواجبة والزكوات والكفارات ولا يبذل شيئاً مما لديه.

﴿مُعْتَدٍ﴾ أي: معتد على عباد الله، متجاوز العدل إلى الظلم، والحق إلى الباطل في حقوق الخلق.

=

حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(١) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ١٧.

(٢) أخرجه البخاري في الوضوء ـ من الكبائر أن لا يستتر من بوله ٢١٦، ومسلم في الطهارة ـ الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه ٢٩٢، وأبو داود في الطهارة ٢٠، والنسائي في الطهارة ٣١، والترمذي في الطهارة ٧٠، وابن ماجه في الطهارة وسننها ٣٤٧.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب – ما يكره من النميمة ٦٠٥٦، ومسلم في الإيمان- بيان غلظ تحريم النميمة ١٠٥، وأبو داود في الأدب – باب القتات ٤٨٧١، والترمذي في أبواب البر ـ ما جاء في النمام ٢٠٢٦، وأحمد ٥/ ٣٨٢، ٣٨٩، ٣٩١.

(٤) أي: أنهم يذكرون بالله عز وجل بكثرة ذكرهم لله عز وجل وشدة خوفهم وخشيتهم وتقاهم وورعهم.

(٥) أي: الذين يطلبون للبريء المشقة، بحيث يرمونه بما ليس فيه.

(٦) أخرجه ابن ماجه في الزهد ـ من لا يؤبه به ٤١١٩، وأحمد ٦/ ٤٥٩، وأخرجه أيضاً ٤/ ٢٢٧ ـ من حديث عبدالرحمن ابن غنم يبلغ به النبي ﷺ.

﴿أَثِيمٍ﴾ كثير الإثم لمنعه الحقوق الواجبة لله وارتكابه المحرمات، قال تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

قال ابن تيمية[١]: «وأما ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ فإن الظلم نوعان: ترك الواجب، وهو منع الخير، وتعد على الغير وهو المعتدي».

وقال السعدي[٢]: «﴿مُعْتَدٍ﴾ على الخلق بظلمهم في دمائهم وأموالهم وأعراضهم ﴿أَثِيمٍ﴾ أي: كثير الإثم والذنوب المتعلقة في حق الله».

﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ العتل: هو الفظ الغليظ الجافي شرس الخُلُق الذي لا ينقاد للحق.

عن حارثة بن وهب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف مُتَضَعَّف لو أقسم على الله لأبره، ثم قال: ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جواظ مستكبر، وفي رواية «كل جواظ جعظري[٣] مستكبر» وفي رواية: «كل جَوَّاظ زنيم متكبِّر»[٤].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال عند ذكر أهل النار «كل جعظري جواظ مستكبر جماع مناع»[٥].

وقد وردت عدة أحاديث مرسلة وعدة آثار عن السلف أن العتل أيضاً هو الشديد الخلق صحيح الجسم الأكول الشروب الظلوم للناس[٦]. وهو بمعنى ما سبق.

﴿زَنِيمٍ﴾ الزنيم: ولد الزنا، الملحق بالقوم الملصق بهم وليس منهم، اللئيم المريب، المشهور بالشر والظلم من شدة تجبره وغلظته.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿زَنِيمٍ﴾ قال: «الدعيّ، الفاحش اللئيم»[٧].

قال الشاعر:

---

(١) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ١٧.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٤٤٦ - ٤٤٧.

(٣) الجواظ: الجموع المنوع، وقيل الكثير اللحم المختال في مشيته، وقيل القصير البطين. الجعظري: الفظ الغليظ، وقيل هو الذي ينتفخ بما ليس عنده، وفيه قصر انظر «لسان العرب» مادة «جعظر» ومادة «جوظ».

(٤) أخرجه البخاري في تفسير سورة القلم ٤٩١٨، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها - النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء ٢٨٥٣، والترمذي في صفة الجنة ٢٦٠٥، وابن ماجه في الزهد ٤١١٦، وأحمد ٤/ ٣٠٦.

(٥) أخرجه أحمد ٢/ ١٦٩، ٢١٤.

(٦) انظر «جامع البيان» ٢٣/ ١٦١ - ١٦٤، «تفسير ابن أبي حاتم» ١٠/ ٣٣٦٥.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٦٥.

زنـيم تـداعاه الرجـال زيـادة كمـا زيـد في عـرض الأديـم الأكـارع[(١)]

وقال حسان[(٢)] في ذم بعض المشركين:

وأنـت زنـيم نـيط في آل هاشـم كمـا نـيط خلـف الراكـب القـدح الفـرد

وقال الآخر:

زنـيم لـيس يعـرف مـن أبـوه بغـيّ الأم ذو حسـب لئـيم[(٣)]

وقد أخرج البخاري[(٤)] عن ابن عباس رضي الله عنهما: «عتل بعد ذلك زنيم» قال: رجل من قريش له زنمة مثل زنمة الشاة»[(٥)].

قال ابن كثير بعد أن ذكر قول ابن عباس السابق[(٦)]: «ومعنى هذا أنه كان مشهوراً بالشر كشهرة الشاة ذات الزنمة من بين أخواتها».

وقال أيضاً[(٧)] بعد سياق كثير من الأقوال: «والأقوال في هذا كثيرة، وترجع إلى ما قلناه، وهو أن الزنيم هو المشهور بالشر، الذي يعرف به بين الناس، وغالباً يكون دعياً ولد زنا، فإنه في الغالب يتسلط الشيطان عليه ما لا يتسلط على غيره، كما جاء في الحديث «لا يدخل الجنة ولد زنا»[(٨)] وفي الحديث الآخر «ولد الزنا شر الثلاثة»[(٩)] وفي حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «هو أشر الثلاثة، إذا عمل بعمل أبويه يعني ولد الزنا»[(١٠)].

قال ابن تيمية[(١١)]: «ويشبه ـ والله أعلم ـ أن يكون الحلاف المهين الهماز المشاء بنميم من جنس واحد، وهو في الأقوال وما يتبعها من الأفعال، والمناع المعتدي الأثيم العتل الزنيم من جنس واحد، وهو في الأفعال وما يتبعها من الأقوال، فالأول الغالب على

(١) البيت ذكره ابن فارس في مقاييس اللغة، وابن منظور في «اللسان» مادة «زنم» ونسبه إلى الخطيم التميمي الجاهلي.
(٢) انظر «ديوانه» ص١١٨.
(٣) انظر «جامع البيان» ٢٣/ ١٦٤.
(٤) في تفسير سورة «ن والقلم»
(٥)زنمة الشاة: شيء يقطع من أذن الشاة، ويترك معلقاً بها. انظر «النهاية»، «لسان العرب» مادة «زنم».
(٦) في «تفسيره» ٨/ ٢١٩.
(٧) في «تفسيره» ٨/ ٢٢١.
(٨)أخرجه أحمد ٢/ ٢٠٣ – من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.
(٩)أخرجه أبو داود في العتق – عتق ولد الزنا ٣٩٦٣، وأحمد ٢/ ٣١١ – من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(١٠) أخرجه أحمد ٦/ ١٠٩.
(١١) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ١٧.

جانب الأعراض، والثاني الغالب على جانب الحقوق في الأحوال والمنافع ونحو ذلك».

فجمع الله عز وجل في وصف هذا الذي نهى نبيه ﷺ عن طاعته أقبح الصفات، فهو كثير الحلف، حقير مغتاب للناس، ساع بنقل الكلام بينهم بقصد الإفساد والتحريش بينهم، مناع لما عليه من حقوق لا يعمل ولا يقدم شيئاً من الخير، متجاوز الحلال إلى الحرام، والعدل والحق إلى الظلم والباطل، كثير الإثم، تارك للواجبات، مرتكب للمحرمات فظ غليظ جاف جموع منوع، زنيم ملحق ملصق في قوم وليس منهم.

فهذه تسع صفات تدل على إغراقه في الشر وبعده عن كل خير، وأنه وصل إلى الغاية العظمى في ذلك، لأن الذي وصفه بهذه الصفات ونعته بها هو العليم الخبير سبحانه وتعالى الذي يعلم السر وأخفى، فبعداً لمن هذه صفاته وسحقاً.

وإذا سبرت أحوال المسلمين وجدت كثيراً منهم لا يخلو من بعض هذه الصفات، مما يوجب علينا جميعاً محاسبة النفس في استعمال ما منحنا الله عز وجل من الجوارح الظاهرة والباطنة في طاعة الله وفيما خلقت له، والبعد بها عما يسخط الله، ومحاسبة النفس في أداء الحقوق، وبذل الخير، والبعد عن الحرام والظلم والإثم، والغلظة والفظاظة والله المستعان.

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة وأبو جعفر ويعقوب وأبو بكر عن عاصم: (أأن كان) بهمزتين على الاستفهام للتوبيخ والتقريع، وقرأ الباقون «أن كان» بهمزة واحدة على الخبر، أي: بسبب أن كان ذا مال وبنين، أي: بسبب إنعامنا عليه بالمال والبنين.

وقوله: ﴿ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ أي: صاحب مال وبنين. فاغتر بماله وبنيه قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥].

والمعنى: مقابل إنعامنا عليه بالمال والبنين اتصف بهذه الصفات المذمومة السابقة.

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا﴾ أي: إذا قرئت عليه آياتنا الشرعية القرآن الكريم قال عنها ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: كذب بها وكفر، وقال: هي مما سطره الأولون من الحكايات والخرافات التي لا تكاد تصدق، كما قال تعالى عنه في سورة المدثر ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ [المدثر: ١١ ـ ٢٦].

﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ﴾ أي: سنذله غاية الإذلال، وسنجعل له وسماً يعرف به، حتى يتبين أمره ويفتضح، والوسم: ما يوضع على الشيء من علامة تميزه عن غيره، ومنه وسم بهيمة الأنعام: الإبل والبقر، والضأن والمعز بعلامة يعرفها بها صاحبها وغيره.

﴿عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ﴾ أي: على الأنف، لأنه أبين وأرفع الوجه.

والمعنى: سنجعل فيه علامة سيئة على أنفه يشهّر به فيها، ونسود وجهه ونبين أمره بياناً واضحاً ونفضحه على رؤوس الخلائق كما قال تعالى في المنافقين ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ﴾ الآية [محمد: ٣٠]».

قال ابن تيمية[1]: «قوله ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ﴾، فيه إطلاق يتضمن الوسم في الآخرة وفي الدنيا أيضاً فإن الله جعل للصالحين سيما وجعل للفاجرين سيما قال تعالى: ﴿سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾ [الفتح: ٢٩]».

وهذه الآيات وإن كانت نزلت في بعض المشركين كالوليد بن المغيرة أو غيره فإنها عامة في كل من اتصف بهذه الصفات لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

الفوائد والعبر:

١- نهي الله عز وجل لنبيه ﷺ عن طاعة المكذبين، وهو نهي له ﷺ ولأمته.

٢- تمني المكذبين ومحبتهم ملاينة الرسول ﷺ لهم وملاينتهم له.

٣- نهي الله عز وجل لنبيه ﷺ عن طاعة كل من كان كثير الحلف حقيراً ضعيف الرأي ينتقص الناس بقوله وفعله ويمشي بينهم بالنميمة، مناعاً للخير، معتدياً على الخلق تاركاً للواجبات مرتكباً للمحرمات كثير الإثم، فظاً غليظاً جافياً كثير الشر، مغتراً بماله وبنيه راداً للحق.

٤ـ وجوب الحذر من الاتصاف بالصفات الذميمة المذكورة في الآية.

٥- ينبغي عدم الاغترار بالمال والبنين لقوله ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٖ وَبَنِينَ﴾.

٦- الوعيد للموصوف بتلك الصفات الذميمة سواء كان هو الوليد بن المغيرة أو غيره بوضع وسم وعلامة على أنفه تشهيراً به بين الخلائق يوم القيامة.

---

(١) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ١٧.

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

قال ابن كثير[(١)]: «هذا مثل ضربه الله تعالى لكفار قريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة وأعطاهم من النعم الجسيمة، وهو بعثه محمداً ﷺ إليهم، فقابلوه بالتكذيب والرد والمحاربة، ولهذا قال: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾».

قوله ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ تكلم عز وجل عن نفسه بضمير العظمة في قوله ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ لأنه العظيم ـ سبحانه وتعالى.

وضمير الغيبة في قوله ﴿بَلَوْنَٰهُمْ﴾ يعود إلى المكذبين للرسول ﷺ من قومه.

والابتلاء: الامتحان، و يكون بالخير والشر كما قال عز وجل: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وقد أحسن القائل:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ... ويبتلي الله بعض القوم بالنعم

أي: امتحناهم فيما أنعمنا عليهم من الخير من بعثة محمد ﷺ وبما أوجبنا عليهم من التكاليف ليثابوا عليها كما امتحناهم بما أغدقنا عليهم من النعم وبما أمددناهم به من الأموال والأولاد والإمهال استدراجاً لهم.

﴿كَمَا بَلَوْنَآ﴾ أي: كما امتحنا ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: أصحاب البستان. وسمي البستان جنة، لأنه يُجن، أي: يستر من بداخله بأشجاره الملتفة الكثيرة وثماره كما قال تعالى: ﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الكهف: ٣٢، ٣٣].

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٢٢.

وأصحاب الجنة هؤلاء هم نفر من بني إسرائيل امتحنهم الله عز وجل بأن ملكهم هذه الجنة التي ورثوها عن والدهم.

قال الإمام أحمد: «هذه مدينة ضروان قد مررت بها، وهي قريبة من عبد الرزاق، رأيتها سوداء حمراء، أثر النار تبين منها، ليس فيها أثر ولا زرع ولا خضرة»[١].

﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ «إذ» ظرف بمعنى «حين» أي: حين حلفوا ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ اللام واقعة في جواب القسم، والصرم: الجذاذ والقطع، أي: ليقطعنها ويجذّن ثمرها ﴿مُصْبِحِينَ﴾ حال، أي: حال كونهم مصبحين، أي: داخلين في الصباح، وذلك اغتراراً منهم.

قال ابن كثير[٢]: «أي: حلفوا فيما بينهم ليجُدُّنّ ثمرها ليلا لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل، ليتوفر ثمرها عليهم ولا يتصدقوا منه بشيء».

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ نهى عن الجذاذ بالليل، والحصاد في الليل»[٣].

﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ حصة المساكين، أو، ولا يستثنون في حلفهم، أي: لم يقولوا: إن شاء الله ولهذا حنّثهم الله في أيمانهم، فأهلكها، قال تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ أي: فنزل بها بلاء محيط، وطرقها طارق ليلاً من أمر الله تعالى وعذابه.

﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ الواو: حالية، أي: أصابتها آفة سماوية فأحرقتها حال كونهم نائمين.

فالمصائب والبليات والرزايا أكثر ما تصيب الناس وهم على غرة غافلون قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأعراف: ٩٧، ٩٨]، وقال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ [النحل: ٤٥ ـ ٤٧].

وقد قيل:

يا راقد الليل مسروراً بأوله ... إن الحوادث قد يطرقن أسحارا

---

(١) انظر: «بدائع الفوائد» ٣/ ١٠٩.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٢٢٢.

(٣) أخرجه البيهقي فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٢٢٣.

لا تفــرحن بليــل طــاب أولــه ... فــرب آخــر ليــل أجــج النــارا[١]

وقال الآخر:

هــي الليــالي وقــاك الله صــولتها ... تصــول حتــى علــى الآســاد في الأجـم

كنــا ملوكــاً لنــا في أرضــنا دول ... نمنــا بهــا تحــت أفنــان مــن الـنعم

فأيقظتنــا ســهام للــردى صــبب ... يُرمــى بــأفجع مــن بهــن رُمــي

﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ أي: فأصبحت كالليل الأسود البهيم من شدة الاحتراق، أو كالهشيم اليابس وبقية الثمر المصروم، والزرع المحصود.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والمعاصي إن العبد ليذنب الذنب فيحرم به رزقاً قد كان هيء له» ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ قد حُرموا خير جنتهم»[٢].

﴿فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ﴾ أي: فتنادوا وقت الصباح، قائلاً بعضهم لبعض: ﴿أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾ أي: هيا اذهبوا إلى حرثكم، قال مجاهد: «كان حرثهم عنباً»[٣].

﴿إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ﴾ أي: إن كنتم عازمين على الصرام والجذاذ، ولم يعلموا ما طاف بجنتهم وما حل بها من العذاب.

﴿فَٱنطَلَقُوا۟﴾ أي: فانطلقوا قاصدين جنتهم، ﴿وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ﴾ الواو: حالية. والمخافتة: المسارة بالكلام، أي: فانطلقوا قاصدين جنتهم لجذاذها حال كونهم يتناجون سراً فيما بينهم ـ خوفاً أن يسمعهم أحد ـ بمنع حق الله تعالى فيها قائلاً بعضهم لبعض:

﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ أي: ينبغي أن لا يدخلن جنتكم اليوم، أي: يوم صرمها ﴿عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ أي: فقير محتاج يطلب منكم الصدقة والإحسان إليه منها، أو يلتقط ما يتساقط من ثمرها. ومن شدة حرصهم وبخلهم مخافتتهم بهذا الكلام خوفاً أن يسمعهم المساكين أو من يخبرهم.

﴿وَغَدَوْا۟﴾ ساروا غدوة إلى حرثهم قبل انتشار الناس حتى لا يراهم أحد.

---

(١) البيتان لمحمد بن حازم الباهلي.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» ٥/ ٢٥٣ ونسبه لابن أبي حاتم وابن المنذر.

(٣) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٢٢٢. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» ٥/ ٢٥٤ ونسبه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

﴿عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾ أي: على إمساك ومنع لحق الله وحق المساكين وانفراد عنهم.

﴿قَٰدِرِينَ﴾ جازمين بقدرتهم على ذلك حسب زعمهم واعتقادهم.

فظنوا أنهم بما أضمروه من جذاذها ليلا ومنع المساكين من دخولها قادرون على الحفاظ عليها وحيازتها فأحاط بها من أمر الله ما لم يخطر لهم على بال بسبب سوء نيتهم، بل وتصميمهم وعزمهم على منع حق الله تعالى فيها.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ أي: فلما وصلوا إليها، وشاهدوها على الوصف الذي ذكر الله ﴿كَٱلصَّرِيمِ﴾ قد تبدلت خضرتها ونضارتها بالسواد.

﴿قَالُوٓاْ﴾ من شدة الحيرة والانزعاج والذهول ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ أي: تائهون عنها أخطأنا طريقها، فليست هذه بجنتنا وذلك لما شاهدوا من البون الشاسع بين حالتها بالأمس وحالها اليوم.

﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ قالوا: هذا بعد أن تيقنوا أن هذه هي جنتهم استحالت هكذا، أي: بل هذه هي، حرمنا خيرها وثمرتها عقوبة لنا على سوء قصدنا. وفي الحديث «وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه»[(١)].

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أي: أعدلهم وخيرهم وأصوبهم رأيا وأحسنهم طريقة ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ الهمزة للاستفهام ومعناه التوبيخ ﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ «لولا» للتحضيض، أي: ألم أقل لكم هلا تسبحون.

ومعنى ﴿تُسَبِّحُونَ﴾ أي: تنزهون الله عما لا يليق به بقولكم: «سبحان ربنا، سبحان الله»، ومن ذلك أيضاً أن تستثنوا في يمينكم فتقولوا: والله لنصرمنها مصبحين إن شاء الله، فهذا من تعظيم الله عز وجل وتنزيهه أن يقع ما لا يريده، أو هلا تسبحون الله وتشكرونه على ما أعطاكم وأنعم به عليكم بأداء حق الله تعالى فيه، ومنه حق المساكين لأن النعم إذا شكرت قرت وإذا كفرت فرت، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم: ٧].

﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ سبحوا الرب ونزهوه وندموا حيث لا ينفع الندم، وبعد أن وقع على جنتهم العذاب الذي لا يرفع.

﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أي: أقروا بظلمهم، أي: إنا كنا ظالمين لأنفسنا بترك تسبيح الله

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الفتن ٤٠٢٢ – من حديث ثوبان رضي الله عنه.

والاستثناء في اليمين، وبسوء نياتنا في حرمان المساكين، وظالمين للمساكين بمنع حقهم.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ﴾ أي: أخذ بعضهم يلوم بعضاً على ما حصل منهم، قائلاً بعضهم لبعض تخويفاً: ﴿يَٰوَيْلَنَآ﴾ الويل: كلمة تهديد ووعيد، أي: يا شدة عذابنا، أو ما أشد عذابنا، فلام بعضهم بعضاً على فعلهم، وتوقعوا عقوبة أشد مما وقع بهم وأعظم.

﴿إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ أي: إنا كنا متجاوزين الحق والعدل إلى الباطل والظلم، فأقروا واعترفوا بذنبهم وخطئهم، وأن ما أصابهم بسبب طغيانهم واعتدائهم وبغيهم، وظلمهم للمساكين.

﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ﴾ «عسى» للترجي، أي: نرجو ربنا خالقنا ومالكنا والمتصرف فينا أن يبدلنا ويعوضنا خيراً من جنتنا التي صارت كالصريم.

﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ أي: إنا راغبون في التقرب إلى ربنا، وطاعته وترك مخالفته تائبون إليه، وراغبون فيما عنده من الخير الدنيوي والأخروي، وبأن يعوضنا عن جنتنا خيراً منها في الدنيا، ويثيبنا على خسارتنا فيها وما فاتنا من ثمرتها، ويحتمل أنهم أرادوا خيراً منها في الآخرة، ويحتمل الأمران.

قال السعدي[(1)]: «فإن كانوا كما قالوا، فالظاهر أن الله أبدلهم في الدنيا خيراً منها، لأن من دعا الله صادقاً ورغب إليه ورجاه أعطاه سُؤْله»،

ولعل من أسباب توفيق الله لهم إلى التوبة صلاح أبيهم الذي كان يأكل ثلث الثمرة ويتصدق بثلثها ويرد فيها ثلثاً، فإن صلاح الآباء قد ينفع الأولاد، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢].

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ الكاف صفة لمصدر محذوف، أي: مثل ذلك العذاب الدنيوي الذي أهلك الله به حرثهم يعذب من عصى الله وخالف أمره ولم يشكره، ومنع حق الله فيما آتاه، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة: ١٥٥].

قال ابن تيمية[(2)]: «وقوله ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ إلخ فيه بيان حال البخلاء، وما يعاقبون به في الدنيا قبل الآخرة من تلف الأموال، إما إغراقاً، وإما إحراقاً، وإما نهباً، وإما مصادرة،

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٤٥١.

(٢) انظر: «دقائق التفسير» ٥/ ١٨.

وإما في شهوات الغي، وإما في غير ذلك مما يعاقب به البخلاء، الذين يمنعون الحق، وليس لهم إقدام في صنايع المعروف، وهو قوله: ﴿مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ وهو أحد نوعي الظلم كما أخبروا به عن نفوسهم في قوله: ﴿يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ وكما قال ﷺ: «مطل الغني ظلم»[1]. فإنه سبحانه إذا أنعم على عبد بباب من الخير وأمره بالإنفاق فيه فبخل عاقبه بباب من الشر يذهب فيه أضعاف ما بخل به، وعقوبته في الآخرة مدخرة».

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ الواو: عاطفة، و«اللام» لام الابتداء والتوكيد، أي: ولعذاب الآخرة أكبر من عذاب الدنيا، مهما كان عذاب الدنيا شديداً كما قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٢١﴾ [السجدة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْيَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ [الزمر: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۝٢٣ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ۝٢٤﴾ [الغاشية: ٢٣، ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٢٧﴾ [طه: ١٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ﴾ [الرعد: ٢٤].

﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ «لو» شرطية. أي: لو كانوا يعلمون علماً ينفعهم أن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا، فيعملون على اتقائه والخلاص منه ولكنهم بذلك جهال لا يعلمون.

وفي هذا وعيد للمكذبين للرسول ﷺ من قومه الذين لم يشكروا نعمة الله عليهم في بعثه ﷺ ووعيد لكل من كفر بالله، أو بنعمه ولم يؤد شكرها وحق الله فيها.

وقد ذكر المفسرون - رحمهم الله - أن أصحاب هذه الجنة كانوا من أهل الكتاب، وكانوا ورثوها من أبيهم، وكان أبوهم يسير فيها سيرة حسنة، فكان يقسم ما يخرج منها أثلاثاً، يأكل منها ثلثاً، ويتصدق بثلث، ويرد فيها ثلثا، فلما مات وورثها عنه بنوه فخالفوا هذه السيرة الحسنة، وعزموا على منع المساكين من دخولها وأكل حقهم فيها، وحيازة ثمرها كله لهم، واتهموا أباهم بالحمق وسوء التصرف، فعوقبوا بنقيض قصدهم، فأحاط بها كلها من أمر الله ما أحاط بها، فخسروا رأس المال والربح والصدقة، ولم يبق لهم شيء.

وهكذا عاقبة من منع حق الله الذي شرعه في المال من حق الفقراء والمساكين وغيرهم

---

(١) أخرجه البخاري في الحوالات ٢٢٨٧، ومسلم في المساقاة ١٥٦٤، وأبو داود في البيوع ٣٣٤٥، والنسائي في البيوع ٤٦٨٨، والترمذي في البيوع ١٣٠٨، وابن ماجه في الأحكام ٢٤٠٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

من الصدقات والنفقات وغير ذلك، لأن حق الله الذي جعله في المال قليل من كثير، فمن منعه وشح به فقد عرض نفسه لمحق البركة وتلف القليل والكثير، مع العذاب الأخروي.

ولهذا جاء في الأثر: «ما هلك مال في بر ولا بحر إلا بسبب منع الزكاة»[1].

والشواهد على هذا من الواقع كثيرة فإن من أخذ المال من طرق حلال، وأنفقه في الحلال، وأدى حق الله فيه للفقراء والمساكين وغيرهم بارك الله له في ماله وسعد به في دنياه وأخراه، بخلاف من منع حق الله في ماله، فإن ذلك يكون سبباً لمحق بركته، بل سبباً لتسلط الآفات السماوية والأرضية عليه، وتسلط أهل السطو والسرقات عليه.

وقد ذكر أن هناك صاحبي دكانين متجاورين كان أحدهما يتساهل في إخراج الزكاة وربما منعها، فتعرض دكانه للسرقة ثلاث مرات، بينما سلم دكان جاره وقد نسي فيه مبلغاً كبيراً من المال على طاولة الجلوس في نفس الأيام التي حصلت فيها تلك السرقات.

فالحقوق الواجبة في المال من الزكاة والنفقات والصدقات وغيرها إذا أخرجت من المال زكته وزادته نماءً وبركة، وإن تركت فيه كانت سبباً لمحق بركته وتلفه، مع العقوبة الشديدة في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥].

وقال ﷺ: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فأحمي عليها في نار جهنم فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره كلما بردت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة، وإما إلى النار..»[2].

الفوائد والعبر:

١ - ابتلاء الله للكفار والمكذبين بما آتاهم من الأموال والأولاد مما حملهم على التكذيب والكفر والعناد.

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» ١/ ٢٤ - من حديث عبادة بن الصامت - رضي الله عنه. وانظر: «كنز العمال» ٦/ ٥٢٥.

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة ٩٨٧، وأبو داود في الزكاة ١٦٥٨ - من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

٢- أن الابتلاء يكون بالخير والشر.

٣- أن كفر النعم وعدم شكرها سبب لزوالها، وهكذا حصل لأصحاب الجنة المذكورة لما عزموا على منع حق المساكين فيها، وأقسموا على ذلك أهلك الله حرثهم، وقد حفظها الله عز وجل لأبيهم في حياته لشكره وأدائه حق الله فيها.

٤- وجوب الحذر من فتنة المال مما يحمل على منع حق الله فيه وغير ذلك.

٥- مشروعية الاستثناء باليمين حتى لا يقع الحالف في الحنث فيأثم.

٦- وجوب الاعتماد على الله وحوله وقوته والبراءة من اعتماد الإنسان على حوله وقوته.

٧ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة لنبيه ﷺ وتشريفه وتكريمه بها.

٨- أن المصائب والرزايا أكثر ما تقع على الناس في ساعة الغفلة والاغترار.

٩- حرمان الإنسان الرزق بسبب الذنب يصيبه.

١٠- الحذر من سوء النية والقصد وخطورة ذلك.

١١- في قصص المبتلين وعقوبات العاصين عظة وعبرة لمن يعتبر.

١٢- توفيق الله عز وجل لأصحاب الجنة بعد هلاك جنتهم إلى الندم وتسبيح الله عز وجل والاعتراف بظلمهم وإقبال بعض على بعض يتلاومون والإقرار بطغيانهم وسؤالهم الله عز وجل أن يبدلهم خيراً منها ورغبتهم إليه سبحانه.

١٣ـ وجوب التوبة إلى الله عز وجل وإثبات ربوبية الله الخاصة لمن تاب وأناب إليه.

١٤- الوعيد والتهديد بالعذاب الدنيوي والأخروي لكل من كفر نعم الله من أهل مكة وغيرهم.

١٥- أن عذاب الآخرة لمن كفر نعم الله وعصاه ولم يشكره أشد من عذاب الدنيا وعقوباتها.

١٦- الحض والحث على العلم الذي ينفع صاحبه في الآخرة وهو العلم بالله عز وجل وما يجب له.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

نهى الله عز وجل عن طاعة المكذبين وبين أنه ابتلاهم بما أنعم به عليهم من النعم وأعظمها نعمة بعثة محمد ﷺ، كما ابتلى أصحاب البستان الذين منعوا حق الله فيه، فأحاط به من أمر الله ما أحاط به، عقوبة عاجلة وعذاباً في الدنيا، ولعذاب الآخرة أكبر لمن عصى الله وكفر نعمه، ولم يؤد حق الله فيها، ثم أتبع ذلك ببيان ما أعده للمتقين من جنات النعيم التي لا تفنى ولا تعتريها الآفات، وأنهم لا يستوون مع المجرمين المكذبين والرد على من زعم ذلك، أو طمع فيه، وهذا على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد.

قوله: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: إن للمتقين الذين اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، ومن ذلك أداء ما عليهم من حقوق وواجبات بدنية أو مالية.

﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أضاف «رب» إلى الضمير العائد إلى المتقين تشريفاً وتكريماً لهم، وإشارة لضمان ذلك لهم، لأن الرب هو الخالق المالك المتصرف.

﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ بساتين النعيم الدائم، وهي المنازل التي أعدها الله لهم، وسماها ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ لما فيها من ألوان النعيم والنعم، ولما فيها من أنواع التنعم، مما لا يعلمه إلا الله عز وجل كما قال عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧]، وقال عز وجل في الحديث القدسي: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»[1].

﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ والتقريع، والنفي.

أي: أفنساوي بين المسلمين والمجرمين في الجزاء الدنيوي والأخروي، أي: لا يمكن أن نساوي بينهم، لأن حكمة الله عز وجل تأبى ذلك وكذا عدله سبحانه، فللمسلمين النعيم

---

(١) اخرجه البخاري في تفسير القرآن ٤٧٨٠، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٢٤، والترمذي في التفسير ٣١٩٧، وابن ماجه في الزهد ٤٣٢٨ – من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه.

والثواب، وللمجرمين العذاب والعقاب.

والمراد بالجعل هنا الجعل الشرعي الجزائي و«المسلمين» هم الذين استسلموا لله عز وجل وانقادوا له بجوارحهم الظاهرة والباطنة وهم المتقون.

و«المجرمين» هم الذين ارتكبوا الجرائم وخالفوا أمر الله ونهيه، وكذبوا رسله.

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ «ما» استفهامية أي: كيف تحكمون بهذا الحكم، وتظنونه، فشتان بين من اتقى الله واستسلم له، وانقاد ظاهراً وباطناً، وبين من عصى الله وخالف أمره وارتكب نهيه في الجزاء الدنيوي والأخروي، قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾﴾ [السجدة: ١٨]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر: ٢٠].

﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ «أم» هي المنقطعة التي بمعنى «بل» وهمزة الاستفهام المفيدة للتوبيخ والتقريع، أي: بل ألكم كتاب منزل من عند الله فيه تقرؤون، فأخذتم منه هذا الحكم الجائر.

﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ أي: إن لكم في هذا الكتاب للذي تختارون لأنفسكم وتشتهونه. والجواب: ليس لكم ولا عندكم كتاب أخذتم منه ذلك، فليس لكم ما تخيرون.

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ «أم» كالتي قبلها، ومثلهما التي بعدها أي: بل ألكم علينا ﴿أَيْمَانٌ﴾ أي: عهود ومواثيق ﴿بَالِغَةٌ﴾ أي مؤكدة مستمرة ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ تضمن وتتكفل ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ أي: للذي تحكمون به لأنفسكم وتختارونه وتريدونه لها. أي : ليس لكم علينا عهود ومواثيق بذلك، فليس لكم ما تحكمون.

﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ «الزعيم» الكفيل الضامن، أي: سلهم يا محمد أيهم المتكفل الضامن أن المسلمين كالمجرمين في الجزاء، وأن للمجرمين ما يتخيرون وما يحكمون حتى يتبين ضعف هذا الادعاء وهذا الظن إذ لا أحد يتكفل لهم بهذا ويضمنه لهم.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ أي: بل ألهم شركاء من الأصنام والأنداد أشركوهم مع الله، فتكفلوا لهم بذلك وضمنوه لهم.

﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ﴾ أي: فليأتوا بهؤلاء الشركاء ويحضروهم ليعطوهم ما تكفلوا به لهم.

﴿ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ أي: إن كانوا صادقين في زعمهم ودعواهم أن لهم ما يتخيرون وما يحكمون به لأنفسهم، أو إن كان هؤلاء الشركاء صادقين.

وكل ما ذكر منتف عنهم فليس لهم كتاب، ولا لهم عهد عند الله، ولا لهم شركاء يستطيعون تحقيق ذلك لهم فدعواهم فاسدة وحكمهم باطل.

الفوائد والعبر:

١- وعد الله للمتقين وبشارتهم بما أُعد لهم عند ربهم من جنات النعيم وفي هذا ترغيب بتقوى الله عز وجل.

٢- إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة للمؤمنين ـ وتشريفهم بها.

٣- شتان بين المسلمين وبين المجرمين فيما أعد الله لكل منهم فالمسلمون لهم السعادة وجنات النعيم، والمجرمون لهم الشقاء وعذاب الجحيم.

٤- اتصاف الله عز وجل بالعدل بأكمل صوره وأسمى معانيه كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقاً في الإخبار وعدلاً في الأحكام وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠].

٥- خطأ المكذبين والمجرمين وضعف رأيهم وبطلان معتقدهم في التسوية بين المسلمين والمجرمين، وأن لهم ما يتخيرون وما يحكمون، فليس لهم ما يحكمون وما يتخيرون، ولا حجة لهم على ذلك ولا دليل

٦- تحدي المكذبين بأن يأتوا بمن يضمن لهم ما ادعوه وحكموا به لأنفسهم من زعيم أو شريك وأنى لهم ذلك.

٧- أن دعاة الضلال ومن أشركوا مع الله وعلى رأسهم الشيطان يتبرؤون من تابعيهم في أضيق الظروف وأشد المقامات يوم القيامة.

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (٤٣) فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٦) أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤٧)﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

لما ذكر الله عز وجل أن للمتقين عند ربهم جنات النعيم، وأنه لا يمكن أن يَجعل المسلمين كالمجرمين في الجزاء، بل لكل جزاؤه، فللمسلمين الثواب، وللمجرمين العقاب، أتبع ذلك ببيان متى يكون ذلك فقال ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ الآيات.

قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ «يوم» ظرف زمان متعلق بما قبله، أي أن جزاء المتقين بجنات النعيم، وجزاء غيرهم بما يستحقون يكون ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة، فيذهب ليسجد، فيعود ظهره طبقاً واحداً»[1].

وهذا الحديث أولى ما تفسر به الآية فيكون معناها: يوم يكشف الله عز وجل عن ساقه.

ويؤخذ منها ومن الحديث إثبات الساق لله عز وجل وكشفه ذلك اليوم، كما يليق بجلال الله وعظمته كما هو مذهب أهل السنة والجماعة.

ولا ينافي هذا ما جاء عن بعض السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم أن معنى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ أي: يوم يكشف عن ساق الجد، أي: يوم الكرب الشديد، والهول الفظيع، والأمر الشديد[2] كما يقال: كشفت الحرب عن ساقيها قال حاتم الطائي[3]:

أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها ... وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢)﴾ [الحج: ١، ٢].

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة القلم ٤٩١٩، ومسلم في الإيمان ١٨٢.

(٢) انظر «جامع البيان» ٢٣/ ١٨٦ ـ ١٩٦.

(٣) انظر «ديوانه» ص ٥٠.

فالآية تحمل على هذا وهذا ولا تنافي بينهما وكل ما ذكر يحصل يوم القيامة وأشد منه.وقد مال ابن تيمية وابن القيم[1] ـ رحمهما الله ـ إلى أن ظاهر القرآن لايدل على إثبات صفة الساق لله ـ عز وجل، لأن قوله (يوم يكشف عن ساق) نكرة في الإثبات لم يضفها إلى الله ولم يقل: عن ساقه، وإنما الذي يدل على ذلك حديث أبي سعيد. والذي يظهر ـ والله أعلم ـ من سياق الآية والحديث أن الحديث شرح وتفسير للآيه، وبهذا تجتمع الآيه مع الحديث، في الدلالة على هذه الصفة.

﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي: ويطلب من المجرمين تبكيتاً لهم أن يسجدوا كالمؤمنين فلا يقدرون عليه ولا يستطيعون الانحناء – لتصلب ظهورهم – كما دل على ذلك حديث أبي سعيد رضي الله عنه وذلك لأنهم امتنعوا عن السجود لله عز وجل وتوحيده في الدنيا يوم أن كان ذلك باستطاعتهم وينفعهم فعوقبوا بهذا، والجزاء من جنس العمل.

والسجود في الأصل يطلق على الانقياد والخضوع مطلقاً، ويطلق على الصلاة كلها كما في قوله ﴿فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]، أي: إذا صلت الطائفة الأولى فليكونوا من ورائكم يحرسون ويطلق على السجود على الأعضاء السبعة كما هو المشهور وهو المراد في الآية هنا.

﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ أي: ذليلة منكسرة خاضعة أبصار المكذبين والمجرمين يوم القيامة.

﴿تَرْهَقُهُمْ﴾ أي: تغشاهم ﴿ذِلَّةٌ﴾ أي: ذل وخوف وهوان وصغار.

﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ الواو: حالية و«قد» للتحقيق.

﴿وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ الواو أيضاً حالية، أي: والحال أنهم قد كانوا يطلب منهم السجود حال كونهم سالمي الأعضاء فلا يسجدون، فعوقبوا بعدم قدرتهم على السجود في الآخرة.

قال ابن كثير[2]: «ولما دعوا إلى السجود في الدنيا فامتنعوا منه مع صحتهم وسلامتهم، كذلك عوقبوا بعدم قدرتهم عليه في الآخرة إذا تجلى الرب عز وجل فسجد له المؤمنون، لا يستطيع أحد من الكافرين ولا المنافقين أن يسجد، بل يعود ظهر أحدهم طبقاً واحداً، كلما أراد أحدهم أن يسجد خر لقفاه، عكس السجود، كما كانوا في الدنيا، بخلاف ما عليه المؤمنون».

---

(١) انظر «مجموع الفتاوى» ٦/ ٣٩٤ ، «الصواعق المرسلة» ١/ ٢٥٢.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٢٢٥ – ٢٢٦.

﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ و«من» موصولة، والمراد بالحديث: القرآن أي: فدعني يا محمد واتركني والذي يكذب بهذا القرآن ولا تستعجل له، فأمره إليّ في حياته وبعد مماته، وفي هذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن كذب بالقرآن.

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ **هذا مما توعدهم الله به في قوله ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ﴾ وذلك باستدراجهم والكيد بهم ليتمادوا في غيهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.**

ومعنى ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: نأخذهم شيئاً فشيئاً من حيث لا يعلمون وذلك بتمتيعهم في الدنيا بالأموال والأولاد والأرزاق والأعمال والأعمار ليتمادوا في طغيانهم ثم نأخذهم بغتة وهم لا يشعرون.

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أي: أمهلهم وأنظرهم وأمدهم لكي يتمادوا في غيهم.

﴿إِنَّ كَيْدِي﴾ الكيد: المكر بخفية، أي: إن مكري الخفي ﴿مَتِينٌ﴾ أي: عظيم لمن كذب رسلي وكتبي، فكيف بمن كذب أفضل رسلي محمداً ﷺ وأعظم كتبي القرآن الكريم.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ۝﴾ [الطارق: ١٥ ـ ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ۝﴾ [الأنفال: ٣٠].

والمعنى: أني أمهلهم وأنظرهم بل وأمدهم لكي يتمادوا في غيهم، ولا أهملهم، بل أكيد لهم في الخفاء وأمكر بهم ثم آخذهم أخذ عزيز مقتدر.

كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝﴾ [المؤمنون: ٥٥ ، ٥٦]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۝﴾ [الأنعام: ٤٤].

وعن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝﴾ [الأنعام: ١٠٢]»[1].

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ «أم» كسابقتها، أي: بل أتسألهم أجراً يعني على

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن ٤٦٨٦، ومسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨٣، والترمذي في التفسير ٣١١٠، وابن ماجه في الفتن ٤٠١٨.

تبليغك الرسالة لهم.

﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ﴾ أي: فهم من هذا الغرم وهو الأجر الذي طلب منهم ﴿مُّثْقَلُونَ﴾ أي: أثقلهم هذا الغرم وعجزوا عن حمله، وحال ذلك بينهم وبين الاستجابة لدعوتك. والجواب: أنك لم تسألهم على ذلك أجراً فلماذا لا يستجيبون.

﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ﴾ أي: بل أعندهم الغيب، أي: أعندهم علم ما غاب عن الحواس من الغيبيات الموجودة، والسابقة واللاحقة من أحوال وأمور الدنيا والآخرة وعلم اللوح المحفوظ.

﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي: فهم يكتبون لأنفسهم ما يريدون وأنهم على كفرهم أفضل منزلة عند الله من أهل الإيمان وأنهم على حق، وأن لهم الثواب عند الله.

والجواب: أنه ليس عندهم علم الغيب فيكتبوا لأنفسهم ما يريدون، بل الغيب لا يعلمه إلا الله، كما قال عز وجل: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [النمل: ٦٥].

وإذا لم يكن عندهم علم الغيب، فلماذا يكذّبون رسل الله وكتبه، وهو عالم الغيب والشهادة وهو العليم الخبير.

الفوائد والعبر:

١- إثبات الساق لله عز وجل على ما يليق بجلاله كما دل على ذلك حديث أبي سعيد رضي الله عنه المتفق على صحته: «يكشف ربنا عن ساقه».

٢- شدة أهوال يوم القيامة وكربه.

٣- عقوبة المجرمين الكافرين بعدم قدرتهم على السجود في الآخرة لأنهم لم يسجدوا لله في الدنيا وفي هذا فضيحة وتوبيخ لهم. والجزاء من جنس العمل.

٤- انكسار وذل أبصار المجرمين يوم القيامة وهوانهم وصغارهم.

٥- الوعيد والتهديد للمكذبين بالقرآن.

٦- استدراج المكذبين وإمهالهم ثم أخذهم بشدة على غفلة منهم وغِرّة.

٧- أن الله عز وجل يكيد لمن كاد لدينه ولأوليائه، كما قال عز وجل ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ [الطارق: ١٥، ١٦].

٨- انقطاع حجج المكذبين وأعذارهم فلم يسألهم النبي ﷺ أجراً مقابل تصديقهم به وبما جاء به فيحتجون بثقل هذه الغرامة، ولم يكن لديهم علم الغيب فيكتبون لأنفسهم ما يريدون ويختارون لها ما يشتهون.

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

أمر الله عز وجل نبيه ﷺ في الآيات السابقة أن يترك أمر المكذبين إليه سبحانه فقال: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ الآيات وفي هذا من التهديد والوعيد ما فيه، ثم أمره بالصبر لحكم الله، ومن ذلك الصبر على أذاهم.

قوله: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ الأمر والخطاب للنبي ﷺ، والصبر لغة: الحبس أي: حبس النفس عن الجزع واللسان عن التشكي، والجوارح عما حرم الله.

وهو أنواع ثلاثة: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله.

وحكم الرب ينقسم إلى أقسام ثلاثة: حكم كوني، وحكم شرعي، وحكم جزائي.

أي: فاصبر لحكم ربك الشرعي في تبليغ رسالته وعبادته، واصبر لحكمه الكوني فيما ينالك من أذى قومك وغير ذلك.

قال ابن تيمية[1]: «وذلك نص في الصبر على ما يناله من أذى الخلق وعلى المصائب السماوية، والصبر على الأول أشد، وصاحب الحوت ذهب مغاضباً لربه لأجل الأمر السماوي، ولهذا قال: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ والإزلاق بالبصر هو الغاية في البغض والغضب والأذى فالصبر على ذلك نوع من الحلم، وهو احتمال أذى الخلق وفي ذلك ما يدفع كيدهم وشرهم».

وقال السعدي[2]: «﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي لما حكم به شرعاً وقدراً، والحكم القدري يُصبر على المؤذي منه، ولا يتلقى بالسخط والجزع، والحكم الشرعي يقابل بالقبول والتسليم والانقياد لأمره».

وأضاف عز وجل حكمه إلى اسمه عز وجل «الرب» الذي معناه الخالق المالك المدبر إشارة إلى أن الأمر له في ذلك كله.

---

(١) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ١٩.
(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٤٥٤.

وأضاف «رب» إلى ضميره ﷺ تشريفاً وتكريماً له ﷺ وطمأنة له ﷺ وأن الله سبحانه هو ربه ومولاه وناصره ومعينه.

﴿وَلَا تَكُن﴾ أي: ولا تكن في الاستعجال والمغاضبة وقلة الصبر،﴿كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ يعني: ذا النون، وهو يونس بن متّى عليه الصلاة والسلام – حين غضب على قومه، ولم يصبر، وذهب متجها إلى البحر، وركبه وما جرى له في ذلك حيث اقترع أهل السفينة لما ثقلت بهم واشتدت بهم الأمواج أيهم يُلقى لئلا يغرقوا، فوقعت القرعة عليه أكثر من مرة ابتلاءً من الله له فألقوه فالتقمه الحوت وهو مليم.

﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ أي: إذ نادى ربه ودعاه ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ الواو حالية، أي: حال كونه مكظوماً، ومعنى ﴿مَكْظُومٌ﴾ أي: مغموم مكروب، قد امتلأ هماً وحزناً، في بطن الحوت، وغمرات اليم بعد ما التقمه الحوت وغاص به في لجج البحر قال تعالى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ [الصافات: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «دعوة أخي ذي النون إذ دعا بها في بطن الحوت ما دعا بها مكروب إلا فرج الله عنه: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾»[1].

والمراد: لا تكن مثله في الاستعجال والمغاضبة، وليس النهي عن كونه مثله في مناداة ربه، فإن الله أثنى عليه في هذا النداء فأخبر أنه نجاه بسببه فقال: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٨].

﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ «لولا» شرطية غير جازمة، وهي حرف امتناع لوجود، أي: لولا أن أدركه نعمة ربه ولطفه عز وجل فرحمه وتاب عليه. وفي قوله ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ تعظيم لهذه النعمة لأنها من «ربه» خالقه ومالكه ومدبره، وفي إضافة ضميره إلى «الرب» تشريف وتكريم ليونس ـ عليه السلام.

﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ﴾ أي: لطرح في الأرض الفضاء الخالية ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ الواو حالية، أي:

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٥٠٥، وأحمد ١/ ١٧٠.

حال كونه مذموماً غير ممدوح مليماً بذنب لكن الله عز وجل تداركه بنعمته وتغمده برحمته، فنبذ وهو ممدوح، وصارت حاله أحسن من حاله الأولى، ولهذا قال ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: ١٤٣ ، ١٤٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أراد الله حبس يونس في بطن الحوت، أوحى الله إلى الحوت أن خذه، ولا تخدش لحماً، ولا تكسر عظماً، فلما انتهى به إلى أسفل البحر، سمع يونس حساً، فقال في نفسه: ما هذا؟ فأوحى الله إليه وهو في بطن الحوت: إن هذا تسبيح دواب البحر، قال: فسبَّح وهو في بطن الحوت، فسمع الملائكة تسبيحه، فقالوا: يا ربنا إنا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة؟ قال: ذلك عبدي يونس، عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر، قالوا: العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح؟ قال: نعم، قال: فشفعوا له عند ذلك، فأمر الحوت فقذفه في الساحل، كما قال الله عز وجل: ﴿وَهُوَ سَقِيمٞ﴾»[١].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن يونس النبي عليه السلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت، قال: «اللهم، لا إله إلا أنت، سبحانك، إني كنت من الظالمين» فأقبلت هذه الدعوة تحف بالعرش، فقالت الملائكة: يارب، صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة؟ فقال: أما تعرفون ذاك؟ قالوا: لايارب، ومن هو؟ قال: عبدي يونس، قالوا: عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبل، ودعوة مجابة؟ قال: نعم، قالوا: يارب، أولا ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتنجيه من البلاء؟ قال: بلى، فأمر الحوت فطرحه في العراء»[٢].

﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أي: استخلصه ربه واصطفاه واختاره ونقاه من كل كدر.

﴿فَجَعَلَهُۥ﴾ بتوفيقه وتقديره الشرعي والكوني ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ من المرسلين المخلصين العبادة له - سبحانه - وفق شرعه وأمره ونهيه الذين صلحت أعمالهم وأقوالهم ونياتهم وأحوالهم، فصارت حاله خيراً وأحسن من حاله الأولى كما صارت حال آدم وزوجه

---

(١) أخرجه البزار في مسنده فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥/ ٣٦٢.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٢٤٦٤ في تفسير سورة الأنبياء.

عليهما السلام بعد توبتهما أفضل من حالهما قبل الذنب والأكل من الشجرة.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى»(١).

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾ الواو: استئنافية. أي: ويقارب الذين كفروا بالله وكذبوا رسله ﴿لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر «لَيَزلقونك» بفتح الياء، وقرأ الباقون بضمها «لَيُزلقونك» أي: لينفذونك بأبصارهم، أي ليصيبونك بأعينهم من حسدهم وحنقهم وغيظهم لولا حفظ الله لك وحمايته إياك منهم.

وهذا غاية ما يقدرون عليه من الأذى له ﷺ، والله حافظه وناصره، كما قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [الطور: ٤٨].

﴿لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾ أي: حين سمعوا القرآن منك، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ۝٤٤﴾ [الزخرف: ٤٤].

وفي هذه الآية دليل على أن العين حق، لكن إصابتها وتأثيرها بأمر الله عز وجل كما وردت بذلك الأحاديث من طرق متعددة.

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «العين حق، ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين، وإذا استُغسلتم فاغسلوا»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «العين حق»(٣).

وعنه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا شيء في الهام، والعين حق، وأصدق الطيرة الفأل»(٤).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ يُعَوِّذ الحسن والحسين، يقول: «أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة» ويقول: «هكذا كان إبراهيم يعوذ إسحاق وإسماعيل عليهما السلام»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٣٩٦، ومسلم في الفضائل ٢٣٧٧، وأبو داود في السنة ٤٦٦٩، وأحمد ١/ ٣٩٠.

(٢) أخرجه مسلم في السلام ـ باب الطب والمرض ٢١٨٨، والترمذي في الطب ٢٠٦٢.

(٣) أخرجه البخاري في الطب ـ باب العين حق ٥٧٤٠، ومسلم في الباب السابق ٢١٨٧، وابن ماجه في الطب، باب العين ٣٥٠٧، وأحمد ٢/ ٣١٨ ـ ٣١٩، ٤٨٧.

(٤) أخرجه الترمذي في أبواب الطب ما جاء أن العين حق والغسل لها ٢٠٦١، وقال: «حديث غريب» وأحمد ٢/ ٢٨٩.

(٥) أخرجه البخاري في الأنبياء ـ ما جاء في الرقية من العين ٣٣٧١، وأبو داود في السنة ٤٧٣٧، والترمذي في أبواب الطب ٢٠٦٠، وابن ماجه في الطب ٣٥٢٥.

وعن أبي سعيد رضي الله عنه أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال: «يا محمد اشتكيت؟ قال: نعم»، قال: باسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك، باسم الله أرقيك»(١).

وعنه رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يتعوذ من أعين الجان وأعين الإنس، فلما نزلت المعوذتان أخذهما وترك ما سوى ذلك»(٢).

وعن أبي أمامة بن سهل بن حُنيف قال: «مر عامر بن ربيعة بسهل بن حُنيف وهو يغتسل، فقال: لم أر كاليوم ولا جلد مخبأة، فما لبث أن لُبِطَ به(٣) فأُتي به النبي ﷺ فقيل له أدرك سهلاً صريعاً، قال: «من تتهمون به»؟ قالوا: عامر بن ربيعة، قال: «علام يقتل أحدكم أخاه؟ إذا رأى أحدكم من أخيه ما يعجبه فليدع له بالبركة» ثم دعا بماء فأمر عامراً أن يتوضأ فيغسل وجهه ويديه إلى المرفقين، وركبتيه، وداخلة إزاره، وأمره أن يصب عليه»(٤).

وعن عائشة رضي الله عنها: «أن رسول الله ﷺ أمرها أن تسترقي من العين»(٥).

وعنها رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «استعيذوا بالله، فإن العين حق»(٦).

وعن أسماء بنت عميس رضي الله عنها قالت: يا رسول إن بني جعفر تصيبهم العين أفأسترقي لهم؟ قال: «نعم فلو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين»(٧).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولا حسد، والعين حق»(٨).

فهذه الأحاديث كلها تدل مع الآية على أن العين حق، وأنها قد تقتل وقد تمرض،

---

(١) أخرجه مسلم في السلام ـ الطب والمرض والرقى ٢١٨٦، والترمذي في الجنائز ـ ما جاء في التعوذ للمريض ٩٧٢، وابن ماجه في الطب ـ من استرقى من العين ٣٥٢٣، وأحمد ٣/ ٢٨، ٥٦، ٥٨، ٧٥.

(٢) أخرجه النسائي في الاستعاذة ٥٤٩٤، والترمذي في الطب ٢١٣٥، وابن ماجه في الطب ٣٥١١، وقال الترمذي: «حسن غريب».

(٣) أي: صرع وسقط إلى الأرض.

(٤) أخرجه ابن ماجه في الطب – باب العين ٣٥٠٩، وأحمد ٣/ ٤٤٧، ٤٨٦، ٤٨٧.

(٥) أخرجه البخاري في الطب – رقية العين ٥٧٣٨ ومسلم في السلام، استحباب الرقية من العين ٢١٩٣، وابن ماجه في الطب ٣٥١٢.

(٦) أخرجه ابن ماجه في الطب ٣٥٠٨.

(٧) أخرجه الترمذي في الطب ـ ما جاء في الرقية من العين ٢١٣٦، ٢١٣٧، وابن ماجه في الطب ٣٥١٠، وأحمد ٦/ ٤٣٨، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

(٨) أخرجه أحمد ٢/ ٢٢٢.

وغير ذلك، وكل ذلك بإرادة الله عز وجل.

كما يدل بعض هذه الأحاديث على مشروعية التعوذ وتعويذ الأولاد من العين، والرقية والاسترقاء منها، وأنه ينبغي إذا رأى الإنسان ما يعجبه أن يدعو له بالبركة.

وإذا كانت الإصابة بالعين حقاً بإرادة الله عز وجل فليس معنى ذلك أن نستسلم للأوهام والوساوس، ولما يقوله السحرة والمشعوذون والدجالون ومردة الجان من الأكاذيب في هذا، بل يجب على المسلم الاعتماد على الله عز وجل والتعوذ والتحصن بالأدعية والأوراد الشرعية، فإنها حصن حصين به يحفظ الله الإنسان من العين والسحر والجن وسائر الشرور قبل الإصابة بها وبعدها فإن شياطين الإنس والجن جعلوا من الإصابة بهذه الأمور مركباً لهم لتشكيك المسلمين في عقائدهم، ونقلهم من بر الأمان بالاعتماد على الله عز وجل والثقة به واللجوء إليه في حال السراء والضراء والتعلق به وحده سبحانه إلى حياة الأوهام والوساوس والمخاوف والقلق، ليروجوا أباطيلهم ودجلهم وكذبهم، ليأكلوا بذلك أموال الناس بالباطل، فإذا جاءهم المريض، أو من ليس عنده إلا وساوس وأوهام سارعوا إلى إدخاله في دوامة لا يخرج منها مدة حياته. فحكموا - قطعاً - بأنه مسحور، أو مصاب بالعين، أو فيه مس من الجنون رجماً بالغيب، فمن راجعهم لا يسلم من أحد الأمور الثلاثة حتى ولو كان جاء ليختبرهم وهو سليم معافى، حتى اتهم أناس بالسحر والعين وهم من ذلك براء، وحصلت بسبب ذلك عداوات وفرقة بين الأقارب والأزواج والإخوة والجيران، ومن بينهم تعامل وتعارف. وكل هذا من تلبيس الشيطان ووساوسه وأوهامه، ليفسد على الناس دينهم وعقائدهم، بل ودنياهم، ويؤجج ذلك ويروج له أكلة أموال الناس بالباطل من شياطين الإنس من السحرة والمشعوذين والدجالين ومرضى القلوب من بعض القراء هداهم الله، وكذا بعض مفسري الأحلام، ممن يريدون الشهرة، ولو على حساب دينهم ـ نسأل الله السلامة والعافية، وأن يكفي المسلمين شرورهم.

قوله ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ أي: ويقولون: إن محمداً لمجنون، أي: مصاب بالجنون وفقدان العقل، معتوه؛ لأنه جاءهم بالقرآن من عند الله عز وجل، وهذا منتهى ما قدروا عليه من الأذى القولي له ﷺ تارة يقولون مجنون وتارة شاعر وتارة ساحر، وتارة كاهن.

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ هذا رد عليهم، أي: ليس محمد ﷺ بمجنون كما تزعمون، وما القرآن الذي جاءكم به إلا ذكر من عند الله عز وجل للعالمين، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ

لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ [الزخرف: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٤، ص: ٨٧، التكوير: ٢٧]. أي: يتذكرون به ما ينفعهم في دينهم ودنياهم.

الفوائد والعبر:

١- تقوية الله عز وجل لقلب نبيه ﷺ بأمره بالصبر، وإثبات ربوبيته الخاصة له.

٢- أن الصبر أكبر معين على القيام بالرسالة والدعوة إلى الله وتحمل الأذى في سبيل ذلك.

٣- نهي الله عز وجل لنبينا محمد ﷺ أن يكون في المغاضبة والاستعجال مثل يونس عليه السلام.

٤- أن ما حصل ليونس عليه السلام من الابتلاء من إلقائه في البحر والتقام الحوت له بسبب مغاضبته لقومه واستعجاله، وعدم صبره.

٥- أنه لا ملجأ في الشدائد إلا إلى الله عز وجل لهذا نادى يونس عليه السلام ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

٦- أن الأنبياء عليهم السلام ليسوا معصومين عن الصغائر لكنهم لا يقرون عليها بل سرعان ما ينبهون عليها ويحدثون منها توبة، ولهذا هنا لم يصرح بما حصل من يونس عليه السلام بينما صرح في ندائه ربه وتوبته إليه.

٧- نعمة الله العظمى على يونس عليه السلام حيث تداركه بنعمته وتاب عليه واستخلصه وجعله من الصالحين، فصارت حاله خيراً وأحسن من حاله الأولى.

٨- فضل نبينا محمد ﷺ على يونس عليه السلام وعلى سائر الأنبياء عليهم السلام.

٩- شدة عداوة الذين كفروا للنبي ﷺ ولما جاء به، وحسدهم له ومحاولتهم إصابته بأبصارهم.

١٠- أن العين حق تصيب بإذن الله عز وجل. وذكر الله عز وجل والتعوذ به كما أمر وقاية منها بإذنه عز وجل قبل وقوعها وعلاج لها بعد وقوعها.

١١- أن ديدن المكذبين للرسل والدعاة رميهم بأبشع الصفات تنفيراً للناس منهم.

١٢- الرد على المكذبين في رميهم الرسول ﷺ بالجنون، وإثبات أن ما جاء به من القرآن إنما هو ذكر للعالمين.

تفسير سورة الحاقة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾.

﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ القيامة، وسميت بذلك لأنها محققة الوقوع، فهي واقعة لا محالة، ولأنها تظهر فيها الحقائق، ويتحقق فيها الوعد والوعيد، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾ [النبأ: ٣٩].

﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ «ما» استفهامية. وهذا تعظيم لأمرها وتفخيم لشأنها، أي: ماهي الحاقه، أمرها عظيم وشأنها كبير.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ تعظيم لأمرها بعد تعظيم، وتفخيم له بعد تفخيم، والواو: عاطفة و«ما» استفهامية، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له.

أي: وما أعلمك ما هي الحاقة، إن أمرها عظيم، وشأنها جسيم، وخطرها كبير، وشرها مستطير، كما قال تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾﴾ [القارعة: ١ ـ ٣]، وقال تعالى: ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾﴾ [الانفطار: ١٥ـ ١٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [الحج: ١ ، ٢]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النازعات: ٣٤ ـ ٣٩]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ [عبس: ٣٣ ـ ٤٢].

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾ الآيات

عظم الله عز وجل أمر القيامة وشأنها ثم ذكر بعض الأمم المكذبين بها وما حل بهم

من العقوبات الدنيوية قبل القيامة تمهيداً لتفصيل أهوال القيامة

و«ثمود» هم قوم نبي الله صالح عليه السلام مساكنهم في الحجر شمال الجزيرة في «العلا»، وهي المعروفة بمدائن صالح.

و«عاد» هم قوم نبي الله هود عليه السلام وهم عاد الأولى، وهم عاد إرم، كما قال تعالى في سورة الفجر: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝﴾ [الآيات: ٦ ـ ٨] مساكنهم بالأحقاف جنوب الجزيرة في اليمن.

و﴿الْقَارِعَةُ﴾: هي القيامة سميت بذلك، لأنها تقرع القلوب وتفزع الناس وتزعجهم بأهوالها، كما قال عز وجل: ﴿الْقَارِعَةُ ۝ مَا الْقَارِعَةُ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ۝﴾ [القارعة: ١ ـ ٣].

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ﴾ الفاء: عاطفة، و«أما» حرف شرط وتفصيل.

﴿فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ أي: بالصيحة العالية الشديدة العظيمة الفظيعة التي تجاوزت الحد حيث صاح بهم جبريل عليه السلام صيحة شديدة قطعت قلوبهم في أجوافهم.

وقال بعض المفسرين: المراد بالطاغية: الطغيان والمعاصي والذنوب، كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ۝﴾ [الشمس: ١١] أي: بسبب طغيانها.

ولا مانع من حمل الآية على المعنيين فبسبب طغيانهم أهلكوا بالطاغية، والجزاء من جنس العمل.

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ﴾ «الريح» تستعمل غالباً فيما يضر ويهلك، و«الرياح» بضد ذلك تستعمل غالباً في الخير وفيما ينفع، ولهذا رُوي في الحديث في دعاء هبوب الريح: «اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً، اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذاباً».

وقد تستعمل «الريح» في الخير وفيما ينفع، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: ٢٢].

﴿صَرْصَرٍ﴾ شديدة البرد، شديدة الصوت.

﴿عَاتِيَةٍ﴾ شديدة العصف والهبوب، عتت على «عاد» وزادت عن الحد.

وفي الحديث قال ﷺ: «نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور»[1].

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: سلطها عليهم. ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾.

أي: متتابعات كاملات بلا زيادة ولا نقصان مشؤومات نحسات كما قال عز وجل في

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة ١٠٣٥، ومسلم في صلاة الاستسقاء ٩٠٠ – من حديث ابن عباس – رضي الله عنهما.

سورة فصلت: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الآية: ١٦].

﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾ أي: مصروعين هالكين موتى.

﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾ كأنهم جذوع وسيقان نخل قطعت رؤوسها ﴿خَاوِيَةٍ﴾ ميتة منقلعة من منابتها هامدة ساقطة على الأرض فهم أجساد بلا رؤوس. كما قال تعالى: ﴿تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [القمر: ٢٠]

قال ابن كثير[1]: «أي: جعلت الريح تضرب بأحدهم الأرض، فيخر ميتاً على أم رأسه، فينشدخ رأسه وتبقى جثته هامدة كأنها قائمة النخلة إذا خرت بلا أغصان»

﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ الفاء: عاطفة و«هل» حرف استفهام يفيد النفي. والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له أي: فهل تشاهد يا محمد ويا أيها الناظر لهم من باقية، أي: أنك لا ترى ولا تشاهد لهم من بقية، بل كلهم هلكوا وبادوا عن آخرهم. وهذه آثار الذنوب والمعاصي فإنها تذر الديار بلاقع.

﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ﴾ فرعون: هو ملك مصر الذي أرسل الله إليه موسى عليه السلام والذي ادعى الربوبية والألوهية، كما قال تعالى عنه أنه قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: ٢٤]. وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

﴿وَمَن قَبْلَهُ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب والكسائي بكسر القاف وفتح الباء: «ومن قِبَله» أي: أتباعه وجنوده من كفار القبط.

وقرأ الباقون: «ومن قَبْله» بفتح القاف وسكون الباء أي: ومن قبله من الأمم المكذبين للرسل.

﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتُ﴾ قرى قوم لوط التي أسقطها الله عز وجل، وجعل عاليها سافلها، كما قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾﴾ [النجم: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [الحجر: ٧٤] والمراد بالمؤتفكات أهلها.

﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾ أي: بالفعلة والأعمال الخاطئة، من الكفر وتكذيب رسل الله وكتبه والخطايا والمعاصي، ومنها إتيان الذكران من العالمين.

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٣٦.

﴿فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ أي: فعصوا رسول ربهم إليهم، و«رسول» اسم جنس، أي: رسل ربهم، والضمير الواو في «عصوا» وضمير «هم» في قوله «ربهم» يعودان إلى فرعون ومن قبله والمؤتفكات أي: كل من هؤلاء كذبوا الرسول الذي أرسله الله إليهم. كما قال تعالى: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۝﴾ [ق: ١٤]، ومن كذب رسوله كمن كذب جميع الرسل، كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝﴾ [الشعراء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝﴾ [الشعراء: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثمود ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٤١].

﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ أي: فأخذهم الله جميعاً أخذة زائدة في شدتها وعظمتها على الحد والمقدار، مهلكة.

يقال: ربا، أي: زاد، ومنه سمي الربا، وهو الزيادة.

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ أي: لما زاد الماء على الحد، وارتفع على الأرض، وغمر السهل والجبل، وعمّ أهل الأرض الطوفان والغرق إلا من كان مع نوح عليه السلام في السفينة.

﴿حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ أي: في سفينة نوح عليه السلام الجارية على وجه الماء بقدرة الله عز وجل، فأنجيناكم من الغرق، وأغرقنا من سواكم من أهل الأرض، فالناس بعد هذا كلهم من سلالة نوح عليه السلام وممن نجوا معه في السفينة.

فامتن الله على الخلق الموجودين بعدهم أن حملهم في الجارية وهي السفينة في أصلاب آبائهم وأمهاتهم الذين نجاهم الله.

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ الضمير في قوله ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾ يعود إلى نعمة الله عز وجل ومنته في إنجاء نوح عليه السلام ومن معه، أي: لنجعلها لكم عبرة وعظة تتذكرون بها نعمة الله تعالى عليكم وعلى أجدادكم، لأن النعمة على السابق نعمة على اللاحق.

ويحتمل عود الضمير على السفينة وكونها تجري على الماء، أي ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾ أي: الجارية، والمراد جنسها.

قال ابن كثير[1] : «عاد الضمير على الجنس لدلالة المعنى عليه، أي وأبقينا لكم من جنسها ما تركبون على تيار الماء في البحار».

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٣٧.

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ١٣، ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ۝﴾ [يس: ٤١ ، ٤٢].

وقيل الضمير يعود إلى نفس سفينة نوح عليه السلام بقيت حتى أدركها أول هذه الأمة.

﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ أي: وتسمعها وتحفظها وتعقلها أذن سامعة حافظة عاقلة، عقلت عن الله فانتفعت بما سمعت من كتاب الله عز وجل.

قال ابن كثير[1]: «أي: من له سمع صحيح، وعقل رجيح، وهذا عام فيمن فهم، ووعى».

والمعنى: ويعقلها أولو الألباب ويأخذون العبرة منها وفي هذا تعريض بأهل الإعراض والغفلة والبلادة وعدم الفطنة لعدم وعيهم وتفكرهم في آيات الله الكونية والشرعية وعدم انتفاعهم بها.

الفوائد والعبر:

١ ـ إثبات القيامة وتحقق وقوعها وظهور الحقائق فيها لهذا سميت الحاقة.

٢ ـ شدة أهوال القيامة وأحوالها، وعظم أمرها وخطرها.

٣ ـ تكذيب ثمود وعاد بالقيامة وما حل بهم من العقوبات العاجلة فثمود أهلكوا بالصيحة الشديدة وعاد أهلكوا بالريح الصرصر العاتية.

٤ ـ ارتكاب فرعون ومن قبله وقوم لوط للأفعال الخاطئة ومعصيتهم لرسل ربهم وأخذهم بشدة وإهلاكهم.

٥ ـ إثبات ربوبية الله العامة لجميع الخلق.

٦ ـ شدة عذاب الله وعقابه وأخذه للظالمين والمجرمين.

٧ ـ التحذير من مسالك المكذبين للبعث المخالفين للرسل كثمود وعاد وفرعون ومن قبله والمؤتفكات، ومن أفعالهم الخاطئة بذكر ما حل بهم من العقوبات الشديدة والهلاك المدمر.

٨ ـ سوء عاقبة الكفر والذنوب والمعاصي وأن عاقبتها الهلاك والدمار وترك الديار بلاقع.

٩ ـ امتنان الله عز وجل على العباد وتذكيرهم بنعمة الله ـ عز وجل ـ على أبائهم بإنجائهم من الغرق بسفينة نوح عليه السلام.

١٠ ـ في إنجاء نوح عليه السلام ومن معه في السفينة، وتسيير السفن على البحار نعمة من الله ـ عز وجل، ودلالة على عظم قدرته ـ عز وجل، وعبرة وعظة لمن يعتبر ويتعظ.

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٣٧.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة عقوباته للمكذبين، وإنجاءه للرسل وأتباعهم في الدنيا، وهذا من الجزاء الدنيوي الدال على عظيم قدرته سبحانه وتعالى، ثم أتبع ذلك بما هو أشد وأعظم، وهو القيامة ومقدماتها وأهوالها وأحوالها والجزاء الأخروي للفريقين.

قوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ الفاء: استئنافية، و«إذا» ظرفية شرطية غير عاملة أي: فإذا نفخ إسرافيل في الصور نفخة واحدة بأمر الله عز وجل إذا تكاملت الأجساد نابتة فتخرج الأرواح، فتدخل كل روح في جسدها فإذا الناس قيام لرب العالمين كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يس: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾ [الكهف: ٩٩].

وهي النفخة الثانية وتسبقها النفخة الأولى لصعق وموت كل من في السموات والأرض إلا من شاء الله، كما قال عز وجل: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾﴾ [النازعات: ٦، ٧].

وأكدها بقوله ﴿نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ أي: مرة واحدة بلا تكرار، لأن أمر الله عز وجل نافذ لا يخالف ولا يمانع، كما قال عز وجل: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢].

﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ رفعت من مكانها بأمر الله عز وجل ﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: فدقتا وسويّتا. قال الطبري[1]: «زلزلتا زلزلة واحدة».

وقال ابن كثير[2]: «أي: فمدت مد الأديم العكاظي وتبدلت الأرض غير الأرض».

وقال السعدي[3]: «أي فتتت الجبال واضمحلت وخلطت بالأرض ونسفت عليها

---

(١) في «جامع البيان» ٢٣/ ٢٢٤.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٢٣٨.

(٣) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٤٦١.

فكان الجميع قاعاً صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا».

قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ﴿٢١﴾﴾ [الفجر: ٢١]، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم: ٤٨].

﴿فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ أي: فيوم ذاك وحينه قامت القيامة، وسميت القيامة بالواقعة لتحقق وقوعها، وقربه لأنها آتية لا محالة، وكل آت قريب.

﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ أي: تفطرت وتصدعت. كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾﴾ [الرحمن: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ [الانشقاق: ١]، وقال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفرقان: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا ﴿١٩﴾﴾ [النبأ: ١٩].

﴿فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ﴾ أي: ضعيفة متداعية بعد أن كانت محبوكة قوية متماسكة لا فطور فيها ولا شقوق، وبعد أن كانت يضرب فيها المثل في قوة الخلق وكبره وشدته، كما قال عز وجل: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾ [النازعات: ٢٧ ، ٢٨].

﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ﴾ الملك: اسم جنس، أي الملائكة الكرام.

﴿عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ﴾ أي: على جوانب السماء وأطرافها وأركانها خاضعين لربهم مستكينين لعظمته.

﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ﴾ أي: ويحمل عرش ربك يا محمد ورب كل مخلوق، والعرش هو أكبر المخلوقات وأضافه إلى الرب لأنه سبحانه استوى عليه كما قال تعالى ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه: ٥].

والخطاب للنبي ﷺ وأضاف ضميره إلى الرب تشريفاً وتكريماً له ﷺ، لأن المراد بالربوبية هنا الربوبية الخاصة بأوليائه عز وجل أي: ويحمل عرش ربك فوق الخلائق يوم القيامة ثمانية من الملائكة في غاية القوة.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أذن لي أن أحدثكم عن ملك من حملة العرش، بُعْدما بين شحمة أذنه وعنقه مَخْفِقُ الطير سبعمائة عام»[1].

وفي رواية عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أذن لي أن أحدث عن ملك

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٧٠، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٢٣٩، وقال: «وهذا إسناد جيد، رجاله كلهم ثقات».

من ملائكة الله من حملة العرش: إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام»[١].

وقيل المراد بالعرش الذي يوضع في الأرض لفصل القضاء، كما قيل: إن المراد بقوله ﴿ثَمَٰنِيَةٌ﴾ ثمانية صفوف من الملائكة.

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ أي: في ذلك اليوم تعرضون على الله للحساب والجزاء ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بالياء على التذكير (لا يخفى) وقرأ الباقون بالتاء (لا تخفى) على التأنيث.

أي: لا تخفى عليه عز وجل منكم خافية من أقوالكم وأعمالكم الظاهرة والباطنة، وغير ذلك لأنه عز وجل عالم الغيب والشهادة يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات، فأما عرضتان فجدال ومعاذير، وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي فآخذ بيمينه وآخذ بشماله»[٢].

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، فإنه أخف عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾»[٣].

الفوائد والعبر:

١ ـ تقرير النفخ في الصور ورد الأرواح إلى أجسادها وبعث الناس للحساب والجزاء وقيام القيامة الكبرى.

٢ ـ عظم أهوال يوم القيامة ففيها تحمل الأرض والجبال وتدك دكة واحدة وتنشق السماء وتتصدع وتتداعى وغير ذلك.

٣ ـ سرعة نفوذ أمر الله ـ عز وجل ـ وعظم قدرته.

٤ ـ انتشار الملائكة على أرجاء السماء وحمل ثمانية منهم عرش الرحمن فوق الخلائق.

٥ ـ إثبات العرش لله عز وجل واستوائه عز وجل عليه فوق الخلائق.

٦ ـ إثبات الربوبية الخاصة لله عز وجل، وهي ربوبيته لرسله وأوليائه.

٧ ـ تشريف النبي ﷺ وتكريمه بإضافة ضميره إلى اسم الرب سبحانه وتعالى.

٨ ـ عرض الخلائق على الله عز وجل في ذلك اليوم وعرض أعمالهم لا يخفى منهم شيء.

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة – باب الجهمية ٤٧٢٧.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الزهد – ذكر البعث ٤٢٧٧، وأحمد ٤/ ٤١٤، وأخرجه الترمذي في أبواب القيامة – ما جاء في العرض ٢٤٢٥ – من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه قال الترمذي: «ولا يصح هذا الحديث من قبل أن الحسن لم يسمع من أبي هريرة، ولا من أبي موسى». وأخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٢٣٠ – من حديث أبي موسى وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما – موقوفاً عليهما.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا – فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٢٤٠.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ (٢٤) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ (٢٧) مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ (٣٧)﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة النفخ في الصور والقيامة وبعض أهوالها وأحوالها، وعرض الخلائق على الله عز وجل، ثم أتبع ذلك بتفصيل حساب من يؤتى كتابه بيمينه، ومن يؤتى كتابه بشماله، وماذا يقول كل منهما، وماذا يقال له، وحال كل منهما ومآله وجزائه.

قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ الفاء: استئنافية و«أما» أداة تفصيل و«من» موصولة.

أي: فأما الذي أعطي كتاب عمله بيده اليمنى، وهو المؤمن تمييزاً وتكريماً له ورفعة.

﴿فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾ كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧١)﴾ [الإسراء: ٧١].

أي: فيقول لكل من لقيه من شدة فرحه واغتباطه واستبشاره وسروره.

﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾ أي: خذوا وهاكم وتعالوا اقرؤوا كتابي، والهاء في «كتابيه» في الموضعين للسكت وكذا في «حسابيه» في الموضعين وفي «ماليه» و«سلطانيه».

فهو لما شاهد وقرأ في كتابه من الحسنات العظيمة الماحية للسيئات مما يبشر بالمغفرة والثواب العظيم ينادي فرحاً مسروراً، هاكم وتعالوا اقرؤوا كتابي كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا (٩)﴾ [الانشقاق: ٧ ـ ٩].

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يدني الله المؤمن يوم القيامة فيقرره بذنوبه كلها حتى إذا رأى أنه قد هلك قال الله: إني سترتها عليك في

الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسناته بيمينه»[(١)].

﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ أي: إني علمت وتيقنت في حياتي في الدنيا أن البعث والقيامة والحساب والجزاء على الأعمال حق، وأني ملاق ومقابل حسابي وجزائي في ذلك اليوم كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة: ٤٦].

أي: فاستعد ـ بتوفيق الله وفضله ـ بالعمل بما يكون سبباً للنجاة في ذلك اليوم.

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي: في عيشة مرضية يرضاها لنفسه، فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين. كما قال عز وجل ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ [الفجر: ٢٧ ، ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾﴾ [الغاشية: ٨ ـ ١٠].

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ أي: في جنة رفيعة المحل والمنازل والقصور والدور، وعالية رفيعة من حيث كون نعيمها في أعلى وأرفع درجات النعيم كيفا وكماً ونوعاً وأبدية.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض أعدها الله للمجاهدين في سبيله»[(٢)].

﴿قُطُوفُهَا﴾ قطوفها: ما يقطف من ثمارها ﴿دَانِيَةٌ﴾ أي: قريبة المنال، يتناولها من يريدها على أي حال كان واقفاً أو جالساً أو مضجعاً أو غير ذلك، لا يحول دونها شوك أو غيره كما قال تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [الإنسان: ١٤].

﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ أي: يقال لهم هذا القول تكريماً لهم وامتناناً عليهم وتفضلاً أي: كلوا من كل طعام لذيذ، واشربوا من كل شراب شهي. وخص الأكل والشرب من بين ألوان وأنواع النعيم لأهميتهما فهما كسوة الباطن.

﴿هَنِيٓـًٔا﴾ حال أي: حال كون الأكل والشرب هنيئاً، والهنيء هو اللذيذ الطعم المستطاب أكله وشربه من غير مكدر ولا منغص.

﴿بِمَآ أَسْلَفْتُمْ﴾ الباء سببية، و«ما» موصولة، أي بسبب الذي أسلفتم، وقدمتم من الأعمال الصالحة من صلاة وزكاة وصيام وحج وصدقة وإحسان في عبادة الله وإلى عباد

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم والغصب ٢٤٤١، ومسلم في التوبة ٢٧٢٨، وابن ماجه في المقدمة ١٨٣.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٧٩٠، ومسلم في الإمارة ١٨٧٦، والنسائي في الجهاد ٣١٢٢، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٥٣.

الله، وفعل لأوامر الله وترك لنواهيه.

﴿فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ أي: في الأيام الماضية الفائتة في الدنيا التي جعلها الله مزرعة للآخرة.

فالأعمال الصالحة سبب لهذا النعيم، وليست عوضاً عنه خلافاً للمعتزلة وقد قال ﷺ: «لن يدخل أحداً منكم عمله الجنة. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»(١).

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ الآيات.

بعدما ذكر الله مقال من يؤتى كتابه بيمينه ومآله، وما يقال له أتبع ذلك بذكر مقال من يؤتى كتابه بشماله ومآله، جمعاً بين الوعد والوعيد والترغيب والترهيب ليجمع المؤمن في طريقه إلى الله بين الخوف والرجاء حتى يلقى الله.

قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ أي: وأما الذي أوتي كتاب عمله بيده الشمال بعد أن تلوى وراء ظهره تمييزاً له وإذلالاً وخزياً له وفضيحة وعاراً، قال عز وجل: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الانشقاق: ١٠ ـ ١٢].

﴿فَيَقُولُ﴾ من شدة الهم والغم والحزن ﴿يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾ أي: أتمنى أني لم أعط كتابي، وذلك لما يرى من السيئات الكثيرة والقبائح الفظيعة والبشارة له بدخول النار.

﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ أي: ويا ليتني لم أدر ما هو حسابي، أي: لم أبعث ولم أحاسب.

﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾ أي: يا ليت الموتة التي متها كانت القاضية، أي: فلم أحي بعدها.

وقيل: إنه تمنى أن يموت مع أنه لم يكن شيء في الدنيا أكره إليه من الموت.

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ﴾ «ما» نافية، أي: ما نفعني مالي ولا دفع عني شيئاً من عذاب الله تعالى لأني لم أقدم منه شيئاً للآخرة.

﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ﴾ أي: ذهب واضمحل ما كان لي من الحجة والتسلط والقوة، من الجنود والمنعة والعدد والعدة والجاه العريض وغير ذلك.

أي: أن مالي وسلطاني ما نفعاني وما دفعا عني عذاب الله تعالى.

---

(١) أخرجه البخاري في المرضى ٥٦٧٣، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار ـ لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى ٢٨١٦، وابن ماجه في الزهد ٤٢٠١ – من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿خُذُوهُ﴾ أمر من الله عز وجل للزبانية الغلاظ الشداد بأن يأخذوا من أوتي كتابه بشماله ويمسكوا به بشدة وعنف وبلا رحمة في المحشر.

﴿فَغُلُّوهُ﴾ أي: قيدوه بالأغلال والأوثاق في عنقه ويديه وقدميه وناصيته، كما قال تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾﴾ [الرحمن: ٤١].

وقد ذكر المفسرون أنه إذا قال الله للزبانية ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ ابتدره سبعون ألف ملك، وقيل غير ذلك.

﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ الجحيم: النار العظيمة شديدة التوقد والاشتعال والحرارة والظلمة بعيدة القعر.

﴿صَلُّوهُ﴾: أدخلوه واغمروه فيها، وقلبوه على جمرها ولهبها.

﴿ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ﴾ من سلاسل الجحيم في غاية الحرارة ﴿ذَرْعُهَا﴾ أي طولها بالذراع ﴿سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ والذراع من المرفق إلى نهاية الأصابع بذراع الرجل المعتدل، وقيل بذراع الملك ﴿فَٱسْلُكُوهُ﴾ أي: فانظموه فيها، وذلك بأن تدخل السلسلة من دبره وتخرج من فمه، ويعلق فيها في نار جهنم.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن رُضَاضَة مثل هذه، وأشار إلى مثل جمجمة أرسلت من السماء إلى الأرض، وهي مسيرة خمسمائة سنة، لبلغت الأرض قبل الليل، ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفاً الليل والنهار، قبل أن تبلغ قعرها أو أصلها»[1].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: إنما عذب بما ذكر بسبب أنه ﴿لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: لا يصدق بالله العظيم الذي له غاية العظمة بل يكفر بالله وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته ولا ينقاد لأمره ونهيه.

﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ أي: ولا يحث أهله وغيرهم على إطعام المسكين من ماله وغيره.

والمسكين هو الفقير المحتاج، الذي أسكنه الفقر وأذله.

وإذا كان لا يحث على إطعام المسكين، فهو من باب أولى لا يطعم المساكين، فلا إحسان لديه في عبادة الله، ولا إلى عباد الله، لهذا عذب بما ذكر.

---

(١) أخرجه الترمذي في أبواب صفة جهنم - صفة طعام أهل النار ٢٥٨٨، وأحمد ٢/ ١٩٧ وقال الترمذي: «حديث حسن».

فهو لا يقوم بحق الله بعبادته وطاعته، ولا يؤدي حقوق خلقه في ما استخلفه الله فيه من المال لأن الدين الإسلامي قائم على دعامتين هما: الإحسان في عبادة الله، إخلاصاً له، ومتابعة لرسوله ﷺ، والإحسان إلى عباد الله بأنواع الإحسان بالقول والفعل والمال والجاه وغير ذلك.

ولهذا أمر الله بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وقرن بينهما في نحو اثنين وثمانين موضعاً لأن في الصلاة الإحسان في عبادة الله، وفي الزكاة الإحسان إلى عباد الله، بل إن القرآن كله والسنة النبوية كلها الأمر فيهما دائر بين الأمر بالإحسانين: الإحسان في عبادة الله عز وجل والإحسان إلى عباد الله، وقد قبض النبي ﷺ وهو يقول: «الصلاة وما ملكت أيمانكم» فما زال يكررها حتى ما يفيض بها لسانه»[1].

﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي يوم القيامة ﴿هَٰهُنَا﴾ أي: في الآخرة.

﴿حَمِيمٌ﴾ أي: قريب، أو صديق مشفق يشفع له ويدفع عنه عذاب الله كما قال تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ [غافر: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣].

والناس في الدنيا يتناصرون بينهم، ويدافع بعضهم عن بعض، ولكن في ذلك اليوم لا أحد ينتصر لأحد كما قال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الصافات: ٢٥، ٢٦].

﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ أي: وليس له في ذلك اليوم طعام إلا من غسالة صديد وقيح ودم أهل النار، وهو شر طعام أهل النار في غاية الحرارة والمرارة ونتن الريح وقبح الطعم. وقيل: المراد بالغسلين شجرة الزقوم.

﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ أي: لا يأكل هذا الغسلين إلا أهل الخطايا المتعمدة من الكفر وسائر المعاصي والذنوب، الذين أخطؤوا الطريق المستقيم، وسلكوا طريق الجحيم.

والخاطئون: جمع خاطئ، وهو من تعمد الخطأ.

فالخاطئون من تعمدوا الكفر والمعاصي والذنوب بخلاف المخطئ فهو من وقع في

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الجنائز - ما جاء في ذكر مرض رسول الله ﷺ ١٦٢٥، وأحمد ٦/ ٢٩٠، ٣١١ من حديث أم سلمة رضي الله عنها، وأخرجه أحمد أيضاً ١/ ٧٨ من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، و٣/ ١١٧ من حديث أنس رضي الله عنه.

الخطأ سهواً ومن غير قصد.

الفوائد والعبر:

١ - انقسام الناس يوم القيامة إلى قسمين: مؤمن آخذ كتابه بيمينه وكافر آخذ كتابه بشماله.

٢ـ فضل اليمين على الشمال.

٣- فرح واستبشار من أوتي كتابه بيمينه وعرضه لكتابه على من لقيه، وذكر السبب الذي أوصله إلى ذلك وهو إيمانه بالبعث والحساب والجزاء.

٤- عظم ما أعد الله لمن أوتي كتابه بيمينه من الثواب والأجر العظيم فعيشته راضية، ومسكنه جنة عالية، ثمارها دانية، مع النعيم المعنوي بالتهنئة لهم على ما قدموا في الأيام الماضية.

٥ـ وجوب الإيمان بالبعث والاستعداد بالعمل الصالح.

٦- حزن واستياء من أوتي كتابه بشماله وهو الكافر، وتمنيه أنه لم يؤت كتابه ولم يدر ما حسابه، وأنه لم يبعث بعد الموتة الأولى.

٧- اعتراف من أوتي كتابه بشماله بأنه لم ينفعه ماله الذي كان يجمعه، ولا دفع عنه عذاب الله سلطانه وقوته في الدنيا، وهما اللذان كانا من أسباب تجبره وتكبره ورده الحق.

٨- شدة عذاب من أوتي كتابه بشماله، والجمع له في النار بين العذاب المعنوي والعذاب الحسي لقوله ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾ ففي هذا الأمر والقول عذاب معنوي وفي إيقاعه عليه عذاب حسي.

٩- أن سبب تعذيب المعذبين هو عدم إيمانهم بالله العظيم، وعدم أداء حقوق المساكين من خلقه.

١٠- وجوب الإيمان بالله إحساناً في عبادته وإخلاصاً له، والإحسان إلى خلقه وبهذا ينجو الإنسان من العذاب ويظفر بالثواب.

١١- ليس لمن أدخل النار قريب أو صديق ينفعه أو يدفع عنه العذاب.

١٢- ليس للمعذب في النار طعام سوى غسالة وصديد أهل النار مما لا يأكله إلا من ارتكبوا الخطايا والآثام من الكفر وغيره.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة القيامة وأهوالها، وانقسام الناس فيها إلى قسمين من يؤتى كتابه بيمينه، ومن يؤتى كتابه بشماله وجزاء كل منهما، ثم أتبع ذلك بالإقسام على أن القرآن حق والرد على المكذبين.

قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾ الفاء: للاستئناف و «لا» زائدة من حيث الإعراب ومؤكدة من حيث المعنى، والقسم هو الحلف، والمعنى: فأقسم بالذي ترون وتشاهدون أيها الخلق من الأشياء والذي لا ترونه ولا تشاهدونه منها أي: أقسم بالأشياء كلها ويدخل في ذلك نفسه المقدسة. وهذا أعم قسم في القرآن الكريم، فإنه يعم العالم العلوي والسفلي والدنيا والآخرة وما يرى وما لا يرى من الملائكة والجن والإنس والعرش والكرسي وكل شيء، وكل ذلك من آيات الله ودلائل قدرته وربوبيته وصدق رسوله ﷺ، وأن ما جاء به هو من عند الله وكلامه وتنزيله، وليس بقول شاعر ولا بقول كاهن، وأنه حق من عند الله كما أن هذه الأشياء كلها حق ما يرى منها وما لا يرى.

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ هذا هو جواب القسم، «إنه» أي: القرآن الكريم ﴿لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ يعني: محمداً ﷺ، لأنه هو المبلغ عن الله عز وجل لهذا أضافه إليه، كما أضافه في سورة التكوير إلى الرسول الملكي جبريل عليه السلام لأنه الواسطة الذي نزل بالقرآن من عند الله عز وجل إلى النبي ﷺ قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾﴾ [الآيات: ١٩ ـ ٢١].

وأضافه إلى الرسول بلفظ القول بينما أضافه إلى نفسه بلفظ الكلام في قوله: ﴿حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، لأنه عز وجل هو المتكلم به، ولأن الرسول مأمور بأن يقول لمن أرسل إليهم ما أمره الله به، كما قال عز وجل ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [الإسراء: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ [النور: ٣٠]. ولهذا قال المسيح عليه السلام: ﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ﴾ [المائدة: ١١٧].

قال ابن القيم[١]: «وفي إضافته إليه باسم الرسالة أبين دليل أنه كلام المرسِل، فمن أنكر أن يكون الله قد تكلم بالقرآن فقد أنكر حقيقة الرسالة. ولو كانت إضافته إليه إضافة إنشاء وابتداء لم يكن رسولاً، ولناقض ذلك إضافته إلى رسوله الملكي في سورة التكوير».

وقوله ﴿كَرِيمٍ﴾ أي: كريم الصفات والسجايا والأخلاق صلوات الله وسلامه عليه كما قال عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

وهو كريم ﷺ بتبليغ رسالة ربه إلى الناس وبيان ما أنزل إليه من الوحي أتم بيان وأكمله كما قال عز وجل ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير: ٢٤].

ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها: «لو كتم محمد ﷺ شيئاً مما أوحي إليه من كتاب الله لكتم ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]»[٢].

وهو ﷺ كريم جواد بالمال جاءه رجل فسأله فأعطاه غنماً بين جبلين فرجع إلى قومه قائلاً: «يا قوم أسلموا فإن محمداً يعطي عطاءً لا يخشى الفاقة» وفي رواية «وما يخاف الفقر»[٣].

وعن أبي سعيد رضي الله عنه أن ناساً من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتى إذا نفذ ما عنده قال: «ما يكن عندي من خير فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله، وما أعطي أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر»[٤].

ولقد أحسن القائل:

هو البحر من أي النواحي أتيته ... فلجته المعروف والجود ساحله

تعوّد بسط الكف حتى لو انه ... ثناها لقبض لم تجبه أنامله

ولو لم يكن في كفه غير روحه ... لجاد بها فليتق الله سائله[٥]

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ «ما» نافية، أي: وما هو - يعني القرآن الكريم بقول شاعر كما

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٥/٨.
(٢) أخرجه مسلم في الإيمان ١٧٧، والترمذي في التفسير ٣٠٦٨.
(٣) أخرجه مسلم في الفضائل ٢٣١٢ - من حديث أنس - رضي الله عنه.
(٤) أخرجه مسلم في الزكاة ١٠٥٣.
(٥) الأبيات لأبي تمام.

تزعمون، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ [الطور: ٣٠]، وقال الوليد بن المغيرة فيما حكى الله عنه ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ فتوعده الله عز وجل بقوله ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾﴾ [المدثر: ٢٦ ، ٢٧].

﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ قرأ ابن كثير ويعقوب وهشام بالياء: ﴿مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ وكذا في قوله: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُونَ﴾ وقرأ الباقون في الموضعين بالخطاب. أي: قليلاً إيمانكم، والمراد: أنه لا إيمان عندكم، أي: فالذي حملكم على قولكم: إنه شاعر هو عدم إيمانكم وهم وإن كانوا يقرون بتوحيد الله، وأن الله عز وجل هو الرب الخالق الرازق كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

لكن هذا لم يدخلهم في الإيمان لأنهم كذبوا بتوحيد الألوهية وبالرسالات والكتب السماوية وبهذا ينتقض إقرارهم بتوحيد الربوبية لأن من لازمه الإقرار بتوحيد الألوهية.

﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ أي: وليس القرآن ﴿بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ والكاهن: هو من يدعي علم الغيب، والغيب لا يعلمه إلا الله كما قال عز وجل: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [النمل: ٦٥].

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: قليلاً تذكركم واتعاظكم، والذي حملكم على رميه بالكهانة هو عدم تذكركم فلو آمنوا وتذكروا لعلموا أنه رسول الله حقاً وصدقاً.

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: أن هذا القرآن العظيم منزل من رب العالمين، ربوبية عامة، بمعنى خالقهم ومالكهم ومدبرهم، عالَم الإنس والجن والملائكة والحيوان والنبات والجماد وغير ذلك من العوالم.

فهو كلام الله عز وجل منزل من عنده، وليس من كلام البشر كما زعم المشركون أن الرسول ﷺ تقوّله من عند نفسه، وليس مخلوقاً كما يقول المعتزلة.

وفي الآية إثبات علو الله تعالى على خلقه علو الذات وعلو الصفات، لأن الإنزال يكون من أعلى إلى أسفل.

وفيها أنه تكلم بالقرآن حقيقة وأنه منزل من عنده غير مخلوق لقوله ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ [الزمر: ١]، وقال تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ

حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ [فصلت: ٤٢].

وفيها أن ربوبيته الكاملة لخلقه تأبى أن يتركهم سدى لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يرشدهم إلى ما ينفعهم، ولا يحذرهم ما يضرهم، بل يتركهم هملاً بمنزلة الأنعام السائمة، فمن زعم ذلك لم يقدر رب العالمين حق قدره ونسبه إلى ما لا يليق به.

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾.

بعد ما بين الله عز وجل أن القرآن الكريم تنزيل منه عز وجل، جاء به من عنده المبلغ عنه رسوله ﷺ، ونفى أن يكون قول شاعر وكاهن كما زعم المشركون أتبع ذلك ببيان أنه لا يمكن أن يكون الرسول ﷺ تقوّله من عند نفسه كما يزعمون أيضاً قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور: ٣٣ ، ٣٤]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ [هود: ١٣].

وقوله ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾ الواو: استئنافية و«لو» شرطية غير عاملة، وهي حرف امتناع لامتناع و «تقوّل» بمعنى كذب وافترى واختلق من عند نفسه ﴿بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾ أي: بعض الأكاذيب والافتراءات والاختلاقات، أي: بأن يكون افترى القرآن من عند نفسه كما يزعم المشركون، أو زاد فيه أو نقص أو غيّر وبدّل في الرسالة ونسب ذلك إلينا.

﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ أي: لعاجلناه بالعقوبة وأخذناه بيمينه وبقدرة وقوة شديدة.

﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ «الوتين» نياط القلب، وهو عرق يجري في الظهر حتى يتصل بالقلب، إذا انقطع بطلت القوى وهلك الإنسان، وقيل نخاع الظهر.

فلو قدر أن الرسول ﷺ تقول على الله ـ وحاشاه من ذلك ـ لعاجله الله بالعقوبة وأخذه أخذ عزيز مقتدر لأن حكمته تقتضي أن لا يمهل من كذّب وتقوّل عليه وبخاصة في أمر النبوة، فكيف ينصره ويؤيده بالمعجزات، فنصره له وتأييده بالمعجزات والآيات البينات وتمكينه له أعظم شهادة منه على صدق رسالته.

﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ الفاء: عاطفة، و «ما» نافية تعمل عمل ليس، و(أحدٍ) في محل رفع اسمها، و «حاجزين» خبرها منصوب بالياء. أي ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ أيا كان ﴿عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ يحجزون عنه عذابنا إذا استحق ذلك، ولا أحد منكم يمتنع منا إذا أردنا إهلاكه، لا بنفسه ولا بغيره.

وليس بيننا وبين أحد من الخلق نسب ولا حسب، وإنما المعول في ذلك تقوى الله وطاعته.

وهذا كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٦٥].

ولكنه ﷺ لم يتقول شيئاً من عند نفسه، ولم ينطق بشيء مما جاء به عن الهوى كما قال عز وجل ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: ٣ ، ٤].

ولهذا كان يقول ﷺ: «من يمنعني حتى أبلغ رسالة ربي»[(١)].

﴿وَإِنَّهُ﴾ أي القرآن الكريم ﴿لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: لتذكير وموعظة للمتقين، يتذكرون به عظمة الله عز وجل، وأسماءه وصفاته وأفعاله وثوابه وعقابه ووعده ووعيده، وأمره ونهيه وما أعده لأوليائه من الجنان والنعيم، وما أعده لأعدائه من النار والجحيم، يتذكرون به أمور دينهم ودنياهم وأخراهم.

و«المتقين» الذين يتقون الله عز وجل بفعل أوامره وترك نواهيه.

وخص المتقين لأنهم هم الذين ينتفعون به ويتذكرون كما قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤].

﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ أي: وإنا لنعلم – أنه مع هذا البيان والوضوح سيوجد منكم أيها الناس من يكذب بالقرآن، وهم لا يخفون علينا، فسنجازيهم بتكذيبهم، وفي هذا وعيد وتهديد لهم، وتكلم ـ عز وجل ـ عن نفسه بضمير العظمة في قوله (وإنا) وفي قوله (لقطعنا) لأنه العظيم سبحانه.

﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (وإنه) أي: التكذيب بالقرآن والرسالة ﴿لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي: أسى وندامة على الذين كذبوا وكفروا يوم القيامة حيث لا ينفع الأسى والندم ذلك اليوم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام: ٢٧].

ويحتمل أن يعود الضمير في قوله ﴿إِنَّهُ﴾ إلى القرآن.

قال ابن كثير[(٢)]: «ويحتمل عود الضمير على القرآن أي: وإن القرآن والإيمان به

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة ٤٧٣٤، والترمذي في فضائل القرآن ٢٩٢٥، وابن ماجه في المقدمة ٢٠١ من حديث جابر رضي الله عنه وقال الترمذي «حديث حسن صحيح».

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٢٤٦.

لحسرة في نفس الأمر على الكافرين، كما قال: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [الشعراء: ٢٠٠، ٢٠١]، وقال تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤]». ويقوي هذا قوله بعد ذلك: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾.

وقال ابن القيم(١): «إن رسوله وكلامه حسرة على الكافرين إذا عاينوا حقيقة ما أخبر به كان تكذيبهم عليهم من أعظم الحسرات حين لا ينفعهم التحسر، وهكذا كل من كذب بحق وصدّق بباطل فإنه إذا انكشف له حقيقة ما كذب به وصدق به كان تكذيبه وتصديقه حسرة عليه، كمن فرط فيما ينفعه وقت تحصيله حتى إذا اشتدت حاجته إليه وعاين فوز المحصلين صار تفريطه عليه حسرة».

﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ أي: وإن القرآن ﴿لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ و«اللام» للتوكيد ومعنى ﴿لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ أي: أعلى مراتب العلم.

أي: إن القرآن للحق المتيقن، والخبر الصدق، الذي لا مرية فيه ولا شك ولا ريب كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝﴾ [البقرة: ٢]، وقال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾ [السجدة: ٢]، وأيضا هو حق اليقين لما فيه من الحقائق والمعارف الإيمانية والبراهين القطعية.

قال السعدي(٢): «فأعلى مراتب العلم: اليقين، وهو العلم الثابت الذي لا يتزلزل ولا يزول، و«اليقين» مراتبه ثلاث، كل واحدة أعلى مما قبلها، أولها: علم اليقين، وهو العلم المستفاد من الخبر، ثم عين اليقين، وهو العلم المدرك بحاسة البصر، ثم حق اليقين، وهو العلم المدرك بحاسة الذوق والمباشرة».

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: بقولك: سبحان ربي العظيم. والذي معناه تنزيه الرب عن النقائص والعيوب، وعن مشابهة المخلوقين وعما لا يليق بجلاله.

و«العظيم» من أسماء الله ـ عز وجل على وزن «فعيل» يدل على إثبات صفة العظمة له ـ عز وجل، أي: الذي لا أعظم منه، وله الكبرياء والعظمة. فعظمه بعبادته والخضوع له وتقواه حق تقاته وذكر أوصاف جلاله ونعوت كماله.

رُويَ بسند فيه انقطاع عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «خرجت أتعرض

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٥/١٨.
(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/٤٦٨.

رسول الله ﷺ قبل أن أسلم، فوجدته قد سبقني إلى المسجد، فقمت خلفه، فاستفتح سورة الحاقة، فجعلت أعجب من تأليف القرآن قال: فقلت: هذا والله شاعر، كما قالت قريش، قال: فقرأ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ قال: فقلت: كاهن، قال: فقرأ: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ۝ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۝ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ۝ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝﴾، قال: فوقع الإسلام من قلبي كل موقع»[1].

الفوائد والعبر:

١ - إقسام الله عز وجل بما يُرى وبما لا يُرى - وهو أعظم قسم في القرآن - على تعظيم القرآن الكريم وأنه تنزيل من رب العالمين، نزّله الله عز وجل على رسوله محمد ﷺ، وليس بقول شاعر ولا كاهن، وذم الذين لا يؤمنون ولا يتذكرون.

٢ - أن لله - عز وجل - أن يقسم بجميع مخلوقاته وبما شاء منها.

٣ - إثبات علو الله عز وجل على خلقه علو الذات وعلو الصفات، وربوبيته العامة للعالمين.

٤ - أن القرآن كلام الله عز وجل منزل من عنده، وليس بمخلوق كما تقول المعتزلة ومن سلك مسلكهم الضال.

٥ - ثناء الله - عز وجل - على رسوله ﷺ والرد على من يزعمون أنه تقوّل القرآن من عند نفسه، وبيان عدم استطاعة الرسول ﷺ لا هو ولا غيره التقول على الله والكذب عليه، ولو تقول عليه متقول لأهلكه، لأن الله عز وجل لا يخفى عليه شيء ولا يعجزه شيء.

٦ - لا أحد يستطيع أن يمتنع من الله - عز وجل وعذابه.

٧ - أن القرآن الكريم تذكرة وموعظة وعبرة للمتقين.

٨ - علم الله عز وجل بأن من الناس من يكذب بالقرآن وما جاء به الرسول ﷺ، والوعيد والتهديد لهم.

٩ - أن التكذيب بالقرآن حسرة وندامة على الكافرين لإعراضهم عنه.

١٠ - أن القرآن الكريم هو الحق المتيقن والخبر الصدق الذي لا شك فيه ولا مرية.

١١ - مشروعية تسبيح الله عز وجل بتعظيمه وعبادته، وتنزيهه عن النقائص والعيوب وعن مشابهة المخلوقين.

١٢ - تشريف النبي ﷺ وتكريمه بإضافة ضميره إلى اسم «الرب» عز وجل بربوبيته الخاصة لأوليائه.

١٣ - إثبات اسم الله - عز وجل «العظيم» وصفة العظمة التامة له عز وجل، ولهذا تكلم - عز وجل - عن نفسه بضمير العظمة «نا» في هذه الآيات.

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ١٧ - ١٨، وانظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ٢٤٥.

تفسير سورة المعارج

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ۝١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ۝٣ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ۝٤ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ۝٧ يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ۝٩ وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ۝١٠ يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ۝١٣ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ ۝١٤ كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ ۝١٦ تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧ وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ ۝١٨﴾.

قوله: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر (سال) بألف دون همز، وقرأ الباقون بألف وهمز.

ومعنى ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾ دعا داع واستفتح مستفتح، تكذيباً واستبعاداً وتعجيزاً ﴿بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾ الباء تدل على تضمين الفعل «سأل» معنى فعل آخر نحو «استعجل» أو «أجيب» ونحو ذلك.

وهذا أولى من القول بتضمين الحرف معنى حرف آخر - وإن كان الجميع وارداً في القرآن الكريم - لأن تضمين الفعل معنى فعل آخر أكثر وروداً في القرآن الكريم فينبغي الحمل عليه، فهو أولى فيكون التقدير هنا: سأل سائل فأجيب بعذاب واقع، أو استعجل سائل بعذاب واقع.

﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ جار ومجرور متعلق «بواقع»، أي: كائن للكافرين لا محالة لاستحقاقهم ذلك بكفرهم وتمردهم، فمنه ما قد يعجل لهم في الدنيا ومنه ما يدخر لهم في الآخرة.

كما قال تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ﴾ [الحج: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ۝٣٢﴾ [الأنفال: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ۝١٦﴾ [ص: ١٦].

رُوي عن ابن عباس: «أن قوله تعالى ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾ الآيات نزلت في النضر بن الحارث بن كلدة»[1]. والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٧٣.

﴿لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ أي: ليس لهذا العذاب دافع يدفعه، ولا راد يرده ويمنعه عنهم قبل نزوله، ولا يرفعه عنهم بعد نزوله، كما قال تعالى ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾ [الطور: ٧، ٨].

﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: هذا العذاب واقع بهم من الله عز وجل فهو الذي يوقعه بهم فلا يستطيعون له دفعاً ولا منعاً.

﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾ أي: صاحب السموات والعلو والجلال والعظمة والدرجات، والفواضل والنعم.

﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ قرأ الكسائي: (يعرج) بالياء على التذكير، وقرأ الباقون بالتاء على التأنيث (تعرج).

أي: تصعد الملائكة والروح إليه عز وجل.

والملائكة: هم خلق من خلق الله عز وجل خلقهم الله من نور يعبدون الله، ويأتمرون بأمره، ولا يعصونه كما قال عز وجل: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم: ٦]، وقال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾ [الأنبياء: ٢٠].

والروح، هو جبريل عليه السلام ملك الوحي كما قال عز وجل ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝١٩٣﴾ [الشعراء: ١٩٣]، فيكون عطفه على الملائكة من باب عطف الخاص على العام، ويؤيد هذا ويقويه قوله عز وجل في سورة القدر ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤﴾ [القدر: ٤].

ومعنى ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ أي: تصعد الملائكة، وجبريل عليهم السلام إليه عز وجل بما وكل إليهم من الأمر.

ويحتمل أن يكون «الروح» اسم جنس لأرواح بني آدم، لأن الروح إذا قبضت يُصعد بها إلى السماء، فأما روح المؤمن فما يزال يُصعد بها من سماء إلى سماء حتى تصل إلى السماء السابعة بقربه عز وجل، وأما روح الكافر فتغلق دونها أبواب السماء فتعاد إلى الأرض.

كما في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال على الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه». وذكر قبض روحه ثم قال: «فيصعدون بها، فلا يمرون - يعني بها - على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟»..إلى أن قال: «حتى ينتهى به إلى السماء

الدنيا فيستفتحون له، فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهى به إلى السماء السابعة»، قال: «وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة سود الوجوه». وذكر قبض روحه ثم قال: «فيصعدون بها فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟» إلى أن قال: «حتى ينتهى به إلى السماء الدنيا فيستفتح له، فلا يفتح له..» الحديث(١).

﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وهو يوم القيامة.

عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ قال: «لو قدرتموه لكان خمسين ألف سنة من أيامكم، قال: يعني يوم القيامة»(٢).

وعن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: فهذا يوم القيامة، جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة»(٣).

وهكذا دلت السنة على هذا المعنى كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من صاحب كنز لا يؤدي زكاته إلا أحمي عليه في نار جهنم فيجعل صفائح فيكوى بها جنباه وجبينه حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار» الحديث(٤).

وعن أبي سعيد رضي الله عنه أنه قال لرسول الله ﷺ: «﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ما أطول هذا، فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن، حتى يكون أخف عليه من الصلاة المكتوبة يصليها في الدنيا»(٥).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قوله ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: «منتهى أمره من أسفل الأرضين إلى منتهى أمره من فوق سبع سموات ﴿مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، ويوم كان مقداره ألف سنة يعني بذلك نزول الأمر من السماء إلى الأرض،

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٢٨٧، ٢٩٥ – ٢٩٦.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٧٤، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٢٤٩، وقال: «إسناده صحيح».
(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٢٥٣.
(٤) أخرجه مسلم في الزكاة ـ إثم مانع الزكاة ٩٨٧، وأبو داود في الزكاة ـ باب في حقوق المال ١٦٥٨، والنسائي في الزكاة ـ التغليظ في حبس الزكاة ٢٤٤٨، وأحمد ٢/ ٢٦٢، ٤٨٩ – ٤٩٠.
(٥) أخرجه أحمد ٣/ ٧٥، وابن حبان ٧٣٣٤، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٢٥٣، وأبو يعلى ١٣٩٠.

ومن الأرض إلى السماء في يوم واحد، فذلك مقداره ألف سنة، لأن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام ﴾»[١].

قال السعدي[٢] في كلامه على قوله تعالى ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾: «ثم ذكر المسافة التي تعرج فيها الملائكة والروح إلى الله، وأنها تعرج في يوم بما يسر الله لها من الأسباب، وأعانها عليه من اللطافة والخفة وسرعة السير مع أن تلك المسافة على السير المعتاد مقدار خمسين ألف سنة، من ابتداء العروج إلى بلوغها ما حدها وما تنتهي إليه من الملأ الأعلى ـ إلى أن قال: «هذا أحد الاحتمالات في تفسير هذه الآية الكريمة فيكون هذا العروج والصعود في الدنيا لأن السياق الأول يدل عليه، ويحتمل أن هذا في يوم القيامة لكن الله تعالى يخففه على المؤمن».

﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ أي: اصبر يا محمد على طاعة الله ـ عز وجل، وعلى دعوة قومك، وعلى أقدار الله المؤلمة ومن ذلك أذى قومك وتكذيبهم لك واستعجالهم العذاب.

﴿صَبْرًا جَمِيلًا﴾ «صبرا» مصدر مؤكد، و«جميلاً» صفة له.

والمعنى: صبراً لا جزع فيه ولا قلق، ولا ملل ولا تَضَجُّر، ولا شكوى فيه لغير الله كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]. وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝﴾ [الشعراء: ٣].

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا﴾ «إنهم» يعني المشركين والمكذبين للنبي ﷺ.

﴿يَرَوْنَهُۥ﴾ أي: يرون العذاب وقيام الساعة ﴿بَعِيدًا﴾ أي: مستحيل الوقوع وينكرونه، ولهذا استعجلوا وقوعه، قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٣].

﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ أي: أنه عز وجل يرى قيام الساعة ووقوع العذاب قريباً لأنه رفيق حليم لا يعجل، ويعلم أنه لا بد أن يكون، كما أخبر به عز وجل فقال: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝﴾ [القمر: ١].

وكذلك المؤمنون يعتقدون قرب ذلك، لأن الله أخبر بذلك فهو آت، وكل آت

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٧٣.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٤٧٠ – ٤٧١.

قريب، ولأن عمر الإنسان قصير، وكذلك عمر الدنيا كلها قصير بما في ذلك حياة البرزخ بالنسبة للآخرة.

﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ أي: أن قيام الساعة ووقوع العذاب الذي يستعجلونه، والذي هو قريب يكون ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾.

و«المهل» دردي وعكر الزيت المغلي، أو الرصاص المذاب والفضة المذابة و«العهن» الصوف المنفوش كما قال تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾﴾ [القارعة: ٥].

فمن علامات قيام الساعة ووقوع العذاب كون السماء المحبوكة الشديدة العظيمة الخلقة تذوب فتكون كالزيت المغلي في الذوبان والحمرة أو كالرصاص المذاب، وكون الجبال الشامخات الراسيات كالصوف المنفوش في الخفة، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾ [النبأ: ٢٠]، ثم تكون بعد ذلك هباءً منثوراً.

وإذا كانت السماء والجبال مع عظمة خلقهما يعتريهما ما يعتريهما من التبدل والتغير، فكيف بالإنسان المخلوق الضعيف، ولهذا قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾﴾ [النازعات: ٢٧].

﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ قرأ أبو جعفر (ولا يُسأل) أي: ولا يُطلب بعضهم من بعض، فلا يقال للحميم أين حميمك، وقرأ الباقون (ولا يَسأل).

أي: ويوم لا يسأل قريب قريبه عن حاله لانشغال كل بنفسه، والحميم: القريب المشفق كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [القصص: ٦٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٧]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [لقمان: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ [غافر: ١٨].

فالناس في الدنيا وبخاصة الأقارب يتناصرون فينصر بعضهم بعضا، وربما بالباطل لكن في ذلك اليوم هيهات لا أحد ينصر أحدا.

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أي: يُبصَّر الأقارب بعضهم بعضا ويُعَرَّف بعضهم بعضا، ولا ينفع أحد أحداً، بل يفر بعضهم من بعض.

﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ﴾ أي: يحب ويتمنى من اكتسب الجرائم من الكفر والذنوب والمعاصي وحق عليه العذاب.

﴿لَوْ يَفْتَدِى﴾ أي: لو يتخلص وينجو ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾ أي: من عذاب ذلك اليوم يوم القيامة ﴿بِبَنِيهِ﴾ أي: بأبنائه، وخص الأبناء دون البنات، لأنهم أغلى ما يملك، ويعدون للدفع والمنع في الدنيا غالباً أما في الآخرة فهم والبنات سواء لا يملكون شيئاً من ذلك.

﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾ زوجته التي قد تكون أحب الناس إليه، ولا يرضى في الدنيا أن تنظر إليها العيون، ويقدم نفسه فداءً لها و حفاظاً عليها في ذلك اليوم يوم القيامة يود لو قدمها فداء لنفسه.

﴿وَأَخِيهِ﴾ الأخ من اشترك معك في أصليك «أبيك وأمك» وهو الشقيق، أوفي أحدها وهو الأخ لأب، أو الأخ لأم. والأخ من أهم من يعد في الدنيا للمناصرة وفي الحديث «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»[1] وإن كان الحديث عاماً في أخوة الإسلام لكن يدخل فيه دخولاً أولياً من جمع بين الأخوتين أخوة الإسلام وأخوة النسب.

ويقول شاعرهم:

أخاك أخاك إن من لا أخا له   كساع إلى الهيجا بغير سلاح[2]

﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾ أي: وعشيرته الأقربين ﴿ٱلَّتِى تُـْوِيهِ﴾ أي: التي تضمه في النسب وتنصره وتدافع عنه في الشدة ويأوي إليها.

﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ويود لو يفتدي من العذاب بكل الذين في الأرض جميعاً ولو كان أغلى ما لديه.

﴿ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ أي: ثم يخلصه ذلك الفداء من عذاب ذلك اليوم، أو ثم يخلصه الله عز وجل مقابل ذلك الفداء من عذاب ذلك اليوم.

قال ابن كثير[3]: «أي: لا يقبل منه فداء، ولو جاء بأهل الأرض، وبأعز ما يجده من

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم ٢٤٤٣، والترمذي في الفتن ٢٢٥٥ ـ من حديث أنس ـ رضي الله عنه.

(٢) البيت للربيع بن ضبع الفزاري.

(٣) في «تفسيره» ٨/ ٢٥٢.

المال، ولو بملء الأرض ذهباً، أو من ولده الذي كان في الدنيا حشاشة كبده يود يوم القيامة إذا رأى الأهوال أن يفتدي من عذاب الله به، ولا يقبل منه».

﴿كَلَّآ﴾ للردع والزجر والنفي أي: ليس له ما يود.

﴿إِنَّهَا﴾ أي: النار ﴿لَظَىٰ﴾ اسم من أسماء النار، سميت به، لشده لظاها واشتعالها وحرارتها.

﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ قرأ حفص عن عاصم (نزاعةً) بالنصب، وقرأ الباقون بالرفع (نزاعةٌ)، أي: تنزع الشوى وهو جلدة الرأس، أو ما دون العظم من اللحم، أو مكارم وجهه، وأطرافه، فهي تنزع اللحم حتى تصل إلى العظم، بل حتى تنفد إلى القلب، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ [الهمزة: ٧].

والمعنى: ﴿كَلَّآ﴾ ليس له ما يود، وليس له إلا النار الموصوفة بما ذكر.

﴿تَدْعُواْ﴾ أي: تنادي النار إلى نفسها ﴿مَنْ أَدْبَرَ﴾ أي: الذي أدبر عن الإيمان فكذب به بقلبه ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: أعرض عنه بجوارحه فلم يستعملها في طاعة الله، بل استعملها في معصية الله تعالى، قال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ۝﴾ [الفرقان: ١٢]، وقال تعالى: ﴿إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۝﴾ [الملك: ٧].

قال ابن كثير[1]: «تدعوهم يوم القيامة بلسان طلق ذلق، ثم تلتقطهم من بين أهل المحشر، كما يلتقط الطير الحب».

﴿وَجَمَعَ﴾ أي: جمع المال بعضه على بعض، وربما من أي طريق كان ﴿فَأَوْعَىٰٓ﴾ أي: جعله في أوعية وصناديق وأوكاه بالأقفال، ومنع حق الله فيه من الزكاة والنفقات الواجبة والمستحبة فجمع بين الإدبار والتكذيب بقلبه، والتولي عن العمل بجواحه والانكباب على الدنيا وجعلها أكبر همه.

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما أنها جاءت إلى النبي ﷺ فقال: «لا توعي فيوعي الله عليك ارضخي ما استطعت»[2].

وكان عبد الله بن عكيم – رضي الله عنه – لا يربط كيسه، ويقول: سمعت الله

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٥٢.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة ـ الصدقة فيما استطاع ١٤٣٤، ومسلم في الزكاة – الحث على الإنفاق وكراهة الإحصاء ١٠٢٩.

يقول: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾[١].

وقال الحسن البصري رحمه الله تعالى: «يا ابن آدم، سمعت وعيداً، ثم أوعيت الدنيا»[٢].

ومن هنا ينبغي أن يحذر الإنسان من فتنة المال والدنيا، فكم زلت بسبب ذلك من أقدام. وقد حذر منها المصطفى ﷺ فقال: «والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم»[٣] وهذا هو واقع كثير من أصحاب الأموال.

الفوائد والعبر:

١ ـ سؤال الكافرين العذاب واستعجالهم به استبعاداً لوقوعه وتكذيباً به وهو واقع من الله بهم لا محالة ولا دافع يدفعه عنهم.

٢ ـ علو الله وعظمته وجلاله وإفضاله وإنعامه لقوله ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾.

٣ ـ إثبات وجود الملائكة، وفضل جبريل من بينهم، وعروجهم إلى الله عز وجل.

٤ ـ إثبات يوم القيامة وطوله لقوله ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.

٥ ـ أمر النبي ﷺ بالصبر الجميل على طاعة الله تعالى وعلى أقداره المؤلمة ومن ذلك الصبر على الأذى في سبيل الدعوة إلى الله عز وجل، وهو أمر له ولكل من سلك طريقه من أمته.

٦ ـ تعظيم الله ـ عز وجل ـ لنفسه لقوله (ونراه) وهو العظيم سبحانه.

٧ ـ قرب قيام الساعة وعذاب المكذبين، لأن ذلك آت لا محالة وكل آت قريب، ولأن عمر الإنسان بل عمر الدنيا ليس بشيء بالنسبة للآخرة.

٨ ـ شدة أهوال يوم القيامة وكرباته وانشغال كل قريب عن قريبه مع إبصار بعضهم بعضا.

٩ ـ تمني المجرم أن يفتدي من عذاب ذلك اليوم بأعز الناس عليه وأقربهم إليه، وغيرهم ولكن هيهات ليس له ذلك.

١٠ ـ شدة النار ولظاها وعذابها ومناداتها على أصحابها ممن أدبر وتولى عن الإيمان وكان همه جمع الحطام وكنزه.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٢٦٥.

(٢) ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٢٥٣.

(٣) أخرجه البخاري في المغازي ٤٠١٥، ومسلم في الزهد والرقائق ٢٩٦١، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٦٢، وابن ماجه في الفتن ٣٩٩٧ ـ من حديث عمرو بن عوف ـ رضي الله عنه.

﴿۞إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة بعض أهوال يوم القيامة وحال المجرمين فيها، وتمنيهم التخلص من عذاب ذلك اليوم، وأن لظى مرصدة تدعو كل من أدبر عن الإيمان فكذب به بقلبه، وأعرض عنه بجوارحه، وجعل همه الدنيا ثم أتبع ذلك ببيان ضعف الإنسان عموما فهو جزوع إن أصابه الشر، ومنوع إن أصابه الخير إلا المؤمنين المصلين الذين ذكر الله صفاتهم في هذه الآيات، فهم عند المصيبة يصبرون، وعند الخير لا يمنعون.

قوله: ﴿۞إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ أي: إن الإنسان عموماً، أي: جنس الإنسان ﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾ أي: أوجد حال كونه هلوعاً.

وقد فسر عز وجل قوله ﴿هَلُوعًا﴾ بقوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ وهذا من تفسير القرآن بالقرآن.

أي: إذا أصابه الشر والضر من فقر أو مرض أو ذهاب محبوب له من أهل أو ولد أو مال وغير ذلك ﴿جَزُوعًا﴾ أي: كثير الجزع والضجر والأسى. وربما حمله ذلك على فعل ما لا تحمد عقباه من لطم الخدود وشق الجيوب، وربما أدى به ذلك إلى الانتحار ـ كما هو مشاهد معلوم ـ نسأل الله السلامة والعافية.

قال ابن كثير[1]: «أي: إذا أصابه الضر فزع وجزع وانخلع قلبه من شدة الرعب، وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير».

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ﴾ أي: وإذا حصل له الخير بأن أنعم الله عليه بالمال ونحو ذلك ﴿مَنُوعًا﴾ شديد الحرص كثير المنع والإمساك يمنع حق الله في ذلك فيجزع في الضراء

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٥٣.

ويمنع في السراء.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «شر ما في رجل: شح هالع، وجبن خالع»[1].

﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ أي: إلا المؤمنين المصلين الموصوفين بما ذكر بعد من الصفات فهم مستثنون مما ذكر لأنهم بتوفيق الله لهم يصبرون عند الضراء ويشكرون عند السراء، لأنهم يأوون إلى ركن شديد وحصن منيع وهو إيمانهم بالله عز وجل وتوكلهم عليه، ومن توكل على الله كفاه.

قال ابن كثير[2]: «أي: الإنسان من حيث هو متصف بصفات الذم إلا من عصمه الله ووفقه وهداه إلى الخير ويسر له أسبابه».

وقال (إلا المصلين) ولم يقل: إلا المؤمنين، لأن الصلاة عمود الإسلام وأفضل العبادات وأعظمها ولا يقيمها ويحافظ عليها إلا من كان مؤمنا.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ أي: الذين هم على صلاتهم مواظبون يؤدونها في أوقاتها من غير تقديم ولا تأخير، بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها. فهذه هي الصلاة التي تنفع صاحبها، وتنهى عن الفحشاء والمنكر، فلا يجزع صاحبها عند المصيبة ولا يمنع ما آتاه الله من خير، وما عداها فلا، وكم من مصل لكنه لا يتذوق هذه المعاني لخلل في صلاته، والله المستعان.

لهذا أكد هذا المعنى في آخر صفاتهم في هذه الآيات فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾، وقال تعالى في سورة المؤمنون: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [الآيتان: ١ ، ٢].

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «يا أيها الناس عليكم من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا، وأحب الصلاة إلى النبي ﷺ ما دُووِمَ عليه، وإن قلت، وكان إذا صلى صلاة داوم عليها»[3].

﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ أي: في أموالهم حق محدد ونصيب مقرر مقدر من

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد – باب في الجرأة والجبن ٢٥١١، وأحمد ٢/ ٣٢٠.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٢٥٤.

(٣) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٧٠، ومسلم في صلاة المسافرين ٧٨٢، وأبو داود في الصلاة ١٣٦٨، والنسائي في القبلة ٧٦٢، وابن ماجه في الزهد ٤٢٣٨، وأحمد ٦/ ١٧٦، ١٨٠.

الزكاة والنفقات الواجبة والمستحبة.

﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ السائل: الذي يسأل الناس أي: يبتدئ بالسؤال، وله حق، كما جاء في الحديث: «للسائل حق وإن جاء على فرس»[(١)].

«والمحروم» الذي لا يسأل مع فقره وحاجته، ولا يفطن له فيتصدق عليه فهو محروم من العطاء لتعففه عن السؤال.

﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي: والذين يصدقون ويوقنون بيوم القيامة والمعاد والحساب والجزاء على الأعمال، وإدانة كل بما عمل، ولهذا استعدوا له بالأعمال الصالحة. والتصديق بيوم الدين يستلزم التصديق بالرسل وبما جاؤوا به من الكتب.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ أي: خائفون وجلون، كما قال الله عنهم ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ [الطور: ٢٦ ـ ٢٨].

وفي هذا أبلغ الرد على غلاة الصوفية الذين يقول قائلهم: لا أعبده خوفاً من ناره ولا رجاء في جنته، وإنما أعبده محبة له، فالمؤمن الحق يعبد الله محبة له وخوفاً من عذابه ورجاءً في ثوابه.

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ أي: هو العذاب الذي يخشى ويحذر، ولا يأمنه أحد ممن عقل عن الله عز وجل أمره إلا بأمان من الله عز وجل.

ولهذا قال ﷺ: «لن يدخل أحداً عملُه الجنة قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال: لا، ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل، فسددوا وقاربوا»[(٢)].

وفي خبر الإسرائيلي الذي عبد الله خمسمائة سنة وأخرج الله عز وجل له الرمانة ينزل كل يوم يأخذ منها، فلما قال الله عز وجل للملائكته أدخلوا عبدي الجنة برحمتي، قال: لا يا رب بل بعملي فوجد أن عمله طيلة خمسمائة سنة لا يعادل نعمة البصر، فقال الله عز وجل: أدخلوا عبدي النار بعدلي، فقال: لا يارب أدخلني الجنة برحمتك فأدخل

---

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة ـ حق السائل ١٦٦٥، وأحمد ٢٠١/١ من حديث علي بن أبي طالب وحسين بن علي رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في المرضى ٥٦٧٣، ومسلم في صفة القيامة ٢٨١٦ ـ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الجنة»[1].

فالعمل الصالح سبب لدخول الجنة، وليس بعوض لذلك، وإنما دخول الجنة برحمة أرحم الراحمين سبحانه وتعالى، فالعبد المؤمن في هذه الحياة بين الخوف والرجاء، لا يأمن من مكر الله، ولا ييأس من روح الله.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ أي: حافظون لها عن الحرام من الزنا واللواط وإتيان الزوجات في أدبارهن وفي الحيض والنفاس، وإتيان البهائم والاستمناء باليد، والسحاق بين النساء، ومن كشف الفروج والنظر إليها وغير ذلك، ومن لازم ذلك غض الأبصار عن النظر إلى ما حرم الله تعالى من نظر الرجال إلى النساء والمردان، ومن نظر النساء إلى الرجال ونحو ذلك من الوسائل الداعية إلى فعل الفاحشة.

﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ «إلا» أداة استثناء.

أي: إلا على ما أباح الله لهم من أزواجهم أو ما ملكته أيمانهم من الإماء، فالأزواج أباح الله لهم ذلك بعقد النكاح بينهم، وما ملكته أيمانهم أباحهن الله لهم بملك اليمين.

﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ أي: فإنهم لا لوم عليهم في ذلك، لأن الله أباح الأزواج بعضهم لبعض بعقد النكاح بينهم، وأباح ملك اليمين من الإماء بعقد الملك.

﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ﴾ أي: فمن طلب غير وخلاف ذلك، والإشارة لقوله ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أي: فمن طلب إشباع الشهوة في غير ما أباح الله وهو ما بين الزوجين، وبين السيد وأمته.

﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ أي: فأولئك هم العادون على حدود الله، المجاوزون الحلال إلى الحرام كالزنا واللواط ونكاح المتعة ونحو ذلك.

وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيراً لهم، وأكد عظم اعتدائهم وجرمهم وتجاوزهم لحدود الله بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم».

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ الأمانات: جمع أمانة وهي تشمل كل ما ائتمن عليه الإنسان مما بينه وبين ربه من التكاليف الشرعية وغيرها، ومما بينه وبين الخلق

---

(١) أخرجه الحاكم في التوبة والإنابة ٤/ ٢٥٠ ـ من حديث جابر ـ رضي الله عنه. وقال: «صحيح الإسناد» وضعفه الذهبي. وقال ابن القيم في «شفاء العليل» ١/ ١١٤: «إسناده صحيح، ومعناه صحيح لا ريب فيه».

من الأموال والأعمال والأسرار وغير ذلك.

أي: والذين يرعون الأمانات، فيؤدون الأمانات إلى أهلها امتثالاً لقول الله عز وجل ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]. ولتعظيم الله عز وجل لها كما قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ٧٢﴾ [الأحزاب: ٧٢]، ولأمره ﷺ بأدائها قال ﷺ: «أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك»[١].

ويرعون العهود، وهي المواثيق والعقود التي بينهم وبين الله عز وجل، والتي بينهم وبين الخلق، فيؤدون حقوق الله امتثالاً لقول الله عز وجل ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ٣٤﴾ [الإسراء: ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ﴾ [النحل: ٩١]، وقوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٤٠﴾ [البقرة: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: ١].

فمن أخص صفات المؤمنين رعاية الأمانات والعهود كما قال تعالى في سورة المؤمنون ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ [الآية: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ٢٠﴾ [الرعد: ٢٠].

كما أن الخيانة ونقض العهود من أخص صفات الكافرين والمنافقين كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»[٢].

وفي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: «إذا حدث كذب وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»[٣].

---

(١) أخرجه أبو داود في البيوع ٣٥٣٥، والترمذي في البيوع ١٢٦٤، والدارمي في البيوع ٢٥٩٧، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان ٣٣، ومسلم في الإيمان ـ بيان خصال المنافق ٥٩، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٥٠٢١، والترمذي في الإيمان ٢٦٣١.

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان ٣٤، ومسلم في الإيمان ٥٨، وأبو داود في السنة ٤٦٨٨، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٥٠٢٠، والترمذي في الإيمان ٢٦٣٢.

﴿وَالَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾ قرأ يعقوب وحفص عن عاصم بألف بعد الدال على الجمع (بشهاداتهم) وقرأ الباقون بغير ألف على الأفراد (بشهادتهم).

أي: يؤدون ما تحملوا من الشهادات على وجهها وبتمامها، من غير كتمان ولا زيادة ولا نقصان، على أنفسهم وعلى القريب والبعيد، وعلى العدو والصديق، لهم وعليهم، امتثالاً لقول الله عز وجل: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق: ٢]، وقوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٤٠].

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي: يحافظون على صلاتهم بأدائها في أوقاتها من غير تقديم ولا تأخير، بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها.

وقد خص الله عز وجل هذه الصفات لفضلها، وافتتحها بذكر الصلاة واختتمها بذكر الصلاة في هذه السورة وفي سورة «المؤمنون» وذلك لفضل الصلاة وعظم منزلتها في الإسلام فهي عمود الإسلام والركن الثاني من أركانه، قال ﷺ: «استقيموا، ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن»[1].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها»، قلت: ثم أي؟، قال: «بر الوالدين»، قلت: ثم أي؟، قال: «الجهاد في سبيل الله»[2].

وفي الآية الأولى منهما وصف المؤمنين بالديمومة على الصلاة، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ وفي الآية الأخيرة منهما وصفهم بالمحافظة عليها فقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ فوصفهم أولاً بالديمومة على الصلاة، ووصفهم ثانياً بالمحافظة عليها، كما وصفهم في سورة المؤمنون أولاً بالخشوع فيها، ووصفهم ثانياً بالمحافظة عليها وفي هذا ما لا يخفى من تأكيد عنايتهم بها.

وقد جمع الله للموصوفين بما ذكر سبع صفات عظيمة وهي: المداومة والمحافظة على

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الطهارة وسننها – المحافظة على الوضوء ٢٧٧، وأحمد ٥/ ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٨٢ – من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة – فضل الصلاة لوقتها ٥٢٧، ومسلم في الإيمان – كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال ٨٥، والنسائي في المواقيت ٦١٠، والترمذي ١٧٣.

الصلاة، وأداء حق المال من الزكاة والنفقات والصدقات والتصديق بيوم القيامة والحساب والجزاء على الأعمال، والإشفاق من عذاب ربهم، وحفظ فروجهم عن الحرام، ورعاية الأمانات والعهود، وإقامة الشهادات بالحق.

وقد ذكر عز وجل هذه الصفات بأوسع من هذا في مطلع سورة المؤمنون فقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون: ١ ـ ١١].

قوله: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي: أولئك الموصوفون بتلك الصفات ﴿فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾ وأشار إليهم بإشارة البعيد تعظيماً لهم.

ونكّر «جنات» تعظيماً لها، وهي جنات الفردوس التي أعدها الله عز وجل لنزل أوليائه المتقين وحزبه المفلحين، كما قال تعالى في نهاية هذه الصفات في سورة المؤمنون ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [الآيتان: ١٠ ، ١١].

ولهذا جاء في الحديث: «فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن»[1].

﴿مُكْرَمُونَ﴾ أي: لهم فيها أنواع الكرامة والنعيم الحسي والمعنوي كما قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَاكِهُ ۖ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الصافات: ٤١ ، ٤٢].

الفوائد والعبر:

١ ـ ضعف الإنسان أمام نوازع الشر والخير، فلا قوة له أمام ذلك إلا بالإيمان والقيام بمقتضاه، وأهم ذلك الصلاة، وغيرها من الصفات المذكورة. ففي ذلك الحصانة التامة بإذن ـ عز وجل.

٢ ـ أن الصلاة والمداومة عليها وحفظها مع الصفات المذكورة أكبر معين بتوفيق الله ـ عز وجل ـ على الثبات أمام تقلبات الحياة والصبر عند الضراء وعدم الجزع، والشكر عند

(١) أخرجه البخاري في الجهاد ـ درجات المجاهدين في سبيل الله ٢٧٩٠ ـ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وعدم المنع.

٣ ـ أن من لم يداوم على الصلاة ويحفظها بشروطها وواجباتها وأركانها وما استطاع من سننها فإنها لا تنفعه.

٤ ـ بيان صفات المؤمنين كاملي الإيمان، وهي: المداومة على الصلاة، وإيتاء الزكاة، والتصديق بيوم القيامة، والخوف من عذاب الله، وحفظ فروجهم إلا فيما أباح الله لهم، وحفظ أماناتهم وعهودهم ورعايتها، وقيامهم بالشهادة وأداؤها على الوجه المطلوب وحفظ صلاتهم بإقامتها كما شرعها الله عز وجل ـ فأكرم بها وأنعم من أوصاف عظيمة وصفات كريمة بها السعادة في الدنيا والآخرة.

٥ ـ وجوب المداومة على الصلاة والمحافظة عليها بإقامتها تامة كما شرعها الله، وإيتاء الزكاة وغيرها من النفقات الواجبة لمستحقيها والترغيب في صلاة النوافل والصدقات.

٦ ـ وجوب الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من الجزاء على الأعمال، والخوف من عذاب الله عز وجل.

٧ ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة، للمؤمنين المتصفين بالصفات المذكورة.

٨ ـ وجوب حفظ الفروج عن الحرام.

٩ ـ إباحة وطء الأزواج وملك اليمين.

١٠ ـ وجوب حفظ الأمانات والعهود ورعايتها.

١١ ـ وجوب القيام بالشهادات وأدائها بتمامها.

١٢ ـ أن للموصوفين بهذه الصفات عند الله الجنات والكرامة فيها.

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله عز وجل صفات المؤمنين المصلين وما أعد لهم من الكرامة في الجنات، ثم أنكر على الكفار وتوعدهم وهددهم.

قوله: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ الفاء استئنافية، و«ما» اسم استفهام للإنكار عليهم والتعجب من حالهم (قبلك) أي: أمامك وحولك وعن يمينك وعن شمالك.

﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي: مسرعين مادي أعناقهم، اغتراراً منهم بأنفسهم، واستهزاء به ﷺ وبدعوته.

﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾ جماعات متفرقين.

عن جابر بن سمرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ خرج عليهم وهم حلق، فقال: «ما لي أراكم عزين؟»[1].

﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، أي: أيطمع كل واحد منهم.

﴿أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر مقدر، أي: أيطمع كل واحد منهم في إدخاله جنة يتنعم فيها.

﴿كَلَّآ﴾ ردع وزجر لهم، فليس لهم ما يطمعون به من دخول الجنة، بل ليس لهم إلا النار وبئس القرار.

﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي: أوجدناهم من الذي يعلمون ولا تخفى عليهم مهانته وحقارته وضعفه، وهو المني، فهم ضعفاء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المرسلات: ٢٠ ـ ٢٣]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة – الأمر بالسكون في الصلاة ٤٣٠، وأحمد ٥/٩٣، ١٠١.

﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة: ٣٧ ـ ٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾﴾ [الطارق: ٥ ـ ١٠]، وقال تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الواقعة: ٥٧]، فاحتج عليهم بخلقه لهم على وجوب توحيده ومعرفته.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ الفاء: استئنافية، و«لا» صلة من حيث الإعراب مؤكدة من حيث المعنى، والتقدير: أقسم برب المشارق والمغارب.

والمراد: مشارق الشمس ومغاربها في الشتاء والصيف، ومشارق ومغارب سائر الكواكب[1].

وفي إقسامه عز وجل بربوبيته للمشارق والمغارب تعظيم لنفسه عز وجل وتنبيه على عظم وسعة خلقه وملكه وتدبيره.

﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ هذا هو جواب القسم، فأقسم عز وجل بربوبيته للمشارق والمغارب على قدرته على تبديل خير منهم.

أي: خيراً من هؤلاء الكفار بأن نذهب بهم ونأتي بقوم يؤمنون ولا يكفرون، ويطيعون ولا يعصون، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾ [النساء: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ [الإنسان: ٢٨].

ويحتمل أن المعنى: «إنا لقادرون على أن نبدل خيراً منهم» يوم القيامة بأن نعيدهم بأبدان خير من هذه الأبدان.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي: وما نحن بمغلوبين ولا عاجزين ولن يفوتنا ذلك، أو يمتنع منا إذا أردناه، كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الواقعة: ٦٠، ٦١]، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾ [القيامة: ٣، ٤].

قال ابن القيم[2]: «وعبر عن هذا المعنى بقوله ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ لأن المغلوب يسبقه

---

(١) انظر الكلام على قوله تعالى في سورة الرحمن ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الآية: ١٧].

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٢٦.

الغالب فيفوت عليه».

﴿فَذَرْهُمْ﴾ الأمر للنبي ﷺ أي: فدع يا محمد هؤلاء الكافرين واتركهم ﴿يَخُوضُوا﴾ بالباطل بأقوالهم.

﴿وَيَلْعَبُوا﴾ أي: يضيعوا أعمارهم باللهو واللعب بأبدانهم وأفعالهم والتمتع بالدنيا بلا عمل صالح ينفعهم غداً.

قال ابن القيم[1]: «فالخوض في الباطل ضد التكلم بالحق، واللعب ضد السعي الذي يعود نفعه على ساعيه، فالأول ضد العلم النافع، والثاني ضد العمل الصالح، فلا تكلم بالحق، ولا عمل بالصواب، وهذا شأن كل من أعرض عما جاء به الرسول لا بد له من هذين الأمرين».

﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ أي: حتى غاية ملاقاتهم يوم القيامة، الذي وعدهم الله بمجيئه ومجازاتهم فيه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، وعند ذلك سيعلمون سوء عاقبة أمرهم وسيجازون على أعمالهم ويندمون حيث لا ينفع الندم، وفي هذا تهديد شديد لهم ووعيد أكيد.

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ هذا وما بعده وصف لحالهم في ذلك اليوم، و(الأجداث) القبور ﴿سِرَاعًا﴾ أي: مسرعين إلى الداعي أي: يوم يبعثون ويقومون من القبور مسرعين إلى أرض المحشر والحساب والجزاء، كما قال تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝﴾ [القمر: ٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ۝﴾ [ق: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۝﴾ [الزمر: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝﴾ [المطففين: ٦].

﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ قرأ ابن عامر وحفص عن عاصم (نُصُب) بضم النون والصاد، وقرأ الباقون (نَصْب) بفتح النون وإسكان الصاد أي: كأنهم في سرعة نهوضهم من قبورهم وسرعتهم إلى أرض المحشر ﴿إِلَىٰ نُصُبٍ﴾ و«النصب»: الصنم، أو العلم والغاية.

﴿يُوفِضُونَ﴾ يسرعون والإيفاض: الاستباق والإسراع. أي: كأنهم في سرعتهم إلى أرض المحشر يسرعون إلى أصنام، أو إلى أعلام وغايات يستبقون إليها أيهم يستلمها أولاً.

وفي الآية الثانية قال تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٥/ ٢٩.

﴿٧﴾ [القمر: ٧]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يس: ٥١]، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ [طه: ١٠٨] أي: كلهم يؤم صوت الداعي ويتبعه لا يعوج عنه.

﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ أي: ذليلة أبصارهم منكسرة خاضعة.

﴿تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞ﴾ أي: تغشاهم ذلة ومهانة شديدة مقابل كفرهم واستكبارهم عن طاعة الله تعالى في الدنيا، لأن العز كل العز بطاعة الله تعالى، والذل كل الذل في معصية الله تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ﴾ [الحج: ١٨].

فجمع لهم بين ذل الظاهر بخشوع أبصارهم، وذل الباطن بما يغشاهم من الذل كما قال تعالى: ﴿وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ﴾ [يونس: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ ﴿٢٥﴾﴾ [القيامة: ٢٤ ، ٢٥].

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ﴾ أي: يوم القيامة، وأشار إليه بإشارة البعيد تعظيماً وتفخيماً لأمره، أي: ذلك اليوم وهو يوم القيامة ﴿ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ أي: الذي كان المشركون يوعدون بمجيئه وهم به يكذبون وقد رأوه عياناً، وهذه حالهم فيه.

الفوائد والعبر:

١ ـ التعجب من حال المشركين والكفار والإنكار عليهم في إسراعهم قبل الرسول ﷺ جماعات عن اليمين وعن الشمال غروراً منهم، واستهزاء به ﷺ وبدعوته.

٢ ـ مدى سفه الكفار وعظم جهلهم حيث يطمعون بدخول الجنة والنعيم بلا عمل منهم سوى التكذيب بالحق ورده، والإنكار عليهم في ذلك وردعهم وزجرهم، وتذكيرهم بأصل خلقهم وضعفه وحقارته ومهانته.

٣ ـ أن حكمة الله عز وجل في إيجاد البشر تقتضي إثابة المطيع وعقوبة العاصي.

٤ ـ إقسام الله عز وجل بنفسه وهو رب المشارق والمغارب على قدرته على تبديل الكفار المكذبين بخير منهم، وأنه سبحانه لا يعجزه شيء.

٥ ـ أمر الله عز وجل لنبيه ﷺ بترك الكفار في خوضهم ولعبهم وتضييع أعمارهم حتى يوافوا يوم القيامة، وفي هذا تهديد شديد لهم ووعيد أكيد، وتسلية له ﷺ.

٦ ـ إثبات البعث وخروج الكفار مسرعين من قبورهم ذليلة أبصارهم تغشاهم ذلة وهوان يتسابقون إلى المحشر يوم القيامة.

٧ ـ الإشارة إلى شدة يوم القيامة وأهواله، وأنه اليوم الذي تُوعَّد به الكفار والمشركون.

تفسير سورة نوح

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾.

هذه السورة سورة عظيمة تمثل منهج الدعوة إلى الله عز وجل كما هي طريقة نوح عليه السلام في دعوته لقومه من حيث تنويع الأساليب، والجمع بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد، والصبر وتحمل الأذى في سبيل الدعوة، والتوجه إلى الله عز وجل وشكوى الحال إليه سبحانه.

وقد أفرد عز وجل قصة نوح عليه السلام وحدها لطول لبثه فيهم وتكرار دعوته إلى التوحيد والتحذير من الشرك.

قوله: ﴿إِنَّآ﴾ تكلم عز وجل عن نفسه بضمير العظمة لأنه العظيم سبحانه وتعالى، له كمال العظمة والكبرياء.

﴿أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ أي: بعثناه ليؤدي رسالتنا إليهم.

والرسول: هو من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه.

ونوح: هو أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض بعد آدم، وآدم نبي وليس برسول.

وهو نوح بن لامَكَ، وهو أحد أولي العزم الخمسة قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۝٧﴾ [الأحزاب: ٧].

﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾ «أن» حرف مصدري ونصب، أي: بأن أنذر قومك، أو: لأجل أن تنذر قومك.

والإنذار هو: الإعلام مع التخويف والتحذير، أي: أن أعلم قومك وخوفهم وحذرهم.

﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: من قبل أن يحل بهم عذاب مؤلم موجع لهم حساً ومعنى في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٤٦﴾ [سبأ: ٤٦].

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٌ﴾ صدر خطابه عليه السلام لهم بالنداء تنبيهاً لهم وتعظيماً للأمر، والقوم: هم الجماعة الكثيرة من الناس رجالاً ونساء.

﴿لَكُمۡ﴾ أي: لا لغيركم كما قال ﷺ: «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»(١).

﴿نَذِيرٌ﴾ أي: منذر ومحذر ومخوف ﴿مُّبِينٌ﴾ بين النذارة واضح البرهان، أي: بيّن في نفسه أنه نذير، ومبين ما أرسل للإنذار والتخويف منه كما قال ﷺ: «إني أنا النذير العريان»(٢).

﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: بأن اعبدوا الله وحده بالخضوع والتذلل له وإخلاصه بالعبادة.

﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ بفعل أوامره وترك نواهيه والتي من أعظمها الشرك ووسائله.

﴿وَأَطِيعُونِ﴾ أي: امتثلوا أمري بفعل ما آمركم به وترك ما أنهاكم عنه.

﴿يَغۡفِرۡ لَكُم﴾ هذا من البشارة التي جاء بها نوح عليه السلام مع الإنذار، كما هي طريقة جميع الرسل عليهم السلام، كما قال الله عز وجل ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء: ١٦٥].

وأمره الله عز وجل في مطلع السورة بالإنذار لقومه، وصرح لهم عليه السلام بأنه لهم نذير مبين ولم يأت التصريح بالبشارة والله أعلم وإنما دل عليها مضمون الآيات لما هم عليه من شدة الكفر والتكذيب والعناد كما هو واضح من الآيات.

والمغفرة هي: ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة عليه كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما في المناجاة: «أن الله عز وجل يدني المؤمن ويقرره بذنوبه، حتى إذا رأى أنه قد هلك قال الله عز وجل: أنا سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»(٣).

﴿مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ «من» صلة، زائدة من حيث الإعراب مؤكدة من حيث المعنى.

والمعنى: يغفر لكم ذنوبكم كلها وهو مقتضى الأدلة الشرعية، كما قال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾

---

(١) أخرجه البخاري في التيمم ٣٣٥، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة ٥٢١، والنسائي في الغسل والتيمم ٤٣٢ – من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٨٢، ومسلم في الفضائل ٢٢٨٣ – من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في المظالم والغصب ٢٤٤١، ومسلم في التوبة ٢٧٦٨، وابن ماجه في المقدمة ١٨٣.

[الزمر: ٥٣].

﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: ويؤجلكم إلى أجل ووقت محدد وهو مقدار بقائكم في الدنيا، وذلك بدفع العذاب الدنيوي العاجل عنكم، والمباركة في أعماركم، لأن الطاعة والبر وصلة الرحم تزيد في العمر قال ﷺ: «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم محبة في الأهل مثراة في المال، منسأة في الأثر»[1].

وقال ﷺ: «من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أجله فليصل رحمه»[2].

﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ أي: إن أجل الله عز وجل، أي: وقته الذي وقته لموتكم، أو لوقوع العذاب عليكم ﴿إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ أي: إذا حضر لا يمكن تأخيره وتأجيله، ولا أحد يستطيع منعه ودفعه. وفي هذا وعيد وتهديد لهم.

﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: لو كنتم تعلمون حقيقة العلم النافع لأنبتم إلى ربكم، ولما كفرتم وكذبتم بالحق، ويحتمل أن يكون المراد بقوله ﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: اعلموا ذلك.

الفوائد والعبر:

١ ـ إثبات رسالة نوح عليه السلام إلى قومه خاصة.

٢ ـ أن مهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام هي الإنذار من العقوبات والعذاب، والبشارة بالنصر والتمكين والمغفرة والثواب.

٣ ـ أن الهدف من إرسال الرسل هو الدعوة إلى عبادة الله عز وجل وتقواه وطاعته والتحذير من الشرك.

٤ ـ قيام نوح عليه السلام بإنذار قومه ودعوتهم إلى عبادة الله عز وجل وتقواه وطاعته ووعده لهم على ذلك بمغفرة الله عز وجل لذنوبهم وتأخيرهم إلى أجل مسمى بتأخير العذاب الدنيوي عنهم.

٥ ـ أن أجل الله بالموت أو بإيقاع العذاب على المكذبين إذا جاء لا يمكن دفعه ولا تأجيله، ولا منعه، وما قدره الله كائن لا محالة.

٦ ـ أن الكفار لا علم عندهم يهتدون به إلى ما ينفعهم وينجيهم من عذاب الله.

---

(١) أخرجه الترمذي في البر والصلة ١٩٧٩ ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه. وقال: «حديث غريب».

(٢) أخرجه البخاري في البيوع ٢٠٦٧، ومسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٥٧، وأبو داود في الزكاة ١٦٩٣ – من حديث انس بن مالك رضي الله عنه.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ .

صلة الآيات بما قبلها:

توجه نوح عليه السلام في الآيات السابقة بالنداء إلى قومه ينذرهم ويأمرهم بعبادة الله وتقواه وطاعته ويعدهم على ذلك بالمغفرة من الله عز وجل، وتأخيره العذاب عنهم ويحذرهم من تعجيله لهم في الدنيا.

ثم توجه بالنداء إلى ربه عز وجل يشكو إليه ما لقي من قومه من البعد والفرار، والاستكبار والمكر الكبّار، وعبادة الأصنام والضلال والإضلال، وذكر صبره عليه السلام عليهم تلك المدة الطويلة ألف سنة إلا خمسين عاماً فإليه عز وجل المشتكى في جميع الأحوال.

قوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي﴾ أي: قال يا رب إني دعوت قومي إلى عبادتك وتقواك، وطاعتي ﴿لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ أي: في الليل والنهار، أي: في جميع الأحوال والأوقات.

﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِي إِلَّا فِرَارًا﴾ أي: إلا بعداً عن الحق والإيمان ونفوراً منه، وإعراضاً عنه.

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ أي: سدوا آذانهم بأصابعهم، لئلا يسمعوا ما أدعوهم إليه استكباراً وعناداً، كما قال الله عز وجل عن كفار مكة ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فصلت: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤]. وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الكهف: ٥٧].

﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾ أي: غطوا رؤوسهم بثيابهم لئلا يسمعوا، أو تنكروا له لئلا يعرفهم مبالغة في إظهار الكراهة له ولدعوته.

﴿وَأَصَرُّواْ﴾ أي: استمروا على ما هم عليه من الشرك والكفر والعناد وتشددوا في ذلك.

﴿وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾ استكبارا مصدر مؤكد، أي: استكبروا استكباراً عظيماً، أي: استنكفوا وتكبروا عن قبول الحق واتباعه والانقياد له.

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾.

بعدما بين دعوته لهم في جميع الأوقات في قوله ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ بين أنه دعاهم في جميع الأحوال.

قوله ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ أي: ظاهراً بمسمع منهم كلهم.

﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ﴾ أي: دعوتهم علانية وصرخت وصحت بهم.

﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ أي: ودعوتهم خفية فيما بيني وبينهم، وأسررت لهم في ذلك غاية الإسرار.

فدعاهم عليه السلام ليلاً ونهاراً وجهراً وعلناً وسراً، مجتمعين وفرادى، ونوّع في أسلوب الدعوة، لعل ذلك ينجح معهم وينجع فيهم، ولكن هيهات.

﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾ أي: اطلبوا من ربكم مغفرة ذنوبكم، وتوبوا وارجعوا إليه.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ «الغفار» اسم من أسماء الله عز وجل على وزن «فعّال» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، يدل على أنه عز وجل ذو المغفرة العظيمة، لا يتعاظمه ذنب أن يغفره إذا صدق العبد في التوبة والرجوع إليه كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]، وقال عز وجل: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: ٨٢]، وقال عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠]، وقال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣].

﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾.

هذا رزق وفضل من الله عز وجل عاجل لهم في الدنيا مع مغفرة ذنوبهم والثواب الآجل في الآخرة إذا استغفروا الله وتابوا إليه.

قوله: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ أي: يرسل السماء عليكم بالمطر غزيراً متتابعاً، وينزل عليكم من بركات السماء ورزقها كما قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات: ٢٢].

قال ابن كثير[1] في كلامه على الآية ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾: «أي: متواصلة الأمطار، ولهذا يستحب قراءة هذه السورة في صلاة الاستسقاء لأجل هذه الآية، وهكذا رُويَ عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه صعد المنبر ليستسقي، فلم يزد على الاستغفار، وقرأ الآيات في الاستغفار، ومنها هذه الآية ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾﴾ ثم قال: لقد طلبت الغيث بمجاديح السماء[2]، التي يستنزل بها المطر، وقرأ الآية التي في سورة «هود» حتى بلغ: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢]».

﴿وَيُمْدِدْكُم﴾ أي: ويمددكم من فضله وخزائنه التي لا تنفد ﴿بِأَمْوَٰلٍ﴾ وهي كل ما يتمول ويملك من أنواع الأموال من الذهب والفضة والدراهم والدنانير، والعقار والأثاث والمتاع وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء: ٢٠].

﴿وَبَنِينَ﴾ أي: ويمددكم بالذكور من الأولاد، وخصهم بالذكر لأن الذكور أفضل من الإناث وأحب إليهم، كما قالت امرأة عمران ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦].

فوعدهم إذا استغفروا الله وتابوا إليه بالإمداد بالأموال والبنين، وهما زينة الحياة الدنيا كما قال عز وجل: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦]، وقال عز وجل متوعداً للوليد بن المغيرة ومذكراً له ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾﴾ [المدثر: ١١ ـ ١٣].

وكثرة الأموال خير إذا استعين بها على طاعة الله تعالى، ولهذا قال ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها»[3].

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٥٩ – ٢٦٠.

(٢) «المجاديح» هي وسائل استخراج الماء كالدلاء ونحوها، فيكون معنى قول عمر رضي الله عنه أنه بذل أهم أسباب استنزال المطر والغيث من الله عز وجل وهو استغفاره سبحانه وتعالى.

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤٠٩، ومسلم في صلاة المسافرين ٨١٦، وابن ماجه في الزهد ٤٢٠٨ – من حديث =

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ﴾ أي: ويجعل لكم بساتين كثيرة الأشجار والزروع والثمار تأكلون من ثمارها وتطعمون مواشيكم من نباتها.

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ أي: ويجعل لكم أنهاراً تجري وسط هذه الجنات تشربون منها، وتغتسلون فيها وتسقون منها زروعكم وحروثكم ومواشيكم، وتتمتعون برؤيتها وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس: ٢٤ ـ ٣٢].

وهكذا أمر الله محمداً ﷺ أن يقول لقومه: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾﴾ [هود: ٣]، وقال هود لقومه: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هود: ٥٢]، وقال صالح لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هود: ٦١].

قوله: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾.

أمرهم عليه السلام بالاستغفار ورغبهم بالمغفرة من الله ـ عز وجل ـ وإنزال المطر وإمدادهم بالأموال والبنين والجنات والأنهار، ثم وبخهم وأنكر عليهم عدم الخوف من الله عز وجل، فقال: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ الآيات.

قوله: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ «ما» اسم استفهام معناه الإنكار عليهم ﴿وَقَارًا﴾ أي: عظمة وتقديراً، أي: ما لكم لا تخافون لله عظمة، ولا تخافون بأسه ونقمته ولا تقدرونه حق قدره، كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١، الزمر: ٦٧].

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ الواو: حالية، و«قد» للتحقيق، أي: والحال أنه قد خلقكم

=

عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

أطواراً، فموجب خلقه لكم وإنعامه عليكم بسائر النعم أن تعبدوه وتعظموه.

ومعنى قوله ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ أي: والحال أنه عز وجل خلقكم خلقاً من بعد خلق، وطوراً من بعد طور، فطوراً نطفة، وطوراً علقة، وطوراً مضغة، ثم عظاماً، ثم كسا العظام لحماً، ثم أنشأه خلقاً آخر، ثم اكتمال حمله في بطن أمه، ثم ولادته، ثم فترة الرضاع، ثم سن الطفولة، ثم التمييز، ثم الشباب، ثم الكهولة، ثم الشيخوخة ثم الهرم، ثم الرد إلى أرذل العمر، وفي تذكير الخلق في ابتداء خلقهم وأطواره تنبيه على قدرته التامة على بعثهم وإعادتهم بعد موتهم.

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ الهمزة للاستفهام التقريري.

أي: ألم تعلموا كيف أوجد الله سبع سموات ﴿طِبَاقًا﴾ بعضها فوق بعض كل سماء مقبية على الأخرى، وأوسع منها، سمك كل واحدة منها مسيرة خمسمائة عام، وبين كل واحدة والتي تليها مسيرة خمسمائة عام[1].

﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ أي: وجعل القمر في هذه السموات السبع نوراً، مستفاداً من نور الشمس.

﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ أي: وجعل الشمس فيهن، وفي هذا الكون مصباحاً مضيئاً، وسميت الشمس سراجاً لحرارتها، ولأنها أشد إضاءة من القمر، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء: ١٢].

قال ابن كثير[2]: «أي: فاوت بينهما في الاستنارة، فجعل كلاً منهما أنموذجاً على حدة، ليعرف الليل والنهار بمطلع الشمس ومغيبها، وقدر القمر منازل وبروجاً، وفاوت نوره، فتارة يزداد حتى يتناهى، ثم يشرع في النقص حتى يستسرّ، ليدل على مضي الشهور والأعوام».

﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ «نباتا» مصدر مؤكد. أي: أنبتكم من الأرض نباتاً بخلق أبيكم

---

(١) سبق ذكر الحديث بذلك عند قول الله عز وجل ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٢٦٠.

آدم وإيجاده من التراب، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝٢٠﴾ [الروم: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ [الأنعام: ٢].

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ إذا متم ودفنتم فيها.

﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ «إخراجا» مفعول مطلق منصوب أي: ويخرجكم منها إخراجاً ببعثكم يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝٥٥﴾ [طه: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ۝٢٥﴾ [الأعراف: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾ [الحج: ٧].

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ أي: مبسوطة مسطحة، ممهدة مستقرة مثبتة بالجبال الراسيات، صالحة مهيأة للانتفاع بها والاستقرار والحياة والبناء عليها، والحرث والزرع فيها، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠﴾ [الغاشية: ١٧ ــ ٢٠][1].

﴿لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ اللام للتعليل أي: جعلها لكم بساطاً لأجل أن تسلكوا منها طرقاً واسعة مختلفة أين شئتم من أرجائها، ولولا أنه بسطها ما أمكنكم ذلك، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ۝١٥﴾ [الملك: ١٥].

وهذا يوجب التأمل في كمال قدرته عز وجل في إيجاد هذه المخلوقات العظيمة لهذا أنكر عليهم نوح عليه السلام في هذه الآيات لم لا يعظمون الله ويخافونه مذكراً ومنبهاً لهم على عظيم قدرة الله عز وجل وعظيم نعمه عليهم في خلقهم وخلق السموات السبع الطباق، وإنارتهن بالقمر، وجعل الشمس سراجاً، وخلقهم من الأرض، وإعادتهم فيها وإخراجهم منها، وبسط الأرض لهم ليستطيعوا العيش والاستقرار عليها ويسيروا في جوانبها ويستخرجوا من خيراتها، مما يوجب عليهم أن يعظموه عز وجل ويعبدوه وحده ولا يشركوا به شيئاً.

---

(١) انظر «الكلام على قوله تعالى في سورة الذاريات ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَـٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ﴾ [الآية: ٤٨].

الفوائد والعبر:

١ ـبذل نوح عليه السلام غاية جهده في دعوة قومه في جميع الأوقات ليلاً ونهاراً وبشتى الأساليب جهاراً وإعلاناً وإسرارا، وصبره على أذاهم فينبغي للدعاة أن يستلهموا الدروس من هذا في تنويع أساليب الدعوة والصبر على الأذى في سبيلها.

٢ ـشدة عناد قوم نوح عليه السلام وفرارهم منه ومن دعوته وإصرارهم على الباطل، واستكبارهم.

٣ ـإثبات ربوبية الله الخاصة لنبيه نوح عليه السلام ـ وربوبيته العامة لجميع الخلق.

٤ ـإثبات صفة المغفرة الواسعة لله ـ عز وجل ـ لذنوب عباده، وأن خزائن السموات والأرض ورزق الدنيا والآخرة بيده عز وجل.

٥ ـجمع نوح عليه السلام في دعوته لقومه بين الترغيب بالوعد لهم بالمغفرة في الآخرة، والترغيب لهم في الرزق في الدنيا بالمطر وبالأموال والبنين والبساتين والأنهار.

٦ ـأن الاستغفار والتوبة سبب لمغفرة الذنوب وسعة الرزق من المطر والمال والبنين وغير ذلك.

٧ ـإنكار نوح عليه السلام على قومه عدم تعظيمهم لله وعدم خوفهم منه، وقد خلقهم سبحانه وتعالى طوراً بعد طور وأحسن خلقهم.

٨ ـتوجيه نوح ـ عليه السلام لقومه للنظر والتأمل في عظمة قدرة الله عز وجل في خلق سبع السموات الطباق وجعل القمر فيهن نوراً والشمس سراجاً، وفي إنباتهم من الأرض ثم إعادتهم فيها ثم بعثهم وإخراجهم منها، مما يوجب عليهم تعظيم الله ـ عز وجل وعبادته وحده لا شريك له. وكل إنسان مدعو إلى هذا التأمل.

٩ ـتذكير نوح عليه السلام قومه بنعمة الله عليهم بجعل الأرض بساطاً مستوية ليسلكوا طرقها وفجاجها ويستخرجوا من خيراتها. وفي هذا نعمة علينا وعلى كل مخلوق يدب على وجه الأرض، فلله الحمد على ذلك.

﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

دعا نوح عليه السلام قومه وأنذرهم، وشكا إلى الله ما لقي منهم مبيناً أنه نوّع لهم في أساليب الدعوة ورغبهم ورهبهم، وخوفهم بالله، وبين لهم عظيم قدرته وعظيم نعمه عليهم في خلقهم وخلق السموات والأرض.

ثم شكا إلى الله عز وجل ثانية تماديهم في العصيان واتباعهم من لم تزدهم أموالهم وأولادهم إلا الخسار، وما حصل منهم من المكر الكبار، وعبادة الأصنام، وإغراقهم في الضلال والخطايا، مما سبب إغراقهم وإدخالهم النار ثم دعا عليهم عليه السلام بالهلاك عن آخرهم وسأل الله عز وجل المغفرة له ولوالديه ولمن دخل بيته من المؤمنين والمؤمنات ودعا على الظالمين بالتبار والخسار.

قوله: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ شكا نوح عليه السلام إلى ربه ثانية ما لقي من قومه قائلاً ﴿رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ أي: خالفوني وكذبوني بعد الإنذار والإعذار بتنويع أساليب الدعوة لهم والترغيب والترهيب، وتخويفهم وتذكيرهم بعظمتك وقدرتك وعظيم نعمك عليهم.

﴿وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر وعاصم بفتح الواو واللام (ووَلَده) وقرأ الباقون بضم الواو وإسكان اللام (ووُلْده).

أي: واتبعوا وأطاعوا وقلدوا الملأ والأشراف الذين متعوا بالأموال والأولاد واغتروا بالدنيا وركنوا إليها وغفلوا عن أمر الله تعالى، فصارت أموالهم وأولادهم خسارة ونقصاناً عليهم واستدراجاً لهم، وسبباً لطغيانهم وضلالهم وبعدهم عن طريق الحق، ومن تبعهم فهو مثلهم في الخسار والبوار.

﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ «مكرا» مصدر، و«كبارا» صفة له، والمكر: هو الكيد بخفية في معاندة الحق، قال تعالى ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣]، وقال تعالى:

﴿بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ﴾ [سبأ: ٣٣]. والمعنى: ومكروا مكراً كبيراً عظيماً بليغاً فتمادوا في المخالفة والغي والعصيان والتمرد والضلال.

﴿وَقَالُواْ﴾ أي: قال بعضهم لبعض، أو قال لهم أصحاب الأموال والأولاد داعين إلى الشرك مزينينه لهم ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ أي: لا تتركنّ معبوداتكم وما عليه آباؤكم.

﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾ أي: لا تتركنّ آلهتكم عموماً، ولا تتركنّ خصوصاً: ﴿وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾ فنهوهم أولاً عن ترك عبادة آلهتهم عموماً، ثم نهوهم ثانياً عن ترك عبادة هذه الآلهة الخمسة خصوصاً، لأنها أعظم وأهم آلهتهم التي يعبدونها من دون الله. قرأ نافع وجعفر بضم الواو (وُداً) وقرأ الباقون بفتحها (وَداً).

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد: أما «ود» فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما «سواع» فكانت لهذيل، وأما «يغوث» فكانت لمراد، ثم لبني غطيف في الجرف عند سبأ، وأما «يعوق» فكانت لهمدان، وأما «نسر» فكانت لحمير، لآل ذي الكلاع، وهي أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك، وتنسّخ العلم عبدت»[١].

وعن محمد بن قيس قال: «إن يغوث ويعوق ونسراً كانوا قوماً صالحين من بني آدم، وكان لهم، أتباع يقتدون بهم فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم»[٢].

قال ابن القيم[٣]: «قال غير واحد من السلف: كان هؤلاء قوماً صالحين في قوم نوح عليه السلام، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل».

﴿وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ﴾ أي: وقد أضلوا بدعوتهم إلى عبادة هذه الآلهة وعبادتهم إياها

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا﴾ ٤٩٢٠.
(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٣٠٣.
(٣) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٣٨.

كثيراً من الخلق وأبعدوهم عن عبادة الله وحده، فضل عن الحق بسبب عبادتها خلق كثير، وهي أول شرك حصل في بني آدم واستمر وانتشر بعد ذلك ولهذا دعا إبراهيم الخليل عليه السلام قائلاً ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۝ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦].

﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ دعاء منه عليه السلام على الظالمين من قومه، الذين ظلموا بعبادتهم غير الله وإشراكهم مع الله غيره، وأظلم الظلم الشرك كما قال لقمان لابنه فيما حكاه الله عنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝﴾ [لقمان: ١٣].

والمعنى: ولا تزد الظالمين إلا بعداً وتيهاً عن الحق، أي: زدهم بعداً وتيهاً عن الحق.

وذلك بسبب ظلمهم وشركهم، فإن المعصية تجر إلى المعصية بعدها، كما قال عز وجل ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝﴾ [المطففين: ١٤].

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ قرأ أبو عمرو (مما خطاياهم) بالألف بغير همز، وقرأ الباقون (مما خطيئاتهم) بالهمز والتاء.

أي: من كثرة ذنوبهم وكفرهم ومخالفتهم رسولهم، وبسبب ذلك أغرقوا بالطوفان كما قال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ [الفرقان: ٣٧].

﴿فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ أي: فنقلوا من الغرق إلى الحرق، ومن عمق البحار إلى عذاب النار، فأجسادهم للغرق، وأرواحهم للنار والحرق، كما قال عز وجل عن آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ۝﴾ [غافر: ٤٦].

﴿فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ أي: فلم يجدوا لهم أنصاراً وأعواناً ينقذونهم من عذاب الله ويدفعونه عنهم، لا من العذاب الدنيوي ولا من العذاب الأخروي كما قال عز وجل: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝﴾ [المعارج: ١ ، ٢]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝﴾ [آل عمران: ٥٦].

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ أي: لا تترك على الأرض من الكافرين أحداً يسكن الدار ويدور ويتحرك، بل أهلكهم واستأصلهم عن آخرهم وقد استجاب الله دعاءه، فأهلك بالغرق جميع من على وجه الأرض إلا من ركب معه في السفينة، حتى ولده لصلبه كان ضمن المغرقين كما قال تعالى: ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هود: ٤٣].

وقد قيل: إن دعوته عليهم بعد ما أوحى الله إليه ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لو رحم الله من قوم نوح أحداً لرحم امرأة كلما رأت الماء حملت ولدها ثم صعدت الجبل، فلما بلغها الماء صعدت به منكبها، فلما بلغ الماء منكبها وضعت ولدها على رأسها، فلما بلغ الماء رأسها رفعت ولدها بيدها، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم هذه المرأة»[1].

وهكذا دعا موسى على فرعون وملئه فقال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس: ٨٨].

قال ابن كثير[2]: «وقد استجاب الله لكل من النبيين في قومه، وأغرق قومه بتكذيبهم لما جاء به».

وهنا نجد الفرق بين موقف نوح عليه السلام حين عصاه قومه وخالفوه وآذوه، وبين موقف محمد ﷺ إذ أخذ يردد حين آذاه قومه قائلاً: «رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[3]. ولما قال له ملك الجبال: دعني أطبق عليهم الأخشبين يعني جبلي مكة، قال: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئاً»[4].

وبهذا وغيره فاق ﷺ وساد جميع الرسل وكان له الحوض المورود والشفاعة الكبرى

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٧٦، وقال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٢٦٤. «هذا حديث غريب ورجاله ثقات».

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٢٦٣.

(٣) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٤٧٧، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٩٢، وابن ماجه في الفتن ٤٠٢٥ ـ من حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٣١، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٩٥ – من حديث عائشة رضي الله عنها.

والمقام المحمود، حين يعتذر عن الشفاعة جميع الأنبياء، من أولي العزم وغيرهم حتى إن نوحاً عليه السلام يعتذر بقوله «إني استعجلت فدعوت على قومي اذهبوا إلى غيري».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله ادع على المشركين، فقال: «إني لم أبعث لعاناً وإنما بعثت رحمة»[١].

وليت من يعتدون في الدعاء وكذا من يدعون بما لم تجربه سنن الله الكونية ونحو ذلك من الأدعية التي لم ترد في كتاب الله تعالى ولا في سنة رسوله ﷺ، بل ولا عن السلف الصالح رضوان الله عليهم، مما فيه مبالغة واعتداء في الدعاء أقول: ليتهم يلحظون هذا الأدب النبوي الكريم في الدعاء فإنه أحرى لقبول دعائهم.

﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ﴾ أي: إنك إن تتركهم فلا تهلكهم يضلوا عبادك المؤمنين الموجود منهم ومن سيوجد، أي: إنهم خطر وضرر على المؤمنين في دينهم في الحال والاستقبال.

﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا﴾ أي: ولا يلدوا ولا ينسلوا إلا فاجراً بعمله مرتكباً للفجور والفواحش والذنوب ﴿كَفَّارًا﴾ بقلبه.

و«كفار» على وزن «فعّال» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، أي: عظيم الكفر بربه وبنعمه أي: إن بقاءهم مفسدة محضة لهم ولغيرهم.

قال ابن كثير[٢]: «أي فاجراً في الأعمال، كافر القلب، وذلك لخبرته بهم، ومكثه بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاماً».

﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾

دعا نوح عليه السلام على الكافرين من قومه بالهلاك ثم دعا بالمغفرة له ولوالديه ولمن دخل بيته من المؤمنين والمؤمنات وبالخسران على الظالمين.

قوله: ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ﴾ أي: ولمن دخل مسجدي ومصلاي أو منزلي ﴿مُؤْمِنًا﴾ أي: حال كونه مؤمناً، وفي الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سمع

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة ٢٥٩٩.
(٢) في «تفسيره» ٨/ ٢٦٤.

رسول الله ﷺ يقول: «لا تصحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي»[1].

وخص هؤلاء المذكورين لتأكيد حقهم وتقديم برهم، ثم عمم الدعاء فقال:

﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: واغفر لجميع المؤمنين والمؤمنات وهذا يشمل الأحياء منهم والأموات.

﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ أي: إلا خساراً ودماراً وهلاكاً في الدنيا والآخرة.

الفوائد والعبر:

١- شكوى نوح عليه السلام حاله إلى ربه عز وجل لما عصاه قومه. وأن الشكوى إليه عز وجل وحده.

٢- الحذر من فتنة المال والأولاد والاغترار بها، والحذر من تقليد واتباع من اغتروا بذلك فخسروا دينهم ودنياهم وآخرتهم.

٣- عظم كفر قوم نوح وكبر مكرهم وشدة تعلقهم بمعبوداتهم الباطلة وإضلالهم بهذه المعبودات كثيراً من الناس.

٤- الحذر من الشرك وأسبابه فإن هذه الأوثان كانت في الأصل أسماء لرجال صالحين صوروا للتأسي بهم في العبادة ثم لما طال الزمن أوحى الشيطان إلى الناس فعبدوهم.

٥- إثبات ربوبية الله - عز وجل - الخاصة لنوح عليه السلام.

٦- جواز الدعاء على الظالمين والكافرين الضالين المضلين بزيادة الضلال والتبار والخسار والهلاك.

٧- إغراق قوم نوح عليه السلام وإدخالهم النار بسبب ذنوبهم ومعاصيهم وليس لهم من دون الله من أنصار.

٨- الإشارة إلى أن النار موجودة الآن معدة لأهلها تعذب بها أرواحهم لقوله ﴿فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾.

٩- إثبات عبودية المؤمنين الخاصة لربهم لقوله ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ﴾.

١٠- مشروعية الدعاء للوالدين وغيرهم من الأقارب المؤمنين ولعامة المؤمنين والمؤمنات.

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب – من يؤمر أن يجالس ٤٨٣٢، والترمذي في الزهد – ما جاء في صحبة المؤمن ٢٣٩٥.

تفسير سورة الجـــن

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم، انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: مالكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب، قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، وانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها يبتغون ما هذا الذي حال بينهم وبين خبر السماء. فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ وهو بنخلة عامداً إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا - والله - الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك حين رجعوا إلى قومهم. قالوا: يا قومنا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ وأنزل الله على نبيه: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ وإنما أوحي إليه قول الجن»[1].

وعن علقمة قال: سألت ابن مسعود، فقلت: هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ قال: لا، ولكنا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة، ففقدناه فالتمسناه في الأودية والشعاب، فقلنا: استطير؟ اغتيل؟ قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء، قال: فقلنا: يا رسول الله، فقدناك فطلبناك فلم نجدك، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فقال: «أتاني داعي الجن، فذهبت معهم، فقرأت عليهم القرآن»، قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم وسألوه الزاد، فقال: «كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً، وكل بعرة أو روثة علف لدوابكم». قال رسول الله ﷺ: «فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم»[2].

وقد ذكر ابن كثير رحمه الله طرق هذا الحديث[3] ثم قال: «فهذه الطرق كلها تدل على أنه ﷺ ذهب إلى الجن قصداً، فتلا عليهم القرآن ودعاهم إلى الله عز وجل وشرع الله لهم على لسانه ما هم محتاجون إليه في ذلك الوقت، وقد يحتمل أن أول مرة سمعوه يقرأ القرآن لم يشعر بهم، كما قاله ابن عباس رضي الله عنهما، ثم بعد ذلك وفدوا إليه كما رواه ابن مسعود».

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان - الجهر بقراءة صلاة الفجر ٧٧٣، ومسلم في الصلاة - الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن ٤٤٩، والترمذي في تفسير سورة الجن ٣٣٢٣، وأحمد ١/ ٢٥٢، ٢٧٤، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٣١٠.

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة - الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن ٤٥٠، والترمذي في الطهارة ٣٢٥٨، وأحمد ١/ ٤٣٦.

(٣) في «تفسيره» ٧/ ٢٧٢ - ٢٧٩ في الكلام على قوله تعالى: ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن﴾ [الأحقاف: ٢٩- ٣٢].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾.

قوله ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ «قل» أمر للنبي ﷺ، أي: قل للناس ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ أي: أوحى الله إليّ ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ أي: أنه استمع جماعة من الجن إلى قراءتي القرآن.

وفي هذا دلالة على وجود الجن، وأن الرسول ﷺ مبعوث إلى الجن والإنس، وأن الجن كالإنس مكلفون مأمورون منهيون ومثابون ومعاقبون.

﴿فَقَالُوٓا۟﴾ لقومهم لما سمعوه ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ أي: سمعنا قرآناً عجيباً بديعاً بليغاً ليس من كلام الإنس والجن يعجب سامعه من فصاحته وبلاغته في ألفاظه ومعانيه وأخباره وأحكامه ومواعظه ووعده ووعيده وغير ذلك.

﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ أي: يدل إلى الرشد، و«الرشد» في الأصل الاهتداء إلى طرق الخير عامة، والمراد به في الآية الاهتداء إلى الحق وإلى الطريق المستقيم ـ كما قالوا فيما ذكر الله عنهم في الآية الأخرى ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠]، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، فالرشد الاهتداء إلى ما فيه مصالح الدين والدنيا، ولهذا وصف الله المؤمنين في سورة الحجرات بقوله ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الآية: ٧].

﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ أي: صدقنا به وانقدنا له واتبعناه.

وهذا كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن

لَا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩ – ٣٢].

﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ أي: ولن نشرك بربنا أحداً من الشركاء والمعبودات، بل سنعبده وحده ونخلص العبادة له وحده لا شريك له.

وفي قولهم: ﴿بِرَبِّنَآ﴾ إقرار منهم بربوبيته لهم وأنه الخالق المالك المدبر لهم ويلزم من هذا أن يفردوه بالعبادة وحده، فجمعوا بين الإيمان بالله وترك الشرك، بين الإيمان والتقوى، بين الإخلاص والمتابعة.

﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ قرأ نافع وأبو بكر عن عاصم بكسر الهمزة في قوله ﴿وإنه﴾ وكذا ما بعده إلى قوله ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ﴾ وقرأ الباقون بفتحها.

أي: وأنه تعاظم وارتفع جلال ربنا وقدره وسلطانه وعظمته وغناه وآلاؤه ونعمه على خلقه، وتعالى بذاته وصفاته وأسمائه فله علو الذات والصفات وعلو القدر وعلو القهر كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [لقمان: ٣٠، سبأ ٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤].

﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ «ما» نافية، أي: ما جعل لنفسه صاحبة.

والصاحبة: الزوجة، ﴿وَلَا وَلَدًا﴾ الولد: جنس الأولاد من الذكور والإناث، أي: تعالى وتنزه سبحانه عن الصاحبة والولد، لأن اتخاذ الصاحبة والولد ينافي كمال العظمة والغنى، قال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤].

وفي هذا وما بعده ما يفيد أنهم آمنوا عن معرفة منهم بعظمة الله عز وجل، وعن فهم للإيمان وما يترتب عليه من مصالح الدين والدنيا ومن الثواب العظيم في الآخرة وليس إيمان العادة والإلف والتقليد، الذي قد يضعف أو يزول أمام الشبهات والشهوات.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ السفيه: من لا يحسن التصرف. والسفه يكون في الدين ويكون في المال ويكون في الولاية.

والمراد به هنا السفه في الدين كما قال عز وجل: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وقال تعالى في وصف اليهود ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ﴾ [البقرة: ١٤٢]، وقال تعالى في وصف المنافقين ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ

ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤].

وأول من يدخل في قوله ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝٤﴾ إبليس وأتباعه وأعوانه.

﴿شَطَطًا﴾ أي: قولاً جائراً عن الصواب مفرطاً في الكذب، وباطلاً كبيراً، وزوراً عظيما، من الإشراك بالله، ونسبة الصاحبة والولد له.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ قرأ يعقوب بفتح القاف والواو مشدة، «تَقَوَّلَ» وقرأ الباقون بضم القاف وإسكان الواو مخففة «تَقُوْل».

أي: حسبنا أنهم لا يقدمون ولا يتجرؤون على الكذب على الله بالإشراك به ونسبة الولد والصاحبة إليه اغتراراً منا بما عليه السادة والرؤساء من الإنس والجن، وإحساناً منا الظن بهم، فلما سمعنا القرآن وآمنا به علمنا أنهم كانوا يكذبون على الله في ذلك القول، وفي هذا نوع من الاعتذار عما حصل منهم من تقليد هؤلاء الرؤساء بما هم عليه من الباطل، وبدؤوا بذكر الإنس لأنهم أول من خوطب بالقرآن، وأول من بدأ بالتصديق والتكذيب قبل الجن، وأيضاً لئلا يعتقد إخوانهم من الجن أنهم ظاهروا الإنس عليهم.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ أي: يستعيذون بهم ويستنجدون تعظيماً لهم وخوفاً منهم، حيث كان الواحد منهم إذا نزل وادياً قال «أعوذ بعظيم هذا الوادي من سفهاء قومه»[1].

﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أي: فزاد الجنُّ الإنس خوفاً وذلاً ورعباً وإرهاباً وفزعاً، وزاد الإنسُ الجنَّ طغياناً وإثماً فازدادت جرأة الجن وتعاظمهم عليهم وتخويفهم لهم، لما رأوا استعاذتهم بهم وخوفهم منهم، ليبقى الإنس على تعظيمهم والخوف منهم والتعوذ بهم.

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ أي: وأنهم أي الجن ظنوا وحسبوا كما ظننتم وحسبتم أيها الإنس ﴿أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ أي: أن لن يبعث الله بعد هذه المدة رسولاً.

ويحتمل أن المعنى: وأنهم ظنوا كما ظن الإنس أن لا بعث ولا حساب فأقدموا على الشرك والطغيان.

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ أي التمسنا السماء وطلبنا خبرها، كما كنا نفعل من ذي قبل.

---

(١) انظر «تيسير العزيز الحميد» ص٢١١.

﴿فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ أي: وجدناها قد ملئت بالحرس الشديد، والشهب التي يرمى بها من استرق السمع فلم نستطع الوصول إليها ولا الدنو منها، وذلك حفظاً لها وحفظاً لكتابه العزيز القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ [الحجر: ١٨]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠].

﴿وَأَنَّا كُنَّا﴾ أي: وأنا كنا قبل ذلك ﴿نَقْعُدُ مِنْهَا﴾ أي: من السماء ﴿مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ أي: للاستماع، أي لاستراق السمع بحيث يستمعون الكلمة الواحدة من خبر السماء فيلقونها على ألسنة الكهان فيكذبون معها مائة كذبة.

﴿فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ أي: فمن يرم ويحاول الاستماع لخبر السماء الآن بعد نزول القرآن يجد له شهاباً من النجم مرصداً معداً له لا يخطئه بل يصيبه فيحرقه ويهلكه.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان الجن يستمعون الوحي، فيسمعون الكلمة فيزيدون فيها عشراً، فيكون ما سمعوا حقاً وما زادوا باطلاً، وكانت النجوم لا يرمى بها قبل ذلك فلما بعث رسول الله ﷺ كان أحدهم لا يأتي مقعده إلا رمي بشهاب يحرق ما أصاب، فشكوا ذلك إلى إبليس، فقال: ما هذا إلا من أمر قد حدث، فبث جنوده، فإذا بالنبي ﷺ يصلي بين جبلي نخلة، فأتوه فأخبروه، فقال: هذا الذي حدث في الأرض»[1].

﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي﴾ أي: وأنا لا ندري ولا نعلم ما هذا الأمر الذي حدث وحفظت من أجله السماء بالحرس الشديد والشهب.

﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ الهمزة للاستفهام، أي: أهو شر أريد بالذين في الأرض وساكنيها.

﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ «أم» عاطفة، ويجوز كونها بمعنى «بل» والجملة بعدها استئنافية. أي: بل أراد بهم ربهم ﴿رَشَدًا﴾ أي: خيراً وصلاحاً ونجاحاً وفلاحاً فعرفوا بفطنتهم أن هذا ينذر بحدوث أمر عظيم وحدث كبير خيراً كان أو شراً.وفي ضمن ذلك إشارة إلى أن هذا ابتلاء فيه الرشاد والخير لأقوام، وفيه الشر والهلاك لأقوام.

وقد أسندوا الشر إلى ما لم يسم فاعله، وأسندوا إرادة الرشد إلى الله عز وجل تأدباً في العبارة كما في قول المؤمنين في الفاتحة ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]، فنسبوا الإنعام إليه، والغضب

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة الجن ٣٣٢٤، وأحمد ١/ ٢٧٤ وقال الترمذي «حسن صحيح».

لما لم يسم فاعله، كما أمر الله رسوله ﷺ أن يقول ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

وفي الحديث قوله ﷺ: «والشر ليس إليك»[1].

ويؤخذ من الآيات عناية الله عز وجل برسوله ﷺ وبالقرآن الذي أوحاه إليه فمن أجل ذلك حرست السماء بالحرس الشديد والشهب.

الفوائد والعبر:

١- إثبات رسالة نبينا محمد ﷺ ووحي الله ـ عز وجل ـ إليه، وأن رسالته عامة للثقلين الإنس والجن،وإثبات وجود الجن.

٢- إثبات أنه ﷺ لا يعلم الغيب، فلا علم له إلا بما أوحاه الله إليه.

٣- في أمره ﷺ بالإخبار باستماع نفر من الجن إلى قراءته وإعجابهم بالقرآن وهدايته ـ وتأثرهم وإيمانهم به تنبيه للإنس أن لا يكون الجن خيراً منهم في هذا وحث لهم على المنافسة.

٤- هداية القرآن للرشد والحق وإعجازه في ألفاظه ومعانيه وأحكامه وأخباره، لهذا تأثر الجن وأعجبوا به لما سمعوه وآمنوا به وأعلنوا تعظيم الله عز وجل والبراءة من الشرك ومن الكذب على الله.

٥- أن الإيمان ينافي الشرك ولا يجتمع معه لقوله ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾ .

٦- إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة ـ للمؤمنين، وتعظيمه وتنزيهه عن الشريك والصاحبة والولد.

٧- اجتراء سفهاء الجن والإنس على نسبة الصاحبة والولد لله والإشراك به والكذب عليه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

٨- التحذير من الاستعاذة بغير الله من الجن أو غيرهم وأن في الاستعاذة بغير الله زيادة ذل وخوف للمستعيذ.

٩- تقرير وإثبات البعث والحساب والجزاء على الأعمال، والرد على منكريه من الجن والإنس.

١٠- حراسة السماء وحفظها بالشهب بعد بعثة محمد ﷺ ونزول القرآن الكريم حفظاً من الله عز وجل لكتابه العظيم ولنبيه ﷺ وتعظيماً لمبعثه.

١١- إقرار الجن واعترافهم بأنهم لا يعلمون الغيب ولا يدرون ما الحكمة فيما حصل من حراسة السماء، وفي هذا أبلغ الرد على أدعياء علم الغيب من السحرة والكهان والمنجمين والدجالين الذين يعتمدون على الجن فيما يزعمون.

١٢- أدب الجن في كلامهم وخطابهم إذ نسبوا الشر لما لم يسم فاعله، ونسبوا الرشد إلى الرب سبحانه فقالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾ وهكذا ينبغي التادب في مثل هذا كما قال ﷺ: «والشر ليس إليك».

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة ٧٦٠، والنسائي في الافتتاح ٨٩٧، والترمذي في الدعوات ٣٤٢٢ من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ الصالحون: جمع صالح، والصالح من صلح عمله بأن جمع بين الإخلاص لله تعالى، ومتابعة الرسول ﷺ.

﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾ أي: ومنا من هم دون الصالحين أي: مقتصدون، وقيل: ومنا غير ذلك أي: فساق وفجار وكفار.

﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ بيان لقوله ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾.

والطرائق: جمع طريقة، والقدد: جمع قدة، وهي الضروب والأجناس المختلفة، أي: كنا أصنافاً مختلفة، ومللاً ونحلاً شتى، ذوي مذاهب متفرقة، وآراء وأهواء متباينة.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: وأنا تيقنا أننا لن نعجز الله في الأرض ولن نفوته إذا طلبنا، ولن نستطيع الخروج من حكمه وقدرته.

﴿وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ أي: ولن نعجزه هاربين، ولو أمعنا في الهرب فهو علينا قادر وحكمه فينا نافذ سبحانه وتعالى.

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ أي: وأنا لما سمعنا الهدى، أي: القرآن الكريم الهادي إلى الصراط المستقيم، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

﴿ءَامَنَّا بِهِۦۖ﴾ أي: صدقنا به بقلوبنا وألسنتنا، وانقدنا بجوارحنا، وهم بهذا يفتخرون وحق لهم ذلك فإن الإيمان بالله والانقياد لأمره أعظم شرف وأعلى درجة يصل إليها البشر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: ١٣].

﴿فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ﴾ أي: فمن يؤمن بربوبيته ـ عز وجل ـ وألوهيته وأسمائه وصفاته، وينقد لشرعه.

﴿فَلَا يَخَافُ بَخۡسًا وَلَا رَهَقًا﴾ البخس: النقص، والرهق: الزيادة، أي: فلا يخاف نقصاً في حسناته وثوابه، ولا زيادة في سيئاته وعقابه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمًا وَلَا هَضۡمًا﴾ [طه: ١١٢].

وإذا سلم المؤمن من البخس والرهق والظلم والهضم حصل له الخير. وقال تعالى:

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٦، ٧]، وقال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الزمر: ٧].

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ﴾ أي: المنقادون بجوارحهم لأمر الله وشرعه الخاضعون له بالطاعة.

والإسلام: هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك.

﴿وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ أي: الجائرون العادلون عن طريق الحق وعن الصراط المستقيم، مأخوذ من «قسط» الثلاثي بمعنى جار وظلم، وليس من «أقسط» الرباعي الذي معناه: عدل وأنصف، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢، الحجرات: ٩، الممتحنة: ٨]. وقوله ﷺ: «إن المقسطين على منابر من نور يوم القيامة»[1].

﴿فَمَنْ أَسْلَمَ﴾ أي: فالذي أسلم، أو فالذين أسلموا ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أشاروا إليهم بإشارة الجمع باعتبار معنى «من» وأشاروا إليهم بإشارة البعيد تعظيماً لشأنهم.

﴿تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾ أي: طلبوا وتوخوا وأصابوا طريق الرشاد والفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة والفوز بالجنة والنجاة من النار، وبحثوا عنه كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝﴾ [الليل: ٥- ١٠].

﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ أي: للنار وقوداً تسعر وتوقد بهم جزاء ظلمهم وكفرهم، كما قال تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤، التحريم: ٦].

وسميت النار بجهنم لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها، وشدة حرها أعاذنا الله وجميع المسلمين منها.

قال ابن القيم[2]: «قد تضمنت هذه الآيات انقسامهم إلى ثلاث طبقات: صالحين، ودون الصالحين، وكفار، وهذه الطبقات بإزاء طبقات بني آدم، فإنها ثلاثة: أبرار، ومقتصدون، وكفار، فالصالحون بإزاء الأبرار، ومن دونهم بإزاء المقتصدين، والقاسطون

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة ١٨٢٧، والنسائي في آداب القضاة ٥٣٧٩ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.
(٢) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٤٥.

بإزاء الكفار، وهذا كما قسم سبحانه بني إسرائيل إلى هذه الأقسام الثلاثة في قوله: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]».

﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ أي: وأن لو استمروا على الطريق والنهج والمسلك المذكور نهج القاسطين ومسلكهم مسلك الظلم والجور.

﴿لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ أي: لأسقيناهم ماءً كثيراً يكون سبباً لسعة رزقهم ورغدهم.

﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي: لنختبرهم ونبتليهم في سعة الرزق استدراجاً لهم كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

ويؤيد هذا المعنى من السياق قبله قوله: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ فأقرب ما تفسر به الطريقة مسلك هؤلاء، وقوله بعده ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾.

ويحتمل أن معنى الآية ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ المثلى طريقة الإسلام الملة الحنيفية وثبتوا واستمروا عليها ﴿لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ كثيراً غزيراً يكون سبباً لسعة رزقهم كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي: لنختبرهم ونبتليهم فيما أعطيناهم أيشكرون فيستمرون على الاستقامة والطاعة أم تبطرهم النعمة فيرتدون ويكفرون. ويقوي هذا القول حمل الاستقامة على المعنى الظاهر والمتبادر منها وهو الاستقامة على الإسلام وطاعة الله تعالى. لكن يضعفه قوله ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ لأن الله عز وجل وعد المؤمنين المستقيمين على أمره وطاعته بتوسيع الرزق لا ليفتنهم بل إكراماً لهم كما في الآيتين المذكورتين، وكما هو مقتضى دلالة عموم نصوص الكتاب والسنة، وإن كان كثرة المال والرزق قد تكون في الأصل فتنة لكن لغير من وفقهم الله للاستقامة على دينه وطاعته، فإن الله يدرأ عنهم أسباب الفتنة ويحفظهم كما حفظوه، ما لم يغتروا بأنفسهم وهذا ينافي استقامتهم على طاعة الله تعالى.

فالسياق السابق واللاحق وقوله ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ كل هذا يقوي الاحتمال الأول،

ولهذا قال ابن كثير[1] بعد ذكره: «وله اتجاه، ويتأيد بقوله ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ﴾».

﴿وَمَن يُعْرِضْ﴾ أي: ومن يعرض بقلبه ويتول ببدنه ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ﴾ أي: عما أنزل الله عز وجل على رسوله ﷺ من القرآن والسنة، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف: ٤٤].

﴿يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم ويعقوب «يسلكه» بالياء، وقرأ الباقون «نسلكه» بالنون.

ومعنى «يسلكه» يدخله كما قال تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ [المدثر: ٤٢]، أي: ما أدخلكم فيها وقال تعالى: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة: ٣٢] ومعنى الآية: يدخله عذاباً شاقاً يعلوه ويغلبه، كما قال تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ [المدثر: ١٧]، أي: سأكلفه مشقة من العذاب، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

ويؤخذ من هذا أن الجن كالإنس مكلفون مجزيون بأعمالهم.

الفوائد والعبر:

١- أن الجن مذاهب مختلفة وملل شتى، منهم الصالحون ومنهم دون ذلك، ومنهم المسلمون، ومنهم القاسطون الجائرون الظالمون.

٢- إثبات أن الله عز وجل لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وبهذا أيقن هؤلاء النفر من الجن بتوفيق الله لهم لما سمعوا القرآن.

٣- اعتزاز هؤلاء النفر من الجن بإيمانهم بالقرآن وما فيه من الهدى لما سمعوه وفرحهم واستبشارهم بذلك.

٤- ما أسعد من آمن بربه واستقام على شرعه يوفى أجره كاملاً من غير نقص من حسناته ولا زيادة في سيئاته.

٥- الوعد والبشارة والتهنئة لمن أسلموا بإصابتهم طريق الرشد والخير والسعادة في الدنيا والآخرة.

٦- الوعيد للقاسطين الظالمين بكونهم لجهنم وقوداً وحطباً.

٧- أن الاستقامة على دين الله وطاعته سبب لنزول الأمطار والبركات والخيرات.

٨- أن إنزال المطر وإغداق النعم قد يكون ابتلاءً وامتحاناً واستدراجاً.

٩ـ إثبات ربوبية الله الخاصة لعباده المؤمنين، وربوبيته العامة لجميع الخلق.

٩- الوعيد والتهديد لمن يعرض عن ذكر ربه بإدخاله في العذاب الشديد.

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٧٠.

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ الواو: عاطفة. و«المساجد» مواضع الصلاة والسجود لله وعبادته.

﴿لِلَّهِ﴾ أي: لعبادته خاصة.

﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ أي: فلا تدعوا مع الله أحدا من الخلق، لا دعاء عبادة، ولا دعاء مسألة، أي: اعبدوه في هذه المساجد وحده ولا تشركوا معه أحداً، وفي هذا تحذير للمسلمين من أن يقعوا فيما وقع فيه اليهود والنصارى من الإشراك بالله في كنائسهم وبِيَعهم.

وقيل المراد بالمساجد أعضاء السجود، أي: هي لله فلا تسجدوا بها لغيره وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أسجد على سبعة أعظم: على الجبهة، وأشار بيده إلى أنفه، واليدين والركبتين وأطراف القدمين»[1].

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ قرأ نافع وأبو بكر عن عاصم بكسر الهمزة (وإنه) وقرأ الباقون بفتحها.

أي: وأنه لما قام عبد الله ورسوله محمد ﷺ يسأله ويتعبد له ويقرأ القرآن ويدعو إلى الله.

وأطلق عليه وصف العبودية، فقال «عبد الله» في مقام الدعاء والعبادة وهو من أعظم المقامات ولم يقل: وأنه لما قام رسوله أو نبيه يدعوه، لأن العبودية لله أشرف الأوصاف التي يوصف بها البشر من الرسل والأنبياء وغيرهم، ولهذا وصفه بها في مقام الإسراء والقرب منه عز وجل فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، ولم يقل برسوله ولا بنبيه.

﴿كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ اللبد: الشيء الكثير المتراكم والمتلبد بعضه على بعض، أي: كاد الإنس والجن يتلبدون على النبي ﷺ أي: يجتمعون على عداوته، ورد دعوته.

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان ٨١٢، ومسلم في الصلاة - أعضاء السجود ٤٩٠، وأبو داود في الصلاة ٨٨٩، والنسائي في التطبيق ١٠٩٧، والترمذي في الصلاة ٢٧٣، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها ٨٨٣.

ويقويه قوله بعد ذلك: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾.

قال ابن كثير[١]: «وهو الأظهر لقوله بعده ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾ أي: قال[٢] لهم الرسول حين آذوه وخالفوه وكذبوه وتظاهروا عليه، ليبطلوا ما جاء به من الحق، واجتمعوا على عداوته: ﴿إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي﴾ أي: إنما أعبد ربي وحده لا شريك له، وأستجير به وأتوكل عليه، ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾».

ويحتمل أن يكون معنى ﴿كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ أي: كادوا يتراكمون عليه ﷺ حرصاً على اتباعه واستماع دعائه ﷺ وقراءته.

وقيل: إن الجن لما رأوا النبي ﷺ يصلي بأصحابه وائتمامهم به في ركوعه وسجوده وقيامه وجلوسه عجبوا من طواعية أصحابه، فقالوا لقومهم ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾، أي: كاد أصحابه من شدة متابعتهم له في صلاته أن يتلبدوا عليه.

﴿قُلْ﴾ قرأ أبو جعفر وعاصم وحمزة (قل) بغير ألف على الأمر، وقرأ الباقون (قال) بالألف على الخبر.

أي: قل يا محمد لهؤلاء الذين تلبدوا عليك مبيناً لهم منهجك وطريقتك وحقيقة ما تدعو إليه ﴿إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي﴾ «إنما» أداة حصر، ﴿أَدْعُواْ رَبِّي﴾ أي: أعبده وأسأله وأدعو إليه وحده ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ﴾ أي: بربي ﴿أَحَدًا﴾ من الشركاء، أو من الخلق، وهو تأكيد لعبادته له وحده.

وهذا إعلان منه ﷺ لمن اجتمعوا على عداواته أن هذا منهجه وطريقه وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وإعلان منه لمن استمعوا إليه من الجن ولغيرهم أن هذا سبيله وطريق دعوته.

﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ أي: إني عبد ليس لي من التصرف شيء، فلا أملك لكم ضراً ولا نفعاً ولا غواية ولا رشداً ولا شراً ولا خيرا، بل مُلك ذلك وأمره كله لله عز وجل كما قال عز وجل: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، وقال عز وجل: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٧٢.

(٢) على قراءة الجمهور.

صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾ أي: لن يمنعني من الله أحد إن أنا عصيته، أي: فلا يستطيع أحد نصرتي ودفع عذاب الله عني، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾ [يس: ٢٣].

﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ أي: ولن أجد من دون الله عز وجل ملجأ أركن إليه ولا نصيراً، لأنه لا ملجأ ولا منجا منه تعالى إلا إليه كما قال نوح عليه السلام ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود: ٤٣].

وإذا كان الرسول ﷺ وهو أشرف الخلق وسيد ولد آدم لا يملك ضراً ولا رشداً، ولا مجير له من الله، ولا ملجأ له من دون الله ولا نصير فغيره من الخلق من باب أولى وأحرى، وفي هذا رد على من يغلون به ﷺ وعلى من يغلون بالأولياء وأصحاب القبور ويطلبون منهم المدد وقضاء الحاجات.

﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ «إلا» أداة استثناء، والمعنى: إلا إبلاغ أمر الله ورسالاته إلى الناس، أي: ليس لي مزية على الناس إلا أن الله خصني بإبلاغ رسالاته إليهم، وهذا مستثنى من قوله ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ أي: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ أي: إلا تبليغ أمر الله ورسالاته فأنا أملكه. كما قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعراف: ١٨٨].

ويحتمل أن يكون الاستثناء من قوله ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ أي: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ فذلك وسيلتي إلى الله عز وجل للنجاة والخلاص من عذابه، قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٦٥].

فالإيمان والعمل الصالح هما سبب النجاة والخلاص بتوفيق الله عز وجل وهما الوسيلة التي يتوسل بها العبد إلى ربه عز وجل ومن هذا توسل الثلاثة الذين دخلوا الغار فانطبقت عليهم الصخرة بصالح أعمالهم كما في حديث عبد الله بن عمر رضي الله

عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم حتى أووا المبيت إلى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم، فقال رجل منهم: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً، فنأى بي طلب الشجر فلم أرح عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين، وكرهت أن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً، وكرهت أن أوقظهما فلبثت والقدح في يدي والصبية يتضاغون تحت قدمي، حتى برق الفجر فاستيقظا فشربا غبوقهما. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرِّج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفرجت شيئاً لكنهم لا يستطيعون الخروج...» الحديث[1].

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بمخالفة أمر الله ورسوله وارتكاب ما نهى الله عنه ورسوله بالكفر والتكذيب.

﴿فَإِنَّ لَهُۥ﴾ أي: فإن الله أعد له مجازاة له ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾ لا مفر له عنها ولا محيد، وسميت نار جهنم لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها وشدة حرها.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ «خالدين» حال، وجمعت باعتبار معنى «من» وحيث رتب الله على المعصية هنا الخلود في جهنم فإن المراد بالمعصية الكفر المخرج من الملة، لأنه لا يخلد في النار إلا من مات على الكفر وهذه الآية هي الآية الثالثة في القرآن التي فيها التصريح بأبدية خلود أهل النار فيها، مع قوله تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾ [الآيتان: ١٦٨، ١٦٩]، وقوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾﴾ [الآيتان: ٦٤، ٦٥].

وقد اختلف أهل العلم في تأبيد النار وتأبيد المعذبين فيها الذين ماتوا على الكفر على قولين الصحيح منهما كما هو صريح هذه الآيات أن النار لا تفنى ولا يفنى عذابها وهو قول جمهور أهل العلم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ﴾ أي: حتى إذا رأى من عصوا الله ورسوله من الجن والإنس الذي يوعدون يوم القيامة من الأهوال والعذاب بالنار، وشاهدوه عياناً وجزموا

---

(١) أخرجه البخاري في الإجاره ٢٢٧٢، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ٢٧٤٣.

أنه واقع بهم ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾ أي: فسيعلمون حقيقة العلم يومئذ من الذي هو أضعف ناصراً، وأقل عدداً، أهم، أم المؤمنون، وأنهم هم الأضعف ناصراً، فلا أحد في ذلك ينصرهم، ولا هم ينتصرون بأنفسهم وأنهم هم الأقلون عدداً بالنسبة لأولياء الله المفلحين وجنده الأكثرين كما قال عز وجل ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾ [الفتح: ٧].

فحيث كانوا في الدنيا ينتقصون المؤمنين بضعف أنصارهم وقلة عددهم، ويفتخرون عليهم بقوة أنصارهم وكثرة عددهم جازاهم الله بنقيض ذلك فأبان لهم ضعفهم وضعف أنصارهم وقلة عددهم.

الفوائد والعبر:

١- وجوب إخلاص العبادة لله ـ عز وجل ـ بلا شريك، وأن المساجد إنما بنيت لعبادة الله عز وجل وحده، فلا يدعى معه فيها غيره، ولا يمنع أحد من ذكر الله عز وجل فيها.

٢ـ تشريفه ﷺ بالعبودية الخاصة لله ـ عز وجل، وهي أشرف ما يوصف به البشر.

٣- اجتماع الكفرة والمكذبين من الجن والإنس على عداوة الرسول ﷺ والكيد له ولدعوته.

٤- إعلان الرسول ﷺ إخلاص العبادة لربه عز وجل والبراءة من الشرك، ومن الحول والقوة وأنه لا يملك للخلق ضراً ولا نفعاً وأنه لا مجير له من الله إن خالف أمره ولا ملجأ له من دونه.

٥ـ إثبات ربوبيته ـ عز وجل ـ الخاصة ـ له ﷺ.

٦- أن مهمة الرسول ﷺ هي إبلاغ رسالة ربه.

٧- الوعيد الشديد لمن يعصي الله ورسوله بالخلود في نار جهنم خلوداً أبدياً.

٨- أن النار لا تفنى ولا يفنى عذاب المخلدين فيها.

٩- أن الجزاء من جنس العمل فحيث كان الكفرة والمكذبون يفتخرون في الدنيا بقوتهم وقوة أنصارهم وكثرة عددهم فيوم القيامة حين يرون العذاب يعلمون أنهم هم الأضعفون الأقلون فلا ناصر ينصرهم ويدفع عنهم عذاب الله عز وجل وفي هذا أبلغ الوعيد والتهديد.

﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾.

قوله: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ «إن» نافية أي: ما أدري ﴿ أقريب ما توعدون ﴾ الهمزة للاستفهام، و«ما» موصولة أو مصدرية، أي: أقريب الذي توعدون، أو أقريب وعدكم.

﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا﴾ «أم» حرف عطف. «أمدا» أي: مدة وغاية طويلة.

والمعنى: قل يا محمد للناس: لا أدري أقريب الذي توعدون وهو البعث وقيام الساعة والحساب ومجازاتكم على أعمالكم، أم يجعل له ربي مدة وغاية طويلة، كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال عز وجل: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾ [النازعات: ٤٢ – ٤٤].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه في قصة مجيء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ وسؤاله عن الإيمان والإسلام والإحسان وعن الساعة وأماراتها وفيها قول جبريل عليه السلام للنبي ﷺ: «وأخبرني عن الساعة، قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»[(١)].

وفي حديث أنس ـ رضي الله عنه: «أن أعرابياً نادى النبي ﷺ بصوت جهوري، فقال: يا محمد، متى الساعة؟ قال: «ويحك، إنها كائنة، فما أعددت لها؟»، قال: أما إني لم أعد لها كثرة صلاة ولا صيام ولكني أحب الله ورسوله، فقال: «فأنت مع من أحببت». قال أنس: فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث»[(٢)].

وعن أبي ثعلبة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لن يعجز الله هذه الأمة من نصف يوم»[(٣)].

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إني لأرجو أن لا تعجز أمتي

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٠، ومسلم في الإيمان ٩، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٤٩٩١، وابن ماجه في المقدمة ٦٤.
(٢) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦٨٨، ومسلم في البر والصلة والآداب ٢٦٣٩، والترمذي في الزهد ٢٣٨٥.
(٣) أخرجه أبو داود في الملاحم ٤٣٤٩.

عند ربها أن يؤخرها نصف يوم» قيل لسعد: وكم نصف ذلك اليوم؟ قال: «خمسمائة سنة»(١).

﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: عالم ما غاب عن الحواس من المخلوقات والأمور والأحوال السابقة واللاحقة وغير ذلك، لا يعلم ذلك غيره كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [النمل: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ﴾ [يونس: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [النحل: ٧٧]، وعلمه عز وجل بالشهادة من باب أولى.

﴿فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ أي: فلا يُطْلع على غيبه أحدا من خلقه.

وفي هذا رد على أدعياء علم الغيب من السحرة والكهان والرمالين والمنجمين وصدق الله العظيم ﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ۝١٤﴾ [سبأ: ١٤]، وقد أحسن القائل:

لعمرك ما تدري الضوارب بالحصى ... ولا زاجرات الطير ما الله صانع

وقال الآخر:

أطلاب النجوم أحلتمونا ... على علم أدق من الهباء

كنوز الأرض لم تصلوا إليها ... فكيف وصلتمُ علم السماء

﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ «إلا» للاستثناء، و«من» موصولة، والمراد بالرسول في قوله مِن رَّسُولٖ جنس الرسل فيعم الرسل من الملائكة والبشر، والمعنى: إلا الذين رضي عنهم من رسله وارتضاهم لرسالاته، فإنه عز وجل يطلعهم بما اقتضت حكمته أن يطلعهم عليه من الغيب بطريق الوحي تأييداً لهم، ولهذا تضمن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة الإخبار عن كثير من المغيبات السابقة واللاحقة وغيرها.

﴿فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾ أي: يجعل من أمامه ومن ورائه حرساً وحفظة من الملائكة يحفظون ما أوحاه الله إليه من الشياطين حتى يبلغه على حقيقته من غير زيادة ولا نقصان كما قال عز وجل ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ۝٤٢﴾ [فصلت: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩].

قال ابن كثير(٢): «أي: يختصه بمزيد معقبات من الملائكة يحفظونه من أمر الله،

---

(١) أخرجه أبو داود في الملاحم ٤٣٥٠.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٢٧٣.

ويساوقونه على ما معه من وحي الله».

﴿لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ﴾ اللام للتعليل، أي: أنه عز وجل يحفظ رسله بالملائكة ليتمكنوا من تبليغ رسالاته عز وجل للناس ليظهر في علمه عز وجل أن قد أبلغوا رسالات ربهم، كقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١١].

فعلى هذا يكون المعنى: ليظهر في علمه عز وجل أن الرسل بلغوا رسالات ربهم بما أطلعهم عليه بحكمته ووحيه من بعض المغيبات تأييداً لهم مع أنه عز وجل قدر الأشياء وعلمها قبل كونها، ولهذا قال عز وجل: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾.

ويحتمل أن الضمير في قوله ﴿لِيَعْلَمَ﴾ يعود إلى الرسول أي ليعلم محمد ﷺ أن الرسل قبله قد بلغت عن الله رسالاته وأن جبريل والملائكة حفظوها وبلغوها إليه ﷺ.

وقيل ليعلم الناس أن الرسل عليهم السلام بلغوا عن الله رسالاته، ويدل على هذا قراءة يعقوب: (لِيُعلم) بضم الياء، أي: ليعلم الناس أن الرسل قد بلغوا.

﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ أي: أحاط بما عندهم وما أسروه وما أعلنوه، فقدره وعلم به علماً تاماً قبل كونه وبعده.

﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ أي: علم عدد الأشياء كلها وضبطها ضبطاً كاملاً، فلم يخف عليه منها شيء.

الفوائد والعبر:

١- أمر الله لرسوله ﷺ برد علم الساعة والبعث والحساب والجزاء على الأعمال إليه عز وجل، لأنه ﷺ لا علم له بها لا هو ولا غيره من الخلق.

٢- إثبات ربوبيته ـ عز وجل ـ الخاصة لرسله عليهم الصلاة والسلام ـ تشريفاً وتكريماً لهم.

٣- لا يعلم الغيب إلا الله وحده، فلا يطلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل، وفي هذا رد على السحرة والكهنة والرمالين والمنجمين وأدعياء علم الغيب.

٤- أن الله عز وجل قد يطلع بعض من ارتضى من رسله على شيء من الغيب بطريق الوحي تأييداً لهم.

٥- حفظ الله عز وجل لرسله ولوحيه إليهم، ليبلغوه كما أوحاه الله إليهم وليظهر في علمه عز وجل أنهم أبلغوا رسالاته إلى الناس.

٦- إحاطة علم الله عز وجل بالخلق، وما عندهم سواء أسروه أو أعلنوه، تقديراً له وعلماً به قبل كونه وبعده.

٧- إحصاء الله عز وجل عدد الأشياء كلها وضبطه لها ضبطاً تاماً كاملاً.

تفسير سورة المزمل

عن جابر رضي الله عنه قال: «اجتمعت قريش في دار الندوة، فقالوا: سموا هذا الرجل اسماً تصدر الناس عنه، فقالوا: كاهن، قالوا: ليس بكاهن، قالوا: مجنون، قالوا: ليس بمجنون. قالوا: ساحر، قالوا: ليس بساحر. فتفرق المشركون على ذلك، فبلغ ذلك النبي ﷺ فتزمل في ثيابه وتدثر فيها، فأتاه جبريل عليه السلام، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾»[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ «يا» حرف نداء، و«أي» منادى مبني على الضم في محل نصب، و«ها» للتنبيه، و«المزمل» صفة لأي، أو بدل. و«المزمل» أصلها «المتزمل» ثم أدغمت التاء في الزاي لقربها منها، أي: المتلفف بثيابه المتدثر بها، وذلك حصل منه ﷺ أول ما ابتدأه الله عز وجل بالوحي بواسطة جبريل عليه السلام فجاء ﷺ إلى أهله ترعد فرائصه وهو يقول: «زملوني زملوني» ولهذا ناداه الله عز وجل في مطلع هذه السورة بقوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾.

﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ أي: قم للصلاة فيه ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: إلا قليلاً منه للنوم والراحة.

﴿نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾، ﴿نِّصْفَهُۥٓ﴾ بدل كل من «الليل» والضمير يعود إلى الليل، أي: نصف الليل ﴿أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ «أو» عاطفة في الموضعين تفيد التخيير، والضمير في قوله «منه» يعود إلى «نصفه» أي: أو انقص من نصفه قليلاً في حدود ما بين النصف إلى الثلث ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ الضمير في «عليه» يعود أيضاً إلى «نصفه» أي: أو زد على نصفه قليلاً في حدود ما بين النصف إلى الثلثين، يدل على هذا قوله في آخر السورة ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ [الآية: ٢٠].

فأمر الله عز وجل نبيه ﷺ بقيام الليل إلا قليلاً، ثم بين مقدار وقت القيام من الليل

(١) أخرجه البزار فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٢٧٥ وقال البزار: معلى بن عبد الرحمن - يعني أحد رواة الحديث -: قد حدث عنه جماعة من أهل العلم، فاحتملوا حديثه، لكنه تفرد بأحاديث لا يتابع عليها».

وحدده بنصف الليل، أو أنقص منه قليلاً، أو أزيد عليه قليلاً، فخيره بين حالات ثلاث: قيام نصف الليل كاملاً، أو النقصان منه قليلاً، أو الزيادة عليه قليلاً، وهذا فيه تيسير عليه ﷺ، ولهذا قال عز وجل في آخر السورة ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ وفي الحديث: «استقيموا ولن تحصوا»[(١)].

وقد أوجب الله عز وجل على النبي ﷺ وعلى المؤمنين في مطلع هذه السورة قيام الليل، وبين مقداره، كما دل على وجوبه عليه ﷺ قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الآية: ٧٩]، ثم نسخ الله عز وجل وجوب ذلك في آخر السورة، فعن سعد بن هشام قال: انطلقنا إلى عائشة رضي الله عنها فاستأذنا عليها، فقلت: أنبئيني بقيام رسول الله ﷺ فقالت: «ألست تقرأ هذه السورة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾؟ قلت: بلى، قالت: إن الله تعالى افترض القيام في أول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ على النبي ﷺ وعلى أصحابه حولاً، حتى انتفخت أقدامهم، فأمسك الله تعالى خاتمتها اثني عشر شهراً، ثم أنزل التخفيف في آخر هذه السورة، فصار قيام الليل تطوعاً، بعد أن كان فريضة»[(٢)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما نزلت أول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ كانوا يقومون نحواً من قيامهم في شهر رمضان، حتى نزل آخرها، وكان بين أولها وآخرها نحو من سنة»[(٣)].

﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ أي: واقرأ القرآن بتمهل وترسل وتدبر لألفاظه ومعانيه وأحكامه وهكذا كان يقرأ ﷺ.

عن حفصة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يقرأ السورة فيرتلها، حتى تكون أطول من أطول منها»[(٤)].

وعن أنس رضي الله عنه أنه سئل كيف كانت قراءة رسول الله ﷺ فقال: «كانت مداً، ثم قرأ: ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ يمد بسم الله، ويمد بالرحمن، ويمد بالرحيم»[(٥)].

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الطهارة وسننها ٢٧٧، والدارمي في الطهارة ٦٥٥ من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها ـ جامع صلاة الليل ٧٤٦، وأبو داود في الصلاة ـ صلاة الليل ١٣٤٢، والنسائي في قيام الليل ١٦٠١، وأحمد ٦/ ٥٤.

(٣) أخرجه أبو داود في الصلاة ـ أبواب قيام الليل ـ باب نسخ قيام الليل والتيسير فيه ١٣٠٥، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٣٥٩، ٣٦٢ ، والبيهقي في سننه في الصلاة – قيام الليل ٢/ ٥٠٠، والحاكم في تفسير سورة المزمل ٢/ ٥٠٥. وقال: «صحيح الإسناد، ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

(٤) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٧٣٣، والنسائي في قيام الليل وتطوع النهار ١٦٥٨، والترمذي في الصلاة ٣٧٣.

(٥) أخرجه البخاري في فضائل القرآن – مد القراءة ٥٤٠٦، وأبو داود في الصلاة ١٤٦٥، والنسائي في الافتتاح ١٠١٤، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها ١٣٥٣.

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يقطعُ قراءته آية آية: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝﴾»[(١)].

وأَمْره ﷺ بترتيل القرآن أمر له ولأمته، وهكذا جاءت الأحاديث في استحباب الترتيل والأمر بتحسين الصوت بالقرآن والتغني به وفضل ذلك.

فعن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «زينوا أصواتكم بالقرآن»[(٢)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن، يجهر به»[(٣)].

وفي رواية «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي يتغنى بالقرآن»[(٤)].

وأعجبه ﷺ صوت أبي موسى رضي الله عنه في قراءته القرآن، وامتدحه فقال: «لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود» فقال أبو موسى رضي الله عنه: «لو كنت علمت أنك تسمع قراءتي لحبرته لك تحبيرا»[(٥)].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتل، كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها»[(٦)].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «لا تنثروه نثر الدّقل[(٧)]، ولا تهذوه هذّ الشعر، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة»[(٨)].

وعن أبي وائل قال: جاء رجل إلى ابن مسعود رضي الله عنه فقال: قرأت المُفَصَّل الليلة في ركعة فقال: هذّاً كهذِّ الشعر. لقد عرفت النظائر التي كان رسول الله ﷺ يقرن

---

(١) أخرجه الترمذي في القراءات – ما جاء كيف كانت قراءة النبي ﷺ ٢٩٢٧، وأحمد ٦/ ٣٠٢، والبغوي في «معالم التنزيل» ٤/ ٤٠٧.

(٢) أخرجه أبو داود في الوتر – استحباب الترتيل في القراءة ١٤٦٨، والنسائي في الافتتاح – باب تزيين القرآن بالصوت ١٠١٥، وابن ماجه في إقامة الصلاة – باب في حسن الصوت بالقرآن ١٣٤٢، وأحمد ٤/ ٢٨٣، ٢٨٥.

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد – باب قول الله تعالى: ﴿وأسروا قولكم أو اجهروا به﴾ ٧٥٢٧.

(٤) أخرجها مسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٧٩٢، وأبو داود في الصلاة ١٤٧٣، والنسائي في الافتتاح ١٠١٧.

(٥) أخرجه البخاري في فضائل القرآن – حسن الصوت بالقرآن ٥٠٤٨، ومسلم في صلاة المسافرين – استحباب تحسين الصوت بالقرآن ٧٩٣، والترمذي في المناقب ٣٨٥٥ – من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٦) أخرجه أبو داود في الوتر – استحباب الترتيل في القراءة ١٤٦٤، والترمذي في فضائل القرآن ٢٩١٤، وأحمد ٢/ ١٩٢.

(٧) الدقل: رديء التمر ويابسه. انظر «النهاية» مادة «دقل».

(٨) أخرجه البغوي في «معالم التنزيل» ٤/ ٤٠٧.

بينهن فذكر عشرين سورة من المُفَصّل، سورتين في كل ركعة»[١].

والأمر بترتيل القرآن لأجل ضبط ألفاظه وتحسين الصوت به، ولأجل تدبر معانيه وهو الأهم ولهذا قال بعد ذلك ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾.

وليس من الترتيل المأموربه الاهتمام باللفظ وتحسين الصوت به دون التدبر لمعاني القرآن وأحكامه ـ كما هو حال كثير ممن يقرؤون القرآن ـ فذلك لا يجدي شيئاً وقد قال ﷺ «يقرأ القرآن أناس من أمتى لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[٣]: «ولا يجعل همته فيما حجب به أكثر الناس من العلوم عن حقائق القرآن، إما بالوسوسة في خروج حروفه وترقيقها وتفخيمها، وإمالتها، والنطق بالمد الطويل والقصير والمتوسط وغير ذلك، فإن هذا حائل للقلوب قاطع لها عن فهم مراد الرب من كلامه. وكذلك شغل النطق بـ (أأنذرتهم)، وضم الميم من (عليهم) ووصلها بالواو وكسر الهاء وضمها ونحو ذلك، وكذلك مراعاة النغم وتحسين الصوت، وكذلك تتبع وجوه الإعراب واستخراج التأويلات المستكرهة التي هي بالألغاز والأحاجي أشبه منها بالبيان وكذلك صرف الذهن إلى حكاية أقوال الناس ونتائج أفكارهم. وكذلك تأويل القرآن على قول من قلّد دينه أو مذهبه، فهو يتعسف بكل طريق حتى يجعل القرآن تبعاً لمذهبه وتقوية لقول إمامه، وكل هؤلاء محجوبون بما لديهم عن فهم مراد الله من كلامه في كثير من ذلك أو أكثره»

﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ أي: سنلقي عليك بإيحائنا إليك إما بواسطة ملك الوحي جبريل عليه السلام، وإما وحياً منه عز وجل، أو بتكليمه من وراء حجاب كما قال عز وجل: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٥١﴾ [الشورى: ٥١].

﴿قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ هو الوحي إليه بالقرآن الكريم عظيم المعاني جليل الأوصاف.

وهو ثقيل أشد ما يكون نزوله على النبي ﷺ لعظمته فعن زيد بن ثابت رضي الله

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان – الجمع بين السورتين في ركعة ٧٧٥، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٨٢٢، والنسائي في الافتتاح ١٠٠٥، والترمذي في الجمعة ٦٠٢.

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن ٥٠٥٨، ومسلم في الزكاة ١٠٦٤، وأبو داود في السنة ٤٧٦٤، والنسائي في الزكاة ٢٥٧٨ ـ من حديث أبي سعيد الخدرى ـ رضي الله عنه.

(٣) انظر «دقائق التفسير» ٦/٥.

عنه قال: «فأنزل الله تبارك وتعالى على رسوله ﷺ وفخذه على فخذي فثقلت عليّ حتى خفت أن ترض فخذي، ثم سُرّي عنه، فأنزل الله عز وجل ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾»[١].

وعن عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ كيف يأتيك الوحي؟ فقال: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ، فيفصم عني، وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني، فأعي ما يقول، قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي ﷺ في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً»[٢].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: سألت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، هل تحس بالوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أسمع صلاصِلَ، ثم أسكت عند ذلك، فما من مرة يوحى إلي إلا ظننت أن نفسي تفيض»[٣].

وعن عائشة رضي الله عنه قالت: «إن كان ليوحَى إلى رسول الله ﷺ وهو على راحلته، فتضرب بجرانها[٤]»[٥].

وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بقوله ﴿ثَقِيلًا﴾ أي: ثقيلاً العمل به على المكلفين، واختار الطبري أنه ثقيل من الوجهين[٦].

لكن ينبغي أن يعلم أن العمل بالقرآن خفيف على من وفقه الله عز وجل لأن الله عز وجل وضع ببعثة النبي ﷺ وبما أوحى إليه من القرآن والسنة الآصار والأغلال عن هذه الأمة كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

بل إن الموفق حقاً يجد في تطبيق أحكام القرآن والسنة الراحة واللذة والسرور والطمأنينة وقوة المعنوية والنشاط ولهذا قال ﷺ لبلال: «أرحنا يا بلال بالصلاة»[٧]

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٣٢، ومسلم في الإمارة ١٨٩٨، والنسائي في الجهاد ٣٠٩٩، والترمذي في التفسير ٣٠٣٣.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الوحي ٢، والنسائي في الافتتاح ٩٣٤، والترمذي في المناقب ٣٦٣، وأخرجه مسلم مختصراً في الفضائل ٢٣٣٣.

(٣) أخرجه أحمد ٢/ ٢٢٢.

(٤) الجران: باطن العنق، والمعنى: أنها تثبت في مكانها، ولا تستطيع الحركة ولا السير.

(٥) أخرجه أحمد ٢/ ١١٨.

(٦) انظر «جامع البيان» ٢٣/ ٣٦٦.

(٧) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٩٨٦، وأحمد ٥/ ٣٧١ ـ عن عبدالله محمد بن الحنفية عن صهر لهم من الأنصار وأخرجه أحمد أيضا ٥/ ٣٦٤ ـ عن سالم بن أبي الجعد عن رجل من أسلم أن النبي ﷺ قال: «يا بلال أرحنا بالصلاة»

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ أي: القيام والعبادة فيه، في جميع أوقاته وساعاته وآنائه، أي: الليل كله، وبخاصة ما كان منه بعد النوم والراحة واستعادة الجسم والفكر نشاطه وحيويته، وتطلق أيضاً ناشئة الليل على الفعل الذي ينشأ فيه، أي: على القيام نفسه لأنه ينشأ في الليل.

﴿هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا﴾ قرأ أبو عمرو وابن عامر (وِطاءً) بكسر الواو وفتح الطاء وألف ممدودة بعدها، وقرأ الباقون (وَطْئًا) بفتح الواو وإسكان الطاء من غير مد أي: أشد مواطأة بين القلب واللسان، أي: إن قيام الليل والصلاة والقراءة فيه أشد مواطأة بين القلب واللسان، أي: يوافق فيها القلب اللسان، بحيث يتدبر القارئ ما يقرأ، وهو المقصود الأهم من القراءة.

﴿وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ أي: أقوم قولاً وأصوب وأثبت قراءة.

قال ابن كثير[1]: «والمقصود أن قيام الليل هو أشد مواطأة بين القلب واللسان، وأجمع على التلاوة، أي: أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار، لأنه وقت انتشار الناس ولغط الأصوات وأوقات المعاش».

﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا﴾ أي: فراغاً طويلاً وتقلباً وتصرفا في قضاء حوائجك وذلك كافٍ، فتفرغ في الليل للقيام والصلاة.

﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ بأنواع الذكر بالقلب واللسان، وبالعبادات القولية والفعلية، البدنية والمالية وغير ذلك.

﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلًا﴾ أي: انقطع إليه انقطاعاً وأنب إليه وتعلق به بقلبك وأخلص له العمل، وتفرغ لعبادته، إذا انتهيت من قضاء حوائجك وأشغالك، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ۝٨﴾ [الانشراح: ٧، ٨].

ويؤخذ من قوله ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا ۝٧ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلًا ۝٨﴾ أن التبتل والانقطاع إلى الله عز وجل وإلى عبادته إنما يكون بعد قضاء الإنسان الحوائج والمشاغل، وإعطاء الجسم الراحة الكافية، لا كما أراد الذين نهاهم النبي ﷺ عن التبتل، لأنهم أرادوا الانقطاع للعبادة وتحريم ما أحل الله لهم والمشقة على أنفسهم وترك مشاغلهم وحوائجهم.

﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ قرأ ابن عامر ويعقوب وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٧٨.

(ربِ) بكسر الباء وقرأ الباقون برفعها.

أي: رب مشرق الشمس والكواكب ومغربها، خالقه ومالكه ومدبره والمتصرف فيه.

والمشرق والمغرب: اسم جنس يشمل المشارق والمغارب كلها.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود بحق إلا هو سبحانه وتعالى.

﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ أي: فاجعله وكيلا تتوكل وتعتمد عليه، وتفوض إليه جميع أمور دينك ودنياك مع تمام الثقة به سبحانه وتعالى.

وكثيراً ما يقرن الله عز وجل بين الأمر بعبادته والتوكل عليه، لأنه لا يستقيم أحدهما بدون الآخر، قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

الفوائد والعبر:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام.

٢ـ وجوب قيام الليل على النبي ﷺ وعلى أمته وهذا في أول الإسلام.

٣- مشروعية ترتيل القرآن الكريم وتدبر ألفاظه ومعانيه وأحكامه.

٤- أن القرآن الكريم ثقيل على النبي ﷺ حال نزوله، وهو أيضاً ثقيل في أحكامه إلا على من وفقه الله وخففها عليه.

٥- أن ساعات الليل هي أشد صفاء للذهن وحضوراً للقلب يواطئ فيها القلب اللسان، ويجمع فيها القارئ بين القراءة والتدبر.

٦- نعمة الله عز وجل على الخلق في خلق الليل والنهار، وجعل النهار وقتاً لطلب الرزق وقضاء الحاجات وجعل الليل وقتاً للراحة والنوم وقيام ما تيسر منه.

٧- في مراعاة سنن الله الكونية وجعل النهار وقتا لطلب الرزق والعمل، والليل للنوم والراحة وقيام ما تيسر ـ انتظام أمور الحياة الدينية والدنيويه وصلاحها وفي عكس ذلك قلب للموازين وإضطراب أمور الحياة وفسادها.

٨- الأمر بذكر الله عز وجل بالقلب واللسان والجوارح بأنواع الذكر القولية والفعلية، والانقطاع إليه عز وجل بالعبادة بعد الفراغ من المشاغل والحوائج التي لابد منها.

٩- إثبات عظمة الله عز وجل وربوبيته الخاصة لنبيه ﷺ وربوبيته العامة للمشارق والمغارب وغير ذلك، وانفراده عز وجل بالألوهية.

١٠- وجوب إخلاص العبادة لله عز وجل والاعتماد عليه وحده دون سواه.

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝١١ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ۝١٤ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝١٥ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ۝١٦ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ۝١٧ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ۝١٨ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝١٩﴾ .

صلة الآيات بما قبلها:

أمر الله عز وجل نبيه ﷺ بقيام الليل وترتيل القرآن وتدبره، وذكر الله عز وجل والانقطاع إليه بالعبادة والتوكل عليه مما يعطيه الزاد الروحي والمعنوي على تحمل أعباء الرسالة، وما يلاقيه في سبيلها، ثم أمره بعد ذلك بالصبر على أذى المكذبين وهجرهم، وتوعدهم عز وجل بالعذاب.

قوله: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ الواو: عاطفة، و(ما) موصولة بمعنى (الذي) تفيد العموم، أي: اصبر على جميع ما يقولون مما يخالف ما جئت به ويؤذيك، من الإشراك مع الله غيره ونحو ذلك، ومن رميك بالسحر والشعر والكهانة والجنون، والافتراء والكذب ونحو ذلك. وقد تكون «ما» مصدرية، أي: اصبر على قولهم.

﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ الهجر: الترك ﴿جَمِيلًا﴾ أي: حسناً، أي: واتركهم تركاً حسناً لا جزع فيه، ولا قلق.

قال الطبري[1]: «والهجر الجميل هو الهجر في ذات الله، كما قال عز وجل: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٦٨﴾ [الأنعام: ٦٨]».

﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: ودعني واتركني والمكذبين فأنا أتولى عقابهم وعذابهم، ولا تشغل نفسك بهم، وهذا وعيد شديد وتهديد أكيد للمكذبين للرسول ﷺ.

﴿أُو۟لِي ٱلنَّعْمَةِ﴾ أرباب وأصحاب التنعم والترف وغضارة العيش، وأصحاب الأموال والغنى الذين أطغتهم النعمة، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾.

﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ أي: أمهلهم وأنظرهم قليلاً من الوقت، كما قال تعالى: ﴿فَمَهِّلِ

---

(١) في «جامع البيان» ٢٣/ ٣٨٠.

ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق: ١٧].

فالله عز وجل يمهل ولا يهمل، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣]، وقال تعالى: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥]، وقال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان: ٢٤].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لما نزلت هذه الآية: ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾﴾ الآية، قالت: لم يكن إلا يسيراً حتى كانت وقعة بدر»(١).

ويؤخذ من الآية: التحذير من الانشغال بالنعم والأموال وأنها قد تحمل الإنسان على البطر والأشر والكبر ورد الحق والصد عن سبيل الله كما قال نوح عليه السلام ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾﴾ [نوح: ٢١]، وقال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾﴾ [التكاثر: ١، ٢]، وقال ﷺ: «الكبر بطر الحق وغمط الناس»(٢).

﴿إِنَّ لَدَيْنَآ﴾ أي: إن عندنا جاهزاً معداً ﴿أَنكَالًا﴾ قيوداً شديدة، ﴿وَجَحِيمًا﴾ أي: وناراً مستعرة ملتهبة مضطرمة حامية شديدة الحر، بعيدة القعر.

﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ أي: ذا نشوب في الحلق فلا ينساغ، ولا يدخل، ولا يخرج لما فيه من الشوك، ولمرارته وبشاعته وكراهة طعمه ونتن ريحه وخبثه.

﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: عذاباً مؤلماً، موجعاً حسياً للأبدان ومعنوياً للقلوب.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ «يوم» ظرف للوعيد الذي توعدوا به أي: يكون ذلك النكال والجحيم والطعام ذو الغصة والعذاب الأليم ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ أي: يوم وحين تهتز الأرض والجبال وتضطرب وتتزلزل، كما قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١]، وقال تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ [الواقعة: ٤، ٥]، وقال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾ [الحاقة: ١٤].

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٣٨١.
(٢) أخرجه مسلم في الإيمان ٩١، والترمذي في البر والصلة ١٩٩٩ ـ من حديث عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه.

﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ الراسيات الصم الصلاب، ﴿كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ أي: تحولت وصارت كثباناً وأكواماً من الرمل، ﴿مَّهِيلًا﴾ رخواً ليناً ينتثر بعضه على بعض بعد أن كانت حجارة صلبة صماء ثابتة.

فالأرض والجبال على عظمتها في ذلك اليوم يعتريها من أمر الله ما يعتريها فتتبدل وتتغير، وهذا يدل على أن دوام الحال من المحال، وأن البقاء للحي الذي لا يموت سبحانه، فليعتبر أولو الألباب.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا﴾ الخطاب لأهل مكة وغيرهم من الأمة امتناناً عليهم والمراد بالرسول محمد ﷺ.

﴿شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ أي: شاهداً عليكم بأعمالكم، كما قال عز وجل: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ: «اقرأ عليَّ، قلت: أقرأ عليك القرآن وعليك أنزل؟!، قال إني أحب أن أسمعه من غيري، قال: فقرأت من أول سورة النساء حتى وصلت إلى قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ قال: حسبك، فنظرت إليه، فإذا عيناه تذرفان»[1].

﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ وهو موسى بن عمران عليه وعلى نبينا وعلى جميع الأنبياء أفضل الصلاة والسلام، وفرعون هو ملك مصر في عهد موسى، وهو أشد الفراعنة كفراً.

﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ «ال» في «الرسول» للعهد الذكري، أي: الرسول المذكور آنفاً الذي أرسل إلى فرعون، وهو موسى عليه السلام.

أي: خالف فرعون موسى عليه السلام فيما جاء به من عند الله من وجوب عبادة الله وحده، بل ادعى الألوهية والربوبية فقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ أي: فأخذناه أخذاً شديداً بليغاً ثقيلاً، وعاقبناه عقاباً أليما، قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن ٤٥٨٢، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٨٠٠، وأبو داود في العلم ٣٦٦٨، والترمذي في التفسير ٣٠٢٤، وابن ماجه في الزهد ٤١٩٤.

﴿فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٞ﴾ [الذاريات: ٤٠].

وفي ضمن هذا الخبر من الله عز وجل تحذير للمشركين من أهل مكة وغيرهم ممن كذّب محمداً ﷺ وهو أفضل الرسل أن يحل بهم ما حل بفرعون من الأخذ الشديد والنكال العظيم حين كذب موسى عليه السلام، بل بعذاب أشد من ذلك كيف؟ وقد كذبوا أفضل الرسل وسيد ولد آدم عليه أفضل الصلاة والسلام.

﴿فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾ الاستفهام فيه معنى التعجب، و«يوما» مفعول لـ «تتقون» أي: فكيف تجعلون لكم وقاية إن كفرتم من عذاب يوم يجعل الولدان الصغار شيباً، يعني يوم القيامة.

وقيل: «يوماً» معمول لكفرتم، أي: كيف يحصل لكم تقوى إن كفرتم يوم القيامة وجحدتموه، أي: كذبتم به، وأنكرتم البعث والحساب والجزاء على الأعمال، لأن الإيمان باليوم الآخر ركن من أركان الإيمان كما في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه في سؤال جبريل عن الإسلام والإيمان والإحسان، وفيه «الإيمان: أن تؤمن بالله ملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»[1].

ونكّر «يوماً» للتعظيم والتفخيم لشدة أهواله، أي: يوماً عظيماً ثقيلاً، هوله شديد، وشره مستطير كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ [الحج: ١، ٢]، وقال تعالى في مدح الرجال المسبحين بالغدو والآصال ﴿يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [النور: ٣٧]، وقال تعالى في وصف الأبرار: ﴿وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴾ [الإنسان: ٧]، وأنهم يقولون: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا﴾ [الإنسان: ١٠].

وقال تعالى في وصف المكذبين: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾ [الإنسان: ٢٧].

ومعنى قوله: ﴿يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾ أي: يشيب من شدة أهواله الولدان.

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾، قال: «ذلك يوم القيامة، وذلك يوم يقول الله لآدم: قم فابعث من ذريتك بعثاً إلى النار،

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٠، ومسلم في الإيمان ٩، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٤٩٩١، وابن ماجه في المقدمة ٦٤.

قال: من كم يارب؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون، وينجو واحد» فاشتد ذلك على المسلمين، وعرف ذلك رسول الله ﷺ، ثم قال حين أبصر ذلك في وجوههم: «إن بني آدم كثير، وإن يأجوج ومأجوج من ولد آدم، وإنه لا يموت منهم رجل حتى ينتشر لصلبه ألف رجل، ففيهم وفي أشباههم جنة لكم»(١).

﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦ﴾ أي: السماء منشق بسبب شدة أهوال ذلك اليوم، أو السماء منشق في ذلك اليوم لشدة أهواله، كما قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ [الانفطار: ١]، وقال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ [الانشقاق: ١]، وقال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ﴾ [الفرقان: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ﴾ [الحاقة: ١٦]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧].

﴿كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا﴾ أي: كان وعد هذا اليوم واقعاً متحققاً لا محالة ولا بد، ويمكن أن يعود الضمير إلى الله عز وجل وهو وإن لم يذكر قريباً إلا أنه معلوم، والمعنى عليه صحيح، أي: كان وعد الله بمجيء يوم القيامة واقعاً لا محالة.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾ أي: إن هذه السورة وهذه الآيات في ذكر القيامة وأهوالها وأحوالها ﴿تَذۡكِرَةٞۖ﴾ أي: تذكير وموعظة وعبرة لمن يتذكر ويتعظ ويعتبر وينزجر، وهم المؤمنون كما قال تعالى: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ﴾ [الأعلى: ١٠].

﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي: فمن شاء جعل إلى ربه طريقاً موصلاً إليه باتباع رسوله ووحيه وشرعه كما قال ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾ [الأنعام: ١٥٣]،

وذلك ممن شاء الله هدايته كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ [الإنسان: ٣٠].

ويؤخذ من الآية إثبات المشيئة للعبد وأنه ليس مجبوراً على أفعاله، كما تقول الطائفة الجبرية.

(١) أخرجه الطبراني فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٢٨٣، وقال ابن كثير: «حديث غريب».

الفوائد والعبر:

١- تقوية الله عز وجل لقلب النبي ﷺ بأمره بالصبر على أذى المشركين وهجرهم هجراً جميلاً لا جزع فيه ولا قلق، وترك أمرهم إلى الله عز وجل.

٢- الوعيد الشديد والتهديد الأكيد للمكذبين للرسول ﷺ وبيان عظم ما أعد لهم من الأنكال والجحيم والطعام ذي الغصة والعذاب الأليم، في يوم شديدة أهواله، فيه ترجف الأرض والجبال وتتحول الجبال كثيباً مهيلاً.

٣- أن التنعم والترف من أسباب الطغيان ورد الحق وتكذيبه.

٤- أن الله عز وجل يمهل ولا يهمل.

٥- إثبات رسالة نبينا محمد ﷺ وشهادته على أمته.

٦- إثبات رسالة موسى عليه السلام إلى فرعون ومعصية فرعون ومكابرته وأخذه أخذاً شديداً وإغراقه.

٧- تخويف الكافرين والمكذبين وتحذيرهم من عذاب يوم عظيم يشيب من هوله الولدان وتنفطر به السماء وهو آت لا محالة.

٨- إثبات أن هذه السورة وهذه الآيات تذكير وموعظة للناس.

٩- إثبات المشيئة للإنسان فإن شاء سلك الطريق المؤدي إلى ربه طريق السعادة والنجاة، وإن شاء سلك غيره من السبل المؤدية إلى الهلاك وفي هذا الرد على الجبرية.

١٠- إثبات ربوبية الله - عز وجل - الخاصة لأوليائه.

﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ (٢٠)﴾.

أمر الله عز وجل نبيه ﷺ في مطلع السورة بقيام الليل وأوجبه عليه وعلى المؤمنين ثم نسخ وجوب ذلك تخفيفاً عليه ﷺ وعلى أمته في هذه الآية، بعد أن قام رسول الله ﷺ وأصحابه حولاً كاملاً كما جاء ذلك في حديث عائشة وابن عباس رضي الله عنهما[1].

وهذه الواقعة تعد من أصح وقائع النسخ في القرآن الكريم عند جمهور المفسرين والأصوليين و الفقهاء[2].

قوله: ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وعاصم: ﴿ ونصفَهُ وثلثَهُ ﴾ بفتح الفاء والثاء وضم الهاءين وقرأ الباقون بكسرهما.

ومعنى ﴿أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾ أي: أقل من ثلثي الليل، وهو ما بين النصف والثلثين ﴿وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ أي: وتقوم تارة نصف الليل، وتارة ثلثه ﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ أي: ويقوم هذا القيام جماعة من الذين معك من المؤمنين.

وهذه التقديرات الثلاثة هي التي أمر الله عز وجل بها نبيه ﷺ في قوله في مطلع السورة ﴿نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ أي نصف الليل، أو انقص منه قليلاً في حدود ما بين النصف إلى الثلث، أو زد على النصف في حدود ما بين النصف إلى الثلثين.

قال ابن كثير[3] في كلامه على قوله ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ «أي: تارة هكذا، وتارة هكذا، وذلك كله من غير قصد منكم، ولكن لا تقدرون على المواظبة على ما أمركم به من قيام الليل، لأنه يشق عليكم».

﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي: والله يقدر طول الليل والنهار وقصرهما واعتدالهما،

---

(١) سبق تخريجهما في الكلام على مطلع السورة.
(٢) انظر «الناسخ والمنسوخ» للنحاس ٣/ ١٢٩.
(٣) في «تفسيره» ٨/ ٢٨٤.

فتارة يطول الليل وينقص النهار، وتارة يطول النهار وينقص الليل، وتارة يعتدلان.

﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ﴾ الضمير في «تحصوه» يعود إلى ما أمر الله به من قيام الليل إلا قليلاً نصفه أو النقص منه قليلاً أو الزيادة عليه.

والمعنى: علم الله عز وجل أن لن تستطيعوا إحصاء وضبط هذا الوقت والمواظبة عليه من غير زيادة ولا نقصان، نظراً لاختلاف تقدير الليل والنهار، أي: لن تستطيعوا تقديره، ولن تطيقوا قيامه على التمام.

﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ التوبة لغة الرجوع. أي: فرجع بكم وخفف عنكم بنسخ وجوب قيام الليل إلى استحبابه.

﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ أي: فقوموا ما تيسر من قيام الليل، واتركوا ما تعسّر وشق عليكم، وعبر عن قيام الليل وصلاة ما تيسر منه بقراءة ما تيسر من القرآن، لأن قراءة القرآن من أعظم أركان الصلاة، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠] أي: ولا تجهر بقراءتك ولا تخافت بها.

ولهذا ليس في قوله ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ دليل لمن قال إنه لا يتعين قراءة الفاتحة في الصلاة لأن المقصود بذلك ما هو أعم من القرآن وهو قيام الليل والصلاة فيه، مع الأحاديث الصحيحة الصريحة في وجوب قراءة الفاتحة.

عن سعد بن هشام قال: قلت لعائشة رضي الله عنها: «أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ؟ قالت: ألست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قالت: فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن فهممت أن أقوم، ثم بدا لي قيام رسول الله ﷺ، قلت: يا أم المؤمنين، أنبئيني عن قيام رسول الله ﷺ، قالت: ألست تقرأ هذه السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾؟ قلت: بلى، قالت: فإن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولاً حتى انتفخت أقدامهم، وأمسك الله خاتمتها في السماء اثني عشر شهراً، ثم أنزل الله التخفيف في آخر هذه السورة، فصار قيام الليل تطوعاً، من بعد فريضة، فهممت أن أقوم ثم بدا لي وتر رسول الله ﷺ، قلت: يا أم المؤمنين، أنبئيني عن وتر رسول الله ﷺ، قالت: كنا نعد له سواكه وطهوره، فيبعثه الله لما شاء أن يبعثه من الليل، فيتسوك، ثم يتوضأ، ثم يصلي ثماني ركعات لا يجلس فيهن إلا عند الثامنة، فيجلس ويذكر ربه ويدعو ويستغفر، ثم ينهض ولا يسلم، ثم يصلي التاسعة، فيقعد فيحمد ربه ويذكره ويدعو، ثم يسلم تسليماً يسمعنا، ثم يصلي ركعتين وهو جالس بعد ما يسلم، فتلك إحدى عشرة ركعة يا بني،

فلما أسن رسول الله ﷺ وأخذه اللحم أوتر بسبع، ثم صلى ركعتين وهو جالس بعدما يسلم، فتلك تسع يا بني، وكان رسول الله ﷺ إذا صلى صلاة أحب أن يداوم عليها، وكان إذا شغله عن قيام الليل نوم أو وجع أو مرض صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة، ولا أعلم نبي الله ﷺ قرأ القرآن كله في ليلة، ولا قام ليلة حتى أصبح، ولا صام شهراً كاملاً غير رمضان»[١].

وعنها قالت: كنت أجعل لرسول الله ﷺ حصيراً يصلي عليه من الليل، فتسامع الناس به فاجتمعوا، فخرج كالمغضب، وكان بهم رحيما، فخشي أن يكتب عليهم قيام الليل، فقال: «أيها الناس اكلَفُوا من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل من الثواب حتى تملوا من العمل، وخير الأعمال ما ديم عليه»[٢].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أول ما نزل «أول المزمل» كانوا يقومون نحواً من قيامهم في شهر رمضان، وكان بين أولها وآخرها قريب من سنة»[٣].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: «﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝﴾ فأمر الله نبيه والمؤمنين بقيام الليل إلا قليلا، فشق ذلك على المؤمنين، ثم خفف الله عنهم ورحمهم، فأنزل بعد هذا ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾. إلى قوله: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ فوسع الله – ولله الحمد – ولم يضيق»[٤].

فنسخ الله عز وجل بهذه الآية وجوب قيام الليل الذي أوجبه على المؤمنين في أول هذه السورة، وصار قيام الليل ـ ولله الحمد ـ سنة وليس بواجب كما في حديث طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس يسمع دوي صوته ولا يفهم ما يقول حتى دنا فإذا هو يسأل عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «خمس صلوات في اليوم والليلة» فقال: هل عليّ غيرها؟، قال: «لا، إلا أن تطوع»

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان ٤٣، ومسلم في صلاة المسافرين ٧٨٢، وأبو داود في الصلاة ١٣٦٨، والنسائي في القبلة ٧٦٢، وابن ماجه في الزهد ٤٢٣٨، وأحمد ٦/ ٤٠، ٦١ والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٣٥٩ – ٣٦٠.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٣٥٩، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٨٠.

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٣٦٠ – ٣٦١.

الحديث[1].

﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾

في هذا بيان الحكمة والعلة والسبب في نسخ حكم قيام الليل من الوجوب إلى الاستحباب وهو هذه الأعذار.

وفي هذا دليل على أن أحكام الله عز وجل معللة ولحكم عظيمة.

قوله: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ أي: علم الله عز وجل أنه سيكون منكم أيها المؤمنون من اعتلت صحتهم بسبب المرض فيشق عليهم صلاة نصف الليل أو ثلثه أو ثلثيه، فليصلوا ما تيسر لهم وسهل عليهم، قياماً أو قعوداً أو على جنوبهم إن شق عليهم القيام ولهم أجر القائم فإن لم يستطيعوا فلهم أجر ما كانوا يعملون في الصحة.

﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يسافرون في الأرض والضرب في الأرض هو السير والسفر فيها.

﴿يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أي: يطلبون من رزق الله الواسع ليستغنوا عن الخلق فخفف الله عنهم، وفي تقديم طلب الرزق على القتال في سبيل الله إشارة إلى أهمية طلب الرزق والاستغناء عن الخلق.

﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: يقاتلون الكفار لإعلاء كلمة الله تعالى كما قال ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»[2] فيشغلهم ذلك عن قيام الليل، ولم يكن القتال شرع بعد، لأن السورة كلها مكية والقتال إنما شرع بالمدينة، وهذا من أعظم دلائل وأعلام نبوته ﷺ.

فهذه الأعذار الثلاثة: المرض، والسفر لطلب الرزق، والقتال في سبيل الله من أسباب تخفيف حكم قيام الليل من الوجوب إلى الاستحباب، بل إن الله عز وجل خفف عنهم في الصلاة المفروضة فأباح لهم القصر والجمع، بل أباح للمريض والخائف أن يصلي حسب حاله.

﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ تأكيد لقوله ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ وكرر – والله أعلم –

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ـ الزكاة في الإسلام ٤٦، ومسلم في الإيمان – بيان الصلوات التي هي احد أركان الإسلام ١١، وأبو داود في الصلاة ٣٩١، والنسائي في الصلاة ٤٥٨.

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٤٥٨، ومسلم في الإمارة ١٩٠٤، وأبو داود في الجهاد ٢٥١٧، والنسائي في الجهاد ٣١٣٦، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٤٦، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٨٣ ـ من حديث أبي موسى – رضي الله عنه.

للامتنان على المؤمنين بالتخفيف عنهم.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى وجوب قيام قليل من الليل، وبخاصة على أهل القرآن لقوله ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ وقوله: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾.

وعن علي رضي الله عنه قال: الوتر ليس بحتم كصلاتكم المكتوبة، ولكن سنّ رسول الله ﷺ، وقال: «إن الله وتر يحب الوتر فأوتروا يا أهل القرآن»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من لم يوتر فليس منا»[2].

وعن بريدة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الوتر حق، فمن لم يوتر فليس منا، الوتر حق فمن لم يوتر فليس منا، الوتر حق فمن لم يوتر فليس منا»[3].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل عن رجل نام حتى أصبح، فقال: «ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه»[4].

فقيل معناه نام عن المكتوبة، وقيل: نام عن قيام الليل.

والراجح الذي عليه جمهور أهل العلم أن قيام الليل مستحب وليس بواجب لقوله ﷺ للرجل الذي سأله لما بين له وجوب الصلوات الخمس، فقال: هل عليَّ غيرها؟ قال: «لا إلا أن تطوع»[5].

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ لما خفف الله عن المؤمنين ونسخ وجوب قيام الليل إلى الاستحباب أتبع ذلك بالأمر بإقامة الصلوات المفروضة الواجبة وإيتاء الزكاة المفروضة، وفي هذا إشارة ودلالة على وجوب الاهتمام والعناية بالفرائض والواجبات وأنها لا تقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة.

ومعنى ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أقيموها إقامة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها. والصلاة لغة: الدعاء، واصطلاحاً: التعبد لله عز وجل بأقوال وأفعال مخصوصة

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة استحباب الوتر ١٤١٦، والنسائي في قيام الليل ـ الأمر بالوتر ١٦٧٥، والترمذي في الصلاة ٤٥٣، وابن ماجه في إقامة الصلاة ـ ما جاء في الوتر ١١٦٩، وأحمد ١/ ١١٠، ١٤٣، وقال الترمذي: «حديث حسن».

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة – باب فيمن لم يوتر ١٤١٩، وأحمد ٥/ ٣٥٧.

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٧، ومسلم في صلاة المسافرين ٧٧٤، والنسائي في قيام الليل وتطوع النهار ١٦٠٨، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٣٣٠.

(٤) اخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٧٠، ومسلم في صلاة المساوين وقصرها ٧٧٤، والنسائي في قيام الليل ١٦٠٨، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٣٣٠.

(٥) سبق تخريجه.

مبتدأة بالتكبير مختتمة بالتسليم.

والمراد بالصلاة هنا الصلوات الخمس المفروضة، أي: وأقيموا الصلاة الواجبة.

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: أعطوا الزكاة في أموالكم لمستحقيها، والزكاة لغة: النماء والزيادة واصطلاحاً: حق مالي واجب في مال مخصوص لطائفة مخصوصة على وجه مخصوص وهو الحول.

وسميت الزكاة بهذا الاسم لأنها تزكي المال وتزيده نماء، وتزكي نفس صاحب المال من البخل والشح وتزكي نفس الفقير المعطى منها فيسلم من الحقد والضغينة على الأغنياء، ويسلم من البحث عن المال بالطرق المحرمة كالسرقة والبغاء ونحو ذلك.

ولهذا جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قال رجل: لأتصدقن بصدقة فخرج بصدقته فوضعها في يد سارق، فأصبحوا يتحدثون تصدق الليلة على سارق، فقال: اللهم لك الحمد على سارق، لأتصدقن الليلة بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية، فأصبحوا يتحدثون تصدق الليلة على زانية، فقال: اللهم لك الحمد على زانية لأتصدقن الليلة بصدقة فخرج بصدقته فوضعها في يد غني، فأصبحوا يتحدثون تصدق الليلة على غني، فقال: اللهم لك الحمد على سارق وعلى زانية وعلى غني، فأتي فقيل له: أما صدقتك على سارق فلعله أن يستعف عن سرقته، وأما الزانية فلعلها أن تستعف عن زناها، وأما الغني فلعله أن يعتبر فينفق مما أعطاه الله»[١].

وفي الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بعد نسخ وجوب قيام الليل إشارة وتنبيه إلى تعظيم أمر الواجبات وبالأخص الصلاة والزكاة، ولهذا قال عز وجل في الحديث القدسي «وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي ما افترضته عليه»[٢].

ولما سأل الأعرابي النبي ﷺ، وقال: دلني على عمل يدخلني الجنة قال له ﷺ: «تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا» فقال هل عليّ غيرها، قال: «لا إلا أن تطوع»، قال: والذي بعثك بالحق نبياً لا أزيد على هذا ولا أنقص منه فلما ولى قال ﷺ: «أفلح إن صدق» وفي رواية

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤٢١، ومسلم في الزكاة ١٠٢٢، والنسائي في الزكاة ٢٥٢٣.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٠٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

«من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا»[1].

وقد استدل بهذه الآية من قال: إن الزكاة فرضت بمكة لكن مقادير أنصبتها والمخرج منها لم يبين إلا بالمدينة.

والزكاة قرينة الصلاة في نحو اثنين وثمانين موضعاً في القرآن الكريم، وهما أعظم العبادات بعد الشهادتين فالصلاة أعظم العبادات البدنية، وهي عمود الإسلام، والزكاة أعظم العبادات المالية، وفي الصلاة الإحسان في عبادة الله، وفي الزكاة الإحسان إلى عباد الله.

﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أمر الله عز وجل بإقامة الصلاة وجوباً، وقيام الليل استحبابا، وأتبع ذلك بالأمر بإعطاء الزكاة وجوباً والقرض الحسن والصدقة استحباباً فجمع في هذه الآيات بين الأمر بالصلاة الواجبة والمستحبة، وبين الصدقة الواجبة والمستحبة وهذا يقوي ما ذهب إليه جمهور أهل العلم من أن قيام الليل مستحب وليس بواجب.

ومعنى ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ﴾ أي: تصدقوا وأنفقوا في سبيله يثبكم على ذلك. والقرض في الأصل: ما يعطيه الإنسان ليقضاه من غير زيادة ولا مرابحة.

والله عز وجل غني عن خلقه ليس بحاجة أن يقرضوه بل كل ما هم فيه من النعم منه كما قال عز وجل: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

وإنما سمى الله عز وجل الصدقة والإنفاق في سبيله قرضاً ترغيباً في ذلك وبياناً لتكفله عز وجل التام بجزاء ذلك والإثابة عليه كما يلتزم المقترض برد القرض، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾[التوبة: ١٠٤]، بل إنه عز وجل يضاعف ثواب ذلك أضعافاً كثيرة، كما قال عز وجل ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ احتساباً لله عز وجل وبطيب نفس، وعدم منٍّ على المُقْرَض، ولا أذى له، ومن كسب حلال.

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾.

بعدما أمر الله عز وجل بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والقرض الحسن رغب وحث

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٤٦، ومسلم في الإيمان ١١، وأبو داود في الصلاة ٣٩١، والنسائي في الصلاة ٤٥٨ ـ من حديث طلحة بن عبيد الله ـ رضي الله عنه.

على فعل الخير عموماً وهذه الجملة معترضة بين قوله ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟﴾.

قوله: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ الواو: اعتراضية، و«ما» شرطية أي: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم﴾ بين يديكم وأمامكم ليوم القيامة (من خير) أي: من صدقات ونفقات في سبيل الله ومن الطاعات وأنواع البر ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا﴾ أي: تجدوا ثوابه عند الله مدخراً لكم، وخيراً مما قدمتموه في الدنيا، وخيراً مما أبقيتموه.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟ قالوا: يا رسول الله ما منا أحد إلا ماله أحب إليه، قال: «فإن ماله ما قدم ومال وارثه ما أخر»[1].

﴿وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ أي: وأعظم ثواباً مما قدمتموه حيث يجازي سبحانه وتعالى الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. قال ﷺ: «وموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها»[2].

قال السعدي رحمه الله بعد كلامه على هذه الآية: «فوأسفاه على أوقات مضت في الغفلات، وواحسرتاه على أزمان تقضت في غير الأعمال الصالحات، وواغوثاه من قلوب لم يؤثر فيها وعظ بارئها، ولم ينجع فيها تشويق من هو أرحم بها من نفسها، فلك اللهم الحمد، وإليك المشتكى، وبك المستغاث، ولا حول ولا قوة إلا بك».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ «الغفور» و«الرحيم» اسمان من أسماء الله عز وجل.

أي: إن الله ذو مغفرة واسعة لمن تاب وأناب إليه واستغفره، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦].

وهو عز وجل ذو رحمة واسعة لجميع خلقه، ورحمة خاصة بالمؤمنين قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٧].

وفي الأمر بالاستغفار بعد الأمر بالصلاة والزكاة والقرض الحسن والحث على فعل

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٤٢، والنسائي في الوصايا ٣٦١٢.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٧٩٦، ومسلم في الإمارة ١٨٨٠، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٥١ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

الخير عموماً إشارة إلى أن الإنسان مهما اجتهد فلا يسلم من تقصير، ولا يخلو عمله من نقص، وقد شُرِع الاستغفار في نهاية الأعمال كالصلاة والحج وغيرهما، وفي نهاية الأعمار، لأنه يُرقِّع ما حصل فيها من نقص لا يكاد يسلم منه أحد.

الفوائد والعبر:

١- تشريف الله ـ عز وجل ـ لنبيه ﷺ بخطابه، وربوبيته الخاصة له.

٢ـ نسخ وجوب قيام الليل لعلمه عز وجل وهو الذي يقدر الليل والنهار أن الرسول ﷺ ومن معه وأمته لا يستطيعون القيام به ولا إحصاءه وضبطه كما فرضه الله في أول السورة لاختلاف تقدير الليل والنهار.

٣- مراعاة التشريع الإسلامي أحوال المكلفين وقدراتهم.

٤- استحباب قيام ما تيسر من الليل وقراءة ما تيسر من القرآن فيه.

٥- أن أعظم ما في قيام الليل قراءة القرآن لهذا أطلق قراءة ما تيسر من القرآن على القيام.

٦- أن من الحكمة في نسخ وجوب قيام الليل وجعله مندوباً بقدر ما تيسر، مراعاة حال المرضى والمسافرين في الأرض لابتغاء الرزق من الله، والمقاتلين في سبيل الله.

٧- تأكيد نسخ وجوب قيام الليل وبقائه على الاستحباب لقوله ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾.

٨- وجوب إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وعظم مكانتهما في الإسلام.

٩- تعظيم أمر الواجبات في الإسلام. والترغيب في النوافل.

١٠- الحث على الصدقة والإنفاق والترغيب في ذلك بتسميته قرضاً وأن يكون ذلك خالصاً لوجه الله عز وجل وبطيب نفس وبلا من ولا أذى، ومن كسب حلال.

١١- أن ما قدمه المرء لنفسه اليوم من خير يجد ثوابه عند الله عز وجل مضاعفاً أضعافاً كثيرة، وخيراً منه، وفي هذا ترغيب في التطوع في سائر العبادات.

١٢- تكلفه ـ عز وجل ـ بمضاعفة جزاء من قدم خيراً لنفسه لقوله ﴿تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ ولهذا سماه «أجراً» كما سمى الصدقة والإنفاق في سبيل الله قرضاً. وفي هذا كله ترغيب في القرض، وتقديم الخير.

١٣ـ وجوب الاستغفار والتوبة والرجوع إلى الله والإنابة إليه على الدوام.

١٤- إثبات اسمين من أسماء الله عز وجل وهما «الغفور» «الرحيم» والمغفرة التامة والرحمة الواسعة له ـ عز وجل.

تفسير سورة المدثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾.

عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، قال: «أخبرني جابر بن عبد الله: أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي: «فبينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري قبل السماء، فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض فجئثت منه حتى هويت إلى الأرض، فجئت إلى أهلي، فقلت: زملوني، زملوني، زملوني، فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ إلى: ﴿فَٱهْجُرْ﴾» قال أبو سلمة: والرجز الأوثان، ثم حمي الوحي وتتابع»[(١)].

وفي رواية عن أبي سلمة عن جابر بن عبد الله: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ثم فتر الوحي عني فترة، فبينا أنا أمشي سمعت صوتاً» وذكر نحوه[(٢)].

فقوله ﷺ: «فإذا الملك الذي جاءني بحراء» وقوله في الرواية الثانية: «ثم فتر الوحي عني فترة» يتفق مع ما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها في بدء الوحي من أن أول سورة أنزلت هي: «اقرأ باسم ربك الذي خلق»[(٣)].

وهو قول جمهور أهل العلم من السلف والخلف.

وقد ثبت عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه القول بأن أول سورة نزلت سورة المدثر فعن يحيى بن أبي كثير قال: سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن، قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ قلت: يقولون: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾؟ فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبد الله عن ذلك، وقلت له مثل ما قلت لي، فقال جابر: لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله ﷺ قال: «جاورت بحراء، فلما قضيت جواري هبطت فنوديت

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة المدثر ٤٩٥٤، ومسلم في الإيمان ـ بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ١٦١، والترمذي في التفسير ٣٣٢٥، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٤٠١.

(٢) أخرجها أحمد ٣/ ٣٢٥.

(٣) أخرجه البخاري في بدء الوحي ٤، ومسلم في الإيمان ١٦٠، وسيأتي ذكر الحديث بلفظه في تفسير سورة العلق.

فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً، ونظرت أمامي فلم أر شيئاً ونظرت خلفي فلم أر شيئاً، فرفعت رأسي فرأيت شيئاً، فأتيت خديجة، فقلت: دثروني. وصبوا عليَّ ماء بارداً، قال: فدثَّروني وصبوا علي ماء بارداً قال: فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾»[1].

قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ صدّر عز وجل هذه السورة بالنداء تنبيهاً وتعظيماً.

و«المدثر» المتلفف بثيابه، المتغطي بها كالمزمل والمراد به النبي ﷺ.

﴿قُمْ﴾ أي: قم وانهض بنشاط وشمر عن ساعد الجد وعن ساق العزم.

﴿فَأَنذِرْ﴾ أي: فخوف وحذر الناس من عذاب الله عز وجل، آمراً وداعياً لهم إلى فعل وقول ما ينجيهم من عذاب الله، والبعد عما يعرضهم لعقاب الله.

وبهذا حصل الإرسال له ﷺ فنبئ ﷺ باقرأ وأرسل بالمدثر.

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي: فعظمه وكبره بقولك: الله أكبر، وادع الناس إلى تعظيمه وعبادته وتكبيره.

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي: طهر بدنك وثيابك من الأحداث والنجاسات الحسية بالماء، وطهر بدنك وقلبك وخلقك من الذنوب والمعاصي والآثام والنجاسات المعنوية بالإيمان والتوبة والعمل الصالح، وحِل الملبس والمأكل.

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه أتاه رجل فسأله عن هذه الآية ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ قال: «لا تلبسها على معصية ولا غدرة، ثم قال: أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفي:

فإني بحمد الله لا ثوب فاجـــــر ... لبستُ ولا من غـــدرة أتقنـــع»[2]

وقال الآخر:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه ... فكـــل رداء يرتديــه جميــــــل[3]

أي: فكل خلق يتخلق به جميل.

وقال الآخر:

أفاطم مهلاً بعض هذا التدلـــل ... وإن كنت قد أزمعت صرمي فأجملي

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة المدثر ٤٩٢٢، ومسلم في الإيمان ١٦١، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٤٠٢ – ٤٠٣.

(٢) ذكره الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٤٠٥، وصاحب «اللسان» في مادة «طهر».

(٣) البيت لدكين بن رجاء. انظر «الشعر والشعراء». ٢/ ٦١٢.

وإن تك قد ساءتك مني خليقةٌ فسُلي ثيابي من ثيابك تَنْسُلِ[١]

أي: فاستخرجي قلبي من قلبك.

وقال الآخر:

رموها بأثواب خفاف فلا ترى لها شبهـاً إلا النعـام المَنفَّرا[٢]

أي: رموها يعني الرِّكاب بأبدانهم.

وقال الآخر:

فشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم[٣]

يعني بـ «ثيابه»: نفسه.

قال ابن القيم[٤]: «وجمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم على أن المراد بالثياب ههنا القلب والمراد بالطهارة إصلاح العمل والأخلاق».

وذكر أقوال السلف في المراد بقوله ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ فمن قائل المراد بثيابك قلبك أو أخلاقك، ومن قائل ثيابك طهرها من النجاسة الحسية والمعنوية بكونها من مكسب حلال، وغير ذلك من الأقوال ثم قال: «الآية تعم هذا كله وتدل عليه بطريق التنبيه واللزوم إن لم تتناول ذلك لفظاً فإن المأمور به إن كان طهارة القلب فطهارة الثوب وطيب مكسبه تكميل لذلك».

ويدل على هذا العموم ـ والله أعلم ـ جمع «ثيابك» فلو أريد البدن وحده، أو القلب وحده، أو غير ذلك لقال: «وثوبك فطهر».

﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ قرأ أبو جعفر ويعقوب وحفص بضم الراء، «والرُّجز» وقرأ الباقون بكسرها «والرِّجز».

والرجز: الأصنام والأوثان والشرك والمعاصي.

(فاهجر) أي: فاتركها وادع إلى تركها.

ولا يلزم من هذا تلبسه ﷺ بشيء من ذلك كقوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١].

---

(١) هذان البيتان من معلقة امرئ القيس انظر «ديوانه» ص٣٧ طبعة بيروت.
(٢) البيت للشماخ.
(٣) البيت لعنترة بن شداد.
(٤) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٥٥، ٥٧، ٥٨.

﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ أي: ولا تمنن على الناس بما أسديت إليهم من معروف.

﴿تَسْتَكْثِرُ﴾ أي: تستكثر ما أسديت إليهم، وترى لك الفضل عليهم، أو تطلب منهم أكثر مما أسديت إليهم.

أي: أنه ينبغي أن يسدي الإنسان المعروف أياً كان لوجه الله وابتغاء مرضاته، لا لأجل أن يرد عليه أكثر من ذلك.

قال السعدي[1]: «بل أحسن إلى الناس مهما أمكنك وَانْس عندهم إحسانك واطلب أجرك من الله تعالى، واجعل من أحسنت إليه وغيره على حد سواء».

وأيضاً: ولا تمنن بعملك على ربك تستكثره، أي: ولا تدل على ربك بعمل عملته، ولهذا قال ﷺ: «لن يدخل أحداً منكم عملُه الجنة قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»[2].

وفي قصة الإسرائيلي الذي عبد الله خمسمائة سنة، وأخرج الله له تلك الرمانة ينزل كل يوم من صومعته فيأخذ منها لما قال الله عز وجل: أدخلوا عبدي الجنة برحمتي. قال: لا يا رب بل بعملي، فوجد أن عمله طيلة خمسمائة سنة لا يعادل نعمة البصر الذي أعطاه الله إياه. فقال الله عز وجل: أدخلوا عبدي النار بعدلي. فقال: لا يا رب، أدخلني الجنة برحمتك فأدخله الجنة برحمته سبحانه[3].

﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾ .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إن الوليد بن المغيرة صنع لقريش طعاماً، فلما أكلوا، قال: ما تقولون في هذا الرجل؟ فقال بعضهم: ساحر. وقال بعضهم: ليس بساحر. وقال بعضهم: كاهن. وقال بعضهم: ليس بكاهن. وقال بعضهم: شاعر، وقال بعضهم: ليس بشاعر، وقال بعضهم سحر يؤثر، فأجمع أمرهم على أنه سحر يؤثر، فبلغ ذلك النبي ﷺ فحزن وقنع رأسه، وتدثر، فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٥٠٩.

(٢) أخرجه البخاري في المرضى ٥٦٧٣، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار ٢٨١٦، وابن ماجه في الزهد ٤٢٠١ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الحاكم في التوبة والإنابة ٤/ ٢ وقال: «صحيح الإسناد» وضعفه الذهبي. وقال ابن القيم في شفاء العليل ١/ ١١٤: «إسناده صحيح، ومعناه صحيح لا ريب فيه».

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٧﴾»[١].

ومعنى قوله: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ أي: اصبر ابتغاء وجه ربك على طاعة الله عز وجل وتبليغ الرسالة، وعلى ما تلاقي من أذى في سبيل ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠].

وفي هذا شد لأزره ﷺ وتقوية لقلبه كما قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ أي: فإذا نفخ إسرافيل في الصور والقرن بأمر الله عز وجل لقيام الناس من القبور، وجمع الخلائق للبعث والنشور.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ؟ فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فما تأمرنا يا رسول الله؟، قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا»[٢].

﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم ينفخ في الصور ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ أي: يوم شديد عظيم ثقيل لكثرة أهواله وشدتها كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٧] وقال تعالى في وصف الأبرار: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧].

﴿عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ أي: على الكافرين خاصة غير سهل، وفي هذا تخصيص لعسره بأنه على الكافرين خاصة، وتأكيد لشدة عسره لأن الصفات المنفية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها فوصف هذا اليوم بالعسر، ثم نفى عنه اليسر على الكافرين خاصة كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٨].

وذلك لأنهم قد يئسوا من كل خير وأيقنوا بالهلاك والبوار، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

---

(١) أخرجه الطبراني فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٢٨٨.

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ١٤٨، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٤١٨ - ٤١٩.

[العنكبوت: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٦].

ويفهم من قوله ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ أنه يسير على المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: 82].

وعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: قيل لرسول الله ﷺ «يوماً كان مقداره خمسين ألف سنة ما أطول هذا اليوم فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا»[١]

الفوائد والعبر:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام.

٢ـ إثبات رسالة النبي ﷺ لقوله ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ فقد نبئ ﷺ باقرأ وأرسل بالمدثر.

٣- وجوب الدعوة إلى الله ـ عز وجل ـ وتكبيره، وتعظيمه وإخلاص العبادة له والبراءة من الشرك والطهارة من النجاسات المعنوية والحسية في القلب والبدن واللباس، عليه ﷺ وعلى أتباعه.

٤- لا يجوز أن يمن الإنسان بعمله أو يدل على ربه، كما لا يجوز أن يمن بما أعطى طلباً للاستكثار.

٥- وجوب الصبر ابتغاء وجه الله على طاعته عز وجل، وعن معصيته وعلى أقداره المؤلمة، ومن ذلك ما يلاقيه ﷺ في سبيل دعوته إلى ربه وكذا الدعاة إلى الله عز وجل من بعده.

٦ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة ـ له ﷺ تشريفاً له وتكريماً.

٧- إثبات البعث والنفخ في الصور، وشدة أهوال يوم القيامة وكرباته وما فيه من العسر الذي لا يسر معه على الكافرين.

٨- يسر يوم القيامة وخفته على المؤمنين لمفهوم قوله ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾.

---

(١) سبق تخريجه.

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠)﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

أمر الله عز وجل رسوله ﷺ في الآيات السابقة بالصبر على أذى المشركين والكافرين وتوعدهم بالقيامة وما فيها من الشدة والعسر عليهم، ثم خص بالوعيد والتهديد في هذه الآيات أحد صناديدهم فقال: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ الآيات.

سبب النزول:

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «دخل الوليد بن المغيرة على أبي بكر بن أبي قحافة فسأله عن القرآن، فلما خرج على قريش، قال: يا عجباً لما يقول ابن أبي كبشة، فوالله ما هو بشعر، ولا بسحر، ولا بهذْي من الجنون، وإن قوله لمن كلام الله، فلما سمع بذلك النفر من قريش ائتمروا فقالوا: والله لئن صبأ الوليد لتصبُوَنَّ قريش. فلما سمع بذلك أبو جهل بن هشام قال: أنا والله أكفيكم شأنه. فانطلق حتى دخل عليه بيته، فقال للوليد: ألم تر قومك قد جمعوا لك الصدقة؟ فقال: ألست أكثرهم مالاً وولداً؟ فقال أبو جهل: يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبي قحافة لتصيب من طعامه. فقال الوليد: أقد تحدث به عشيرتي؟ فلا والله لا أقرب ابن أبي قحافة، ولا عمر، ولا ابن أبي كبشة، وما قوله ﴿إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ فأنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ إلى قوله: ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ »[1].

وقال قتادة: «زعموا أنه قال: والله لقد نظرت فيما قال الرجل، فإذا هو ليس بشعر، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه ليعلو ولا يعلى، وما أشك أنه سحر. فأنزل الله: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ الآية، ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ قبض ما بين عينيه»[2].

وعن عكرمة: «أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٤٢٩ - ٤٣٠، وأبو نعيم في «دلائل النبوة» ١/ ٢٣٣.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٤٣٠.

فبلغ ذلك أبا جهل بن هشام فأتاه فقال: أي عم، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً. قال: لم؟، قال: يعطونكه، فإنك أتيت محمداً تتعرض لما قِبلَه. قال: قد علمت قريش أني أكثرها مالاً، قال: فقل فيه قولاً يعلم قومك أنك منكر لما يقول، وأنك كاره له، قال: فماذا أقول فيه؟ فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، والله لا يشبه الذي يقول شيئاً من ذلك، والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو ولا يعلى، قال: والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر فيه، فلما فكر قال: هذا سحر يأثره عن غيره، فنزلت: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ قال قتادة: خرج من بطن أمه وحيدا حتى بلغ ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾»[1].

قوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ أي: دعني واتركني والذي أوجدته وأخرجته من بطن أمه وحيداً فريداً بلا أهل ولا مال ولا ولد ولا عشيرة.

والمعنى: اترك أمره وعقابه وعذابه إلي، فأنا أكفيكه، فلا تباله.

والمراد بذلك الوليد بن المغيرة، كما دل على ذلك سبب النزول. وقد توعده الله عز وجل وعيداً شديداً، وهدده تهديداً أكيداً، وذمه ذماً لم يذم به غيره لشدة عناده واستكباره عن قول الحق.

﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا﴾ أي: مالاً كثيراً واسعاً.

﴿وَبَنِينَ﴾ أي: وجعلت له أولاداً ذكوراً ﴿شُهُودًا﴾ حضوراً عنده على الدوام لا يفارقونه، يقومون بخدمته وحاجاته ويستنصر بهم، ويفتخر بهم، ويأنس بوجودهم بجانبه، ويتمتع ويتملى بهم ويتزين، كما قال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦]. قيل: كان أولاده ثلاثة عشر، وقيل كانوا عشرة، وقيل غير ذلك.

﴿وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا﴾ أي: مكنته من الدنيا، ويسرت له أسباب الحياة والعيش وهيأتها له.

﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ أي: ثم هو يطمع أن أزيده على ما جعلته له من المال الممدود والبنين الشهود، والتمهيد والعيش الرغيد، أي: يطمع في الزيادة على ذلك في الدنيا، ويطمع أن ينال نعيم الآخرة كما نال نعيم الدنيا.

﴿كَلَّا﴾ كلمة ردع وزجر أي: ردع له وزجر ونفي أن يزاد على ما عنده، أي: ليس

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٤٢٩، والحاكم في «المستدرك» ٢/ ٥٠٧، وقال: «صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. وأخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» ١/ ٥٥٦.

الأمر كما يطمع، ثم علل لذلك بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ أي: كلا لن أزيده لأنه كان لآياتنا، أي: للقرآن الكريم وما جاء فيه من الآيات البينات والحجج الواضحات والبراهين الساطعات ﴿عَنِيدًا﴾ أي: شديد المعاندة والجحود لآياتنا بعد أن عرفها.

﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ أي: سأكلفه وأحمله عذاباً شاقاً نفسياً وبدنياً، حسياً ومعنوياً، في الدنيا والآخرة، كما قال عز وجل: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥] فالكافر في دنياه وآخرته في مشقة وعذاب نفسي وبدني وأشد ذلك عذاب النار كما قال عز وجل: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ الآيات.

عن أبي سعيد رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «ويل: واد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره، والصعود جبل من نار يصعّد فيه الكافر سبعين خريفاً، ويهوي فيه كذلك أبداً»(١).

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ﴾ أي: إنما أرهقناه صعوداً لأنه ﴿فَكَّرَ﴾ أي: تروَّى في نفسه وتأمل ماذا يقول في القرآن، وبماذا يصفه.

﴿وَقَدَّرَ﴾ أي: وقدّر ما فكّر فيه ليقول قولاً يبطل به القرآن، أو قدر ما يقول في القرآن.

﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ أي: لعن أشد اللعن وأهلك كيف قدر القول فيه، كما قال تعالى في المنافقين: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤] وذلك لأنه قدّر أمراً ليس في طوره، وتسوّر على ما لا يناله هو وأمثاله، وتكلف ما لا علم له به.

﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ تأكيد لما قبله، أي: ثم لعن وأهلك.

و«كيف» اسم استفهام للإنكار، أي: كيف قدر هذا التقدير الباطل، وقد يكون المعنى ثم لعن ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾ أي: في أي تقدير أو على أي تقدير قدره.

﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ أي: تأمل وأعاد التفكر والتروي فيما يقول في القرآن.

﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ قطب وجهه، وقبض ما بين عينه.

﴿وَبَسَرَ﴾ زاد في العبوس وكلح وجهه، نفرة من الحق وكراهة للحق وبغضاً له.

قال الشاعر:

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٧٥، والترمذي في صفة جهنم ٢٥٧٦، والطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٤٢٧، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٨٣، وقال الترمذي: «حديث غريب».

وقد رابني منها صدود رأيته وإعراضها عن حاجتي وبسورها[1]

﴿ثُمَّ أَدۡبَرَ﴾ أي: رجع على عقبه ودبره، وتولى ببدنه.

﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾ أي: تعاظم بقلبه عن الانقياد للقرآن. وهذا حصيلة ما قاده إليه تفكيره وتقديره السيء وسوء قصده ونظره القاصر وكراهته للحق وبغضه له أن تولى عن الحق واستكبر عن الانقياد له وتقوّل فيه الأقاويل.

﴿فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ﴾ «إن» نافية بمعنى «ما» أي: ما هذا إلا سحر يؤثر، أي: ينقله السحرة بعضهم عن بعض، ونقله محمد عن غيره ممن كان قبله من السحرة، وحكاه عنهم.

﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ﴾ أي: ما هذا إلا قول البشر، بل قول شرار البشر وهم السحرة الكذابون الدجالون وليس هذا بكلام الله.

فتباً لمن تجرأ على وصف كلام الله عز وجل أعظم كلام وأبلغه بالسحر وتشبيهه بكلام البشر وسحقاً له وبعداً، فما أعظم خسارته، وما أشد عذابه.

﴿سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ﴾ وعيد وتهديد له، أي: سأدخله سقر، أي: النار، وأغمره فيها من جميع جهاته ليقاسي شدة حرها.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾ تعظيم وتهويل لشأنها وتفخيم لأمرها، أي: وما أعلمك ما سقر حرها شديد وقعرها بعيد، وخطرها جسيم، وهولها عظيم.

ثم بين عز وجل شيئاً من وصفها فقال:

﴿لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ﴾ أي: لا تبقي ولا تترك شيئاً من بدن المعذب، ولا مما يلقى فيها إلا أكلته وأحرقته ولا تبقي من الشدة شيئاً إلا بلغته، قد بلغت من الشدة غايتها، ومن الأبدان جميعها.

والمعذبون فيها مخلدون لا يموتون ولا يحيون كما قال تعالى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [الأعلى: ١١ – ١٣]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا﴾ [النساء: ٥٦].

﴿لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ﴾ أي: تلوح وتلفح وتحرق بشر وجلود المعذبين فيها بلهبها ولظاها وشدة حرها وقرِّها.

﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾ أي: عليها من الزبانية الغلاظ الشداد الموكلين بتعذيب أهل النار

---

(١) البيت لتوبة بن الحُمَير. انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة ٢/ ٢٧٥، «جامع البيان» ٢٣/ ٤٢٨، «الأمالي» ١/ ٨٨.

﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ قال ابن كثير[1]: «أي: من مقدمي الزبانية عظيم خلقهم غليظ خُلُقهم».

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، غُلب أصحابك اليوم، فقال: «بأي شيء»؟، قال: سألتهم يهود هل أعلمكم نبيكم عدة خزنة أهل النار؟ قالوا: لا نعلم حتى نسأل نبينا ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «أفغلب قوم سُئلوا عما لا يدرون فقالوا: لا نعلم حتى نسأل نبينا. قال رسول الله، عليّ بأعداء الله، لكن سألوا نبيهم أن يريهم الله جهرة»، فأرسل إليهم فدعاهم قالوا: يا أبا القاسم، كم عدة خزنة أهل النار؟ قال: «هكذا» وطبق كفيه، ثم طبق كفيه، مرتين، وعقد واحدة»[2].

الفوائد والعبر:

١- تسلية النبي ﷺ وتقوية قلبه تجاه المكذبين والمعاندين من قومه لقوله ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾، وأن يترك أمرهم إلى الله ـ عز وجل.

٢- تهديد الوليد بن المغيرة ومن على شاكلته ممن أنعم الله عليهم بالمال والبنين ومهد لهم في الحياة فطغوا وتجبروا بالعذاب في الدنيا والآخرة.

٣- أن المال والبنين والجاه من أسباب الطغيان والفتنة في الدين كما قال عز وجل ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ [العلق: ٦، ٧] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥].

٤- زجر هذا المعاند وتيئيسه من الزيادة، وأن الكفر والذنوب والمعاصي أعظم سبب لزوال النعم وحلول النقم.

٥- بيان ما أعده الله لهذا المعاند لآياته من العذاب الشاق يوم القيامة.

٦- جرأة الوليد بن المغيرة على الله عز وجل وتكلفه فيما يصف به القرآن وتمحله في ذلك وتقعره في تفكيره وتقديره وشدة إدباره عن الحق واستكباره حتى زعم أن القرآن ما هو إلا سحر يؤثر، ومن كلام البشر.

٧- الوعيد للوليد بن المغيرة بإصلائه النار وغمره فيها، ولعنه وإهلاكه.

٨- تعظيم سقر وهي النار، وبيان شدة عذابها، وأن عدة خزنتها تسعة عشر.

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٩٢.

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير سورة المدثر ٣٣٢٧، وأحمد ٣/ ٣٦١، وأخرجه البزار فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٣٩٤، وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٨٤، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾

قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾

أي: وما جعلنا خزنة النار القائمين على تعذيب أهلها إلا ملائكة، ليسوا بشرًا ضعافًا يغلبون بل هم ملائكة غلاظ القلوب، شداد الخلقة، لا يغالبون كما قال عز وجل: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم: ٦].

﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: وما جعلنا عددهم تسعة عشر وأخبرنا بذلك ﴿إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: إلا لامتحان وابتلاء الذين كفروا حتى تجرأ أبو جهل فقال: «يا معشر قريش، أما يستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم فتغلبونهم»؟[1].

وقال أبو الأشدين – كلدة بن أسيد بن خلف: «يا معشر قريش اكفوني منهم اثنين وأنا أكفيكم سبعة عشر»[2].

وعلى هذا فيكون المعنى: وما جعلنا عدتهم إلا ابتلاءً وامتحاناً (للذين كفروا) لنعلم من يُصَدِّق ممن يُكَذِّب. ويدل على هذا قوله بعد ذلك ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾.

ويحتمل أن المعنى: وما جعلنا عدتهم إلا لعذاب الذين كفروا وعقابهم في النار كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الذاريات: ١٣] أي: يُعذَّبون.

﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ اللام: للتعليل، و«يستقين» أبلغ من «يتيقن»، أي: لأجل أن يستيقن الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى الموجودين أيام بعثته ﷺ أنما جاء به حق من عند الله – عز وجل لموافقته ما جاء في كتبهم التوراة والإنجيل في عدة خزنة جهنم، وأنهم تسعة عشر.

﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ أي: ولأجل أن يزداد الذين آمنوا إيمانًا وذلك من وجهين:

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٣/ ٤٣٦-٤٣٧.

(٢) انظر: «الروض الأنف» للسهيلي ١/ ٢٠٠، «تفسير ابن كثير ٨/ ٢٩٤. وانظر تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٨٤.

الأول: بما يشهدون من صدق أخبار نبيهم محمد ﷺ وموافقتها لما جاء به الأنبياء قبله.
والثاني: من كونهم يسارعون في تصديق ما جاء عن الله ورسوله، ويتلقون ذلك بالتسليم والقبول.
﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: ولأجل أن لا يشك الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون في أن عدة أصحاب النار من الملائكة تسعة عشر، وهذه الجملة على هذا المعنى مقررة ومؤكدة للجملة قبلها، لأن الصفات المنفية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها. وقد يكون نفي الريب محمولاً على نفي الريب عن عموم ما أخبر به الرسول ﷺ فيكون المعنى : أي: ولا يقع في قلوبهم ريب ولاشك في أن ما جاء به الرسول ﷺ حق وصدق.
﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: ولأجل أن يكون ذلك سببا في زيادة حيرة الذين في قلوبهم مرض الشك والنفاق، وهم المنافقون ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ﴾ الجاحدون المكذبون، ليقولوا: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ «ماذا» اسم استفهام، أو «ما» اسم استفهام «ذا» اسم موصول، أي: ما الذي أراد الله بهذا مثلاً، أي: بهذا المثل.
فأخبر - عز وجل - أن الحكمة التي جعل لأجلها عدة خزنة النار تسعة عشر: فتنة للذين كفروا وابتلاءً واختبارًا لهم، وليستيقن الذين أوتوا الكتاب، ولزيادة إيمان المؤمنين، ولانتفاء الريب عن المؤمنين وأهل الكتاب، ولزيادة حيرة الذين في قلوبهم مرض والكافرين.
قال ابن القيم: «وهذه حال القلوب عند ورود الحق المنزل عليها: قلب يفتتن به كفرًا وجحودًا، وقلب يزداد به إيمانًا وتصديقًا، وقلب يتيقنه فتقوم عليه به الحجة، وقلب يوجب له حيرة وعمى، فلا يدري ما يراد به».
﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ الكاف: حرف تشبيه، بمعنى «مثل» وهي صفة لمصدر محذوف، والإشارة لما سبق في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾.
أي: مثل هذا الابتلاء والإضلال والهداية ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.
أي: يضل الله من يشاء بعدله، ويهدي ويوفق من يشاء بفضله.
قال ابن كثير[1]: «أي من مثل هذا وأشباهه يتأكد الإيمان في قلوب أقوام ويتزلزل

---
(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٩٥.

عند آخرين، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة».

وفي الآية إثبات المشيئة لله ـ عز وجل ـ وهي الإرادة الكونية له عز وجل، وإثبات هداية الدلالة والتوفيق له ـ عز وجل ـ وأن ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن، وأنه يهدي من يشاء بفضله ويضل من يشاء بعدله لا راد لما قضى ولا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع.

وليس في هذا ما يتعلق به من يفعل المعاصي ويحتج بالقدر، لأن الإنسان لا يعلم ماذا قدر له.

وقد بين الله – عز وجل – طريق الحق وأمر باتباعه، وبين طرق الباطل ونهى عن اتباعها وقد قال – ﷺ – «اعملوا فكل ميسر لما خلق له فأهل السعادة ييسرون لعمل أهل السعادة، وأهل الشقاوة ييسرون لعمل أهل الشقاوة. ثم قرأ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝﴾ [الليل: ٥-١٠]»[(١)].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝﴾ [الإنسان: ٣] وقال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ۝﴾ [البلد: ١٠].

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: وما يعلم عدد جنود ربك يا محمد وكثرتهم وشدة خَلْقهم، وغلظة خُلُقهم من الملائكة وغيرهم إلا هو سبحانه وتعالى ـ كما قال عز وجل: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].وفي إضافة ضميرة ﷺ إلى «رب» تشريف له ﷺ.

أي: إذا كان ـ عز وجل – أخبر أن على النار تسعة عشر من الملائكة فيجب تصديق خبره من غير شك ولاريب، وأيضًا فإن جنوده ـ عز وجل ـ لا يحصون عددًا وكثرة ـ كما قال عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝﴾ [الفتح: ٧].

وقال ﷺ – في صفة البيت المعمور الذي في السماء السابعة «فإذا هو يدخله في كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه آخر ما عليهم»[(٢)].

وعن أبي ذر رضي الله عنه ـ قال: «قال رسول الله ﷺ: «إني أرى مالا ترون، وأسمع مالا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط[(٣)] ما فيها موضع أربع أصابع إلا

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٩٤٩، ومسلم في القدر ٢٦٤٧، وأبو داود في السنة ٤٦٩٤، والترمذي في القدر ٢١٣٦، وابن ماجه في المقدمة ٧٨ ـ من حديث علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٠٧، ومسلم في الإيمان ١٦٤، والنسائي في الصلاة ٤٤٨ – من حديث مالك بن صعصعة ـ رضي الله عنه.

(٣) تئط أي: قد أثقلها ما عليها من الملائكة.

عليه ملك ساجد، لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا، ولما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصُّعُدات[1] تجأرون إلى الله – عز وجل» فقال أبو ذر: والله لوددت أني شجرة تُعضد»[2][3].

وعن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «ما في السموات السبع موضع قدم ولا شبر، ولاكف إلا وفيه ملك قائم، أو ملك ساجد، أو ملك راكع، فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعًا: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك إلا أنا لم نشرك بك شيئًا »[4].

﴿وَمَا هِىَ﴾ أي: النار.

ويحتمل أن المعنى ﴿وَمَا هِىَ﴾ أي: هذه الآيات في وصف النار ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ أي: تذكير ووعظ لهم.

﴿كَلَّا﴾ حقًا، أو بمعنى «ألا» الاستفتاحية ﴿وَٱلْقَمَرِ﴾ الواو: حرف قسم وجر و﴿ٱلْقَمَرِ﴾ مقسم به مجرور ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ معطوف على ما قبله: قرأ نافع ويعقوب وحمزة وخلف وحفص ﴿والليل إذ أدبر﴾ بإسكان الذال من غير ألف بعدها و«أدْبر» بهمزة مفتوحة مع إسكان الدال بعدها، وقرأ الباقون ﴿والليل إذا دبر﴾ بألف بعد الذال، و﴿دبر﴾ بفتح الدال من غير همزة قبلها.

ومعنى ﴿أَدْبَرَ﴾ ولى وذهب. ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ أي: أشرق وأضاء وانكشف.

فأقسم عز وجل بالقمر ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾﴾ لما فيها من الآيات العظيمة الباهرة الدالة على كمال ربوبيته وعلمه وحكمته، وعنايته بخلقه.

﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ جملة جواب القسم. أي: إنها – أي: النار لإحدى العظائم الكبار، والدواهي العظام، والطامة الكبرى.

﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾ نذيرًا : حال، أي: تخويفًا وتحذيرًا للبشر، وهم بنو آدم، وهي أيضًا نذير للجن لأنهم مكلفون.

﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ﴾ أي: لمن شاء منكم أيها الناس أن يتقدم إلى الأمام، فيعمل لما خلق له، فيخاف ويحذر، ويؤمن بالله ويعمل صالحًا ويستعد لما أمامه بطاعة الله.

﴿أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ عما خلق له فلا يخاف ولا يحذر، بل يتولى ويعرض ويرتكب المعاصي

---

(١) الصعدات: الطرق

(٢) أي: تقطع

(٣) أخرجه أحمد ٥/ ١٧٣، والترمذي في الزهد ٢٣١٢، وابن ماجه في الزهد – باب الحزن والبكاء ٤١٩٠.

(٤) أخرجه الطبراني في « المعجم الصغير » ١/ ١٦٠، وذكره ابن كثير في تفسيره ٨/ ٢٩٥.

قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

وهذا معنى المسارعة والمسابقة والمنافسة واستباق الخيرات الذي أمر الله – عز وجل – به في أكثر من آية وفي الحديث: «من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه»[(١)].

وفي الحديث: «فإنه لايزال قوم يتأخرون حتى يؤخرهم الله – عز وجل»[(٢)].

وقال الشاعر[(٣)]:

ولم أجد الإنسان إلا ابن سعيه ... فمن كان أسعى كان بالمجد أجدرا

فلم يتأخر من أراد تقدمًا ... ولم يتقدم من أراد تأخرا

الفوائد والعبر:

١ -بيان أن أصحاب النار التسعة عشر الموكلين عليها إنما هم ملائكة، وفي هذا تعظيم لشأنهم وإشارة لشدتهم وغلظتهم كما قال عز وجل ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

٢ -امتحان الذين كفروا من المشركين والمنافقين وغيرهم وابتلاؤهم في جعل عدة أصحاب النار تسعة عشر ليتمادوا في تكذيبهم وغرورهم وجراءتهم على الله عز وجل، ولهذا قالوا: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾.

٣ -في ذكر عدة أصحاب النار في القرآن الكريم وأنهم تسعة عشر استيقان لأهل الكتاب لموافقة القرآن لما جاء في كتبهم وعدم شكهم وارتيابهم.

٤ -زيادة إيمان المؤمنين بذكر عدة أصحاب النار وعدم شكهم في ذلك لأنهم يسلمون بكل ما جاء من عند الله وعلى لسان رسوله ﷺ.

٥ -إثبات المشيئة لله - عز وجل، وأنه عز وجل يهدي من يشاء بفضله ويضل من يشاء بعدله.

٦ -أن جنود الله كثرة كاثرة لا يعلم كثرتهم وشدتهم وقوتهم إلا هو سبحانه وتعالى لقوله ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾.

٧ -إثبات ربوبية الله - عز وجل - الخاصة - له ﷺ وخطابه تشريفاً وتكريماً له.

٨ -تذكير البشر بذكر النار وصفاتها السيئة المخيفة.

٩ -إقسام الله – عز وجل – بالقمر والليل إذا تولى وذهب والصبح إذا أقبل وأسفر على أن النار إحدى الفظائع العظام التي يخوف الله بها البشر. ولله أن يقسم بما شاء من خلقه.

١٠ – الغاية من الإنذار إقامة الحجة على الخلق والإعذار منهم ليتقدم منهم من شاء أن يتقدم بالإيمان والعمل الصالح وليتأخر منهم من شاء أن يتأخر بالكفر والمعاصي.

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ٢٦٩٩، والترمذي في القراءات ٢٩٤٥، وابن ماجه في المقدمة ٢٢٥ – من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ١٩، ٣٤ – من حديث أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه .

(٣) البيتان لابن هانئ،انظر «ديوانه» ص١٤٠.

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ (٣٩) فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ (٤٠) عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ (٤٢) قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ (٤٦) حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ (٤٧) فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ (٤٨) فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ (٥١) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً (٥٢) كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ (٥٣) كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ (٥٤) فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ (٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ (٥٦)﴾.

قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ أي: كل نفس بالذي كسبت، أو بكسبها من خير أو شر ﴿رَهِينَةٌ﴾ أي: مرتهنة، عند الله – عز وجل – موقفة.

﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ «إلا» أداة استثناء.

و﴿أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ هم الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم ويكونون عن يمين الرحمن، ويؤخذ بهم ذات اليمين وهذا يشمل أصحاب اليمين والسابقين المقربين، لأن كل سابق مقرب هو من أصحاب اليمين، لا العكس. أي: إلا أصحاب اليمين فلا يرتهنون بما كسبوا بل هم طلقاء، فرحون.

وهذه الآيات كقوله ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (٤١)﴾ [الصافات: ٣٩-٤١].

وليس معناه أنهم لا يجازون بأعمالهم، بل كل عامل يجازى بعمله، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ (٨)﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾. أي: في بساتين في دار النعيم التي أعدها الله لهم فيها تمام الراحة والطمأنية وكمال المطلوب، لهذا أخذوا يتساءلون عن حال من فاته هذا النعيم ﴿يَتَسَآءَلُونَ (٤٠) عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: يسأل بعضهم بعضًا عن الكفار أرباب الجرائم والذنوب والمعاصي ما حالهم، وأين هم فيقول بعضهم لبعض ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ أي: عليهم قال تعالى: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٥٤، ٥٥].

﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾ «ما» للاستفهام، أي: سائلين لهم ما الذي أدخلكم في سقر؟ أي: في النار، و ما الذنب الذي استحققتموها بسببه؟ و لماذا لم تعملوا للنجاة منها؟ وفي هذا ما فيه من التوبيخ والتبكيت لهم وإثارة الأسى والحزن في قلوبهم.

﴿قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ أي: قالوا: لأننا لم نكن من المصلين، أي لم نكن نصلي.

﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ أي: ولم نكن نزكي ونتصدق على المسكين المحتاج الذي أسكنه الفقر والحاجة وأذله.

فذكروا أول سبب لدخولهم سقر وهو ترك الصلاة، التي هي عمود الدين، وأعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، وأهم العبادات البدنية وأول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة، وتركها كفر.

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: سمعت رسول الله ﷺ – يقول: «إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر، فإن انتقص من فريضته شيء قال الرب – عز وجل انظروا هل لعبدي من تطوع فيكمل بها ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائر عمله، على ذلك»(١).

وعن عبد الله بن شقيق قال: «كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر غير الصلاة»(٢).

وثنوا بترك إطعام المسكين، أي: بترك الزكاة. وهي أهم العبادات المالية، وأعظم العبادات بعد الصلاة، وهي قرينة الصلاة في نحو اثنين وثمانين موضعًا في القرآن الكريم.

فلا إخلاص عندهم في حق المعبود، ولا إحسان منهم للعبيد، كما قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝﴾ [الماعون: ٤، ٧] وقال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ۝﴾ [التوبة: ٥٤].

﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾ أي: وكنا نتكلم في الباطل، وفيما لا نعلم، مع المتكلمين في ذلك، ونرد به الحق، من رمي الرسول بالسحر والشعر والكهانة والجنون، وأن ما جاء به سحر أو شعر وغير ذلك.

ومن هنا ينبغي للمسلم الحذر من الخوض في الباطل من القيل والقال والغيبة والنميمة وتلقف الإشاعات، ونحو ذلك.

---

(١) أخرجه النسائي في الصلاة ٤٦٥، والترمذي في الصلاة ٤١٣، وابن ماجه في إقامه الصلاة ١٤٢٥ وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

(٢) أخرجه الترمذي في الإيمان ـ ما جاء في ترك الصلاة ٢٦٢٢.

﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي:نكذب بيوم القيامة يوم الحساب والجزاء وإدانة الناس بأعمالهم ونزعم أن لا بعث ولا حساب ولا جزاء، ولا جنة ولانار.

فجمعوا بين ترك الصلاة وعدم الإخلاص للمعبود، وبين منع الزكاة وعدم الإحسان إلى العبيد و الخوض بالباطل، والتكذيب بيوم الدين، يوم القيامة.

﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ اليقين: الموت - كما قال - عز وجل ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٩].

أي: استمرت حالنا على تلك الفعال والأقوال السيئة من ترك الصلاة وعدم إطعام المسكين ومن الخوض بالباطل والتكذيب بيوم القيامة ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ أي: حتى جاءنا الموت ونحن على هذه الحال.

عن أم العلاء - امرأة من الأنصار - رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ لما دخل على عثمان بن مظعون، وقد مات قال «أما هو فقد جاءه اليقين وإني لأرجو له الخير»[1].

وفي هذه الآية رد على غلاة الصوفية الذين يفسرون اليقين في قوله ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ أن المراد به حتى تصل إلى درجة يرتفع عنك فيها التكليف. والصحيح أن المراد به الموت كما هو في هذه الآية ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾.

﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ أي: فما تقبل فيهم شفاعة الشافعين وقد ماتوا على الكفر، وهذا على الفرض والتقدير لو وجد من يشفع لهم مع أنه لا أحد يشفع لهم كما قال تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ [غافر:١٨]، وقالوا فيما حكى الله عنهم ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الشعراء:١٠٠,١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الروم: ١٣].

وقال تعالى عن الشفعاء من الملائكة وغيرهم ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢٨] والمجرمون أعمالهم لا يرضاها الله ـ عز وجل، فلا شافع لهم، ولو شفع لهم شافع لم يقبل الله - عز وجل - شفاعته فيهم، لأن من شرط الشفاعة إذن الله للشافع ورضاه عن المشفوع له. كما قال عز وجل ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقال تعالى ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز ـ الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في كفنه ١٢٤٣، وأحمد ٦/ ٤٣٦.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا ١٠٩﴾ [طه: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿۞وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ٢٦﴾ [النجم: ٢٦].

﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ﴾ الفاء: استئنافية و «ما» اسم استفهام للإنكار عليهم والتوبيخ لهم.

أي: فما لهؤلاء الكفرة المجرمين عن التذكرة والموعظة، أي عن القرآن ﴿مُعۡرِضِينَ﴾ أي متولين بقلوبهم وأبدانهم صادين غافلين عنها.

﴿كَأَنَّهُمۡ﴾ في إعراضهم ونفورهم الشديد عن التذكرة والموعظة.

﴿حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر بفتح الفاء ﴿مستنفَرة﴾ وقرأ الباقون بكسرها ﴿مستنفِرة﴾ وحمر: جمع حمار، يجمع على «حمر» وعلى «حمير» وعلى «أحمرة».

والمراد بها حمر الوحش لوصفها بقوله ﴿مُّسۡتَنفِرَةٞ﴾ أي: نافرة نفورًا شديدًا، ومستنفر بعضها بعضًا.

﴿فَرَّتۡ﴾ أي: هربت ونفرت وجفلت ﴿مِن قَسۡوَرَةِۭ﴾ أي: من مجموعة من الأسود تريد أكلها، أو من مجموعة من الرماة يريدون صيدها.

﴿بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ﴾ «بل» للإضراب الانتقالي أي: بل يريد كل واحد من هؤلاء الكفرة المجرمين أن يعطى وينزل عليه من السماء كتاب منشور خاص به، يزعم أنه لا ينقاد للحق إلا بذلك - كما أنزل على النبي - ﷺ - كما قال تعالى عنهم ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال تعالى عنهم أنهم قالوا: ﴿وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ﴾ [الإسراء: ٩٣].

وقد كذبوا كما قال تعالى عنهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٩٧﴾ [يونس:٩٦ ، ٩٧].

﴿كَلَّاۖ﴾ كلمة ردع وزجر، أي: ليس لهم ما طلبوا، وما قصدوا بذلك إلا التعجيز، ولو أوتوا صحفًا منشرة ما آمنوا.

﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ أي: بل لا يخافون ولا يخشون الآخرة وما فيها من العذاب والأهوال والنكال، ولو خافوها ما جرى منهم ما جرى.

﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ﴾ ﴿كَلَّآ﴾ ردع لهم وزجر لإعراضهم عن القرآن، ونفي لزعمهم أن القرآن سحر يؤثر، ومن قول البشر.

أو بمعنى: حقًا، أي: حقًا إن القرآن العظيم تذكير وموعظة، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْآيَـٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩]، وقال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ [يس: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢ ، ٤٠]، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس: ٥٧].

﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أي: فمن شاء من الناس تذكر واتعظ بمواعظ القرآن.

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ قرأ نافع المدني بالخطاب ﴿ وما تذكرون ﴾ وقرأ الباقون بالغيبة.

أي: وما يتعظون إلا من شاء الله أن يتعظ منهم، كقوله ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠ ، التكوير: ٢٩]

فمشيئة المخلوق تابعة لمشيئة الله – عز وجل، لأن مشيئة الله عز وجل تامة نافذة عامة لا يخرج عنها أحد فما شاء الله كان ومالم يشأ لم يكن، وفي هذا رد على القدرية الذين لا يدخلون أفعال العباد تحت مشيئة الله - ورد على الجبرية الذين يسلبون المشيئة من العبد.

﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي: هو سبحانه وتعالى – أهل أن يتقى ويُخاف ويُخشى بفعل أوامره واجتناب نواهيه وأن يعبد وحده، لأنه الإله العظيم الذي لا تنبغي العبادة إلا له.

﴿وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ أي: وأهل أن يغفر ذنوب من تاب إليه وأناب، ويسترها عن الخلق، ويتجاوز عن عقوبتها.

عن أنس – رضي الله عنه – قال: قرأ رسول الله ﷺ – هذه الآية: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ وقال: «قال الله عز وجل: أنا أهل أن أتقى، فمن اتقاني فلم يجعل معي إلهًا فأنا أهل أن أغفر له»(١).

الفوائد والعبر:

١ ـأن كل نفس مرتهنة يوم القيامة بعملها ومحبوسة في العذاب بسببه إلا أصحاب اليمين فلا يرتهنون ولا يحبسون بل هم طلقاء في جنات النعيم.

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ١٤٢، ٢٤٣، والترمذي في تفسير سورة المدثر ٣٣٢٨، وابن ماجه في الزهد – ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة ٤٢٩٩ وقال الترمذي « حسن غريب »

٢ ـتساؤل أهل الجنة فيما بينهم عن المجرمين وسؤالهم إياهم – تبكيتًا وتوبيخًا لهم ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ ؟

٣ ـأن من أعظم الجرائم ومن أكبر موجبات دخول النار ترك الصلاة، ومنع الزكاة، والخوض في الباطل، والتكذيب باليوم الآخر.

٤ ـأن الموت سبيل كل حي.

٥ ـنفي الشفعاء للمجرمين المكذبين كما قال تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ [غافر: ١٨].

٦ ـشدة إعراض المشركين ونفورهم عن التذكير بالقرآن ومواعظه.

٧ ـشدة عناد المجرمين وتكبرهم وتجبرهم وتعنتهم وطلب كل منهم أن ينزل عليه كتاب خاص به، وتكذيبهم بالآخرة، وعدم خوفهم منها.

٨ ـإثبات وتحقيق أن القرآن الكريم تذكرة وموعظة.

٩ ـإثبات المشيئة للعبد لقوله ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ وفي هذا رد على الجبرية القائلين بأن العبد مجبور على أفعاله.

١٠ ـ الحث على التذكر والاتعاظ بالقرآن الكريم.

١١ ـ إثبات المشيئة لله عز وجل، وأن مشيئة المخلوق تابعة لمشيئة الله فما شاء الله كان ومالم يشأ لم يكن.

١٢ ـ إثبات عظمة المولى عز وجل، وفضله، فهو سبحانه أهل أن يتقى ويخاف فيطاع، وأهل للفضل والتجاوز عن عباده ومغفرة ذنوبهم.

تفسير سورة القيامة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤ بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝٦ فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ۝١٢ يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۢ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣ بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ۝١٤ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾.

قوله ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ (لا) زائدة من حيث الإعراب مؤكدة من حيث المعنى جيء بها لتأكيد نفي المقسم عليه.

قال ابن قتيبة[1] : «فإنها زيدت في الكلام على نية الرد على المكذبين، كما نقول في الكلام: لا والله ما ذاك كما تقول».

وقال ابن كثير[2]: «المقسم عليه متى كان منتفيًا جاز الإتيان بـ«لا» قبل القسم لتأكيد النفي. والمقسم عليه ههنا هو إثبات المعاد،والرد على ما يزعمه الجهلة من العباد من عدم بعث الأجساد».

وقال السعدي[3]: «ليست «لا» ههنا نافية ولازائدة، وإنما أتي بها للاستفتاح والاهتمام بما بعدها، ولكثرة الإتيان بها مع اليمين لا يستغرب الاستفتاح بها، وإن لم تكن في الأصل موضوعة للاستفتاح».

فأقسم عز وجل – بيوم القيامة وبالنفس اللوامة – على أن البعث وإحياء الموتى حق.

ويوم القيامة – هو يوم بعث الناس من قبورهم، وسُمي يوم القيامة لقيام الناس فيه من قبورهم للحساب والجزاء كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين: ٦]، ولقيام الأشهاد فيه كما قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ۝٥١﴾ [غافر: ٥١] ولقيام الروح والملائكة فيه صفاً لا يتكلمون كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ

---

(١) في « تاويل مشكل إعراب القرآن » ص٢٤٦.
(٢) في « تفسيره » ٨/ ٣٠٠.
(٣) في « تيسير الكريم الرحمن » ٧/ ٥٢١.

صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾[النبأ: ٣٨]، ولقيام العدل الحقيقي فيه، والحساب كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١].

والنفس اللوامة: أي التي من طبيعتها أنها تلوم صاحبها على الخير والشر، وكل نفس لوامة، فالنفس الخيرة: تلوم صاحبها على فوات الخير أو عدم الاستزادة منه، وتلومه على فعل الشر أو قوله، وتندم على ما فات من خير أو ما وقع من الشر، لو فعلت كذا، أو لو لم أفعل كذا، وبضدها النفس الخبيثة. قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ۝ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ [القلم: ٣٠ ، ٣١]، وقال تعالى: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤] وفي قصة احتجاج آدم وموسى: «أتلومني على أمر قدره الله عليّ قبل أن أخلق، فحج آدم موسى »[1].

قال ابن القيم[2]: «وكل نفس لوامة، فالنفس السعيدة تلوم على فعل الشر وترك الخير، فتبادر إلى التوبة، والنفس الشقية بالضد من ذلك. وجمع سبحانه في القسم بين محل الجزاء، وهو يوم القيامة، ومحل الكسب وهو النفس اللوامة، ونبه سبحانه بكونها لوامة على شدة حاجتها وفاقتها وضرورتها إلى من يعرفها بالخير والشر ويدلها عليه، ويرشدها إليه، ويلهمها إياه، فيجعلها مريدة للخير، مرشدة له، كارهة للشر، مجانبة له، لتخلص من اللوم ومن شر ما تلوم عليه، ولأنها متلومة مترددة لا تثبت على حال واحدة».

ولم يذكر جواب القسم، إما لدلالة السياق عليه والعلم به، فقوله بعده ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ۝ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ يدل على أن المقسم عليه كون البعث وإحياء الأبدان حق.

قال ابن القيم[3]: «ويجوز أن يكون من القسم المقصود به التنبيه على دلالة المقسم به وكونه آية، ولم يقصد به مقسمًا عليه معينًا فكأنه يقول: اذكر يوم القيامة والنفس اللوامة مقسمًا بها لكونها من آياتنا وأدلة ربوبيتنا».

وقال أيضًا: «فجمع بين الإقسام بالجزاء وعلى الجزاء، وبين مستحق الجزاء».

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٤٠٩ ومسلم في القدر ٢٦٥٣، والترمذي في القدر ٢١٣٤، وابن ماجه في المقدمة ٨٠ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر « بدائع التفسير » ٥/ ٧٢- ٧٣، ٨٤-٨٥.

(٣) انظر « بدائع التفسير » ٥/ ٧٣ ، ٧٤.

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ أي: أيظن الإنسان أن لن نقدر على بعثه وجمع عظامه بعد تفتتها وتفرقها وصيرورتها رميمًا كما قال عز وجل: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

رُوِيَ أن عمر بن ربيعة أتى النبي ﷺ فقال: «حدثني عن يوم القيامة، متى يكون، وكيف حالها وأمرها؟ فأخبره النبي – ﷺ – بذلك، فقال: لو عاينت ذلك لم أصدقك يا محمد، ولم أومن به، أو يجمع الله هذه العظام؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية»[١].

﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾ أي: بلى قادرين على ما هو أدق وأعظم وأدل على كمال قدرتنا، وهو تسوية أطراف أصابعه كما كانت – مع ما فيها من دقة البصمات واختلافها بحيث لا تتشابه بصمات شخص ببصمات شخص آخر ـ وكذا سائر أطرافه وعظامه. وذلك مستلزم لجمع عظامه وجميع أجزاء بدنه،وأن قدرته – عز وجل على ذلك من باب أولى وأحرى .

وقال بعض المفسرين: المعنى: بلى قادرين على أن نسوي في الدنيا أصابع يديه ورجليه ونجعلها مستوية شيئًا واحدًا كخف البعير، وحافر الحمار بعد أن كانت متفرقة، فلا يمكنه أن يعمل بها شيئًا. وإذا كان عز وجل قادراً على تسوية وجمع أصابع يدي الإنسان ورجليه في الدنيا بعد أن كانت متفرقة، فهو قادر على جمع عظامه في الآخرة بعد تفرقها بالموت والبلى.

قال ابن القيم[٢]: «وهما وجهان حسنان، وكل منهما له ترجيح من وجه، فيرجح الأول أنه هو المقصود، وهو الذي أنكره الكفار، وهو إجراء على نسق الكلام واطراده، ولأن الكلام لم يسق لجمع العظام وتفريقها في الدنيا، وإنما سيق لجمعها في الآخرة بعد تفرقها بالموت.

ويرجح القول الثاني – أنه استدلال بآية ظاهرة مشهورة، وهي تفريق البنان مع انتظامها في كف واحد، وارتباط بعضها ببعض فهي متفرقة في عضو واحد، يقبض منها واحدة ويبسط أخرى، ويحرك واحدة والأخرى ساكنة، ويعمل بواحدة والأخرى معطلة وكلها في كف واحد، قد جمعها ساعد واحد، فلو شاء سبحانه لسواها فجعلها صفة واحدة كباطن الكف ففاته هذه المنافع والمصالح التي حصلت بتفريقها ففي هذا أعظم الأدلة على قدرته سبحانه على جمع عظامه بعد الموت».

---

(١) انظر «أسباب النزول للواحدي» ص ٢٩٦.
(٢) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٧٤.

وقال ابن كثير[1] : «والظاهر من الآية أن قوله ﴿قَٰدِرِينَ﴾ حال من قوله: ﴿نَّجۡمَعَ﴾ أي: أيظن الإنسان أنا لا نجمع عظامه؟ بلى سنجمعها قادرين على أن نسوي بنانه، أي: قدرتنا صالحة لجمعها، ولو شئنا لبعثناه أزيد مما كان، فنجعل بنانه – وهي أطراف أصابعه – مستوية».

﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ المراد بالإنسان هنا الكافر. والفجور: الكفر والمعاصي والكذب المتعمد والعناد، أي: بل يريد الكافر أن يمضي قدمًا في التكذيب والكفر والمعاصي ويدوم على فجوره لا ينزع عنه ما عاش، فيفجر في الحال، ويريد الفجور في غد وما بعده والاستمرار على ذلك.

ويحتمل أن المعنى: بل يريد الإنسان لِيُكَذِّب بما أمامه من البعث والقيامة، ولهذا قال بعده ﴿يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي: يسأل متى يوم القيامة مستبعدًا ومكذبًا بوقوعه.

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [سبأ: ٢٩ ، ٣٠]، وقال تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾﴾ [الذاريات: ١٢]

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ﴿٩﴾﴾

أقسم عز وجل بالقيامة وأنها حق ثم ذكر بعض أهوالها.

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر، (برَق) بفتح الراء وقرأ الباقون (برِق) بكسرها.

أي: فإذا كانت القيامة برق البصر، أي: شخص فلا يطرف، وحار وانبهر وذل وخشع لما يشاهد من أهوال القيامة، التي كان يكذب بها، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ﴿٤٣﴾﴾ [إبراهيم: ٤٢ ، ٤٣].

﴿وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ﴾ أي: ذهب ضوؤه ونوره وسلطانه.

﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾ جمع بينهما في تكويرهما، وذهاب ضوئهما.

يجمعهما الذي يجمع عظام الإنسان بعدما فرقها البلى ومزقها فصارت رميمًا، ولم يجتمعا قبل ذلك قال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٤٠].

فيخسف القمر، وتكور الشمس، ويقذفان في النار، ليرى العباد أنهما مخلوقان

---

(١) في تفسيره» ٨/ ٣٠١.

مسخران، وليرى الذين عبدوهما من دون الله أنهم كانوا كاذبين.

﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ أي: يقول الكافر إذا عاين هذه الأهوال يوم القيامة «أين المفر» : أين المهرب والخلاص والفكاك، يريد أن يهرب ويتخلص من الهول والعذاب ولكن هيهات.

﴿كَلَّا﴾ كلمة ردع وزجر وتهديد ﴿لَا وَزَرَ﴾ لا ملجأ ولا منجى ولا ملتجأ لأحد دون الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾ [الشورى: ٤٧].

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ أي: إلى ربك يا محمد ورب جميع الخلائق مصير الخلائق ومنتهاهم ومرجعهم ذلك اليوم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾﴾ [ق:٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النجم: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾﴾ [العلق: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤].

﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ الإنباء: الإخبار بأمر عظيم مهم و «ما» موصولة تفيد العموم، أي: يُخبر الإنسانُ في ذلك اليوم، يوم القيامة، بجميع الذي قدمه من أعمال ونحوها، وبجميع الذي أخره من أعمال ونحوها فلم يعملها، صغيرها وكبيرها خيرها وشرها قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧]. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧ ، ٨].

﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ «بل» للإضراب أي: هو بصير على نفسه، عالم بجميع أقواله وأعماله الظاهرة والباطنة، حسيب على نفسه شهيد عليها، يشهد عليه سمعه وبصره وجلده ولسانه ويده ورجله، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [فصلت: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور: ٢٤]، وقال تعالى ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس: ٦٥]، وقال

تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤﴾ [الإسراء: ١٤].

وكما جاء في حديث تقرير العبد بذنوبه «أتذكر ذنب كذا وكذا، فيقول: نعم يارب»[1].

﴿وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ أي: ولو ألقى المعاذير وقدمها عن نفسه فهو بصير بها، عالم بأعماله، مهما جادل واعتذر أو أنكر ـ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ٢٣﴾ [الأنعام: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٨﴾ [المجادلة: ١٨]، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ﴾ [غافر: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ﴾ [النحل: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ﴾ [النحل: ٨٧].

وكل هذه المعاذير لا تقبل، ومهما اعتذر الإنسان عن نفسه أو أنكر وجادل عنها فهو عالم بأعماله، ولهذا يقرر بأعماله فيقر بها، كما في قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤﴾ [الإسراء:١٤] فيقرؤه ولا يستطيع أن ينكر منه شيئًا كما قال المجرمون ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ٤٩﴾ [الكهف:٤٩].

فالإنسان بصير على نفسه عالم بخفاياها وعيوبها، ولكنه قد يغفل عن نفسه ويتبصر بعيوب الآخرين فيكون حاله كما قيل: يرى القذاة في عين أخيه ولا يرى الجذع في عينه ـ نسأل الله العافية.

وأيضًا فإن الإنسان بما أعطاه الله من عقل وبصر وحنكة يحتال في تدبير أموره وأحواله ما استطاع كما يقال: «الأحدب يعرف كيف ينام» بل إن الحيوانات عندها شيء من التدبير لأحوالها حسب ما أعطاها الله – عز وجل – كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ٥٠﴾ [طه:٥٠] أي: هداه لما خلق له، ومن هنا ترى النمل يدخر قوت الشتاء في الصيف، وتغدو الطيور أول النهار خماصا في طلب العيش، وتروح آخر النهار إلى أوكارها مليئة البطون.

---

(١) سبق تخريجه.

الفوائد والعبر:

١ ـإقسام الله – عز وجل – بيوم القيامة والنفس اللوامة – على أن البعث وإحياء الموتى حق، ولله – عز وجل – أن يقسم بما شاء من مخلوقاته.

٢ ـفي إقسامه – عز وجل – بالقيامة تعظيم لشأنها وأمرها، وفي إقسامه بالنفس اللوامة توجيه إلى التأمل في طبيعتها وكثرة تلونها وتلومها، ومن ثم حملها على ما فيه صلاحها وسعادتها في الدنيا والآخرة.

٣ ـاستبعاد المكذبين للقرآن بعث الأجساد وإنكارهم ذلك.

٤ ـإثبات قدرة الله – عز وجل – على بعث الأجساد وجمع أجزائها جميعًا مهما دقت، ومن ذلك أطراف الأصابع والبصمات.

٥ ـرغبة الكافر بالاستمرار على الكفر والفجور وتكذيبه بيوم القيامة وسؤاله عنه استبعادًا.

٦ ـشخوص البصر وحيرته وانبهاره من شدة أهوال يوم القيامة ومنها خسف القمر وجمع الشمس والقمر.

٧ ـطلب الكافر المكذب المفر والمهرب في ذلك اليوم، ولكن هيهات لا مفر ولا محيد ولا ملجأ ولا منجى في ذلك اليوم من الله إلا إليه، إليه المستقر والمعاد وهو لجميع الخلق بالمرصاد.

٨ ـ إثبات الربوبية الخاصة والعامة لله ـ عز وجل.

٩ ـإخبار الإنسان في ذلك اليوم بما قدم من أعمال صالحة وما أخر منها فلم يعمله، وما قدم من أعمال سيئة، ومجازاته على ذلك كله.

١٠ ـ أن الإنسان بصير على نفسه، عالم بجميع أقواله وأفعاله حسيب على نفسه شهيد عليها مهما التمس لها الأعذار وجادل عنها.

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾.

سبب النزول:

عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: «كان رسول الله ﷺ يُعالج من التنزيل شدة، فكان يحرك شفتيه فأنزل الله – عز وجل -: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ قال: جمعه في صدرك، ثم تقرأه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ فاستمع له وأنصت ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع فإذا انطلق جبريل قرأه النبي ﷺ – كما قرأه»[1]

وفي رواية: «كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي يلقى منه شدة، وكان إذا نزل عليه عرف في تحريكه شفتيه، يتلقى أوله ويحرك شفتيه خشية أن ينسى أوله قبل أن يفرغ من آخره، فأنزل الله ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾»[2].

قوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ «لا» ناهية. والخطاب للنبي ﷺ والضمير في «به» في الموضعين يعود إلى القرآن الكريم،وهو غير مذكور – فيما تقدم من السورة، لكنه معلوم.

والمعنى: لا تحرك بالقرآن لسانك لأجل الاستعجال به، وأنصت واستمع لما يلقى إليك منه كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه:١١٤].

وقد كان – ﷺ – إشفاقًا منه وحرصًا – يبادر إلى أخذه من الملك ويسابقه في قراءته، ويحرك لسانه وشفتيه ليحفظه خشية أن يضيع منه شيء، أو يفوته، فنهاه الله – عز وجل – عن ذلك وتكفل له بجمعه فقال:

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾، أي: إن علينا جمعه في صدرك وحفظه فيه، وتيسير قراءته وتلاوته عليك كما أُنزل – كما قال عز وجل ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الدخان: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧،

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي ٥، ومسلم في الصلاة – الاستماع للقراءة ٤٤٨، والنسائي في الافتتاح ٩٣٥، وأحمد ٣٤٣/١.

(٢) أخرجها ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٣٣٨٧/١٠.

٢٢، ٣٢، ٤٠]، وقال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الأعلى: ٦، ٧].

﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ أي: إذا قرأه عليك الملك عن الله عز وجل ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ أي: فاقرأه بعده كما أقرأك، فأُمر - ﷺ بالمتابعة، ونُهي عن العجلة والموافقة. والمتابعة مجيء الشيء بعد الشيء، والموافقة: مجيء الشيء مع الشيء.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ أي: ثم بعد جمعه في صدرك وتلاوتك له - كما أنزل - فإن علينا تفسيره وبيان معانيه وما فيه من الأحكام والحكم والآداب والأخلاق وغير ذلك.

وبهذا تكفل الله - عز وجل - لرسوله - ﷺ - بتيسير تدبر القرآن له، حفظًا وتلاوة لألفاظه وفهماً لمعانيه، وتطبيقًا لأحكامه، ولهذا بين ﷺ - لأمته هذا القرآن أتم بيان بأقواله وأعماله وتقريراته.

كما أمر ـ عز وجل ـ الأمة بتدبره فقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٢٩﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ۝٨٢﴾ [النساء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ۝٢٤﴾ [محمد: ٢٤].

ويؤخذ من هذا التأني والتثبت في طلب العلم، وأنه ينبغي لطالب العلم أن يصبر ويستمع إلى معلمه حتى يقضي كلامه، ثم يعيده عليه، أو يسأل عما أشكل عليه منه ولا يقاطعه أو يبادره قبل فراغه.

كما يؤخذ منه أن النبي - ﷺ - كما بين للأمة ألفاظ الوحي فإنه قد بين لهم معانيه.

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وحمزة والكسائي وعاصم بالخطاب في: ﴿تُحِبُّونَ﴾ و ﴿وَتَذَرُونَ﴾ وقرأ الباقون بالغيب فيهما.

﴿كَلَّا﴾ للردع والزجر أي: ليس الأمر كما تزعمون أن لا بعث ولا حساب.

﴿بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ «بل» للإضراب أي: بل تحبون الدنيا العاجلة الفانية فتعملون لها وتتنافسون فيها، لأن لذاتها ونعيمها عاجل، والإنسان مولع بحب العاجل وإيثاره على الآجل.

﴿وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾ أي: وتتركون العمل للآخرة الباقية والمسارعة والمسابقة إليها والمنافسة فيها، لأنها متأخرة وآجلة، فحملكم حب الدنيا العاجلة الفانية على الفجور والتكذيب وشغلكم عن الاستعداد للآخرة، كما قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧]. وقال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التكاثر: ١، ٢].

وقال تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢، ٣]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النحل: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [النجم: ٢٩، ٣٠].

وحب الدنيا رأس كل خطيئة، وأساس كل بلية وسبب كل رزية، فما حصل من كفر وتكذيب فبسببها، وما حصل من ذنوب ومعاصٍ فبسببها، وما حصل من عداوة وبغضاء حتى بين الأقارب فبسببها، ولهذا قال ﷺ: «والله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تفتح الدنيا عليكم كما فتحت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم»[١].

وقد ذم الله – عز وجل – الدنيا وبين حقارتها ودناءة منزلتها، كما امتدح الآخرة وبين عظم منزلتها بما فيه الكفاية لأولي العقول والبصائر لكن حب الدنيا يعمي ويصم:

قد نادت الدنيا على نفسها ... لو كان في العالم من يسمع

كم واثق بالعمر أفنيته ... وجامع بددت ما يجمع

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۝ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ۝﴾.

بين عز وجل في الآيتين السابقتين أن مما حمل على الفجور والتكذيب إيثار الحياة الدنيا على الآخرة، ثم أتبع ذلك بذكر ما يدعو لإيثار الآخرة على الدنيا بذكر الفرق بين حال المنعمين وحال المعذبين في ذلك اليوم.

قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ «ناضرة» من النضارة والحسن والبهاء أي: وجوه يومئذ حسنة بهية مشرقة متهللة مسرورة عليها رونق ونور لما هي فيه من نعيم القلوب وبهجة النفوس ولذة الأرواح، كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝﴾ [عبس: ٣٨، ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝﴾ [الغاشية: ٨، ٩].

وكما قال ﷺ: «أول زمرة يدخلون الجنة على هيئة البدر»[٢].

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٤٠١٥، ومسلم في الزهد والرقائق ٢٩٦١، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٦٢، وابن ماجه في الفتن ٣٩٩٦- من حديث عمرو بن عوف – رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٤٦، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٣٤، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٣٧، وابن =

﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ «ناظرة» من النظر، أي تنظر إلى ربها وتراه عيانًا كما قال – ﷺ: «إنكم سترون ربكم عيانًا»[١].

وعن أبي سعيد وأبي هريرة ـ رضي الله عنهما – أن ناسًا قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: «هل تضارون في رؤية الشمس والقمر ليس دونها سحاب»؟ قالوا: لا. قال: «فإنكم سترون ربكم كذلك»[٢].

وعن جرير بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: «نظر رسول الله ﷺ ـ إلى القمر ليلة البدر، فقال: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا»[٣].

وعن أبي موسى – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى الله إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»[٤].

وعن صهيب – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة قال: يقول الله تعالى: تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم، وهي الزيادة» ثم تلا هذه الآية: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[٥].

وعن جابر بن عبد الله – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يتجلى للمؤمن يضحك يعني في عرصات القيامة»[٦].

وعن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال: قال رسول الله ﷺ –: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لينظر في ملكه سنة، يرى أقصاه كما يرى أدناه، ينظر إلى أزواجه وخدمه، وإن أفضلهم منزلة لينظر في وجه الله كل يوم مرتين»[٧].

=
ماجه في الزهد ٤٣٣٣ ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(١) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٤٣٥ – من حديث جرير بن عبد الله ـ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٧٤، ومسلم في الإيمان ـ معرفة طريق الرؤية ١٨٢.

(٣)أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ٥٥٤، ومسلم في المساجد ٦٣٣، وأبو داود في السنة ٤٧٢٩، والترمذي في صفة الجنة ٣٥٥١، وابن ماجه في المقدمة ١٧٧.

(٤)أخرجه البخاري في التفسير ٤٨٧٨، ومسلم في الإيمان – إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى ١٨٠.

(٥)أخرجه مسلم في الإيمان ١٨١، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥٢، وابن ماجه في المقدمة ١٨٧.

(٦)أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٥٨، ومسلم في الإيمان ١٩١.

(٧) أخرجه أحمد ٢/ ١٣، والترمذي في تفسير سورة القيامة ٣٣٣٠.

إلى غير ذلك من الأحاديث الصحيحة الصريحة في الدلالة على ثبوت رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة. وعليه يدل مفهوم قوله تعالى في الكفار ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: ١٥].

قال ابن كثير[١]: «وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله - عز وجل - في الدار الآخرة في الأحاديث الصحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث لا يمكن دفعها ولا منعها».

وبعد أن ذكر بعض هذه الأحاديث قال: «وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة، كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام، وهداة الأنام».

وقال السعدي في الكلام على الآية[٢]: «أي: ينظرون إلى ربهم على حسب مراتبهم ومنهم من ينظره كل يوم بكرة وعشيًا، ومنهم من ينظر كل جمعة مرة واحدة فيتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم، وجماله الباهر الذي ليس كمثله شيء».

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ أي: ووجوه في ذلك اليوم «باسرة» أي: عابسة كالحة كاشرة مسودة حزينة خاشعة ذليلة وهي وجوه الكفار كما قال تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ [عبس: ٤٠- ٤٢]، وقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾﴾ [الغاشية: ٢ - ٤].

﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ أي: تستيقن أن يفعل بها داهية وأمر عظيم مهلك يقصم فقار الظهر ويقطعها، أي: تستيقن أن مصيرها ومآلها إلى عذاب النار وبئس المصير.

الفوائد والعبر:

١ - نهي الله - عز وجل - لنبيه - ﷺ - عن تحريك لسانه استعجالاً بالقرآن وحرصاً منه ﷺ وخوفًا من فوات شيء منه وتكفل الله - عز وجل - له بجمعه وقراءته وبيانه له.

٢ - ينبغي أن يقرأ المتعلم للقرآن بعد نهاية قراءة معلمه، وينبغي التثبت والتأني في طلب العلم.

٣ - بيان الله - عز وجل - لنبيه - ﷺ ألفاظ القرآن ومعانيه وأحكامه وأخباره ومواعظه ووعده ووعيده وغير ذلك.

٤ - التنديد بمن يحبون الدنيا العاجلة الفانية فينشغلون بها عن الآخرة الباقية والتهديد والوعيد لهم.

٥ - نضارة وحسن وجوه أهل الجنة، ونظرهم إلى ربهم - سبحانه وتعالى.

٦ - إثبات ربوبية الله - عز وجل - الخاصة لأوليائه.

٧ - بسور وجوه الكفار ومساءتها من شدة الهول والعذاب وتوقع ما هو أدهى وأعظم وأشد.

---

(١) في «تفسيره» ٨/٣٠٦.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/٥٢٦- ٥٢٧.

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ (٢٨) وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ (٢٩) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ (٣٠) فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ (٣١) وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ (٣٣) أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ (٣٤) ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ (٣٥) أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ (٣٩) أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ (٤٠)﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله - عز وجل - في الآيات السابقة انقسام الناس في الآخرة إلى مسرور منعم، ومحزون معذب ثم ذكر ما يسبق ذلك من حالة الاحتضار وما عنده من الأهوال والفزع ثبتنا الله وجميع المسلمين بالقول الثابت ثم توعد عز وجل ـ من خالف أمره وكذب وتولى، ثم ختم السورة بما بدأها به وهو إثبات البعث والمعاد والقيامة.

قوله: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾ «كلا» للردع والزجر والتهديد، أي: سيعلمون سوء عاقبة أمرهم في تلك الحال ويندمون حين لا ينفع الندم.

ويحتمل كونها بمعنى: حقًا، أي: حقًا عندما يحصل ما ذكر وتقبض الروح فإن المساق إلى الله.

أي: كلا إذا انتزعت الروح من الجسد وبلغت التراقي. والتراقي : جمع ترقوة، وهي العظام التي بين النحر والعاتق «وهي قريبة من الحلقوم، ولهذا قال تعالى في سورة الواقعة : ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ (٨٣) وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ (٨٤) وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ (٨٥) فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (٨٧)﴾ [الآيات: ٨٣ - ٨٧].

وعن بسر بن جحاش أن رسول الله ﷺ - بصق يومًا في كفه، فوضع عليها أصبعه، ثم قال: «قال الله تعالى: ابن آدم أنّى تعجزني، وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين برديك، وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت التراقي قلت: أتصدق وأنّى أوان الصدقة»[١].

﴿وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ﴾ أي: مَن راقٍ يرقي، ومَن طبيب شاف يداوي. مِن رقى يرقي كرمى يرمي، ومصدره «رقية».

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٢١٠، وابن ماجه في الوصايا - النهي عن الإمساك في الحياة والتبذير عند الموت ٢٧٠٧.

قال السعدي[1]: «أي: مَن يرقيه، من الرقية، لأنهم انقطعت عنهم الأسباب العادية فتعلقوا بالأسباب الإلهية».

وقيل مَن يرقى بروحه من الملائكة؟ ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟ مِن رقي يرقى كشقي يشقى، ومصدره «رُقِيّ» فعلى هذا يكون من كلام الملائكة. والأظهر القول الأول.

﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾.

أي: وأيقن وجزم أن الذي نزل به هو الفراق للأهل والولد والمال، وللدنيا كلها والانتقال للآخرة.

﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ أي: التوت والتصقت واجتمعت ساقا الميت إحداهما بالأخرى بعد موته ولفه في الكفن، والتفت عليه شدة الدنيا وشدة الآخرة في آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة وعظم الأمر وصعب الكرب.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ أي: إلى ربك يا محمد ورب كل مخلوق ذلك اليوم السوق والمرجع والمآل والمآب كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنعام: ٦١ ، ٦٢]، وقال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الجاثية: ٢٦].

وفي حديث البراء بن عازب - رضي الله عنه - في قبض روح العبد المؤمن قوله - ﷺ - «فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهى به إلى السماء السابعة، فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه إلى الأرض..» الحديث[2].

﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾﴾ إخبار من الله - عز وجل - ووصف لحال الكافر في الدنيا.

قوله: ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾ أي: فلم يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وغير ذلك مما يجب الإيمان به من المغيبات، وبما جاء به الرسول - ﷺ - من الوحي من عند الله عز وجل.

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٥٢٧.
(٢) سبق تخريجه.

﴿وَلَا صَلَّىٰ﴾ أي: ولا صلى الصلوات المفروضة وغيرها، وخص الصلاة من بين الواجبات لعظم مكانتها في الإسلام فهي الصلة بين العبد وبين ربه، وأعظم العبادات البدنية وأهمها، وهي عمود الإسلام.

﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: ولكن كذّب بقلبه ما جاء من الحق عن الله ورسوله، وما أخبر به الكتاب والسنة من المغيبات.

﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أعرض بجوارحه عن الصلاة وغيرها مما جاء من الحق فلم يعمل به.

قال ابن كثير[1]: «كان في الدار الدنيا مكذبًا للحق بقلبه، متوليًا عن العمل بقالبه، فلا خير فيه باطنًا ولا ظاهرًا».

﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ أي: يتبختر ويختال في هيئته ومشيته أشرًا وبطرًا، فكهًا مسرورًا غير وجل ولا خائف مما هو عليه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المطففين: ٣١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾ [الانشقاق: ١٣ - ١٥].

بل إن هؤلاء الكفرة المكذبين من كبرهم وغرورهم يطمعون أن يكونوا أحسن من غيرهم في الآخرة كما قال قائلهم فيما ذكر الله عنهم: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾ [فصلت: ٥٠].

وكما قال صاحب الجنة: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف: ٣٦]، وكما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾﴾ [مريم: ٧٧ - ٧٩].

وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله - ﷺ - : «إذا مشت أمتي المطيطياء، وخدمها أبناء الملوك أبناء فارس والروم سُلّط شرارها على خيارها»[2].

﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ زجر وتهديد شديد، ووعيد أكيد لمن جمع بين تكذيب الحق بقلبه والإعراض عنه بجوارحه، وبين الاختيال والأشر والبطر والسرور بما هو عليه من الشر.

---

(١) في «تفسيره» ٨/٣٠٧.

(٢) أخرجه الترمذي في الفتن ٢٢٦١، وابن المبارك في «الزهد» ١٨٧ وقال الترمذي: «حديث غريب».

قال ابن كثير[1]: «أي: يحق لك أن تمشي هكذا وقد كفرت بخالقك وبارئك، كما يقال في مثل هذا على سبيل التهكم والتهديد كقوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان: ٤٩]، وكقوله: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [المرسلات: ٤٦]، وكقوله ﴿فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ [الزمر : ١٥]، وكقوله: ﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]».

﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾ تأكيد للتهديد ووعيد على إثر وعيد.

وقد قيل إن هذه الآيات نزلت في أبي جهل.

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ أي: أيظن الإنسان – يعني الكافر – أن يترك مهملاً لا يؤمر ولا ينهى ولا يبعث فيثاب أو يعاقب، فهذا ينافي حكمة الله – عز وجل – في خلقه له كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

قال ابن القيم[2]: «ومن أسرارها أن إثبات النبوة والمعاد يعلم بالعقل، وهذا أحد القولين لأصحابنا وغيرهم وهو الصواب، فإن الله سبحانه – أنكر على من حسب أنه يترك سدى فلا يؤمر ولا ينهى، ولا يثاب، ولا يعاقب، ولم ينف سبحانه ذلك بطريق الخبر المجرد، بل نفاه نفي مالا يليق نسبته إليه، ونفي منكر على من حكم به وظنه».

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً﴾ الاستفهام للتقرير، أي: بلى لقد كان الإنسان هكذا. و«النطفة» هي الماء القليل، أي: لقد كان الإنسان « نطفة » أي ماءً قليلاً مهينًا كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [المرسلات: ٢٠].

﴿مِّن مَّنِيٍّ﴾ أي: من ماء الرجل وماء المرأة ﴿يُمْنَىٰ﴾ قرأ يعقوب وحفص ﴿يمنى﴾ بالياء على التذكير، وقرأ الباقون ﴿ تمنى ﴾ بالتاء على التأنيث.

ومعنى ﴿ يمنى ﴾ أي: يصب ويراق في أرحام النساء، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾﴾ [الطارق: ٥ – ٧].

﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ أي: ثم كان علقة من الدم تعلق في جدار الرحم، ﴿فَخَلَقَ﴾ أي: فخلق العلقة مضغة، ثم خلق المضغة عظامًا ثم كسا العظام لحمًا، ثم أنشأه خلقًا آخر. ﴿فَسَوَّىٰ﴾ أي: فسوى خلقه وأتقنه وأحكمه على أحسن حال، تام الأعضاء، معتدل القامة،

---

(١) في «تفسيره» ٨/٣٠٨.

(٢) انظر « بدائع التفسير » ٥/ ٨٣.

ناطقًا سميعًا بصيرًا كما قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الإنسان: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٢- ١٤]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الانفطار: ٦ - ٨].

وفي حديث عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ - قال: «يجمع خلق أحدكم في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم علقة مثل ذلك، ثم مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويكتب رزقه وأجله وشقي أو سعيد»[1] .

﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ﴾ أي: الصنفين والجنسين ﴿الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾.

﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ أي: أليس الذي خلق الإنسان ونقله في هذه الأطوار المختلفة قادراً على إحياء الموتى وبعثهم.

والاستفهام كسابقه للتقرير. والجواب عن الاستفهامين بأن يقال: «بلى» أو «بلى وأنا على ذلك من الشاهدين» أو بلى إنه على كل شيء قدير.

أي: فالقادر على خلق الإنسان بعد أن كان عدمًا من هذه النطفة مرورًا بمراحل الخلق بعدها حتى صار خلقًا سويًا قادر من باب أولى وأحرى على أن يحيي الموتى بعد موتهم وهذا أهون عليه كما قال - عز وجل - : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٨ ، ٧٩].

قال ابن القيم[2]: « فإذا تأمل العاقل البصير أحوال النطفة من مبدئها إلى منتهاها دلته على المعاد والنبوات كما تدله على إثبات الصانع وتوحيده وصفات كماله، وكمال قدرته وحكمته، وأنه الملك الحق المتعالي عن أن يخلقها عبثًا ويتركها سدى بعد كمال خلقها».

وعن موسى بن أبي عائشة قال: «كان رجل يصلي فوق بيته، فكان إذا قرأ: ﴿أَلَيْسَ

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٠٨، ومسلم في القدر ٢٦٤٣، وأبو داود في السنة ٤٧٠٨، والترمذي في القدر ٢١٣٧، وابن ماجه في المقدمة ٧٦.

(٢) انظر « بدائع التفسير » ٥/ ٩٠.

ﱡﭐﺫَٰﻟِﻚَ ﺑِﻘَٰﺪِﺭٍ ﻋَﻠَﻰٰٓ ﺃَﻥ ﻳُﺤۡـِۧﻲَ ﭐﻟۡﻤَﻮۡﺗَﻰٰ ٤٠ﱠ ؟ قال: سبحانك، فبكى، فسألوه عن ذلك، فقال: سمعته من رسول الله ﷺ»[١].

وروي عن أبي هريرة – رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ منكم بالتين والزيتون فانتهى إلى آخرها: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾؟ فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين. ومن قرأ: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فانتهى إلى ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ؟ فليقل: بلى ومن قرأ ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ فبلغ: ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ٥٠﴾ ؟ فليقل: آمنا بالله»[٢].

وعن قتادة قوله: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ذكر لنا أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأها قال: «سبحانك وبلى»[٣].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه مر بهذه الآية: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ٤٠﴾ ؟ فقال: «سبحانك، فبلى»[٤].

الفوائد والعبر:

١ ـ التذكير بساعة الاحتضار والفراق والرجوع إلى الله عز وجل.

٢ ـ إذا نزل الموت ضاق الفضاء، وبطلت الحيل، ولم تجد الأسباب.

٣ ـ جواز الرقية وطلب الاستشفاء.

٤ ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة والعامة.

٥ ـ الردع والزجر والوعيد والتهديد للكافر الذي لم يصدق بالقرآن وما جاء به الرسول ﷺ ولم يصل لله، بل كذب بقلبه وتولى ببدنه وجوارحه ومشى بين الناس مختالاً متكبرًا معجبًا بنفسه.

٦ ـ أن الصلاة أعظم العبادات في الإسلام، وتركها كفر لقوله ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾.

٧ ـ الحذر من عدم التصديق بما جاء عن الله وترك الصلاة والتكذيب والتولي والكبر والاختيال والإعجاب لأنها صفات الكفار.

٨ ـ اعتقاد الكافر أنه متروك هملاً لا يؤمر ولا ينهى، ولا يبعث فيجازى بعمله ينافي حكمة الله عز وجل في خلقه.

٩ ـ تقرير الإنسان وتذكيره بنعمة الله – عز وجل – عليه في إيجاده ونقله في أطوار خلقه وضعفه إلى أن صار بشراً سوياً سميعاً بصيراً.

١٠ ـ إثبات قدرة الله – عز وجل – التامة على البعث وإحياء الموتى، لأن الذي خلق الخلق من العدم قادر على إعادة خلقهم من باب أولى.

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة – باب الدعاء في الصلاة ٨٨٤، وابن أبي حاتم في « تفسيره » ١٠/ ٣٣٨٩. قال ابن كثير في « تفسيره» ٨/ ٣٠٩. «: تفرد به أبو داود ولم يسم هذا الصحابي ولا يضر ذلك».

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة – مقدار الركوع والسجود ٨٨٧، والترمذي في تفسير سورة التين ٣٣٤٧.

(٣) أخرجه الطبري في « جامع البيان » ٢٣/ ٥٢٨.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٨٩.

تفسير سورة الإنسان

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: «كان النبي ﷺ ـ يقرأ في الجمعة في صلاة الفجر الم تنزيل السجدة و ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ »[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾.

قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ «هل» حرف استفهام للتقرير، أي: قد أتى على الإنسان وقت طويل من الدهر لا وجود له ولا ذكر، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ۝٦٧﴾ [مريم: ٦٧].

قال ابن كثير[2]: « أنه أوجده بعد أن لم يكن شيئا يُذكر لحقارته وضعفه».

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: أوجدناه من نطفة، وهي المني كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧﴾ [القيامة: ٣٧].

﴿أَمْشَاجٍ﴾ أي: أخلاط من عناصر مختلفة من ماء الرجل وماء المرأة، ثم ينتقل من طور إلى طور ومن حال إلى حال كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٤﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ أي: نختبره بالتكاليف أيعمل بما خلق له أم لا - كما قال عز وجل: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦].

﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ أي: كمّلنا خلقته وحواسه، ومنها السمع والبصر، والتي هي من أهم ما أنعم الله به على الإنسان بعد العقل - لأنهما طريقا المعرفة إليه، فبالسمع

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة - ما يقرأ في يوم الجمعة ٨٩١، ومسلم في الجمعة، ٨٨٠، والنسائي في الافتتاح ٩٥٥، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٨٢٣.

(٢) في « تفسيره » ٨/ ٣١٠.

يسمع الإنسان الآيات الشرعية، وبالبصر ينظر في آيات الله الشرعية والكونية، وقد يكون السمع والبصر نقمة على الإنسان إذا استعملهما في سماع الباطل والنظر إليه.

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي: دللناه على طريق الحق وأرشدناه إليه بما أنزلنا من الوحي في القرآن الكريم وعلى لسان النبي الكريم ﷺ - كما قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝﴾ [البلد: ١٠] أي: بينا له طريق الخير وطريق الشر. وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝﴾ [الأحزاب: ٤].

﴿إِمَّا شَاكِرًا﴾ « إما » أداة تفصيل أي: إما شاكرًا لله - عز وجل - نعمه العظيمة عليه، بخلقه وإيجاده من العدم ومنحه السمع والبصر ودلالته وإرشاده إلى طريق الحق، وذلك بسلوك طريقه المستقيم والإقرار والاعتراف بنعمه عليه واستعمالها في طاعته - عز وجل.

﴿وَإِمَّا كَفُورًا﴾ بربه جحودًا لنعمه مستعملاً لها في معصيته معرضًا عن الحق بقلبه متولياً عنه ببدنه.

عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ - : «كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه، فإذا أعرب عنه لسانه، فإما شاكرًا وإما كفورًا» (١)

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝﴾ [الشمس: ٧ - ١٠].

وكقوله ـ ﷺ: «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»(٢).

ويؤخذ من قوله: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ إثبات أن العبد فاعل مريد حقيقة، وأن إرادته تابعة لمشيئة الله وإرادته، وفي هذا رد على القدرية الذين يقولون إن العبد يخلق فعل نفسه، وعلى الجبرية القائلين بأن العبد مجبور على أفعاله لا إرادة له.

وقد تضمنت هذه الآيات الثلاث أول أحوال الإنسان ووسطها ومنتهاها.

فقد كان عدمًا، ثم خلقه الله وأوجده وأتم خلقه، ثم بين له طريق الخير وطريق الشر في كتبه وعلى ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام، فانقسم الناس إلى شاكر لنعم الله قائم بحقوقه، وإلى كفور بربه وبنعمه، ثم أتبع ذلك بذكر حال الفريقين في الآخرة وجزائهم.

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٣٥٣.

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة - فضل الوضوء ٢٢٣ ـ من حديث أبي مالك الأشعري ـ رضي الله عنه.

الفوائد والعبر:

١ ـ امتنان الله – عز وجل – على الإنسان في إيجاده من العدم بعد أن لم يكن شيئًا مذكورا.

٢ ـ أن الإنسان خلق من ضعف، من نطفة وأخلاط من ماء الرجل والمرأة، وانتقل من طور إلى طور حتى صار إنسانًا سويًا سميعاً بصيراً.

٣ ـ أن الله – عز وجل – خلق الإنسان وأوجده للابتلاء والامتحان، لينظر أيشكر أم يكفر.

٤ ـ أن نعمة السمع والبصر من أعظم النعم فعلى الإنسان أن يستعملها فيما ينفعه في دينه ودنياه.

٥ ـ لا عذر للإنسان ولاحجة له، فقد بين الله عز وجل له طريق الخير وأمره بسلوكه وبين له طرق الشر وحذره منها.

٦ ـ أن العبد فاعل مريد ليس مجبورًا على أفعاله فله أن يختار طريق الشكر، وله أن يختار طريق الكفر.

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله – عز وجل – في الآيات السابقة أنه أوجد الإنسان وهداه وأرشده إلى طريق الحق وهو إما شاكر لربه ونعمه عليه سالك طريق الحق، وإما كفور بربه ونعمه معرض عن الحق، ثم أتبع ذلك بذكر ما أعده لكل فريق، وأنه أعد للكافرين السلاسل والأغلال والسعير والعذاب الأليم، وأعد للأبرار أصناف النعيم من نضارة الوجوه وسرور القلوب والمساكن والملابس والحلي والمجالس والثمار والشراب والخدم والنعيم المقيم والملك الكبير. ونبه بما ذكر من نعيم الأبرار بعظم نعيم من فوقهم في المنزلة، وهم المقربون، والذين ذكر الله من نعيمهم أنهم يشربون من عين الكافور، كما قال تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [المطففين: ٢٨].

قوله: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: إنا أعددنا وهيأنا وجهزنا وأرصدنا للكافرين بالله المكذبين لرسله الجاحدين لشرعه.

﴿سَلَٰسِلَاْ﴾ جمع سلسلة، ممنوع من الصرف لأنه على صيغة منتهى الجموع، أي: سلاسل يُسلكون بها ويسحبون في الجحيم.

﴿وَأَغْلَٰلًا﴾ يغلون ويقيدون بها ويوثقون وتشد فيها أيديهم إلى أعناقهم، ونواصيهم إلى أقدامهم. كما قال تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [غافر: ٧١ ، ٧٢]، وقال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾ [الحاقة: ٣٠ – ٣٢]، وقال تعالى:

﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾﴾ [الرحمن: ٤١]، وقال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الفجر: ٢٥، ٢٦]

﴿وَسَعِيرًا﴾ أي: ونارًا مستعرة ملتهبة تسعر بها أجسامهم وتحرق بها أبدانهم كلما نضجت جلودهم بدلوا جلودًا غيرها ليذقوا العذاب.

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ الآيات

بعد أن ذكر الله – عز وجل – ما أعده للكافرين من السلاسل والأغلال والسعير ذكر ما أعده للأبرار من أنواع النعيم ممتدحًا لهم على طريقة القرآن في الجمع بين الوعد والوعيد، ليجمع العبد بين الخوف والرجاء.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ الأبرار: جمع «بَرّ»، وفي معناه «بار» ويجمع على «بررة» و«البَرُّ» و«البار» مأخوذ من «البِّر» وهو في الأصل كلمة جامعة لكل خصال الخير، الظاهرة والباطنة، قال تعالى: ﴿۞لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَاۚ﴾ [البقرة: ١٨٩].

وهو الذي تسكن إليه النفس ويطمئن إليه القلب، كما قال ﷺ: «البر ما سكنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب»(١) ومنه حسن الخلق، كما قال ﷺ: «البر حسن الخلق»(٢).

والمراد بالأبرار في الآية من فعلوا الواجبات وتركوا المنهيات، ومن ذلك الوفاء بالنذر، وإطعام الطعام للمحتاجين من المساكين واليتامى والأسارى مع الإخلاص لله تعالى في ذلك، والخوف من عذابه ومن أهوال يوم القيامة، والصبر في ذات الله كما قال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا

---

(١) أخرجه أحمد، ٤/ ١٩٤، والدارمي في الأضاحي ٢٥٣٣ من حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه.
(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة ٢٥٥٣، والترمذي في الزهد ٢٣٨٩ – من حديث النواس بن سمعان – رضي الله عنه

قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ والمراد بهم أصحاب اليمين[١]

﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾ أي: من كأس الخمر اللذيذ الذي لا يُنزفون بسببه ولا يُصدعون.

﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ مزاجها: ما تمزج به، أي: كأس خمر ممزوجة بالكافور ليبرده ويكسر حدته .

والكافور: نبت بارد طيب الرائحة – وفرقٌ ما بين كافور الدنيا وكافور الجنة قال ابن عباس – رضي الله عنهما – «ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء»[٢] .

ولهذا تنتفي عما في الجنة جميع الآفات التي تصيب ما يماثلها في الدنيا في الاسم، كما قال تعالى: ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الواقعة: ٢٨] فقوله: ﴿مَّخْضُودٍ﴾ أي: قد خضد وقطع شوكه وهو آفة السدر في الدنيا يؤذي من يريد قطعه .

وقال تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [آل عمران: ١٥] أي: مطهرة من الحيض والنفاس والبول والغائط وغير ذلك من الأدناس التي في نساء الدنيا.

وقال تعالى: ﴿۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢٧] أي: دار السلامة من الآفات التي في دار الدنيا.

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ « عينًا » منصوب بدل من « كافورا » أي: ذلك الكأس اللذيد ممزوج بكافور من معين لا ينضب ولا ينقطع،وهي عين الكافور ومعنى ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ أي: يشربون ويروَوْنَ، ولهذا قال: « بها » ولم يقل « منها » لأن الفعل : « يشرب » ضمن معنى « يَرْوَى » ومن هذا قول الشاعر:

شربن بماء البحر ثم ترفعت   متى لجج خضر لهن نئيج[٣]

والمراد بالعبودية في قوله: ﴿عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ العبودية الخاصة، وأضافهم إليه إضافة تشريف وتكريم والمراد بهم المقربون وهم خاصة الخاصة كما قال تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [المطففين: ٢٧ ٢٨].

---

(١) انظر الكلام على قوله تعالى: في سورة الواقعة ﴿ وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ﴾ [الآية: ٢٧].
(٢) انظر «مجموع الفتاوى» ٥/٢٥٧ ، ١١/٤٨٢ ، «بدائع التفسير» ٥/٩٨.
(٣)البيت لأبي ذؤيب الهذلي انظر «ديوان الهذليين» ١/٥١، ٥٢.

قال ابن تيمية [١]: « وذكر سبحانه أن شراب الأبرار يمزج من شراب عباده المقربين لأنهم مزجوا أعمالهم، ويشربه المقربون صرفاً خالصًا، كما أخلصوا أعمالهم، وجعل سبحانه شراب المقربين من الكافور الذي فيه من التبريد والقوة ما يناسب برد اليقين وقوته لما حصل لقلوبهم ووصل إليها في الدنيا مع ما في ذلك من مقابلته للسعير».

وقال ابن كثير [٢]: «أي هذا الذي مزج لهؤلاء الأبرار من الكافور هو عين يشرب بها المقربون من عباد الله صرفًا بلا مزج، ويروون بها».

أي: فالأبرار وهم أصحاب اليمين يشربون من كأس ممزوجة بالكافور.

والمقربون يشربون صرفاً من عين الكافور.

كما يشرب الأبرار من خمر ممزوج بالتسنيم، ويشرب المقربون صرفاً من عين التسنيم كما قال: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَامُهُ مِسْكٌ ۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [المطففين: ٢٥ - ٢٨].

﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي: يصرفون جداولها ويقدرون ينابيعها ويجرونها حيث شاؤوا، وأين شاؤوا من بساتينهم ودورهم وقصورهم ورياض الجنة وغير ذلك، بدون كلفة، ومن غير أخاديد.

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ أي: من صفات الأبرار: الوفاء بالنذر. والنذر : ما أوجبه الإنسان على نفسه من التزامات وعهود. والوفاء به واجب. قال ﷺ: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه» [٣].

وإذا كانوا يوفون بالنذر الذي هو غير واجب في الأصل عليهم إلا بإيجابهم على أنفسهم فهم يقومون بالواجبات والفروض الأصلية التي أوجبها الله عليهم من باب أولى وأحرى.

قال ابن تيمية [٤] : «وذكر سبحانه الوفاء بالنذر وهو أضعف الواجبات، فإن العبد هو الذي أوجب على نفسه التزامه، فهو دون ما أوجبه الله سبحانه عليه، فإذا وفى لله

---

(١) انظر « دقائق التفسير » ٥/ ٢٢.

(٢) في « تفسيره » ٨/ ٣١٢.

(٣) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور ـ النذر في الطاعة والنذر فيما لا يملك وفي معصية الله ٦٦٩٦، وأبو داود في الأيمان والنذور ٣٢٨٩، والنسائي في الأيمان والنذور ٣٨٠٦، والترمذي في النذور والأيمان ١٥٢٦، وابن ماجه في الكفارات ٢١٢٦ – من حديث عائشة – رضي الله عنها.

(٤) انظر « دقائق التفسير » ٥/ ٢٢.

بأضعف الواجبين الذي التزمه هو، فهو بأن يوفي بالواجب الأعظم الذي أوجبه الله عليه أولى وأحرى» .

﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا﴾ «يومًا» مفعول به منصوب لـ«يخافون» وهو يوم القيامة، ولا يصح أن يعرب ظرفًا لأن المؤمنين لا يخافون في ذلك اليوم – كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

ونكّر «يوماً» للتعظيم والتفخيم والتهويل – كما في قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور: ٣٧]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [الإنسان: ١٠]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإنسان: ٢٧].

﴿كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ أي: كان شره وهوله وكربه وعذابه فاشيًا ممتدًا طويلاً منتشرًا غاية الانتشار عامًا لجميع الناس إلا من رحم الله ، كما قال شعيب عليه السلام ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود: ٨٤] لأن الناس في هوله وكربه على قدر أعمالهم فمنهم من يبلغ العرق إلى ساقيه ومنهم من يبلغ العرق إلى ركبتيه، ومنهم من يبلغ العرق إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجامًا – كما جاء في الحديث [1] وهم في مرورهم على الصراط كذلك على قدر أعمالهم منهم من يمر كالريح، وكالطير، وكأجاويد الخيل والركاب، ومنهم من يمشي مشيًا ومنهم من يحبو حبًا – كما جاء في الحديث[2] .

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ أي: في حال محبتهم له، إما لحاجتهم إليه أو لغير ذلك، وذلك منهم تقديمًا لمحبة الله – عز وجل على محبة أنفسهم، وإيثارًا لغيرهم من المحتاجين على أنفسهم، وإذا بذلوه في هذه الحال فهم لما سواه من حقوق الله وحقوق العباد أبذل قال تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال تعالى ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، وقال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ١٨٣، وأحمد ٣/ ٢٥ من حديث أبي سعيد – رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الوصايا ٢٧٤٨، ومسلم في الزكاة – بيان أفضل الصدقة ١٠٣٢، وأبو داود في الوصايا ٢٨٦٥، والنسائي في الزكاة ٢٥٤٢ – من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

وقال ﷺ:«خير الصدقة أن تتصدق وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخشى الفقر»[١].

روى نافع أن ابن عمر رضي الله عنه – مرض فاشتهى عنبًا –أول ما جاء العنب – فأرسلت صفية – يعني امرأته – فاشترت عنقوداً بدرهم فاتبع الرسولَ السائلُ، فلما دخل به قال: السائل، السائل. فقال ابن عمر: أعطوه إياه فأعطوه إياه، ثم أرسلت بدرهم آخر فاشترت عنقودًا فاتبع الرسول السائل، فلما دخل قال: السائل، السائل. فقال ابن عمر: أعطوه إياه . فأعطوه إياه. فأرسلت صفية إلى السائل. فقالت: والله إن عدت لا تصيب منه خيرًا أبدًا. ثم أرسلت بدرهم آخر فاشترت به»[٢].

﴿مِسْكِينًا﴾ وهو الذي أسكنه الفقر والحاجة وأذله مأخوذ من المسكنة، وهي الذل والانكسار، وسكون الحركة، لأن الفقر – عياذًا بالله منه ـ يذل صاحبه، إن جلس فبمؤخرة المجلس، يؤثر السكوت دائماً لأنه إن تكلم لم يسمع منه، وإن سمع منه لم يصدق، لا وزن له ولا قيمة عند كثير من الناس الذي يزنون الناس بالدرهم والدينار.

﴿وَيَتِيمًا﴾ وهو الذي فقد أباه وهو دون البلوغ، ولا شيء له، ذكرًا كان أو أنثى، مأخوذ من اليتم وهو الانفراد فإذا بلغ زال عنه اليتم، لقوله – ﷺ – «لايتم بعد احتلام»[٣].

﴿وَأَسِيرًا﴾ وهو المأسور المحبوس المسجون، سواء كان من المسلمين أو من غيرهم. وقد أمر الرسول – ﷺ – أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسارى فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغداء.

وقال بعض المفسرين: المراد بالأسير: الرقيق. والظاهر أن الأسير هو المأسور المحبوس حرًا كان أو عبدًا مسلمًا كان أو كافرًا.

فهو يشمل الرقيق وغيره، بل إن الرقيق أيضًا يدخل ضمن المساكين والأيتام.

وفي كونهم يخصون بالإطعام هذه الأصناف الثلاثة المحتاجة دليل على أنهم لا يريدون بذلك مكافأة – كما يفعل بعض من يعاوضون بإطعامهم وإنفاقهم، بل

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤١٩، ومسلم في الزكاة ١٠٣٢، وأبو داود في الوصايا ١٨٦٥، والنسائي في الزكاة ٢٥٤٢ ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البيهقي في سننه – فيما ذكر ابن كثير في « تفسيره » ٨/ ٣١٣.

(٣) أخرجه أبو داود في الوصايا ٢٨٧٣ ـ من حديث علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه.

ويعاوضون بإنصافهم وقولهم كلمة الحق أو سكوتهم عن الباطل – ولهذا قال بعده:
﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ أي: قائلين لهم بلسان الحال ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ قال مجاهد وسعيد بن جبير : «أما والله ما قالوه بألسنتهم، ولكن علم الله به من قلوبهم، فأثنى عليهم به ليرغب في ذلك راغب»[1].

وما قاله مجاهد وسعيد بن جبير جيد من حيث المعنى لأن حمل الآية على أنهم قالوه بلسان المقال فيه بعد من وجهين: الأول: أنه لا يُستحسن أن يقال للمتصدق عليه هذا المقال.

والثاني: أنه لا يستحسن أن يقول المتصدق أنا أطعم لوجه الله – لأن الله أعلم بنيته وسريرته.

و « إنما » أداة حصر. والمعنى : إنما نطعمكم ابتغاء وجه الله وطلب مرضاته ورجاء ثوابه.

وقوله: ﴿لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ أي: لله – عز جل – ويعبر بالوجه لشرفه.

ويؤخذ من الآية وجوب الإخلاص لله – عز وجل – وإثبات الوجه لله عز وجل.

﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً﴾ أي: لا نطلب منكم مجازاتنا بالمال على إطعامنا لكم.

﴿وَلَا شُكُورًا﴾ « شكورا » مصدر كالقعود، أي: ولا نريد منكم أن تشكرونا بالثناء علينا بالقول واللسان مقابل ذلك.

فتضمن فعلهم: المحبة والإخلاص والإحسان.

وأركان الشكر في الأصل ثلاثة: الاعتراف بنعمة المنعم، والثناء عليه بها، والاستعانة بها على رضاه.

وحيث جمع هنا بين الجزاء والشكور حسن حمل الجزاء على المجازاة بالمال، وحمل الشكر على الثناء بالقول.

وهكذا ينبغي أن يكون المؤمن في جميع صدقاته وأعماله مخلصًا العمل لله لا يطلب على شيء من ذلك مجازاة من الناس أو شكرًا منهم.

﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا﴾ أي: شديد الجهمة والشر، تعبس فيه وجوه الكفار والعصاة وتكلح. والعبوس: قبض ما بين العينين.

قال ابن تيمية[2]: «ثم أخبر سبحانه عنهم بما صدقهم عليه قبل أن يقولوه حيث

---

(١) أخرجه عنهما الطبري في « جامع البيان » ٢٣/٥٤٦.
(٢)انظر «دقائق التفسير» ٥/٢٣.

قالوا: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝﴾: [الآية: ١٠] فصدقهم قبل قولهم، إذ يقول تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝﴾ [الآية: ٧]».

﴿قَمْطَرِيرًا﴾ شديد العبوس شديدًا هوله، عظيمًا بلاؤه طويلاً أمده.

قال الشاعر:

بـني عمنـا هـل تـذكرون بلاءنـا ... علـيكم إذا مـا كـان يـوم قمـاطر [1]

فحملهم خوفهم من الله وعذابه في هذا اليوم الشديد على القيام بما يكون سببًا لنجاتهم في هذا اليوم من فعل الطاعات والكف عن المعاصي.

﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾ أي: حفظهم الله وحماهم وكفاهم شر ذلك اليوم وأذاه وعذابه، وسهل عليهم شدائده وكرباته، وأمنهم مما يخافون – كما قال عز وجل: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، وقال عز وجل : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝﴾ [الأنعام: ٨٢].

﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ بين قوله في الجملة السابقة ﴿فَوَقَىٰهُمُ﴾ وقوله هنا ﴿وَلَقَّىٰهُمْ﴾ جناس بليغ. وقدم قوله ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾ على قوله: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ وما بعدها من الآيات في ذكر نعيمهم، لأن التخلية قبل التحلية.

ومعنى قوله ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ أي: وأكرمهم وأعطاهم ومنحهم نضارة وحسناً وبهاء وبهجة في وجوههم، وسرورًا وفرحًا واستبشارًا في قلوبهم كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝﴾ [عبس: ٣٨ ، ٣٩] فجمع الله لهم بين نعيم الظاهر والباطن، وبين النعيم الحسي والمعنوي. نسأل الله تعالى من فضله.

قال ابن تيمية[2]: «وقاهم شر ما يخافونه ولقاهم فوق ما كانوا يأملونه».

وقال أيضًا: «فوصفهم سبحانه بجمال الظاهر والباطن، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝﴾ » فالنضرة جمال وجوههم، والسرور جمال قلوبهم، كما قال: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝﴾ [المطففين: ٢٤]».

---

(١)انظر «معاني القرآن» للفراء ٣/ ٢١٦، «جامع البيان» ٢٣/ ٥٤٧، «لسان العرب» مادة «قمطر».

(٢) انظر » دقائق التفسير» ٥/ ٢٢.

وسرور القلب هو سبب نضارة الوجه واستنارته، ونضارة الوجه واستنارته هي علامة سرور القلب، لهذا قدمها لأنها هي العلامة الظاهرة على السرور.

قال كعب بن مالك – رضي الله عنه – : «سلمت على رسول الله ﷺ – وهو يبرق وجهه من السرور، وكان رسول الله ﷺ – إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه»[1].

وعن عائشة – رضي الله عنها – قالت: «دخل عليّ رسول الله ﷺ – مسرورًا تبرق أسارير وجهه»[2].

﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ﴾ الباء: سببية، و « ما » مصدرية.

والصبر لغة: الحبس والمنع، واصطلاحًا: حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي، والجوارح عما حرم الله.

أي: وأثابهم بسبب صبرهم على طاعة الله – عز وجل – وعن معاصيه، وعلى أقداره المؤلمة.

﴿جَنَّةً﴾ أي: بستانًا ودارًا فسيحة ومنزلاً رحبًا، فيها ألوان النعيم والعيش الرغيد. والمراد بقوله «جنة» جنس الجنات.

﴿وَحَرِيرًا﴾ أي: ولباسًا من حرير كما قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣، فاطر: ٣٣].

قال السعدي[3] : « ولعل الله إنما خص الحرير، لأنه لباسهم الظاهر، الدال على حال صاحبه».

﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ الآيات.

ذكر الله – عز وجل – في الآيتين السابقتين وقايته للأبرار شر يوم القيامة ومنحهم النضارة والسرور وإثابتهم بسبب صبرهم بالجنة والحرير. ثم أخذ في تفصيل أحوالهم في الجنة وما أعد لهم فيها من ألوان النعيم.

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب ٣٥٥٦، ومسلم في التوبة – حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه ٢٧٦٩، والترمذي في التفسير ٣١٠٢، وأحمد ٣/٤٥٦ – ٤٥٩.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب – صفة النبي ﷺ ٣٥٥٥، ومسلم في الرضاع – العمل بإلحاق القائف الولد ١٤٥٩، وأبو داود في الطلاق ٢٢٦٧، والنسائي في الطلاق ٣٤٩٣، والترمذي في الولاء والهبة ٢١٢٩، وابن ماجه في الأحكام ٢٣٤٩.

(٣) في « تيسير الكريم الرحمن » ٧/ ٥٣٤.

قوله: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ أي: متكئين في الجنة . والاتكاء : التمكن من الجلوس في حال الطمأنينة والراحة والرفاهية، كالتمرفق وهو الجلوس مع الاتكاء على المرفق، وكالتربع في الجلوس، والاضطجاع .

وفي الحديث قوله - ﷺ - : «أما أنا فلا آكل متكئًا» [1].

والأرائك: جمع أريكة، وهي السرر.

فجلوسهم على هذه الأسرة جلوس المطمئن المنبسط المسرور المرتاح.

﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا﴾ أي: لا يرون فيها شمساً يزعجهم ويؤذيهم حرها ﴿وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ الزمهرير: البرد، أي: ولا يرون فيها بردًا يؤلمهم. فجوها في غاية الاعتدال في ظل ظليل كما قال تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧].

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا﴾ أي: وقريبة منهم ظلال أشجارها، وقريبة إليهم أغصانها.

﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا﴾ ذللت: جعلت مذللة منقادة ﴿قُطُوفُهَا﴾ ما يقطف ويلتقط من جناها وثمارها. أي: جعلت ثمارها مذللة منقادة لهم ﴿تَذْلِيلًا﴾ أي: غاية التذليل والانقياد، متى اشتهوها تدلت عليهم من أغصانها يأخذونها على أي حال كانوا، قائمين أو جالسين أو مضطجعين لا يردهم عنها بُعد ولا شوك، كما قال تعالى: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الرحمن: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الحاقة: ٢٣].

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ﴾ أي: ويطوف عليهم الولدان والخدم بأوان من فضة فيها طعامهم كما قال تعالى في الآية التاسعة عشرة من هذه السورة ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [الواقعة: ١٧، ١٨]، وقال: تعالى: ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾ [الطور: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الصافات: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ [الزخرف: ٧١].

﴿وَأَكْوَابٍ﴾ أيضًا من فضة فيها شرابهم. والأكواب: هي الكيزان والجرار والأقداح

---

(١) أخرجه البخاري - في الأطعمة - الأكل متكئًا ٥٣٩٨، وأبو داود في الأطعمة - ما جاء في الأكل متكئًا ٣٧٦٩، والترمذي في الأطعمة - ما جاء في كراهة الأكل متكئًا ١٨٣٠، وابن ماجه في الأطعمة - الأكل متكئًا ٣٢٦٢، وأحمد ٤/ ٣٠٨، ٣٠٩ - من حديث أبي جحيفة - رضي الله عنه.

التي لا عرى لها ولا خراطيم.

﴿كَانَتْ قَوَارِيرَا۠﴾ أي: كانت هذه الأكواب ﴿قَوَارِيرَا۠﴾ والقوارير: جمع قارورة. والقارورة تكون من الزجاج. أي: إن هذه الأكواب التي يشربون بها في بياض الفضة وصفاء قوارير الزجاج، شفافة يرى ما في باطنها من ظاهرها.

رُويَ عن ابن عباس رضي الله عنهما – قال: «ليس في الجنة شيء إلا قد أعطيتم في الدنيا شبهه إلا قوارير من فضة»[1].

قال ابن القيم[2]: «فأخبر سبحانه وتعالى عن مادة تلك الآنية أنها من الفضة، وأنها بصفة الزجاج وشفافته، وهذا من أحسن الأشياء وأعجبها، وقطع سبحانه توهم كون تلك القوارير من زجاج فقال: ﴿قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ﴾».

﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ أي: قدروها بأنفسهم فجاءت كما قدروها، أو قدرها لهم من يطوف عليهم من الولدان والخدم. والتقدير: جعل الشيء بقدر مخصوص فجاءت هذه الأكواب مقدرة من حيث ما فيها من شراب بكونه قُدِّر لهم من غير زيادة ولانقصان، ومن حيث حجمها بكونها بقدر الكف، ومن حيث لذتها فأتتهم على ما قدروا في خواطرهم.

قال ابن القيم[3]: «فقدرت الصناع هذه الآنية على قدر ريهم لا يزيد عليه ولا ينقص منه، وهذا أبلغ في لذة الشارب فلو نقص عن ريه لنقص التذاذه، ولوزاد حتى يشمئز منه حصل له ملالة وسآمة من الباقي».

﴿وَيُسْقَوْنَ﴾ أي الأبرار ﴿فِيهَا﴾ أي: في الجنة، أو في هذه الأكواب ﴿كَأْسًا﴾ أي: كأس خمر.

﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾ أي: ما تمزج به وتخلط ﴿زَنجَبِيلًا﴾ وهو نبت عظيم الفائدة طيب الطعم والرائحة.

﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ ﴿عَيْنًا﴾ بدل من ﴿زَنجَبِيلًا﴾ أي:عينًا في الجنة ﴿تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ لسلاسة سيلانها وانقيادها، وسلاستها في الحلق ولذتها وحسنها فالأبرار يسقون كأس الخمر ممزوجة بالزنجبيل من عين السلسبيل. والمقربون يشربون من عين السلسبيل صرفاً بلا مزج[4].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٩١.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٩٨.

(٣) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ٩٨ – ٩٩.

(٤) انظر «جامع البيان» ٢٣/ ٥٦١.

قال ابن تيمية[1] بعد كلامه على قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥﴾ [الإنسان: ٥] «وأخبر سبحانه أن لهم شرابًا آخر ممزوجًا من الزنجبيل لما فيه من طيب الرائحة ولذة الطعم والحرارة التي توجب تغير برد الكافور وإذابة الفضلات وتطهير الأجواف، ولهذا وصفه سبحانه بكونه شراباً طهورًا – أي:مطهراً لبطونهم».

وقال ابن كثير[2]: «فتارة يمزج لهم الشراب بالكافور وهو بارد، وتارة بالزنجبيل وهو حار ليعتدل الأمر وهؤلاء يمزج لهم من هذا تارة ومن هذا تارة. وأما المقربون فإنهم يشربون من كل منهما صرفاً».

﴿۞وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ويدور على أهل الجنة في طعامهم وشرابهم وخدمتهم ﴿وِلْدَٰنٌ﴾ جمع وليد وهو الصغير ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ أي: باقون على سن الصغر، لا يكبرون ولا يهرمون ولا يتغيرون، لأن الصغير هو الأنسب والأصلح للخدمة . وهم أيضًا في غاية الحسن: مقرَّطون مسوَّرون. قال الشاعر:

ومخلَّـــداتٌ بـــاللجين كأنمـــا ... أعجـــازهُنَّ رواكـــد الكُثْبَـــانِ[3]

وهؤلاء الولدان غلمان أنشأهم الله في الجنة كما أنشأ الحور العين، وقيل هم أولاد المسلمين الذين يموتون قبل البلوغ والتكليف، وقيل: هم أطفال المشركين.

والأظهر القول الأول فهم غلمان ينشئهم الله لهم كما قال تعالى: ﴿۞وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ۝٢٤﴾ [الطور: ٢٤].

قال ابن القيم[4]: «وهؤلاء غير أولادهم، فإن من تمام كرامة الله تعالى لهم أن يجعل أولادهم مخدومين معهم، ولا يجعلهم غلمانًا لهم».

﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ أي: إذا رأيت هؤلاء الولدان في انتشارهم في الخدمة وكثرتهم وحسن خلقتهم وبياض أجسامهم ونضارة وجوههم، ونظافة ثيابهم، وجمال حليهم ظننتهم لؤلؤًا مفرقًا غير منظوم في حسن خلقته وجماله وبياضه وبهائه.

---

(١) انظر « دقائق التفسير » ٥/ ٢٢.
(٢) في « تفسيره » ٨/ ٣١٧.
(٣) البيت ذكره ابن قتيبة في « غريب القرآن » ٤٤٧ . وانظر « اللسان » مادة « خلد » .
(٤) انظر « بدائع التفسير » ٥/ ١٠٢.

قال ابن القيم[(١)]: «وفي كونه منثورًا فائدتان: إحداهما: الدلالة على أنهم غير معطلين، بل مبثوثون في خدمتهم وحوائجهم. والثانية: أن اللؤلؤ إذاكان منثورًا ولاسيما على بساط من ذهب وحرير كان أحسن لمنظره وأبهى من كونه مجموعًا في مكان واحد».

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ – و لكل من يصلح له .

و ﴿ثَمَّ﴾ ظرف مكان، أي: وإذا رأيت هناك في الجنة، أي: رمقت ما عليه أهل الجنة من النعيم الكامل من سعة دورها وقصورها ورياضها وكثرة أنهارها وخضرة بساتينها، وتنوع مأكولاتها ومشروباتها، وما فيها من الحور العين والخيرات الحسان، والغلمان والولدان، والفوز برضى الرحمن، والتمتع بخطابه والنظر إليه في تلك الجنان.

﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ أي: شاهدت نعيمًا عظيمًا وملكًا كبيرًا أعده الله لهم وإذا كان الله – عز جل – عظم هذا النعيم، ووصف هذا الملك بكونه كبيرا – فلا أحد يقدر عظمة ذلك وكبره، ولا يدرك وصفه وكنهه إلا العظيم سبحانه وتعالى.

فعن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه قال: قال النبي – ﷺ : «يقال لآخر أهل النار خروجًا منها وآخر أهل الجنة دخولاً فيها: اذهب فادخل الجنة فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها، أو إن لك مثل عشرة أمثال الدنيا.. »[(٢)]

وعن ابن عمر رضي الله عنهما – قال: قال رسول الله ﷺ : «إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر في ملكه مسيرة ألفي سنة ، ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه»[(٣)] .

وإذا كان هذا هو ملك أدنى أهل الجنة فما بالك بملك من هو أعلى منه فهو بلا شك أوسع وأعظم ـ نسأل الله تعالى من فضله.

﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وحمزة بإسكان الياء وكسر الهاء عالِيْهِم، وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الهاء (عاليَهُم).

وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف وأبو بكر عن عاصم: (خضرٍ) بالخفض صفة لـ﴿سُندُسٍ﴾ على إرادة الجنس، وقرأ الباقون بالرفع (خضرٌ) صفة لـ ﴿ثِيَابُ﴾ وهذا يوافق قوله تعالى: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا﴾ [الكهف: ٣١].

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٥/ ١٠٠.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٧١، ومسلم في الإيمان ١٨٦، والترمذي في صفة جهنم ٢٥٩٥، وابن ماجه في الزهد ٤٣٣٩.

(٣) أخرجه أحمد ٢/ ١٣.

﴿عَٰلِيَهُمۡ﴾ أي عالي أبدانهم يجلل ظواهرهم ويجملها ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ﴾ السندس هو رقيق الحرير والديباج ورفيعه ويكون مما يلي أبدانهم كالقمصان ونحوها لنعومته، كما قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣، فاطر: ٣٣].

﴿خضرٌ﴾ أي: لونها أخضر، وهو من أحسن الألوان وأجملها.

(وإستبرقٌ) قرأ ابن كثير ونافع وعاصم (وإستبرقٌ) بالرفع عطفًا على ﴿ثيابُ﴾ وقرأ الباقون بالخفض عطفًا على ﴿سُندُسٍ﴾.

والإستبرق: غليظ الحرير والديباج، مما فيه بريق ولمعان، وهو مما يلي الظاهر .

قال ابن القيم[(١)]: «وتأمل ما دلت عليه لفظة «عاليهم» من كون ذلك اللباس ظاهرًا بارزًا يجمل ظواهرهم ليس بمنزلة الشعار الباطن، بل الذي يلبس فوق الثياب للزينة والجمال».

﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ أي: ألبسوا في أيديهم أساور من فضة ذكورهم وإناثهم وهؤلاء هم الأبرار، وأما المقربون فكما قال: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ۝﴾ [الحج: ٢٣].

وفي الحديث: «في الجنة جنتان آنيتهما وما فيهما من ذهب للمقربين وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما لأصحاب اليمين»[(٢)].

قال ابن تيمية[(٣)]: «فإن قيل: فلم اقتصر من آنيتهم وحليهم على الفضة دون الذهب؟ ومعلوم أن الجنان جنتان من فضة آنيتهما وحليتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وحليتهما وما فيهما.

قيل سياق هذه الآيات إنما هو في وصف الأبرار ونعيمهم مفصلاً دون تفصيل جزاء المقربين، فإنه سبحانه إنما أشار إليه إشارة تنبه على ما سكت عنه وهو أن شراب الأبرار يمزج من شرابهم، فالسورة مسوقة بصفة الأبرار وجزائهم على التفصيل. وذلك - والله أعلم - لأنهم أعم من المقربين وأكثر منهم، ولهذا يخبر سبحانه عنهم بأنهم ثلة من الأولين وثلة من الآخرين، وعن المقربين السابقين بأنهم ثلة من الأولين وقليل من الآخرين. وأيضًا فإن في ذكر جزاء الأبرار تنبيهًا على أن جزاء المقربين مالا عين رأت ولا

---

(١) انظر « بدائع التفسير » ٥/ ٩٦.

(٢) سبق تخريجه في تفسير قوله تعالى: ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ [الرحمن : ٤٦].

(٣) انظر « دقائق التفسير » ٥/ ٢٤.

أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وأيضًا، فإنه سبحانه ذكر أهل الكفر وأهل الشكر، وأهل الشكر نوعان أبرار أهل يمين، ومقربون سابقون، وكل مقرب سابق فهو من الأبرار ولا ينعكس فاسم الأبرار والمقربين كاسم الإسلام والإيمان أحدهما أعم من الآخر.

وأيضًا: فإنه سبحانه أخبر أن هذا جزاء سعيهم المشكور، وكل من الأبرار والمقربين سعيهم مشكور، فذكر سبحانه السعي المشكور والسعي المسخوط».

﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ أي: وسقاهم ربهم شرابًا يطهر بواطنهم ويزينهم.

وأسند الفعل إلى الرب وأضاف ضميرهم إليه تكريمًا وتشريفًا لهم.

فجمل – عز وجل – ظواهرهم بالحرير والحلي، وجمل بواطنهم بالشراب الطهور الذي يطهرها من الحسد والحقد والغل وسائر الأخلاق السيئة والأدناس الحسية والمعنوية، ويتحول إلى ريح كريح المسك يخرج من أبدانهم.

عن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه – أنه قال: «إذا انتهى أهل الجنة إلى باب الجنة وجدوا هنالك عينين فكأنما ألهموا ذلك فشربوا من إحداهما، فأذهب الله ما في بطونهم من أذى ثم اغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم»[١].

﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ أي: يقال لهم هذا تكريمًا وتهنئة لهم وإنعامًا معنويًا عليهم.

والإشارة في قوله «إن هذا» إلى ما أعطاهم الله من الجنة وألوان النعيم فيها مما ذكره الله في قوله: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝﴾ إلى قوله: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۝﴾ وغير ذلك مما هم فيه من النعيم.

أي: إن هذا النعيم الذي أعطيتموه كان لكم مجازاة وإثابة على ما أسلفتموه من الأعمال الصالحة، فهي سبب الثواب العظيم – كما قال تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ۝﴾ [الحاقة: ٢٤].

﴿وَكَانَ سَعْيُكُم﴾ أي: وكان سعيكم في الدنيا، أي: عملكم ﴿مَّشْكُورًا﴾ أي: كان عملكم عملاً صالحًا تشكرون عليه، ويجازيكم الشكور سبحانه على العمل القليل منكم بالأجر العظيم والثواب الجسيم والنعيم المقيم.

فجمع الله ـ عز وجل ـ لهؤلاء الأبرار بين ألوان النعيم الحسي، والنعيم المعنوي بالتهنئة لهم كما قال تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ۝﴾ [الحاقة: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ۝﴾ [الأعراف: ٤٩]

---

(١) ذكره ابن كثير في « تفسيره » ٨/٣١٨.

وقول الملائكة لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ۝٧٣﴾ [الزمر: ٧٣]، وقوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ۝٢٤﴾ [الرعد: ٢٤].

ويقول أهل العلم: إن النعيم المعنوي لا يقل عن النعيم الحسي.

قال ابن القيم[1] «فجمع لهم سبحانه بين الأمرين: أن شكر سعيهم وأثابهم عليه، والله تعالى يشكر عبده إذا أحسن طاعته، ويغفر له إذا تاب عليه، فيجمع للعبد بين شكره لإحسانه ومغفرته لإساءته إنه غفور شكور».

الفوائد والعبر:

١ ـ الوعيد الشديد والتهديد الأكيد للكافرين بالسلاسل والأغلال والسعير.

٢ ـ الوعد والبشارة للأبرار بما أعد الله لهم من الوان النعيم ومن ذلك كأس الخمر الممزوجة بالكافور.

٣ ـ إثبات عبودية المقربين الخاصة لله ـ عز وجل ـ وأنهم يشربون من عين الكافور صرفاً ويفجرونها تفجيرا.

٤ ـ امتداح الله – عز وجل – للأبرار بذكر صفاتهم من الوفاء بالنذر وخوف يوم القيامة وشدائده وأهواله، وإطعام الطعام مع محبتهم له للمحتاجين من المساكين واليتامى والأسارى إخلاصًا لله – عز وجل – ، لا لطلب المجازاة منهم ولا الشكور. والترغيب في هذه الصفات.

٥ ـ وقاية الله – عز وجل – للأبرار شر يوم القيامة ومنحهم النضارة في وجوههم والسرور في قلوبهم ومجازاتهم بصبرهم جنة يسكنونها وحريرًا يلبسونه.

٦ ـ اكتمال سرور الأبرار وانبساطهم في مجالسهم في أجمل الأجواء وأعدلها، في جنان ظلالها دانية، وثمارها مذللة، يطاف عليهم فيها بطعامهم وشرابهم بآنية وأكواب مقدرة من فضة، ويسقون فيها كأس خمر ممزوجة بالزنجبيل من عين السلسبيل.

٧ ـ دوران الولدان المخلدين والخدم الذين هم كاللؤلؤ المنثور في الحسن والجمال على أهل الجنة بطعامهم وشرابهم وحوائجهم.

٨ ـ عظم نعيم الأبرار في الجنة وكبر ملكهم وسعته.

٩ ـ جمال مظهر الأبرار في الجنة ومخبرهم ولباسهم وحليتهم الظاهرة والباطنة فلباسهم الحرير وحليتهم أساور من فضة وشرابهم الطهور.

١٠ ـ الجمع للأبرار بين النعيم الحسي من السكن في الجنان وما فيها من الوان النعيم من المآكل والمشارب وغير ذلك وبين النعيم المعنوي للقلوب من التهنئة لهم بما أعد الله لهم، وأن هذا جزاء لهم على سعيهم وعملهم المشكور.

١١ ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة للأبرار، وشكره لهم، وهو الشكور سبحانه وتعالى.

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٥/١٠٢.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

قوله ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ بعد ما ذكر الله – عز وجل – ما أعده للمكذبين من السلاسل والأغلال والسعير، وما أعده للأبرار من ألوان النعيم امتن على رسوله – ﷺ – بما أنزله عليه من القرآن العظيم، الذي من تمسك به فاز بالنعيم المقيم، ومن أعرض عنه صار إلى العذاب الأليم.

ويؤخذ من قوله: (نزلنا) علو الله عز وجل على خلقه لأن الإنزال يكون من أعلى إلى أسفل كما يؤخذ مه أن القرآن منزل غير مخلوق – كما هو مذهب أهل السنة والجماعة.

وقوله: ﴿تَنْزِيلًا﴾ أي: مفرقًا في خلال ثلاث وعشرين سنة كما قال تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء: ١٠٦].

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي: فاصبر لحكم ربك وقضائه الكوني وما قدره من تكذيب قومك وأذيتهم لك وغير ذلك، واصبر لحكم ربك وقضائه الشرعي بتكليفك بتبليغ الرسالة والدعوة إلى الله – عز وجل – وامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

وفي عطف قوله ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ على قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ إشارة إلى أن القرآن الكريم والتأمل بما فيه من الدروس والمواعظ والعبر من أعظم ما يعين على الصبر. كما أن فيه إشارة إلى أنه سوف يناله أذى بسبب إبلاغ هذا القرآن ونشره بين الناس فليستعد لذلك.

﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ الآثم: الفاجر، كثير الإثم بجوارحه الظاهرة. و «أو» عاطفة، أي: لا تطع هذا ولا هذا. والكفور: هو الجحود بقلبه: أي: لا تطعهما، ولا تطع واحدًا منهما في مخالفة أمر الله ومعصيته.

قال ابن تيمية[1]: «ولما كان صبره عليه لا يتم إلا بمخالفته لمن دعاه إلى خلافه من

---

(١) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ٢٥.

كل آثم أو كفور، نهاه عن طاعة هذا وهذا، وأتى بحرف «أو» دون «الواو» ليدل على أنه منهي عن طاعة أيهما كان: إما هذا وإما هذا، فكأنه قيل له لا تطع أحدهما، وهو أعم في النهي من كونه منهيًا عن طاعتهما، فإنه لو قيل له: لا تطعهما، أو لا تطع آثمًا وكفورا لم يكن صريحًا في النهي عن طاعة كل منهما بمفرده».

﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ أي: اذكر اسم ربك ورب كل مخلوق، وخصه بقوله: ﴿رَبِّكَ﴾ مع أنه عز وجل رب كل مخلوق وذلك - والله أعلم - تذكيرًا له بنعمة الله عليه بربوبيته له الربوبية الخاصة، بل خاصة الخاصة باصطفائه للنبوة والرسالة، وتفضيله على الأنبياء وسائر الخلق.

أي: واذكر اسم ربك بإقامة الصلاة المفروضة وأداء النوافل والذكر والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، لأن ذكر الله أعظم معين على الصبر.

﴿بُكْرَةً﴾ أول النهار ﴿وَأَصِيلًا﴾ آخر النهار كما قال تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب: ٤٢]، وكقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾ [غافر: ٥٥]، وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾ [آل عمران: ٤١]، وقوله تعالى ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ [مريم: ١١]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الأنعام: ٥٢]، وقوله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الكهف: ٢٨].

وهذا يدل على فضل هذين الوقتين، وهما ينتظمان صلاة الفجر وصلاة العصر، كما قال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾ [ق: ٣٩] وهما البردان، قال ﷺ: «من صلى البردين دخل الجنة»[1] أي: صلاة الفجر وصلاة العصر.

وقال ﷺ: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا»[2].

وقال ﷺ: «لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها»[3] يعني

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ٥٧٤، ومسلم في المساجد ٦٣٥ - من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ٥٥٤، ومسلم في المساجد ٦٣٣ - من حديث جرير بن عبد الله - رضي الله عنه.
(٣) أخرجه مسلم في المساجد ٦٣٤، وأبو داود في الصلاة ٤٢٧، والنسائي في الصلاة ٤٧١ - من حديث عمارة بن رؤيبة عن أبيه - رضي الله عنه.

صلاة الفجر وصلاة العصر.

بل إن هذين الوقتين ينتظمان جميع أوقات الصلوات الخمس فبكرة صلاة الصبح، وأصيلاً بقية الصلوات.

وأيضًا فإن قوله: ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ قد يحمل على جميع الأوقات، أي: اذكر اسم ربك في جميع الأوقات. كما قال تعالى عن أهل الجنة ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[مريم: ٦٢] ورزق أهل الجنة لا ينقطع على الدوام.

وفي الأمر بذكر اسمه عز وجل بكرة وأصيلاً بعد الأمر بالصبر تنبيه على أن ذكر الله عز وجل وطاعته أكبر معين على الصبر.

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ﴾ أي: أكثر له من السجود والتسبيح، أي: أكثر من الصلاة له كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسراء: ٧٩].

وخص السجود والتسبيح بالذكر مع أن المراد الصلاة كلها، لأن السجود والتسبيح من أهم أركان وواجبات الصلاة.

﴿لَيْلًا طَوِيلًا﴾ هذا مقيد مبين في سورة المزمل بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾ [المزمل: ١- ٤]. وقوله: ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ﴾ [المزمل: ٢٠].

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: إن هؤلاء المكذبين ﴿يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ أي: يحبون الدنيا العاجلة الفانية ويعملون لها ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ﴾ أي: ويتركون أمامهم، كما في قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾ [الآية: ٧٩] أي: أمامهم.

﴿يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ أي يومًا سيصيرون إليه، ثقيلاً عظيماً، شديد هوله مستطير شره عسير على الكافرين غير يسير كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾ [القمر: ٨]، وقال تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾ [المدثر: ٩ ، ١٠].

لكنه خفيف يسير على المؤمنين كما قال ﷺ: « والذي نفسي بيده إنه ليخفف عن

المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا»[1]

وفي هذه الآية: ذم لمن أحبوا الدنيا العاجلة الفانية فانشغلوا بها عن العمل للدار الباقية تقديمًا لداعي الحس على داعي العقل، والناس في هذا بين مقل ومستكثر فينبغي الحذر من ذلك.

﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ أي: نحن أوجدناهم من العدم، ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ أي: قوينا وأحكمنا وحسنا وسوينا خلقهم كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧﴾ [الانفطار: ٧]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾ [الأعلى: ٢].

قال ابن تيمية: «ثم ذكر سبحانه خلقهم وإحكامه وإتقانه بما شد من أسرهم وهو ائتلاف الأعضاء والمفاصل والأوصال و ما بينها من الرباطات وشد بعضها ببعض، وحقيقته القوة فلا يكون ذلك إلا فيما له شد ورباط ومنه الإسار وهو الحبل الذي يشد به الأسير»[2].

﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ أي: إذا شئنا بدلنا أشباههم وصورهم، أو ذهبنا بهم وأتينا بقوم آخرين غيرهم، كما قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ۝١٣٣﴾ [النساء: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٩ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝٢٠﴾ [إبراهيم: ١٩، ٢٠، فاطر: ١٦، ١٧]، وقال تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦١﴾ [الواقعة: ٦٠، ٦١].

ويحتمل أن المعنى: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ ببعثهم يوم القيامة خلقًا جديدًا بأعيانهم وأمثالهم، أي: أن الذي خلقهم أول مرة قادر على إعادة خلقهم بعد الموت وبعثهم.

ولا مانع من حمل الآية على المعنيين.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾ أي: إن هذه السورة تذكرة وموعظة.

﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي: فمن شاء جعل إلى ربه طريقًا ومسلكًا موصلاً إليه فتذكر واتعظ واتبع هدى الله الذي أنزله وصراطه المستقيم المؤدي إليه، كما قال – عز وجل – ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٧٥ ـ من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه.

(٢) انظر «دقائق التفسير» ٥/ ٢٥.

ﭽﭐﻟْﺄُﻣُﻮﺭُ ﴿٥٣﴾ﭼ [الشورى: ٥٣]، وقال عز وجل: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾﴾ [المدثر: ٥٤ ، ٥٥]، وقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾﴾[عبس: ١١ ، ١٢].

وكقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾﴾ [النبأ: ٣٩].

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالغيب (وما يشاءون) وقرأ الباقون بالخطاب (وما تشاءون).

والمعنى: أن مشيئة الخلق تابعة لمشيئة الله – عز وجل – ومشيئته نافذة فيهم فما شاء كان ومالم يشأ لم يكن. أي: فلا يستطيع أحد أن يهدي نفسه، ولا يجلب لها نفعًا أو يدفع عنها ضرًا إلا أن يشاء الله ذلك.

والمراد بالمشيئة الإرادة الكونية، فإنه لا يقع في الكون أيّ حركة أو سكون إلا بمشيئته عز وجل وإرادته ـ وفي الآية إثبات المشيئة لله عز وجل وإثبات المشيئة للخلق، وأن مشيئتهم تبع لمشيئة الله عز وجل.

وفي إثبات المشيئة للخلق رد على الجبرية القائلين بأن الخلق مجبورون على أفعالهم، وفي كون مشيئتهم تبعاً لمشيئة الله ـ عز وجل ـ رد على المعتزلة والقدرية القائلين بأن العبد يخلق فعله وأنه قد يشاء مالا يشاؤه الله – تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرا.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [المدثر: ٥٦]، وقوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٩].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ أي: إن الله كان ذا العلم الواسع فيما خلق وقدر وشرع وفي غير ذلك، كما قال عز وجل: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: ٩٨] فعلمه عز وجل محيط بالأشياء كلها في أطوارها الثلاثة قبل الوجود، وبعد الوجود، وبعد العدم، يعلم ما كان وما يكون ومالم يكن لو كان كيف كان يكون، كما قال موسى عليه السلام – لما سئل القرون الأولى قال: ﴿عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ [طه: ٥٢].

﴿حَكِيمٗا﴾ أي: ذا الحكم التام بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي وذا الحكمة البالغة بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

ومن علمه عز وجل الواسع علمه بمن يستحق الهداية فييسر له أسبابها ومن يستحق الغواية فيصرفه عنها لما له في ذلك من الحكم التام والحكمة البالغة.

وكثيرًا ما يقرن عز وجل بين اسميه: «العليم» و «الحكيم» لأنه باجتماع العلم الواسع مع الحكم التام والحكمة البالغة يزداد كمالاً إلى كمال [1].

﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ﴾ أي: يوفق من يشاء فيدخله في رحمته - الخاصة بالمؤمنين كما قال عز وجل ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: ٤٣]. فيدخلهم في رحمته بالإيمان ويسكنهم برحمته فسيح الجنان.

﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا﴾ ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾: منصوب بإضمار فعل يفسره «أعد» ويقدر بأوعد ونحوه لأن «أعد» لا يتعدى باللام.

والظالمين: جمع ظالم. والظلم: النقص قال تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: ٣٣] أي: ولم تنقص منه شيئاً وهو أيضاً وضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان وأظلم الظلم الشرك - كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣].

أي: والظالمين الذين اختاروا الكفر على الإيمان والضلال على الهدى.

﴿أَعَدَّ لَهُمْ﴾ أي: هيأ وجهز لهم ﴿عَذَابًا أَلِيمًۢا﴾ أي: عذابًا مؤلمًا موجعًا حسًا ومعنىً.

أي: أنه - عز وجل - لم يوفقهم للهداية بل قدر عليهم الضلال والكفر وأعد لهم عذاب النار. كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ [الزمر: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

فيهدي من يشاء برحمته وفضله ويضل من يشاء بعدله ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣].

الفوائد والعبر:

١- امتنان الله - عز وجل - على الرسول ﷺ بإنزال القرآن الكريم عليه وتشريفه بذلك.

٢- إثبات علو الله - عز وجل - على خلقه لأن الإنزال يكون من أعلى إلى أسفل.

٣- أن القرآن الكريم منزل غير مخلوق. والرد على المعتزلة القائلين بخلق القرآن .

٤- نزول القرآن الكريم منجمًا في ثلاث وعشرين سنة حسب الوقائع والأحداث .

---

(١) راجع الكلام على قوله تعالى في سورة الحجرات: ﴿والله عليم حكيم﴾ [الآية: ٨].

٥- أمر الله – عز وجل – نبيه ﷺ – بالصبر لحكمه الشرعي بتكليفه بالرسالة والقيام بأمره ونهيه والصبر لحكمه القدري، وعلى أذى قومه وما يلاقيه من أذى في سبيل الدعوة، وفي هذا تثبيت له ﷺ وتقويةٌ لقلبه، ولأتباعه في الدعوة إلى الله أسوة به في هذا.

٦- نهي الله – عز وجل – لنبيه – ﷺ – عن طاعة المكذبين أهل الإثم والكفر، وهو نهي له ﷺ وللمؤمنين.

٧- أمر الله – عز وجل لرسوله – ﷺ – بذكره بصلاة الفرائض والنوافل وأنواع الذكر في أول النهار وآخره وفي جميع الأوقات وبقيام الليل، وهو أمر له – ﷺ – ولأمته.

٨- ذم الذين انشغلوا بالدنيا العاجلة الفانية عن الاستعداد ليوم القيامة الثقيل وما فيه من الأهوال العظام والفضائح الجسام.

٩- تذكير المكذبين والناس عامة بنعمة الله – تعالى – عليهم بخلقهم وتقويتهم.

١٠- إثبات قدرة الله – عز وجل – على تبديلهم بغيرهم أو إنشائهم خلقا آخر، لأن القادر على البداءة قادر على الإعادة من باب أولى وأحرى.

١١- أن هذه السورة تذكير وموعظة فيها بيان طريق الحق والأمر باتباعه وبيان طريق الشر والنهي عن سلوكه وبيان ما أعده الله من الجزاء لأتباع كل من الطريقين، وهكذا كل سور القرآن الكريم وآياته فيها الوعظ والتذكير بهذا.

١٢- أن الإنسان ليس مجبورًا على فعله بل له اختيار ومشيئة لقوله ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ وفي هذا رد على الجبرية.

١٣ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة لنبيه ﷺ ولعباده المؤمنين.

١٤- إثبات المشيئة التامة النافذة لله – عز وجل –، وأن مشيئة المخلوق تابعة لمشيئة الله – عز وجل – لقوله ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ وفي هذا رد على القدرية.

١٥- إثبات اسمين من أسماء الله – عز جل – وهما: "العليم" و"الحكيم".

١٦- إثبات العلم التام الواسع – لله – عز وجل.

١٧- إثبات الحكم التام النافذ لله – عز وجل – بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وإثبات الحكمة البالغة له – عز وجل: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

١٨- في اتصافه عز وجل بالعلم الواسع، والحكمة والحكم التامين اجتماع كمال إلى كمال وبلوغه – عز وجل – غاية الكمال.

١٩- الوعد للمؤمنين بإدخالهم رحمته وجنته، والوعيد للظالمين بالعذاب الأليم.

تفسير سورة المرسلات

عن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – قال: بينما نحن مع النبي – ﷺ – في غار بمنى، إذ نزلت عليه: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ فإنه ليتلوها، وإني لأتلقاها من فيه، وإن فاه لرطب بها، إذ وثبت علينا حية، فقال النبي ﷺ: «اقتلوها» فابتدرناها فذهبت، فقال النبي ﷺ: «وقيت شركم ووقيتم شرها»[1].

وعن ابن عباس – رضي الله عنهما: «أن أم الفضل – رضي الله عنها سمعته يقرأ: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١﴾ فقالت: يابني ذكرتني بقراءتك هذه السورة، إنها لآخر ما سمعت من رسول الله ﷺ يقرأ بها في المغرب»[2].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝١١ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ۝١٣ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۝١٤ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾.

قوله: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥﴾ الواو: حرف قسم وجر، «والمرسلات»: مقسم به مجرور. وكذا ما عطف عليه وهي: العاصفات والناشرات والفارقات والملقيات.

والمراد بالمرسلات والعاصفات والناشرات: الرياح.

فالمرسلات عرفًا هي الرياح – كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ [الحجر: ٢٢]. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٧].

ومعنى ﴿عُرْفًا﴾ يتبع بعضها بعضًا، شيئًا فشيئًا.

﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا﴾ هي الرياح ـ كما قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأنبياء: ٨١]، وقال تعالى: ﴿جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ [يونس: ٢٢].

---

(١) اخرجه البخاري في الحج ١٨٣٠، ومسلم في السلام ٢٢٣٤، والنسائي في مناسك الحج ٢٨٨٤.
(٢) اخرجه البخاري في الأذان – القراءة في المغرب ٧٦٣، ومسلم في الصلاة – القراءة في الصبح ٤٦٢، وأحمد ٦/٣٣٨.

ووصفت الرياح بكونها عاصفات لأنها تهب وتعصف، يقال: عصفت الريح إذا هبت بتصويت.

وعَطْفُ العاصفات بفاء التعقيب على المرسلات يدل على أنهما نوع واحد.

﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا﴾: هي الرياح تنشر السحاب في آفاق السماء - كما يشاء الله - عز وجل، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [الروم: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ [فاطر: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف:٥٧].

وقد قال بعض المفسرين: المراد بالمرسلات الملائكة والأظهر أن المراد بها الرياح ويؤيده عطف العاصفات والناشرات عليها. وكذا قيل المراد بالناشرات الملائكة تنشر كتب بني آدم أو تنشر أجنحتها في الجو عند صعودها ونزولها وغير ذلك وقيل: المراد بالناشرات الأمطار تنشر الأرض ، أي: تحييها.

والأظهر والله أعلم أن المراد بالمرسلات والعاصفات والناشرات: الرياح.

﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾.

المراد بالفارقات: الملائكة تنزل بأمر الله على الرسل الذي به التفريق بين الحق والباطل، والحلال والحرام.

﴿فَرْقًا﴾ أي: تفريقًا واضحًا لا لبس فيه، يميز الحق من الباطل والهدى من الضلال والحلال من الحرام. كما قال عز وجل في وصف الرسول ﷺ: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: بأمر الله الذي أنزله ﴿وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقيل المراد بالفارقات: الرياح تفرق السحاب ههنا وههنا. لكن عطف ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ عليه بفاء التعقيب يضعفه بل يأباه.

﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾: الملائكة تلقي إلى الرسل عليهم الصلاة والسلام الذكر وهو الوحي الذي أوحاه الله إليهم كما قال عز وجل ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٤﴾ [النحل: ٤٤]، وقال تعالى ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ۝٤٤﴾ [الزخرف: ٤٤].

﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ منصوبان على المفعول له و «أو» عاطفة، أي: لأجل الإعذار والإنذار.

ومعنى ﴿عُذْرًا﴾ أي: إقامة للحجة على الخلق - كما قال عز وجل: ﴿رُّسُلًا

﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

ومعنى ﴿نُذْرًا﴾ أي: تخويفًا وتحذيراً للخلق من عذاب الله – عز وجل – كما قال عز وجل ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [يس: ٧٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر: ٢٤].

فالله – عز وجل أرسل الرسل وأنزل الكتب للإعذار وإقامة الحجة على الخلق، ولإنذارهم وتحذيرهم من عذاب الله – عز وجل –، وتبشير من آمن منهم بما أعده الله للمؤمنين. كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [المائدة: ١٩].

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾ هذا هو المقسم عليه فأقسم الله – عز وجل – بهذه الخمس وهي: المرسلات والعاصفات والناشرات والفارقات والملقيات على أن ما يوعدون من البعث والحساب والجزاء لواقع، أي: كائن لا محالة متحتم وقوعه من غير شك ولا ارتياب.

أي: أقسم عز وجل بالرياح التي فيها حياة الأرض والنبات والأبدان وبالملائكة التي تنزل بأمر الله بالتفريق بين الحق والباطل وتلقي الذكر الذي به حياة القلوب على أن البعث حق.

﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ أقسم الله عز وجل – على أن البعث والقيامة حق ثم ذكر بعض أهوالها في هذه الآية وما بعدها.

وقوله ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ أي: ذُهب بها ومحي نورها وضوؤها – كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾﴾ [التكوير: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾﴾ [الانفطار: ٢] .

والمعنى: فإذا النجوم ذهب ضوؤها وحصلت هذه الأهوال والعلامات المذكورة وقع ما يوعدون .

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ﴾ أي: وإذا السماء المحبوكة الخلق التي لا فطور فيها شقت وفطرت كما قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾﴾ [الانفطار: ١]، وقال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ [الانشقاق: ١]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ [الفرقان:٢٥]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾﴾ [الرحمن: ٣٧]، وقال تعالى:

﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾﴾ [الحاقة: ١٦].

هكذا تكون حال السماء من عظيم هول ذلك اليوم وقد كانت محبوكة محفوظة لا فطور فيها - كما قال عز وجل ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبياء: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾﴾ [الذاريات: ٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾ [ق: ٦]، وقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الملك: ٣، ٤].

﴿وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ أي وإذا الجبال قلعت من أماكنها وألقيت واستوت مع الأرض، فلا يبقى لها عين ولا أثر، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧] أي : ظاهرة لا جبال فيها.

وقال تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾﴾ [الواقعة: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾﴾ [الحاقة: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [المزمل: ١٤].

﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ أي: جعل لهم وقت مؤجل لجمعهم وحان ذلك الوقت كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة:١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الزمر: ٦٩].

﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ الاستفهام للتعظيم والتفخيم والتهويل، أي: لأي يوم أجل جمعها ﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ أي: ليوم القيامة الذي يفصل الله فيه بين الرسل وأممهم وبين الحق والباطل وبين العباد في حقوقهم، ويحاسب كلاً منهم منفصلاً منفردًا كما قال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الدخان: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الحج: ١٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [السجدة: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾﴾ [النبأ: ١٧]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ

ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم: ٤٧ ، ٤٨].

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ توكيد وتعظيم وتفخيم وتهويل لأمره، أي: وما أعلمك ما يوم الفصل هو يوم ثقيل عظيم عسير إلا على من يسره الله – تعالى – عليه.

﴿وَيْلٌ﴾ كلمة تهديد ووعيد وهلاك ويقال: إنه واد في جهنم. عن معاوية بن حيدة عن أبيه ـ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك الناس، ويل له، ويل له»[1].

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: في ذلك اليوم يوم الفصل ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ للرسل وما جاؤوا به من الحق، أي: ويل لهم من عذاب الله ذلك اليوم ويا حسرتهم وشدة عذابهم وسوء منقلبهم.

وقد ذكر عز وجل هذا الوعيد والتهديد ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ عشر مرات في هذه السورة، بعدما أقسم على البعث والمعاد بالرياح والملائكة وذكر بعض أهوال يوم القيامة وعظمها واستدل عليه بالخلق الأول ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ وفي ذلك أبين دليل وأظهره على صحة ما أقسم عليه ولهذا كان المكذب به في غاية الجحود والعناد والكفر فاستحق الويل بعد الويل، فتضاعف عليه الويل، كما تضاعف منه الكفر والتكذيب.

الفوائد والعبر:

١- إقسام الله – عز وجل – بالرياح والملائكة على أن البعث والجزاء على الأعمال حق، ولله – عز وجل – أن يقسم بما شاء من مخلوقاته .

٢- كثرة فوائد الرياح، وعظمها، وفضل الملائكة وعظم أعمالهم.

٣- إقامة الحجة على الخلق والإعذار منهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

٤- التحذير من عذاب الله ـ عز وجل، ومن القيامة وأهوالها الشديدة ومنها انطماس النجوم وانفراج السماء ونسف الجبال.

٥- تحديد وقت لجمع الرسل وأممهم للفصل بينهم أجل ليوم الفصل العظيم الشديد يوم القيامة.

٦- الوعيد والتهديد للمكذبين في ذلك اليوم.

---

(١) اخرجه أبو داود في الأدب ـ التشديد في الكذب ٤٩٩٠، والترمذي في الزهد ٢٣١٦، وأحمد ٥/ ٥ ـ٦، ٧.

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

توعد الله المكذبين بالعذاب الأخروي يوم القيامة، ثم توعدهم بالعذاب الدنيوي بأن يوقع بهم ما أوقع بالمكذبين المجرمين قبلهم من الإهلاك في الدنيا.

قوله: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الهمزة للاستفهام ومعناه التقرير، أي: أما أهلكنا الأولين من المكذبين للرسل من الأمم الماضية بأنواع العقوبات في الدنيا - كما قال عز وجل: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٤٠].

﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ﴾ من أشباههم من المكذبين بعدهم.

﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾: أي: مثل هذا الإهلاك نفعل بالمجرمين، أي: نعاقبهم من الأولين والآخرين فبين عز وجل أن سنته السابقة واللاحقة إهلاك المجرمين ليعتبر اللاحق بالسابق.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ وعيد لهم بالعذاب يوم القيامة بالنار.

وقد يحمل على الوعيد بالعذاب الدنيوي بالإهلاك والعذاب الأخروي بالنار.

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ الاستفهام للتقرير، أي: أما أوجدناكم أيها الآدميون من ماء حقير ضعيف، وهو مني الرجل والمرأة كما قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾﴾ [الطارق: ٥ - ٧].

وعن بسر بن جحاش القرشي أن النبي ﷺ قال: «يقول الله - عز وجل: أنى تعجزني ابن آدم وقد خلقتك من مثل هذه»[1].

﴿فَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي: فجعلنا هذا الماء المتكون من ماء الرجل والمرأة ﴿فِى قَرَارٍ﴾ أي: في

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٢١٠، وابن ماجه في الوصايا - النهي عن الإمساك في الحياة والتبذير عند الموت ٢٧٠٧.

مكان استقرار تام، وهو الرحم به يستقر وينمو ﴿مَّكِينٍ﴾ متمكن في الرحم، حفيظ لما أودع فيه، في جو معتدل بعيد عن الحر والبرد.

﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي: إلى وقت مقدر معلوم ومدة معينة تسعة أشهر أو أكثر أو أقل، والغالب تسعة أشهر، وقد يولد لعارض لستة أشهر ويعيش، وقد يولد لأكثر من ذلك. وقد رُويَ أن الضحاك ولد لأربع سنين بعدما خرجت أسنانه الضواحك فسمي الضحاك.

﴿فَقَدَرْنَا﴾ قرأ نافع وأبو جعفر والكسائي بتشديد الدال (فقدَّرنا) وقرأ الباقون بتخفيفها.

أي: فقدرنا على ذلك الخلق وعلى تقديره وغيره.

﴿فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ امتداح من الله عز وجل – لنفسه – وهو أهل المدح والثناء سبحانه. أي: فنعم القادرون نحن على خلق ذلك وعلى خلق غيره وتقديره، وعلى إعادة الخلق بعد فنائه.

وفي هذه الآيات من قوله ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٢٠)﴾ إلى قوله ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣)﴾ تذكير للخلق بأصل خلقهم وامتنان عليهم وبيان قدرته عز وجل على إعادة خلقهم بعد فنائهم. ولهذا جاء بعده الوعيد بقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٢٤)﴾.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ الاستفهام للتقرير اي: أما جعلنا الأرض كفاتا، أي: كنّاً ووعاءً للخلق.

﴿أَحْيَاءً﴾ أي: حال حياتكم على ظهرها في الدور والقصور.

﴿وَأَمْوَاتًا﴾ بعد مماتكم في بطنها في القبور، فهم في حال حياتهم على ظهرها، وبعد مماتهم في بطنها فهي مسخرة لهم ومذللة حال حياتهم يسيرون عليها ويعمرونها ويسكنون فوقها ويزرعونها ويستخرجون من خيراتها، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۖ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥)﴾ [الملك: ١٥].

وهي ستر لهم بعد موتهم تدفن وتوارى في باطنها أجسادهم عن السباع والوحوش، ولئلا تتأذى بها البلاد والعباد.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ﴾ أي: وجعلنا في الأرض جبالاً ثابتات عاليات كبيرة عظيمة الارتفاع، هي لها بمثابة الأوتاد لئلا تميد بأهلها وتضطرب كما قال تعالى: ﴿وَالْجِبَالَ

أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ [النازعات: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾ [النبأ: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥، لقمان: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١].

﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ **أي: ماءً عذبًا زلالاً من نقع السحاب كما قال تعالى:** ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ **[الواقعة: ٦٨، ٦٩].**

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾ **[الفرقان: ٤٨، ٤٩].**

وقال تعالى: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ **[الفرقان: ٥٣]، وقال تعالى:** ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ **[فاطر: ١٢].**

وفيما ذكر الله عز وجل من قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾﴾ امتنان على الخلق بتسخير الأرض لهم وجعلها وعاء لهم في حياتهم وبعد مماتهم، وترسيتها بالجبال ليتمكنوا من العيش عليها، وفي إنزال المطر وسقيهم منه. وفي ذلك تذكير بعظيم قدرته - عز وجل - وتذكير لهم بوجوب شكره ولهذا قال بعده: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾ أي: ويل ذلك اليوم للمكذبين لرسل الله وكتبه الجاحدين لنعمه المنكرين لقدرته.

الفوائد والعبر:

١- الوعيد والتهديد للمجرمين المكذبين من المتأخرين بإهلاكهم كالمجرمين الأولين، وتقرير أن مصير الجميع الهلاك والعذاب في الدنيا والآخرة.

٢- تذكير الإنسان بأصل خلقه ونعمة الله عليه في ذلك، وأنه خلق من ضعف وحقارة، وانتقل من طور إلى طور حتى صار بشرًا سويًا.

٣- عظم قدرة الله عز وجل وعنايته بالإنسان وأطوار خلقه، وظهور أثر عنايته به وقدرته- عز وجل - في تقدير قراره في الرحم في بطن أمه.

٤- إثبات قدرة الله عز وجل، التامة على الخلق الأول، وعلى الخلق الثاني من باب أولى وأحرى.

٥- تذكير الخلق بنعمه عز وجل - عليهم وبدلائل قدرته حيث جعل الأرض لهم وعاءً حال حياتهم على ظهرها وفي بطنها بعد مماتهم، وأرساها بالجبال، وسقاهم ماءً فراتًا عذباً زلالاً.

٦- تأكيد الوعيد والتهديد للمكذبين.

﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله عز وجل فيما سبق من الآيات بعض علامات القيامة وتوعد المكذبين بالعذاب في ذلك اليوم ثم فصل ما توعدهم به من العذاب في هذه الآيات.

قوله: ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ أي يقال لهم: أي: للمكذبين بالبعث والجزاء على الأعمال والجنة والنار ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟﴾ أي: اذهبوا مسرعين إلى الذي كنتم به تكذبون، أي: إلى النار.

﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ أي: امضوا واذهبوا مسرعين إلى (ظل ذي ثلاث شعب) وهو ظل لهب ودخان النار إذا ارتفع وصعد، فمن شدته وقوته ينشعب ويتمايز إلى ثلاث شعب، أي: ثلاث قطع من النار، وهو الذي قال الله فيه ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾﴾ [الواقعة: ٤٣].

﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ أي: أن هذا الظل وهو ظل لهب النار والدخان ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ يظل من الحر ﴿وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ أي: ولا يدفع ولايقي من لهب النار لمن هو فيه - كما قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]، وقال تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [الأعراف: ٤١].

﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ إنها، أي: النار، تقذف بشرر عظيم يتطاير من لهبها ﴿كَٱلْقَصْرِ﴾ أي: كالبناء والقصور العظيمة.

وقيل المراد بالقصر:الغليظ العظيم من الخشب كأصول الخشب والنخل.

﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ قرأه حمزة والكسائي وخلف وحفص ﴿جِمَٰلَتٌ﴾ بغير ألف بعد اللام على الإفراد، وقرأ الباقون بالجمع (جمالات).

أي: كأنه الجمال السود التي تضرب إلى لون فيه صفرة مما يدل على شدة ظلمة النار ولهبها وجمرها وشررها وأنها سوداء.

وقال بعضهم المراد بقوله: ﴿جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾: حبال السفن.

ولما ذكر عظم النار وشدة أهوالها أتبع ذلك بالوعيد والتهديد فقال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ أي: لا يتكلمون - كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [النمل: ٨٥].

﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ أي: ولا يؤذن لهم بالاعتذار، فيعتذرون، لأنه لا عذر لهم في الحقيقة، بل قد قامت عليهم الحجة بإرسال الرسل وإنزال الكتب، كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، ولو اعتذروا لم ينفعهم ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الروم: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾[غافر: ٥٢].

ولا ينافي هذا ما جاء في بعض الآيات أنهم يتكلمون كما في قوله تعالى عنهم: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف: ٧٧].

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٦، ١٠٧].

وقوله ﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾ [ص: ٦٢ - ٦٤] إلى غير ذلك من الآيات.

وذلك أن عرصات القيامة حالات ومواقف ففي حالات ومواقف لا ينطقون وفي حالات ومواقف أخرى يتكلمون، وهكذا.

وبعد أن نفى نطقهم ذلك اليوم وعدم الإذن لهم ليعتذروا أكد الوعيد والتهديد لهم فقال ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ أي: يوم الفصل بين العباد ففريق في الجنة وفريق في السعير، والفصل بينهم في المظالم بإنصاف المظلوم من الظالم حتى إنه ليقتص للشاة الجلحاء من الشاة القرناء كما جاء في الحديث [1] ومحاسبة كل منهم منفصلاً منفردًا

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨٢، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٢٠، وأحمد ٢/ ٢٣٥ ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

﴿جَمَعۡنَٰكُمۡ﴾ الخطاب للمكذبين من هذه الأمة ﴿وَٱلۡأَوَّلِينَ﴾ المكذبين من الأمم السابقة، يجمعهم الله عز وجل يوم جمع الخلائق كلها في صعيد واحد.

﴿فَإِن كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ فَكِيدُونِ﴾ الكيد هو الحيلة والمكر بخفية، أي: إن كان لكم حيلة وطريق للتخلص من قبضتي وعذابي فافعلوا، وأنى لهم ذلك كما قال تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴿٣٣﴾﴾ [الرحمن: ٣٣].

فقوله ﴿فَإِن كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ فَكِيدُونِ﴾ مجرد تحدٍ وتهديد لهم، ولهذا أكد التهديد بعده بقوله ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ وإلا فهو - عز وجل - لا يكيده أحد بل يكيد الكائدين - كما قال عز وجل: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ﴿١٦﴾﴾ [الطارق: ١٥ ، ١٦]، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ﴾ [هود: ٥٧].

وقال ﷺ فيما يرويه عن ربه - عز وجل أنه قال: «يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني»[(١)]

الفوائد والعبر:

١- تبكيت المكذبين وتعذيبهم في النار حسياً ومعنوياً.

٢ ـ عظم عذاب النار وحر ظلها وشدة لهبها وكبر شررها.

٣- تأكيد وعيد المكذبين وتهديدهم.

٤- إلجام أفواه أهل النار فلا ينطقون وعدم الإذن لهم في الاعتذار فيعتذورن.

٥- جمع المكذبين من هذه الأمة وممن قبلهم وتحديهم بأن يخلصوا أنفسهم من عذاب الله وأنى لهم ذلك.

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٢٥٧ - من حديث أبي ذر - رضي الله عنه.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ (٤١) وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢) كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (٤٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٥) كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ (٤٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٧) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ (٤٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٩) فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ (٥٠)﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة ما أعده للمكذبين من ألوان العذاب، ثم ذكر ما أعده للمتقين من ألوان النعيم - على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب، ليجمع المؤمن في طريقه الي الله في هذه الحياة بين الخوف والرجاء

قوله ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: الذين اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

﴿فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾ أي: في ظلال الجنة وعيونها، التي ظلها ظليل، وعيونها التسنيم والسلسبيل.

قال تعالى ﴿لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا (٥٧)﴾ [النساء: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ﴾ [الرعد: ٣٥]، وقال تعالى ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ (٥٦)﴾ [يس: ٥٥ ، ٥٦].

وهذا بخلاف الذي أعد للمكذبين والذي وصفه الله بقوله ﴿لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ (٣١)﴾ وبقوله: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ (٤٣) لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (٤٤)﴾.

وبخلاف من قال الله فيهم ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ (٥)﴾ [الغاشية: ٤ ، ٥].

﴿وَفَوَٰكِهَ﴾ أي: وفواكه كثيرة مختلفة متنوعة﴿مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي: من الذي يشتهون، فما طلبوا وجدوا - كما قال تعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢)﴾ [الرحمن: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠)﴾ [الواقعة: ٢٠].

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا﴾ أي: يقال لهم تكريمًا لهم ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا﴾ والهنيء: اللذيذ الطعم، محمود العاقبة، من غير منغص ولا مكدر ، فليس فيه آفة من الآفات، ولا ينقطع ولا يزول.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: بسبب الذي كنتم تعملون، أو بسبب عملكم الصالح، لأن العمل سبب لدخول الجنة وليس بعوض عن دخول الجنة، وإنما دخولها برحمة أرحم

الراحمين - كما قال ﷺ «لن يُدْخِل أحدَكم عملُه الجنة. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»[١] .

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ إنا كذلك أي: كهذا الجزاء والتكريم العظيم نجزي الذين أحسنوا العمل، فجمعوا بين الإخلاص لله - عز وجل، ومتابعة الرسول - ﷺ، وأحسنوا في عبادة الله - عز وجل، وأحسنوا إلى عباد الله.

وفي قوله - عز وجل لهم ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۞ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ تكريم لهم ونعيم معنوي يخالط شَغاف قلوبهم لا يقل عماهم فيه من النعيم الحسي - نسأل الله - تعالى من فضله.

ثم أكد - عز وجل - وعيد المكذبين وتهديدهم فقال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾

﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا﴾ خطاب للمكذبين وتهديد لهم ووعيد، أي: كلوا وتمتعوا مدة قليلة وهي بقية أعماركم في هذه الدنيا الفانية - كما قال تعالى ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة: ٣٨].

﴿إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ أي:إنكم مرتكبون للجرائم من الكفر وأنواع الجرائم،أي: فليس لكم إلا هذا المتاع القليل الحقير في الدنيا ثم مصيركم إلى النار، ولهذا قال بعده ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ كما قال تعالى ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ أي: إذا قيل لهؤلاء المجرمين المكذبين صلوا مع المسلمين وأدوا أعظم العبادات وأشرفها وهي الصلاة أبوا وامتنعوا كفرًا وعنادًا واستكبارًا، ولهذا توعدهم فقال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: إذا لم يؤمنوا بالقرآن - كلام الله - عز وجل - فبأي كلام بعده يؤمنون - كما قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ [الجاثية: ٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦ ، ٩٧].

---

(١) أخرجه البخاري في المرضى ٥٦٧٣، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار ٢٨١٦ - من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

رُوِيَ عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه قال: «إذا قرأ: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١﴾ فقرأ ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ۝٥٠﴾ ؟ فليقل: آمنت بالله وبما أنزل»[1].

الفوائد والعبر:

١- جمع القرآن الكريم بين الوعد والوعيد والترغيب والترهيب.

٢- بيان ما أعده الله عز وجل - للمتقين المحسنين من ألوان وأنواع النعيم الحسي من الظلال والعيون والفواكه والمآكل والمشارب، ومن النعيم المعنوي للقلوب من التهنئة والترحيب بهم.

٣- الترغيب بتقوى الله - عز وجل - والإحسان في عبادته وإلى عباده.

٤- توبيخ المجرمين وتهديدهم ووعيدهم فهم وإن أكلوا ومتعوا قليلاً فمردهم إلى العذاب الشديد.

٥- امتناع المكذبين المجرمين من الصلاة والركوع والسجود لله - عز وجل وهذا من أعظم أسباب عذابهم كما في قوله تعالى ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝٤٣﴾ [المدثر: ٤٢، ٤٣].

٦-أن القرآن الكريم هو أفضل كتب الله - عز وجل - وأبلغها أثرًا في الدعوة إلى الإيمان، وأن من لم يؤمن بالقرآن فلا سبيل له إلى الإيمان.

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٣٢٥.

فهرس موضوعات المجلد الثاني

تفسير سورة المجادلة إلى نهاية تفسير سورة المرسلات

الموضـــوع الصفحة